





المشروع القومي للترجمة

تأليف : باتريشيا كرون

ترجمة : آمال محمد الروبى

مراجعة : محمد إبراهيم بكر

757

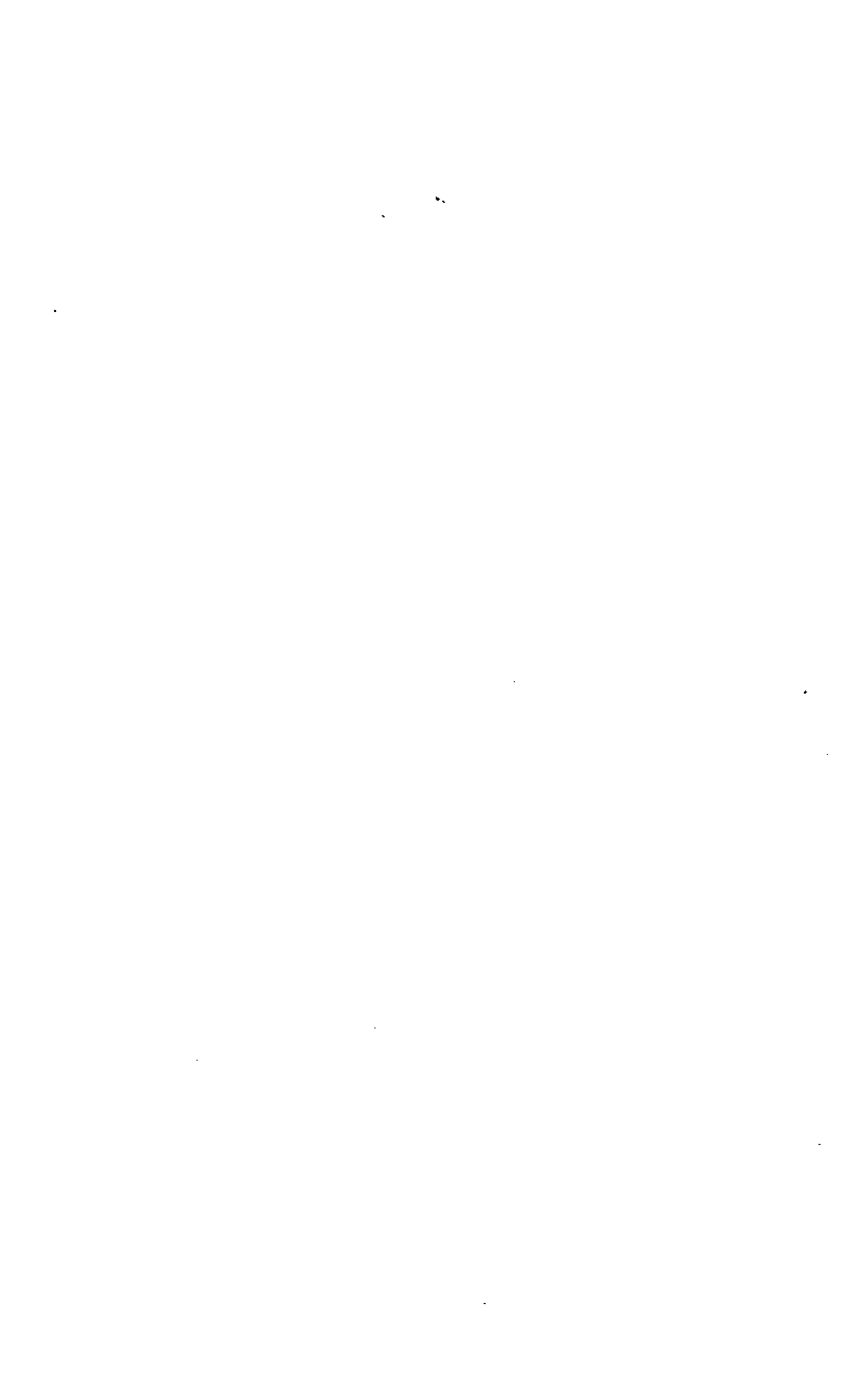
المشروع القومى للترجمة

تجارة مكة وظهور الإسلام

تـأليـــف : باتريشيا كرون
ترجمة ودراسة : آمال محمد الروبى
مراجعة وتقديم : محمد إبراهيم بكر



٢٠٠٥



المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٧٥٧
- تجارة مكة وظهور الإسلام
- باتريشيا كرون
- آمال محمد الروبى
- محمد إبراهيم بكر
- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

ترجمة كتاب :

Meccan Trade and the Rise of Islam

by

Patricia Crone

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 **Fax :** 7358084.

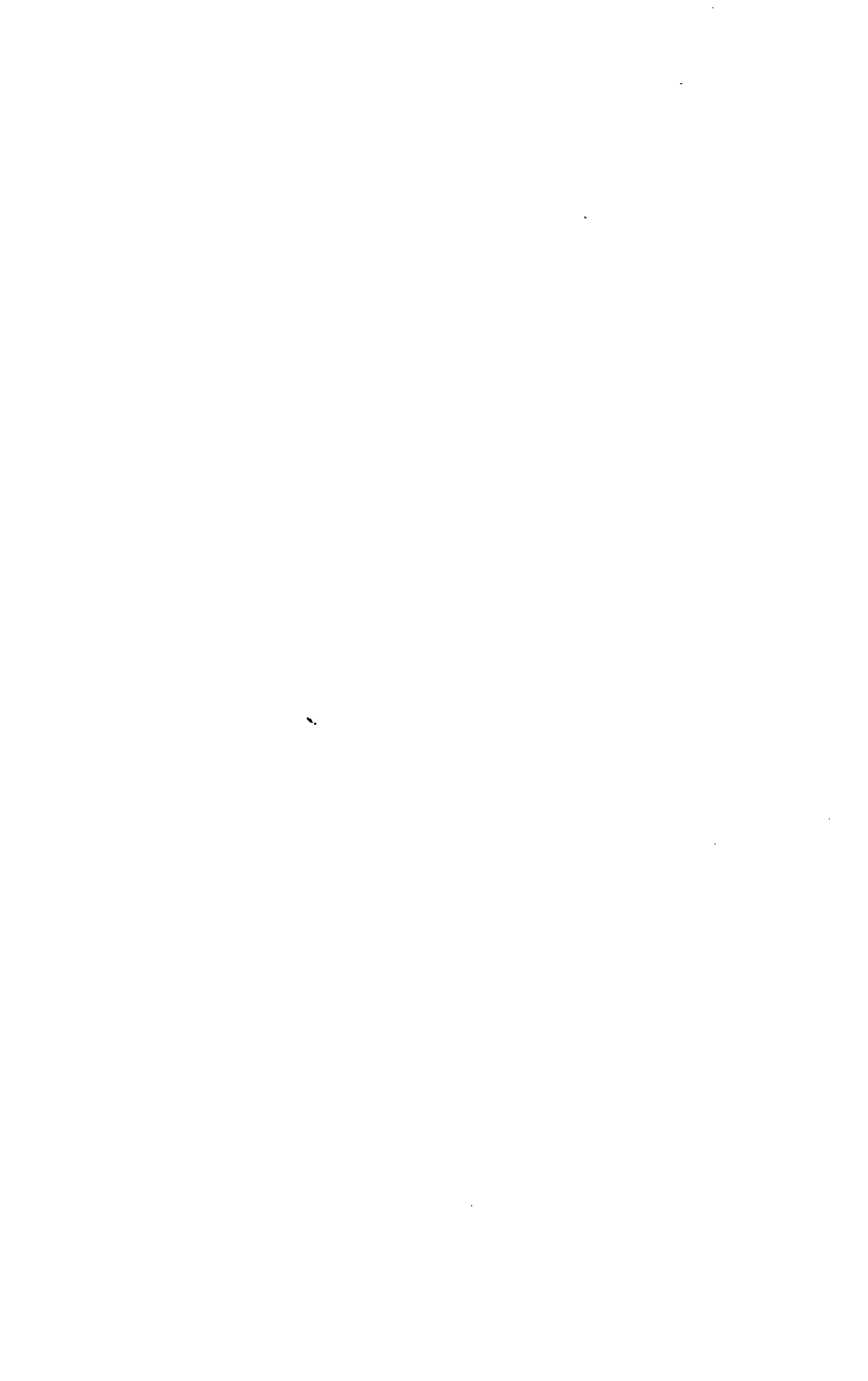
الفهرس

تقديم المراجع

تضع الدكتورة آمال الروبي بين أيدى قراء العربية والباحثين في التاريخ الإسلامي ترجمة أمينة لكتاب : « تجارة مكة وظهور الإســلام » Meccan Trade, and the Rise of Islam, Oxfard 1987 ، وكان مبررها لاختياره أنه كان قد انتشر بين الدارسين في جامعات الغرب مقرراً رئيسيًا في أقسام التاريخ ، كما أدركت المترجمة بحسها – بصفتها أستاذة في التاريخ القديم – أنه احتوى آراء مهمة في صميم تاريخ مكة المكرمة تحتاج منها إلى التعليق والتفنيد ؛ لكونها بَدَت بعيدة تمامًا عن الوقائع التاريخية والأثرية الموثقة والمستقرة ، علاوة على ازدرائها ببعض مفاهيم الإسلام . لذا قامت الأستاذة الدكتورة آمال الروبي بدأب وإصرار بالتعليق الوافي وبشكل موضوعي مستعينة بأدوات البحث العلمي الحديث المتعارف عليها ، والرد على كل ما حاولت المؤلفة باتريشيا كرون إثارته من غبار حول بعض الركائز المستقرة في التاريخ الإسلامي ، وتصدت المترجمة بعلمها الغزير بأسلوب علمي خالص ، مدافعة عن تاريخ الإسلام ضد ما ورد في هذا الكتاب من محاولات التشكيك في موقع مكة المكرمة الجغرافي ، وفيما ادعته من أن ظهور الدعوة الإسلامية كان في شمال الحجاز وليس في مكة كما هو معروف ، وتقليلها من دور مكة وقريش في التجارة العالمية قبل الإسلام؛ لكي يتسنى لها بالتالي أن تشكك في أساس الدعوة الإسلامية وانطلاقها من مكة ، بالإضافة إلى ادعائها بأن قريشًا ترتبط بشمال الحجاز وليس بمكة كما هو مؤكد تاريخيا ، ونفيها اتجاه الحجيج إلى مكة والبيت الحرام قبل الإسلام .

وأثبتت دكتورة آمال الروبي بمنهجها الواضح عقم محاولات المؤلفة وبُعْدَها عن جادة الصواب . ثم شرعت لاحقًا في إعداد الرد على ادعاءات الكتاب ضد الإسلام بإصرارها المعهود لتؤدى ضريبة العلم لخدمة الإسلام . تقبل الله منها .

محمد إبراهيم بكر



مقدمة المترجمة

فى البداية أود الإشارة إلى أن عنوان الكتاب أثار انتباهى، لأنه يدور حول مجال تخصصى، وفى إطار المحاضرات التى ألقيها على طالبات قسم التاريخ فى جامعة الملك عبد العزيز بجدة (المملكة العربية السعودية). واللافت للنظر أنه عندما تناولت الكتاب، وبدأت صفحاته تتوالى أمامى هالنى ما قرأته بين السطور ، واضحًا أحيانًا، وأحيانًا أخرى مختفيا وراء قناع زائف من البحث التاريخى العلمى، لا تخفى أغراضه على الباحث المدقق. لذلك ارتأيت القيام بترجمته والتعليق عليه ، خاصة أن الهدف منه ليس الإساءة إلى العرب والتهكم عليهم فحسب ، بل الإساءة إلى النبى الخاتم (ﷺ) والعقيدة الإسلامية، والتشكيك فى مصادر التاريخ الإسلامى، حتى لا يقع من يطّلع عليه فى الفخ الذى نُصِبَ له تحت عباءة البحث التاريخى. هذا على الرغم من أن الكتاب صدر عن جامعة أكسفورد **Oxford University** البريطانية العريقة وانتشر بين جامعاتها، ويكاد يكون كتابًا رئيسًا فى أيدى طلبة أقسام التاريخ فى الغرب .

ولدت باتريشيا كرون صاحبة هذا الكتاب فى الدانمارك، وفيها حصلت على تعليمها الأساسى، ثم انتقلت إلى بريطانيا، وأكملت دراستها الجامعية والعليا فى جامعة لندن التى حصلت منها على درجة الدكتوراه عام ١٩٧٤ من كلية الدراسات الشرقية والأفريقية **School of Oriental and African Studies London University** ، التى عملت فيها حتى عام١٩٧٧، ثم انتقلت للعمل فى جامعة كمبردج **Cambridge University** البريطانية التى قامت بالتدريس فيها حتى عام ١٩٩٧ثم فى أواخر العام نفسه انتقلت للعمل فى معهد الدراسات العليا **Institute for Advanced Studies** التابع لجامعة برنستون **Princeton** الأمريكية الشهيرة[(١)].

أما بالنسبة لمؤلفاتها فهى ستة يضاف إليها الكتاب الذى بين أيدينا (تجارة مكة وظهور الإسلام)، وهى عضوة فى مجلس إدارة خمس دوريات تاريخية، واشتركت مع آخر فى إصدار سلسلة دراسات النظم الاجتماعية[٢].

فى هذا الكتاب تطرح الباحثة أسئلة لا تخلو من الذكاء، ولكنها تجيب عليها بأجوبة مُضلِّلة، حيث عمدت فى كثير من الأحيان إلى التنسيق المنطقى والموثق لإثبات عكس ما هو ثابت. والمعروف أن أسهل طريقة لتمرير أى قضية غير منطقية ليبتلعها القارئ هو أن تبدأ العملية بافتراض، له من الخارج شكل منطقى ومقنع ، وجوهره فى الحقيقة باطل !! ثم من هذا الافتراض الباطل تنطلق الباحثة إلى مجموعة من النتائج لتجعل القضية التى تقدمها منطقية، مقبولة، والذكاء هو سرعة تمرير الافتراض الباطل بمهارة وخفة بحيث لا ينتبه القارئ إلى الباطل فى الافتراض. هنا يتم بسهولة استدراجه إلى باقى النتائج. هذه هى عادة يتبعها بعض الباحثين فى الدراسات التاريخية عندما يصرون سلفا على فكرة، ثم يبحثون لها عن أدلة تصاغ فى سياق يبدو مقنعاً .

يدور بحث كرون فى هذا الكتاب حول عدة محاور أساسية جاءت على النحو التالى :

أولاً : رفض ما هو ثابت جغرافيا وتاريخيا والادعاء بأن مكة لا تقع فى مكانها المعروف والمستقر، بل تحركها من مكانها على الخريطة، رافضة كل ما قدمه الكتاب الكلاسيكيون من الإغريق والرومان عنها فى العصور القديمة[٣].

ثانيًا : التشكيك فى رسالة النبى (ﷺ) والادعاء بأن دعوته ظهرت فى شمال الحجاز[٤] وليس فى مكة المكرمة ؛ لكى يتسنى لها ليس فقط هدم تجارة مكة العالمية، بل لتنفذ بذكاء إلى محاولة هدم أساس من أسس الدعوة الإسلامية، وهى انطلاقها فى بدايتها من مكة. وبالرغم من أنها فى بحثها الذى يبلغ مع ملاحقه ٢٩٩ صفحة من القطع المتوسط تحاول أن تضبط مشاعرها الخاصة، فإنها فلتت من بين يديها فى بعض المواقف[٥] ، وترتيبًا على ما تقدم فقد ادعت أن قريشًا ترتبط بشمال الحجاز وليس بمكة كما هو معروف ومؤكد[٦].

ثالثًا : التشكيك فى المصادر الإسلامية ، وإغفالها المتعمد ذكر المصادر الأساسية التى تناقض آراءها حتى لا تهدم فكرتها وتقوضها من الأساس. كما قامت بطرح نتائج لا تذكر لنا المصادر التى اعتمدت فيها عليها ، واتهمت المستشرقين الذين خالفوا آراءها مثل لامينز **Lammens** ومونتوجمرى وات **M.Watt** وغيرهما بأنهم وثقوا بالمصادر الإسلامية وأخذوها على علاتها[٧].

رابعًا : نفى اتجاه الحجيج إلى مكة وبيتها الحرام قبل الإسلام، والادعاء بأنهم كانوا يتجهون للأسواق الثلاثة القريبة منها وهى: عكاظ، وذو المجاز، ومجنة . بالإضافة إلى شرح مناسك الحج الجاهلى والإسلامى، وفى كليهما تغفل البداية والمنتهى: أى الطواف والتلبية ، وتقوم بعملية انتقاء وتنسيق بين المصادر لتعزز رأيها ، ولا تلقى بالاً إلى المصادر العديدة التى تهدم رأيها والتى ذكرناها فى البند السابق، مستثمرة فى ذلك جهل القارئ الغربى بمناسك الحج الإسلامى.

خامسًا : رفض الاعتراف بدور قريش فى تجارة الشرق العالمية، والإصرار على تهميش دورها وحصره فى النطاق المحلى ، هذا على الرغم من أنها اقتربت مرات عديدة من الاعتراف بتجارة قريش العالمية، ولكنها أحجمت عن ذلك فى كل مرة بعبارات غامضة دون تفسير لهذا الإحجام . ورفضها التام لتفسير المفسرين لسورة الإيلاف التى وردت فى القرآن الكريم والتى يؤكد بها المولى سبحانه وتعالى – وهو عز من قائل– دولية تجارة قريش قبل الإسلام، ناهيك عن الأخطاء التى وردت فى الإشارة إلى الآيات القرآنية[٨].

سادسًا : استخدام أسلوب السخرية والتهكم كوسيلة لإقناع القارئ حيث وصفت العرب "بالبرابرة"[٩]، والمسلمين بأنهم "وكر لصوص"[١٠]. وهذان الوصفان ربما ساعدا كرون على التنفيس عن مشاعرها التى حاولت إخفاءها، كما أنهما يظهران مدى تأثير عواطفها الشخصية فى إفساد تحليلها التاريخى[١١].

ولقد لجأت الباحثة فى تناول هذه المحاور سالفة الذكر إلى استخدام كل ألوان الضغط النفسى على القارئ عن طريق: الشد والجذب، والمراوغة، والتحايل ؛ لتختلط عليه

المعانى ، وتتبعثر أمامه الحقائق ؛ حتى يسلس تطويعه للموافقة على آرائها التى تغير فيها من الثوابت. ثم قامت بتغطية كل هذه المغالطات بمظلة من البحث التاريخى العلمي دون أن تكشف - إلا فى مرات قليلة - عن الهدف الذى تسعى جاهدة فى الوصول إليه .

إن هذه المغالطات التى قدمتها الباحثة فى كتابها جزء من كل، ويتضمن التعليق عليها المزيد منها . وربما يتساءل البعض: إذا كان كتابها يضم هذا الكم الهائل من الأخطاء والمغالطات فلماذا بذلت الجُهد والوقت فى ترجمته ؟! والإجابة على هذا السؤال المنطقى تنحصر فى أمرين :

أولاً : إن الكتاب لا يخلو من فائدة ، تكمن فى اهتمام كرون بكثير من التفاصيل الخاصة بتجارة الشرق ومفرداتها ، حيث إنها تملك جيداً أدوات بحثها، ومن ثم تمكنت من الغوص فى تلك المصادر، ولقد قمنا بتنبيه القارئ فى التعليق إلى الشراك التى نصبتها له.

ثانيًا : القيام بالرد على الكاتبة، تمهيداً لنشر التعليق عليها باللغة الإنجليزية بحول الله، وعرضه فى نافذة خاصة على شبكة الإنترنت. وكذلك تقديم أنموذج للقارئ العربى لبعض الأبحاث التاريخية المغرضة التى تجذب أولئك الذين يقعون فى دائرة الانبهار بالفكر الغربى، بل الانزلاق والوقوع فى شراكه، ومن ثم يتحولون دون وعى بُوقًا لهذه الآراء . فليس ثمة خطأٌ فى أن يقرأ المؤرخون والمثقفون وأن ينهلوا من المدارس التاريخية المختلفة، بل إنه أمر لابد منه ، ولكن شريطة أن يعينهم ذلك على البحث التاريخى العميق والمتأنى فى مصادرنا التاريخية ؛ حتى يتمكنوا من رسم صورة واضحة المعالم لماضينا، دقيقة، وعميقة، وموثقة فى عالم اليوم الذى يهدف فيه بعض المغرضين فى الغرب إلى طمس هويتنا الإسلامية العربية تحت مظلة العولمة والذوبان فى بوتقة الحضارة المادية الجارفة، ناهيك عن عملية الاستنزاف العقلى والتحديث المظهرى .

ومن ثم ينبغى أن نفتح عيوننا جيداً ؛ لنرى ما يقوم به الذين يحاولون العبث بتاريخنا، وحتى لا تفقدنا الأضواءُ المبهرة حول اسم مؤرخ، أو مؤسسةٍ، أو جامعة ،

القدرة على الرؤية. إن مسئوليتنا - نحن المؤرخين - أن نحافظ على تاريخنا، وأن نقوم بتنقيته من الشوائب العالقة به ؛ لأنه يمثل مع لغتنا أهمَّ ركائز هُويتنا. لقد اشتدت علينا العواصف، وتكاثفت السحب، وبدأت الأعاصير والأنواء تهب علينا من كل جانب.

إن علينا - نحن المؤرخين - أن نحاول قدر استطاعتنا أن لا نحصر أبحاثنا فى الرد عليهم فى النطاق المحلى، بل من الضرورى أن نعمل على ترجمتها ونشرها، وإذا تعذر ذلك على المستوى الشخصى، فلتكن لدينا هيئة متخصصة لترجمة الأبحاث التاريخية الرصينة إلى اللغات العالمية ونشرها فى جميع وسائل النشر المعروفة مهما تطلَّب ذلك من جهد ومال؛ حتى يدرك الغرب أننا نحن العرب نملك زخما حضاريا وإنسانيا عريضاً، وأننا شعبٌ يقرأ ويحلل ويمكنه الرد على المغالطات بالحجة والبرهان بحوار راقٍ وفكر سوىٍّ. إن أجراس الإنذار تدق بشدة، ولكننا للأسف لا ننتبه إليها غالبا ونستهين بها أحيانا .

كما أود أن أنبه قارئ الكتاب فى لغته الإنجليزية إلى عدة ملاحظات يمكن حصرها فيما يلى :

أولاً : بالرغم من أن كرون تجيد اللغة العربية فإنها عند قيامها بنقل الكلمات العربية إلى الحروف اللاتينية تنقلها بطريقة متقطعة بحيث تدخل حروف كلمة مع حروف كلمة أخرى مما يُحدث تغييراً فى المعنى.

ثانيًا : الخلط بين حرفى b و h بحيث يحدث تغيير كبير فى المبنى والمعنى خصوصاً لمن لا يعرف اللغة العربية بدرجة جيدة .

ثالثًا : تعدد الأخطاء فى الإشارة إلى السور والآيات القرآنية بدرجة واضحة وملحوظة(*) .

(*) راجع على سبيل المثال : ص٢٩٢ حاشية (١٦) ، (١٧) . وص٢٤٢ حاشية ٣٥ و ص٢٦٣ حاشية ٢٧ . وص ٢٦٤ حاشية ٣١ . وص ٢٧٣ حاشية ٧٣ . وص ٣٢٢ حاشية رقم (٢١) . وص٣٢٥ الحاشية المذكورة أدناه ، حاشية رقم ٦٠ .

رابعًا : التشكيك فى المصادر الإسلامية وتقزيمها والإشارة الدائمة إليها باصطلاح آداب أو أدب أو مصادر الأدب الثانوى .

خامسًا : محاولتها التشكيك فى تاريخ معركة بدر الكبرى التى وقعت أحداثها فى شهر رمضان فى العام الثانى للهجرة بخلط الحقائق بين معارك بدر الثلاث ، فى محاولة منها لإحكام قبضتها على عقل القارئ بحيث يصبح مرهونا بإشارتها والتى تتلخص فى تكذيب المصادر الإسلامية جميعها عن تاريخ معركة بدر، ولكن الله سبحانه وفقنا فى كشف هذا التزييف .

وأود أن أشير لقارئ الترجمة العربية إلى أننى حرصت على الالتزام الدقيق بالنص الأصلى، وقمت بوضع تعليقاتى أسفل المتن. أما حواشى الكتاب الأصلى فقد أوردتها فى ختام كل فصل. كذلك يلاحظ القارئ أن الملاحق الثلاثة (الخاصة بالقرفة فى المصادر القديمة، وقصب الطيب والصبار) قد قمت بترجمتها بنفس الطريقة التى وردت بها فى المتن الأصلى.

ولعل من المفيد أن أقدم للقارئ أنموذجا لمحور واحد من المحاور الرئيسية التى سبق ذكرها. أما بقية المحاور فقد قمت بالتعليق المفصل عليها فى المتن والرد عليها فى جميع ادعاءاتها.

ففى مسألة الحج فى مكة قبل الإسلام تنفى الباحثة قيام الحج فى مكة المكرمة قبل الإسلام، وترى أنه كان يتم إلى الأسواق الثلاثة القريبة منها وهى عكاظ: وذو المجاز ومِجَنَّة، ثم تقوم بشرح مناسك الحج، ولكنها تغفل منها البداية والمنتهى: أى الطواف والتلبية، وتقوم بعملية تنسيق بين المصادر لتعزز رأيها، ولا تلقى بالا إلى المصادر العديدة التى تؤكد على عكس ما رأت وفى هذا تقول : « إن الحجاج كانوا يقومون بعد زيارة عكاظ وذى المجاز ومِجَنَّة بزيارة عرفة ومنى، ولكن هل كانوا يتبعون ذلك بزيارة مكة أيضًا؟ لقد رفض فيلهوزن Wellhausen هذا الرأى على أساس أن مناسك حج المسلمين ما زالت تؤدى أغلب مراحلها خارج مكة ، وهذه الفكرة من الصعب إنكارها. حقيقة إن الحج يبدأ من مكة ، ولكن بدايته الرسمية تبدأ من عرفة ثم تنتهى فى مكة،

أما نهايته الحقيقية فهي في منى التي يتم تقديم الأضاحي فيها، وفيها يقوم الرجال بحلق شعورهم ولحاهم أي ينهون فيها حالة الإحرام »[١٢].

ثم تواصل كرون مناقشة هذه القضية المحورية بقولها: « إن الهياكل الخمسة خارج مكة كانت تكون مجموعة طبيعية[١٣] ، ولكن مكة هي المدينة التي يقيم فيها السكان بصفة دائمة، والتي يوجد فيها البيت الحرام المزود بالحراس. وكان بيتها المقدس يقف على قدم المساواة مع عبادة هُبل في الطائف، والعُزَّى في مِجَنَّة والتي لم تكن مجرد هياكل مقدسة في الصحراء. والحج عبارة عن أداء شعائر تقام في الأماكن والأوقات التي يضع فيه كل فرد سلاحه في الأشهر الحرم التي لم يكن الحجيج يخضع فيها لسيطرة أي فرد، مما يعني أن الهيكل المقدس الذي يقع تحت سيطرة قبيلة معينة، كان لا يدخل في إطار هذه التركيبة.. فالرواية (الإسلامية) كانت حريصة على فصل كل من عرفة ومنى عن باقي المقدسات الصحراوية، وبدلا من ذلك ألحقتها بمكة.. وإذا كانت كل من عرفة ومنى تعد محطات لمكة قبل الإسلام، فإن الرواية - الإسلامية - لم تكن في حاجة ماسة لحلقة ربط مصطنعة من هذا النوع »[١٤] .

ثم تدعي بعد ذلك أنها لم تستطع العثور على أي دليل خاص بالحج إلى مكة قبل الإسلام ! وتختم مناقشتها للموضوع بالموافقة على رأي فيلهوزن بأن مكة لم تكن موضعًا للحج قبل الإسلام، ويترتب على ذلك في رأيها أنها لم تكن سوقًا للحج[١٥]. أما مواسم الحج فهي الأوقات التي كانوا يقيمون فيها أسواقهم أي التي يتاجرون فيها، .. لقد كانت أسواق الحج هي أسواق مكة ، بينما لم تكن مكة نفسها سوقًا، فعكاظ وذو المجاز ومِجَنَّة كانت هي أسواق قريش والعرب[١٦].

ويمكن تفنيد هذه الآراء والرد عليها على النحو التالي:

أولاً : إنها تخطئ خطأ جسيمًا بادعائها أن الحج الإسلامي ينتهي بالتحلل من الإحرام وذبح الهدي في منى ؛ لأن اكتمال شعائره لا تتأتى إلا إذا كانت مكة هي البداية والمنتهى، أي الطواف بالبيت في البداية وفي النهاية. إضافة إلى التلبية، مما يوحي بأنها تستغل وتستثمر عدم معرفة القارئ الأجنبي بتفاصيل شعائر الحج الإسلامي - الذي يمثل أحد أركان العقيدة الإسلامية - لبَثِّ ادعاءاتها.

ثانيًا : إن المصادر الإسلامية التى تشير إلى ارتباط الحج الجاهلى بمكة كثيرة، فهى على سبيل المثال لا الحصر على النحو التالى: ذكر الكلبى " أن العرب بعد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كانوا يعظمون الكعبة ومكة ، ويحجون ويعتمرون على إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام "[١٧] ، ويشير الأزرقى عند حديثه عن حفر بئر زمزم أن عبد المطلب "حفر زمزم فعفت على آبار مكة كلها، وكان منها مشربُ الحاج"[١٨]، ثم يضيف الأزرقى مؤكدا على أن الحاج الجاهلى كان يقصد مكة قائلاً :" وكانت الحلة تطوف بالبيت أول ما يطوف الرجل والمرأة فى أول حجة يحجها عراة "[١٩] ، ثم يعود فيقول " أما السقاية فلم تزل بيد عبد مناف، فكان يسقى الماء من بئر كرم آدم وبئر خُم على الإبل فى المُزاد والقرب، ثم يسكب ذلك الماء فى حياض من أدم بفناء الكعبة فيرده الحاج حتى يتفرقوا "[٢٠] ، ويتحدث ابن هشام عن العرب فى الجاهلية قائلا : "واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره، فعبدوا الأوثان، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم من الضلالات، وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم يتمسكون بها، من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة، والوقوف على عرفة والمزدلفة ، وهدى البدُن ، والإهلال بالحج والعمرة، مع إدخالهم فيه ما ليس منه[٢١]" ، ويقدم لنا ابن هشام سويد ابن الصامت الذى أسلم ، وكان هو الآخر قادما إلى مكة حاجا ومعتمراً[٢٢].

أما النص الذى نقلته عن الثعالبى والذى تذكر فيه عنه "أن قريشا كانت لا تتاجر إلا مع من ورد عليها (مكاتا) فى المواسم وبذى المجاز وسوق عكاظ وفى الأشهر الحرم"[٢٣]، وهو النص الذى نقلته كرون إلى الحروف اللاتينية على النحو التالى :

"Kanat Guraysh la tutajiru illa ma'a man Warada alayha Makkata Fi-l- maw-asim Wa-bi-Dhi L-Majaz Wa- Suq Ukaz Wa- Fi- ashhur al- hurum".

فهى تذكر أن المواسم تعنى الأشهر الحرم ولا خلاف معها فى هذا، ثم تذكر بعد ذلك : " وكان الناس يأتون فقط فى الأشهر الحرم إلى ذى المجاز وعكاظ، أما حرف الواو "Wa" الأول والأخير فهو لا يعنى واو العطف (and) ولكنه يعنى "وتلك هى" "That is" ، فهى بعد أن تقصر المواسم على الأسواق وتغفل مكة منها تعود وتقول أن ترجمة الفقرة

السابقة ينبغي أن تكون على النحو التالي : " اعتادت قريش أن تتاجر فقط مع أولئك الذين يحضرون إلى مكة في موسم الحج، وتلك هي الممثلة في ذي المجاز وسوق عكاظ في الأشهر الحرم"(٢٤). فهي هنا رغما عنها اعترفت بقيام حج في مكة، ولكنها مرت على هذا الاعتراف سريعاً، ولم تتوقف عنده لمناقشته على الرغم من إجراء التعديل في حروف العطف وإضافة كلمة "والممثلة" لتغيير ما يفهم صراحة من النص، ولكن حتى هذا التعديل – الذي لا يجوز – جاء لغير ما ارتأت. وفوق كل ما تقدم فإن كلمة «مكاتا» Makkata التي أوردتها بالحروف اللاتينية "خطأ" لا وجود لها في النص العربي الذي يوجد فيه كلمة "مكة" بدلا من "مكاتا" مما يؤكد إصرارها على تخريب النص.

أما النص الصريح والكامل الذي رجعنا إليه في الثعالبي(٢٥) فهو لا يحتاج إلى ما قامت به من تعديل فهو على النحو التالي : "كانت قريش لا تتاجر إلا مع من ورد عليها (مكة) في المواسم وبذي المجاز وسوق عكاظ وفي(٢٦) الأشهر الحرم لا تبرح دارها ، ولا تجاوز حرمها، للتحمس في دينهم ، والحبُ لحرمهم، والإلف لبيتهم، ولقيامهم لجميع من دخل مكة بما يصلحهم ".

إن النص واضح وصريح حيث يذكر فيه الثعالبي أن قريشًا كانت تتاجر مع من ورد على مكة من العرب الذين يأتون في المواسم في أسواق ذي المجاز وعكاظ في خلال فترة الأشهر الحرم، وخلال هذه الفترة كانت قريش لا تغادر مكة للتحمس في دينهم وتقديس حرمهم، حيث كانوا يقدمون لجميع من دخل مكة كل الخدمات التي كانوا في حاجة إليها من رفادة وسقاية . والنص ليس في حاجة إلى تغيير في المعنى ، وهو ما قامت به بالفعل مخالفة بذلك أسس البحث التاريخي العلمي ومنهجه، كما أنها أوردت جزءاً من النص فقط دون بقيته، وفوق كل ما تقدم ربط الله سبحانه وتعالى بين الحج ومكة في سورة التوبة ، وقال وهو عز من قائل : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾(٢٧).

وهكذا نرى أن الحج ارتبط بمكة ، وكانت الإجازة به تتوارثها بعض الأسر فيها، نعرف منها من بني مُرٍّ، الغوث بن مُرٍّ وأولاده من بعده، وخلفهم شخص آخر يدعى

صفوان وأبناؤه من بعده[٢٨] . أما الإفاضة من مزدلفة فكانت فى عدوان التى توارثوها كابراً عن كابر[٢٩] . ويذكر ابن حبيب أن العرب كانوا "يحجون البيت ويعتمرون، ويطوفون بالبيت أسبوعا، ويمسحون الحجر الأسود ويسعون بين الصفا والمروة .. وكانوا يلبون إلا أن بعضهم كان يُشرِك فى تلبيته"[٣٠]. ثم يضيف إلى ذلك قائلا : "وكانت العرب تقف بعرفات . ويُدفعون منها والشمس حية ، فيأتون مزدلفة . وكانت قريش لا تخرج من مُزدلفة ولا تقف بعرفات. يقولون : لا نعظم من الحل ما نعظم من الحرم . فبنى قصى (بن كلاب) المشعر فكان يسرج عليه ليهتدى به أهل عرفات إذا أتوا مزدلفة ... وكانوا يهدون الهدايا ويرمون الجمار"[٣١]، وبعد أن يقضى الحجيج ليلتهم فى مزدلفة ، ينتقلون مع شروق الشمس ليذهبوا إلى منى التى تقع على بعد حوالى ثلاثة أميال من مكة ويظل الحاج مقيما فيها ثلاث ليال من اليوم العاشر حتى اليوم الثانى عشر أو الثالث عشر ، ويقوم فيها برمى الجمار، وبإتمام باقى المناسك من الرجم والتضحية وقص الشعر ثم يدخلون مكة بعد ذلك للقيام بطواف الإفاضة .

وقد نظم قصى بن كلاب الرفادة وفرض أموالاً على قريش تخرجها كل عام يدفعها الفرد فيهم كلٌ على قدر طاقته، وخصص دخلها لإطعام الحجيج فى منى[٣٢]. كما ارتبطت السدانة والسقاية بالحرم والحجيج الذى كان يفد لتأدية شعائر الحج[٣٣]، الذى تبدأ أولى مناسكه وآخرها بالطواف حول الكعبة[٣٤].

ثالثًا : أما الحُجة الثالثة التى استندت إليها كرون والتى استخدمتها لنفى قيام حج فى مكة قبل الإسلام وأن المقصود به هو مواسم العرب فى عكاظ وذى المجاز ومِجَنَّة فهى أن الرسول (ﷺ) قام فى بداية دعوته بزيارتها للدعوة إلى الإسلام ، وأخذت من هذا الحديث ذريعة لتأكيد تشكيكها[٣٥]، والسبب البديهى لما قام به صلوات الله عليه وسلامه يرجع لمحاولته الخروج من دائرة اضطهاد قريش له ، وحتى يتمكن من توسيع نطاق نشر دعوته بين أكبر عدد ممكن من القبائل العربية التى تتقاطر على المواسم، والتى تعد بمثابة تجمع عام لقبائل الجزيرة العربية بعاداتهم وثقافاتهم ؛ لأنه ليس بالضرورة ولا المفترض أن كلٌ من كان يأتى إلى المواسم تاجرا كان يحضر إلى

مكة لتأدية شعائر الحج فيها. لذلك فضّــل الرسولُ (ﷺ) الذهاب إليهم فى مضاربهم لنشر دعوته بينهم[٣٦].

رابعًا : إن أحد الأسـانيد التى تستند إليها كرون فى ادعائها بعدم قيام حج بمكة أن الحجيج كان يتجه إلى الأسواق الثلاثة المذكورة سابقا وهم فى حالة إحرام ، ويعزز هذا القول بأننا وجدنا قريشاً على هذه الحالة فى عكاظ عندما نشبت حرب الفجار التى كان (بَرّاض) السبب فى إشعالها[٣٧]، وقد أكد ابن حبيب – مقولة : "قريش لم تذهب إلى ذى المجاز إلا وهى محرمة "[٣٨].

ونحن لا نجد أية غرابة فى ملابس الإحرام التى كانت تضعها قريش عند زيارتها للمواسم التى تقع على مقربة منها، ويرجع ذلك إلى تعظيمها للأشهر الحرم فقد كانت قريش والعرب "يعظمون أن يأتوا شيئًا من المحارم أو يعتدى بعضهم على بعض فى الأشهر الحُرم وفى الحَرم"[٣٩]، الذى شرُفت قريش بخدمته والوقوف عليه ، وفى الوقت نفسه كانت قريش تتأهب لتأدية الحج الذى احتفظوا مع العرب بمناسكه منذ أن رفع إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام القواعد من البيت، على الرغم من الشعائر الوثنية التى أدخلوها على ديانة إبراهيم عليه السلام. وبعد أن ابتدعت قريش الحُمس، أضافت إليه أمورًا تؤكد فيها تمسكها بحرمة البيت وتعظيم الحجيج وقالوا :" لا ينبغى لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل إلى الحرم، إذا جاءوا حجاجًا أو عُمّارًا، ولا يطوفون بالبيت إذا قدموا أوّل طوافهم إلا فى ثياب الحُمس ، فإذا لم يجدوا منها شيئًا طافوا بالبيت عراة، فإن تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة، ولم يجد ثياب الحُمس فطاف فى ثيابه التى جاء بها من الحِلِّ ألقاها إذا فرغ من طوافه، ثم لم ينتفع، ولم يمسّسها هو ولا أحد غيره أبداً .. فكانت العرب تسمى تلك الثياب اللُقى. فحملوا العرب على ذلك ، فدانت به العرب، ووقفوا على عرفات وأفاضوا منها، وطافوا بالبيت عراة. أما الرجال فيطوفون عراة، وأما النساء فتضع إحداهن ثيابها كلَّها إلا درعا مُفرجًا عليها ثم تطوف به"[٤٠].

خامساً : تذكر كرون أن البيت الحرام يقف على قدم المساواة مع هيكل اللات فى الطائف، والعُزَّى فى نخلة ، وترى أنها لم تكن مجرد هياكل مقدسة[٤١]. وهى هنا لا تذكر لنا المصادر التى اعتمدت عليها فى تقرير هذه المساواة ، ونحن لا ننكر أنه كان لسكان الجزيرة العربية فى العصر الجاهلى هياكل مقدسة أخرى يقصدها الحجيج، وكان أشهرها "بيت الأقيصر"[٤٢] فى مشارق الشام لقبائل قضاعة ، ولخم ، وجذام ، وعاملة ، وبيت و"ذى الخلصة"[٤٣]بقبالة بين مكة والطائف ؛ لدوس، وجثعم، وبجيلة، و"بيت رئام" بصنعاء لحمير وأهل اليمن[٤٤] و"بيت رضى" لبنى ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم[٤٥]، وكانت "العزى" بنخلة لقريش[٤٦]، وكانت "اللات" لثقيف بالطائف[٤٧]، و"مناة" للأوس والخزرج[٤٨]، وكان "الفلس" لطيئ وما يليها بجبلَىْ طيئ : أجا وسلمى[٤٩] ، وكان "ذو الكعبات" لبكر وتغلب بنى وائل[٥٠]. إلا إنه لم يجتمع لبيت من هذه البيوت ما اجتمع لبيت مكة من مكانة فى نفوس العرب جميعاً، ويذكر ابن الكلبى أنه عندما قام رجل من جهينة يقال له عبد الدار بن حديب يدعو قومه قائلا : "هلم نبنى بيتا - بأرض من بلادهم يقال لها الحوراء - نضاهى به الكعبة ونعظمه حتى نستميل به كثيرا من العرب . عظموا ذلك وأبوا عليه"[٥١]، فقد توارث العرب أخبار الكعبة منذ رفع قواعدها[٥٢] ، وظلت دائمًا مثابة للناس جميعًا وأمنا، لا يمنع أحد من التعبد فيها على اعتبار أنها بيت الله. لقد قامت قدسية البيت حول الكعبة ذاتها بغض النظر عن الأوثان التى نصبت بين جنباتها، ولم يطلق العرب على أى من الأصنام لقب "رب البيت" وكانوا إذا قالوا "رب البيت" فهم يقصدون ربا فوق كل الأرباب، بينما كانت بيوت الأصنام الأخرى قد خُصص كل منها للصنم القائم فيه. ومن هنا كانت سيادة كعبة مكة التى رأى فيها العرب أنها بيت الله الخالق المبدع، وكانت عبادة الأصنام تقربهم إلى الله زلفى[٥٣](*).

أقرت قريش حرمة مكة ، وحفظت لها مجالا حولها ، كما أقرت لأهل الحرم حقوق المواطنة، وسمت المتمتعين بهذه الحقوق الحُمس ، وقالوا "نحن بنو إبراهيم وأهل حرمه وولاة البيت وقطان مكة وسكانها، فليس لأحد من العرب مثل حقنا، ولا مثل منزلتنا،

(*) راجع الحاشية الأولى المذكورة فى ص٢١٨ من الترجمة .

ولا تعرف له العرب ما تعرف لنا، فلا تعظموا شيئا من الحل (الأرض التى تقع خلف الحرم) ما عظموا من الحرم، فتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها ، وهم يعرفون أنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم عليه السلام، ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها وأن يفيضوا منها ، إلا أنهم قالوا نحن أهل الحرم فليس ينبغى لنا أن نخرج من الحرمة، ولا نعظم غيرها كما نعظمها. نحن الحُمس، والحُمس من أهل الحرم. ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من ساكن الحل والحرم مثل الذى لهم بولادتهم إياهم". وهكذا توسعت قريش فى ضم العرب إليها من القبائل المحيطة بأن أدخلت أصهارها فى الحُمس، وبهذا تبع زوج القرشية قومها[٥٤]. ومما لاشك فيه أن هذه السياسة الذكية التى اتبعتها قريش جعلت الحرم المكى محاطًا بقبائل الحُمس، وجعلوه منطقة سلام أشار إليها القرآن الكريم فى سورة العنكبوت (الآية ٦٧) بقوله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾. ولا شك فى أن هذه السياسة قدمت للتجارة فرصة ذهبية للازدهار(*).

وإذا كان الحرم المكى يتساوى فى نظر كرون مع بيتى هُبل فى الطائف والعُزَّى فى نخلة، فلماذا وجه أبرهة الحبشى حملته من اليمن لتدمير الكعبة مُقسما "ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه"[٥٥]، ليتوجه حج العرب إلى كنيسة القليس التى بناها فى نجران بدلا من مكة[٥٦]. ويذكر ابن الأثير والأزرقى أن قريشا أنشأت نظام الحماسة بعد محاولة أبرهة الفاشلة حتى تتمكن من تنظيم الدفاع عن الحرم المكى، والاستفادة من الشهرة التى اكتسبتها بين العرب بعد فشل تلك الحملة[٥٧]. وهكذا جعلت الحماسة من الحرم نواة لالتفاف عدد كبير من القبائل خلف القيادة القرشية، فاجتمع التجار فى مكة وحولها آمنين ، بل لقد تطوع للدفاع عن حرمها بعض العرب مثلما فعل صلصل بن أوس التميمى[٥٨] ، وزهير بن جناب الكلبى حين قام بتحطيم البيت الذى شيدته غطفان بديلا لها عن الحرم المكى[٥٩].

(*) لمزيد من التفصيلات عن التحمس راجع الدراسة الجيدة التى قدمتها الدكتورة عواطف أديب سلامة: قريش قبل الإسلام ، دورها السياسى والاقتصادى والدينى . الرياض ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ص٣٠٩ وما يليها والمصادر المذكورة فيها . (المترجمة)

سادسًا : وإذا كان الحجاج لا يدخلون مكة لتأدية الحج فلماذا تكبدت قريش أموالا طائلة لإطعام الحجيج وسقايتهم ؟! فعندما آلت السدانة والسقاية والرفادة إلى أبى طالب ابن عبد المطلب استدان من أخيه العباس بن عبد المطلب عشرة آلاف درهم ليتمكن من تغطية نفقات السقاية والرفادة ، وأنفق المبلغ خلال موسم واحد ، ولما حل الموسم التالى طلب من أخيه العباس أربعة عشر ألف درهم، فاشترط عليه سداد المبلغين معا فى العام التالى وإلا تنازل له عن السقاية والرفادة. ولما لم يتمكن أبو طالب من تسديد ما عليه فى الموسم الثالث تنازل لأخيه العباس عنهما[٦٠]. وكان العباس رجلاً ثرياً ذا أموال كثيرة ، وكان يملك كَرْمًا بالطائف وكان يقوم بنبذ الزبيب فى الماء ليسقى الحجاج . ويذكر الأزرقى[٦١] أنه كان يُقرض أهل الطائف أموالا ليتمكن من الحصول على أكبر قدر من الزبيب لهذا الهدف. ويذكر ابن الأثير أن العباس رضى الله عنه تولى المحافظة على آداب الجلوس فى البيت الحرام ، واحترام حرمة الحرم المقدس ، ونصب له مقطرة لتأديب المخطئ والجاهل منهم[٦٢].

سابعًا : وحتى تضيف كرون مزيداً من الشكوك لبعثرة فكر القارئ، بدأت تتجه اتجاها آخر وقدمت نصا ذكره نونوسوس Nonnosus فى كتاب له مفقود ولكن ورد ذكره لدى فوتيوس Photius فى مؤلفه Bibliotheque[٦٣]. يقول النص : "أن غالبية العرب وهؤلاء الفينيقيين ومن وراءهم ووراء جبال طاورن Tauren كان لديهم مكان مقدس لمعبود لا أعرفه، وكانوا يجتمعون فيه مرتين كل عام. وبخصوص هذه التجمعات يستمر اجتماعهم الأول لمدة شهر حتى منتصف الربيع. أما الاجتماع الثانى فكانت مدته شهرين..» فى أثناء هذه التجمعات كانوا يعيشون فى سلام كامل كما يقول نونوسوس مع بعضهم البعض ومع كل الشعوب التى تعيش فى بلادهم . ويقولون إنه حتى الحيوانات المتوحشة تعيش فى سلام مع البشر، أكثر من هذا مع بعضهم البعض، وترجح كرون أن المقصود بجبال طاورن هى جبال طيئ Tayyi ، وهى ترى أن هذا المعبد كان يقع شمالا وتُنوِّه إلى أنه قد سبق لإبيفانيوس Epiphanius أن لاحظ وجود شهر حجة البيت Aggathalbaeith (Hijjat al bayt) من قبل ، مما يدل على وجود مركز يقع فى الشمال. وهذا يعنى فى رأيها وجود عديد من مراكز الحج الكبيرة فى بلاد العرب قبل

الإسلام، ثم تواصل قولها "بأنه فى حالة ما إذا افترضنا عدم مضاهاة حرم نونوسوس بأسواق الحجيج ، فإننا ينبغى أن نسلم بأن هذا الهيكل الذى كانت له أهمية كبرى فى بلاد العرب قد اختفى دون أن يترك وراءه أثرًا على الرغم مما تذكره الرواية، أما إذا اخترنا عدم مطابقته مع الهيكل الأول للإسلام ، فسوف يصبح مثل هذا الصمت أمرًا مريبًا : حيث إن مزاحمة حرم Haram له مثل تلك الأهمية لابد من أن يثير الشك فيه ".

بتحليل ظاهر النص فإن صاحبه يذكر أن هذا المعبد يزوره العرب والفينيقيون ومن وراء جبل طاورن، وترجح كرون أن جبل طاورن هو جبل طيئ، ولما كانت طيئ تقع فى منطقة نجد، فهذا يعنى أن الحجاز من بين المناطق التى تقع خلف هذه الجبال، ويعزز هذا الافتراض أن مدة زيارة هذا المعبد تبلغ ثلاثة أشهر منفصلة (الحج شهران هما ذو القعدة وذو الحجة، والعمرة فى شهر رجب). إضافة لما تقدم فما هو البيت الذى كانت تؤمه الشعوب المختلفة فى المنطقة، وتُحْرِم فيه خلال مدة زيارته، وتعيش فيه فى سلام غير البيت الحرام فى مكة ؟ ولعل فى إشارة إبيفانيوس لشهر حجة البيت ما يرجح الافتراض بأن المقصود بهذه الإشارة هو البيت الحرام فى مكة والذى تُخصص للحج إليه أيام معلومة من شهر ذى الحجة. إن جميع المصادر الإسلامية لم تذكر من قريب أو بعيد بيتًا آخر حاز ما لبيت مكة من مكانة فى نفوس العرب جميعًا ، فى حين إن تلك المصادر نفسها قد ذكرت جميع الأصنام المحلية التى عبدها العرب، والبيوت التى خصصت لبعضها كما سبق توضيحه، وهذا يعنى استبعاد شبهة إخفاء المصادر الإسلامية لبيت آخر كان موجودًا فى المنطقة وكان ينافس أو يقف على قدم المساواة مع بيت مكة. ويؤكد هذا القول أن أيًّا من المصادر الكلاسيكية (غير نونوسوس) لم يذكر لنا وجود مثل هذا البيت الذى تضعه كرون فى الشمال، وهى بوضعها له على هذا النحو تناقض تفسيرها لجبل طاورن الذى تضاهيه بجبل طيئ الذى يقع فى هضبة نجد .

لقد أوحت كرون للقارئ بشبهة وجود معبد فى شمال الجزيرة العربية كان يحج إليه العرب مرتين كل عام فى أشهر حرم وذلك حتى يتفق مع القضية الرئيسية التى تدور حولها من قريب حينا ومن بعيد فى أكثر الأحيان والتى حركت فيها مكان مكة من موقعها على الخريطة الجغرافية ، رافضة آراء المؤرخين الكلاسيكيين الذين أشاروا

إليها منذ القرن الثانى ق.م. والادعاء بأن قريشا عاشت فى منطقة (بلقا) من شمال الحجاز وأن الحج لم يكن إلى مكة ولكن إلى ذلك البيت الذى وضعته فى الشمال من الجزيرة، وهى من الأمور التى رفضناها وقمنا بتوضيحها تفصيلا عند الحديث عنها(٦٤) .

نخرج من هذا العرض بأن مكة وبيتها المقدس كانت كعبةً للعرب، فيها نُصبت أصنامهم ، ولم يناظرها بيت آخر فى طول الجزيرة وعرضها، حتى القليس التى بناها أبرهة فى اليمن لجذب أنظار الحجيج إليها بدلاً من مكة. وازدادت حماسة العرب لبيتهم مع تعاظم نفوذ قريش بعد فشل حملته على مكة من جهة ولتعاظم نفوذها التجارى وتزايد مكاسبهم فيها من جهة أخرى . إلى مكة كان يتجه حج العرب ويبدأ منها وينتهى إليها، أما المواسم فهى الأسواق التجارية التى كانوا يجتمعون فيها فى عكاظ وذى المجاز ومِجَنَّة القريبة من مكة، والتى كانوا فيها يتاجرون. وليس فى الربط بين التجارة والتدين والحج لمكة ما يُعاب على العرب أو يعابون به، فقد ارتبطت مواسم الألعاب الأولمبية فى بلاد الإغريق منذ دورتها الأولى عام ٧٧٦ق.م. بالمزارات الدينية الكبيرة لديهم وفى مقدمتها معبد الإله زيوس **Zeus** فى بلدة أوليمبيا **Olympia** فى إقليم إيليس **Elis** غرب شبه جزيرة البلوبونيز **Peloponnesus** (شبه جزيرة المورة) ، ومعبد الإله أبوللون **Apollon** ونبوءته فى ديلفى **Delphe** ، والدورة الإثمية فى بلدة إثموس **Ishmus** – أى البرزخ – بجوار مدينة كورنثه **Corinthus** فى وسط بلاد اليونان، وكانت لتكريم الإله بوسيدون **Poseidon** إله البحر الذى ارتبطت به مدينة كورنثه ارتباطًا وثيقًا، وكانت من أنشط الدويلات الإغريقية فى عالم التجارة البحرية فى حوض البحر المتوسط. وأخيراً الدورة النيمية نسبة إلى بلدة نيميا **Nemea** بإقليم أرجوليس **Argolis** فى جنوب بلاد اليونان ، وكانت تعقد تكريماً للإله زيوس النيمى. فى أثناء انعقاد هذه الدورات التى كانت تجرى مرة كل عام فى أحد المراكز الأربعة بالتوالى مع الأخرى كان هناك اتفاق ضمنى أو هدنة مؤقتة (مقدسة) **ekeeheiria** بين كل مدن – دول – بلاد الإغريق، تتوقف فيها كل الأعمال العدوانية ، فيسود السلام، وينتقل الإغريق إلى هذه المزارات المقدسة ليس فقط لزيارتها ولعقد المباريات الرياضية ، بل لعرض إنتاجهم الفكرى والصناعى. ففى دلفى قرأ هيرودوت – أبو التاريخ – كتابه: "الحروب الفارسية"، وحمل إليهم فيدياس **Pheidias** أجمل الأعمال التى قام بنحتها ،

بمعنى أخر كانت أسواق عكاظ وذى المجاز ومجَنَّة تشبه هذه الأسواق من حيث ارتباطها بمكان مقدس، وتجميعها لسكان المنطقة ، وحُرمة الأوقات التى خصصت لزيارتها ، ولكن لم يدَّعِ أحد ما ادعته كرون فى الفصل بين زيارة المعابد الإغريقية وبين الأسواق التى كانت تعقد فيها ومن حولها .

وفى الختام أتقدم بعميق الشكر لسعادة الأستاذ الدكتور : محمد إبراهيم بكر أستاذ التاريخ القديم والعميد الأسبق لكلية الآداب جامعة الزقازيق بمصر، والرئيس الأسبق لهيئة الآثار المصرية؛ لتفضله بمراجعة دقيقة لترجمة الكتاب، وإلى سعادة الأستاذ الدكتور: محمد أحمد حلة، أستاذ التاريخ الحديث بجامعة الأزهر، المعار حاليًا لكلية الآداب جامعة الملك عبد العزيز بجدة الذى أفادنى بملاحظاته القيمة عند مراجعة الكتاب ، وإلى سعادة الأستاذة الدكتورة : فايزة إسماعيل أكبر أستاذة التاريخ الإسلامى المشارك بجامعة الملك عبد العزيز التى استفدت من مناقشتها فى كثير من الجوانب التي تضمنها الكتاب عند مراجعتها له، إضافة إلى المصادر التى أمدتنى بها من مكتبتها الخاصة ، وإلى الأستاذة : جيهان شاه بهاى المحاضرة فى التاريخ العربى القديم بقسم التاريخ بجامعة الملك عبد العزيز التى أمدتنى بكم هائل من المصادر التاريخية التى لديها فكانت لى خير عون .

أما الزميلة العزيزة سعادة الأستاذة الدكتورة : موضى بنت منصور بن عبد العزيز أستاذ مشارك التاريخ الحديث بقسم التاريخ كلية الآداب جامعة الملك عبد العزيز فيقف تشجيعها ودعمها المتواصل وراء هذا العمل المضنى الذى استغرق منى أكثر من ثلاث سنوات، وإلى كل من قدم لى فكرة ، أو أمدنى بمصدر من الزميلات بقسم التاريخ أتقدم بشكرى وعرفانى بالجميل .

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ..

آمال الروبى

وقفة عيد الأضحى المبارك

فى ٩ من ذى الحجة ١٤٢٥هـ

الموافق ٢٠ من يناير ٢٠٠٥م

الحواشى

(١) راجع Hagarism, The making of the Islamic world, with M.cook slaves on Horses .
- The Evolution of the Islamic Policy.
- Gods Caliph, Religious Authority in the first centuries of Islam .
- Roman, Provincial, and Islamic law .
- Meccan Trade and the rise of Islam .
- Pre-Industrial Societies .

(٢) The International History Review, Arabica, Islamic law, society, studies in Human society.

واشتركت مع (J.A.Hall) حتى عام ١٩٩٢م فى إصدار سلسلة دراسات فى النظم الاجتماعية . Exploration in Social structure

(٣) راجع ص٢٣٥ وما يليها من الترجمة = Crone, op. cit., pp. 134ff.

(٤) راجع ص٣١٩ من الترجمة = Crone, op. cit., p.197-198

وراجع أيضًا ص٣٤٣ من الترجمة = Crone, op. cit., p.204

(٥) راجع ص٣١٩ من الترجمة = Crone, op. cit., p.91

(٦) راجع ص٢٧٢ وما يليها من الترجمة = Crone, op. cit., p.161

(٧) Lammens (H), la Macaque a la veille de l'hegire, (reprinted form Melanges de l, universite de Saint Juseph, vol. 9, Beirut 1929 f, Watt (W.M), Muhamed at Mecca, Oxford, 1953.

(٨) راجع على سبيل المثال ص٢٩٢، ٣٦٧، ٣٧١ من الترجمة.

(٩) راجع ص١٢٧ من الترجمة = Crone, op. cit., p.82

(١٠) ص٢٧٧ وما يليها من الترجمة = Crone, op. cit., p.165

(١١) راجع أيضًا ص ١٦٥ = Crone, op. cit., p.91

وراجع أيضًا ص ٢٠٧ الحاشية المذكورة أدناه = Crone, op. cit., p.117

وراجع أيضًا الحاشية رقم ٨٥ المذكورة ص ٣٢٠ من الترجمة = Crone, op. cit., p.187

(١٢) ص٢٩٥ وما يليها من الترجمة = Crone, op. cit., p.174

(١٣) تقصد : عكاظ وذو المجاز ومجَنّة وعرفة ومنى .

(١٤) ص٢٩٥ وما يليها من الترجمة = Crone, op. cit., p.174

(١٥) ص٢٩٧ وما يليها من الترجمة = Crone, op. cit., p.176

(١٦) ص٢٩٨-٢٩٩ من الترجمة = Crone, op. cit., p.178

(١٧) ابن الكلبي ، (هشام بن محمد بن السائب الكلبي ت٢٠٤هـ)، تحقيق د. محمد عبد القادر أحمد ، وأحمد محمد عبيد ، القاهرة ، بدون تاريخ، الأصنام، ص٢٢، راجع ابن حبيب : المنمق في أخبار قريش، طبعة دهلي ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤، ص٤٤١ "نحن قوم من أهل دينكم ونحج حرمكم وبيتكم".

(١٨) الأزرقي، (أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد)، أخبار مكة وما جاء فيها من آثار، تحقيق رشدي صالح ملحس، ج١، طبعة ٣ ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م مكة المكرمة، ج١، ص١١٣ .

(١٩) المرجع نفسه والجزء ، ص ١٨٠- ١٨١ .

(٢٠) ومن النصوص الأخرى التي ذكرها الأزرقي ما يأتي :"لما أراد تُبَّع الثالث هدم البيت.. وكان سبب خروجه وسيره إليه أن قوما من هذيل من بني لحيان جاءوه فقالوا : إن بمكة بيتا يعظمه العرب جميعاً، وتنحر عنده وتحجه وتعتمره" ج١، ص١٣٢، ويقول إن عمرو بن لحي"نصب مناة على ساحل البحر مما يلي قديدا، وهي التي كانت للأزد وغسان، يحجونها ويعظمونها فإذا طافوا بالبيت وأفاضوا من عرفات وفرغوا من منى لم يحلقوا إلا عند مناة ، وكانوا يهللون لها ، ومن أهل لهما لم يطف بين الصفا والمروة لمكان الصنمين اللذين عليهما نهيك مجاور الريح ومطعم الطير " ج١، ص١٢٥، ص١٢٣ . وعن سقاية الحجاج قال تعالى: في سورة التوبة ١٩ :﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ ، وراجع أيضا : ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، بيروت ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ص٢٠٤ .

(٢١) ابن هشام (ت. من ٢١٣ - ٢١٨ هـ) ، السيرة النبوية ، حققها : مصطفى السقا، وإبراهيم الإبياري ، وعبد الحفيظ شلبي، القسم الأول يضم الجزأين الأول والثاني، بيروت بدون تاريخ، ج١، ص٧٧-٧٨, كانت كنانة وقريش إذا أهلوا قالوا:" لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك ، تملكه وما ملك " فيوحدون الله بالتلبية، ثم يُدخلون معه أصنامهم، ويجعلون ملكها بيده. يقول الله تبارك وتعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم :﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ أي ما يوحِّدونني لمعرفة حقِّي إلا جعلوا معي شريكا من خَلْقي ، راجع المصدر السابق نفسه، ص٧٨ . وعن الحج إلى مكة يقول ياقوت الحموي : " حج إليها ملوك حمير وكندة وغسان ولخم، فيدينون للحُمس من قريش ويرون تعظيمهم والاقتداء بآثارهم مفروضا وشرفا عندهم عظيما"، ياقوت الحموي ، ج٥، ص١٨٣ .

(٢٢) ابن هشام، السيرة، ج١، ص٤٢٧؛ يذكر ابن الأثير، ت.٦٣٠هـ، الكامل في التاريخ، ج٢، بيروت الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، ص٦٦؛ أن سويد بن الصامت جاء مكة حاجا ومعتمراً ، وإذا كان النص صحيحا فمعنى هذا أن سويد سيظل مقيما بمكة حتى شهر رجب لأن العرب في الجاهلية كانت لا تحل الجمع بين الحج والعمرة، وإن كنت أميل - نظرا لطول المدة - إلى أن النص الذي ذكره ابن هشام هو الأقرب إلى المنطق ، وراجع أيضًا ما ذكره الأزرقي ، المرجع السابق، ص١٠٥، عن دخول قصي بن كلاب مكة لأول مرة بعد عودته من الشمال فأقام قصي حتى دخل الشهر الحرام وخرج في حاج قضاعة حتى قدم مكة فلما فرغ من الحج أقام بها.

(٢٣) ص٢٩٧-٢٩٩ من الترجمة = Crone, p. 177, 178, n. 47.

(٢٤) راجع أعلاه = Crone, op. cit., p. 178, n. 47.

(٢٥) الثعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري ٣٥٠-٤٢٩هـ) ، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، ١٣٨٤-١٩٦٥، ص١١٥، وهي النسخة نفسها التي اعتمدت عليها كرون .

(٢٦) اعتمد ناشر كتاب الثعالبي على ثلاث مخطوطات لنشر الكتاب، ورد في واحدة منها فقط حرف الجر "في" ، بدون "واو" العطف ، بينما وردت الأخيرة في النسختين الأخريين ، وأفضل الاعتماد على ما ورد في النسختين لأنها تؤدى المعنى الذى قصده الثعالبي من عدم مبارحة قريش لمكة أثناء الحج وأنهم كانوا لا يعظمون شيئا من الحل.

(٢٧) سورة التوبة ، الآية : ١٩ .

(٢٨) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الجزء الثاني ، ص١٧ حيث روى عن عفيف الكندى أنه قال : "وقدمت مكة أيام الحج في أولي مراحل الدعوة" .

(٢٩) ابن هشام ، المرجع السابق، ج١، ص١٢١؛ ابن الأثير، ج٢، ص١٢-١٣؛ ياقوت الحموى، معجم البلدان ، ج٥، ص١٨٦-١٨٧؛ الطبرى، (٢٢٤-٣١٠هـ) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، لبنان، بدون تاريخ، ص٢٥٧ .

(٣٠) ابن حبيب، المحبر، ت٢٤٥هـ، تحقيق ايلزه ليختن شتيتر، بيروت، بدون تاريخ، ص٣١١ .

(٣١) ويذكر ابن حبيب، في المحبر التلبية التى كانت تلبي بها كل قبيلة عربية أصنامها في أثناء الطواف بالبيت الحرام، راجع ص٣١١-٣١٩؛ الأزرقى، مكة ، ص١٧٦-, ١٧٩

(٣٢) ابن الكلبي (هشام بن محمد بن السائب الكلبى)، الأصنام ، تحقيق محمد عبد القادر أحمد ، وأحمد محمد عبيد، القاهرة بدون تاريخ، ص٢٢، ابن حبيب، المحبر، ص٣١٩، وعن قبائل الحل التى تقع خلف الحرم راجع: ابن حبيب،المنمق في أخبار قريش، تحقيق خورشيد أحمد فاروق، دهلى- الهند ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م، ص١٧٩؛ الطبرى ، تاريخ ، ج٢، ص ٢٦٠ .

(٣٣) يبدو أن الرفادة لم تكن جديدة على مكة في عهد قصى إذ يذكر الإخباريون أن عمرو بن لحى زعيم خزاعة كان يطعم الحاج ويقيم الموائد في أيام الحج، وقالوا إنه ربما ذبح أيام الحج عشرة آلاف بدنة، وكسا عشرة آلاف حلة في كل سنة، يطعم العرب ويحيس لهم الحيس بالسمن والعسل ويلت لهم السويق. راجع ابن الأثير، الكامل في التاريخ ، الجزء الثاني، ص١٨٢؛ وراجع أيضًا الأزرقى، مكة، ص١٠٠، وتذكر الروايات أن عمرو بن لحى هو الذى أدخل عبادة الأصنام في مكة وما حولها. راجع ياقوت الحموى، معجم البلدان، ج٥، ص٣٦٧- ٣٦٨ .

(٣٤) ابن هشام ، السيرة ، ج١، ص ٢٠٢ .

(٣٥) راجع ص ٢٩٣ = Crone, op. Cit., p. 177, n. 39.

(٣٦) انقسم العرب إزاء حرمة الأسواق الثلاثة إلى ثلاث فئات: الأولى استحلت المظالم فيها في الأشهر الحرم، فارتكبوا كل أنواع المنكر من قتل وسلب وبغى ، ولم يحفظوا حرمة الأشهر الحرم، وسموا "المُحلين" ، وهم قبائل أسد وطيئ وبكر بن عبد مناة وقوم من بني عامر بن صعصعة ومن خثعم وقضاعة ، إضافة إلى الصعاليك ومن قامت قبائلهم بنفيهم والتبرؤ منهم، والفئة الثانية: هي التى حافظت على حرمة الأشهر الحرم وللقائمين على البيت الحرام مكانتهم فكفوا عن ارتكاب المعاصي ونصبوا أنفسهم لنصرة المظلوم . والفئة الثالثة : هي التى أحلت قتال المُحلِين وشرعه لهم صلصل بن أوس من بني عمرو بن تميم، وكانت فيهم قبائل من طيئ ومن بني أسد. راجع المرزوقى، أبى على المرزوقى الأصفهانى ، الأزمنة والأمكنة، ج٢، القاهرة بدون تاريخ، ص١٦٦ . عن مقابلة عمرو بن عبسة للرسول صلى الله عليه وسلم بعكاظ وإسلامه هناك راجع : ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص٣٨ . وعن مقابلته للقبائل في المواسم ، راجع نفس المصدر والجزء ، ص٦٥، وأيضًا الطبرى، التاريخ، ج٢، ص ٣٤٨-٣٦٠ . عن مقابلته لقبائل كندة، وبني حنيفة، وكلب، وبني عامر بن صعصعة، والأوس والخزرج ، راجع ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢،

ص ٣٨، ٦٥ . راجع : الأفغاني (سعيد)، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، القاهرة١٩٩٣، الطبعة الثانية ، ص٨٠-٨١ .

(٣٧) ص٢٩٣ من الترجمة وما يليها = Crone, op. cit., p. 173.

(٣٨) ابن حبيب ، المنمق ، ص١٩٦ .

(٣٩) ابن هشام ، السيرة، ج١ ، ١٩٢ .

(٤٠) ابن هشام ، ج١، ص٢٠٢، راجع أيضا : الأزرقي، مكة ، ج١، ص١٨٠-١٨٢ ، وراجع أيضا ص ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، الحاشية رقم ٣٩ من الترجمة .

(٤١) ص٢٩٥ من الترجمة وما يليها = Crone, op. cit., p. 173.

(٤٢) ابن الكلبي ، الأصنام ، ص٥٣ - ٦٠ .

(٤٣) المصدر نفسه : الأصنام، ص٤٩-٥٠، ابن حبيب، المحبر ص٣١٢، ٣١٧ .

(٤٤) ابن الكلبي : الأصنام ، ص٢٧- ٢٨، ابن كثير ، ج٢، ١٩٢ .

(٤٥) ابن الكلبي: الأصنام ، ص٤٥-٤٦، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٤٦) ابن الكلبي : الأصنام، ص٢٣ ، ٢٤، ٢٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٢، ٥٧؛ ابن كثير ، ج٢ ، ص١٩٢ .

(٤٧) ابن الكلبي : الأصنام ، ٣١، ٣٣، ٣٤، ٣٨، ٤٢، ٤٣، ٤٧؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان ، ج٥ ، ص٤؛ ابن حبيب ، المحبر، ص ٣١٥

(٤٨) ابن الكلبي : الأصنام، ص٢٨، ٣٠، ٣١، ٣٣، ٣٤، ٤٢، ٤٣، ٤٧، ٧٤؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج٥ ، ص٢٠٥ .

(٤٩) ابن حبيب ، المحبر، ص٣١٦؛ ابن الكلبي، الأصنام ، ص٧٠ .

(٥٠) ابن كثير، ج٢، ص١٩٢؛ وعن التلبية التي كان يلبي بها العرب في أثناء زيارتهم لهذه الأصنام ، راجع: ابن حبيب، المحبر، ص٣١١-٣١٩ .

(٥١) ابن الكلبي ، الأصنام ، ص٥٨ .

(٥٢) وقام تبان أسعد أبو كربٍ بتعمير البيت الحرام وكسوة الكعبة ، ابن هشام ، ج١ ، ص٢٠ .

(٥٣) ظهر جليا من الشعر العربي، أن العرب عرفوا الله (سبحانه وتعالى) فعندما كان أوس بن حجر يقسم باللات كان يقول :

وباللات والعزى ومن دان بدينها   وبالله إن الله منهن أكبر

ياقوت الحموي، معجم البلدان ، ج٥، ص٥ .

وقال درهم بن زيد الأوسي :

إني ورب العُزّى السعيدة والله   الذي دُون بيته سَرِفُ

الأصنام ،ابن الكلبي ، ص٣٦ ، هامش (٢) .

ويقول خداش بن زهير العامري لعثعث بن وحشي الخثعمي في عهد كان بينهما فغدر به :

وذكَّرته بالله بيني وبينه   وما بيننا من مدة لو تذكرا

ابن الكلبي ، الأصنام ، ص٥٠ .

وقال الشاعر أيضاً عند حفر أحد الآبار بمكة قبل الإسلام :

سقى الله أمْواها عرفتُ مكانها   جرابا وملكوما وبَذَّر والغمَرا

جراب وملكوم وبذر والغمر : أسماء لآبار قديمة بمكة .

ابن هشام ، ج١ ، ص١٤٨ .

وقال زيد بن عمرو عندما ترك عبادة اللات والعزى وغيرهما من الأصنام التي ترك عبادتها قبل بعث الرسول صلى الله عليه وسلم :

أربـــا واحــــدا أم ألــــف رب	أدين إذا تقــســـمت الأمـــورُ
عـزلتُ اللات والعـزّى جـمـيـعًـا	كـذلك يفـعل الجلد الصـبـورُ
فـلا عُزّى أدين بها ولا ابنتيها	ولا صنمَيْ بني عــمـــرو أزورُ
فـتـقـوى الله ربكم احـفظوهـا	مـتى مـا تحـفظوها لا تبوروا
تـرى الأبـرار دارهـم جنـــان	وللكفـار حـامـيـة سـعـيـرُ
وخـزى في الحـيـاة وإن يمـوتوا	يُلاقـوا مـا تضـيق به الصـدورُ

ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، الجزء الخامس ، ص٥ ؛ ابن حبيب ، المنمق، ص٣١٥ حيث يقول : "وكانت هذه الأصنام كلها في بلاد العرب تُعبد مع الله عز وجل" .

يقول تعالى في سورة يونس (١٨) : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

ويقول سبحانه وتعالى في سورة الزمر آية (٣) : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾

وعن الذين كانوا على دين إبراهيم عليه السلام قبل البعثة النبوية، راجع: ابن حبيب، المنمق ، ص١٧٥– ١٧٦ .

(٥٤) ابن هشام ، ج١، ص٢١٩، ابن حبيب المنمق، ص١٤٢–١٤٦؛ ياقوت الحموي، ج٥، ص ١٨٤ .

(٥٥) ابن هشام، المصدر السابق، الجزء نفسه، ص٤٢ ، الأزرقي، مكة، ص١٣٧، الطبري ، التاريخ، ج٢، ص١٣٠ وما يليها .

(٥٦) كانت الحبشة تدين بالمسيحية على المذهب الأرثوذكسي، وكانت كنيستها (حتى رحيل آخر أباطرتها الإمبراطور هيلاسيلاسي) تابعة لكنيسة الإسكندرية في مصر. أما اسم القليس فهو مشتق من الاصطلاح الإغريقي Ecclessia ويعني مجلس العامة (أو مجلس الشعب في أثينا منذ القرن الخامس، ق.م).

(٥٧) ابن الأثير ، ج١، ص٤٥١–٤٥٢، الأزرقي ، المصدر السابق، ص ١٤٩ .

(٥٨) راجع الحاشية رقم ٥١ أعلاه .

(٥٩) ابن الكلبي، جمهرة النسب، تحقيق ناجي حسن،بيروت، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م ، ص٤٧٦ : "بَنَى ظالم بن أسعد بن ربيعة بيتا ببلاد غطفان سماه بُسا، فأخذ حجرا من الصفا وحجرا من المروة فبنى عليه فسماه الصفا والمروة، وكانت تعبده غطفان ومن يليها ، فأغار زهير بن جناب في الجاهلية على بلاد غطفان ، فهدم البيت وما حوله" .

(٦٠) ابن الأثير ، الكامل ، ج٢، ص١٤ .

(٦١) الأزرقي ، أخبار مكة ، ج١، ص ١١٤ .

(٦٢) ابن الأثير، أسد الغابة ، ج٢، ص ١٠٩-١٠٠ .

(٦٣) راجع ص٢١٩ ، والحاشية رقم ١٢٧ ص٢٣٤-٢٣٥ من الترجمة. ولم أتمكن من الحصول على النص الأصلي ، لذا اعتمدت على ما ذكرته كرون عنه .

(٦٤) The Oxford Classical Dictionary, Oxford 1957, arts: Olympic Games, p. 621, Delphi games p.261, Isthmia, p.461, Nemean Games, p. 601.

راجع أيضًا : عبد اللطيف أحمد على ، التاريخ اليوناني ، العصر الهلادي ، ج١، القاهرة ١٩٧٣، ص ١١٢- ١٢٠ .



المقدمة

يرجع السبب فى وجود هذا الكتاب إلى حاجة الدارسين للتاريخ الإسلامى المبكر إلى معرفة قدر من المعلومات عن تجارة مكة ، على الرغم من أنه موضوع غير شيق . لذلك أتقدم بشكرى لدارسى الموضوعات الإسلامية فى جامعة أكسفورد Oxford (البريطانية) الذين دفعونى إلى الخوض فى هذا الموضوع ، وللتحدى الذى وضع الأستاذ فيه . إن هذا التحدى لا يزال واضحًا فى فقرات هذا الكتاب ، ويمكننى القول إنه بدونه لما استطعت كتابته . إضافة إلى ذلك فإننى أتقدم بشكرى لكل من أدريان بروكيت Adrian Brockett ، ومايكل كوك Michael Cook وجيرالد هاوتنج Gerald Hawting ، ومارتن هندس Martin Hinds ، وفريتز تسيمرمان Fritz Zimmermann لقراءتهم وتعليقاتهم على المسودات خلال مراحل اكتمال العمل . كذلك فإننى مدينة بالشكر للأستاذ بينز J. Baines لإجابته السريعة على المواضيع المتعلقة بالمصريات وهيبر F.N. Hepper من حديقة النباتات الملكية فى كيو Kew لآرائه الخاصة بمشاكل النباتات ، وللأستاذ مورونى M.G. Morony لرد فعله على النسخة الأولية المكتوبة على الآلة الكاتبة والتى كانت بمثابة تحذير لى لعدم شيوع بعض النقاط الجوهرية التى يتضمنها هذا المؤلف .



الجزء الأول

طيوب العرب



الفصل الأول

مقدمة

يعرف الطلبة دائمًا فى السنة الأولى من دراستهم أن مكة [المكرمة] كانت فى عهد الرسول [ﷺ] (*) مركزا لإمبراطورية تجارية مزدهرة ، وظهرت هذه الفكرة وأهميتها فى كل المصادر الدينية الخاصة بظهور الإسلام . واشتهرت تجارة مكة واكتسبت أهميتها العالمية ليس بين الطلبة الذين يدرسون التاريخ فى السنة الأولى من مراحل التعليم الجامعى فقط ، بل بين المتخصصين فى الدراسات الإسلامية الذين أكدوها بفيض من التوثيق، ومن ثم ركزت دراسة مونتوجمرى وات (Watt) فى ترجمته لحياة محمد [ﷺ] على أثر الثروة التجارية على الوضع الاجتماعى والأدبى لمكة ، وخصص أكثر من صفحة فى مجلديه ليناقش الروافد التى استمدت منها التجارة ثروتها ؛ مع إغفاله كليا ذكر المصادر التى اعتمد عليها[1]. والسؤال المطروح الآن والذى ينبغى الإجابة عنه يدور حول ما هى معلوماتنا عن تجارة مكة ؟ أما العمل الذى قدمه لامينز (Lammens) ، فلا يوثق به كثيرا حيث يرتبط ذكر اسمه دائمًا فى المصادر الأدبية الثانوية(**) بكثير من الحذر والاعتراض عليه ، والذى يبدو أن وات (Watt) قَبِل بنتائج دراسته[2]. أما الدراسة الحديثة التى قدمها كيستر (Kister) فقد تناول فيها

(*) لم تذكر مؤلفة الكتاب صلاة الله عز وجل وسلامه على سيد الخلق أجمعين لذلك أضفتها بين قوسين معقوفين . (المترجمة) .

(**) تتمثل مصادر دراسة التاريخ القديم فى :

أولاً: المصادر الأدبية : Literary Sources ، وتشمل مؤلفات المؤرخين والخطباء والشعراء وفقهاء القانون والمجموعات القانونية ، ومؤلفات الجغرافيين وكتاب الموسوعات . =

بعض جوانب التساؤل وعززها بكثير من الوثائق[٣]. ويبدو أنه قام بدراسته لكي يؤكد الصورة التي رسمها لامينز (Lammens) لها، بمعنى أنه ليس هناك فارق في الدراسة التي قام بها وات (Watt) والتي اعتمد فيها على ما قدمه لامينز (Lammens) ، وتلك التي قدمها شعبان (Shaban) واعتمد فيها على كيستر (Kister) والثالثة التي قدمها دونر (Donner) واعتمد فيها على الاثنين معًا[٤]. وعلى أي حال فإن كلا من لامينز وكيستر لم يذكر مصادره نظراً للنقص الكبير في الهوامش لدى الأول ، أما الثاني فمصادره غير مؤكدة بخصوص طبيعة هذه التجارة. ولذا يتضح لنا أن تجارة مكة لم يكن لها وجود أو أنها تمثل مشكلة .

إن تجارة مكة التقليدية تلفت النظر إلى سؤال محدد هو : ما تلك البضائع التي مكنت أهل مكة من الاستحواذ على مكانة تجارية بمثل هذا القدر من الاتساع ؟ إن ازدهار تلك الإمبراطورية التجارية غير المتوقع أمر ليس من السهل توضيحه . ومما لا شك فيه أنه كانت توجد هناك مراكز تجارية في شبه الجزيرة العربية ازدهرت في مناطق لا يمكن مقارنتها بأراضي مكة الجرداء، ومنها عدن على سبيل المثال ، التي كانت تستمد أهميتها من البحر. وقد لاحظ المقدسي أن مكة كانت مدينة داخلية[٥]، على الرغم من أن لها ميناء صغيراً هو ميناء الشُعيبة[٦]. وقد تحدث القرآن بإسهاب عن معجزة ركوب البحر[*][٧]، كذلك تتفق جميع المصادر على قيام أهل مكة بالتجارة مع

ثانيًا: المصادر غير الأدبية : Non - literary Sources or documentary Soeurces ، وتشمل مختلف المصادر كالآثار والنقوش والمسكوكات وأوراق البردي وغير ذلك من المواد التي يمكن التدوين عليها. (المترجمة) .

(*) من أقوى الأدلة التي تشير إلى خوض العرب غمار البحر ومعرفتهم الملاحة قبل الإسلام القرآن الكريم. فالقرآن أُنزلت آياته على الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة والمدينة ، وحفل بعبارات كثيرة عن الملاحة والبحر والسفن ، ولو لم يكن أهل مكة والمدينة ملمين بكل هذه العبارات ومعانيها ، لما كان مقبولا منطقيا أن يخاطبهم القرآن الكريم بها ومما ورد فيها الآتي :

(أ) البحر : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ (البقرة :٥٠) .

﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ (الأنعام : ٥٩).

﴿ قل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي ﴾ (الكهف :١٠٩) .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ ﴾ (فاطر :١٢).

﴿ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ (الكهف :٦٠). =

إثيوبيا ، ولدينا إشارة وحيدة إلى أنهم أقاموا علاقات بحرية تجارية مع الروم[8] ، وحيث إن تجار مكة لم تكن لديهم أخشاب[9] وسفن[10] ، لم يتمكنوا من الاستفادة من موانيهم عندما حاصرهم محمد [ﷺ](*)[11]. ولم تستقطب الشعبية

= ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ (الرحمن : ١٩) .
﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ (التكوير :٦) .
﴿ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾ (لقمان :٢٧) .
(ب) ركوب البحر : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ (الكهف :٧١) .
﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ ﴾ (العنكبوت :٦٥) .
﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ (الزخرف :١٢) .
﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ (هود : ٤١) .
﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ﴾ (الكهف :٧٩) .
﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ (الكهف : ٧٩) .
﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ﴾ (العنكبوت :١٥) .
﴿ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ ﴾ (البقرة : ١٦٤) .
﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ﴾ (الأعراف :٦٤).
﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ (النحل : ١٤) .
﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ (المؤمنون :٢٢) .
﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾ (إبراهيم :٣٢) .
(ج) اليم : ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ (الأعراف :١٣٦) .
﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ (طه : ٣٩) .
﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ﴾ (طه :٣٩).
﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ (طه :٧٨) .
﴿ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ (طه : ٩٧) .
﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ (القصص :٧) .
﴿ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾ (الذاريات : ٤٠) .
يتضح من بعض الآيات الكريمة التى سلفت الإشارة إليها أن المخاطبين يلمون بالإبحار ، وتدل وفرة الإشارة إلى البحر والسفن على أن هذه الأمور كانت مألوفة لدى أبناء مكة والمدينة . وفي بعضها الآخر ما يشير إلى انغماس المخاطبين فى مهنة البحر والملاحة أو فى السفر بحراً على الأقل . (المترجمة)

(*) انخرط العرب في الملاحة بين جنوب الجزيرة العربية والهند والصين ، ويرى البعض أن أول عهد العرب بزيارة جاوة فى أقصى شرق المحيط الهندى ليس معروفاً، وأن العرب عرفوا جزر التوابل قبل الميلاد. وكانت هناك مستعمرة عربية على الشاطئ الغربي لسومطرة عند بداية التقويم المسيحي. وللعرب تجارة نشطة في : الفلفل، والذهب، والفضة والقصدير بين سيلان والعرب . كما تاجر العرب على نطاق يمتد من سومطرة ومدغشقر منذ القرن الثالث ق.م . وينقل عن بليني Pliny أن التجار العرب استقروا فى سيلان فى القرن الأول الميلادى. الأمر الذى يعنى معرفة العرب للرياح الموسمية . وأن دخول الإغريق فى المنطقة منذ أواخر القرن الرابع ق.م. لم يقض على سيطرة العرب على المحيط الهندى. وأن رحلة نيارخوس Nearchos =

. . . .

= قائد الإسكندر الأكبر للإبحار من نهر الهندوس إلى الخليج عام ٣٢٦/٣٢٥ ق.م. فشلت في إقامة اتصال مباشر بين الغرب والشرق . كما يعتقد البعض أن أسطول بطالمة مصر لم يبحر وراء المياه العربية، وأنهم كانوا يشترون البضائع الهندية من أسواق اليمن تجنبا لمخاطر الإبحار في أعالي البحار الشرقية: لقد سبق أزدعمان الإسكندر في المحيط الهندي، وأجمع كل من هيبالوس البحار ، صاحب كتاب (الطواف المجهول الهوية في القرن الثاني ق.م.) وأجاثارخيديس Agatharchides رئيس مكتبة الإسكندرية وكاتب رحلة لامبولوس Lambulus على أن العرب كانوا تجار المحيط الهندي وبحارته . وينسب إلى الكاتب بليني (ت٧٨م) قوله إن العرب كانوا كثرا في ساحل مالابار في الهند ، وأنهم كانوا من الكثرة في سيلان ما جعلهم أسياد الساحل . واتصلوا عبر هذه الجزيرة بكل من ماليزيا والصين وبالبحارة الهنود الذين كانوا يبحرون شرقا. وخلف رحالان صينيان في أوائل القرنين الخامس والسابع الميلاديين روايات لرحلاتهما تؤكد على أن العرب كانوا تجارا وبحارة قبل أن يأتي المؤرخون الأوائل على ذكرهم . كما يؤكد ذلك أن البحارة العرب ظلوا بعد الإسلام يستخدمون الصواري والأشرعة والسفن التي كانوا يستخدمونها قبل الإسلام بل قبل الميلاد . ولذا فإن وصولهم إلى أقصى الشرق بعد الإسلام بالوسائل ذاتها يدل على أنهم كانوا قادرين على الوصول بهذه السفن إلى تلك البحار قبل الإسلام . فقد سبق لأجاثارخيديس أن أخبرنا أن كلا من الجرهائيين والسبئيين كانوا بمثابة مستودع لكل البضائع الآسيوية والأوروبية الفاخرة في سوريا البطلمية بين عامي ٢٠١ و١٩٨ق.م ، كما نشط العرب في الوصول إلى أفريقيا ، فكانوا يتجهون من البحر الأحمر إلى شاطئ الحبشة ويصلون إلى سُفالة (في موزمبيق الآن) ومرافئ جنوب أفريقيا . وكانت زنجبار ومدغشقر من متاجرهم . ويصف المسعودي هذه المناطق في مروج الذهب. أما السفن والبحارة فكان كثير منهم من سيراف . وانتمى البحارة إلى أزدعمان ، وكانت محطاتهم التي يقصدونها في زيلع وعيذاب وسواكن وزنجبار وبربرة، وكانوا يعودون منها بالذهب والعنبر والبضائع الأفريقية المختلفة .

وظهرت معرفة العرب للبحار في الشعر العربي الجاهلي ومنه ما يذكره طرفة بن العبد الذي عاش في أواخر القرن السادس :

كأنَّ حُدُوجَ المالكيَّة غُدوةً ... خلايا سفين بالنواصف من دَدِ
عَدَوْليةٌ أو من سفينَ ابنِ يامنٍ ... يَجوزُ بها المـلاّحُ طَوْراً ويهتدي
يَشُقُّ حُبابَ الماءِ حَيْزومُها بها ... كما قسمَ التربَ المُفايِلُ باليدِ

والعدولية هي سفينة من مرفأ عدوليس أو أدوليس بالحبشة ، أما ابن يامن البحار العربي فيبدو أنه كان يمتلك مجموعة من السفن . وقول الشاعر : عدولية أو من سفن ابن يامن يوحي بأنه كان يخمن أن السفينة حبشية أو عربية . وقد ذكر امرؤ القيس ابن يامن في إحدى قصائده مما يدل على شهرته . إن قول مثل هذا الشعر يتعذر على شاعر لم يخض البحر بنفسه .

ولعمرو بن كلثوم شعر في البحر يدل على نشاط بحري عربي سابق للإسلام إذ يقول :

مَلأْنا البرَّ حتى ضاق عنَّا ... وظهرُ البحرِ نَملأُه سَفينا

وعن هذا الموضوع ومواعيد الإبحار إلى البحار الشرقية ، وسرعة الإبحار ومسافتها راجع : سحاب (فيكتور) ، إيلاف قريش، بيروت ١٩٩٢، ص٢٦٦-٢٨٣؛ وتعليق المترجمة ، ص٢٨ص١٣٦ .

وعن قيام السبئيين بصناعة الطوافات والقوارب الجلدية واستخدامها للانتقال من "إثيوبيا إلى العربية" كما يذكر كل من أجاثارخيديس وأرتيميدوروس . راجع ص٦١-٦٢ من الترجمة . (المترجمة)

أو البحر اهتماماً كبيراً في رواياتهم ، لهذا السبب انحصرت قوافل تجارتهم في السير عبر المناطق الأكثر أمنا والقريبة قدر الإمكان من المشترين لبضائعهم من مكة ، مثل ديدان المعينية ، وتدمر الرومانية ، وحائل (مدينة ابن الرشيد). ويرى البعض أن مكة استفادت عوضاً عن ذلك من كونها تقع في مفترق الطرق التجارية في بلاد العرب[١٢]، أو بمعنى آخر بما يسمى بتجارة الطيوب من جنوب العربية حتى سوريا[١٣]. ولكن هذا التفسير الذي يقدمه بوليه (Bulliet) تفسير خاطئ تماما ؛ لأن مكة تقع في مكان بعيد عن حافة شبه الجزيرة العربية ، ويمكن وصف موقعها طبقًا لأكثر الخرائط ابتعاداً عن هذه الحافة بأنها تقع في مفترق الطرق بين الطريق الشمالي والجنوبي وبين الطريق الشرقي والغربي[١٤]، ولكن كونها متساوية الأبعاد من الجنوب حتى سوريا يعد سببًا غير كاف ليجعل منها محطة في طريق الطيوب؛ لأن القوافل[*] التي تسافر عبر هذا الطريق تتوقف خمساً وستين مرة في خلال رحلتها ، ولم تكن مرغمة على التوقف في مكة بسبب توسط موقعها ، وإضافة إلى ما تقدم ففي رحلة تستغرق حوالي شهرين فإن فكرة الاسترخاء في منتصف الطريق تعد فكرة غير صائبة[**][١٥]. أما السبب الثاني فيتمثل في أن المناطق القاحلة الجرداء لا تُتخذ مكانا لمحطات تجارية ،

(*) استخدمت القوافل العربية الإبل في نقل بضائعها منذ زمن طويل، وقد عثر على كثير من الأدلة المادية التي تؤكد وجود الإبل في الجزيرة العربية قبل الألف الثاني ق.م. وتتمثل تلك الأدلة في العثور على عظام الإبل في دولة الإمارات بمناطق عديدة منها ، ورسوم في جزيرة أم الفار إضافة إلى وجود رسوم للإبل في منطقة نجران في المملكة العربية السعودية من الفترة نفسها. مسفر الخثعمي، "الأثر السياسي والحضاري لدرب البخور في عصور ما قبل الإسلام"، سلسلة مداولات اللقاء العلمي الثالث لجمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون ، مسقط، أبريل ٢٠٠١، ص٣١ ، و٣٧ . وراجع تعليق المترجمة ص٣٧ . (المترجمة)

(**) إذا كانت كرون تعترف بأن مكة تتوسط طريق الطيوب، وأن القوافل التجارية كانت تتوقف في خمس وستين محطة خلال رحلتها، فالمرجح أن توقفها في مكة كان أمرا منطقيا لما تتمتع به من أمن وأمان خصوصًا بعد تنظيم قريش لأمورها . وإذا كانت قريش تستطيع تدبير التموين لقوافلها التي تراوحت حجم القافلة منها بين (١٠٠٠) و (٢٥٠٠) جمل ، ويحمل كل جمل حمولة تبلغ حوالي مائتي كيلو جرام وأكثر، فقد كان يمكنها تدبير التموين للقوافل المارة بها من المناطق القريبة منها مثل الطائف، خصوصا بعد أن ملأت شهرتها سماء الجزيرة العربية بعد فشل حملة أبرهة على البيت الحرام وبعد عقد هاشم وإخوته ، قبل ذلك ، الإيلاف والعهود مع بيزنطة والقبائل العربية . راجع تعليق المترجمة ص٥٨ . وعن محطات القوافل راجع مسفر الخثعمي ، المرجع السابق، ص٣٧، ٣٨ والخرائط المذكورة لديه . (المترجمة)

خصوصًا أن القافلة كان يمكن أن تجد لها منطقة خضراء على مسافة قريبة منها مثل الطائف فلماذا إذن تتوقف فى مكة ولا تتوقف في الطائف؟! حقيقة لقد كانت مكة تحتل مكانة كبيرة ولها قداستها ، ولكن الطائف أيضًا كان يمكنها أن تقدم التموين اللازم لتلك القوافل . ثالثًا: إن مكة لم تقع على طريق الطيوب إطلاقًا ، فالذهاب من جنوب العربية إلى سوريا عبر مكة يعد ابتعاداً عن الخط الطبيعي لها، وقد أوضح كل من موللر (Muller) وجروم (Groom) أن طريق البخور كان يبعد عن مكة بمسافة تبلغ حوالى ألف ميل[١٦]. ويرى آخرون أن مكة لم تكن بعيدة وأراضيها جرداء فقط ، بل إنها كانت بعيدة أيضًا عن الدروب المطروقة . ويرجع بوليه (Bulliet) السبب الرئيسى فى كون مكة قد أصبحت مركزًا تجاريا إلى كونها استطاعت ونجحت بطريقة أو بأخرى فى أن تضع التجارة تحت سيطرتها[١٧] . وفى الواقع إنه من الصعب علينا البحث والتفكير فى أسباب أخرى . ولكن ما هى تلك التجارة ؟ وما هو المجتمع الذى كان قادراً فى العربية على أن ينقل التجارة عبر هذه المسافة الطويلة فى أراض غير آمنة ثم يتمكن بعد ذلك من أن يحقق ربحا كبيراً يعطى الفرصة لمدينة أن تنمو فى مكان موحش خال من المصادر الطبيعية؟ إن القمح كان يشحن بالسفن وينقل من الإسكندرية لروما عبر مسافة تبلغ ١٢٥٠ ميلاً فى عصر الإمبراطور ديقلديانوس(*) بسعر أقل من نقله براً لمسافة تبلغ خمسين ميلاً[١٨]. وتبلغ المسافة بين نجران وغزة ١٢٥٠ ميلاً دون العروج على مكة[١٩]. وعندما أخبر الرسول [ﷺ] أهل مكة بزيارته لبيت المقدس[٢٠] ليلاً كذبوه وقالوا إن الرحلة إلى سوريا تستغرق منهم شهراً فى الذهاب وشهراً فى العودة . ولنا أن نتساءل عن أنواع البضائع التى قام أهل مكة بالتجارة فيها ؟ لابد من أنها كانت نادرة ، تثير الطمع فيها ، وبطبيعة الحال خفيفة الحمل ، وغالية الثمن .

ونقرأ فى المصادر كثيراً عن تجارة مكة دون أن نتساءل عن معرفة سر ما كان أهل مكة يتاجرون فيه ، بل إن معظم المصادر الإسلامية تصفهم بأنهم كانوا يتاجرون فى الطيوب والتوابل وبعض البضائع الأجنبية ."وفى أواخر القرن السادس استطاعوا أن يسيطروا على كل التجارة من اليمن إلى سوريا، وهو ذلك الطريق المهم الذى كان

(*) تولى الإمبراطور ديقلديانوس حكم الإمبراطورية الرومانية من سنة ٢٨٤ إلى سنة ٣٠٥م . (المترجمة)

يحصُل الغرب بواسطته على كل من بضائع الهند الفاخرة وطيوب العربية الجنوبية". ويخبرنا وات (Watt)[٢١] بأن "مكة كانت تعد نقطة لعبور التجارة بين الهند وأفريقيا والبحر المتوسط" ويوافقه دونر (Donner) على رأيه في دراسته الحديثة بخصوص هذا الموضوع ، كما أن المصادر الثانوية تقدم لنا الرؤية نفسها [٢٢] ، فالبخور والتوابل والعبيد والحرير وما إلى ذلك قد يناسب قائمة البضائع . أما كيستر (Kister) فهو يرى أن تجارة مكة كانت على قدر كبير من التواضع، حيث اعتمدت تجارتها الدولية على الجلود والملابس التي قام أهل مكة بصناعتها وكانت رخيصة الثمن ، بمعنى أن كيستر لا يشير إلى الطيوب أو التوابل، ويتردد القول نفسه في كتابات سبرنجر (Sprenger) الذي يصنف تصدير الجلود في مكة على أنها كانت رخيصة[٢٣] . من الواضح أن هناك شيئًا مفقوداً ! هل حقيقة أن تجارة مكة اعتمدت على البخور والتوابل وغيرها من البضائع الفاخرة الثمينة ؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك هل تمكّن أهل مكة من إنشاء تلك الإمبراطورية التجارية ذات الأبعاد العالمية على أساس تجارة الجلود والملابس ؟ ويبدو أن الإجابة هي بالنفي على كل من السؤالين معًا. من هنا فإن تجارة مكة تعد مشكلة .

لماذا إذن ساد الاعتقاد بين المسلمين بأن تجارة مكة كانت تتمثل في الطيوب والتوابل ومثل هذه الأشياء ؟ يبدو أن السبب في ذلك يرجع إلى شهرة الجزيرة العربية وقدمها الراسخة في هذه البضائع في ذهن كل مثقف. كذلك نحن نتساءل عن ماهية البضائع الأخرى التي كانت متوافرة في العربية والتي يقوم أهل مكة باستيرادها ؟ كانت تجارة التوابل العربية لها شهرتها في العالم القديم ، ولذلك جاء كل ذكر لها عبارة عن شريط نمطي مسجلاً لهذه الصورة (Stereotype) ، ويمكن أن نلخص ذلك الشريط المسجل على النحو التالي :

نمت تجارة عرب الجنوب أولاً في الطيوب في الألف الثالث قبل الميلاد ، ثم بعد ذلك في البضائع الأجنبية، ولهذا فإن أقدم الصلات التجارية والثقافية بين البحر المتوسط وبين المناطق الواقعة حول المحيط الهندي ترجع إلى طريق الطيوب البري[٢٤]. ثم أخذت هذه الصلات تطّرد في نموها منذ القرن التاسع ق.م ، عندما قامت ملكة سبأ بزيارة سليمان (عليه السلام)، وعندما أخذ العرب يسيطرون على الطريق البحري إلى الهند[٢٥]. ثم قاموا بمد مصر بالتوابل الهندية والمصنوعات والأحجار الكريمة حول هذا

التاريخ[٢٦]. وحدث الشيء نفسه بالنسبة للعراق ، أما بخصوص سياسة الآشوريين تجاه العربية فقد تركزت حول تأمين طريق تجارة الطيوب[٢٧]. ويرى البعض أن التجارة بين بابل والهند قد وقعت في يد العرب منذ غزو الفرس الأخمينيين **Achaemenid** من قمبيز ٥٥٩ إلى ٣٣١ ق.م للعراق[٢٨] . منذ ذلك التاريخ أصبح فى إمكانهم أن يقدموا لزبائنهم كل بضائع الهند والشرق الأقصى وأفريقيا الاستوائية من بلاد الحبشة حتى مدغشقر[٢٩] . إنهم قوم عجيبون إذا كانوا يبحرون إلى أفريقيا والهند ، ولكنهم ما إن يصلوا إلى شواطئهم حتى ينقلوا باعتهم بالقوافل ، فسفنهم رغم ملاءمتها للأسفار الطويلة، كانت بدائية فلا تحتمل الإبحار فى البحر الأحمر، وكذلك على ما يبدو فى الخليج الفارسي[٣٠] وهكذا تمكنوا من إقصاء الهنود خارج دائرة البحر الأحمر حتى لا يقوموا بمنافستهم فى احتكار هذه التجارة(*).

ومع هذا فإن معلوماتنا لا تزال قاصرة عن تلك التجارة المبكرة[٣١]. وعلى ذلك فإننا يمكن أن نقول إن ما ذكره كل من بليني **(Pliny)** (ت٧٩م) وصاحب كتاب الطواف **(Periplus)** (حوالى عام ٥٠م)(**) كان انعكاساً طبيعيا لتجارة الطيوب فى سبأ القديمة منذ تسعة قرون سابقة[٣٢]. ويمكن أن يقال ضمنًا إن تجارة العرب استمرت كذلك بعد هذا التاريخ بحوالى خمسة قرون. إن العرب الجنوبيين واصلوا الاتصال التجارى المباشر بين الهند والعالم اليونانى الرومانى ؛ ولذلك فعندما اضمحلت الأوضاع فى بلاد العرب الجنوبية تسلم أهل مكة المهمة لكى يلبُّوا طلب الرومان الهائل من البضائع

(*) إن هذا التهكم يبدو ذكيا، لولا أننا لم نعثر فى أى مصدر على من ادعى يومًا أن قريشا كانت تبحر فى سفنها إلى الهند أو أفريقيا . فإذا كان القرشيون مثلا يستأجرون سفنا يقودها بحارة من الأزد الذين احترفوا الملاحة ولم يحترفوا قيادة قوافل الصحراء، فلن يكون هناك ثمة سبب للتهكم ، لأن إحضار البضائع التجارية إلى حيث يتسلمها تجار احترفوا تسيير القوافل ولم يخوضوا البحر يصبح أمراً منطقيا إلى أبعد الحدود . راجع تعليق المترجمة ص٢٣ . (المترجمة)

(**) كتاب الطواف حول البحر الأحمر مؤلفه مجهول، ويوضع له تواريخ مختلفة تتأرجح بين القرن الثانى ق.م. والقرن الأول الميلادي وأفضل تاريخ القرن الثاني ق.م الذى يمثل فترة نشاط بطالمة مصر في البحر الأحمر ، ومما يعزز هذا الرأى ما ذكرته بعض المصادر من أن الملك بطلميوس الثامن (يورجتيس الثانى Eurgetes ١٨٢/١ - ١٦٦ق.م) قام باختيار يودوكسوس الكيزى Eudoxus of Cyzicus ليقود بعثة كشفية: مما تعد دليلا على استفادة البطالمة من الرياح الموسمية في السفر . راجع : Jehan Desanges, Recherches Sur L'activite des Mediterranees aux Confins de L'Afrique, Rome 1978, p.158 . وراجع الحاشية رقم (١٠١) ، ص ٩٩ من الترجمة . (المترجمة)

الفاخرة[٣٣]. لقد استخدم أهل مكة الطريق البرى حيث كان تحت سيطرتهم طريق الطيوب القديم ، كما تمكنوا من فرض سيطرتهم على بقية أنحاء العربية[٣٤]. وقاموا باستيراد البضائع نفسها والمتمثلة فى اللبان العربى والعاج من شرق أفريقيا ، والذهب، والتوابل الهندية والحرير الصينى والبضائع الأخرى المماثلة[٣٥]. وهذا يعنى أن هذه التجارة الضخمة ظلت مزدهرة حتى وضع فتح العرب لبلدان الشرق الأوسط حدا لها بعد أن عاشت فترة تتراوح ما بين ١٥٠٠ و ٢٢٥٠ عاماً .

إن هذا الأمر لا يمكن تصديقه بطبيعة الحال ، ولذلك سوف أكرس جهدى لكى أثبت فى هذه الدراسة خطأ هذا الرأى ؛ لأن تجارة عرب الجنوب فى الطيوب والتوابل لم تكن قديمة فى تاريخها كما يرى البعض، إضافة إلى أن هذه البضائع لم تكن تستخدم فى رحلتها إلى الشمال القوافل البرية دائماً . والدليل على ذلك أن آخر ذكر للطرق البرية يؤرخ بالقرن الأول (أوائل القرن الثانى الميلادى كما يرى البعض) وهو التاريخ الذى تبدأ عنده التجارة البحرية . بمعنى أنه لم يكن هناك وجود لتجارة الطيوب أو لنقلها ، يمكن أن يرثها أهل مكة . وينطبق القول نفسه على تجارة التوابل وبضائع الترف الأخرى . ونختم هذا الرد بالقول إن الرواية العربية أغفلت هؤلاء التجار الذين كان أهل مكة يقومون بتسليم البضائع لهم ، والمفترض أن الإغريق هم الذين كانوا يقومون بهذا الدور ، والمعروف أن الإغريق لم يسمعوا نهائيا عن أهل مكة ، وإذا سلمنا بما تذكره الرواية الإسلامية بأنه كانت هناك تجارة لأهل مكة ، فإن التجارة التى وصفتها الرواية الإسلامية لا تشبه التجارة التي جاء وصفها لدى لامينز ووات ومن سار فى ركابهم إلا شبها ضئيلاً(*).

(*) تذكر كرون أن التجارة البحرية تؤرخ بالقرن الأول أو أوائل القرن الثانى الميلادى ، ولكنها لم تذكر متى تعثرت هذه التجارة . لقد أصيبت التجارة البحرية بالشلل منذ النصف الثانى من القرن السادس بسبب الصراع بين فارس وبيزنطة ، الذى نتج عنه قيام فارس بقطع إمدادات التجارة الشرقية وخصوصا فى الحرير عن بيزنطة من الجانب الشرقى ، ثم من اليمن بعد أن طُرد الحكم الحبشى الموالى لبيزنطة بمساعدة الفرس . هنا جاء دور قريش فى نقل التجارة الشرقية برا حتى الشمال لتصل إلى الإمبراطورية البيزنطية. وتنفى كرون إشارة المصادر الإغريقية إلى العرب وهى بهذا لا تذكر صراحة أنها المصادر البيزنطية لأنه لم يكن هناك وجود لإغريق فى المنطقة فى ذلك الوقت ، وقد أشارت المصادر البيزنطية إلى التجار العرب (راجع : ص٢٠٤، ص٢٠٨ من الترجمة)، كما زار تجار بيزنطيون مكة وتاجروا فيها قبل الإسلام. (راجع ص٢٤١، ص٢٩٩ من الترجمة) . (المترجمة)

الحـواشـى

(١) W.M. Watt, Muhammed at Mecca, p.3.

(٢) Lammens, la Mecque a la veille de L'hegire. id, la rapublique merchande de la mecque vers L'an 600 de notre ere, cf. also id., La cite arabe de Taif a la ville de L'hegire. يتضح هنا أن لامينز هو المصدر الذى اعتمد عليه وات فيما قدمه ويبدو ذلك من المحتوى ومن حقيقة كونه هو المصدر الوحيد الذى جاء ذكره . وأكد لامينز على قناعته بتفاصيل العمليات المالية فى مكة ، أما الخاتمة التى ذكر فيها أن هذه العمليات تحمل قدرا كبيرا من التشابك فهو أمر مقبول . (Watt, Muhammad at Mecca, p.3) .

(٣) راجع على وجـه التـحـديد ;"M.J. Kister, "Mecca and Tamim (Aspects of their relations and Id., "Some Reports Concerning Mecca from Jahiliyya to Islam" .

(٤) M.A Shaban, Islamic History, A New Interpretation, pp.2ff; إن ما قدم هنا يعتمد على عمل كيستر Kister المذكور فى الحاشية رقم (٢)؛ F.M. Donner, "Meccas Food Supplies and Muhammads, boycott," ، ويحال القارئ إلى عمل كل من لامينز وكيستر والحاشية ص٥٢ وما يليها .

(٥) محمد بن أحمد المقدسى، وصف بلاد المسلمين، ص٨٥عدن، ص٩٥.(*) (عن المدن الساحلية بصفة عامة). وكان لشبوة Shabwa أهمية تناظر أهمية مكة قبل الإسلام، وهى تقع فى الداخل فى منطقة قاحلة ، ولها مركز للعبادة، علاوة على كونها مركز للتجارة (cf. EI2,S.v. Hadramawt Beeston) وكان حظ حكام شبوة جيدا حيث تمكنوا من السيطرة على مناطق إنتاج البخور Frankincense فى بلاد العرب وكان لهم حق اختيار المكان الذى يتم فيه تجميع البخور (وسوف أعود لهذه القضية فيما بعد) ، وهو شىء لم يكن له نظير فى المنطقة أو أثناء سيطرة مكة .

(٦) وليس جَرَة Jar ، كما ذكر دُونر Donner فى: "Meccas food supplies", p.254). وجارُ Jar هى ميناء المدينة، وظلت الشعيبة ميناء جدة حتى حل ميناء جدة مكانها الحالى فى عهد الخلافة العثمانية، cf. EI2. S.V.V. Djar, Djudda; cf. also G.R. Hawting," The Origin of Jedda and the) Problem of al-Shu' ayba."

(*) ذكرت كرون اسم كتاب المقدسى باللغة اللاتينية على النحو التالى : Descriptio imperili moslemici لم أتمكن من معرفة اسمه فى المصدر العربى الأصلى ، لذا قمت بترجمته على النحو السابق ، وإن كانت الترجمة الحرفية عن اللاتينية هى "وصف الإمبراطورية الإسلامية" ، وحيث إن اصطلاح الإمبراطورية لم يكن مستخدما من قبل المسلمين فى ذلك الحين ؛ فقد آثرت الترجمة السابقة وهى التى سوف أشير إليها عندما يرد ذكره فى الحواشى . (المترجمة)

(٧) أربعون مرة طبقا لما ذكره فرينكل S.Fraenkel, Die aramaischen Fremdwoerter im Arabis-chen, p.211 وقد أوضح بارثهولد Barthold أنه أمر غير عادي ، فلا يوجد أى دليل على أن محمداً [صلي الله عليه وسلم] سافر بحرا، أو أنه حتي اقترب من البحر ، على الرغم من أن هذه الأوصاف واضحة W.W.Barthold, Der Koran und das Meer .

(٨) أحمد ابن حنبل، الحلال al-Halal ، ج١ص٢٤٤، رقم ١٠٤١٠ (وكان كيستر Kister هو أول من لاحظ القصة التى أوردها سليمان بن أحمد الطبراني والتي ذكر فيها أن الصحابة اعتادوا العمل في التجارة البحرية مع سوريا، وكان كيستر هو أول من سجل هذه الملاحظة أيضاً).

(٩) عندما قامت قريش ببناء الكعبة قبل فترة قصيرة من الهجرة، حصلوا على الخشب الذى استخدم فى سقفها من سفينة يونانية(*) كانت قد تحطمت فى الشعيبة (محمد بن عبد الله الأزرقى ، أخبار مكة ص١٠٤وما يليها . محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ج١، ص١٤٠ . ياقوت بن عبد الله ، كتاب معجم البلدان، ج٣، ص٣٠١، مادة شعيبة . أحمد بن علي بن حجر العسقلانى ، كتاب الإصابة فى تمييز الصحابة، ج١، ص١٤١، رقم ٥٨٠، مادة باقوم) . أما المصادر التى ورد فيها أن السفينة كانت جانحة فى جدة فهى : (عبد الملك بن هشام،عن كتاب محمد المنسوب إلى محمد بن إسحاق ، ص١٢٢ . محمد بن جرير الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، مجلد١، ص١١٣٥). وتوسعت مصادر أخرى في الحديث عنها بقولها إن هذه السفينة كانت تحمل مواد بناء أخرى مثل الخشب والرخام والحديد لإعادة بناء إحدى كنائس الحبشة التى كان الفرس قد دمروها(إسماعيل بن عمر بن كثير، البداية والنهاية، ج٢ص٣٠١ . رواية المغازى عن سعد بن يحيي الأموى،وأيضاً على بن الحسين المسعودى، كتاب مروج الذهب،ج٤، ص١٢٦ وما يليها) . راجع كذلك : Gaudefroy- Demombynes, Le pelerinage a la Mekke, pp.33f. .

(١٠) انتقل المهاجرون إلى الحبشة كما هو واضح في سفن تابعة لتجار أجانب، وحاولت قريش أن تتعقبهم ، ولكنها توقفت عن ذلك عندما وصلت للشاطئ. راجع الطبرى، تاريخ ، مجلد(١)، ص١١٨١ وما يليها؛ ابن سعد ، الطبقات، ج١، ص٢٠٤ .

(١١) ونُصحت قريش عندما أُغلق الطريق البرى "بتجنب الساحل واتخاذ طريق العراق" ، محمد بن عمر الواقدى ، كتاب المغازى ، ج١، ص١٩٧، وقد وردت هذه الملاحظة عدة مرات ، ويبدو أن لامينز هو الذى قدمها لأول مرة (Lammens, Mecque, p.381) .

(١٢) ترجع هذه الفكرة أساسا إلى لامينز (Mecque, p.118, "Republique," pp. 26,51)، ثم أخذ "وات" يرددها منذ ذلك التاريخ Watt, Muhammed at Mecca, p.3; Shaban, Islamic history, I,6; M. Rodinson, Mohammed, p.39; P.K. Hitti, Capital Cities of Arab Islam, p.7; I. Shahid (Kawar) The Arabs in the Peace Treaty of A.D.561, p.192.

(١٣) وترجع هذه الفكرة أيضاً إلى لامينز فى cf Republique, p.51، وهى إحدى المناطق المهمة على هذا الطريق: "Mecque," p.118، ولذلك فمن المحتمل أنها كانت بمثابة محطة . قبل لويس B. Lewis هذا القول بحذر The Arabs in History, p.34، كما قبلها فيليب حتّي بتأييد كبير Capital Cities, p.5.

(*) أى : سفينة بيزنطية . ويلاحظ أن كرون كثيراً ما تطلق اسم اليونانيين على البيزنطيين وهو استخدام غير صحيح على الرغم من استخدام البيزنطيين اللغة اليونانية لغة رسمية لهم منذ أواخر القرن الرابع الميلادى ، وذلك حتى لا يتم الخلط بينهم وبين الشعب الإغريقى (اليونانى) عند القارئ . راجع على سبيل المثال الحاشية رقم ١٣٨ ، ص ١٠٣ من الترجمة . (المترجمة)

(١٤) R.W. Bulliet, The Camel and the Wheel, p.105 and n. 40 استخدم لامينز عبارة البلاذرى عن الحديبية لتأييد هذا الرأى فقد منح هذا الاتفاق الأمان للرجال المسافرين من المدينة إلى مكة فى كل من الحج والعمرة ، أو فى طريقهم إلى الطائف أو إلى اليمن، وبالمثل إلى المسافرين من مكة إلى المدينة فى طريقهم إلى سوريا والشرق (أحمد بن يحيى البلاذرى، كتاب فتوح البلدان، ص٣٦؛ لنفس المؤلف، كتاب الأشراف، ج١، ص ٣٥١، أما باقي نصوص هذه المعاهدة فهى تفتقر إلى مثل هذه المادة . (انظر مادة الحديبية EI2, S.V. al Hudaybiya والمصادر التي ذكرت فيها). ويرجع هذا القول أن الأفراد الذين يذهبون لليمن يجب أن يتم ذلك عن طريق مكة، كما تصور أنهم يذهبون من المدينة وليس من مكة عند ذهابهم إلى سوريا والعراق (أورد لامينز معلومات كثيرة عن المدينة فيما لو أنها يمكن أن تنطبق على مكة بالمثل).

(١٥) Bulliet, Camel and the Wheel, p.105 .

(١٦) W.W. Muller, Weihrauch, Col. 723; N. Groom, Frankincense and Myrrh, p. 193 . In W.C. Brice, ed., An Historical Atlas of Islam, pp. 14f., 19 ما زال طريق البخور يمر من خلال مكة .

(١٧) Bulliet, Camel and the wheel, p.105.

(١٨) A.H.M. Jones, The econamic life of "the towns of the Roman Empire", p.164; ، ثم قارن ذلك بما ورد لدى N. Steensgaard, Cracks, and Caravans and Companies, p.40 .

(١٩) انظر قائمة جيروم المفيدة عن المسافات التي تقطعها الرحلة بالأميال والأيام Groom, Frankincense, p.213 .

(٢٠) ابن هشام، السيرة، ص٢٦٤ .

(٢١) Watt, Muhammed at Mecca, p.3; Similarly, id., Muhammed, Prophet and Stateman, p.l; id "Kuraysh" in EI2.

(٢٢) Donner, "Meccas food Supplies," p.250, انظر على سبيل المثال، H.A.E. Gibb, Islam, pp. 17,26; B.Aswad, "Social and Ecological Aspects in the Origin of the Islamic State", p.246; Hitti, Capital Cities, p.7; Shahid, "Arabs in the peace Treaty", pp. 190 ff.; cf id, "Two Quranic Suras: al-Fil and Quraysh, p.436 وأدين بالشكر للدكتور هندس G.M. Hinds الذى لفت انتباهي لهذا البحث ؛ I.M.Lapidus, The Arab Conquests and the formation of Islamic Society, p.60; Groom, Frankincense, p.162 .

(٢٣) Kister, "Mecca and Tamim", p.116; A.Sprenger, Das Leben und die Lehre des Mahammed, III, 94f.

(٢٤) C. Rathjens, "Die alten Welthandelstrassen und die Offenbarungsreligionen, pp.115, 122.

(٢٥) H.Von Wissmann, Die Mauer der Sabaerhauptstadt Maryab, p.l; R. le Baron Bowen, "Ancient Trade Routes in South Arabia, p.35 . وهناك وجهة نظر تطابق هذا الرأى فى : G.L. Harding, Archaeology in The Aden Protectorates, p.5 . وليس من الواضح ما إذا كانت الطيوب التى ألقتها ملكة سبأ تحت أقدام سليمان المذكورة عند Rathjens, Welthandelstrassen, p.122 تصنف على أنها عربية وهندية . ومما هو مؤكد أن مولر Muller

لم يورط نفسه فى هذا الرأى ، على الرغم من أنه قبله دليلاً على وجود تجارة الطيوب العربية -Weih)
. rauch, Col. 745)

(٢٦) . W.H. Schoff, tr., The Periplus of the Erythrean Sea, p.3 (المصادر والصفحة ترجع إلى تعليقات شوف Schaffs، أما العنوان والفقرة فهى ترجع للترجمة).

(٢٧) T.W. Rosmarin, "Aribi und Arabien in den babylonisch- assyrischen Quellen", pp.2,7,22; A.van den Branden, Histoire de Thamoud, p.6.

(٢٨) J. Rennedy "The Early Commerce of Babylon With India", P.271.

(٢٩) Rathjens, Welthandelstrassen, p. 122.

(٣٠) B. Doe, Southern Arabia, p. 150; Rathjens, "Welt- handelstrassen," p.115, ويوجد فى كليهما مصادر عن البحر الأحمر فقط .Kennedy, "Early Commerce", pp.248f، وقد أكد كنيدى أنهم لم يكن لديهم القدرة على الإبحار فى الخليج الفارسى ، ولكن دوى Doe يرى أن سفن الجرهائيين البدائية كانت كافية للإبحار فى الخليج الفارسى (Southern Arabia, p.50)، ويرى شوف Schoff أن سكان جنوب العربية كانت لديهم القدرة الكافية للإبحار فى البحر الأحمر . ارجع إلى شوف (Schoff, Periplus, p.3) الذى جعل من استخدام الطريق البرى شيئًا شاذا .

(٣١) Schoff, Periplus, pp.88f.; E.H. Warmington, The Commerce between the Roman Empire and India, pp.11,13. cf. below, ch.2 n. 105 .

(٣٢) وعن تاريخ كتاب الطواف Periplus انظر الآن M.G.Raschke, "New studies in Roman Commerce with the East", pp.663 ff. مع إشارة كاملة إلى المصادر الأدبية الخاصة بالموضوع، وعن سبأ راجع: G.W. Von Beek, "The land of Sheba", p.48; cf. also id, Frankin- cense and Myrrh in Ancient South Arabia, p.146.

(٣٣) Schoff, Periplus, p.6; H.Hasan, A History of Persian Navigation, p.48; Donner, "Mecca's food Supplies", p.250.

(٣٤) Watt, Muhammad at Mecca, p.3; Shahid, Two Quranic Suras, p.436 وبالمثل : لدى بارية R.Paret, "Les Villes de Syrie du Sud et les Route Comerciales d' Arabie a la fin du VI, siecle", pp.441 f.; R. Simon, "Hums et ilaf, ou Commerce sans guerre," pp.222. على الرغم من أن العمل الذى قدمه سيمون عبارة عن محاولة جديدة لتبديل الحقائق .

(٣٥) سنذكر الوثائق التفصيلية فى الفصل الثالث؛ وقارن المثال الذى قدمه دوى Doe فى Southern Ara- bia, p.32 (فيما يخص الإشارة إلى القرنين السادس والخامس ق.م) ودونر فى Mecca's food sup- plies", pp.250,254 فيما يخص الإشارة إلى القرن السادس وأوائل القرن السابع الميلادى).



الفصل الثانى

تجارة الطيوب فى العصور القديمة

إن الهدف من هذا الفصل هو تصحيح الأخطاء الشائعة عن تجارة الطيوب فى العصر القديم ، والتى كان لها أكبر الأثر على تجارة مكة. إن السبب فى قيامها يرجع أولاً إلى انهيار تجارة الطيوب فى بلاد العرب ومن جهة أخرى للتدخل الأجنبى فيها ، وكل من هذين السببين يرتبطان ارتباطًا وثيقًا بموضوع هذا الكتاب . إن القارئ الذى لا يهتم بهذا الموضوع عليه أن يعرج مباشرة على الجزءين الثانى والثالث من الكتاب ، ويمكنه الرجوع إلى هذا الفصل عند الإشارة إلى النواحى المرتبطة بموضوعه فى هوامش الجزءين الثانى والثالث .

تجارة الطيوب The incense trade

كان اصطلاح "الطيوب العربية" فى العصر القديم أشمل من معناه فى العصر الحديث ، حيث كان يعنى المواد التى تنبعث منها عند حرقها رائحة زكية : كالعطور والمراهم والمواد المعطرة ذات المذاق المستساغ التى تستخدم فى الطعام والشراب والمواد التى تجدد الشباب وتطيل العمر نظراً لأهميتها الطبية والسحرية ، وكان من بينها أيضًا المواد المضادة للسموم[1]. ونتيجة لتعدد استخدامات الطيوب المكية أطلق عليها رودنسون (Rodinson) الطيوب (incense) ، أما مارجوليوث (Margoliouth) ووات (Watt) فيقصدان بهذا الاصطلاح بضائع الترف الهندية التى يبدو أنها كانت تعنى عندهم التوابل[2]. وسوف أستخدم اصطلاح الطيوب (incense) بدون تحديد لأنواعها الثلاثة إلا عندما تقتضى الضرورة ذلك ، وسأبدأ بتناول طيوب بلاد العرب .

يعد اللبان الذكر (Frankincense) والمر (Myrrh)[٣] النوعين الأساسيين في البخور العربي[*]. والنوع الأول يسمي في اللغة اليونانية ليمبانوس (Limbanos) وليمبانوتوس (Limbanotos) ؛ وفي اللاتينية إيبـوس (Ibus) ؛ وفي العربية لُبان ، وهو عبارة عن لُبانة حمضية ، أو بتحديد أكثر لُبانة حمضية زيتية يمكن استحلابها ومنها أنواع متعددة ، فالنوع الذى ينتمى إلى العائلة النباتية التى تسمى بورسيَركاى -Burserac) cae) يتم جنيه عن طريق عمل شقوق في اللحاء[٤]، وتعد كل من بلاد العرب وسوقطرة وشرق أفريقيا والهند هى الموطن الأصلى لهذا النوع . وهناك نوعان فقط من هـذاالقسم يعدان من أنواعه الأصلية التى تنتج "اللبان الذكر الأصلى" (Frankincense)، وهي تلك المادة التى كانت لها أهمية كبيرة في العالم القديم . وهذان النوعان هما: (B. Carteri) و (B. Sacra) (وهمـا يندرجان معًا ضمن إطار التحديد السابق)[٥]. وموطنها الأصلى العربية الجنوبية وشرق أفريقيا . ولقد طمع كل من المصريين واليهود والإغريق والرومان والفرس فى هذا النوع بل لقد طمع فيه الهنود والصينيون أيضًا . وكان يتم حرق اللبان فى المعابد تمجيداً للآلهة ، وفى الطقوس الجنائزية وفى المنازل الخاصة ، كما كان يستخدم في الأغـراض الطبية (بالمعنى الحديث للكلمة)، واستخدم قليل منه في تركيب العطور .

أما المر (Myrrh) ويسمى فى اللغة اليونانية ميريا (Myrrba) وسميرنال (Smyrnale) ، وفى اللغة اللاتينية ميربا (Myrrba) ، وفى اللغة العربية المُر (Murr) ، فهو عبارة عن لُبان صمغى زيتى يمكن استحلابه ، ومنه عدة أنواع ، فَمِنهُ المسمى كوميفورا (Commiphora) ، والمسمى بلسامودندرون (Balsamodendron) وهو ينتمى إلى العائلة النباتية نفسها التى

(*) راجع المقالة المهمة للدكتور عبد المنعم عبد الحليم سيد ، "البخور عصب تجارة البحر الأحمر فى العصور القديمة" ، فى مجلة كلية الآداب ، جامعة الملك عبد العزيز ، المجلد الثانى ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص١٤١-١٧٤ . ونورة عبد الله العلى ، "الوضع الاقتصادى فى الجزيرة العربية فى الفترة من القرن الثالث ق.م وحتى الثالث الميلادى" ، رسالة ماجستير منشورة ، وهى من أهم الدراسات العربية التى كتبت حديثًا فى هذا الموضوع، الرياض ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ، ص ٢٣١-٢٣٧ . وسوف أشير إلى اللبان الذكر بالبخور، أما المُر فسوف أستخدم الاصطلاح نفسه عند الإشارة إليه. (المترجمة)

ينتمي إليها اللبان الذكر. وشجرة المر الشائعة هي تلك التي تسمى كوميفورا ، ووجدت منه أنواع أخرى في بلاد العرب كان السكان يعدونها أكثر انتشاراً من أشجار اللبان الذكر (Frankincense) ، التي وجدت بكثره في الصومال. ووجدت أنواع أخرى منه في الهند تنتج منها مادة الصمغ النباتي (Bdellium) وسوف أعود للحديث عنها فيما بعد.

ويدور الآن السؤال التالي : متى بدأت بلاد العرب تنتج البخور والمر؟ إن الإجابة المختصرة على هذا السؤال والتي يتداولها الكتَّاب حديثًا والتي يمكن قبولها مع شيء من التغير[٦] إن تاريخها لا يرجع إلى أقدم من القرن السابع ق.م والتي يمكن تلخيص أسبابها في الآتي :

أولاً : قام المصريون القدماء على ما يبدو باستيراد المر واللبان من بلاد بونت على الجانب الأفريقي والعربي من البحر الأحمر[٧]، حيث إنه من غير المعقول أن يبحر المصريون القدماء إلى منطقة أبعد من باب المندب تاركين خلفهم منطقة ظفار وهى المصدر الرئيسي لإنتاج المر في العربية[٨]. وحيث أن بلاد بونت كانت تشتهر بإنتاج العاج والأبنوس والزراف والأكواخ المقامة من سيقان النباتات الجافة (grass huts) ، لذلك فنحن نرجح أن المصريين القدماء قاموا بالحصول على احتياجاتهم من المواد العطرية من شرق أفريقيا . أما وجهة النظر العربية فإنها تستبعد الأدلة المصرية .

ولا توجد إشارات لدينا بعد ذلك حتى نصل لعصر ملكة سبأ التي قدمت لسليمان [عليه السلام] أنواعا من الطيوب لم تُحدد أنواعها ، وكان ذلك حوالى عام ٩٠٠ ق. م . على أي حال فإن ما ورد ذكره بخصوص هذه الملكة لا يدل على نشأة تجارة الطيوب العربية ؛ لأنها أغلب الظن كانت حاكمة على الشمال[٩] . لقد كان السبئيون هم أول من ذُكر من عرب الشمال في المصادر الآشورية ، وكذلك في العهد القديم والمصادر الكلاسيكية . والتفسير المتعارف عليه لذلك ، إن هؤلاء السبئيين كانوا يمثلون مستعمرة تجارية أصلها من الجنوب، وذلك أولاً في ضوء ظهورهم كشعب محارب في المصادر الآشورية وكمغيرين على قطيع يعقوب[عليه السلام] كما ورد في العهد القديم[١٠].

ثانياً: أثبتت المصادر الآشورية وجود ملكات على القبائل العربية فى الشمال[١١]، بينما لم يثبت وجود ملكات على قبائل الجنوب فى أى وقت من الأوقات . وعلى الرغم من ذلك ، فلا يوجد دليل على وجود النظام الملكى فى جميع أنحاء العربية الجنوبية قبل ٩٠٠ سنة ق.م .

ثالثًا: إن عدم تحديد نوع الطيوب التى قدمتها ملكة سبأ لسليمان [عليه السلام] يدفعنا إلى القول بأن هذا النوع من الطيوب كان ينمو فى كل من شمال العربية وجنوبها ، وذلك لنمو أنواع متعددة من البخور والمواد العطرية فى شمال بلاد العرب وفلسطين وأماكن أخرى ، وهذا يعنى أنها كانت محصولا محليا وليس مستورداً من العربية الجنوبية[*]، مثل تلك التى حملها إسماعيلى الجيليد إلى مصر . إضافة إلى ذلك فإنه لا يوجد فى مصادر العهد القديم ما يشير إلى أن هؤلاء القوم الذين كانت تتقدمهم ملكة سبأ كانوا من مناطق بعيدة[١٢]. وهذا يعنى أن مصادر العهد القديم لا تقودنا

(*) إن الأدلة التى قدمها المؤرخون لتعزيز الرأى القائل بأن ملكة سبأ كانت ملكة على مستوطنة (أفضل استخدام هذا الاصطلاح بدلا من اصطلاح مستعمرة الذى استخدمته كرون، لأن المستعمرة بمعناها الحديث لم تكن معروفة فى تلك الفترة التى نتحدث عنها) سبئية أسستها سبأ الجنوب فى الشمال يقبله الآن كثير من الباحثين منهم كرون ، ولعلنا نضيف إلى تعزيز هذا الرأى عاملا جديدا والمتمثل فى أن المسافة بين مملكة سبأ ومملكة سليمان (عليه السلام) فى فلسطين كانت على ما يبدو قريبة إلى الحد الذى تمكن فيها طائر الهُدهُد من القيام برحلته إليها كما أشار القرآن الكريم فى محكم آياته (سورة النمل الآية ٢٢، ٢٣) يضاف إلى ما تقدم أن قوم ملكة سبأ عبدوا الشمس بينما عبد عرب الجنوب الإله المُقه (القمر) . والمعروف أن الشعوب الوثنية كانت تعبد إما شيئًا ينتفع به مثل الشمس فى البلاد الزراعية مثل مصر والقمر فى البلاد الصحراوية الذى يهتدون به فى رحلاتهم التجارية مثل جنوب بلاد العرب ، أو شىء يخشون منه مثل الأفاعى والثعابين والتماسيح والرعد والبرق والأمطار لذلك قاموا بتقديم القرابين لها دفعًا لشرورها وقبول هذا الرأى يعنى الآتى :

أولاً: قامت سبأ الجنوب بتأسيس مستوطنات تجارية لهم على طول الطريق بين جنوب بلاد العرب وفلسطين منذ القرن العاشر ق.م . لنقل بضائعهم الرئيسة والممثلة فى البخور إضافة إلى ما كان يمكن نقله من بضائع الهند وأفريقيا التى يحتاجها سوق الشمال .

ثانياً: لما كانت هدية ملكة سبأ مقدمة من ملكة إلى ملك فلابد من أن تكون من أفخر أنواع الطيوب التى تعرفها ويتاجر فيها قومها أى من طيوب الجنوب .

ثالثًا: إن المصادر التاريخية الخاصة بطيوب الجنوب تقودنا إلى القرن العاشر وليس إلى القرن السابع ق.م . كما تذكر كرون . (المترجمة)

إلى أبعد من القرن السابع ق.م ، وهو التاريخ الذى يقبل به أغلب دارسى العهد القديم كبداية لاستخدام اليهود اللبان وبقية أنواع الطيوب الأخرى فى طقوسهم الدينية[١٣].

كذلك يرد ذكر الطيوب فى المصادر الآشورية بين البضائع التى كان يقدمها حكام العرب، ضريبة لملوك أشور فى القرنين الثامن والسابع ق.م[١٤]، وظهر فى تلك المصادر على أنه أحد منتجات شمال بلاد العرب، لأن اللبان لم يكن من بين محاصيل بلاد ما بين النهرين حتى عدة قرون تالية(*)، عندما ذُكر أن المر (Murr) هو نبات محلي وليس نباتًا مستوردًا[١٥]. وهذا يعني أن المصادر الآشورية لا تدل على وجود تلك التجارة قبل القرن السابع ق.م. وهذا يقودنا إلى النظر فى المصادر الأثرية الأخرى ، وهى قليلة بوجه عام ، ولا تقدم لنا بداية لها تكون أسبق زمنيا من تلك التى سبقت الإشارة إليها. فالأختام الطينية العربية التى عثر عليها فى بيثل (Bethel)(**) بالتحديد لا تدل بالتأكيد على وجود هذه التجارة فى القرن التاسع ق.م. أولا: لوجود من يرى أن هذه الأختام وصلت إلى بيثل فى العصر الحديث[١٦]، وحتى إذا لم تكن هذه هى القضية فإن الخاتم نفسه غير مؤرخ[١٧]. كذلك فإن قطع الخزف التى ترجع إلى العربية الجنوبية والتى عُثر عليها فى العقبة تؤرخ بالقرن السادس[١٨]، وبالمثل فإن الحامل ذا القوائم الثلاثة، الذى يبدو أنه عثر عليه فى العراق ، يؤرخ فى فترة زمنية بين القرنين السادس والرابع ق.م.[١٩] وينطبق الشىء نفسه على البقايا الأخرى التى عثر عليها والتى يرجع ارتباطها بالتجارة بين بلاد العرب الجنوبية وبين بلاد ما بين النهرين . وباختصار فإننى أميل إلى الاعتقاد بأنه لا يوجد فى مصادرنا الأثرية الكثيرة ما يعزز وجود تجارة للبخور فى المنطقة الشاسعة بين بلاد العرب الجنوبية وبين منطقة الهلال الخصيب .

(*) كما أن اللبان لم يكن من محاصيل شمال الجزيرة العربية ، وأنه قد وصل إلى عرب الشمال عن طريق قوافل الجنوب. وهذا يعنى أن المصادر الآشورية تشير إليه منذ القرن الثامن ق.م. وليس القرن السابع ق.م. كما تذكر كرون. (المترجمة)

(**) تقع على بعد حوالى عشرة كيلو مترات من بيت المقدس . اتصالات شخصية مع الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم بكر . (المترجمة)

وعلى أية حال يبدو أن التجارة بدأت مع القرن السابع ق.م ، وهذا يتضح بعض الشيء من مصادر العهد القديم ، وجزئيا من حقيقة كون أن كلاً من اللبان والمر كانا يعرفان باسميهما الساميين في المناطق البعيدة مثل بلاد الإغريق ، حوالى القرن السادس ق.م ، وورد ذكرهما في أشعار سافو (Sappho)[٢٠]. كذلك تعزز المصادر الأثرية وجودهما في القرن السادس ق.م.[*]، هذا الوجود الذى ما لبث أن تزايد بعد ذلك[٢١]. وعليه يمكننا أن نقول إن تلك التجارة بدأت تدخل عصراً مزدهراً على الرغم من أنها لم تكن قديمة قدم الحضارة ذاتها .

يأتي بعد ذلك السؤال عن ما هي الطريقة التى كان يتم بها نقل الطيوب ؟ إن الموافقة على الرأى القائل بأنه كان يتم نقل هذه التجارة فى فترتها المبكرة عن طريق البر أمر مشكوك فيه ، فإذا تركنا جانبًا الإشارة الواضحة إلى رحلات المصريين البحرية لبلاد بونت ، فإنه لا يوجد ما يثبت استخدام الطريق البرى فى المناقشات الجادة التى دارت حول الموضوع[٢٢]. أما القول بأن تجارة الطيوب العربية ظلت تنقل جميعها أو أغلبها عن طريق البر[٢٣] منذ بدايتها وحتى نهايتها فهو الأمر الذى سنقوم بإثبات عكسه .

(*) كان المؤرخ الإغريقي هيرودوت (ولد قبل الحروب الفارسية بقليل ٤٩٠- ٤٤٨ق.م. وعاش حتى بداية حروب البيلوبونيز ٤٣١-٤٠٤ق.م.) هو أول من تحدث عن الطيوب العربية فى كتابه تاريخ الحروب الفارسية حيث قال : "وبلاد العرب في نهاية المعمورة من الجنوب ، وفيها وحدها يوجد اللبان والمُر والدارسين واللادن. ويكابد العرب عناءً كبيراً فى جني هذه المحاصيل ما عدا المُر . فهم يقومون عند جني اللبان بحرق نوع من الصمغ تحت أشجاره ... ليطردوا أسرابا كثيرة من الحيات الطائرة المختلفة الأنواع التي تحرس الأشجار .. وتنبت القرفة فى بحيرات قليلة العمق تعيش بالقرب منها حيوانات ذات أجنحة كالخفافيش، ينزعج العرب من صياحها وأصواتها المرعبة ، ولكنهم لا يخشونها ويدفعونها عنهم ويتقدمون لجنى القرفة ".
Herodotus, The Histories, trans. By Aubrey de Seli Court, the Penguin Classies. 1963 p. 220 . ولما كان مؤلف هيرودوت هو أول الكتب التاريخية التي وصلتنا من العصور القديمة تضم مثل هذا القدر من المعلومات عن طيوب بلاد العرب ، فهذا يدفعنا إلى الافتراض بأن هذه المعلومات كانت معروفة قبل هيرودوت بمدة ليست بالقصيرة فى دائرة العالم الإغريقي وبالتالى فى حوض البحر المتوسط. وعن مصادر هيرودوت من الكتابات المعاصرة له والمتوافرة من الفترة السابقة عليه راجع : The Oxford Classical Dictionary, s.v. Herodotus . (المترجمة)

إننا لم نسمع شيئًا عن الطريق البرى حتى العصر الهللينيستى، حيث أخبرنا المؤرخ هيرونيموس الكاردى(*) (Hieronymus of Cardia) (فى الفترة ٣٢٣-٢٧٢ق.م.) والذى وردت كتاباته لدى ديودوروس الصقلي (Diodorus Siculus) بأن عددًا كبيرًا من الأنباط اعتاد أن يحمل اللبان والمُر وأغلى أنواع التوابل إلى البحر المتوسط، وكانوا يقومون بجلبها من القوافل التى تأتي من المنطقة التي يسمونها ببلاد العربية السعيدة. وهنا نستطيع أن نقول بالرغم من أن النص لم يذكر تاريخًا محددًا فإن البضائع كانت تصل برا إلى الأنباط[٢٤]. وقدم لنا إيراتوسينيس(**) (Erathothenes) (٢٧٥-١٩٤ق.م.) تفصيلاً أكثر عنها ورد عند الجغرافي إسترابون ، فذكر أن اللبان والمُر والطيوب العربية الأخرى ، التي كانت ترد من حضرموت وقتبان ، كان يتم تبادلها مع التجار الذين كانت تستغرق رحلتهم سبعين يومًا من عيلانة (Ailana) (أيلة – Ayla) إلى معين (Minaia)[٢٥] حيث يحملها الجابيون (Gabaioi) وكل من يريد من التجار الموجودين، إلى حضرموت فى أربعين يومًا[٢٦]. كذلك أشار أرتيميدوروس (Artemidoros) حوالى عام ١٠٠ق.م. إلى الطريق البرى، الذى ورد ذكره لدى إسترابون عند حديثه عن حياة الدعة والكسل التى يعيشها السبئيون (الجنوبيون) حيث قال : "إن هؤلاء القوم الذين يعيشون على مقربة من بعضهم البعض يصل إليهم بطريقة متواصلة أحمال الطيوب ليقوموا بتوصيلها إلى جيرانهم فى المناطق البعيدة مثل سوريا وبلاد ما بين النهرين" ، وخلال قيامهم بهذا العمل كانوا يتأثرون بسبب استنشاقهم الروائح العطرية لدرجة أنهم يضطرون لاستنشاق مواد أخرى مختلفة لكى يظلوا مستيقظين[٢٧]. وقدم جوبا (Juba)

(*) يبدأ العصر الهللينيستى منذ خروج الإسكندر الأكبر بحملة من بلاد الإغريق إلى الشرق عام ٣٣٤ق.م. وحتى سقوط مصر فى يد الرومان عام ٣٠ق.م . وفى هذا العصر امتزجت الثقافات الشرقية بالثقافة الهلينية (الإغريقية) لذلك سمى العصر بهذا الاصطلاح. لاحظ هنا أن باتريشيا كرون قفزت قرنا ونصف قرن من الزمان من عصر هيرودوت (القرن الخامس ق.م.) إلى عصر هيرونيموس الكاردى ٣٧٠-٢٦٥ ق.م. لتجعل بداية تجارة العرب المعروفة مع شواطئ البحر المتوسط فى أواخر عهد الإسكندر الأكبر. (المترجمة)

(**) كان إيراتوسينيس عالمًا رياضيا وفلكيا وإخباريا وتمكن من أن يقيس المحيط القطبي للكرة الأرضية . كان ترتيبه الخامس فى رئاسة مكتبة الإسكندرية وتولاها فى الفترة من ٢٣٠ - ١٩٥ ق.م. وعن هذه المكتبة راجع : السيد السيد النشارى تاريخ الكتب والمكتبات فى مصر القديمة ، الإسكندرية ، ٢٠٠٠ ، ص١٠١ - ص١٣٧ . (المترجمة)

(٥٠ ق.م. – ١٩م) تفصيلات أكبر اقتبسها بليني (Pliny) ، ووفقًا لما ذكره "كان يتم إرسال كل اللبان إلى سوبوتا (Sobota)، وهي شبوة (Shabwa) عاصمة حضرموت" التي جعل منها ملكها محطة الشحن الرئيسية التي تشحن منها الجمال والتي تتجه منها بعد ذلك إلى الطريق العلوي(*). ومن شبوة تتجه إلى جيبانيتي (Gebbanitae)، وعاصمتها ثومنا (Thomna) ويُعرف موقعها في النصوص الأثرية باسم تمن (Tmn) وهي عاصمة قتبان[٢٨]، ومنها تتجه القوافل إلى غزة ، وقد قسمت الرحلة إلى خمس وستين مرحلة، زودت كل منها بمحطات للجمال(**). ويتم دفع الضرائب عنها لملوك حضرموت في شبوة، ولملوك قتبان في ثومنا (Thomna) بعد استقطاع ما لرجال الدين، والسكرتاريين ، والحراس والخدم من تلك الضرائب، وبلغت نفقات حمولة الجمل الواحد ٦٨٨ دينارًا قبل أن يتم دفع الضرائب عنها للرومان[٢٩]. ثم عاد بليني وأشار مرة أخرى إلى الطريق البرى عند حديثه عن المدن الداخلية التي يقوم العرب الجنوبيون بإحضار طيوبهم منها لتصديرها ، كما يعرف أن اللبان يصدر عن طريق الأراضي المعينية "من خلال ممر واحد ضيق"[٣٠]. ويخبرنا صاحب كتاب الطواف أيضًا بأن جميع إنتاج البلاد (حضرموت) من اللبان والمُر كان يصل إلى ذلك المكان (شبوة) بواسطة الجمال ليتم تخزينه لتصديره أغلب الظن بطريق البر[٣١]. وهذه هي جميع المعلومات التي تقدمها لنا الأدلة الأدبية فيما يتعلق بالطريق البرى .

(*) يذكر الكتاب الكلاسيكيون أن اللبان كان يجمع في معبد الشمس في شبوة ، ويحرسه الجنود الغرب وبعد جمع المحصول على شكل أكوام يوضع على كل كوم منها لوحة تشير إلى وزنها وسعرها ، ويتجول التجار بينها ويضعون على اللوحة السعر الذي يريدون الشراء به . راجع : النعيم، نورا ، المرجع السابق ، ص ٢٣٧ ، والمصادر المذكورة في هامش (١). (المترجمة)

(**) استأنس العرب الجمل في بداية الألف الأول ق.م. ، واعتمدوا عليه كثيرًا في طعامهم وشرب ألبانه، واستخدموا الجلد والوبر مسكنًا وملبسًا وأغطية، واستفادوا من فضلاته فاستخدموا الروث وقودا للطهو . وهو وسيلة مواصلاتهم عبر الصحارى لتحمله للوعورة والجفاف وقدرته على السير فوق الرمال الرخوة . ويحمل الجمل على ظهره حمولة تتراوح وزنها بين ٢٥٠إلى ٦٠٠ كيلو جراما أو أكثر ، ويمكنه قطع مسافة ٦٠ميلا في اليوم الواحد . ودخل الجمل في معاملات كثيرة في حياة العربي . ولمزيد من التفصيلات راجع : سلامة ، عواطف أديب، قريش قبل الإسلام ، دورها السياسي والاقتصادي والديني ، رسالة ماجستير منشورة ، الرياض ١٤١٤ – ١٩٩٤ ص ٢٣٩ – ٢٤٠ . (المترجمة)

إن هذه المعلومات تستحق النظر فيها لعاملين . أولاً : لأنها تتحدث عن البضائع العربية وأساسا اللبان الحضرمي، فلا التوابل الهندية أو الحرير الصيني ، أو عاج شرق أفريقيا كانت تحملها القوافل لسوريا [إلا إذا أراد المرء أن يستخدم اصطلاح (طيوب) دون تحديد كما فعل هيرونيموس (Hieronymus)](*) . ثانياً : إنه لم يرد ذكر للطريق البرى بعد بليني وصاحب كتاب الطواف (Periplus) (وهذا يعتمد على الرأى الذى يراه القارئ بالنسبة لتاريخ كتاب الطواف). وباختصار فالطريق البرى كان محدودا سواء من حيث البضائع التى تحمل عليه أو بالنسبة للفترة الزمنية التى استخدم فيها .

وفى الجزء التالى سوف نثبت عدم نقل بضائع أجنبية على الطريق البرى . أما بخصوص البضائع التى نقلها العرب فيحددها إيراتوسينيس (Eratosthenes) بأنها تلك التى تأتى من حضرموت وقتبان، ويؤيد جوبا (Juba) القول نفسه ، أما صاحب كتاب الطواف فيذكر لنا حضرموت فقط، وربما يرجع السبب فى ذلك إلى قيام حضرموت حينذاك بالاستيلاء على أراضى جيرانها فى قتبان(٣٢) . وبالرغم من ذلك

(*) تشير إحدى الوثائق البردية التى ترجع للقرن الثالث ق.م. إلى أن وكلاء أبوللونيوس وزير مالية بطلميوس الثانى فيلاديلفوس (٢٨٢– ٢٤٦ ق.م) قد قاموا باستيراد الزعفران وجلد النمر من فلسطين فكيف وصلت هذه البضاعة التى إما أن تكون أسيوية أو أفريقية إلى هناك؟ أغلب الظن أنها قد وصلت إما على يد الجرهائيين (أهل الجرهاء) الذين كانوا يحملون بضاعة الشرق الواردة لهم عبر الخليج العربى، وكانوا ينقلوها برا إلى فلسطين مع بضائع العربية الأخرى وأهمها البخور ، أو على يد المعينين الذين حملوا بضائع العرب وأفريقيا ونقلوها براً وبحراً ومن تلك البضائع المر والبخور والزعفران وعطر الورد والعبيد . راجع : P. Cairo Zenon papyri, Catalogue general des antiquites egyptiennes des Muse du Caire, ed. C.C. Edger, Coiro, Vol. IV, no. 59536; vol. I, no. 59009; Vol. 1V, no. 59678;Vol. 1V, no. 59011; Papiri greci e latini = PSI, vol. 1V, no. 628 .
وعندما كانت جوف سوريا (سوريا الخالية Coele Syria) جزءاً من الإمبراطورية المصرية فى أوائل العصر البطلمى (٣٠٦ – ٣٠ق.م) كان هنـاك موظفاً بطلمياً يسمى "المشرف على إدارة البخور" . راجع P.Cairo Zenon, Vol.1v no. 59009= Psi. 628 . إن كل ما تقدم يثبت أن الطريق البرى كانت تنقل عليه بضائع أجنبية منذ قرون قبل الميلاد، سواء على الطريق العرضى فى شمال شبه الجزيرة بين الشرق والغرب إلى سوريا، أو الطريق الرأسى الذى يقطع شبه الجزيرة من شمالها إلى جنوبها فى الطرف الغربى والذى كان يحمل معه إلى جانب البضائع العربية البضائع الشرقية وبضائع أفريقيا . (المترجمة)

فقد ورد ذكر السبئيين (ومن يليهم جنوبًا) لدى أرتيميدوروس (Artemidorus) عند حديثه فقط عن رجال القوافل الكسالى ، وفي قائمة بليني (Pliny) عن المدن الداخلية التى كانت الطيوب تصدر منها . وقد ذكر كل من هيرونيموس (Hieronymus) وإيراتوسينيس (Eratosthenes) أن هذه البضائع تضم اللبان والمُر وبعض الطيوب، أما كل من بليني وصاحب كتاب الطواف فلم يذكرا سوى المُر فقط ، كذلك أكد لنا كل منهما أن الطريق عبر شبوة كان قد سيطر عليه تماما ملوك حضرموت. مما يؤكد أن الطريق البرى كان دائمًا مرتبطًا بحضرموت (سواء بمفردها أو بعد ضم قتبان إليها) وليس بسبأ، وهو الرأى الذى يجد قبولاً واسعًا ؛ لأن حضرموت هى المصدر الرئيس لإنتاج اللبان ، أو بمعنى آخر كانت مصدرا لأجود أنواعه فى ظفار[٣٣] . من أجل ذلك كان ملوك حضرموت لديهم حرية اختيار الطريق الذى تسلكه القوافل ، لذا يبدو أن اللبان الحضرمى (وحده) كان يُحمل شمالاً بالقوافل فى عصر بلينى وعصر صاحب كتاب الطواف لسبب واضح وهو أن ملوك حضرموت قرروا ذلك[٣٤] .

لماذا فضَّل سكان حضرموت استخدام الطريق البرى ؟ رأينا فيما سبق أن عرب الجنوب كانوا قادرين على الإبحار فى البحر الأحمر فى القرن الثانى ق.م ، ولكنه نتيجة لرغبة ملوك حضرموت فى تحصيل الضرائب قرروا إرسال جميع إنتاج محصول اللبان من سواحل قنأ (ميناء حضرموت)، وتابع السلاطين من حكام المنطقة فيما بعد إرسال جميع إنتاج المُر من سواحل ظفار[٣٥]. يبدو أن الطريق البحرى كان مملوءًا بالمخاطر، وفى الوقت نفسه لم يكن الطريق البرى من جنوب العربية إلى سوريا سهلا . إن رحلة القوافل فى العربية كانت أكثر مشقة حتى بالنسبة للأزمنة التالية كما يعرفها كل حاج. بيد أن وجود القراصنة فى البحر الأحمر وإزعاجهم للمناطق المجاورة لا ينبغى أن يغيب عن بالنا[٣٦]. لقد استغرق الإبحار من ميناء قنأ إلى ميناء برنيس (Berenice) ثلاثين يومًا فقط[٣٧]، بينما تستغرق الرحلة البرية للمسافة نفسها ما بين ٦٥إلى٧٠ يومًا، أو طبقًا لترجمة أخرى ما بين ١٢٠ إلى ١٣٠ يومًا، من شبوة إلى سوريا[٣٨]. وقد كان قلب كل تاجر يخفق بشدة ، لإنفاقه مبلغ ٦٨٨ دينارا على حمولة كل جمل فى الرحلة ، وهذا يعنى أن الطريق البرى استمر لصالح الملوك أكثر من كونه لصالح التجار.

وإذا كان حكام حضرموت قد تمكنوا من إرغام التجار على استخدام الطريق البرى فيبدو أن ذلك يرجع لتحالفهم مع القبائل الداخلية من جهة ومن جهة أخرى لحرصهم *على عدم مرور بضائعهم فى أراض يسيطر عليها منافسوهم من السبئيين .*

استطاع منافسوهم السبئيون أن يتوصلوا فى القرن الثانى ق.م إلى اكتشاف مصدر منافس لإنتاج اللبان . ويذكر لنا أجاثارخيديس (Agatharchides) عام ١٣٠ق.م) أن السبئيين تمكنوا من صناعة طوافات وقوارب جلدية لحمل بضائعهم[٣٩]، ولكنه لا يذكر لنا شيئًا عن نقطة انطلاقهم أو نقطة وصولهم، ثم جاء أرتيميدوروس (Artemidoros) (عام١٠٠) وذكر لنا أنهم استخدموها للانتقال من "إثيوبيا إلى العربية" ، واصطلاح إثيوبيا يعنى فى العصر الحديث شرق أفريقيا بصفة عامة ، وفى هذه المنطقة عثر على اللبان والمُر بكميات كبيرة ، كما سبق أن اكتشف قدماء المصريين ذلك ، كما كان أرتيميدوروس (Artemidoros) يعرف أن السبئيين كانوا يتاجرون فى الطيوب المحلية والمستوردة من إثيوبيا[٤٠]. ولم يأت القرن الأول الميلادى إلا وقد أصبح اللبان الأفريقى له نفس أهمية الأصناف العربية ، بينما احتل المُر الأفريقى المكانة الأولى[٤١]. وفى القرن السادس غدا اللبان الأفريقى النوع الوحيد الذى وجد التاجر كوزماس (Cosmas) أنه جدير بالذكر ، ولا يزال هذا النوع هو المسيطر على الأسواق حتى الآن[٤٢]. ويمكننا أن نقول إن هذا الاكتشاف السبئى قد قرر بطريقة عنيفة مصير احتكار بضاعة التجار الحضارمة .

وبطبيعة الحال لم يُسلم سكان سبأ بضائعهم لسكان حضرموت ليقوموا بتصديرها عن طريق شبوة[٤٣] . ونتساءل الآن هل قام سكان سبأ بتصديرها برا إلى جميع الأسواق ؟ إن قوافل الكسالى التى يذكرها أرتيميدوروس (Artemidorus) ترجح هذا القول بالتأكيد . ويعزز ذلك ما ذكره بلينى فى قائمته عن المدن الداخلية التى كان ينقل اللبان إليها[٤٤]؛ وعلى هذا فإن ما ذكره أجاثارخيديس (Agatharchides) عن اختراع السبئيين للطوافات وقوارب الجلد كان لا يعنى أكثر مما كان يقصده ويعنيه أرتيميدوروس بهذا الخصوص ، أى لاستخدامه فى الانتقال بين العربية

واثيوبيا[٤٥] . ويذكر لنا أجاثارخيديس (Agatharchides) أنه لم يكن في استطاعة المعينيِّين وأهل جرهاء (الجرهائيين)[*] والآخرين أن يقوموا بتفريغ بضائعهم في الجزيرة المواجهة للأنباط. هذا هو المعنى الظاهري لحديثه[٤٦] ويبدو أنه كان يريد القول بأن الموزعين السبئيين هم الذين حددوا دورهم وحصروه في عبور البحر الأحمر، وقام الموزعون في الشمال بمهنة النقل البحري منذ القرن الثاني ق.م[٤٧] ، أي لم يأت القرن الأول ق.م إلا وقد أصبح النقل البحري يمثل قاعدة النقل الأساسية ، لذلك يخبرنا إسترابون بأنه كان يتم تفريغ الطيوب العربية في ميناء ليوكي كومي (Leuke Kame) ، الذي كان يعد ميناء للأنباط وسوقًا لهم ، حيث تخرج قوافل الجمال من البتراء (Petra) واليها بأمان كامل وسهولة . وفي ذلك التاريخ نفسه أصبح ميناء ميوس هرموس (Myus Hormus) على الجانب المصري من البحر الأحمر يمثل طريقا آخر للنقل البحري . ومن هذين الميناءين فقط كان يتم نقل البضائع براً إلى الإسكندرية ورينوكولورا (Rhinocolura) أو إلى أي مكان آخر[٤٨]. لقد كان إسترابون الذي رافق القائد الروماني أيليوس جاللوس (Aelius Gallus) في حملته إلى اليمن يعرف الطريق البري من المصادر الأدبية المتوفرة في عصره ، وبالرغم من ذلك فلم يكن متأكداً من وجوده في عصره . ومع القرن الأول أخذ التجار الإغريق والرومان يجمعون طيوبهم في ميناء موزا (Muza) اليمني ، الذي يذكر بليني أن كثيرا من التجار المتخصصين في الطيوب – وليس أولئك

(*) على الغم من شهرة الجرهاء في التجارة الداخلية والخارجية فإن الحفائر الأثرية لم تستطع تحديد موقعها. ويبدو مما قدمه الكتاب الكلاسيكيون عنها قبل بوليبيوس وإسترابون وبليني وبطلميوس أنها كانت مدينة ساحلية . وذكر هؤلاء أن شعبها كان لهم أكثر من مدينة تابعة لهم فذكر بوليبيوس واحدة ، وذكر بليني اثنتين ، وأشار بطلميوس إلى ثلاث من بينها الجرهاء . ويرى البعض أن ثاج هي الجرهاء . إن أقدم الإشارات عنهم تذكرهم كشعب تجاري اقترن اسمهم بالمعينيين والحضارمة والأنباط ، وتاجروا بحرياً مع بلاد الرافدين منذ عصور قديمة . واقترن اسمهم بأهم مركز تجاري لديهم وهو الجرهاء ، وربما كان لهم ميناء تابع لهم . وقد عاشوا في شرق الجزيرة العربية وسيطروا على عدة مدن من بينها ميناء بحري . ويبدو أنهم أسسوا لهم عدة مستوطنات تجارية على طول الطريق التجاري الذي سلكوه مع تجارة الجنوب مخترقين وسط الجزيرة مما يرجح أن الجرهاء لم تكن مدينة ساحلية فقط ، لأن الأمر لو كان كذلك لاستخدم شعبها الطرق البحرية في تجارتهم مع جنوب الجزيرة لدرايتهم بالملاحة منذ الألف الثالث . راجع : النعيم ، نورا عبد الله العلي ، الوضع الاقتصادي في الجزيرة في الفترة من القرن الثالث قبل الميلاد وحتى القرن الثالث الميلادي ، الرياض ١٤١٢ = ١٩٩٢ ص ٢٢٨ وما بينها . (المترجمة)

المتجهين فى طريقهم إلى الهند – كانوا يقومون بزيارته[٤٩]. وإذا اتفقنا على التاريخ المتواتر لكتاب الطواف، فإنهم كانوا قد أتوا إلى هذا الميناء لاستيراد اللبان والمُر مباشرة من الساحل الأفريقى[٥٠]. وباختصار ، يمكننا أن نقول إنه منذ القرن الأول الميلادى أصبحت تجارة البخور اليمنية تجارة بحرية ، وهو الأمر الذى سوف يكشف السبب في تحول الأنباط إلى ميدان القرصنة لارتباطها بهذه الحقيقة[٥١].

ومن الصعوبة الاعتقاد بأن الطريق البرى قد قاوم المنافسة البحرية لمدة طويلة ، بل من المرجح أيضًا أن تجارة بخور حضرموت قد تحولت هى الأخرى إلى ميدان النقل البحرى مع القرن الأول الميلادى ، على الرغم من أننا لا نستطيع أن نؤكد ذلك. إن سلسلة المعلومات التى قدمها بلينى والتى اعتمد فيها على ما ذكره جوبا (Juba) ، والأخير الذى اعتمد على المصادر الأدبية في عصره تقودنا هذه المعلومات جميعها إلى القرن الأول[٥٢]. أما عن الإشارة إلى الطريق البرى التى وردت فى كتاب الطواف فيمكننا أن نقول إنه قد استمدها من معلومات قديمة من كتاب لإرشاد التجار. فليس من المقبول أن نقبل ما ذكره لنا من أن جميع إنتاج اللبان كان يتم إرساله إلى شبوة ، ليتم تصديره بعد ذلك من ميناء قنا، وهو ميناء حضرموت، إلا إذا كان هذا المحصول مخصصًا لإرساله فقط لعُمان والهند[٥٣]، وعلى أية حال فليس لهذا الموضوع أهمية فى هذا المكان، أما الشىء الذى يعنينا حقيقة ، فهو عدم وجود إشارات عن الطريق البرى فى المصادر الكلاسيكية بعد جوبا (Juba) الذى وردت كتاباته عند بلينى ، ثم صاحب كتاب الطواف الذى يرى البعض أنه يرجع لعام ٥٠م، أو إلى أوائل القرن الثانى الميلادى، ويرجعه بعض الباحثين إلى أوائل القرن الثالث الميلادى. وعلى أية حال فمع نهاية القرن الثالث الميلادى فإن ملوك حضرموت، الذين كانوا يرغمون التجار على استخدام الطريق البرى فقدوا استقلالهم لصالح سبأ[٥٤](*).

هكذا استمر الطريق البحرى ، ولا توجد لدينا أية إشارة تدل على توقفه بعد ذلك ، بل لقد قام الإمبراطور تراجان (٩٨–١١٧م) بحفر قناة تربط بين النيل والبحر الأحمر

(*) راجع التعليق المذكور فى ص٧٦ من الترجمة.(المترجمة)

عند كليزما (Clysma) (القلزم Culzum) ، (السويس حالياً) كما قام بتمهيد الطريق بين أيلة (Aela) أيلا (Ayla) والبتــراء (Petra) وبُصــرى (Bostra) ودمشق (Damascus) . ولا شك فى أن هذين الميناءين قد قللا من أهمـية مينـاءى برنيس (Berenice) وليوكى كومى[٥٥]. وأصبح مـيناءى القلزم وأيلة مركزين للسفن فى البحـر الأحمر كمـا تذكر المصادر الإسلامية[٥٦]. وحل ميناء عدن محل ميناء موزا (Muza) فى اليمن ، أما بلاد العرب السعيدة فقد قام قيصر بتخريبها طبقًا لعبارة مثيرة للجدل ذكرها صاحب كتاب الطواف(*)، ولكنها ما لبثت أن استعادت أهميتهـا فى القرن الرابــع الميلادى[٥٧]. وفى أواخر العصر الإمبراطورى حدثت بعض التغيرات فى نهاية الطريق دون تغيير فى وسيلة الانتقال ذاتها . والواقع أننا لا نعرف السبب الذى دفع بعض الباحـثين إلى الاعتقاد باستمرارية استخدام الطريق البرى بعد القرن الرابع[٥٨]، أو فى اعتقاد المسلمين باستمرار وجود هذا الطريق أو إحيائه حتى تم لمكة إحراز السيطرة على التجارة ، هذا على الرغم من أن الرواية الإسلامية تذكر أن تجارة البخور قبل الإسلام ولدت تجارة بحرية[٥٩].

نشأت تجارة الطيوب التى تذكرها المصادر الإسلامية، بأنها ولدت تجارة بحريةً – فى أول الأمـر – خـارج دائرة العـالم الرومـانى ، وكـانت فـارس على رأس قـائمـة المستوردين للبان الأفريقى كما يقول كوزماس (Cosmas) من القرن السادس ، كذلك استوردت الصين اللبان العربى والأفريقى ، بصفة غير مباشرة عن طريق الهند أولاً ، ثم بطريقة مباشرة بعد ذلك وحتى نهاية القرن الثالث عشر. أما الهند فلا تزال تستورد هذا المحصول حتى يومنا هذا[٦٠]. ويبدو من هذه الصورة أن الطيوب العربية فقدت أهميتها فى العالم اليونانى الرومانى ، وهى تلك الشهرة التى كانت تتمتع بها فى عصر بلينى .

ويسود الآن الرأى القائل بأن السوق الرومانية لتجارة الطيوب فشلت فى التعايش مع المسيحية[٦١]، ورغم ذلك فإن انتشار المسيحية لم يكن كافيا لتفسير الانهيار الذى أصاب هذه التجارة . فقد اعتقد المسيحيون فى البداية أن حرق البخور يعد عملاً من

(*) عن حملة أغسطس الثانية على العربية راجع ص٨٠ وص ٨١ من الترجمة والتعليق المذكور فى الحاشية . (المترجمة)

أعمال الوثنية ولكنهم أخذوا بعد ذلك يستخدمون البخور لأغراض مختلفة ، بل أصبح حرق البخور منذ القرن الخامس أو السادس يعد جزءاً من الطقوس الدينية(٦٢). وهو التاريخ الذي يمكن أن يتخذ بداية لازدهار تجارة مكة(*) ، ولكن الأمر ليس على هذا النحو ؛ وتفسير ذلك أن المسيحيين وعوامل أخرى كثيرة لم ينتج عنها تغير في نمط الحياة في العالم اليوناني الروماني ، فالمعروف أن الطيوب في العالم القديم تداخلت وامتزجت بحياة كل من الأفراد والآلهة ، ورفض المسيحيون ذلك النمط من الحياة ، حقيقة لقد ارتبط اسم السيد المسيح [عليه السلام] بالطيب، ولكنه لم يكن بحاجة إليه، لكي يقدر له الحياة . وبلغ ما يتم حرقه في الاحتفال بأعياد الإله بُعْل بـ١٠٠٠ تالنت(٦٣) ، وأحرق في جنازة الإمبراطور جستنيان كمية من البخور تعادل إنتاج محصول اللبان العربي لعام كامل ، كما سبق ورأينا الكم الهائل الذي قام الإمبراطور نيرون بحرقه في جنازة زوجته بوبايا (Poppaea)(٦٤). وأسدل الستار الآن على إسراف أرستقراطية المجتمع اليوناني الروماني ومن سار على نهجهم ووضع حداً له(**) . وانتهى الآن ذلك العصر الذي كان البخور يعد فيه مادة الترف اليومي كالنبيذ والسجائر في العصر الحديث(٦٥). وفي العصور الوسطى اقتصر استخدام البخور في كل من الإمبراطورية الرومانية والغرب على الاحتفالات الجنائزية ، ومختلف أنواع الطقوس الدينية(٦٦)؛ لذلك لم نعد نعرف تاجرا مثل كوزماس (Cosmas) الذي عاش في القرن السادس ، والذي وجد أنه من المناسب أن يذكر لنا استيراد بيزنطة لهذا المحصول(٦٧)، ومما لا شك فيه أن هناك بعض الأصناف التي تم استيرادها لتغطية الاحتياجات

(*) راجع ص ١١٠ والحواشي المذكورة أدناه . (المترجمة)

(**) تعتقد كرون بكساد سوق اللبان بعد أن أصبحت المسيحية دين الإمبراطورية البيزنطية الرسمي، ثم تناقض هذا القول بقولها إن المسيحيين عادوا واستخدموا البخور مرة ثانية حتى أصبح جزءا من المراسم الدينية المسيحية، وهذا يعني استخدامه في ألوف الكنائس في طول الإمبراطورية البيزنطية وعرضها، إضافة إلى إغفالها استخدامه في الأغراض الطبية الذي لم يتأثر قطعاً بأي تحول ديني ، إلى جانب استخدامه في الزينة. ويوحي قولها بأنه تم حرق إنتاج سنة كاملة في جنازة الإمبراطور جستنيان كما لو أن البخور العربي كان في حاجة إلى موت إمبراطور بيزنطي لضمان تصريفه . إن هذه الحقيقة تدل على شدة الإقبال على البخور العربي وليس دليلا على العكس، أي إن البخور العربي كان مؤهلا للازدياد في عصر ازدهار التجارة القرشية وليس العكس كما تدعي كرون . (المترجمة)

السابقة إضافة إلى استخداماتها في الأغراض الطبية[٦٨]. كما عُد اللبان (مع المُر) في كتاب الوالي (Book of the Eparch)[٦٩] في القرن العاشر، ولكن يبدو أن الكمية التي كانت تستورد منه لم تكن كبيرة، ويبدو في المرحلة التي نحن بصددها أن الجزء الأكبر من الكمية أو الكمية كلها كانت تأتي من شرق أفريقيا[٧٠] ويبدو أن كوزماس (Cosmas) لم يكن يعرف أن بلاد العرب الجنوبية تنتج هذا المحصول ؛ لأنه قصر المحصول على شرق أفريقيا فقط. أما معاصره زاخاريلس روتر (Zacharias Rhoter) فقد اعتقد بدوره أن هذا المحصول يستورد من إثيوبيا[٧١]. أما شهرة تلك البلاد التي رسخت في أذهان المؤلفين الكلاسيكيين منذ عصر هيرودوت حتى عصر لوقا (Luca) على أنها أراضي الطيوب والتوابل فلم يعد لها ذكر عند غالبية رجال الكنيسة السورية ، من أمثال فيلوستورجيوس (Philostorgious) وبروكوبيوس (Procopius)، إلا عند الحديث عن سياسة القبائل والبعثات التبشيرية وشهداء المسيحية[٧٢]. وفي القرن السادس اعتقد كوريبوس (Corippus) أن البخور سبئي، أما يعقوب الساروجي (Jacob of Sarug) (فقرة ٧٠٨) فوجد من المناسب أن يقارن إيمان المسيحيين من أهل اليمن برائحة الطيوب والبخور التي "يأتي عَبَقُها من بلادكم إلينا". ووصف يعقوب الإديسي (Jacob of Edessa فقرة ٧٠٨) سبأ بأنها بلاد المُر واللبان ، والطيوب التي اشتهرت بها بلاد العرب في العصور القديمة[٧٣]. واختفت الآن شهرة بخور العرب ولم يأت لها ذكر إلا فيما ندر، أما أولئك الذين كانوا يؤمنون بالثقافة الكلاسيكية فقد استخدموا المحاصيل العربية في الطقوس السحرية، وهو شيء يتنافى تماما مع رائحتها الذكية. ولاحظ أحد اليهود الربانيين المعاصرين في القرن الثالث أن " أولاد إسماعيل [عليه السلام] يحملون الجلود والقار فقط" ، وأثار دهشته ذكر قوم إسماعيل والطيوب في سفر التكوين (٢٥-٣٧)؛ لذلك كان من قبيل المصادفة أنه قد تم إنقاذ يوسف [عليه السلام] على يد جماعة من الأفراد ، كانوا يحملون أجولة تنبعث منها رائحة ذكية[٧٤]. فلم يعد اللبان العربي والمنتجات الأخرى المرتبطة به سلعًا مطلوبة في العالم اليوناني الروماني قبل فترة طويلة من ازدهار تجارة مكة .

وعلى هذا يمكننا أن نلخص ما سبق في الآتي : أصبحت تجارة اليمن تنقل جميعها بحراً منذ القرن الأول الميلادي ، ويبدو أن طيوب حضرموت لحقت بها على

الطريق نفسه بعد فترة زمنية قصيرة ، ثم بدأ انهيار سوق هذه التجارة في العالم اليوناني الروماني منذ القرن الثالث الميلادي ، ذلك الانهيار الذي لم يتراجع أبداً ، وعندما بدأ نجم تجارة مكة في الظهور لم يكن هناك طريق بري لترثه قريش ، كما لم تكن هناك سوق رومانية ليستفيدوا منها(*).

تجارة المرور

يدور الحديث هنا عن دور العرب في تجارة المرور، لذا سوف نتناولها منذ بداية نشأتها، ويطرح الآن السؤال التالي : هل كان يوجد العرب حقيقة صلات بحرية بالهند قبل أن تبدأ الهند صلاتها بالعالم العربي (وبلاد ما بين النهرين)؟ والإجابة على ذلك السؤال تكون بالنفي ؛ لعدم وجود ما يثبت ذلك ، كما سنرى بعد قليل .

من المثير للدهشة خلو المصادر من أية إشارات لصلات بين الهند والعالم الغربي حتى القرن الأول الميلادي . فبينما وحد البحر بين شعوب عالم البحر المتوسط، نجد أن البحر كان عاملا للفصل بين شعوب الهند والشرق الأقصى في ذلك العصر. ويرجع السبب في ذلك إلى أن سواحله كانت جرداء، غير مأهولة بالسكان، ومن الصعب الوصول إليها بسبب الشُعب المرجانية والصخور والسلاسل الجبلية ، هذا إلى جانب افتقارها للموانئ الطبيعية ، ونقص مواردها في الأخشاب بوجه عام . وعلى الرغم من وجود الجزر المتناثرة ، فإن شواطئها لم تكن من النوع الذي يشجع على الملاحة ، فالإحساس بالتنقل الهادئ المتدرج الذي كانت تعطيه موانئ البحر المتوسط للسكان وتشعرهم بأنهم يتنقلون مثل الضفادع حول بحيرة لم يكن له وجود في الشواطئ الآسيوية[٧٥]. كان البحر الهندي واسعا وعريضا (كما قال جنود بلاد ما بين النهرين للسفير الصيني عام ٩٧م) ، ولهذا السبب كان على المسافرين على هذا

(*) لم تذكر لنا كرون ماذا فعل العرب بمحصول البخور الذي كانت تنتجه بلادهم بعد انهيار تجارته العالمية التي تدعيها؟ تُرى هل ألقوه في البحر أم اجتثوا أشجاره، أم أنهم استهلكوا إنتاجه الضخم محليا ؟! (المترجمة)

الطريق أن يحملوا مؤونة غذائية تكفيهم لمدة ثلاث سنوات . وهناك شيء في هذا البحر يولد لدى الإنسان الإحساس بالوحشة، بل فقد كثير منهم حياتهم فيه[٧٦]. لذلك فإن وجود الصلات هنا يعتمد على الرغبة في عبور المحيط من وسطه، وهي الطريقة التي كان يمكن بها اختصار مدة تبلغ شهرين أو أقل من مدة الرحلة، ويبدو أن الرحلة كانت تستغرق زمنًا أقل (في القرن الأول) عندما تكون الرياح مواتية ؛ أي إنه كان من الممكن اختراق ذلك البحر بفضل الجهود البشرية والكشفية المتأنية ؛ أي إن اقتحام هذا البحر كان في حاجة إلى تجارب ومحاولات أكثر من تلك التي احتاجها البحر المتوسط .

ويمكننا أن نلخص تلك المحاولات على النحو التالي :بدأت أولى الصلات بين بلاد ما بين النهرين والهند هاربًا (Harappa) منذ الألف الثالث ق.م ؛ وذلك في ضوء قيام أهل بابل بالملاحة في الخليج الفارسي في ذلك الوقت، لهذا لا شك لدينا في قيام صلات بحرية فيما بينهما[*]، وحتى في عدم وجود هذه الصلة ، أو عدم استمرارها، فإن الشواهد عليها ما تلبث أن تتوالى[٧٧]، وظهرت قدرة سكان الخليج الفارسي على الإبحار في المياه الإقليمية عندما كانوا يعدون عدتهم لإعلان العصيان ضد سنحاريب (٧٠٥-٦٨١ق.م) ، وردٌ سنحاريب على ذلك بإحضار بحارة من البحر المتوسط لبناء وتشغيل السفن التي يحتاجها للقضاء على هذه الثورة ، مما يدل على توافر بعض الخبرة البحرية لسكان بلاد ما بين النهرين[٧٨]. ويقتصر بعض الباحثين (أو يفترضون) قيام صلات بحرية بين بلاد ما بين النهرين والهند في العصر البابلي الجديد (٦٢٦-٥٣٩ق.م)[٧٩]، وعلى الرغم من بدء النشاط البحري في تلك الفترة[٨٠]، فإن الأدلة التي قدموها عن الصلات البحرية مع الهند سواء الأثرية[٨١] منها أو اللغوية [٨٢]، وجميع الأدلة الأخرى تعد غير حقيقية[٨٣]. طبقًا لما ذكره كل من أخيمنديس (Achaemenides) والإسكندر منذ عاد ملاحو البحر المتوسط مرة أخرى للعمل في المياه الشرقية ، وعندئذ بدأت الأمور تعود للدوران مرة أخرى، حيث أرسل كل من الملك دارا

(*) تذكر النقوش السومرية والأكادية علاقات تجارية بين بلاد الرافدين وبين ديلمون (البحرين) وماجان وملوخا عبر الخليج العربي وجزر فيلكا وثاروت . راجع : النعيم، نورا، مرجع سابق، ص٢٤٦ . (المترجمة)

والإسكندر والإغريق لكشف بلاد الهند، واستخدم الإسكندر الفينيقيين لتطوير الملاحة في الخليج الفارسي ، كما أرسل أسطولا للخليج الفارسي للطواف حول بلاد العرب ، وهي الرحلة التي قدر لها الفشل ، بينما نجح الأسطول الذي أرسله الملك دارا من مصر في الوصول إلى الخليج الفارسي[٨٤]. وذكر المؤرخ هيرودوت أن الملك دارا تمكن من هزيمة الهنود ومن ثم أخذ يستخدم هذا البحر بانتظام بعد ذلك. وهناك رواية مبكرة يرويها جاتاكا (Jataka) وتؤرخ بحوالي القرن الرابع يشير فيها إلى قيام بعض التجار بالإبحار من بافيرو (Baveru) التي يبدو أنها بابل لبيع طيور الطاووس، كذلك توجد إشارة أخرى توضح إبحار بعض السفن والاتجاه مباشرة من الهند إلى مضيق هرمز (Hormuz) في العصر الهللينيستي[*][٨٥]. وهكذا بدأت الإشارات تتوالى لتشير إلى الصلات المنتظمة بين الهند والموانئ الواقعة على الخليج الفارسي منذ القرن الأول الميلادي[٨٦].

وإذا كان من المتفق عليه أن المقصود ببلاد بونت (Punt) عند قدماء المصريين أنها لا تقع أبعد من الساحل الصومالي المواجه لبلاد العرب[**]، فإننا يمكن أن نضيف

(*) كانت توجد للعرب جالية في الهند عند وصول الإسكندر الأكبر لها. إضافة إلى أن وصول الفلفل إلى مصر منذ عصر رمسيس الثاني ، يؤكد على معرفة العرب لهذا المحصول الهندي وقيامهم بنقله إلى مصر منذ ذلك التاريخ البعيد . ولا شك في أن البحر كان هو الوسيلة التي استخدمت في نقل هذا المحصول الشرقي: إما عن طريق الخليج الفارسي أو عن طريق عمانا ثم بلاد العرب السعيدة (اليمن الآن) لتتخذ طريقها البري أو البحري إلى الشمال ومنها إلى مصر. أو من بلاد العرب السعيدة حيث تقوم بنقلها السفن المصرية التي كانت تعرف طريقها في البحر الأحمر منذ رحلات بونت وأسطول الملكة حتشبسوت، وقد أكد أجاثارخيديس أن كلا من "أهل جرهاء والسبئيين كانوا بمثابة مستودع لكل البضائع الآسيوية والأوروبية الفاخرة في سوريا البطلمية" راجع الحاشية التالية أدناه . (المترجمة)

(**) المقصود ببلاد بونت هي الصومال فقط ودليلنا على ذلك يتمثل في :

أولاً: ورد رسم لحيوان الزراف وهو يرعى في بيئته الطبيعية ضمن الرسوم المصرية التي تمثل البيئة الطبيعية لبونت وهو حيوان أفريقي ولم يكن له وجود في آسيا في أي عصر .

ثانياً: ورد نص هيروغليفي في لوحة "دفني" جاء فيه أن الأمطار التي تسقط على جبال بونت أدت إلى حدوث فيضان النيل . وبديهي أن هذا الفيضان لا يمكن أن يحدث إلا إذا كانت بونت التي سقطت عليها الأمطار تقع في منطقة أفريقية لا يفصلها عن النيل فاصل بحري كما هو الحال بالنسبة للبحر الأحمر. راجع: عبد المنعم عبد الحليم سيد ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الملك عبد العزيز، المجلد الثاني ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص١٥٢، عبد العزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم ، القاهرة ١٩٧٣م، ص١٢٧ . (المترجمة)

إليها ذلك الجانب المواجه له من بلاد العرب[٨٧]. ويبدو أن سليمان [عليه السلام] الذى استخدم الفينيقيين لتحقيق طموحاته البحرية قد عثر على الذهب الذى كان يرجوه فى عسير (Asir)[٨٨] ، أما ذلك الرأى الذى يقول بأن أساطيله وصلت إلى بلاد الهند فهو رأى غير مقنع[٨٩]. ويرجع إلى أن أول الشواهد التى تدل على تجاوز السفن لباب المندب ترجع للقرن السابع ق.م، عندما قام الملك المصرى نيكاو (Neko) بإرسال أسطول فينيقى للإبحار حول أفريقيا، والذى يبدو أنه قد قدر له أن يتم رحلته على الرغم من أن هيرودوت لم يصدق ذلك[٩٠]. وقد أبدى دارا فيما بعد اهتماما كبيراً بالطريق بين البحر الأحمر والخليج الفارسى وما يليه[٩١]. أما البطالمة فركزوا جل اهتمامهم بالجانب الأفريقى من البحر الأحمر لولعهم الشديد بالفيلة لاستخدامها فى القتال ، أما بخصوص الإغريق فلا توجد لدينا أية إشارة تدل على إبحارهم للهند، أو أن الهنود أبحروا إلى مصر ، ولم يبدأ اهتمام البطالمة فى مصر بالهند إلا حوالى ١٢٠ق.م[٩٢]، وهو التاريخ الذى بدأ يتجه فيه الإغريق إلى الهند[٩٣]. حيث بدأوا يستفيدون حينذاك فصاعداً من الرياح الموسمية لعبور عرض البحر ، وهو الكشف الذى ينسب إلى شخص يدعى هيبالوس (Hippalus)[٩٤]. وسواء كان يوجد عدد قليل من قِطَع من العملة البطلمية فى الهند أو لا يوجد ، فإن كلاً من النقود والمصادر الأدبية قد بدأت تشير إلى أهمية النشاط البحرى التجارى بين الهند والعالم اليونانى الرومانى منذ القرن الأول الميلادى[٩٥].

نعود مرة أخرى لكى نتساءل عن الأدلة التى تشير إلى قيام علاقات بين الهند وبلاد العرب قبل ذلك التاريخ . إن المصادر الهندية لا تقول شيئا بخصوص هذا الموضوع[٩٦]. وبخصوص إمكانية وصول العرب بحرا إلى الهند ، والادعاء بقيام السبئيين بتأسيس مستعمرات لهم هناك قبل العصر الهلينيستى أو فى أثنائه ، طبقًا لتفسير خاطئ ورد لدى أجاثارخيديس (Agatharchides)[٩٧]، فقد كان من الممكن الإبحار للهند باستخدام المراكب المصنوعة من الجلد والطوافات، وهو النوع الوحيد من وسائل النقل البحرى الذى امتلكه العرب فى العصر الهلينيستى[٩٨]، ولكن من الصعوبة قيام علاقات تجارية منتظمة بهذه الوسيلة من النقل، إضافة إلى أن أول ذكر جاء عن

إبحار العرب للهند ورد فى كتاب الطواف الذى يرجع تاريخه للقرن الأول الميلادى على ما يبدو(*)[٩٩]. أما بخصوص إمكانية وصول الهنود بحرا إلى بلاد العرب فتشير المصادر الإسلامية إلى أن هنودا من سوقطرة كانوا موجودين فى المنطقة عندما وصل الإغريق إليها فى عصر الإسكندر. أما الإغريق فلم يصلوا فى الواقع إلى سوقطرة حتى القرن الأول ق.م[١٠٠] . ثم بدأ الهنود يظهرون بوضوح منذ ذلك التاريخ فى سوقطرة ، ولكننا لا نعرف شيئا عن مدة بقائهم فيها ، كذلك فإن اسم جزيرة السنسكريتى لا يقدم مفتاحا لتاريخ وصولهم[١٠١] إليها. إن أول الإشارات عن العلاقات التجارية بين الهند وبلاد العرب ترد إلينا فى كتابات أجاثارخيديس **(Agatharchides)** الذى يذكر أن كلا من "أهل جرهاء والسبئيين كانوا بمثابة مستودع لكل البضائع الآسيوية والأوروبية الفاخرة فى سوريا البطلمية " وكان ذلك فى الفترة بين عامى ٢٠١ و ١٩٨ق.م ، يضاف إلى ذلك ما ذكره صاحب كتاب الطواف **(Periplus)** من أن ميناء سبأ فى بلاد العرب السعيدة كان يعمل ميناءً للبضائع التى ترد من الهند ومصر، وذلك قبل بداية الصلات البحرية بين هذين البلدين التى يرجع أقدم تاريخ لها لعام ١٢٠ق.م وأحدث تاريخ للقرن الأول الميلادى[١٠٢]. وهكذا يتضح لنا من خلال العرض السابق أن العرب لعبوا دوراً فى التجارة الشرقية فى فترة مبكرة من القرن الثالث ق.م ، ولكن لا يوجد أى دليل مباشر يؤكد على قيامهم بهذا الدور قبل ذلك التاريخ .

ومهما كان الأمر فيوجد لدينا دليلٌ غير مباشر ولكنه على جانب كبير من الأهمية ، (إضافة إلى أدلة أخرى قليلة الأهمية)[١٠٣]. ومن المعروف أن العرب كانوا يتاجرون قبل العصر الهللينيستى بفترة طويلة فى محصول القرفة **(Cinnamon)** ، والقرفة البرية **(Cassia)** وهى أدنى فى قيمتها من النوع الأول ، وكانت هذه المنتجات تعرف على أنها من محاصيل الهند بصفة عامة أو ربما من الشرق الأقصى، وإذا كان الأمر كذلك فإن هذا يدل على وجود صلات بين العرب وبلاد الهند وربما الشرق الأقصى أيضا . تلك هى الإشارة الوحيدة التى يمكن قبولها بخصوص بداية اتصال العرب بالهند

(*) راجع ص ٤٤ من الترجمة والحاشية المذكورة أدناه . (المترجمة)

بصفة عامة(*)[١٠٤]. أما وجه الاعتراض على هذا الافتراض فيعتمد على أن أحداً من الكتاب الكلاسيكيين لم يذكر لنا أن هـذه المحاصـيل كانت تعد من محصـولات الهنـد أو الشرق الأقصى. لقد أجمعت الآراء فى أول الأمر على أن هذه المحاصيل كانت تأتى من بلاد العرب ثم بعد ذلك من شرق أفريقيا . ومن أجل ذلك السبب ادعت المصادر الأدبية الثانوية أن العرب قاموا بإخفاء المصادر الأصلية التى يحصلون على التوابل منها وغلفوها بظلال من السرية ، لذلك لا يوجد ما يشير إلى صلاتهم بها[١٠٥]. ولكننى غير مقتنعة بتلك الأسباب التى ذكروها والتى أوردتها مفصلة فى الملحق الأول للكتاب والتى يمكن تلخيصها على النحو التالى :

أولاً : ساد الاعتقاد بين الإغريق بأنه يتم الحصول على القرفة والقرفة البرية من شرق أفريقيا وذلك حتى القرن السادس الميلادى، بمعنى أن هذا الاعتقاد ظل سائداً فترة طويلة حتى بعد أن توقف العرب كوسطاء فى هذه التجارة .

ثانيًا : يبدو أن المصريين القدماء قد وقعوا أيضًا فى هذا الخطأ ، بأن هذه المحاصيل كانت من منتجات شرق أفريقيا ، وهذا يعنى أن هذه المحاصيل كانت موجودة قبل أن يقوم العرب بدور الوسيط فى هذه التجارة .

ثالثًا : إن الوصف القديم لهذه النباتات يمكن أن ينطبق على نباتات لا تنتمى إلى عائلة القرفة (Cinnamomum) العلمية ولكنها تنتمى إلى المنطقة نفسها التى تشير إليها المصادر .

رابعًا : لقد أثبت الكُتّاب المسلمون وجود خلاف بين محصول قرفة شرق أفريقيا، وذلك المستورد من الصين. وبمعنى آخر ، فإن القرفة والقرفة البرية ، اللتين عرفهما القدماء كانتا من محصولات بلاد العرب(**) وشرق أفريقيا ، وهما فى ذلك يماثلان

(*) وعن وصول بضائع الهند مثل الفلفل الأسود إلى مصر واستخدامها فى تحنيط جثمان الملك رمسيس الثانى فى القرن الثالث عشر ق.م، راجع ص٦٩ و ص١٣٢ من الترجمة والتعليق عليها . (المترجمة)
(**) راجع الحاشية المذكوره ص٥٦ . (المترجمة) صفحات الترجمة .

كلا من اللبان والمر اللذين سبق ذكرهما في المصادر القديمة ، وهما محصولان لا يعرفان بهذه الأسماء اليوم . وينطبق القول نفسه على جوزة الطيب (Calamus) وهو المحصول الذى تم تصنيفه خطأ على أنه أحد التوابل الشرقية التى ترتبط بصلات العرب مع الهند (بالرغم من عدم ذكر الأدلة على ذلك) . ويمكن الرجوع إلى المصادر المتعلقة بجوزة الطيب في الملحق رقم (٢) . وعلى ذلك فإذا تمت الموافقة على النتائج التى وصلنا إليها (وهى بالفعل سبق أن قبلها البعض) فإننا فى هذه الحالة فى غير حاجة لكى ينسب للعرب فضل إقامة صلات تجارية مع الهند قبل القرن الثالث ق.م ، وهو التاريخ الذى يبدأ فيه ظهور الشواهد المباشرة على هذه الصلات .

هنا يجب علينا أن نتساءل : هل استخدم العرب دائما الطريق البرى لنقل البضائع الشرقية من جنوب العربية إلى كل من مصر وسوريا ؟ فى حالة موافقتنا على أن كلا من القرفة والقرفة البرية كانتا من المحاصيل المحلية على الرغم من عدم وجود ما يثبت ذلك(*) ، فالمصادر الكلاسيكية التى تشير إلى الطريق البرى تذكر فقط نقل الطيوب العربية حيث إنها أسقطت جميعها ذكر التوابل الأجنبية . أما فيما يخص تجارة العبور فهناك دليلان ولكنهما أسقطا أيضًا ذكر الطريق البرى ؛ ولذا يذكر لنا أجاثارخيديس أن أحداً لا يفوق السبئيين وأهل جرهاء فى ثرائهم ، فهم يعدون بمثابة مستودع لجميع أنواع السلع الآسيوية والأوروبية الفاخرة ، التى كانت سببا فى حصول بطالمة سوريا على ثروة الذهب التى أقام الفينيقيون أسواقًا لها ، وقد أدى كل ذلك إلى ثرائهم الفاحش، ولكنه لم يذكر لنا شيئا عن وسيلة النقل[١٠٦] . ثم قدم صاحب كتاب الطواف تفصيلا أكثر فيما يتعلق بالسبئيين حيث ذكر لنا أن ميناء سبأ فى العربية السعيدة (ميناء عدن) كانت تسمى بالسعيدة لأنه خلال الفترة المبكرة من تاريخ المدينة لم تكن السفن باستطاعتها أن تواصل رحلتها إلى الموانئ عبر هذا المحيط، لذلك كانت كل السفن المحملة بالبضائع تأتى إلى هذا المكان من كلا البلدين ، وأصبحت مثل ميناء الإسكندرية الذى يستقبل البضائع من داخل وخارج مصر[١٠٧]. ونستخلص من

(*) راجع الحاشية المذكورة فى ص٥٦ حيث يذكر هيرودوت أن عرب الجنوب تنمو القرفة لديهم . (المترجمة)

القراءة العادلة لهذا النص أن بحارة الهند ومصر كانوا يتجهون لعدن ، مع أنه كانت هناك علاقات بحرية مباشرة بين مصر والهند في ذلك الوقت(*). ويتفق هذا مع ملاحظة إسترابون بأن عدد السفن اليونانية والرومانية ، التي كانت لديها القدرة على تجاوز باب المندب، لم يزد على عشرين سفينة ، على عكس الحال الآن حيث يمكن لكل الأساطيل أن تبحر إلى الهند(١٠٨). وإذا قمنا بعقد مقارنة بين النصين السابقين ، نجدها هنا بخصوص الإبحار إلى جنوب بلاد العرب ثم إلى الهند، وليس بين الطريق البحرى والطريق البرى ، وحيث إنه قد وُضع تاريخ لكتابة كتاب الطواف(**) ، فنحن لا نستطيع أن نقطع بأنه كان يتم نقل تجارة جنوب بلاد العرب منذ فترة مبكرة عن طريق البحر كما يشير النص الذى ذكره أجاثارخيديس، ولكننا يمكن أن نفترض أنها إذا لم تكن تنقل جميعها بحرا فى البداية فمن الواضح أنها أصبحت كذلك الآن . وما تقدم يقودنا للحديث عن أهل جرهاء (Gerrheans) الذين شاركوا في هذه التجارة. وطبقًا لما ذكره أجاثارخيديس ، فأغلب الظن أنهم لم يلعبوا دوراً مباشراً فى التجارة الهندية على عكس السبئيين؛ لأن السفن التى كانت تبحر من الهند فى طريقها إلى الخليج الفارسى في العصر الهللينيستى كانت ترسو فى ميناء هرمز (Hormuz) وليس فى جرها التى لم تكن ميناءً بمعنى الكلمة، فعندما استطاع أهل جرهاء شراء حريتهم من أنطيوخوس عام ٢٠٥ق.م ، تكونت جزيتهم من المُر واللبان والفضة ولم يكن من بينها توابل شرقية أو بضائع أجنبية أخرى(١٠٩). كذلك فإن إبحارهم منفردين إلى الهند ليس أمراً مقبولاً خصوصًا لأنه لم يكن يوجد لديهم سوى طوافات للنقل البحرى(***)(١١٠) ،

(*) يذكر صاحب كتاب الطواف أن السفن الرومانية كانت تحتاج إلى موافقة السلطات العربية للتجارة والدخول فى بعض موانيها فى جنوب البحر الأحمر مثل ميناء موزا Muza ، وكانت السفن الرومانية تضطر إلى تقديم الهدايا الثمينة مقابل السماح لها بالملاحة والتجارة في هذه المناطق :The Periplus, chap. 27, p.36f ، مسفر الخثعمى ، المرجع السابق، ص٩١-٩٢ حاشية رقم ١١٢ . (المترجمة)

(**) راجع الحاشية المذكورة ص٤٤ (المترجمة) .

(***) أثبتت الدراسات الحديثة أن الطوافات الجلدية كان يمكن صنعها بأحجام كبيرة تمكنها من حمل كمية من البضائع. كما كان لديها القدرة على الإبحار إلى مسافة طويلة وما يزال هذا النوع مستخدماً حتى الآن فى أغراض الغوص والصيد . كذلك لا يُستبعد استيراد العرب للأخشاب الصالحة لصناعة =

ومن المحتمل أنهم كانوا يقومون بشراء توابلهم من هرمز التى يتم فيها تفريغ البضائع الهندية ليتم نقلها بعد ذلك ، أو فى خاراكس (Charax) على رأس الخليج حيث كانت تشحن مرة أخرى، أو إلى سيلوقيا (Selucia) على نهر دجلة والتى تتجه إليها الطرق البرية والبحرية القادمة من الهند . وهذه البضائع لم يكن يتم توزيعها فقط فى بلاد ما بين النهرين، ولكنها كانت تصل أيضًا (طبقًا لما ذكره أجاثارخيديس لو كان صحيحًا) إلى سوريا، عن طريق عبور الصحراء السورية، مستخدمين الطريق البرى نفسه الذى ازدهرت عليه تدمر بعد ذلك . كذلك يبدو أنهم اشتروا الطيوب (ومن بينها الطيوب الهندية؟) من بلاد العرب الجنوبية لكى يقوموا ببيعها فى سوريا ، حيث يعُدهم أجاثارخيديس من بين الذين لا يقومون بإنزال طيوبهم فى الجزيرة المواجهة للشاطئ النبطى(١١١)، أو بمعنى آخر أنهم كانوا ينقلون بضاعتهم فقط بطريق البر من الخليج الفارسي إلى الشاطئ النبطى ، وليس على طول الطريق من جنوب بلاد العرب إلى سوريا.

إذن ، مَنْ ذلك الذى كان فى استطاعته استخدام الطريق البرى الذى يبدأ من جنوب بلاد العرب لنقل البضائع الشرقية قبل أن تبدأ الصلات البحرية المباشرة بين الهند والغرب؟ طبقًا للمعلومات التى لدينا لم يستطع أحد القيام بهذا العمل ، أو بمعنى آخر لم يستطع أحد أن يقوم بهذا الدور لفترة طويلة(١١٢).

إذن ما هو التطور التالى ؟ لقد قام سكان بلاد ما بين النهرين والإغريق والرومان ، منذ القرن الأول بالإبحار مباشرة إلى الهند ثم بعد ذلك إلى سيلان . وتؤكد المصادر من تداول العملة هذا الاتصال الذى استمر منذ القرنين الأول والثانى الميلاديين ،

= السفن من شرق أفريقيا القريبة منهم والتى يرتبطون معها بصلات تجارية ، أو يقومون بشراء سفن صنعت خصيصًا من أجلهم حيث مكنتهم ثروتهم الاقتصادية من الحصول عليها . أو ربما فعلوا كما فعل العمانيون حيث كانوا يذهبون إلى الجزر التى تنتج جوز الهند ومعهم أدوات النجارة ويقومون بقطع الأشجار وتجفيفها وتصنيع السفن، ثم يجمعون فيها النارجيل ليعودوا بها إلى بلادهم . ويبدو أن العرب عرفوا نظام هبوب الرياح الموسمية ، مما ساعدهم على استخدام البحر للوصول إلى الهند، ولكنهم أخفوا هذه المعرفة عن الإغريق والرومان . راجع : النعيم، نورا ، مرجع سابق، ص٢٤٧ وما يليها وتعليق المترجمة ص٣٩ وما يليها . (المترجمة)

وبدأ في التدهور في القرن الثالث ، ثم قدر له الانتعاش لبعض الوقت في القرن الرابع، واختفى بعد ذلك[١١٣]، وهناك بعض الإشارات في المصادر الأدبية تشير لوجود تجار إغريق في القرن الرابع وربما أيضًا في القرن الخامس[١١٤]، كذلك لم يكن كوزماس (Cosmas) هو التاجر اليوناني الوحيد الذي قام بزيارة سيلان في القرن السادس الميلادي[١١٥]. وعلى الرغم من هذا ، فقد غدت الشواهد عليها نادرة(*) . وأصبحت إثيوبيا منذ القرن السادس الميلادي تسيطر على الجزء الأكبر من تجارة الشرق مع بيزنطة، وكثيراً ما حدث خلط في المصادر بين الهند وإثيوبيا[١١٦] وآخر إشارة عن عودة سفينة من الهند قبل الفتح العربي تؤرخ بعام ٥٧٠م، ولكننا لا نعرف إذا كانت هذه السفينة قد عادت من الهند (أو إثيوبيا؟)[١١٧]. والآن ما هي المعلومات التي يمكن أن نستفيد بها مما سبق ؟

إن تفسير ما تقدم ينحصر في ثلاثة جوانب :

أولاً : فقد العرب دورهم في التجارة الشرقية لصالح الإغريق(**) وبالتالي للإثيوبيين . وبطبيعة الحال لم يتوقف اهتمام العرب بهذه التجارة تماما فقد نشطت تدمر في الصحراء السورية، وقامت بنقل البضائع الفاخرة من الخليج الفارسي إلى سوريا، كما أن المصادر الإسلامية تذكر وجود هذا الطريق[١١٨]. وواصلت السفن

(*) إذا كانت المصادر الكلاسيكية تخلو من الإشارة إلى استخدام الطريق البرى منذ القرن الثالث الميلادى فليس من المعقول أن هذا الطريق لم يعد مستخدما بأى صورة من الصور ، بل إن المنطق يدفعنا إلى ترجيح القول بأن جزءا من التجارة العربية وتجارة المرور ظل يستخدم هذا الطريق حتى بعد أن فقدت حضرموت استقلالها لصالح سبأ في القرن الثالث الميلادى. ويعزز هذا الرأى أن محصول البخور العربى الذى كان ينقل إلى فارس والهند والصين لابد من أن يكون استخدم في جزء من طريقه الطريق البرى قبل أن ينقل عبر الخليج الفارسى أو على يد أزدعمان إلى الهند . لقد ظل الطريق البرى مستخدما على الرغم من منافسة الطريق البحرى له خلال القرنين الرابع والخامس . ولا شك في أن جزءا من تجارة المرور عندما كانت تصل إلى ميناء عدن استخدمت الطريق البرى عبر غرب شبه الجزيرة العربية . وقد أحسنت كرون في ملاحظاتها من انكفاء تجارة بيزنطة مباشرة مع الهند ، ولكنها أخفقت في إدراك النتيجة الطبيعية لهذا الانكفاء، وهو أن التجار العرب تولوا عبر مكة في القرن السادس نقل حصة كبيرة من التجارة الدولية وهو أمر أنكرته كرون بلا سبب واضح . (المترجمة)

(**) تقصد البيزنطيين . (المترجمة)

الإغريقية زيارة عدد من الموانئ العربية في جنوب العربية للصيانة والتموين، إضافة إلى ذلك ، كان يوجد عدد من العرب في الإسكندرية وبالمثل في الهند في القرن الأول الميلادي ، وبعد ذلك ، في سيلان[119]. ومن المحتمل – وهذا مجرد افتراض بحت – أن عرب الجنوب شاركوا الإثيوبيين في القرن السادس في نقل البضائع الشرقية من سيلان إلى عدن، عندما أصبح غير مألوف قيام الإغريق بأنفسهم برحلة الذهاب والعودة للشرق[*] . وعلى أي حال لم يستطع عرب الجنوب استعادة مجد أهل الجرهاء والسبئيين في ميدان تبادل البضائع بين الهند وعالم البحر المتوسط في العصر الهلينيستي ، كما لم يستطيعوا استعادة هذا الدور حتى بعد استيلائهم على الشرق الأوسط. ومن الصعوبة بمكان الاعتقاد بأن جنوب بلاد العرب لم يعان من جراء هذه التغيرات[120]. وبصرف النظر عن فقدانها للسيطرة ، فقد تمكنت الموانئ الأفريقية على البحر الأحمر من انتزاع ما تبقى من أدوار في ميدان التجارة . ومن المحتمل أيضًا أن تجاراً من الإغريق الذين كانوا يبحرون للهند كانوا يتوقفون في ميناء أو مينائين على الجانب الأفريقي للبحر الأحمر، ولكنه كان ممكنًا أن يبحروا مباشرة من القرن الأفريقي إلى الهند دون المرورعلى جنوب بلاد العرب[121] إضافة إلى ما تقدم فقد كان كل من المُر واللبان (Frankincense) الأفريقي قد حل محل الأصناف العربية منذ مدة طويلة ، وحدث الشيء نفسه بالنسبة للقرفة والقرفة البرية (Cassia) الأفريقية[122]، إن دور العرب الجنوبيين في تناول البضائع ما بين بيزنطة والشرق مشكوك فيه، أما دور الإثيوبيين فإنه موثق ، وأصبح ميناء أدوليس (Audlis) أكثر شهرة بالتأكيد لدى التجار الإغريق[123].

إن هذه الظروف جميعها يمكنها أن تفسر لنا كيف كانت جنــوب بلاد العرب في طور السقوط تحت سيطرة الإثيوبيين أولاً في القرن الرابع، وثانيًا عام ٥٢٥م (طبقًا للتواريخ المتواترة) [124]. ولكن لا ينبغي أن يغيب عن البال أن انهيار تجارة جنوب العربية كان قد بدأ قبل الغزو الإثيوبي لها بفترة طويلة. وحقيقة فقدان سكان

(*) راجع الحاشية المذكورة ص٧٦ التي سبقت . (المترجمة)

جنوب العربية لاستقلالهم السياسي لا يعني أنه كان هناك ثمة دور تجاري ليرثه المكيون مثلما صورتهم المصادر الإسلامية في موضوع تجارة الطيوب أو على أنهم قد ورثوا شيئًا ، على الرغم من أن هذا الشيء لم يكن موجوداً منذ فترة طويلة . لذلك فالمرء يتعجب من القول بأن مكة استطاعت أن تحقق "شيئًا يشبه الاحتكار للتجارة بين المحيط الهندي وشرق أفريقيا من جهة ، وبين البحر المتوسط من جهة أخرى "[١٢٥]. ويقف المرء حائراً ، كيف يمكن لقبيلة صغيرة ، تقطن في مدينة صغيرة، في الصحراء أن تُقصي الإثيوبيين عن البحر ، بل وتنتزع التجارة من إثيوبيا نفسها ومن العالم البيزنطي ؟ إن الإثيوبيين الذين قام ازدهارهم على التجارة الشرقية والأفريقية مع بيزنطة سوف تصيبهم دهشة كبيرة من جراء مثل هذا الادعاء .

ثانيًا : أما النتيجة الثانية التي تهمنا في هذا المجال ، فهي أنه إذا لم يكن الطريق البري مستخدما في نقل البضائع الشرقية حتى العصر الهللينيستي فهو بالتالي لن يستخدم الآن . لقد أخبرنا كوزماس (Cosmas) أن البضائع الشرقية كان يتم إرسالها عادة من سيلان إلى عدن وأدوليس، لكي يتم نقلها إلى الشمال[١٢٦]. ومن غير المقبول أن نفترض أنه كان يتم وصول البضائع لأدوليس عن طريق القوافل، والأمر نفسه بالنسبة لعدن ؛ لأن الرحلة عبر الصحراء تحتاج إلى ضعفين أو ثلاثة أو ربما أربعة أضعاف الوقت الذي تستغرقه بين سيلان إلى العربية نفسها . إن لامينز (Lammens) هو الذي أوحى بفكرة أن الطريق البري أصبح فجأة له أهمية في التجارة بين الهند والغرب في القرون السابقة على ظهور الإسلام ؛ وذلك في رأيه بسبب توقف الطريق بين الخليج الفارسي وسوريا لقيام الحروب بين بيزنطة وفارس ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لكراهية الشعوب وخوفهم من ركوب البحر في العصر القديم، وذلك لخوفهم كما قال من "الطرق السائلة"[١٢٧]. وإذا كان الأمر كذلك فما هو إذن الطريق الذي كان متاحًا ، لقد تكرر هذا الرأي كثيراً في المصادر الثانوية ، مع بعض البدائل بالنسبة للخوف من الطرق السائلة ، وهناك رأي يكاد يكون متفقًا عليه أن طريق البحر الأحمر "لا يبدو أنه استخدم كثيراً"[١٢٨]؛ لأنه ظل بعيداً عن سيطرة بيزنطة[١٢٩]، أو بسبب الأوضاع المضطربة في مصر أيضا، لذلك لم تقدم طريقًا بديلاً للبحر الأحمر[١٣٠].

أو ربما لأسباب أخرى "ليس من السهولة توثيقها"[١٣١] ، كما ذكر أحد الباحثين . ولكن ما المقصود بأن البحر الأحمر لم يعد يستخدم بكثرة ؟ لقد كانت الملاحة فيه على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة لبيزنطة ؛ للإبقاء على بوابة الضرائب في إيوتاب (Iotabe)، كما قيل لنا عند الإشارة إلى أحداث عام ٤٧٢م، عندما قام أحد المغامرين العرب بحصارها من البر[١٣٢]. وقد تمكن البيزنطيون من استردادها قبل عام ٥٠٠ مما أعطى الفرصة للتجار الرومان للعودة لسكنى الجزيرة وتسلُّم بضائع الهند (أو إثيوبيا؟) ، وإحضار الضريبة التى قررها الإمبراطور[١٣٣]، وذكر لنا بروكوبيوس (Procopius) أن أبرهة بدأ فى حوالى ٥٤٠ حياته عبدًا لرجل رومانى كان يعمل فى مجال تجارة السفن فى مدينة أدوليس فى إثيوبيا، وهى المدينة التى قال كوزماس عن سكانها : "إننا نعمل فى ميدان التجارة ، فنحن نتاجر من الإسكندرية حتى أيلة (Aela)"[١٣٤]. وكان هناك تجار بيزنطيون فى عصر ذى نواس[١٣٥] ، كما وجد تجار يمنيون فى أيلة عند الفتح الإسلامى لها ، ومنح يمنيون وسكان محليون أيضًا حرية السفر بالبر أو بالبحر[١٣٦]. وجاء ذكر لعودة سفن يونانية من الهند (أو إثيوبيا) لأيلة حوالى عام ٥٧٠م[١٣٧]، كذلك أشارت المصادر الإسلامية إلى وجود سفن بيزنطية وإثيوبية فى البحر الأحمر(*)[١٣٨].

والأمر ذو الأهمية هو أنه لا يوجد أى دليل يشير لنقل بضائع هندية على طول الطريق البرى فى العصر الهللينيستى ، كذلك لا يوجد دليل على نقل بضائع هندية على طول هذا الطريق فى القرون السابقة على ظهور الإسلام . إن السبب الوحيد الذى دفع البعض إلى القول باستمرار استعمال الطريق البرى فى تجارة العبور هو أننا نحتاج

(*) ذكر كوزماس أن البضائع الشرقية كانت تصل إلى عدن وأدوليس ليتم نقلها إلى الشمال . وإذا كانت الإشارات متوافرة على استخدام الطريق البحرى فى القرنين الخامس والسادس ، فإنها فى الوقت نفسه لا تدل على أن الطريق البحرى كان هو الطريق الوحيد . وإذا كان سكان أدوليس يعملون فى التجارة "من الإسكندرية حتى أيلة" ، فليس معنى هذا أن التجار العرب لم يشاركوهم الميدان فى حمل التجارة الشرقية والمحلية إلى الشمال عبر الطريق البرى الذى تمرسوا فيه قرون طويلة ، وشجعهم على استخدامه اشتعال الحروب بين فارس وبيزنطة وتأثر الطريق البحرى بها . (المترجمة)

إلى تفسير لازدهار مكة التجارى " لأن كثيراً من التجارة كان ما يزال يمر عبر طريق الشاطئ العربى" كما لاحظ وات (Watt)، "إذا ما حكمنا معتمدين على استمرار ازدهار مكة"(١٣٩). أما فى حالة عدم وجود تجارة عربية جنوبية هندية ، فهو يعنى عدم وجود طريق للتوابل لكى يرثه المكيون .

أما الأمر **الثالث** الذى يهمنا فيتمثل فى أن قيام علاقات بحرية مباشرة بين الهند والعالم العربى قد عرض بلاد العرب للأطماع الاستعمارية ، وأصبحت بلاد العرب الآن محاطة بدائرة من الطرق التى ستدفع بالإمبراطوريات إن آجلاً أو عاجلاً لمحاولة فرض سيطرتها المباشرة عليها . لم يقم الفرس (البارثيون) أو الرومان المتنافسان بهذه المحاولة . إن الشائعات التى انتشرت عن ثروة جنوب بلاد العرب هى التى دفعت الإمبراطور أغسطس لإرسال حملة أيليوس جاللوس للعربية الجنوبية، وليس كونها طريقًا يصل إلى الهند(*)(١٤٠). بمعنى أن إمبراطوريات القرنين الأول والثانى المفككة قد

(*) إننا في هذه الحادثة نرى كرون تمر عليها مروراً سريعًا ولم توضح لنا أن أغسطس قيصر لم يكن أقل طموحًا إلى السيطرة علي الطرق التجارية الشرقية من غيره من خلفائه، ولذا لم يكن أقل شكوى من ثراء التجار العرب . ولكن بدلاً من أن ينتظر التاجر الرومانى أو اليونانى أن تأتيه البضائع الثمينة فى أسواق مصر أو الشام محملة على سفن حربية أو على ظهور قوافل الجمال وهى بأسعار عالية ، كان أغسطس يرى أن يرتاد الرومان بأنفسهم البحر الأحمر إلى المحيط الهندى حتى سواحل أفريقيا أو جنوب الجزيرة العربية أو الهند أو ما وراءها ليشتروا من موانئها وأسواقها ما يريدون بسعر رخيص ، فيستفيدوا وتستفيد حكوماتهم ويخسر التجار العرب. وأكد إسترابون أن الإمبراطور كان يرى هذا كله حين قرر إرسال حملة اليمن، وقد برهنت حملة الرومان التى واكبتها حملة حبشية على مملكة سبأ فيما بعد أن صحراء العرب أمنع مما تبدو لأول وهلة . Strabon, p356 وزعم المؤرخون للحملة من الكُتّاب الإغريق أن الرومان لم يقاتلوا العرب ولم يلتحموا بهم تمامًا ، بل لاقى الرومان الحر والجوع والمرض مما أهلك أكثرهم وأجبر الباقين على العودة لأراضيهم .

تبدلت سياسة روما أو تكيفت ، دون أن يتغير الطموح إلى بلوغ المحيط الهندى ، فلم يعد أغسطس يفكر في غزو الجزيرة العربية غزواً بريًا مباشراً ، بل عمل على تقوية أسطوله فى البحر الأحمر وتحسين علاقاته بسادة القبائل العربية المحافظة على مصالح روما الاقتصادية وقدرتها على بلوغ المحيط الهندى . ووجه أنظاره إلى سواحل أفريقيا وحكومة الحبشة، وأخذت روما تضغط على مملكة سبأ، وهو أسلوب استعيد مرات فيما بعد، في القرن السادس على وجه الخصوص، فى العصر البيزنطى . ويروى صاحب "الطواف" أن الرومان عقدوا معاهدة تحالف كذلك مع ملك ظفار الحميرى . ويعتقد مع ذلك أن روما لم تخرج صفر اليدين تمامًا من مغامرة أيليوس جاللوس، بل استولت على ميناء ليوكي كومى Leuke kome (حوارء) =

أعطت الفرصة لكل من الساسانيين والبيزنطيين لكي يصبحا قوى عظمى ، لذلك استقطب الشرق الأدنى السياسات إليه ، وتداخل التنافس التجارى مع التنافس السياسي والأيديولوجي وشمل كل المنطقة الممتدة من الصحراء السورية وحتى سيلان، لقد اختفت مدن القوافل فى الصحراء السورية إلى الأبد، وسقطت تدمر بعد الثورة التى شهدتها عام ٢٧٣م، وسقطت هاترا (Hatra) قبل عام ٣٠٣[١٤١]. أما الدول التى حلت مكانها مثل غسان (Ghassan) والحيرة (Hira) فقد وضع تصميمها السياسى لكى يتلاءم مع النزاعات الحدودية أكثر من كونها قد صممت لتلعب دوراً سياسيا.

= على الشاطئ الشمالى للحجاز ، حيث كان الموظفون يجبون المكوس . وكانت التجارة الآتية إلى الميناء تنقل من هناك برا فى القوافل إلى البتراء ، لكن تاريخ الاستيلاء على هذا الميناء غير مؤكد . وكانت المهمة السياسية الأولى فى الجزيرة العربية هى تنظيم حلفاء لروما والحبشة لمقاومة مملكة سبأ التى كانت تسعى إلى إبقاء التجارة البرية في يدها ويد حلفائها . ولم يكن الحميريون وحدهم مناسبين لهذه المهمة الملائمة لمصالح روما، بل كانت قبيلة "نجران" (لعلها نجران) ثائرة على مُلك السبئيين بتحريض من الحبشة . كذلك ثارت على الملك السبئى مدينة "ظربن" (ظربان؟) التى حظيت هى أيضاً بتأييد الأحباش، واشتبه جواد على استناداً إلى هذه الحوادث ، اشتباها قويا باحتمال اتفاق روما مع الحبشة لدعم العصيان داخل مملكة سبأ ، بعدما فشلت حملة أيليوس جاللوس. فيما كانت سياسة سبأ تقتضى السيطرة على الطرق المؤدية إلى بلاد الشام ما أمكنها ذلك ، فأسست مواضع لحراسة القوافل من قطاع الطرق وتحرش القبائل . ولعل القبائل اليثربية التي يرجع بها النسب إلى اليمن ، هى من القبائل التى أسكنتها سبأ فى هذا الموقع من أجل حماية القبائل المتجهة إلى الشام .

أرسل أغسطس بعد ذلك حملة عسكرية ثانية يقودها جايوس قيصر في السنة الأولى للميلاد ويستدل من نصوص لبلينى على أن هذه الحملة بلغت ما سماه "بالخليج العربى " وهو على الأرجح خليج العقبة ، ولم يتوغل جايوس داخل الجزيرة العربية ، بل قاتل قبائل عربية داخل مملكة الأنباط. ويستبعد باورسوك Powersock أن تكون الحملة موجهة لقتال الأنباط رغم صمت المصادر في هذا الشأن ؛ ولذا رجح أن الحملة قابلت قبائل عربية كانت تندفع نحو الشمال إلى داخل الأراضى النبطية . ويؤيد جراف هذا التفسير لحملة جايوس، ويضيف أن القبائل الصفوية فى حوران وجنوب سوريا قطعت المواصلات الرومانية ، وأدت غزوات بدوية أخرى فى فلسطين إلى تدمير بعض القرى، فدفع ذلك بروما إلى شن الحملة. وأشار جراف إلى أن روما تعمدت فى أواخر القرن الأول ق.م أن تنقل مرور طريق تجارة التوابل والبخور الشرقية من مرفأ ليوكى كومى إلى ميناء الإسكندرية . ويبدو أن هذه الغزوات القبلية على أراضى الأنباط شنتها القبائل الحجازية الشمالية بإيعاز من سبأ ، أو أن القبائل التى تضررت من جراء نقل التجارة من أراضيها إلى طريق آخر، فقامت بتلك الغارات تعويضاً عن خسارتها وانتقاماً من الرومان وحلفائهم الأنباط معا . راجع سحاب،المرجع السابق والمراجع المذكورة لديه ، آمال الروبى : مصر فى عصر الرومان، ص٥٧-٦١، جدة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م. ص٥٧-٦١ . (المترجمة)

وفي الوقت نفسه حلت الإرساليات التبشيرية محل البضائع التى كانت ترسل على الطريق إلى الهند . واستطاع مسافر رومانى تم أسره وهو فى الطريق إلى الهند أن يحول أهل إثيوبيا إلى المسيحية فى القرن الرابع(١٤٢). وقام تاجر يمني آخر كان يتردد بين القسطنطنية والحيرة بنشر المسيحية بين أهل اليمن فى القرن الخامس الميلادى(١٤٣). وفى المدينة [المنورة] تمت استمالة تاجر سورى لاعتناق المسيحية قبل الإسلام(١٤٤). وقام تاجر فارسي بنشر المذهب النسطورى على طول الطريق بين بلاد العرب والهند وسيلان وما يليها(١٤٥). وسيدور النقاش حتى فى سيلان بين التجار البيزنطيين والفرس حول فضل حكامهم الذين رسموا الشارات الإمبراطورية على العملة(١٤٦) فى هذا المجال ، وهى العملة التى لم تكن تعنى بالنسبة للتجار الأوائل أكثر من كونها نقودا. ويرى أجاثارخيديس أنه "لولا موقع بلاد العرب البعيد ... لحاولت القوى الأجنبية أن تضع يدها عليها وتفوز بتلك الجائزة"(١٤٧). ولكن بعد أن فقد العرب ثرواتهم الخيالية فى القرن الثالث، وأصبحت المسافة لبلادهم أقل بعداً ، بدأت تظهر بالتدريج الأهمية الإستراتيجية لشواطئهم ، الأمر الذى أصبح من غير الممكن معه تركها دون تدخل .

لقد جاءت أكبر المحاولات للسيطرة على بلاد العرب من قبل الساسانيين وتمكن أردشير (٢٢٦-٢٤١م) من السيطرة على منطقة الخليج قبل أن يرث العرش ، وقام بإنشاء عدة مدن على جانبيه ، وحوّل قبيلة الأزد (Azd) فى عمان إلى العمل فى البحر . واستطاع سابور (Shapur) الأول (٢٤١-٢٧٢م) أن يضم عُمان رسميا لفارس(١٤٨). ثم قام سابور الثاني (٣٠٩-٣٧٩م) بشن حملة تأديبية على بلاد العرب وصَل فيها إلى البحرين وهجر (Hajar) واليمامة (Yamama) على مقربة من يثرب (yathrib) ثم واصل سيره لأعالى الصحراء السورية(١٤٩). وقام الساسانيون فى تاريخ غير محدد بعبور نجد ، أغلب الظن للسيطرة على القبائل هناك وفيها اكتشفوا الفضة ، واتبعوا ذلك بإنشاء مستعمرة [مستوطنة] أقاموا فيها بعض المنشآت التى يمكن أن يكون قد تخلف فيها بعض البقايا الأثرية(١٥٠). وبعد ذلك أحاطت المسيحية بالخليج الفارسى من دجلة (Tigris) إلى عُمان ، بل كانت هناك كنيسة نسطورية فى سوقطرة (Socotra)(١٥١). وبالإضافة إلى ذلك كان هناك وجود للزرادشتية فى منطقة الخليج ونجد(١٥٢).

وأصبح من الواضح وجود بعض المعابد الزرادشتية هناك[١٥٣]. وأنشأ الهنود مستعمرة لهم في جنوب العراق كانت كبيرة الحجم[١٥٤]، وتبع ذلك قيامهم بالقرصنة في الخليج الفارسي[١٥٥] .

اعتمد البيزنطيون أساسًا في الرد على النشاط الفارسي في المنطقة على الإثيوبيين الذين قاموا بغزو جنوب بلاد العرب في أوائل القرن الرابع – كما سبق القول – حتى يتمكنوا من السيطرة على جانبي المضيق[١٥٦]. ثم شجعهم الإمبراطور جستنيان على القيام بشراء الحرير من أجله، وفي الوقت نفسه شجع الحميريين على شن الحرب ضد الفرس[١٥٧]. ومما لاشك فيه أنه عندما قام الإثيوبيون بغزو جنوب بلاد العرب للمرة الثانية عام ٥٢٥م، كان ذلك بتأييد من بيزنطة[١٥٨]. وجاء رد الفرس على ذلك بغزو اليمن بعد تردد[١٥٩]، حيث عثروا هناك أيضًا على الفضة ، ثم تبع ذلك قيامهم بتأسيس مستعمرة ، ومن الواضح أنهم قاموا بفتح الطريق البرى لنقل الفضة من جنوب ووسط بلاد العرب إلى العراق[١٦٠].

وفى عام ٥٧٠م ، غدا لدى الساسانيين مستعمرات عسكرية في البحرين وعُمان واليمن[١٦١]، إضافة إلى مستعمرات تجارية فى كل من اليمن ونجد[١٦٢]. كذلك تمكنوا من إحكام قبضتهم على جميع الموانئ العربية المهمة مثل عدن وصُحَار (Suhar) وضبا (Daba)[١٦٣]، باستثناء ميناء شحر (Shihr) الذى حل محل ميناء قنأ فى حضرموت، وقد ذكرت المصادر عن ميناء ضبا عُمان أن التجار كانوا يفدون إليه من "السند، والهند، والصين ، والغرب"[١٦٤]. وتختزن الأشعار العربية فى ذاكرتها بعض أخبار تجارة الخليج[١٦٥]. وقام الفرس بحماية مستعمراتهم عن طريق شبكة من موظفى الملوك وأتباع آخرين ، وامتد سلطانهم من الحيرة فى وسط وشرق بلاد العرب حتى اليمن[١٦٦]. وكانوا يقومون بخدمة طريق الفضة ، وهو ذلك الطريق الذى كان على قدر كبير من الأهمية لجميع من هم خارج بلاد العرب فى ذلك الوقت[١٦٧]. وعلى الرغم من أن نفوذ الفرس لم يكن له إلا وجود قصير فى الحجاز[١٦٨]، فقد حاولوا فيما يبدو إشعار المنطقة به ، لذلك أقام سابور معسكرًا بجوار المدينة ، ويبدو أن كلا من يثرب

وتهامة (ومن ضمنها مكة) كان لها حاكم فارسى فى بعض المراحل[١٦٩]. بل إن بعض الآراء تفترض ظهور بعض المذاهب الفارسية (الزندقة) فى مكة نتيجة لذلك[١٧٠]، وأن بعض القرابين التذكارية التى عثرت قريش عليها فى زمزم(*) كان قد أقامها ملوك الفرس[١٧١]. ويبدو أن الفرس فشلوا فقط فى إشعار حضرموت بوجودهم هناك.

وفى ضوء ما تقدم فإننا نتعجب : فهل يمكن أن يكون هناك مكان لدور ريادى لمكة(**) وسيطرة تجارية أو سياسية أمام ما يذكر عادة عن الخلفية التى بدأ محمد [ﷺ]

(*) لعلنا نسأل الكاتبة كرون : لماذا يضع الفرس قرابين فى زمزم ، أى فى الحرم المكى ، إذا لم يكن له قدسيته؟ (المترجمة)

(**) إن افتقار مكة لمصادر الزراعة والرعى كان حافزًا قويا على عملها فى ميدان التجارة، بينما كانت للطائف والمدينة ظروف مناخية أفضل هيأت لها مصادر أخرى للعيش غير التجارة ، وبسبب جدب مكة «واد غير ذى زرع» لم تكن مطمعا لأى حكم أجنبى فيها ، إضافة إلى صعوبة الوصول إليها ، ولم يحكمها ملك، وقد تفاخر أهلها بأن مدينتهم كانت لقاحا "لا تدين لدين ملوك ولم يؤد أهلها إتاوة ولا ملكها ملك قط من سائر البلدان . تحج إليها ملوك حمير وكندة وغسان فيدينون للحُمس من قريش ويرون تعظيمهم والاقتداء بآثارهم مفروضًا وشرفًا عندهم عظيمًا" كما كانت مكة محجة منذ عصر لا تعيه الذاكرة وقبل أن يرفع إبراهيم عليه السلام القواعد من البيت؛ فقد قال إبراهيم عليه السلام عندما ترك إسماعيل طفلاً رضيعًا مع أمه السيدة هاجر داعيًا المولى سبحانه وتعالى ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (سورة إبراهيم الآية ٣٧). كانت قريش تمتهن التجارة قبل عودتها إلى مكة، ومما لا شك فيه أن ارتباطها بالحرم ومواسم الحج أدى إلى ازدهار تجارتها خاصة بعد قيام قُصى بتنظيم إدارة مكة وتوطيد الأمن فيها ورعاية الحجاج القادمين لتأدية مناسكهم فيها ، لذلك ذاع صيتها بين القبائل العربية . كما هيأت الظروف الدولية الفرصة لمكة لأن تلعب دورا فى التجارة الشرقية عندما انتقلت خطوط نقلها إلى الجانب الغربى من الجزيرة العربية . وتتلخص هذه الظروف فى العوامل التالية :

أولاً: أدى نشوب المنازعات المستمرة والحروب بين الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية إلى عرقلة التجارة الشرقية عبر طريق الفرات .

ثانيًا: أدى ظهور مملكة الغساسنة التى أنشأها الإمبراطور البيزنطى جستنيانوس لموازنة وكيل الفرس اللخمى من المناذرة فى أوائل القرن السادس إلى تأجيج النزاع بين القوتين الكبريين. ولم تكن لهذه الممالك الصفة التجارية التى اتصفت بها كل من البتراء وتدمر. وأدت الحروب التى دارت بين الحيرة والغساسنة إلى دفع طرق التجارة الشرقية إلى غرب شبه الجزيرة العربية .

ثالثًا: تدهورت أحوال عرب الجنوب بسبب غزو الحبشة لبلادهم، وانشغال أبرهة بتوطيد أركان حكمه فى البلاد التى حكمها وكان غريبا عنها ، ولذلك انشغل بحماية ملكه من الأقيال المهزومين والقبائل العربية ومن ملك الحبشة الذى اغتصب الحكم منه، إضافة إلى خيبة الأمل التى أصيب بها بعد فشله الذريع فى السيطرة على مكة.

=

حياته العملية بها؟ وماذا تبقى من تجارة التوابل ليرثها أهل مكة ؟ ثم ما هو نصيبهم من المنتجات الشرقية الذى كان يمكنهم أن ينتزعوه من يد الفرس والإثيوبيين والإغريق؟ وكيف كان في استطاعة مكة التي كانت محصورة بين فارس وروما كما قال قتادة[١٧٢] أن تجد لها مكانا بينهما لكى تقيم تلك الرابطة (Commonwealth) المترامية الأطراف؟ إن هذا الوضع لا يبـدو واضحًا. وسوف أبـدأ من الآن بتوضيح تجـارة قـريش ، كل عنصر على حدة ، في البخور والتوابل وبضائع الترف الأخرى ؛ لأثبت أنها مجرد خيـال .

رابعًا: صعود نجم مكة بعد هزيمة أبرهة الحبشى، حيث أصبحت على قمة هرم القبائل العربية ، مما انعكس على تجارتها وأصبحت تمثل ملتقى الطرق الثلاثة التى سلكتها التجارة الشرقية (طريق شرق الجزيرة، وطريق الجنوب ، وطريق البحر الأحمر) لنقل بضائع الحبشة وسلك الطريق الأول وادى الرمة ووادى الدواسر ، وكان عرب البحرين وعمان يأتون إليها بتجارة الشرق بعيدا عن طريق الفرات الذى دارت حوله المعارك الحربية. أما الطريق الثانى فقد بدأ المكيون ينظمون عليه قوافل منظمة بعد أن كانوا يعاونون تجار اليمن بقوافلهم. كما نجح تجار مكة فى أن يجذبوا للشاطئ الأسيوى من البحر الأحمر تجارة أفريقيا ليقوموا بحملها إلى الشمال، نظرًا لانتشار القرصنة فيه وخطورة شعابه المرجانية . ولاحظت كرون أن آخر سفينة وردت من الحبشة أو اليمن ترجع لسنة ٥٧٠ ولم تذكر لنا من الذى قام بنقل التجارة بعد ذلك .

خامسًا: أدى نظام المراقبة على الحدود بين الدولتين الفارسية والبيزنطية فى بادية الشام إلى دفع التجار إلى إيجاد طرق بديلة لتجنب المراقبة الشديدة من جهة ولتوفير جزء من المكوس الجمركية التى كانوا مطالبين بدفعها.

سادسًا: يضاف إلى ذلك عامل فى غاية الأهمية وهو الاستعداد الذاتى لمكة ذاتها فهو الذى حسم المنافسة لصالحها حين توفرت الظروف الدولية السابق عرضها: واستطاعت مكة أن تستثمرها لصالحها بالوقوف موقف الحياد من الصراع السياسى والعسكرى الدائر فى المنطقة ." وكانت للفرس مصلحة فى أن يشترى المكيون بضائع تجارتهم الشرقية، وكانت لدى بيزنطة رغبة فى شراء هذه البضائع ، فلما فشل كل من الفريقين من الاستيلاء على مكة وطرقها ، لم يجدا بدا من ترك التجارة المكية تسير مسارها الطبيعى، فلم يكن ثمة بديل عن مكة والحرب سجال بينهما ".لقد كان إيلاف قريش الذى نظم رحلة الشتاء والصيف، وحشد لها وسائل النقل ورصد لها المال اللازم ، وسخر لها العنصر البشرى المنظم ، وعقد لها العهود لضمان المرور الآمن ووثق لها المواثيق مع ملوك الأطراف هو العنصر الذاتى المهم الذى فشلت كل من الحبشة واليمن والحيرة وغيرها فى توفيره ، فانتصرت مكة فى المنافسة ، واستطاعت وحدها أن تستفيد من الأوضاع الدولية الملائمة . راجع : سحاب ، المرجع السابق، والمصادر المذكورة لديه ص١٨٧-٢٠١؛ سلامة، عواطف أديب، قريش قبل الإسلام، دورها السياسى والاقتصادى والدينى ، ص٢١٢-٢١٨ . (المترجمة)

الحواشى

(١) J.I. Miller, The Spice Trade of the Roman Empire, p.2.

(٢) M. Rodinson, Islam et Capitalisme, p. 46, Frankincense ; D.S. Margoliouth, Mohammed and the Rise.Of Islam, p.49 راجع ، الطبرى ، تاريخ ، مجلد(١) ، ص١١٦٢ (عطر) وأيضا Watt,. Muhammad at Mecca, p.3 .

(٣) تم الاعتماد فيما يلى على مولر Muller, Weihrauch, Groom, Frankinceuse. Cf. also Van Beek "Frankincense and Myrrh in ancient South Arabia", Id., "Frankincense and Myrrh"; H. Ogino, "Frankincense and Myrrh of Ancient South Arabia" .

(٤) يتميز الصمغ عن الراتنج بقدرة الأول على الذوبان فى الماء. أما الراتنج فيذوب فى الكحول والمحاليل الأخرى وليس من بينها الماء. أما الصمغ والراتنج فهو خليط من الاثنين. ويتكون صمغ الصبار والراتنج من قوام زيتى، راجع F.N. Howes, Vegetable Gums and Resins, pp.3. 85,89,149 .

(٥) cf.F.N. Hepper, "Arabian and African Frankincense Trees", pp.67f; Groom, Frankincense, cf. 6 .

(٦) ويؤرخ جروم بداية التجارة بالقرن السادس ق.م، بينما يجب أن تكون متأخرة عن ذلك بقرن من الزمان (Frankincense, ch.2).

(٧) cf. Muller, Weihrauch, cols. 739ff.

(٨) cf. C.A. Nallino, L'Egypte avait elle des relations directes avec L'Arabie meridionale avant l'age des ptolemaees ? ; Muller, Weihrauch, cols. 740 f .

(٩) كان فيلبى Philby أول من ناقش هذه الفكرة، على الرغم من أنه لم يتم نشر عمله إلا بعد فترة طويلة من موته H.St. John Phillpy, The Queen of Sheba, ch. I ووصل إيرفن للنتيجة نفسها A.K. Irvine, "The Arabs and Ethiopians", p.29 وقام جيروم بمناقشتها دون أن يرتبط برأى إرفين فى Groom, Frankincense, ch.3 (وهى مناقشة تفصيلية) .

(١٠) Rosmarin, "Aribi und Arabien", pp. 9f., 14; Job I:14 F; Strabo, Geography, xvi,4:21 .

(١١) cf. Rosmarin, "Aribi und Arabien", pp.29 ff.; Adia, Bazlslu, Japa Samsi, Telchunu ard Zabibe .

(١٢) أما بخصوص توابل إسماعيلى الجيليد ، راجع : Genesis. 37:25; and below, ch.3, no. 4. (وقد ترجم لوط خطأ بالمر فى النسخة المعترف بها) وفى الفقرة رقم ١٠ (عن sri balm) . وبخلاف هذين المحصولين فقد كانوا يحملون الطيوب التى تم تصنيفها على أنها ثمرة نبات الصماغ، وهى شُجيرة تنمو

في فلسطين (راجع .H.N. Moldenke and A.I. Moldenke, Plants of the Bible, pp.51f) ونفس الحال عندما قدمت ملكة سبأ الطيوب [لسيدنا] سليمان كما هو مذكور في الكتاب المقدس. هنا يتضح أن ملكة سبأ دفعت ضريبة من الطيوب . وتذكر السجلات الآشورية أنها دفعت ضريبة من الأحجار الكريمة (راجع Rosmarin, "Aribi und Arabien," p.14) ويربط بوليه Bullier بين انتشار توزيع الجمل وبين تجارة الطيوب ، ولكن يضعف من هذا الافتراض ما ذكره من أن الطيوب كان يتم بيعها بالضرورة على يد العرب القادمين من الجنوب Camel and The Wheel, pp.67, 68) .

(١٣) cf. M. Haran, "The uses of Incense in the Ancient Israelite Ritual, pp.118ff.

(١٤) ترجم روزمارن النصوص المرتبطة بهذا الموضوع في: Rosmarin Aribi und Arabien, pp.8 ff., 14ff.; 14ff .

(١٥) ورد ذكر البخور Frankincense لأول مرة في إحدى الوصفات الطبية التي تؤرخ بأواخر العصر الآشوري، في فترة ليست بالطويلة قبل الفتح الفارسي، وكان هيرودوت هو أول من ذكر استخدام الطيوب هناك. (Muller, Weihrauch, col. 742) وكثيرا ما ورد ذكر المر Murru ، ولكن لم يكن له صلة بالضرائب التي يدفعها العرب . وكان وصفها معروفا، واستخدمت بذورها مع مواد أخرى في الدباغة . وكقاعدة يبدو أن زيت المر الذي عرفه الآشوريون كان من منتجات العربية الجنوبية ، وبما أنه قد ورد ذكره من بين الهدايا التي أرسلها توسهاراتا الميتاني Tushratta of Mitanni (وليس في أي من النصوص العربية) فليس من المعقول : أن تكون كلمة طيب المر Myrrh-scented قد وردت ترجمتها خطأ . (راجع The Assyrian Dictionary of the Oriental Institute; S.V. Murru . وإذا حكمنا من خلال ما ذكر في هذا القاموس، فإن التوابل التي ورد ذكر اسمها مرتبط بالضرائب التي دفعها العرب يصبح لا وجود لها).

(١٦) راجع G. W. Beek and A. Jamme, "An Inscribed South Arabia Clay Stamp from Bethel," . أعلن الباحثان في المقال الأول عن اكتشاف خاتم عربي في بيتل Bethel ؛ وفي المقال الثاني أخبرا قراءهما أنهما عثرا في مجموعة جلازر المحطمة على خاتم هو صورة طبق الأصل من خاتم بيتل ، وأن الخاتمين قام بصناعتهما الصانع نفسه : وكان كافيا من وجهة نظرهما لتغير ذلك تحطيم الخاتمين في المكان نفسه . أما يادن Yadin فقد خلص في بحثه التالي إلى القول بأن الخاتم الذي ينتمي إلى مجموعة جلازر المحطمة (والذي اختفى فيما بعد) هو الخاتم نفسه الذي عُثر عليه في بيتل . (Y. Yadin," An Inscribed South - Arabian Clay From Bethel ?") ثم قام كل من فان بيك وجامي بالرد عليه في المقال التالي :

G. W. Van Beek and A. Jamme "The Authenticity of the Bethel Stamp Seal" وأيضاً رد عليه كيلسو J. L. Kelso, "A Reply to Yadin Article on the Finding of Bethel Stamp" وهناك محاولة لتقديم دليل على أنه بالرغم من أن الخاتمين متشابهان فهما غير متطابقين . راجع : P. Boneschi, "L'antique Inscription Sud-arabe d'un Suppose cachet provenant de Beytin (Bethel)" . وينبغي التسليم بأن الاعتماد على المصادفة يعد أمرًا غريبًا ، ومنذ ذلك الحين يدور الجدل حول كيفية وصول خاتم جلازر إلى بيتل والعثور عليه فيها . راجع R. L. Cleveland, "More on the South Arabian Clay Stamp Found at Bethel" .

(١٧) تم العثور عليه في أنقاض لا يعرف تاريخها خارج أسوار المدينة؛ أو أكثر تحديداً في تلك الأنقاض التي يرجع تاريخها إلى الفترة الممتدة من عصر الحديد إلى العصر البيزنطي Jamme and Van Beek,

وهو يؤرخ بالقرن التاسع ق.م. على أساس أنه لابد من "Clay Stamp from Bethel again, p.16 أن يكون له ارتباط بتجارة الطيوب ، التى ترتبط من جانب آخر مع المعبد في بيتل Bethel؛ والذى كان موجوداً في الفترة بين ٩٢٢-٧٢٢ق.م ويعد من قبيل التخمين أنه كان يتم استيراد أغلب البخور Frank-incense في هذه الحقبة المبكرة من هذه الفترة (ولم يأخذ الباحثون فى اعتبارهم أن اليهود لم يكن لديهم شعائر لاستخدام البخور فى تلك المرحلة) . وعلى ذلك فإن تاريخ الخاتم يتوقف على الافتراض أن تجارة البخور كانت قائمة فى القرن التاسع ق.م، وهى الحقيقة التى لم تمنع المؤلفين من استخدام الخاتم دليلاً على إثبات الفرضية (cf. Van Beek and Jamme, Clay stamp from Bethel, p.16 ، وتعضد دراسة علم الجغرافيا القديمة هذا التاريخ ، ولكنها لا تؤكده ، cf. Boneschi, "L'antique in-scription", pp.162f., and the following note .

(١٨) cf.N. Glueck, The first Compaign at Tell el-Kheleifeh, p.16 حيث تم العثور في الموقع على آنية فخارية كبيرة مهشمة عليها حرفان من الكتابة العربية الجنوبية، تؤرخ بالقرن الثامن ق.م على أساس تاريخ علم طبقات الأرض ؛ G. Ryckmans, "Un fragment de Jarre avec caracteres mineens de Tell El-Kheleyfeh وتم قبول تاريخ النقش، وصنف على أنه نقش معينى ؛ N. Glueck, Tell el-kheleifeh Inscriptions, pp.236 f. قرر ريكمان بعد ذلك إرجاع تاريخ النقش إلى القرن السادس ق.م؛ وهناك قطعة أخرى من الفخار ostraca يبدو أنها أيضًا معينية ، تؤرخ بالقرن السابع أو السادس ق م ؛ لنفس المؤلف The other side of the Jordan, pp.128-132 وتم قبول القرن السادس تاريخًا لها ، هذا على الرغم من أن الكتابة تشبه كتابة النقوش التى تؤرخ بالقرن الرابع ق.م ؛ W.F. Albright, "The Chaldaean Inscription in Proto- Arabic Script", pp.43 f. ، (ويرى جيلوك Glueck أن تاريخ النقش يقع حول القرن الثامن، ويمكن أن تكون كتابته هى كتابة دادانية متأخرة، ولكنها ليست كتابة معينية بأى شكل)؛ Muller, Weihrauch, col.745 الذى يرى أنه ربما يكون نقشا سبئيا). انظر أيضا P. Boneschi, "Les Monogrammes sud Arabes de la grande Jarre de Tell El-Heleyfeh (Ezion- Geben)" ، (وفيه ما زالت الجرة تؤرخ بالقرن الثامن أو السابع ق.م).

(١٩) cf. T.C. Mitchell, "A South Arabian Tripod Offering Saucer Said to be from Ur," p.113 .

(٢٠) انظر الفقرات التى قبلها مولر Muller, Weihrauch, Col. 708 .

(٢١) توجد قائمة بالفقرات التى ورد فيها ذكر البخور Frankincense في الإنجيل لدى مولدينكي ومولدينكي Moldenke and Moldenke, Plants of the Bible, pp.56f. وكانت شائعة لدى الأنبياء من القرن السادس ق.م وما يليه . واستخدمه يهود إلفنتين بمصر Elephantine فى القرن الخامس راجع: A.Cowley ed. And tr., Aramic papyri of the fifth cent. B.C., mos. 30:25; 31:21; 33:11) . كما وجد لدى الشاعر بندار من الجانب الإغريقي Pindar (حوالي عام ٤٩٠ق.م)؛ وميلانيبيديس Melanippides (حوالي عام ٤٥٠ق.م) ، ولدى هيرودوت بطبيعة الحال (حوالى عام ٤٥٠ق.م) راجع cf. G.liddell & R. Scott, A Greek English Lexicon, s.v. libanos) .

(٢٢) والهوامش المذكورة هناك Rothjens, Welthandelstrassen p.122 .

(٢٣) Le Baron Bawen, "Ancient Trade Routes", p.35; Groom, Frankincense, p.153.

(٢٤) J. Hornblower, وعن مصادره راجع Diodorus Siculus, Bibliotheca Historica, XIX,94:5. Hieronymus of Cardia وإذا كان ديودور الصقلي قال ذلك ، فينبغي علينا أخذها على أنها تعني أن الأنباط كانوا يتسلمون بضاعتهم عند نهاية شمال البحر الأحمر، ثم يقومون بنقلها من هناك إلى البحر المتوسط .

(٢٥) وعن الحل المُغرى الذى قُدم لهذه المشكلة راجع A.F.L. Beston, "Some observations on Greek and Latin Data Relating to South Arabia", pp. 7f.; cf. id," Plinys Gibbani- tee", .

(٢٦) Strabo, Geography, xv1, 414.

(٢٧) Ibid., XVI, 4:19 كما لاحظ جروم Groom في كتابه Frankincense, p.243, n.29 أن هذا القول لا يرجع إلى أجاثارخيديس Agatharchides

(٢٨) راجع EI2, s.v. Kataban(Beeston) . من المستبعد أن يكون المقصود بالجبانيتي Gabbanitoe أنهم هم القتبانيون Qatabanis (راجع "Beeston, "Plinys Gebbanitae) ، ولكن بليني أو مصدره اعتبرهم بوضوح هم حكام العاصمة القتبانية .

(٢٩) Pliny, Natural History, XII, 63 ff.

(٣٠) Ibid., VI, 154; XII, 54.

(٣١) Periplus, p. 27.

(٣٢) W.F. Allbright, "The Chronology of Ancient South Arabia in the light of the First Campaign of Excavation in Qataban", pp.9f. (سقطت قتبان حوالى عام ٥٠ق.م) ويرى موللر أنها سقطت حوالى عام ٢٥ ميلادية .Muller, Weihrauch, col. 726 . واقترح بيرين تاريخا متأخرا وهو عـــام ٢٥٠م. J.Pirennes le royaume sud-arabe de Qataban et Sabatanian (A.D.250) وطبقا لما ذكره بيستون Beeston، فإن المرء يستطيع أن يقول بتأكيد أنه قد توقف ذكر قتبان في النقوش في القرن الرابع الميلادى (EI2, s.v. Kataban) .

(٣٣) أما عن الرأى القائل بأن البخور Frankincense كانت زراعته تشغل نفس المنطقة التى تزرع فيها اليوم في منطقة ظفار Zufar فيراجع : van Beek, "Frankincense and Myrrh", p.72; id., incense and Myrrh in Ancient South Arabia", pp.141 f.; id; "Ancient Frankin- cense- Producing Areas According to Groom, Frankincense, pp. 112 ff., and J.Pirenne, "The Incense port of Moscha (Khor Rori) in Dhofar", pp. 91. فهو ينمو في منطقة أبعد إلى الغرب مما هو عليه اليوم، وكل صاحب رأى لديه حجة جيدة. لكن جروم يُعلى من شأن منطقة ظفار ويبقيها دون اهتزاز، ولا يرى أنها كانت تنمو بكثافة إلى الغرب من حضرموت.

(٣٤) ارجع إلى كل من موللر وجروم ؛ إذ يرى موللر أن المعينيين هم الذين حافظوا على بقاء الطريق البرى مفتوحا، ويرجع السبب فى انهيار هذا الطريق إلى سقوط دولتهم فى القرن الأول قبل الميلاد -Weih rauch, Col. 725) . ولكن هذا التفسير لا يدخل فى حسابه الفائدة الكبيرة التى كان يجنيها الملوك الحضارمة ، أو لاستمرار استعمال الطريق خلال القرن الأول الميلادى (على الرغم من الشك حول هذا الموضوع كما رأينا)، ويقترح جيروم من ناحية أخرى استمرار استعمال الطريق البرى لأن دورة حصاد المحصول لا يمكن ربطها بالتجارة الهندية (Frankincense, pp. 143 ff) . ومن الممكن أن يكون عدم اتفاقها صحيحا، ولكن يمكن للمرء من ناحية أخرى أن يتوقع إمكانية أن تصبح تجارة البخور تجارة

بحرية حتى قبل أن يتمكن الإغريق من الإبحار إلى الهند، ومن جانب آخر كان يمكن للإغريق الإبحار إلى العربية الجنوبية لشراء الطيوب فقط قبل أن يصل الهنود إلى هناك (راجع أسفل رقم ٤٩). وهذا التفسير أيضاً غير مقنع.

(٣٥) راجع: ياقوت ، البلدان، ج٣، ص٥٧٧، مادة ظفار "وكانوا يقومون بجمع المحصول وحمله إلى ظفار ، حيث يحصل الحاكم على نصيبه فيه ولم يكن باستطاعتهم حمله إلى أي مكان آخر تحت أى ظرف من الظروف، وإذا سمع عن قيام أى فرد بحمله إلى مدينة أخرى كان يقتله "(*).

(٣٦) ومن الغريب أن نتحدث عن العدد الهائل من القبائل التى كان لها نصيب مماثل من التجارة أو التى تعيش على نهبها (Pliny, Natural History, VI.162) . وارتاى فان بيك أنه من المحتمل أن الطريق البرى كان فى بعض الأحيان أكثر أمنا من الطريق البحرى، لكن بسبب عامل المسافة ونفقات الرحلة، فإنه يبدو من غير المحتمل أن يقوم التجار باختيار أى من الطريقين فى كل مرة على أساس أيهما أكثر أمنا " Frankincense and Myrrh in Ancient South Arabia", p.148) ولقد ثبت وجود القراصنة فى البحر الأحمر لدى كل من بلينى (N.H.,II,101) وكتاب الطواف فقرة ٢٠؛ وقد أثبتت الفقرتان أن وجود القراصنة لم يمنع التجار من الإبحار ، ولهذا أخذ التجار حذرهم وسلحوا مراكبهم بالسهام التى وصفها لنا بلينى .

(٣٧) Pliny, N.H., VI, 104 . وقن Qn هى حصن الغراب Hisnal Ghurab الحديثة، أو بتحديد أكثر هى مكان على البرزخ يصل حصن الغراب مع الأرض الرئيسة. راجع A.F.L. Beeston, review of W.B. Huntingford, p.356) .

(٣٨) cf. Beeston, Some Observations, pp. 8 f.

(٣٩) Agatharchides, 101, in Photius, Bibliotheque, VII (previously edited with a latin translation by C.Muller, Geographi Graeci Minores, 1. ; والترجمة الألمانية راجع D. Woelk, Agatharchides von Knidos ueber das Rote Meer وهناك ترجمة فرنسية للفقرات ٩٧ – ١٠٢ فى Pirenne, Qataban, pp.82 ff. والترجمة الإنجليزية للفقرات ٨٦-١٠٣ الخاصة بـ J.S. Hutchinson الموجودة فى كتاب جروم Frankincense, pp. 68ff. والترجمة الإنجليزية للفقرات التى لها علاقة بساحل شرق أفريقيا تجدها فى G.W.B. Huntingford, tr., The Periplus of the Erythrean Sea, pp.177ff .

(٤٠) Artemidorus in Strabo, Geography, XVI,4,19.

(٤١) الفقرات رقم ٨-١٢ من كتاب الطواف تمت ترجمتها لدى جروم Groom, Frankincense, pp.138ff; Dioscorides, De Materia Medica, I,64=J. Goodyer, tr., The Greek Herbal of Dioscorides, ed. R.T. Gunther, I, 77 .

(٤٢) Cosmas Indicopleustes, Topographie chretienne, II, 49: cf. II, 64. Groom Frankincense, p.135. كانت عدن تتسلم ثلثى إنتاج الموانى الصومالية فى عام ١٨٧٥ Muller, Weihrauch, col.730. وفى عام ١٩٧٢ كان حوالى ثلاثة أخماس المحصول العالمى يأتى من الحبشة.

(*) النص الأصلى المذكور لدى ياقوت هو على النحو التالى: "ويجمعونه ويحملونه إلى ظفار فيأخذ السلطان قسطه ويُعطيهم قسطهم ولا يقدرون أن يحملوه إلىٰ غير ظفار أبدا ، وإن بلَغه عن أحد منهم أنه يحمله إلى غيرِ بلده أهلكه". (المترجمة)

(٤٣) كما ادعى جروم Groom بدون روية (Frankincense, p.147) .

(٤٤) راجع حاشية رقم ٢٧ ، ٣٠ أعلاه . ذكر أرتيميدوروس Artemidoros رجال القوافل في أثناء حديثه عن *السبئيين . أما بليني فكان يتحدث عن عرب الجنوب بصفة عامة، ولكنه ذكر أيضًا أن السبئيين كانوا* أكثر القبائل العربية شهرة "بسبب اللبان الذي كان يوجد لديهم" ويعتقد دوى B.Doe أن سبأ لم تنخرط رسـميـا في تجـارة الطيـوب" (The WD B Formula and the Incese Trade, p.41)، ولكن السبئيين ارتبطوا بتجارة الطيوب بين آن وآخر في المصادر الكلاسيكية ، ,cf. Muller, Weihrauch) cols. 711, 725) ؛ ولكن عـدم وجـود واو العطف (Wdh) يمكن أن يعضـد الرأى القـائل بأنهم لم يشاركوا بصورة كبيرة في التجارة البرية .

(٤٥) Artemidorus in Strabo, Geography, XVI,4:19. cf. also Ibid., XVI,4:4 حـيث ذكـر إيراتوسينيس Eratosthenes عدة جزر في البحر الأحمر استخدمت لنقل البضائع "من قارة لأخرى".

(٤٦) الفقرة رقم (٤٧) من كتاب أجاثارخيديس التي ذكرها ديودور الصقلي في كتابه ,Bibliotheca, III 42:5 . وأرتيميدوروس المذكور لدى إسترابون : Geography, XVI,4,18 وذكروا لنا أنه بالقرب من جزيرة فوكاي Phocae (وَحُرِّف الاسم إلى نيسا Nessa عندما نقله فوتيوس) ، هناك يوجد جبل داخل البحر يمتد إلى البتراء وفلسطين، وكان كل من المعينين والجرهائيين وآخرين يحضرون سلعهم (إلى هذه الجزيرة وفلسطين). وأغلب القراءات لعبارة eis gar tauten (ذكرها ديودور eis ben، وكذلك لدى كل من فوتيوس وأرتيميدوروس) تشير إلى جزيرة، لأنها جزيرة وليس إلى فلسطين، ولأن أجاثارخيدس كان يرغب في تقديم معلومات عنها ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فهو لم يكن واثقًا بأن معلوماته كانت صحيحة. فوجد أنه من الضروري أن يضيف عبارة "كما يقولون" (hos logos لدى كل من فوتيوس وديودور) عندما كان يتحدث عن وصول القوافل إلى فلسطين . إضافة إلى وجود كل من كلمة Phortion (وهي تعني على وجه التحديد حمولة السفينة)، وكلمة Katago (ومعناها الإنزال على الساحل على وجه الخصوص، أي من البحر إلى البر، أو إحضار السفينة إلى الميناء) كل هذا يرجع أن النقل كان يتم عن طريق البحر. والترجمة التي قام بها فولك Woelk واضحة تماما، وقد قرأ مؤلف النص بطريقة مشابهة . (Weihrauch, col.730)؛ ولم يتم هنا تفريغ الحمولة على الجبل الواقع في داخل البحر لأن ذلك يبدو مستحيلا بطبيعة الحال، ولذلك فمن المحتمل أن الجزيرة المقصودة هي جزيرة تيران Tiran . راجع (Woelk, Agatharchides, p.212) (*) .

(٤٧) شارك الجرهائيون في توزيع البخور الحضرمي، وقاموا بنقله عن طريق البحر إلى حد ما في الخليج الفارسي في تلك الفترة أيضا. ومن المحتمل أنهم كانوا يجمعون البخور Frankincense برا (أيا كان الطريق الذي يستخدمونه)، ولكنهم كانوا يستخدمون عند عودتهم لجُرْهَا الطوافات الجلدية للوصول إلى بابل ، ثم يبحرون في الفرات (,Aristobulus in Strabo, xv1, 3:3 وهكذا تمكن أرستيبولوس من إنهاء التعارض في هذه السطور) ويذكر ردوكاناكيس Rhodokanakis أنه ثبت وجود المعينيين الذين كانوا يحملون المر والقرفة Calamusإلى مصر كما أشار أحد نقوش الجيزة الذي يرجع إلى عام ٢٦٤ ق.م ("N.Rhodokanakis, "Die Sarkophaginschrift von Gizeh) . وكما أوضح بيستون -Bees ton فإنه بالرجوع إلى النقش الذي ذكره ردوكاناكيس نجد أنه جعله أكثر نقوش التوابيت التي لا يمكن

(*) يوجد خطأ مطبعي في ذكر اسم أجتارخيديس في الأصل . (المترجمة)

تصديقها . فقماش الكتان المذكور فيه Ksy المقصود به قماش تغليف الجثمان، كما أن السفينة المذكورة فيه (sy) فالمقصود بها الصندل الجنائزي (الذى يحمل الجثمان) ، وفي كلتا الحالتين فشل النقش في ذكر السفينة التي كان المتوفي ينقل بها الطيوب إلى مصر. (A.F.L.Beeston, "Two South Arabian Inscriptions; some Suggestions", pp.59 ff.; id.; Personal Communication).

(٤٨) Strabo, Geography, xv1, 4:23f. (بالارتباط مع حملة أيليوس جاللوس (Aelius Gallus) . وتقرير إسترابون مفصل وواضح ويرتكز على معاصرته للحدث أكثر من المصادر الأدبية، لذلك لا يمكن رفضه كما حدث لدى جروم (Groom Frankinceuse, pp.207 f) الذى لم يلاحظ النص الذى قدمه أجاثارخيديس ،الحاشية رقم (٤٦) أعلاه، وكذلك النص الذى ذكره بليني والموجود في الحاشية التالية .

(٤٩) Pliny, Natural History, V1, 104.

(٥٠) Periplus, ,,7ff.

(٥١) G.W. Bowersock, Roman Arabia, p.21 إن سياسة المواصلات البحرية الجديدة لم تكن ضد مصلحة الأنباط، طالما كان يتم تفريغ البضاعة في ميناء ليوكي كومي Leuke kome وكان الأنباط هم الذين يقومون بنقلها إلى غزة عن طريق البتراء، ولكننا كما رأينا فقد قرر إسترابون أن البضائع كانت في العادة لا يتم تفريغها على الجانب المصري من البحر الأحمر في ذلك الوقت ؛ ويؤكد صاحب الطواف على أن ليوكي كومي فقدت أهميتها مع بداية القرن الأول (راجع الحاشية رقم ٤٨ أعلاه، ثم رقم ٥٥ فيما بعد)، ولذلك يبدو أن بورسوك كان على حق عندما قال إن التجارة البحرية الجديدة تسببت في انهيار طريق البتراء –غزة(وإذا كان قد انهار في ذلك الوقت، راجع المصادر الأدبية التي ذكرها بورسوك Bowersock نفس المرجع السابق). كما يبدو أنه كان محقًا أيضًا فيما ذكره بأن ذلك كان السبب الذى دفع الأنباط إلى القيام بالقرصنة البحرية، ولما كان هناك احتمال في رجوع ديودور إلى أجاثارخيديس لهذا يمكن أن نرد هذه الظاهرة باطمئنان إلى فترة زمنية أسبق.

(٥٢) راجع Raschke, "New studies", p 661 . لقد سبق الرد على الفكرة المعروفة والقائلة بأنه استخدم عمل يورانيوس Uranius الذى ذاع صيته في القرن الأول ق.م في ص ٨٢٧ وما يليها.

(٥٣) Periplus, 27 f, ,,36 حيث تقع عمانا Omana، (ويبدو أنها تقع على الجانب العربي من الخليج الفارسي، راجع Beeston, review of Huntigford, p.357، ومن المحتمل أنها تنطبق على صُحار Suhar راجع Muller, Weihrauch,cal 628، حيث إنها تستقبل البخور Frankincense من قنا cane، وفي الفقرة رقم ٣٩، حيث كان يتم تصدير اللبان إلى براَباريكون Barabaricon في الهند من قنا على ما يبدو، وقد نسق جروم بين هذا القول بافتراضه أن البخور كان يمكن تصديره فقط بواسطة البحر وبإذن خاص. (Frankinceuse,p153) .

(٥٤) El2, s.v Hadramawt; W.W. Muller, Das Ende des antiken Konigreichs Hadramaut, die Sabaisshe Inschrift schreyer- geukens= Iryani 32, pp.231-249.

(٥٥) G.F. Hourani, Arab Seafaring in the Indian ocean in ancient and early medieval times, p.34 . كان ميناء ليوكي كومي ما يزال له بعض الأهمية في أيام صاحب كتاب الطواف (راجع periplus,19 وكانت المدينة بمثابة سوق للسفن الصغيرة المرسلة من العربية).

(٥٦) كانت السفينة البيزنطية التي جنحت عند الشعيبة في طريقها من القلزم إلى الحبشة طبقًا لما ذكره المسعودى (راجع الفصل الأول أعلاه حاشية رقم٩)، وعندما فتح الرسول [ﷺ] أيلة منح سكانها ومن بينهم اليمنيين الذين كانو هناك منحهم حرية السفر بالبحر (انظر ص٦٥ أدناه).

(٥٧) Periplus, ed. H. Frisk, ..26 (Schoff "Caesar" to charibael), discussed by Pirenne, Qataban," pp. 180f. cf. Philostorgius, Kirshengeschichte, III, 4= F. Walford, tr., the Ecclesiastical History of Philostorgius pp.444) حيث طلب قسطنطيوس السماح له ببناء كنسية للرومان الذين يصلون بحراً للعربية الجنوبية: وتم بناء كنيسة في عدن كان يصل إليها كل من يأتي من أنحاء الإمبراطورية الرومانية، (ولا أعرف على أي أساس يقال إن عدن قد فقدت أهميتها بعد ذلك في البحر الأحمر فيما بعد لصالح ميناءي أهواب Ahwab وجوالافيجا : Ghulafiqa (EI2,S.V Adan).

(٥٨) راجع Groom, Frankincense (حتى انهيار الإمبراطورية الرومانية في القرن الرابع الميلادي Le Baron Bowen, "Anicent Trades Routes", P.35 و حيث قدم أدلة كثيرة، Doe, southern Arabia, p30 (قبل فترة قصيرة من ظهور الإسلام)، راجع أيضًا van Beek, "Frankincense and Murrh in ancient south Arabia", p. 148، حيث يوضح ويبرهن على استخدام الطريق البري والطريق البحري في جميع العصور، ويرى إرفن Irvine, "The Arabs and Ethiopians," P. 301، يرى عكس ذلك حيث يؤكد على أن الطريق البري قد تدهور مع مطلع العصر المسيحي، وبالمثل J. Rychmans, L'institution monarchique en Arabie meridionale avant Islam, pp331.

(٥٩) كان ميناء شهر Shihr يتاجر في البخور (الكندر) Frankincense (kunder) والمر في عصر قبل الإسلام (أحمد بن محمد الأزرقي، كتاب الأزمنة والأمكنة، ج٢، ص١٦٣ وما يليها. وقام أبانَ (Abna) الحاكم الفارسي لعدن بفرض ضريبة العشور عليها، وكان يتم نقل الطيب Tib منها إلى الأقاليم الأخرى (أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي ، تاريخ ، ج١، ص٣١٤). ويمكن القول بأنه كان يتم تصدير الطيب من عدن مصنعًا كمادة عطرية بدلاً من تصديره مادة خام.

(٦٠) Cosmas, Topographie, II, 49;Muller, Weihrauch, cols. 721, 728; Groom, Frankincense, p. 135.

(٦١) وذلك في G.Howrani, "Did Roman Commercial Competition Ruin South Arabia"?, P.294 f.; R, le Baron Bowen, "Irrigation in Ancient Qataban (Beihan)", P.85; Bulliet, Camel and the wheel, p.164; Groom, Frankincense, p.162; Muller, Weihrauch, col.746. (وعلى أي حال لا يوجد دليل على زيادة هذه الطلبات عليها في فارس كما يشير ميلر).

(٦٢) E.G.C.F. Atchley, A History of the use of incense in Divine Worship, pp.81 f.; Muller, Weihauch, cols. 761ff.; G.W.H. Lampe, ed. Patristic Greek Lexicon, pp.656f.

(٦٣) وليس معنى ذلك أن روح المسيح [عليه السلام] كانت في حاجة إلى كل هذه الطيوب (.W. Riedel and W.E.Crum, eds and trs., The Canons of Athanasius of Alexandria, p.58=68 حيث كان حرق البخور جزءا من الطقوس. وإذا كان هذا العمل يُعزى إلى أثناسيوس، عندما كانت البطريركية ما زالت خالصة نقية في القرن الرابع، فإنه يُعد واحدا من الأدلة الأولى على أن حرق البخور كان أحد الطقوس الرئيسة في الديانة المسيحية، ولكن مما لاشك فيه أنه دليل غير صحيح . وعن بُعل راجع : Herodotus, History, I, 183.

(٦٤) Muller, Weihrauch, col.764 (Corippus);Pliny, N.H., XII,83

(٦٥) عن المشتريات اليومية من البخور راجع : Muller, Weihrauch, col.733.

(٦٦) راجع Atchley, Use of Incense, Part II . كان البخور من النوع المسمى بسمة (besma) يحرق عند تنصيب رجال الدين، وفي الأعياد، واستخدم في العلاج في بلاد ما بين النهرين Mesopotamia (راجع A. Palmer, "Sources for the Early History of Qartmin Abbey with Special Reference to the Period" A.D.400-800 passim) ويثبُت عادة حرق البخور بعد تناول الطعام قبل الفترة التاريخية، راجع L.Y. Rahmani, "Palestinian Incense Burners of the Sixth to Eighth Centuries C.E"., P.122; وفيما يخص اليهود راجع: الفصل الرابع ، حاشية رقم ٣٥، عن وجود العادة نفسها في بلاد العرب قبل الإسلام راجع : M.Aga- Oglu; "About a type of Islamic Incense Burner", p.28 عن وجود العادة نفسها أثناء الحكم العباسي .

(٦٧) يذكر كوزماس Cosmas, Topographie, p.49 أن البخور Frankincense كان يتم الحصول عليه من شرق أفريقيا، ومنها يصدر إلى العربية الجنوبية وفارس والهند.

(٦٨) cf. Muller, Weihrauch, col.722 وقد تم تحديد كل من البخور Frankincense والمر بوضوح في: E.A.W.Budge, ed. And tr., Syrian Anatomy, Pathology and Therapeutic, or "The Book of Medicines," Index .

(٦٩) J. Nicole, tr. Le livre du Prefet أعاد طبع الكتاب مع النص اليوناني، وقام فريشفيلد Fresh-field بترجمة الكتاب إلى اللغة الإنجليزية وموضوعات أخرى من كتاب الوالي (The book of the Eparch) X.1 .

(٧٠) استخدمت الكنيسة أنواعًا عديدة من منتجات الطيوب ولم يكن من الضروري الإشارة إلى استخدام البخور Frankincense (راجع Archley, use of Incense, p.272 n. وبخصوص الأقباط قارن عدم وجود المر والبخور من بين المواد العطرية التي وجدت في دير كوربي Corbie في القرن الثامن المذكور في F.Kennet, History of Perfume, p.91 .

(٧١) ارجع إلى الحاشية رقم ٦٧ أعلاه. وقد لاحظ موللر أيضًا الشيء نفسه Weihrauch, S.Smith, "Events in Arabia in the 6 th century A.D., col. 729. p.426. Zacharias Rhetor, Historia Ecclesiastica, II., 206=139. In the book of Eparch, حيث ورد ذكر كل من المر والبخور مع المسك والناردين والقرفة وخشب الصبر ومواد أخرى ذات رائحة طيبة ، وذكر أنه تم استيراد كل هذه المنتجات من أراضي الكلدانيين Chaldees ومن طرابزون Trebizon وأماكن أخرى (Nicole, Livre, x, 2) الأمر الذي يتضح معه أن البيزنطيين أصبحوا يعتمدون منذ ذلك الحين على الوسطاء المسلمين .

(٧٢) لم يكن لدى فيلوستروجيوس Philostorgius, Kirchengeschichte, III,4 ما يقوله عن إنتاج الطيوب العربية، على الرغم من أنه ذكر أن كلا من القرفة والكاسيا ترتبطان بالأحباش (III,b Procopius, History of the wars, book I and II, especially I, 19f. cf. A.Moberg, The book of Himyarites; and I. Shahid, The Martyrs of Najran وذكر أنه قد تم دفن أحد الشهداء بعد تكفينه في الكتان ودهنه بالطيوب Shahid, Martyrs, p.x=49، ولكن هذا الحديث لا يعني شيئًا لأننا هنا في بلاد الطيوب .

(٧٣) Atchley, Use of Incense, pp.101 f. R.Schroter, ed. And tr., "Trostschreiben Jacobs von Sarug an die himjaritischen Christen", p. 369=385 f. ؛ والترجمة ليست جيدة، ولم يُذكــر البلسم balsam في النص. Jacob of Edessa, Hexameron, p.138=115 (وأدين بالشكر للأستاذ كوك M.A. Cook في معرفة هذا المصدر) راجع : A. Hjelt, "Pflanzennamen aus den Hexaemeron Von Jacobs Von Edessa," I, 573,576f .

(٧٤) S.Krauss, Talmudische Nachrichten Ueber Arabien, pp.335 مع أدلة تثبت وجود عرب يتاجرون في جلود الجمال والقطران ذي الرائحة الكريهة (التار tar) . وعرف لامينز قيام العرب قبل الإسلام بالتجارة في القطران qatiran ، والتي قدمها خطأ على أنها من الطيوب ، كما أن الفقرة التي أشار إليها ترتبط بعصر عبد الملك ؛ راجع Lammens, Taif, pp.225f., id., Le berceau de l' Islam, p.92 .

(٧٥) M.A. Cook, Econamic Developments, p.221.

(٧٦) F. Hirth, China and the Roman Orient, p.39; cited in Hourani, Seafaring, P.16.

(٧٧) A.L Oppenheim, The Seafaring Merchants of Ur, وعن مصادر أخرى عديدة ارجع إلى Raschke, New Studies, p.941no. 1170 .

(٧٨) Hourani, Seafaring, p.110.

(٧٩) Kennedy, "Early commerce", pp. 266 ff.

(٨٠) وضع حوراني قائمتها في كتابه التالي : Hourani, Seafaring, P.100 .

(٨١) ويتورخ كتل خشب التيك الهندي التي عثر عليها في معبد إله القمر في معقر Muqayr، وفي قصر نبوخذ نصّر Nebuchadnezzar في بيرس نمرود Birs Nimrud بالقرن السادس ق.م. وهذه الكتل الخشبية كان يمكن نقلها بصعوبة عن طريق البر . (H.G.Rawlinson, Intercourse between India and the Western World from the earliest time to the fall of Rome, p.3; cf R.k. Mookerji, Indian Shipping, pp.60f) وذكر تايلور Taylor الذي اكتشف هذه الكتل الخشبية في تقريره عنها " أنها من خشب التيك كما هو واضح من شكلها" ولكن هذه الكتل الخشبية اختفت منذ ذلك التاريخ. ومن جهة أخرى فقد وصف راسام Rassam الدعامة الخشبية في قصر بيرس نمرود على أنها من خشب السدر الهندي Ceder، وهو نوع من أنواع خشب التيك "كما يعتقد أن الكتل الخشبية التي ذكرها تايلور كانت من هذا النوع نفسه . والسبب الوحيد الذي استند إليه راسام في هذا التصنيف يرجع لعدم تاكل خشب السدر الهندي بسرعة بفعل المياه على عكس الحال بالنسبة للخشب اللبناني. (Kennedy, Early Commerce, pp.266f. and the notes thereto, with reference to J.E. Taylor, Notes on the Ruins of Muqeyer, p.264,and a letter from H.Rassam .

(٨٢) استند كيندي على قيام تجارة بحرية مبكرة من اعتقاده في معرفة الإغريق الأرز وطائر الطاووس بأسمائها الهندية في القرن الخامس ق.م، وأيضًا معرفة فلسطين الطاووس وخشب الصندل في عصر تصنيف سفر الملوك الأول، وسفر التكوين الثاني والذي ينسب فيه إلى سليمان [عليه السلام] قيامه باستيراد مثل هذه الأشياء. cf. Kennedy, "Early commerce", pp.268 f. . ولم يذكر سوفوكليس Sophocles ٤٦٠ ق.م الأرز، ولكنه ذكر فقط Orindes artos التي فسرها الشراح على أنها مصنوعة من الأرز (راجع Liddell & Scott, Greek English Lexicon, s.v. . وذكر أرستوفانيس Aristophanes (٤٢٠ ق.م) الطاووس، ولكن أيا كان الموطن الأصلي للطاووس، فلم يعرفوه باسمه الهندي،

فالكلمة الإغريقية taos لا تنحدر من الكلمة التاميلية Togei أو tokei عبر الكلمة الفارسية tawus (وقد تبنى قاموس Liddell & Scott هذا الاشتقاق اللغوى الزائف)؛ لأن الكلمة فى اللغة البهلوية Pahlavi هى Frasbemurv .

وبالمثل إن (H.W. Bailey, Zoroastrian Problems in the Ninth-centry. Books, p.xv. الكلمة الفارسية طاووس Tawus منقولة من الحروف العربية لكلمة طاووس، والكلمة العربية بالمثل منقولة من الاسم اليونانى taos، أغلب الظن عن طريق الآراميين أو السوريين cf.M. Jastrow, A Dictionary of the Targumim, the Talmud Babli and yerushalmi and the Midrasbic Literature, I, 522; R. Payne Smith, Thesaurus Syriacus, I, Col. 1444,). وعن فرضية استيراد سليمان [عليه السلام] لخشب الصندل والطواويس راجع الحاشية رقم ٨٩ أدناه .

(٨٣) استخدم كيندى كتاب التعاليم البوذية Sutra Baudhayana الذى يحرم التجارة البحرية بينما يوافق على ما يقوم به البراهمة Brahmans من ممارستها فى الشمال وممارسة أعمال أخرى محرمة ، كدليل يؤيد انخراط الهنود المبكر فى التجارة البحرية مع الغرب Early Cammerce," p.269; Similarly" Mookerj, Indian Shipping, PP.41f. ولما كان كتاب تعاليم البوذية Sutra قد وضع قبل المسيحية، فليس من الضرورة تأريخه بالقرن السابع ق.م، إضافة إلى أنه لا يوجد أى دليل على المكان الذى كانت تذهب إليه الرحلات البحرية التى تم النهى عنها . وتشير الرواية الهندية Bavera Jatake (حاشية رقم ٨٥ أدناه) والتى أرخها كيندى بحوالى عام ٤٠٠ ق.م إلى أول الأدلة التى تدل على الاتصال بالغرب . وراجع المناقشة الرصينة عن الموضوع فى: A.L. Basham "Notes on Seafaring in acient India," P.60 ff. 67f .

(٨٤) Pauly Wissowa, Realencyclopadie, S.VV. Skylax, 2, Nearchos. 3; Arrian, Anabasis Alexandri, VII, 7f.19,20; G Posener, La premiere domination Perse en Egypte, pp.48ff.; Raschke, "New Studies", p.655 .

(٨٥) Herodotus, Histories, VI, 44; F.B. Cowell and Others, trs., the Jataka, III, 83f. (no.339). W.W. Tarn, the Greeks in Bactria und India, pp.260f. ولاحظ أيضًا أنه طبقًا لما ذكره ثيوفراستوس Theophrastos (ت حوالى ٢٨٥ق.م) من أن النباتات العطرية تأتى جزئيًا من الهند ، حيث يقومون بإرسالها عن طريق البحر، (Theophrastus, Enquiry into plants, IX, 7:2 .

(٨٦) وعن قصة السفير الصينى راجع الحاشية٧٦ أعلاه. وعندما ذهب الإمبراطور تراجان إلى خاراكس Charax المُحمَّرة على الخليج الفارسى عام١١٦م شاهد إحدى السفن التى كانت تقلع إلى الهند (Dio Cassius, Roman History, LXVIII, 29) . ومنذ ذلك التاريخ أصبح لكل من أبولوجوس Apologos (الأبلة Ubulla) وعمانا Ommana (Suhar?) راجع هامش ١٥٣) صلات تجارية منتظمة مع باريجازا Barygaza فى شمال الهند (Periplus, ,, 35f.) .

(٨٧) راجع دراسة مولر Muller, Weihrauch, cols. 739 ff.

(٨٨) كما ناقشها فسمَن H.Von Wissman, Ophir und Hawila, وقام ريكمان بمناقشة كل الاحتمالات الممكنة مع إضافة مصادر أخرى G.Ryckmans "Ophir" .

(٨٩) هناك ¨ ثلاث فقرات ترتبط بهذا بالموضوع . فقد ذُكر أن أسطول حيرام Hirem أحضر الذهب ، وخشب الصندل، والأحجار الكريمة إلى سليمان [عليه السلام] من أوفير Ophir (سفر الملوك الأول، فقرة ١٠-١١) ، وأن سليمان [عليه السلام] كان يملك أسطولا فى تارشيش مع حيرام وكان يحضر به الذهب

والفضة وسن الفيل والقرود والطاووس كل ثلاث سنوات (سفر الملوك، فقرة ١٠-٢٢) . إن سفن سليمان [عليه السلام] كانت تذهب إلى تارشيش مع رجال حيرام ليعودوا بالذهب، والفضة، والعاج، والقرود، والطاووس (سفر الأعداد ٨-٩). ويؤيد بروبونينتس Proponents الرأى القائل بوصول سليمان [عليه السلام] إلى الهند حيث ارتأى أن أسطول أوفير ينطبق على أسطول تارشيش ، واعتمد فيما ذهب إليه على الترجمة السبعينية للتوراة (*) التى حولت أوفير إلى زوفيرا Zophera (وهى سوبارا Supara فى الهند)، وأوضح أن الكلمات العبرية للعاج والطاووس هى كلمات تمت ترجمتها من السنسكريتية والتاميلية وأشار إلى عدم ضرورة أن يتطابق الأسطولان على الرغم من ارتباطهما .إن البضائع التى تم إحضارها ليس بالضرورة أن تكون بضائع هندية : لأن كلا من الذهب والأحجار الكريمة لا يقتصر وجودها على الهند فقط . أما الشجر المذكور باسم الموجيم almuggim فيمكن أن يكون شيئًا آخر على الرغم من ندرة خشب الصندل (وهو خشب عطرى) الذى ذكر أن سليمان [عليه السلام] أقام الأعمدة منه (سفر الملوك الأول فقرة ١٠-١٢). وعلى الرغم من أن أوفير Ophir حلت محل زوفيرا Zophera فى الترجمة السبعينية للتوراة فإن ذلك يدل على أن سوبارا Supara كانت معروفة فى الوقت الذى تمت فيه ترجمة التوراة.

وإذا كانت البضائع التى أحضرها أسطول تارشيش هى على الأرجح بضائع هندية ، ففى هذه الحالة يعود التجار ومعهم كلمات استعاروها إما من السنسكريتية أو من التاميلية ولكن ليس من الاثنتين معا ، إضافة إلى أن هذه الكلمات المستعارة يجب أن يكون استخدامها مقصورا على اللغة العبرية ولكن الكلمة العبرية qup، والتى من المفترض أنها تمت استعارتها من السنسكريتية Kapi وتعنى"القرد" وجدت أيضًا فى مصر القديمة على النحو التالى : qwf, qif,qfw ، وفى اللغة الأكادية nqupu، وفى اللغة الإغريقية Kepos، كما يبدو أنها كانت موجودة فى اللغة السومرية أيضًا (راجع Oppenheim, "Seafaring Merchant", p.12 n) . إضافة إلى ذلك فإنه يوجد قردة فى مصر، وشمال أفريقيا وإسبانيا وربما فى أماكن أخرى . وإذا كان الأمر كذلك فهذا يعنى أن كلمة Senbabbim "سن الفيل" من المفروض أن يكون لها صلة بالكلمة السنسكريتية ibba . إضافة إلى ذلك فإنه يمكن الافتراض أن استعارة قدماء المصريين لكلمتهم الخاصة بالأفيال وسن الفيل (bw) قد جاءت من اللغة السنسكريتية، كما يرى رولنسون (Rawlinson, India and the western world, p.13) ؛ إن مجرد الظن بأن قدماء

(*) الترجمة السبعينية للتوراة Septuagint ، ويختصر على النحو التالى : ٧٠ = LXX، وهى ترجمة للتوراة تمت من العبرية إلى اللغة اليونانية بناء على أوامر الملك بطلميوس الثانى فيلاديلفوس Ptolemy II Philadelphos ٢٨١/٢٨٢-٢٤٦ ق.م الذى طلب من مدير مكتبة الإسكندرية ديمتريوس الفاليرى Phalerum Demetrius ترجمة قانون اليهود . فأرسل ديمتريوس وطلب من فلسطين عددا من المثقفين اليهود ممن يجيد اليونانية ليقوموا بمهمة الترجمة ، فجاء إليه عدد ٧٢ رجلاً منهم وقاموا بترجمة ليس فقط القانون اليهودى ولكن عدة كتب دينية أخرى . ويدعى اليهود أن تلك الترجمة التى قام بها هؤلاء الأفراد فرادى، فقد انتهوا منها فى وقت واحد ، وعند مضاهاتها كل مع الأخرى وجدوا أنه لا يوجد أى فروق بينها فى الترجمة وأنها طبق الأصل . وهنا يتضح لنا الطابع الأسطورى الغالب على هذه الرواية . كان من المفترض أن هذه الترجمة قد تمت من مخطوطات العهد القديم (التوراة)، ولكن قراءتها تؤكد على تأثير الأدب الإغريقى الواضح عليها ، إضافة إلى التشويه الذى حدث فيها نتيجة لتعاقب النسخ : راجع The Oxford Classical Dictionary, S.V. Septuagint . (المترجمة)

المصريين أبحروا إلى الهند ليأخذوا منها الكلمة الدالة على حيوان له وجود واضح فى شرق أفريقيا يعد أمرا لا يقبله العقل . ونفس الشيء مع الكلمة الدالة على الطاووس tukkiyyim التى افترض أنها مشتقة من الكلمة التاميلية tokei أو togei، والتى لا يوجد دليل على أنه كان يوجد لديهم طاووس على وجه الإطلاق .

(٩٠) Herodotus, Histories, II, 42.

(٩١) Posener, Premiers domination, pp. 180.

(٩٢) وصل يودوكسوس الكوزى Eudoxus of Cyzicus حوالى عام ١٢٠ ق.م إلى ساحل الهند وأرشده إليها أحد البحارة الهنود الذى كان الوحيد الذى تم إنقاذه بعيدا فى البحر الأحمر من بين طاقم البحارة (Poseidonius, in Strabo, Geoyraphy, II, 3:4) . وتؤكد هذه الرواية أن أحداً لم يقم بالإبحار من مصر إلى الهند من قبل أو بالعكس. حقيقة لقد ذكر أن أحد الهنود قام بتقديم الشكر فى معبد الإله "بان" فى إدفو فى القرن الثالث أو الثانى ق.م، ولكن تاريخ النقش غير مؤكد ، وربما لم يكن هذا الشخص هنديا : فاسم سوفون هندوس Sophon Indos ربما كان تحريفا من كلمة لا معنى لها. (Tarn, Greeks in Bactria, P.370; H. Kortenbeutel, Der Aegyptische Sud-und Osthandel in der Politik der Ptolemaer und romischen Kaiser, pp.49f.) .

(٩٣) Periplus, , 57.

(٩٤) تمت مناقشة مراحل وتواريخ هذا الكشف فى : Tarn, Greeks in Bactria, pp. 366ff; Warmington, Commerce, pp.43ff; Raschke, "New studies", pp.660ff. وهيبالوس Hippalus هو اسم رياح فى كتاب بلينى N.H., 100 وجاء ظهوره كاسم علم لأول مرة فى كتاب الطواف Periplus,, 57 . (*)

(٩٥) Raschke, "New Studies", p.663 nl, 321 therete Warmington, Commerce, p.39.

(٩٦) راجع Basham, "Notes" وهناك فروض كثيرة دون تقديم أى أدلة فى العمل غير المُحكم الذى قدمه موكيرجى Mookerji, Indian Shipping .

(٩٧) راجع cf. J.W. Mccrindle, tr., The commerce and navigiation of the Erythrean Sea, p.86n. وذكر ماكريندل أنه طبقًا لما ذكره أجاثارخيديس Agatharchides عن مدينة من المحتمل أنها مدينة عدن "التى كان السبئيون يرسلون منها مستعمرين أو وكلاء إلى الهند، والتى تصل إليها الأساطيل من بيرسيس Persis وكارمانيا Karmania والهند Indus" ولكن الفقرة المشار إليها لم يذكر فيها أجاثارخيديس أية مدينة، ولكنه ذكر فقط "الجُزر السعيدة nesoi de eudaimones, وليس العربية السعيدة not eudaimon Arabia" ، ولم يذكر شيئًا عن ذهاب مستعمرين إلى هناك: ولكنه قال " لقد كان من الممكن مشاهدة سفن التجار فى المرسى وأغلب القادمين كانوا يحضرون من المكان الذى أسس فيه الإسكندر مرسى على النهر الهندى . وكان يحضر إليها عدد كبير (من المستعمرين وليس الأساطيل)

(*) حيث ذكر أنه هو مكتشف الرياح الموسمية الجنوبية الغربية ، وتعد رحلة البحار يودوكسوس الكوزى المشار إليها فى الحاشية رقم (٩٢) بمثابة أول دليل على استفادة بطالمة مصر من هذه الرياح . راجع Jehan Desanges, Recherches sur L'activite de mediterraneens aux Confins de l'Afrique, Rome 1978, p.178 . (المترجمة)

وكانوا يحضرون إليها من فارس، وكارمانيا Carmania ومن المناطق القريبة." , Agatharchides, 103, translated by Hutchinson in Groom, Frankincense, p.73) ويستخدم المصدر في العادة في الإشارة إلى سوقطرة وكَرَّر ماك كريندل ما ذكره جلازر في الدراسة التالية E.Glaser, Skizze der Geschichte und Geographie von aeltesten Zeiten bis zum Propheten Muhammed, II, 10,. وفي الدراسة الحديثة التي قدمها دوى . Doe, Southern Arabia, p.55 .

(٩٨) وعن السبئيين راجع أجاثارخيديس Agatharchides (انظر أعلاه ص٢٢؛ وأرستوبولس Aristobulos عن الجرهائيين (حاشية رقم (٤٧) أعلاه)؛ وعن الطوافات الجلدية في قنا وعمان راجع Periplus, nos.27; Pliny, Natural History, XII, 87 (عن طوافات شرق أفريقيا). وعن الحوار الذى دار بين حوارني : G.F. Hourani, "Ancient South Arabian Voyages to India ، وبين فان بيك G.W. Van Beek", Pre- Islamic South Arabian Shipping in the Indian Ocean ولكنه لم يقدم أى عون للنص الحالي لتركيزه على الرأى القائل بمشاركة العربية الجنوبية منذ فترة مبكرة فى تجارة المحيط الهندى.، وقبول جميع الباحثين المتخصصين فى هذا الإقليم لذلك الرأى (Van Beek) .

(٩٩) Periplus, ,, 27, 54, cf. , 57 . وعن أنموذج مماثل للطريقة التي تعالج بها هذه الفقرات راجع Van Beek, Frankincense and Myrrh in Ancitent South Arabia, p. 146 : "حيث أن أيًا من هذه المصادر لم يذكر على وجه التحديد وجود أصول لتلك الصلات في فترة مبكرة، ويبدو أن الرواية كانت تقف منذ فترة طويلة خلف الصورة العامة لوجود أساطيل التجارة العربية وبداية تأسيس العلاقات التجارية .

(١٠٠) المسعودي، مروج، ج٢، ص٣٦ . ياقوت ، البلدان، ج٣، ص١٠٢، مادة : سوقطرة. وطبقًا لما ذكره كوزماس Cosmas, Topographie, III,65 ، فقد ذهبوا إلى هناك بواسطة البطالمة . وإذا كان الأمر كذلك فيجب أن يكون هذا قد حدث في أواخر العصر البطلمي ، ولم يعرف أجاثارخيديس (ت حوالى عام ١٣٠ ق.م) عن وجود إغريق هناك . إن الشيء الذى كان يعتيه أنه قد تم استعمارها من قبل تجار قدموا بصفة رئيسية من " المكان الذى أسس فيه الإسكندر مرسى للسفن على النهر الهندى " ، كما حضر البعض إليها من فارس ، وكارمانيا Cormania والمناطق القريبة"(١٠٣ المذكورة فى الحاشية رقم ٩٧أعلاه) إذن فالمستعمرون لدى أجاثارخيديس هم هنود وفرس . وربما وصل الإغريق إليها فى القرن الأول ق.م . وكانوا هناك بالتأكيد فى عصر كتاب الطواف (فقرة رقم ٣٠) . (*)

(١٠١) وعن الدليل الأول لوصول الهنود إلى هناك راجع الحاشية السابقة (وهو الهندى الذى تم إنقاذه فى البحر الأحمر حوالى عام ١٢٠ق.م والذى يبدو أنه كان فى طريقه إلى سوقطرة (راجع الحاشية ٩٢ أعلاه) . أما فيما يخص اسم الجزيرة، فإن الاسم الإغريقى هو Dioscorides (Dioscorida,)، والاسم العربي سوقطرة كلاهما تحريف مشوه من الاسم السنسكريتى Dvipa Sukhatara أو Sukhatara Dvipa، "الجزيرة السعيدة" راجع Basham, Notes, p.63;id., the Wonder that was India, p.23on؛ وقارن ذلك بالحاشية رقم (٩٧) أعلاه، حيث تحدث أجاثارخيديس Agatharchidesعن سوقطرة (وجزر أخرى) كجزر سعيدة ، وعادت سوقطرة للظهور لدى فيلوستروجيوس Philostorgius, Kirchengeschichte, III,4 على أنها ديبووس Dibous) ومن المحتمل أن المستعمرين الهندوس هم الذين أحضروا الاسم معهم، راجع Kennedy Early Commerce p.257، ومن الأمور العجيبة أن

(*) عن تاريخ كتاب الطواف راجع الحاشية المذكورة ص ٤٤ أدناه . (المترجمة)

الاسم سنسكريتي وليس تاميلي (أما اقتراح كنيدى بأن الاسم السنسكريتي يرجع للاسم الإغريقي لبلاد العرب السعيدة eudaimon Arabia فهو اقتراح غير مقنع) . ولكن حقيقة حضور الهنود المستعمرين من المكان الذى أسس فيه الإسكندر مرسي للسفن لا يدل على أنهم كانوا هم الذين بدأوا أولى الهجرات إليها عندما أو بعد أن أسس هذا المرسى . وعلى ذلك فإن تاريخ وصولهم ما يزال مجهولا .

(١٠٢) Agatharchides, no. 102; Periplus, no. 26.

(١٠٣) مثل ازدهار أحوال المعينيين والسبئيين فى الألف الأولى قبل الميلاد، أو نشاطهم البحرى بعد ذلك ، راجع (Hourani, Sea faring, p.11) ولا يوجد أى دليل أثرى على ذلك على الرغم من أن البعض يعتقد بهذه الفكرة . راجع Raschke, New Studies, p.654 (إن العمل الذى قدمه راشكى Raschke يعد هجوما رائعا على الأفكار الخيالية) .

(١٠٤) Van Beek, Frankincense? and Myrrh, p. 80 تم استيراد القرفة من سيلان فى فترة مبكرة منذ القرن الخامس ق.م! ، Doe, Southern, Arabia p.55; cf.W. Tarn and G.T. Griffiths, Hellenistic Civilisation, p.244 (وتصنف رابطة تجار القرفة العرب كدليل وحيد على قيام العرب بالتجارة مع الهند فى أواخر القرن الثالث ق.م) وتوجد المناقشة نفسها فى الحواشى التالية إلا إذا قمنا بفصلها .

(١٠٥) cf. R. Sigismind, Die Aromata in ihrer Bedeutung fuer Religion, Sitten, Gebrauch, Handel und Geogrephie des Alterthums bis zu den ersten Jahrhunderten unserer Zeitrechnung, p.95; Schoff, Periplus, pp.3f.; Van Beek, "Frankincense Myrrh in Ancient South Arabia," p.147; Hitti, Capital cities, p.6;Warmington, Commerce, pp.185ff .

(١٠٦) Agatharchides, , 102 . وعن الترجمات العديدة التى يمكن للفرد أن يلجأ إليها راجع حاشية رقم (٣٩) أعلاه. ويكاد يكون هناك اتفاق عام على أن الإحالة التى أشار إليها حورانى فى هذه الفقرة غير صحيحة (Seafaring, p.21) .

(١٠٧) Periplus, 26 ترجمة شوف Schoffs أما البديل الآخر الذى أحال إليه هنتنجفورد Huntingford, Periplus فهو لا يغير المعنى.

(١٠٨) Strabo, Geography, XVII, 1:13 cf. II 5:15.

(١٠٩) Tarn, Greeks in Bactria, appendix 12; Pauly Wissowa, Realencyclopadie, S.V. Gerrha; Polybius, The Histories, XIII, 90 .

(١١٠) راجع حاشية رقم (٤٧) أعلاه .

(١١١) راجع حاشية رقم (٤٧) أعلاه . ويقترح النص أن الجرهائيين لم يتاجروا من جرها فقط ولكنهم تاجروا بعيدا عنها أيضا (وهذا على عكس رأى بيستون Beeston Some observations, p.p . الذى يرى أنهم كانوا ينقلون المواد العطرية موضوع الحديث ، والتى تصنف على أنها من منتجات الهند، عَبر شبه الجزيرة العربية من الخليج : فى حالة إذا لم يقوموا بتفريغ الطيوب فى جزيرة فى البحر الأحمر ، وهذه الترجمة ترجمة مستحيلة.) والسؤال الذى يطرحه تارن Tarn عن كيف يواجه الجرهائيون منافسة هرمز يقف وراء كون الجرهائيين كانوا مُوَزِّعين وليسوا مستوردين، مما يعنى أنه لم يكن هناك ثمة منافسة بينهم وبين هرمز بحال من الأحوال.

(١١٢) راجع Raschke, New Studies, p. 657 . لم يميز راشكى بين البضائع العربية والبضائع الأجنبية ، أما الموظف البطلمى الذى كان يعمل فى محطة غزة والذى كان يحمل لقب ho epites liban-otikes فقد كان مكلفا بالتوابل العربية (*) . ومن المحتمل أن الطيوب التى ذكرها أجاثارخيديس Aga-tharcides فى الفقرة التى ناقشتها فى الحاشية السابقة كانت تتضمن توابل أجنبية ، كما يبدو أن وسيلة النقل التى استخدمت كانت وسيلة بحرية.

(١١٣) R.E.M. Wheeler, Roman Contact with India, Pakistan and Afghanistan, pp. 371 ff. وطبقا لما يذكره ميللر Miller فإنه يوجد أدلة نقدية تشير إلى التجارة بين العالم اليونانى الرومانى وسيلان حتى القرن الخامس، ومع جنوب الهند حتى القرن السادس Spice Trade, pp. 159, 218 ولكنه لا يقدم مصدره فى ذلك، وترفض أغلب الدراسات الحديثة هذا الرأى Raschke, New studies, p.1068, n1,744) .

(١١٤) ثم أسر فرومنتيوس على يد الإثيوبيين فى منتصف القرن الرابع عندما كان فى طريق عودته من الهند. وقام بتحويل الإثيوبيين للمسيحية وأصبح هو أول أسقف لأكسوم Rufinus of Aquileia, Historia Ecclesiastica 1,9 in J.P.Migne, Patrologia Graeco- latina, XXI, Cols 478ff. . وسافر أحد فلاسفة طيبة Thebes إلى سيلان حوالى نفس التاريخ (ويقترح البعض تاريخ القرن الخامس). وتم أسره فى أحد المناطق فى الشرق وظل أسيرا لمدة ثلاث سنوات (J.Desanges, D' Axoum a L' As-sam, aux Portes de la Chine : Le voyage du Scholasticus de Thebes' (entre 360 et 500 apres J.C.). ، وروى لنا بلاديوس Palladius حوالى عام ٤٢٠ (رغم شك ناشر الخطاب) قصة هذا الفيلسوف المدرسى. وقد سافر بلاديوس نفسه إلى الهند فى صحبة شخص يدعى موسى Mo-ses، أسقف أدوليس Adulis، ولكنه هو الذى تمكن فقط من الوصول إلى تخومها وهذا يعنى أنه لم يتعد حدود أطراف الحبشة (كما جاء فى أحدث دراسة قام بها بيرج B.Berg, "The letter of Palladius on India", pp.7f.; cf. also Desanges, D' Axoum a Assam", p.628n) .

(١١٥) وسمعنا أيضاً عن وجود رجل إغريقى هناك قبله بمدة بلغت حوالى خمسة وثلاثين عاما (Topogra-phie, x1,17) . وقارن أيضا ما ذكر فى A.Scher and others, ed. And trs., "Histoire Nes-torienne," in Patraloqia orientalis, VII, 160 f. وفيها قام الفرس بنهب إحدى السفن التى كانت عائدة من الهند وكانت تحمل حمولة ثمينة يملكها تجار إغريق على يد المرزبان Marzuban فى عهد كسرى Khusraw الأول (٥٣١–٥٧٨)، ولم يذكر ما إذا كانت السفينة يقودها الإغريق أو الإثيوبيون.

(١١٦) راجع Hourani, Seafaring, p.39 .

(١١٧) cf. Milani, ed. And tr., Itinerarium Antonini Placentini, pp. 212 f. = 257 (40:2).

(١١٨) أصبح مسلّما به من خلال قصة سقوط الزباءZabba (زنوبيا Zenobia) (**) أن القوافل التى تحمل العطور ومواد الترف وجميع أنواع البضائع الأخرى قد اعتادت عبور الصحراء السورية ، راجع (Philby, Queen of Sheba, pp. 88, 105) .

(*) تلاحظ هنا أن هذا الموظف البطلمى كان مختصا بالبخور Libanos وليس بالتوابل العربية Spices كما ورد فى النص الأصلى لكتاب كرون تحديداً . راجع الحاشية المذكورة فى ص ٥٩ من الترجمة . (المترجمة)

(**) عن إمارة تدمر ودورها السياسى والتجارى فى الصراع بين الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية فى القرن الثالث راجع : آمال الروبى : مصر فى عصر الرومان، دراسة سياسية اقتصادية اجتماعية فى ضوء الوثائق التاريخية، ٣٠ق.م–٢٨٤م. ص١٤١–١٤٧, جدة ، ١٤٠٤/١٩٨٤ . (المترجمة)

(١١٩) Warmington, Commerce, p.76; Periplus, nos 32,54 cf.,57؛ ويعد التاجر سا – بو -Sa bo الذى ذكره فا – هين Fa-hien فى سيلان عام ٤١٤ من السبئيين عادة . (J.legge, tr., An Account by the Chinese Monk Fa-Hien of his travels in India & Ceylon (A.D.399-414), p.104) .

(١٢٠) لم نسمع شيئًا عن الملاحة العربية على وجه الإطلاق" Howrani, Seafaring, p.40 مع الإشارة إلى مـصـدر من ذلك القـرن). راجع Howrani, "Did Roman Commercial Competition Ruin South Arabia"? (والإجابة هى بالنفى).

(١٢١) Tarn, Greeks in Bactria, p. 368.

(١٢٢) راجع الملحق رقم (١) .

(١٢٣) Hourani, Seafaring, pp. 42f. . ولاحظ أنه كـمـا حـدث مع أسـقف أدوليس Adulis الذى أوصل بلاديوس Palladius إلى الهند(راجع حـاشـيـة رقـم ١١٤ أعـلاه) ، فـإن شـعب أدوليس كـانوا أسـلاف كوزماس فى سيلان الذين أوصلوه إلى شرقها (حاشية ١١٥ أعلاه). وفى أدوليس كذلك قام أبرهة تابع بيزنطة بالتحكم فى التجارة البحرية (راجع رقم ١٢٤ أدناه).

(١٢٤) Rychmans, Institution monarchique, pp.306 ff.

(١٢٥) EI2, S.V. Kuraysh (Watt); Similarly Gibb, Islam, p.17; Rodinson, Mohammed, p.40. (*)

(١٢٦) Cosmas, Topographie, XI, 15.

(١٢٧) Lammens, "Repulique," pp.23 f.,id. Mecque, pp.108, f.,116f.

(١٢٨) Watt, Muhammed at Mecca, p.12 ويحيل وات القارئ إلى العمل الذى قام به حورانى ، ولكنه لم يذكر رأيه فى هذا الموضوع.

(١٢٩) Paret, "Les villes de Syrie du sud", P.411; Similarly Lapidus, "Arab Conquests", p.60; Shahid, "The Arabs in the Peace Treaty," pp. 184 ff.

(١٣٠) Lewis, Arabs in History, p.33.

(١٣١) Aswad, "Aspects", p. 422.

(١٣٢) A.A. Vasiliev, Notes on Some Episodes Concerning the Relations between the Arabs and the Byzantine Empire from the fourth to the Sixth Century, p.313. إن المغامر الذى كان يدعى أمورسيسوس Amorcesos امرؤ القيس لم يكن فارسيًا كما هو مذكور فى النص ، ولكنه كان عربيا يعمل كما هو واضح تحت إشراف فارسى كما ذكر فى الحاشية ويقول سميث أنه حتى إذا كان الأمر كذلك فإن الحقيقة القاطعة تتضح من اسم امرئ القيس Imr, al-Qays الذى

(*) فى نهاية الهامش المذكور أعلاه وردت عبارة "The Italics are nine" ومعناها : "عدد الحروف المائلة تسعة". وهذه العبارة ليس لها ارتباط بالمتن أو الحاشية، أغلب الظن كتبتها كرون كملحوظة فى أثناء طباعة الكتاب، وإذا صح هذا الافتراض فيبدو أنها تنطبق على الحروف التسع لكلمة Seafaring التى وردت فى الصفحة نفسها . (المترجمة)

يمكن القول بصعوبة من خلاله أنه كان ينحدر من نسل أحد الملوك الذى كان يسمى بذلك الاسم Smith, Events in Arabia p.444. أما جزيرة يوتاب Iotabe فهى جزيرة تيران Tiran، ويبدو أنها هى الجزيرة نفسها التى استخدمها المعينيون وغيرهم لتفريغ بضائعهم .

(١٣٣) Theophanes, Chronographia, anno mundi 5990 وتوجد ترجمتها فى S.Smith, "Events in Arabia", p.443 ولكن هذه العبارة لا تعنى أن الدولة كانت تشجع التجار: إن ما قاله ثيوفانيس Theophanes هو أنه أصبح فى وسع التجار أن يقوموا بالتجارة مرة ثانية وأن تحصل الدولة على ضرائبها .

(١٣٤) Procopius, Wars, I, 20,4 مع ملاحظة أن بروكبيوس قدم تقريرا عن الملاحة فى البحر الأحمر قام سميث بمناقشته فى Events in Arabia, p.428f.; Cosmas, Topogsaphi, II, 54, cf, 56. (حيث كان يوجد هناك تاجر معينى وآخر مصرى). ولاحظ أيضًا وصف أيلة Ayla كميناء يمكن الذهاب منه إلى الهند كما ورد لدى ثيودوريتوس Theodoretus, In Divini Jeremiae Prophetiam Interpretatio, In J.P.Migne, Patrologia Graeco-latina, LXXXI, Col. 736 .

(١٣٥) Malalas, Chronographia, p.433; Theophanes, Chronographia, anno mundi, 6035; Pseudo- Dionysius in N. Pigulewskaja, Byzans auf den Wegenreuch Indien, p.325f.

(١٣٦) وأعيد نَسْخ المعاهدة فى أماكن أخرى، ابن هشام، السيرة،ص٩٠٢ .

(١٣٧) راجع حاشية رقم (١١٧) التى سبقت . وقد وصفت السفن بأنها عادت محملة بالطيوب إلى أبيلا Abila أو Abela أو أهلة Ahela ، وهو مكان في بلاد العرب بالقرب من سيناء .

(١٣٨) كانت هذه السفن يمتلكها تجار لا تُعرف جنسيتهم، حملت المهاجرين إلى الحبشة، ومن المحتمل أنها إما أن تكون حبشية أو بيزنطية (راجع حاشية رقم (١٠) أعلاه) . وعاد المهاجرون بسفن أعدها لهم النجاشي (ابن هشام، السيرة، ص٧٨١، ص٧٨٣، وراجع ص٢٢٢؛ الطبرى، تاريخ، مجلد (١) ، ص١٥٧١؛ ابن سعد ، طبقات ، ج١، ص٢٠٨ وجاء ذكر السفن الحبشية في أماكن أخرى؛ الطبرى، تاريخ، مجلد١، ص١٥٧٠ . وكانت إحدى السفن البيزنطية قد جنحت عند الشعيبة (سبق ذكر المصدر فى الفصل الأول حاشية رقم٩). وهى سفينة تجارية طبقًا لما ذكره ابن إسحاق (وكانت خاصة برجل من تجار الروم). ويقول الأزرقى (أنه سُمح لجميع الركاب ببيع بضائعهم في مكة)، ويقول ابن حجر (أن باقوم Baqum كان تاجرا مهما، وهو رومى يعمل في التجارة مع باب المندب). ويذكر آخرون أن هذه السفن كانت مُحملة بمواد لبناء إحدى كنائس الحبشة . أما المبالغة فى الفكرة فتتمثل فى القول باستخدام خشب السفينة فى بناء الكعبة، وذكر البعض أن باقوم كان نجارا على الرغم من أن السفينة كانت سفينة تجارية (ويذكر لدى ابن إسحاق أن النجار الذى استقر فى مكه كان قبطيا مثل باقوم، وهو الاسم الذى يشتق عادة من باخوميوس Pachomius . راجع Hawting, Origin of Jedda, p.319n . ومن الواضح أن السفينة التجارية تبدو فى أغلب الفقرات وهى ذاهبة من الجزء الشمالى من البحر الأحمر (القلزم طبقا لما ذكره المسعودى) إلى مكان ما فى الحبشة (*) .

(١٣٩) Watt, Muhammed at Mecca, p.13.

(*) راجع حاشية رقم (٩) ، ص ٤٧ . (المترجمة)

(١٤٠) Strabo, Geography, XVI, 4:22 (توقع أغسطس التفاوض إما مع أصدقاء أثرياء أو أن يسيطر على أعداء أغنياء).

(١٤١) عن التاريخ راجع .EI2, S.V. al-Hadr

(١٤٢) راجع حاشية رقم (١١٤) أعلاه .

(١٤٣) Scher and Others, "Histoire Nestorienne", Patrologica Orientalis, V, 330f.; cf. J. Spencer Trimingham, Christianity among the Arabs in the Pre-Islamic Times,294f.

(١٤٤) راجع فيما بعد حاشية رقم (٣٥) فى الفصل السادس.

(١٤٥) كان يوجد للنسطوريين الفرس فى القرن السادس كنيسة في سوقطرة وفي كاليانا Calliana ومالى Male وسيلان (كوزماس Topographie, III,65) وذهب كل من أبراهام كاشكار Abraham of Kashkar وبار شاهد Bar Sahde، وهما من الرهبان النسطوريين - ذهبا - للعمل فى الهند. A.Mingana, "The Early Spread of Christianity In India," P.455). ويوجد نقوش بهلوية مسيحية فى الهند ترجع للقرن السابع وما بعده A.C.Burnell, "On Some Pahlavi Inscriptions in South India") وربما تمكن النساطرة من الوصول للصين وجنوب شرق آسيا عن طرق البحر قبل سقوط الدولة الساسانية) راجع B.E.Colless, Persian "Merchents and Missionaries in Medieval Malaya" .

(١٤٦) Cosmas, Topographie, XI, 17 ff.

(١٤٧) Agatharchides, 102.

(١٤٨) cf. Hasan, Persian Navigation, pp. 59 ff.; Hourani, Seafaring, pp.36ff.; D. Whitehouse and A.Williamson, "Sasanian Maritime trade," esp. pp.31f.; A.Christensen, L, Iran sous les Sassanides, p.87; ياقوت، البلدان، ج٤، ص٥٢٢، مادة مَوْزَن (*) A Maricq,. ed. And tr., Res Gestae divi Saporis, P.307=306; cf. p.337.

(١٤٩) الطبرى ، تاريخ ، مجلد ١، ص٨٣٨، راجع T. Noldeke, tr., Geschichte der Perser und Araber zur Zeit der Sasaniden, p.56. Pace Hasan, Persian Navigation, p.64, and Whitehouse and Williomson, Sasanian Maritime Trade, p.32. لم يذكر النقش وصول شابور Shapur إلى يثرب نفسها .

(*) بالرجوع إلى الإحالة عن مَوْزَن Muzun ج٥،ص٢٢١، و٢٢٢ ، نجد أن ياقوت لم يذكر عنها شيئًا سوى أنها بلد بالجزيرة ثم ديار مُضر ، ثم أحال القارئ إلى تل موزن فى ج٢،ص٤٥، وذكر أنها "بلد قديم بين رأس عين وسَرُوج ، وبينه وبين رأس عين نحو عشرة أميال، وهو بلد قديم يزعم أن جالينوس كان به ، وهو مبنى بحجارة عظيمة سود، يذكر أهله أن ابن التمشكى الدمستق خربه وفتحه عياض بن غنم فى سنة ١٧ هـ على مثل صلح الرها. وعلى ذلك فإن هذه الإحالة ليس فيها شيء يتعلق بموضوع الحديث. (المترجمة)

(١٥٠) الحسن بن أحمد الهمداني، صفة جزيرة العرب، ج١، ص١٤٩؛ المؤلف نفسه : كتاب جوهرة العيان ص١٤٣=١٤٢؛ وتم ترجمة هذه الفقرة لدى D.M. Dunlop, Sources of gold and Silver according to Hamadani, p.40. : شامام Shamam قرية كبيرة في نَجْد سكنها ألف (أو آلاف) من المجوس في الماضي، وكان لديهم معبد للنار، ويوجد فيها منجم للفضة والحديد، ولكنها الآن عبارة عن خرائب . راجع cf. H.Sr. J.B. Philby, The Heart of Arabia, II, 84 .

(١٥١) Trimingham, Christianity among the Arabs, pp.279ff.; cf. also. p.278., on Christianity in Yamama, see above n.145.

(١٥٢) البلاذري، فتوح، ص٧٨، ٨٠ وما يليها (البحرين) : الطبري، تاريخ، مجلد ١، ص١٦٨٦ (عمان) والحاشية رقم (١٥٠) عن (نجد).

(١٥٣) على هذا النمط عكرة بن حبيس ، وأبو السعود بن حسن ، وزُرارة بن عدوس وابنه، طبقا لما ورد لدى عبد الله بن مسلم بن قتيبة، المعارف، ص٢٦٦، وراجع EI2, S.V. Hadjib b. Zurara; and G.Mannat, L' Histoire des religions en Islam, Ibn al-Kalbi et Razi, p.29. وجاء ذكر لبعض التميميين الزرادشتيين في كتاب ابن الكلبي غير المنشور : مطالب الأرب Matalalib al-arab .

(١٥٤) من المعروف أن المصادر الإسلامية تتحدث عن رأس الخليج الفارسي على اعتبار "أنها أرض الهند" راجع المصدر الذى ذكر في J.C.Wilkinson, "Arab Persian Relationships in late Sasanid Oman", p.41) وهو التعبير الذى لم يقصد من ورائه أكثر من أن هذا المكان له صلة وثيقة بالهند . ولم تتحدث أى من المصادر الإسلامية على أن هذه المنطقة "هي أرض الهنود" أو"الهند" مما يتضح معه أنها مجرد إشارة محرفة. ويعتقد براون Braun أن بيت هنداوى Beht Hendwaye يناظر بيت لوقيظ Beth Luzaye (*)، وبيت طيئ Beth Tayyaye وذلك فى دراسته التالية O.Braun, tr. Ausgewaelte Akten persischer Martyrer, p. 275 ، وهى مكان يقع بين دمشق وفارس Fars كما ذكر بروك Brock فى دراسته التالية : S.Brock, A Syriac life of John of Dailam, p.166. وذكر مالالاس Malalas, Chronsgraphia, p. 434, cf. 435 انسحاب قائد كتيبة عربي Phylarch من فلسطين إلى الهند ta Indika حيث قابل فيها موندهير Mundhir زعيم الفرس المسلمين ، وتحدث سيبوس Sebeos عن حدود الهند على الصحراء الكبرى، واعتبر أن الهند هى مكان بالقرب من أسوريستان (Sebeos (attrib.), Histoire, d' Heraclius, pp.130, 148f.) . ونستدل من ذلك على وجود سكان هنود هناك ، على الرغم من عدم وجود أى إشارة عن أى منهم بعد الفتح العربي .

(١٥٥) راجع : الطبري، تاريخ، مجلد(١)، ص٢٠٢٣ اعتاد حاكم فَرج الهند Farj al-Hind القائم على رأس الخليج الفارسي أن يحارب العرب برا، والهنود بحرا؛ C.J.Lyall,ed. And tr., The Mufaddaliyat, no.XLI,9 : كان لوقيظ Lukayz وهو أحد فروع عبد القيس Abd al-Gays يسيطر على الساحل، ولكنه كان يفر " إذا شعر بخطر قادم من قبل الهنود الذين يهددون المنجم" . وكان مركز القرصنة الهندى فى عصر ماركو بولو فى هذه المنطقة يوجد فى سوقطرة Basham, "Notes on Seafaring", p.63 .

(١٥٦) راجع الحاشية رقم (١٢٤) أعلاه.

(١٥٧) Procopius, wars, 1,20,9ff . وناقشها سميث فى Smith, Events in Arabia, p.417

(*) وصحته Lukayz انظر حاشية رقم ١٥٥ أدناه. (المترجمة)

(١٥٨) كما تدعي الرواية الإسلامية (راجع Naldeke, Geshichte, pp. 189f) .

(١٥٩) راجع : Noldeke, Geshichte, pp.220ff.

(١٦٠) الهمداني، جوهرة العيان، ص١٤٣، ١٤٥، ١٤٧= ١٤٢، ١٤٤، ١٤٦؛ Dunlop, Sources of Gold and Silver, pp.41f. ذكرالهمداني أسماء عدة عائلات تكون منها "فُرس المنجم" في الرضراض al-Radrad واستمروا خلال العصر الإسلامي . وعُرف الطريق إليه كما جرت العادة بطريق الرُضْراض، وقام يوسف بن يعقوب بن مجاور بوصفه بالتفصيل في Descriptio Arabiae Meridionalis,(*) II,214f. ويذكر كل من الهمداني وابن المجاور أنه كان يمتد من اليمن إلي بصرى Basra، ومن المحتمل أنه كان يصل إلي المدائن Ctestiphon عبر الحيرة في عصر ما قبل الإسلام (راجع حاشية رقم ١٦٧ أدناه) ومن الممكن أن يُسأل المرء عن السبب في الأصل الساساني لهذا الطريق ، لولا قيام الحاكم الفارسي الأول لليمن بإرسال الضرائب ومن بينها الفضة بواسطة القوافل عن هذا الطريق(راجع الفصل الرابع، حاشية رقم ٧ أدناه) .

(١٦١) حكمت البحرين بواسطة مرزبان كان يقيم في هَجَر Hajar أما المُنذر بن ساوا (أو ساوى) فهو ملك عربي حليف من تميم (ولذلك وصف في بعض الأحيان بأنه عَبْدي)، راجع البلاذري، فتوح ، ص٧٨؛ W.Caskel, Gamharat nasab, das gencalogische Werk des Hisam Ibn Mohammad al-kalbi, II,s.v. al-Mundir b. Sawi. وفي عهد كسرى الأول Khusraw كان يتم استيراد الخمر والنساء للمستعمرين في هَجَر Hagar (الطبري، تاريخ، مجلد١، ص٩٨٦) وفي عهد النبي [ﷺ] كانت البحرين ما تزال جزءا من "مملكة الفرس"(البلاذري، نفس المصدر والصفحة) وراجع كذلك R.N. Frye, Bahrain under the Sasanians.، أما عمان فكان يحكمها حاكم فارسي بالاشتراك مع ملك عربي حليف وهو جُلندى بن المستكبر(عادة المستنير) الأزدي ونسله وكما استخدم الفرس عُمان كمنفى Wilkinson, Arab-Persian land Reletionships, p.41; cf. also A. Abu Fzzah, The Political Situation in Eastern Arabia at the Advent of Islam, 54ff.; Caskel, Gambara, II, s.v.Gulanda b. al Mustakir (sic)

أما في اليمن فقد حُكمت من قبل حاكم فارسي مع ملك حميري من الناحية الاسمية هو سيف بن ذي يزن الذي توج عقب الفتح . وقد وصلها الحاكم الفارسي مع حوالي ١٨٠٠ جندي، ثم ازداد عددهم إلي ٤،٠٠٠ جندي، واستخدمت اليمن أيضاً مستودعاً للعناصر غير المرغوب فيها : فقد كانت أغلب قواتها المستخدمة من السجناء . راجع .(Noldeke, Geschichte, pp. 223ff.; cf. EI2, s.v. Abna, II)

(١٦٢) راجع حاشية رقم (١٥٠، ١٦٠) أعلاه .

(١٦٣) محمد بن حبيب ، كتاب المحبر، ص٢٦٥ وما يليها، وراجع الرواية المماثلة لدى اليعقوبي ، تاريخ ، ص٢١٢ وما يليها وفرض جُلندي Julandid الملك الحليف في عمان ضريبة العشر على كل من صُحار Suhar وضبا Daba، كما فرض أبانَ Abna المستعمر الفارسي ضريبة العشر بالمثل على عدن (**).

(*) هذا الاسم اللاتيني يعني "وصف بلاد العرب الجنوبية"، ولم تذكر المؤلفة عنه أية تفصيلات في قائمة المراجع، ولم أتمكن من الحصول على أي معلومات عنه . وعن معدن الفضة في الرضراض يقول الهمداني، صفة، ص٣٦٤ "فأما معدن الفضة بالرضراض فما لا نظير له" . (المترجمة)

(**) وعن تجارة عدن مع الحبشة راجع : الهمداني، صفة، ص٧٣، "ويعملون في التجارة إلي بلاد الحبش ولهم في السنة سفرة". (المترجمة)

(١٦٤) ابن حبيب ، المحبر، ص٢٦٥ .

(١٦٥) راجع : G.Jacob, Altarabisches Beduinenleben, p.149.

(١٦٦) وعن اللخميين في الحيرة راجع : G.Rothstein, Die Dynastie der Lakhmids in al-Hira; M.J.Kister, "al-Hira" وعن الملك الحليف في البحرين وعمان واليمن انظر أعلاه حاشية رقم ١٦١ . ونسمع أيضًا عن شخص يدعي لقيط بن مالك ذو تاج في عمان في عصر الرسول [ﷺ]، وربما كان أحد عمال الفرس (راجع : Abu Fezzah, Political Situation, p.558 n. 239) واستخدموا في اليمامة هَوذة بن علي الحنفي(*) راجع (Caskel, Gambara II, s.v)، وعلى أي حال لا يوجد ثمة مشكلة يثيرها التتابع الزمني .

(١٦٧) راجع : أبو الفرج علي بن حسين الأصفهاني ، كتاب الأغاني، ج١٧، ص٣١٩ وما يليها، عن حميد الراوية: وعندما كان كسرى يرغب في إرسال قافلة إلى عامله في اليمن، كان يرسلها بحراسة إلى *النعمان بن المنذر في الحيرة؛ ومن الحيرة* تواصل طريقها بحراسة رجال النعمان. وعند وصولها لليمامة يقوم هَوذة بن علي بقيادتها حتى أراضي حنيفة ، حيث يأخذها سعد (من تميم) بدوره ويقوم بحراستها حتى اليمن. وهنا يتضح الترتيبات التي كانت توضع على طول طريق الرضراض.

(١٦٨) راجع : الطبري، تاريخ، مجلد ١، ص٩٥٨ . حيث كان المُنذر بن النعمان اللخمي (وهو المُنذر الثالث طبقًا لما ذكره سميث في (Smith, "Events in Arabia", p.442) ، عين على المنطقة بين عُمان والبحرين واليمن من جهة والطائف وبقية الحجاز من جهة أخرى.

(١٦٩) أعاد ياقوت نفس الفقرة في : البلدان ، ج٤،ص٤٦٠، راجع مادة : المدينة، وعبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه، كتاب المسالك والممالك، ص١٢٨=٩٨: كانت المدينة خاضعة لحاكم تابع للمرزبان في زارا (Zara ياقوت) أو مرزبان البادية (Marzuban al-badiya ابن خرداذبه) الذي كان يقوم بجمع الضرائب؛ عندما كان اليهود ملوكا (**)، وعلى ذلك فقد قام عرب المدينة بدفع الضرائب أولا لكسرى ثم بعد ذلك لقريظة والنضير. ويقدم الشعر نصا آخر مختلفًا عن ذلك (ناقشه كيستر .Kister, "Hira", pp 145ff راجع الحاشية بخصوص اختلاف النص في الطبري، راجع، تاريخ، مجلد (١)، ص٢٠٤٢، ولكن إذا كان هناك ثمة وجود لهذا الحاكم الفارسي ، فيجب أن يكون ذلك أثناء احتلال الفرس سوريا، عندما عين مرزبان البادية (وليس من زارا Zara بطبيعة الحال، والتي تعد قراءة مختلفة). وهي الفترة التي حدث فيها تعاون بين الفرس واليهود.

(١٧٠) لقد التقطها المكيون من المسيحيين في الحيرة (محمد بن حبيب ، كتاب المنمق، ص٤٨٨، ونفس المؤلف ، المحبر، ص١٦١)، حيث يجب أن تكون الإشارة هنا إلى الزندقة Manichaeism أو أنها فرضت على العرب بأمر من كافاذ Kavadh ويرى كستر، Kister "Hira", p.145 أن الإشارة هنا واضحة على الزندقة (Mazadakiom) .

(*) راجع : البلاذري، فتوح البلدان، ج١، ص١٨٨، طبعة بيروت ١٩٨٧ . (المترجمة)

(**) أي في الفترة التي دان فيها بعض ملوك اليمن بالديانة اليهودية . (المترجمة)

(١٧١) أبو عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي، كتاب الروض الأنف، ج١،ص ٩٧ ,I, 97; cf. Gaudefroy-Demombynes, pelerinage, 73 .

(١٧٢) شرح قتادة للسورة رقم ٨ : ٢٦ التي ذكرها كيستر ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ ﴾ . القرآن الكريم سورة الأنفال الآية ٢٦ المذكورة لدى كيستر Kister, Hira, p.143 .

الفصل الثالث

تجارة الطيوب المكية Meccan Spice Trade

الطيوب العربية Arabian Spices

استورد العالمَ اليونانى الرومانى كميات كبيرة من الطيوب العربية فى أثناء ازدهار هذه التجارة ، ومنذ القرن السادس الميلادى أصبح وجودها يكاد يكون نادرًا فى الأسواق . واختفت منها ستة أنواع ؛ لأنها أصبحت تمثل طُرزا قديمة، أو ربما أصبح يتم الحصول عليها من داخل دائرة العالم اليونانى الرومانى وهى: اللبان الذكر (Frankincense) ، والمر (Myrrh) ، والصمغ الجاوى (Cancamum) ، وعود الند (Tarum) ، وصمغ اللادانوم (Ladanum) ، والسمار الحلو (Sweet Rash) . وكان يتم استيراد نوعان منهما وهما عود الند (الصبار) (Aloe) ، والزنجفر (Cinnabar) عن طريق البحر، ونوعان آخران وهما القرفة (Cinnamon) ، القرفة البرية (Cassia) وجوزة الطيب (Calamus) ، كان يتم استيرادهما من شرق أفريقيا . وهناك نوعان آخران يعتقد الباحثون فى العصر الحديث أن العرب ربما قاموا بتصديرهما ولكنهما لم يدخلا فى نطاق هذه التجارة، وهذان النوعان هما اللذان قابلهما العرب بالبلسم اليهودى (Judean balsam) والسنامكى (Senna) ويوجد صنف آخر غير معروف على وجه التحديد ، إضافة إلى أنواع أخرى لم يتم التحقق منها ؛ لعدم وجود ذكر لها فى المصادر الخاصة بتجارة مكة وهى : الصمغ النباتى (Bdellium) ، وحب الهال (Cardamomum) والقرفة السورى (Comacum). وبالنسبة للقراء الذين يوافقون على هذا الرأى أن يتقدموا إلى الفصل التالى، أما الذين لا يوافقون فإننى سأتناول الطيوب بالترتيب المذكور أعلاه.

١ - اللبان الذكر Frankincense

لم يعد لمحصول اللبان أهمية اقتصادية في العالم اليوناني الروماني منذ فترة طويلة قبل قيام مكة كما سبق ورأينا(*) . بل يبدو أنه فقد أهميته حتى في بلاد العرب نفسها التى كان قد حظى فيها بشهرة كبيرة ، حيث أصبح الآن طرازًا قديمًا[١]. ولا يشير الشعر فى العصر الجاهلى أو فى فجر الإسلام[٢] إلى استخدام اللبان الذكر ، وربما استخدم اللبان (Luban) في الكعبة[٣] وفى المحاريب المقدسة[٤] فى مكة قبل الإسلام ، ولكنه لا يشار إليه في المصادر بهذا الاسم ، كذلك لا يوجد ما يشير إلى أن هذا المحصول أصبح له مكانة كبيرة بعد عصر الفتوحات الإسلامية . وعَرِف الجغرافيون المسلمون اللبان على أنه من المنتجات المحلية، وقصره البعض على جنوب بلاد العرب[٥] ؛ كذلك عرفه البعض من الكتاب المقدس[٦]، كما عرفه الصيادلة وتجار الأعشاب الطبية والأطباء من المصادر الكلاسيكية[٧]. وبالرغم من ذلك فإن الإشارات التى وردت في المصادر عن بيع اللبان أو الكندر (Kunder) أو عن استخدامه ، تكاد تكون نادرة[٨] . أما بالنسبة للمكيين فقد كان يمكن لأى فرد من قريش أن يقوم بالعمل فى ميدان تجارة اللبان ، وأن يحرص على اختيار أفضل أنواعه، مستفيداً فى ذلك من حرفيته فى هذا الميدان[٩]. وهذا كل ما يمكن أن يقال فى نظرية قيام المكيين بتصديره للعالم اليونانى الرومانى(**).

(*) اللبان الذكر (الكُندر) هو أفضل أنواع البخور العربى والذى كانت له شهرته العالمية ، ومن المنطقى أن تستفيد قريش من خبرتها فى هذا الميدان وتقوم بنقله مع البضائع التى تنقلها فى قوافلها إلى شمال غرب الجزيرة العربية إلى الأسواق التى كانت وما تزال فى حاجة إليه ، راجع الحاشية المذكورة ص٦٥ من الترجمة .

(**) لم تذكر لنا كرون السبب فى أن اللبان الذى يمثل أجود أنواع البخور قد فقد أهميته الاقتصادية ، على الرغم من أنه كان يعد وجوده ضروريا فى المعابد الدينية فى جميع أنحاء العالم منذ أزمنة لا تعيها الذاكرة . فقد حل محل الأضاحى عند الإغريق منذ القرن السادس ق.م ، فاستخدموه لاسترضاء الآلهة وتطهير وتعطير المنازل . وسبق واشتكى بلينى من اضطرار روما إلى دفع مبالغ طائلة كل سنة فى الاتجار مع العرب ، وألقى بتبعات ذلك على عاتق النساء الرمانيات ورغبتهن فى التطيب Pliny, op. cit., xll, 84 ، وكان دخان البخور يخفى حضور إله اليهود فى الهيكل ، وحرقه المسيحيون فى بيعهم ، وأصبح حرق البخور جزءًا مهمًا من المراسم الدينية البوذية . راجع سحاب ، المرجع السابق، ص١٤١ ؛ راجع أيضا ص٦٤ ، ص٦٥ ، ص٦٧ من الترجمة . (المترجمة)

إن الاعتقاد بأن أهل مكة كانوا يتاجرون في اللبان كان قائما على أساس أسطورى يشبه التضرع للأشباح . لقد اخترع لامينز (Lammens) فكرة سيطرة مكة على هذه التجارة مما ذكره بليني وصاحب كتاب الطواف والمصادر الكلاسيكية الأخرى، ثم تابع المتخصصون فى الدراسات الإسلامية السير فى الطريق نفسه ، فقد اعتمد رودنسون (Rodinson) على ما أورده بليني عند مناقشة الأول لتجارة قريش، أما دونر (Donner) فقد اعتمد على ما ورد فى كتاب الطواف كدليل على تجارة عرب الجنوب فى الطيوب فى عصر محمد [ﷺ]. وأضاف سبولر (Spuler)، أن طريق الطيوب الذى ذكره بلينى ، ربما كان له طريق فرعي يمر بمكة وليس بالمدينة فقط ، أى أنه لا يشير لمكة فقط ولكن يشير أيضًا إلى مشاركة المدينة (يثرب) فى تصدير اللبان قبيل الإسلام[١٠]. وعلى الرغم من أن الاستعانة بالمصادر غير الإسلامية ، عند الحديث عن ظهور الإسلام يُعدُّ أمرًا على قدر كبير من الأهميـة ، فإنه يبـدو من قبيل المبالغة استخدام المصـادر التى كتبـت قبـل ظهـور الإسـلام بنصـف ألفيـة (millennium) من الزمان .

٢ – الصبر Myrrh = المُر

يشبه تاريخ محصول المُر ، تاريخ محصول اللبان . إذ أصبح هذا المحصول العربى الذى كان ينتج بكثافة ، يتم استيراده أو الجزء الأكبر منه من شرق أفريقيا فى عصر كتاب الطواف[١١]. ولم يدن المسيحيون هذا المحصول على عكس محصول اللبان، بل لقد استخدم في تكفين [مَنْ شُبه بالسيد] المسيح ، وظل يستخدم لتأدية الغرض نفسه فى فترة دراستنا[١٢]. وبالرغم من ذلك فيبدو أنه فقد ما له من أهمية فى العالم اليونانى الرومانى بينما احتفظ بها فى كل من الهند والصين[١٣]. ولم يرد له ذكر لدى كوزماس (Cosmas)، وندرت الإشارة إليه فى الأدب العربى[١٤]، وعرفه مؤلفو القواميس فى العصور الوسطى كنباتٍ طبىٍّ يقارن بنبات الصبار المُر الذى يعتقد البعض أنهما متطابقان[١٥].

٣ – الصمغ الجاوى ونبات الصبار Cancamum & Tarum

صنف الكلاسيكيون كلا منهما على أنه الصمغ الجاوى ونبات الصبار على التوالى ، وكلاهما من محاصيل الشرق الأقصى[١٦]. وعلى أى حال فإن المتخصصين فى الدراسات العربية الجنوبية ، أدركوا أن هذا النبات تم إدخال زراعته من موطنه الأصلى إلى العربية الجنوبية وشرق أفريقيا[١٧].

وطبقًا لما ذكره ديوسكوريديس (Dioscorides) فإن الكانكاموم (Kankamom) هو صمغ لشجرة عربية تشبه المُر[١٨]. ويذكر بلينى وصاحب كتاب الطواف أن مصدره شرق أفريقيا، ثم يضيف بلينى قائلا إنه يستورد مع الصمغ الجاوى (Tarum) ، وهى كلمة لم يرد ذكرها فى أى مصدر آخر[١٩]. اختلف الكُتاب المسلمون فيما بينهم فى الصلة بين الكمكام (Kamkam) والضرو (Darw) أو الضيرو (Dirw) ، فهم أحيانا يصنفون الأولى ثم يصنفون الثانية على أنها شجرة ، وصمغ ، أو منتجات أخرى للشجرة[٢٠]. والضرو (Darw) تعد الآن شجرة فى العربية الجنوبية والكمكام هو صمغها ، وهذا التصنيف يتفق مع المعلومات التى ذكرها الدينورى[٢١]. واستخدم كل من لحاء (؟) وصمغ هذه الشجرة كنوع من البخور فى العصور القديمة، وقد أقرت سلة البخور السبئية بكل من الكمكم (Kmkm) والضرو (Drw)[٢٢]. ومن الواضح أنه نوع من أنواع محاصيل البخور التى عرفها بلينى باسم (Concamum) و Tarum ، ويؤكد ديوسكوريديس بأن الكانكاموم كان يستخدم كعطر. وإضافة إلى ما تقدم فإن الضرو (Drw) له الاسم نفسه فى اللغة العبرية (Sri) بلسم الجيليد (Gilead)[٢٣].

ويصنف الضرو (Darw) بصفة عامة على أنه شجرة فسدق (Pistacia Lentiscus) ويتضمن الاسم كل من الشجرة واللحاء معا[٢٤]. وهى شجرة حمضية ظهرت عند العبرانيين مرتبطة بكل من الكمكام والضرو على أنه صمغ تلك الشجرة[٢٥]. وتوجد أنواع مختلفة من هذه الشجرة فى كل من جنوب العربية والصومال (البريطانية)[٢٦]. وظل هذا الإنتاج حتى العصور الوسطى الإسلامية يصدر من جنوب بلاد العرب[٢٧]، ولكن لم يكن له أهمية كبيرة أبدًا فى العالم اليونانى الرومانى(*) .

(*) راجع : النعيم ، نورا عبد الله العلى : الوضع الاقتصادى فى الجزيرة العربية فى الفترة من القرن الثالث ق.م وحتى القرن الثالث الميلادى ، الرياض ، ١٩٩٢م، ص٢٢٧–٢٢٨ .(المترجمة)

٤ - زهرة الصبار Landanum

هو نوع من الصمغ الزيتي الذى يسيل من عدة أنواع من الورود التى تنبت بين الصخور Cistus، وما تزال تستخدم في العطور حتى عصرنا الحالى[٢٨] . ويعتقد هيرودوت أنها من محاصيل جنوب بلاد العرب فقط، ويقول إن الفضل فى إنتاجها يرجع لعادات الماعز فى الرعى (وهى فكرة ساذجة) . وفى عصر بلينى كانت تعد من المحاصيل الخاصة بالأنباط الذين حصلوا عليها من لحى الماعز عندهم[٢٩]. والمعروف أن الزهور الصخرية شائعة فى كل منطقة البحر المتوسط والمناطق التالية لها[٣٠]. ويبدو أن أولاد إسماعيل الذين قدموا من الجيليد (Gilead) قاموا ببيع محصول الزهور الصخرية لمصر باسم لوط (Lot)[٣١] أما الآشوريون فقد حصلوا عليها كجزية من الغرب تسمى لادينو (Ladinnu)[٣٢]، وإذا كان قد قدر لهذا المحصول الاستمرار بعد ذلك فإنه لم يعد يمثل احتكاراً عربيا . وفى القرن الأول نافست زهرة الصبار القبرصى والليبى وأنواعٌ أخرى الأنواعَ العربية التى لم يعد لها أهميتها السابقة[٣٣]. وفى العصر الحديث يتركز إنتاج زهرة الصبار فى كريت[٣٤]. ولم يذكر لنا كوزماس ولا كتاب الطواف شيئًا عنها ، بل يبدو أنها فقدت أهميتها فى بلاد العرب ذاتها. ويذكر هيرودوت أن كلمة لادانون (Ladanon) هى عربية الأصل (أو على الأقل هى النطق العربى للكلمة التى ذكرها وهى ليدانون Ledanon) وتنطبق كلمة لدن (Ldn) على سلة البخور فى جنوب العربية[٣٥]، وذلك على الرغم من أن الدينورى لا يعتقد أن اللادين (Ladin) من المنتجات العربية بأى حال من الأحوال. أما كل ما ذكره الكتاب المسلمون عن اللادبن (Ladbin) أو لادن (Ladin) فقد اشتق من الروايات الكلاسيكية[٣٦].

٥ - السمار الحلو (الأذخر) Sweet Rush

سوف يصاب المرء بالدهشة عندما يقرأ مقالة ميلر (Miller) عن تجارة الطيوب ، ويراه يقوم بتصنيف السمار الحلو على أنه محصول عربى بدلاً من كونه أحد محاصيل الطيوب الهندية، ولكنه محق فيما ذهب إليه[٣٧]. فنبات السمار الحلو (هو فى اللغة

اليونانية Skboinos euodes ، وفي اللغة اللاتينية Juncus adoratus ، وفي العربية أيذكبير Idakbir)[٣٨] ، يصنف ضمن الفصيلة النباتية العلمية المعروفة باسم (Andropogan= Cymbopogan) ، والتي تنتمي إلى الفصيلة النخيلية أو العشبية. وأغلب أنواع هذه الفصيلة (Cymbopogan) تعد نباتات عطرية . وقد عرف الكتاب الكلاسيكيون فيما يبدو أكثر من نوع من أنواعها ولكن نوعا واحدا منها يعد هو النوع الأصلي، وهو الذي يطلق عليه سرنج-(Sreng) اسم (Cymbopogan Scboenantbus) ومن الخطورة بمكان إعادة تصنيف هذا النبات على أنه من العائلة العلمية المسماة (Cymbopogan oliveri) كما يرى بور (Bor)[٣٩]. ونعود مرة أخرى إلى ميللر الذي يرى أن كلاً من العائلة النباتية المسماة (Cymbopogan Scboenantbus) أو تلك المسماة (Olivieri) وأنواع أخرى من الفصيلة نفسها معروفة في الشرق الأوسط[٤٠]، ولا يزال النوع المعروف باسم (C.scboenantbus) ينمو بكثرة في بلاد العرب[٤١]. ويسمى العشب في اللغة الإنجليزية بعشب الجمال وليس بعشب الجنزبيل . ولا يوجد دليل على قيام الإغريق والرومان باستيراده من الهند . وصنفه الكُتاب الكلاسيكيون على أنه نبات يوجد في كل من لبنان وسوريا وبلاد الأنباط والعرب والعراق وأفريقيا وليبيا[٤٢]. ويمكن الافتراض أن هذا النبات قد استورد من الخارج لسد احتياجاتهم منه ، أو ربما استورد من الخارج وأدخل في صناعة المراهم المحلية ، أما عدم الإشارة إلى فرض ضرائب عليه فيمكن أن يفسر بأنه قد تم إعفاؤه منها[٤٣]. ولكن ما السبب لوضع كل هذه الفروض ؟ الواقع أنه ليس هناك دليل واحد على أن هذا المحصول كان يأتي من منطقة أبعد شرقًا من العراق[٤٤]. كذلك فلقد صنفه كتاب القواميس العربية أيدبكبير (Idbkbir) كنبات شاع استخدامه في أغراض كثيرة وفي تسقيف المنازل وصناعة العطور، ولم يكن هناك وجود في أذهانهم لنبات هندي[٤٥]. ومن المحتمل أن قريشًا قامت بتصديره حيث ينمو على مقربة من مكة في منطقة الحرم نفسه وهو أحد النباتات التي سمح الرسول [ﷺ] بقطعها من هناك[٤٦]. ويبدو أن السبب في ذلك يرجع لحاجة أهل مكة لاستخدامه في تسقيف منازلهم ، ولمقابر موتاهم ، ولعدة أغراض أخرى غير معروفة للحدادين وصناع الذهب[٤٧]، وليس لتصديره لسوريا ، والمرة الوحيدة

التى وجدنا فيها أحد القرشيين يُحَمِّل جملاً بالسمار الحلو (Idbkbir) كان فى المدينة المنورة بعد الهجرة وكان لزبائنه من تجار الذهب المحليين[٤٨]. وعلمنا من مكان آخر أنه تم استبدال السمار الحلو بنوع من البوص (bamd) في مكة ، والبوص من النباتات التي تفضلها الجمال[٤٩]. أما الرأى القائل بأن قريشًا قامت بتصدير السمار الحلو لصناعة العطور في الإسكندرية فهو رأى يخالف ما ورد فى المصادر .

٦ - الصبار Aloe

يوجد فى اللغة اليونانية معنيان مختلفان لاصطلاح الصبار ، الأول: هو الدواء المر، والثانى هو الخشب العطرى ؛ مما يؤدى إلى الالتباس . أما الصبار المُر، أو الصبار (aloes) (وهى حالة جمع فى اللغة الإنجليزية وليس شكلا من أشكال اللغة اليونانية أو اللاتينية)، فهو عبارة عن عصير كثيف لعدد من أنواع الصبر، واشتهر الصبر السوقطرى فقط أو بصفة خاصة لدى الكتاب المسلمين، وهو ذلك النوع الذى يطلق عليه بكر (Baker) الصبر الكمثرى (Aloe perryi)[٥٠]. ولهذا النبات أوراق مسنَّنة "تشبه السكين المشرشر" ، واستخرج منه أهل سوقطرة عصير الصبر المُطهر، بعد ذلك يترك العصير ليجف في أوان من الجلد ، ليتم بيعه كدواء عرف فى اللغة العربية باسم الصبر أو الصبار وسابورا (Sabir, Sabr, Sabora)[٥١] وما زالت صيدليات العصر الحديث تعرف أن هذا النبات هو مصدر الصبر. وأصاب الكساد هذه التجارة نتيجة لمنافسة إنتاج جنوب أفريقيا وزنجبار وكوركاى (Curacae) له[*][٥٢].

(*) يعد المُر من أهم المواد الطبية فى العصور القديمة . وتنتجه بلاد العرب . وقد ورد ذكره بين الهدايا التى حملها الملوك المجوس للسيد المسيح عليه السلام فى مهده . وعَامَلَ به قدماء المصريين مومياوات الملوك، وصنع منه اليهود الزيت المقدس . واستخدم دواء ، ويقال إنه كان يعطى للنساء على الخصوص لتنظيم دورتهن ، وشجرته نبتت فى جزيرة العرب والصومال والهند ، وعلى الرغم من أن جزيرة العرب لم تحتكر أفضل إنتاج المُر فإن هذه المادة كانت تعد المادة الثانية لإنتاج جزيرة العرب بعد اللبان . وذكر المسعودى : " وفى هذا البحر مما يلي بلاد عدن جزيرة تعرف بسُقطرة، إليها يضاف الصبر السقطرى، ولا يوجد إلا فيها ، ولا يُحمل إلا منها . وقد كان أرسطاطاليس بن نقوماخس كتب إلى الإسكندر بن فيليبس حين سار إلى الهند فى أمر هذه الجزيرة يوصيه بها ، وأن يبعث إليها جماعة من اليونانيين يسكنهم =

لم ينقل الصبار المُر بالطريق البرى، مثله فى ذلك مثل اللبان ، كذلك لم يرد له ذكر عند ثيوفراستوس (Theophrastus) الذى توفرت له معلومات جيدة عن اللبان والمُر ، ولم ينسب للسبئيين بأى حال من الأحوال(٥٣). وجاء ذكره لأول مرة فى إنجيل حنا (٣٩:١٩) مرتبطا بدفن [من شبه] بالمسيح [عليه السلام] ، وظهر فى المرة الثانية عند كيلسوس (Celsus) (حوالى عام ٢٠م)(٥٤). وعاد للظهور مرة أخرى عند ديوسكورديس (Dioscorides). أما صاحب كتاب الطواف فيذكر أنه كان يستورد من ميناء قنأ، ميناء حضرموت، وكان يتم شراؤه من منطقة قبر هود قرب شحر (Shihr) فى حضرموت قبل الإسلام من التجار الذين يأتون إليها برا وبحراً ، كما يذكر لنا المرزوقى . ثم وصف المقدسى هذه التجارة بعد عدة قرون بأنها كانت بضاعة بحرية(٥٥). وعلى الرغم من أن المرزوقى كان يصف التجارة فى بلاد العرب نفسها ، فيمكن الافتراض أنه كان يتم تصديره (الصبار المر) عن طريق البحر .

٧ - الزنجفر - كبريتور الزئبق الأحمر Cinna bar (دم الأخوين)(*)

للزنجفر Cinnabar (هو فى اليونانية Kinnabari وفى اللاتينية Cinnabaris) معنيان مختلفان مثل محصول الصبر، وكلاهما يستخدم كصبغة حمراء ، ولكن الأول معدنى والثانى نباتى . والزنجفر المعدنى عبارة عن كبريتور الزئبق الأحمر ، الذى ينتج اللون المعروف باسم القرمزى (السلقون)، وهذا النوع لا يتأكد لنا فى هذا المجال . أما الزنجفر النباتى (أو دم الغزال) فهو عبارة عن عصارة حمضية (راتنج) يمكن الحصول عليها من عدة نباتات فى مقدمتها الأقحوان والسوسن، وكلاهما يستخدم

= فيها من أجل الصبر السقطرى ... فسير الإسكندر إلى هذه الجزيرة خلقًا من اليونانيين أكثرهم من جزيرة أرسطاطاليس بن نقوماخس ... فى المراكب بأهليهم فى بحر القلزم [البحر الأحمر] . فغلبوا على من كان بها من الهند وملكوا الجزيرة . ويُحمل من جزيرة سُقطرة الصبر السقطرى وغيره من العقاقير". المسعودى ، (أبو الحسن) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق شارل بلا ،ج٢، بيروت ، ١٩٦٦، ص١٢٨-١٢٩ . (المترجمة)

(*) وقيل هو الأيدع ويعرف أيضاً بالعندم . راجع : النعيم ، المرجع السابق ، ص٢٣٨ .(المترجمة)

صبغة ودواء[٥٦]. ويذكر بليني أن الأطباء في عهده كانوا يخلطون أحيانا بينهما من سوء حظ المرضى[٥٧].

ويذكر صاحب كتاب الطواف أن الزنجفر كان أحد محاصيل سوقطرة[٥٨] وأشار بالف (Balf) إلي أن النبات المسمى (D. Cinnabari) موطنه سوقطرة التي كانت تنتجه حتى القرن التاسع عشر[٥٩]. ويبدو أن المستعمرين الهنود لسوقطرة قد شاركوا في تصنيفه ووضعوا عليه العلامة الهندية . أما اسم النبات عند كل من الكُتاب الكلاسيكيين وفي المصادر الإسلامية والاسم العربي له فهو : "دم الأخوين" ، والذي يبدو أنه صدى لقصة هندية عن موطنه الأصلي وهي تلك القصة التي كانت معروفة لدى الكُتاب الكلاسيكيين مثل بليني[٦٠]. ولا يوجد لدينا ما يجعلنا نرجح أن هذا المحصول كان يصل شمالا برا مع اللبان، بل يبدو أنه كان يتم شراؤه بالطريقة نفسها التي كان يتم بها شراء الصبر (Aloe) ، أي عن طريق قنأ إلي عمان ومنها تحمل رأسا للخليج الفارسي حيث يتم نقله بعد ذلك إلي سوريا[٦١]. كذلك ليس هناك ما يشير إلى قيام الإغريق بشرائه مباشرة من سوقطرة[٦٢]، وعلى أي حال فأيا كان السوق الذي يتم الشراء منه ، فإن هذا المحصول لم يدخل ضمن إطار تجارة مكة .

٨ – القرفة والقرفة البرية Cinnamon and Cassia

أرجأت الحديث عنهما إلى الملحق الأول للكتاب ، ونكتفي هنا بالقول إن الصلة انقطعت بين هذين المحصولين وبين التجارة العربية منذ القرن الأول الميلادي، وفي عصر كوزماس كان يتم استيرادهما من شرق أفريقيا.

٩ – قصب الطيب Calamus

وبخصوص تصنيف قصب الطيب على أنه من إنتاج الشرق الأوسط وليس الهند ينبغي للقارئ الرجوع إلى الملحق رقم (٢) . لقد واصل البيزنطيون القيام باستيراد

هذا المحصول في القرن السادس الميلادى من شرق أفريقيا وليس من الهند. ولكن لم يذكر هذا المحصول من بين تجارة مكة(*).

١٠ - البلسم Balsam

نسمع في العهد القديم عن البالم (Balm) الذى حمله أبناء إسماعيل [عليه السلام] من الجيليد (Gilead) ليقوموا ببيعه في مصر، كما أحضره لمصر أيضاً أبناء يعقوب [عليه السلام] ويعرف النبى إرميا هذه المادة بأنها مادة طبية(٦٣) .

ونسمع بعد ذلك في المصادر اليونانية والرومانية ، ويليها المصادر العربية عن شجرة البلسم الشهيرة (وهي في اللغة اليونانية Opo balsamon ، وفي اللاتينية Opo balsamum، وفي اللغة العربية بالاسان balasan) وكانت تنمو في حديقتين من الحدائق الملكية في يهوذا (Judea)(٦٤)، كما نمت شجرته في أماكن أخرى مثل سوريا في عهد بليني، وأدخلت زراعتها في مصر في عهد ديوسكوروديس(٦٥). ويبدو أنها ظلت تزرع في سوريا حتى القرن التاسع الميلادى(٦٦)، بينما ظلت تزرع في مصر حتى عام ١٦١٥(٦٧). وشجرتها تعطى نوعاً من أغلى أنواع العطور ثمناً(٦٨). وهو النوع الذى كان يستخدمه أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة (Monophistes) كأحد المواد الأساسية في طقوسهم حتى القرن الثالث عشر الميلادى. كذلك استخدمه المسلمون في بعض الأعياد، كما وصل إلى المسيحيين في الغرب في بعض الأحيان(٦٩). واستخدم صمغ هذا النبات دواء غالى الثمن(٧٠). والمعروف أنه يوجد في بلاد العرب نوع من هذه الفصيلة النباتية (Commipbore) يعرف باسم البلسم، وموطنه من جنوب بلاد العرب حتى مكة(**).

(*) يذكر كل من بليني وثيوفراستوس أن قصب الطيب من نباتات الجزيرة العربية ، كما ورد في عدد من النقوش العربية مثل النقش المعيني الذى عثر عليه في الجزيرة . راجع : النعيم ، ص٢٣٩ والمصادر المذكورة في الحواشي رقم ٥ ، و٦ ، و٧ . (المترجمة)

(**) النوع العربي شجر عطِر الرائحة طيب الطعم ، يُدق ورقه ويخلط مع الحناء ، وله حب أحمر يصبغ به أهل البادية ثيابهم ، ويستاك بأغصانه ، إذا قطع خرج منه سائل أبيض، وينبت بجبال نجد والسراة ويعرف بالبلسم المكى ، وينمو في جنوب الجزيرة ويعرف بالمُر الحضرمي . راجع: النعيم، المرجع السابق والمراجع المذكورة في الحاشية رقم (١) ، ص٨٦ . (المترجمة)

كما ينمو هذا النبات فى الصومال(٧١). وعرفت شجرته فى اللغة اليونانية باسم (balsamon)(٧٢)، وهى تنتج نوعًا من الصمغ (راتنج) ليس له قيمة كبيرة .

إن الصلة بين هذه المحاصيل الثلاثة يؤدى إلى نوع من الخلط(٧٣)، والواقع أنه لا يوجد بينهما علاقة كبيرة أو صغيرة .

فالمادة المذكورة فى العهد القديم (balm) تكاد تجمع الآراء على أنها غير نبات كوميفورا (Commiphora) العربى ، حيث قدمَ أبناء إسماعيل [عليه السلام] الذين كانوا يحملونها من الجيليد (Gilead) وليس من مكة ، وتوضح بعض نصوص العهد القديم أن موطنها هو فلسطين . والتصنيف الحديث للنبات أو للنباتات، مختلف عنها، ولا يشكل نوعًا من أنواع طيوب نبات الكوميفورا (Commiphora)(٧٤).

ولهذا فإن الصلة بين البلسم اليهودى والباسبام (basbam) العربى تمثل مشكلة . ومن المؤكد أنهما لا يتطابقان. وتتفق المصادر اليهودية على أن البلسم اليهودى (balsam) ينمو فقط فى يهوذا ثم بعد ذلك زرع فى مزارع فى كل من سوريا ومصر(٧٥). والنبات المزروع هو أصغر فى حجمه من الشجر العربى والصومالى (basbam) وهو حلو المذاق، بينما كان الشجر العربى حمضى المذاق، أما الصومالى فهو مر المذاق(٧٦)، وذُكر أن الصمغ يسيل منه فى شكل نقاط صغيرة، كما ذُكر أن الشجر العربى لم يكن الصمغ يسيل منه بسخاء، وتشير التقارير الحديثة إلى العكس من ذلك(٧٧). وعطره غالى الثمن بدرجة كبيرة ، وتتبخر كثافة الزيت سريعًا فى الأشجار العربية مخلفة وراءها حمضًا لا طعم له(٧٨). وأكد الكتاب المسلمون على أن نبات البالاسان (balasan) يختلف عن نبات الباسبام (basbam)(٧٩).

وعلى أى حال يمكن أن يكون النبات اليهودى قد تم تهجينه من الشجرة العربية ، طبقًا لما ذكره يوسف (Josephus)(*) ثم عبد اللطيف بعد ذلك(٨٠). وبناء على ما تقدم

(*) ولد يوسفيوس بين عامى ٣٧ و٣٨م ، وهو أحد كهنة اليهود ، وينتمى إلى عائلة أرستقراطية، وشارك فى حكم منطقة الجليل فى فلسطين ، وأصبح أحد قادة ثورة اليهود فيها ضد الحكم الرومانى والتى بدأت =

لا يوجد ثمة شك كبير حول أن الاسم الإغريقى (balsamon) (الذى ترجم عن كلمة بالاسان Balasan العربية) هو نقل حرفي عن اللغة الآرامية ، انتقل أغلب الظن عن طريق الفينيقيين ، واشتق من الجذر الآرامى نفسه : باسبام (basbam)[٨١]. ويبدو أن السبب فى الخلاف بين النوعين يرجع إلى أن زراعته تمت منذ فترة طويلة زمنيا[٨٢]. وعلى الرغم من ذلك فيمكن أن يكون هناك فوارق كبيرة من الناحية النباتية[٨٣].

والشىء الذى يعنينا هنا أنه فى حالة ما إذا قبلنا بأن البلسم اليهودى قد تم تهجينه من شجرة عربية ، فإن هذا النبات اليهودى هو الوحيد الذى كان له قيمة فى العالم القديم. لقد عرف الكتاب الكلاسيكيون الصنف العربى، ولكنهم لم يشيروا إلى استيراده . ومن الصعوبة أن نراهم يقومون باستيراد عصارة أدنى، بل إن الكتاب المسلمين الأوائل ، لم يضاهوا الباسبام بالراتنج بأية حال . وعرَّف الدينورى أوراقه بأنها عبارة عن عُشب يستخدم فى صبغة الشعر، بينما عرف المكيون فروعه كمصدر لسواك الأسنان (أكثر منه خلة للإسنان)[٨٤]. ووقع عبد اللطيف تحت فكرة أن الباسبام العربى لا يعطى أى راتنج[٨٥]. وفى العصر الحديث نادراً ما يقوم العرب والصوماليون بجمعه، فيما عدا حالات قليلة لاستخدامه كنوع من اللبان[٨٦]. وعلى هذا فإن مقارنة أهمية البلسم العربى التجارية بكل من اللبان والمُر تعد مقارنة غير عادلة[٨٧] .

= فى عام ٦٥ فى أواخر عهد الإمبراطور نيرون Noro (٥٤-٦٨م) . قام بأسره القائد الرومانى فسباسيان Vespasian الذى عين للقضاء على ثورة اليهود هناك ، وتمكن فسباسيان من أسر يوسف، وقام الأخير بالتنبؤ للقائد الرومانى بوصوله إلى حكم روما وعندما تحققت هذه النبوءة لفسباسيان أطلق سراحه . ثم ظل مصاحبا لقوات القائد تيتوس Titus بن فسباسيان فى فلسطين حتى تم تدمير هيكل اليهود هناك فى أواخر عام ٧٠م . استقر يوسف بعد ذلك فى روما وحصل على الجنسية الرومانية وكتب كتاباً عن تاريخ الحرب اليهودية de bello judaico فى سبعة كتب (أجزاء). ثم كتب كتاباً عن تاريخ اليهود القديم Antiquitates Judaicae ظهر عام ٩٣/٩٤ . ويتضمن تاريخ اليهود منذ بدء الخليقة حتى عام ٦٦م . ويقع فى ٢٢كتاباً (جزءاً) ، ويبدو أنه كتبه باللغة اليونانية مباشرة. كما قام بكتابة ترجمة شخصية لنفسه Vita، ورسالتين يدافع فيهما عن اليهود ضد أبيون Contra Apion أحد زعماء الإسكندرية المناوئين لليهود فيها . راجع : آمال الروبى : مصر فى عصر الرومان، دراسة سياسية اقتصادية اجتماعية فى ضوء الوثائق التاريخية ٣٠ق.م - ٢٨٤م . جدة - ١٩٨٤م . ص٨٦-٩٧؛ The Oxford Classical Dictionary, art. Josephus. (المترجمة)

إن هذا على وجه التحديد هو السبب فى أنه لم يكن هناك وجود لتلك التجارة ، وعلى أية حال أوجد المكيون إحداها بعد ظهور الإسلام . وانتشر البلسم المكى كراتنج فى العالم الإسلامى فى العصور الوسطى. وعُرف راتنج الباسبام العربى فى القرن التاسع وأوائل القرن العاشر تحت اسم "البلسم المكى"[٨٨]. ومن الواضح أن شهرة البلسم المكى يرجع الفضل فيها لمكانة مكة أكثر من جوهر المنتج ذاته ، على الرغم مما نكره عنه الكتاب فى العصر الحديث بأنه مُر المذاق "وأن رائحته غير ساحرة"(*)[٨٩].

١١ - السنا - نبات السنامكى Senna

نبات السنا عبارة عن أوراق صغيرة جافة للقثاء الهندى (Cassia) وهو من الفصيلة القرنية ، ويستخدم فى الدواء فى العصر الحديث كأعشاب مُلَينة، وقد أعيد تصنيفه تحت اسم (C. angustifolia, cassia acutifolia) وهو يدخل فى عديد من الطيوب فى الأغراض الطبية وأغراض أخرى[٩٠] . والسنا الأصلى لا صلة له بالكاسيا (Cassia) المعروفة فى المصادر الكلاسيكية القديمة ، والتى تُعد شكلا من أشكال القرفة[٩١].

واصطلاح السنا ، هو الشكل الأوروبى للكلمة العربية سنا (Sana) وكانت مصر وشرق أفريقيا هى موطن السنا السكندرى (Alexandrian Senna) الذى كان يعد واحداً من أجود الأصناف التجارية. وهو ينمو فى بلاد العرب حيث يعد النوع المسمى أنجوستقوليا (C. angustifolia) وأنواع أخرى من الطيوب تنمو بريا ، وقد وجد السنا فى منطقة الحرم (haram) فى الفترة المبكرة للإسلام[٩٢]. واشتهر سنا مكة فى القرن العاشر فى العالم الإسلامى، وما يزال مستخدما حتى الآن فى الأدوية الحديثة لتعديل عدد من الأنواع وتحسينها[٩٣]. وقد وضع لامينز أوراق السنا فى قائمة صادرات مكة[٩٤]. وتشير مصادره إلى أن أوراق السنا كانت تستخدم فى الحجاز، وربما فى

(*) راجع تعليق المترجمة فى الحاشية المذكورة ص١١٨ .

أماكن أخرى فى العصور المبكرة للإسلام. وعُرفت خصائصها الطبية، واستخدمت مع نبات الحنة (henna) فى الصباغة، واستخدمت فروعها الجافة كنوع من خلة الأسنان[٩٥]. ولا يوجد لدينا أية إشارة تدل على تصدير هذا النبات ، كما لم تعرف هذه البضاعة فى الجانب اليونانى الرومانى[٩٦]. وقد نمت هذه البضاعة بعد ظهور الإسلام ، مثلها فى ذلك مثل نبات البلسم المكى (Meccan balsam)[*].

١٢- المُقْل Bdellium

إن البدليوم الذى جاء وصفه فى الأدب الكلاسيكى هو عبارة عن مادة حمضية يستخدم فى العطور والأدوية وصناعة الطيوب، ويتم الحصول عليه من شجرة محلية تنمو فى الشمال الغربى للهند وفارس وبلاد العرب[٩٧]. ومن المحتمل أنها تتطابق مع المادة التى عرفها الأكاديون باسم (budulkbou) وفى العهد القديم باسم (bdolab)[٩٨]. وقد ساوى كتاب القواميس اليهود والسوريون بين البدليون (bdellion) والمُقل العربى (muql)[٩٩]، وعرفوها على أنها عبارة عن عصارة حمضية لشجرة أطلقوا عليها اسم كومفورا مُوقل (Commiphora mukul). وموطن هذه الشجرة الهند وإيران وبلاد العرب، ولهذا يرجع السبب فى كونها كانت مصدر مادة البدليوم القديمة والتى أجمعت الآراء على قبولها[١٠٠]. وعلى أى حال فإن هذا الرأى صحيح جزئيا، فقد وصف بلينى هذه المادة بأنها عطرية، وطبقًا لما ذكره ديوسكوريديس (Dioscorides) فإنها تنبعث منها رائحة ذكية عند حرقها[١٠١]. أما شجرة كاسيا المُوقل (C.mukul) فهى تنتج صمغا

(*) السنا : نبات السنا هو نبات الشبت الذى له رائحة طيبة ويستخدم كمطيبات فى الطعام ، وهو غير نبات السنامكى الذى يستخدم دواء ملين والمعروف باسمه حتى الآن . وقد أشار الرسول (ﷺ) إلى استخدام نبات السنا وأهميته فى الطعام ، وثبت أن سكان منطقة الجوف على الحافة الشمالية الغربية فى المملكة العربية السعودية وتعدادهم حوالى ربع مليون نسمة لم يثبت لديهم وجود أى نوع من أنواع السرطان منذ السبعينات من القرن العشرين وحتى الآن ، وأرجع المتخصصون هذا الأمر إلى كثرة استخدامهم لحبوب الشبت (السنا) والشحر فى الطعام وهى التى أشار الرسول (ﷺ) لفوائدها فى الطعام (حديث تليفزيونى للدكتور عبد الباسط محمد السيد ، الأستاذ فى المعهد القومى للبحوث ، قناة اقرأ فى ٢٠٠٣/٩/١٧) . (المترجمة)

وتنبعث منها رائحة كريهة بصفة عامة أو عند حرقها بصفة خاصة[١٠٢]. وكانت استخداماتها الطبية معروفة[١٠٣]، وليس من المعقول أن تدخل هذه المادة فى صناعة الطيوب والعطور فى العالم القديم.

وعلى ذلك فإن رائحة البدليوم العطرة تمثل مشكلة ، وطبقا لما ذكره بلينى فقد كانت تستورد من باكتيريا (Bactria) وميديا (Media) ، ومن باريجازا (Barygaza) فى شمال غرب الهند كما ذكر صاحب كتاب الطواف الذى يخبرنا بأنها كانت تنمو أيضًا فى الساحل الجنوبى الشرقى لإيران[١٠٤]. ولكن هناك نوعين فقط من هذه الشجرة (Commiphora) فى إيران وهما:كاسيا المُوقل (C. mukul) ، والثانى كاسيابيسنس (C. pubescens) وذكر أن رائحة النوع الأول كريهة ، بينما وصف النوع الثانى بأنه صمغ عديم الرائحة ولا طعم له ، وعلى ذلك فإن هذا النوع لا يكون مصدرا للصمغ ذى الرائحة الذكية[١٠٥]. وهناك احتمال لوجود عدة أنواع من عائلة الكمفورا (Commiphora) كانت توجد فى إيران فى العصر الماضى أكثر من تلك الموجودة اليوم[١٠٦]. وإذا كان الأمر كذلك فإنه يكون من الصعب أن نقول إن الشجرة موضوع الحديث كانت تنمو فى بلاد العرب كما يدعى بلينى. ولكن الموضوع ليس بذى أهمية كبيرة لنا ؛ لأنه لم يذكر أنه كان يتم الاستيراد منها[١٠٧].

وعلى أى حال فإن الصمغ الطبى ربما يكون هو صمغ المُوقل (C. Mukul) كما أشار إلى ذلك كُتاب القواميس الذين قابلوا بين البدليوم (bdelliom) والمُوقل (Muql) ، وقد أوضح ديوسكوريديس (Dioscorides) الذى كتب عن المادة الطبية أنها كانت صمغا لشجرة عريقة، وقد رفض أصحاب الترجمة السبعينية (Septuagint) للتوراة أن يترجموا (Bdolab) بالبدليوم (bdellion) على أساس أن المادة الأخيرة لم تكن رائحتها ذكية ، أى أن مادة (bdolab) التى يصر عليها الربانيون (Rabbis) لا علاقة لها بمادة الصمغ الدوائية[١٠٨]. وحيث أن ديسكوريديس يذكر أن الصمغ الطبى (bdellium) تنبعث منه رائحة ذكية عند حرقه فإن هذا يؤدى إلى اللَّبس بين مادة البدليوم

ودخولها فى صناعة العطور والطيوب[١٠٩]. ومن الغريب حقا أنه يوجد أمامنا نباتان مختلفان فى الخصائص ولكنهما يحملان اسما واحداً دون تحديد أوجه الخلاف بينهما(*).

وبالرغم من كل شيء فإننا يمكن أن نقبل أنه كانت هناك تجارة فى هذا المحصول . فالمصادر الإسلامية لا يذكر فيها عادة المُقل ، كما أنه لا يرتبط بتجارة مكة[١١٠]، حقيقة إننا نسمع عن محصول يسمى المُقل كان يصدر من منطقة دهل المروة (Dhul- Marwa) شمال المدينة فى العصور الوسطى[١١١]، ولكن هذا المُقل كان ثمرة لشجرة الدوم، وليس صمغا كشجرة الكمفورا (Commiphora)[١١٢]. إن المصادر الخاصة بأهل مكة قبل الإسلام تصفهم بأنهم مجرد تجار كانوا يحصلون على الحصانة من محرابهم ويقومون بتزيين أنفسهم بالمُقل عند مغادرتهم له حتى يمكن أن يميزهم الأعداء فلا يعتدوا عليهم لحصانتهم[١١٣]. وبالإضافة لكل ما تقدم فربما استخدمت أوراق الأشجار لتصنيع المراتب والرماح وأجولة الجمال[١١٤]، ولكن السؤال الذى ما يزال قائما فهو خاص بمحتوى الأجولة التى تحملها الجمال .

١٣ - الحبهان Cardamomum

عرف الكتاب الكلاسيكيون نوعين من التوابل يشبه كل منهما الآخر: الأول يسمى أماموم (amamum) والثانى الحبهان (Cardamomum) ، وقد وجد النوع الثانى فى بلاد العرب[١١٥]. والمادة موضوع الحديث صُنفت على أنها شكل مختلف من الحبهان.

(*) يبدو أن السبب فى هذا الخلط يرجع إلى كُتاب القواميس من السوريين واليهود الذين قابلوا بين الكلمة الإغريقية بدلليون bdellion وبين المُقل العربى . وعرَّف أبو حنيفة المُوقل بانه يسمى الكور أحمر طيب الرائحة ، ينمو فى عمان خاصة فى جبل قهوان ، وقيل مُقل مكى ، وهو يشبه المُر فى الشكل إلا إنه أقل رائحة وينمو أيضاً فى شمال المدينة . ويبدو أن المقل العربى هو الذى يسمى Gum Resin ، وهو شجر شائك ينتج نوعًا من اللبان ، وهو الأمر الذى يتطابق مع ما ذكره بلينى من أن الشجرة تنمو فى بلاد العرب ولها رائحة ذكية ، وما قاله ديوسكوريديس ن أنها عند حرقها تنبعث منها رائحة ذكية . راجع النعيم ، المرجع السابق ، والمراجع المذكورة لديها ، ص٢٣٩ . (المترجمة)

أما النوع الأول وهو "الأماموم" فهو من المفترض أن يكون عبارة عن محصول مِخْرَزى الشكل (Amamum Subulatum) يُنتج محصول الحبهان النيبالى (Nepal Cardamon) ، أما النوع الثانى من الحبهان (Cardamomum) فيسمى محصوله باسم (Elettaria Cardamomum) وهو الذى ينتج المحصول الشهير لدينا . وكلا النباتين موطنهما الأصلى الهند ، ويوجد منه أنواع أخرى تنمو فى مناطق بعيدة من الشرق. ويذكر ميللر (Miller) أن واردات العالم اليونانى الرومانى قد جاءت من جنوب شرق آسيا[١١٦]. وعلى أى حال فإن أى من النباتات لم يكن لها علاقة بالحبهان الذى نعرفه اليوم[١١٧].

ففى المقام الأول فإن هذه النباتات لها توزيع مختلف تماماً عن الحبهان . وطبقًا لما ذكره ثيوفراستوس فإنها كانت تأتى من ميديا (Media) وبعضها كان يأتى من الهند . وطبقًا لما ذكره بلينى فإن (amomum) عبارة عن كروم هندى أو شجرة صغيرة كانت تنمو فى أرمينيا وبلاد بونتوس (Pontus) وميديا (Media) ، بينما ينمو الحبهان (Cardamomum) فى كل من ميديا وبلاد العرب . وقد ذكر ديوسكوريديس القول نفسه . ولهذا ذكر ميللر (Miller) أن الأموموم (amomum) كان يأتى عبر الطريق البرى من الهند ؛ بينما نُقل الحبهان عن طريق البحر عبر العربية[١١٨]. ومن الصعب بمكان الاعتقاد أن المصادر كانت تصنف نباتًا على أنه محلى فى كل بونتيوس أو أرمينيا لسبب بسيط هو أن البضاعة كانت تشحن منها أو تمر خلالها، فى حين أنهم كانوا لا يستطيعون وصف خصائصه الطبيعية إلا بصعوبة ، كذلك لم يذكر صاحب كتاب الطواف أو كوزماس هذا المحصول ؛ ربما لعدم شرائه من الهند أو سيلان.

وفى المقام الثانى فإن هذا المحصول لا يشبه حبهان العصر الحديث، فمحصول اليوم عبارة عن بذور تشبه الكبسولات، وهى عادة ذات لون بنى فاتح ، ولها بذور ذات لون بنى غامق تشبه حبوب الفلفل الأسود[*]. ويذكر بلينى أن الأموموم (Amomum) يتكون من أوراق تضغط برقة فى حزم "وأفضل الأنواع هى تلك التى لها أوراق تشبه

(*) عندما تكون حبوب الحبهان (الهيل أو الهال) طازجة يكون لونها أخضر فاتح ، ثم تبدأ فى التحول إلى اللون البنى عندما تمر عليها فترة زمنية . (المترجمة)

أوراق شجرة الرمان وتخلو من التجاعيد ، ولونها أحمر" ، أما الصنف الردىء "فله أوراق مثل أوراق شجر الرومان ويسيل الصمغ منها مما يؤدى إلى التصاق الأوراق ببعضها فتصبح على شكل عنقود العنب"(١١٩). ولا يستطيع المرء اليوم أن يقوم بلصق الأوراق معا بأى نوع من أنواع الصمغ. أما فيما يخص الحبهان (Cardamomum) فإنه ينتج من شجيرات مماثلة، وبنورها مستطيلة، ويبدو أن الأوراق هى التى كانت تباع أكثر من البذور حيث ذكر لنا أن أفضل أنواعه هى " ذات الأوراق الخضراء الزيتية"(١٢٠). وعلى ذلك يمكننا القول بأن كل من الأموموم (amomum) والحبهان كانت نباتات تنمو فى الأماكن التى تشير إليها المصادر ومن بينها بلاد العرب . وحيث إنه لم يتم تصنيف كل منهما لذلك فإنه من الصعب بمكان أن نتتبع مصيرهما فى الجانب الإسلامى . فلم يُذكر أن قريشًا كانت تتاجر فى الحبهان (habb-al-han) كما لم يرد ذكر أنهم كانوا يتاجرون فى أية بضاعة مشابهة لتلك التى وصفها بلينى .

١٤ – القمقم Comacum

يذكر ثيوفراستوس أن نبات القمقم يأتى من بلاد العرب ، وهو عبارة عن ثمرة، أما الثمرة التى تسمى كوماكون (Komakon) فهى شىء آخر مختلف، حيث كانت تستخدم كعطر فى المراهم النفيسة. ويذكر بلينى أن القمقم عبارة عن عصارة تستخلص من نوع من النُقل تذكرنا بالقرفة وهى دائمًا مقبولة ورخيصة الثمن ، ويتم إنتاجها فى سوريا(*)، ولذلك قام ميللر (Miller) على أساس هذه المعلومات بتصنيفها على أنها جوزة الطيب (nut meg) ، وهى إحدى مواد العطور السحرية التى تنتجها

(*) يبدو أن القمقم هو قرض شجر الضرو أو لحاؤه . وقد اختلف العلماء المسلمون فيه حيث يرى البعض أنه صمغ شجرة يدعى الكمكام ويجلب من اليمن . ويرجع السبب فى اختلافهم إلى أن كلاً من الشجر وصمغه يستخدم بخوراً ، وورد اسم كل منهما فى النقوش العربية باعتباره نوعا من البخور . وذكر بلينى أن القمقم يستورده الأنباط من مستوطنة لهم فى الساحل الأفريقى للبحر الأحمر . راجع: النعيم ، المرجع السابق ، والهوامش المذكورة ، ص ٢٢٧–٢٣٨ . (المترجمة)

الهند وجنوب شرق آسيا[١٢١]. وإذا كان الأمر كذلك ، فإن كل شيء يمكن أن يكون أى شيء . وأيا كان المعنى المقصود من كلمة القمقم ، فمن الواضح أنها كانت أحد المنتجات المحلية في الشرق الأدنى والتى لم يعرفها العالم القديم جيداً ليقوموا بتصنيفها لنا .

التوابل الهندية Indian Spices

إن عدد التوابل الهندية التى ترتبط ببلاد العرب فى المصادر الكلاسيكية ليست كبيرة على عكس الصورة المعتادة ، وقد تم تضخيمها فى المصادر الأدبية الثانوية نتيجة الخطأ فى تصنيف القرفة والقرفة البرية وقصب الطيب (Calamus) والسمار الحلو التى اعتبرت جميعها من الواردات الهندية. إن عدد التوابل الهندية يختصر إلى أربعة أنواع وتتمثل فى: الناردين (Nard) ، والكوستم (Costum) ، وشجر الصبار، والجنزبيل. إن الدلائل التى تثبت صلة الأنواع الثلاثة الأولى ببلاد العرب قليلة ، على الرغم من أن أصولها الشرقية معروفة. وفيما يخص الجنزبيل فيبدو أنه كان ينمو فى بلاد العرب على الرغم من أن العالم القديم لم يستطع أن يستورد كل احتياجاته من هناك . ولم ترتبط أى من هذه المحاصيل الثلاثة بتجارة مكة ، وعلى أى حال فهناك مصدر واحد يذكر لنا أن قريشاً اعتادت أن تتاجر فى الفلفل مع أشياء أخرى ، هذا على الرغم من أنه لا يوجد ما يدل على ارتباط تجارة الفلفل ببلاد العرب فى العصر القديم(*).

١٥ - الناردين Nard

الناردين أو سنبلة الطيب (فى اللغة السنسكريتية nalada، وفى اللغة العبرية نرد Nerd وفى السورية ناردين nardin واليونانية ناردوس nardos ، وفى العربية سُنبل بيندى (Sunbul bindi) وهو نبات ينمو طوال العام ، وهو من النباتات المحلية لإقليم

(*) راجع تعليق المترجمة ص١٣٣ .

الهمـلايا وتعـرف مـاركتـه العـالميـة الآن باسم .Nardostachys Jatamansi D.C (=Valeriana Jataman Jones), Valerianaccae[١٢٢]. وهو مغطى بالشعر، أو أن سنبلته تشبه أذن الذرة (Stakhys, spica) ومنه اشتق اسم نـاردوستاكييس (nardostakhys) أو سنبلة الناردين (Spica nardi) أى نبـات السنبل الهندى. ولهـذا النبـات قـوام زيتى استـخـدم فى صناعة المراهم والعطور فى العصـر القديم ، وقد وصف كل من الهنود والمسلمون خصائصه الطبية[١٢٣].

لقد عرف العالم الغربى الناردين من نشيد الإنشاد (song of songs) لسليمان عليه السلام[١٢٤]. ومع مجىء القرن الأول الميلادى أصبح معروفًا بأنه يأتى من الهند ، ووصـفـه صاحب كتـاب الطواف بأنه يأتى من هنـاك مبـاشـرة[١٢٥]. ووُصف فى القرن السادس بأنه كان يتم استيراده عن طريق سيلان[١٢٦] ، وذُكر فى عصر الإسكندر أنه ينمو بريا فى بلاد العرب[١٢٧]. ويبدو أن الناردين موضوع الحديث هو أحد التوابل التى تنتمى إلى مجموعة (Cymbopogon) أو الأعشاب العطرية ، وهـناك أنواع أخرى تسمى كيـبـيـروس (Cyperus) فى بلاد العـرب الجنوبيـة صنفـهـا المسلمون على أنهـا السنبل العـربى (Sunbul arabi) أى الناردين العـربى . وهو ينـاقض تمامًـا سنبل بنـدى[١٢٨]. ولا يوجد مـا يشير إلى قيـام العرب بلعب أى دور فى تجارة الناردين أكثر من كونهم قدموا المرسى للسفن الهندية[١٢٩]. وكلمة السنبل العربية مترجمة من الكلمة اليونانية (Stakhys) ، التى وصلتهم فيمـا يبدو عن طريق سوريا، أما كلمة ناردين العربية فهى منقولة مبـاشـرة من النطق السورى؛ ومـاذا يقـول الكتَّـاب المسلمون عن نبات يبدو أننا عرفناه من خلال ما كتبه ديوسكوريديس (Dioscorides)[١٣٠].

١٦ – الكوستوم Costum

نبـات الكوسـتـوم أو الكوسـتـوس (Costus) ، (فى السـنسـكريـتـيـة Kustba ، وفى الآرامـيـة Qusbta، وفى اليـونـانية Kostos وفى العـربيـة (qust, kust, qusht, kusht وهو عـبـارة عن عـشب ينمـو طوال العام، فى كـشـمـيـر ، واسـتـخـدم فى الطيـوب والعطور

والأغراض الطبية في الصين وفي كل أنحاء العالم القديم[١٣١]. جاءت أولى الإشارات عنه في الأدب الإغريقي فيما كتبه ثيوفراستوس ، كذلك عَرَّفه بليني بأنه أحد النباتات الهندية ، ويتم استيراده مباشرة من بارجازا (Barygaza) وبارباريكون (Barbaricon) شمال غربي الهند ، كما جاء عند صاحب كتاب الطواف. وعرف التاجر كوزماس أنه يأتي من الهند على الرغم من أنه كان يصل للعالم العربي في ذلك الوقت عبر سيلان[١٣٢].

وهناك اثنان فقط من الكتاب الكلاسيكيين ربطا بين هذا النبات وبلاد العرب . فقد تحدث ديوسكوريديس عن الكوستوم العربي والهندي والسوري، بينما ذكر ديودور الصقلي أن هذا المحصول العربي لم يستخدمه الإغريق فقط ، بل لقد استخدمه العرب أنفسهم[١٣٣]. ويبدو أن ديودور كان مصيبًا فيما ذكره عن الكوستوم بقوله إن هذا النبات كان يمر من خلال الموانئ العربية : وفي العصور الوسطى كان هناك نوع من الكوستوم عرف باسم ظفاري (Zafari)[١٣٤]. وكان ديودور محقًا في قوله إن العرب استخدموه بأنفسهم على الرغم من أنهم كانوا لا ينتجونه . وينطبق الكوست qst على سلة بخور جنوب بلاد العرب ثم في السيرة النبوية[١٣٥]. وعرَّفه المسلمون بأنه أحد المنتجات الهندية التي تستخدم في التبخير والصيدلة والعطور[١٣٦]، ولكنهم لم يصنفوه إطلاقًا على أنه أحد سلع تجارة مكة قبل الإسلام .

١٧ – عود النَدّ ، خشب الصبار Aloe wood

لقد سبق القول ، إن الصبار الإغريقي (aloe) لا يعد اسمًا لدواء مُر فقط ، ولكنه أيضًا قطعة خشبية، والخشب موضوع الحديث هو قلب الشجرة المسماة (aquillaria agallocba) وهي تنمو في الهند والصين وماليزيا، وفي الإنجليزية يعرف أحيانا بشجر النسر ، ومنذ العصور القديمة كان يتم مضغ قلب الشجرة لتطييب رائحة الفم ، كما كانت تستخدم نوعًا من البودرة التي يتم نثرها على الجسم ، وكانت تخلط مع الكريمات والعطور والأدوية وتحرق لتبخير الأجسام والملابس والأماكن المقدسة[١٣٧].

وجاء ذكر شجرة عود الند في التوراة لأول مرة تحت اسم (balim ballot) دائمًا في حالة الجمع، ولكن هذا التعريف غير مؤكد[١٣٨]. وذكره ديوسكوريديس لأول مرة في الأدب الإغريقي حيث أطلق عليه اسم (agalokbon or agallokban) ، وذكر أنه يأتي من الهند وبلاد العرب ، حيث كان لابد من مرور بعض المحصول من خلال الموانئ العربية . ومنذ القرن السادس أصبح يتم استيراده عبر سيلان[١٣٩]. وكان عود الند وليس اللبان (Frankincense) هو البخور الذي كان يستخدم في فترة ما قبل الإسلام وفي أوائل العصر الإسلامي ، ويبدو أنه استمر كذلك لفترة طويلة[١٤٠]. وقد سمي أيضًا قبل الإسلام وفي الشعر باسم يالانجوج (Yalanjuj) وكيبا (kiba)[١٤١]. وكلمة ميجمار (Mijmar) يقصد بها عادة عود الند، وقيل أنه كان يطلق مع أنواع أخرى من البخور حول الكعبة في العصر الإسلامي المبكر. وكانت إحدى الشرارات التي انبعثت من الميجمار (Mijmara) التي كانت تحتوي على عود الند هي التي تسببت في احتراق الكعبة قبل الإسلام[١٤٢]. وذكر أن الميجمار ظل يحرق حول الكعبة في عهد الزبير بن العوام[١٤٣]. وقد أطلق عليه عدة أسماء مثل يالنجوج (yalenjuj) (ألاناجوج ، أنجوج ، ناجوج ,Alanjuj, Anjuj, Najuj) وكيبا Kiba ، ميجمار Mijmar أو باختصار عود ud أو عود بندي (ud bindi) أي الخشب الهندي . وقد ظهر في الحديث النبوي الشريف كما هو متوقع[١٤٤]. وقد رأى بعض الكتاب المسلمين أن عود الند قد ورد ذكره في بعض الأشياء الغامضة التي ترجع إلى فترة ما قبل الإسلام (كما أنها تنطبق أيضًا على سلة بخور بلاد العرب الجنوبية)، بل هناك من يعتقد أن المقصود بالكوستوم هو عود الند . والكلمة الجامعة لكل أنواع الطيوب هي البخور ومن بينها عود الند ، إلا إذا تم تحديد النوع[١٤٥].

لقد كان لعود الند مكانته، ليس فقط في بلاد العرب وبيزنطة، ولكن في بلاد فارس أيضًا[١٤٦] . ومما لا شك فيه أن هذا المحصول كان يمكن لقريش أن تحقق منه ثروة طائلة، لو لم يستطع كل من الإغريق والفرس والإثيوبيين أن يتعلموا ركوب البحر . ولم تنسب المصادر الفضل لقريش في بيع عود الند أو حتى في استهلاكه في الحجاز[*].

(*) ذكرت كرون أن عود الند استخدم في الكعبة قبل الإسلام، وهنا تنفي قيام قريش بالعمل في بيع عود الند أو حتى استهلاكه في الحجاز ، وإذا كان الأمر كذلك فكيف حصلت قريش وهم تجار العرب على عود الند الذي استخدم في الكعبة ؟ راجع أعلاه . (المترجمة)

١٨ - الجنزبيل Ginger [الزنجبيل]

الجنزبيل (هو فى اللغة السنسكريتية الدارجة سيمجافيرا Simgavera وفى البوذية سينجيفيرا Singivera ، وفى اليونانية زنيجيبيرى Zingiberi ، وفى اللغة الآرامية والسورية زنجبيل Zangebil وفى العربية زنجبيل Zangab.l) وهو نبات يزرع بكثرة فى المناطق الاستوائية فى العالم القديم والجديد على قدم المساواة[١٤٧]. وذكر لأول مرة فى الأدب الكلاسيكى فى القرن الأول الميلادى، ولكن يبدو أنه عرف منذ فترة سابقة على ذلك التاريخ[١٤٨]. واشتق الاسم اليونانى له من منطقة وسط الهند . وكتب كل من بلينى وديوسكوريديس عنه فى الوقت الذى بدأت فيه الصلات المباشرة بين الهند والعالم اليونانى الرومانى، على الرغم من أنهما لم يصنفا هذا النوع على أنه هندى. وطبقًا للمعلومات التى قدماها فإن هذا النبات كان ينمو فى كل من بلاد العرب وإثيوبيا[١٤٩].

وعلى الرغم من أن الإغريق عرفوا اسم الجنزبيل من الهند فلا نستطيع أن نعرف السبب الذى جعلهم يربطونه بالعرب، إلا إذا كان الأمر متعلقًا بإخفاء العرب للمصادر الأصلية لتوابلهم[١٥٠]. كذلك من الصعب علينا أن تصدق أن الجنزبيل قد تم نقل زراعته لبلاد العرب وشرق أفريقيا، لأنه يزرع هناك اليوم[١٥١]. وقد اعتقد عدد من الكتاب المسلمين والأوروبيين فيما بين القرنين التاسع والسادس عشر أنه كان يتم زراعته هناك[١٥٢]. إضافة إلى ما تقدم فإن الجنزبيل الذى عرفه ديوسكوريديس كان طازجا، فقد ذكر أنه يجب أن يتم اختيار العيدان غير الفاسدة، وأضاف قائلاً :"إن العيدان سريعة العطب ، وكان يمكن حفظها فى بعض الأحيان" . إننا يمكن أن نقبل كل ما ذكره كل من بلينى وديوسكوريديس من الناحية الظاهرية فقط[١٥٣].

ولكن ليس معنى هذا القول أن العالم القديم كان يستورده من بلاد العرب وشرق أفريقيا. ويزيد اصطلاح زنجبيرى (Zingiberi) الأمر صعوبة ، خصوصا وقد أصبح معروفًا منذ القرن الثانى الميلادى أنه كان متوفراً فى كل من الهند وسيلان[١٥٤]. ولذلك يمكننا أن نقول إن الجنزبيل كان يتم استيراده فى البداية من الهند وسيلان،

وإن بعض أنواعه خصوصًا الطازجة منه كانت تأتي من بلاد العرب وشرق أفريقيا. إضافة إلى ما تقدم فلا يوجد في المصادر الإسلامية ما يشير إلى أن أهل مكة تاجروا في هذا النوع على الرغم من ورود كلمة زنجبيل في القرآن [الكريم] (*)(١٥٥).

١٩ - الفلفل Pepper(**)

كان من المعروف جيداً أن التجارة القديمة بين الهند والعالم اليوناني الروماني يأتي الفلفل في مقدمتها وكلمة (Piper longum) لاتينية و (Piperaceae) و (p. nigrum) لاتينية من العائلة نفسها(١٥٦). وكان يتم استيراده في القرن السادس من الهند عن طريق سيلان ومنها إلى عدن ثم إلى أدوليس (Adulis)(١٥٧). ولا يوجد في المصادر ما يشير إلى قيام العرب بلعب دور في هذه التجارة، أكثر من إتاحتهم الفرصة لرسو السفن في عدن(١٥٨)؛ لذلك لا يوجد له ذكر كبير في الرواية العربية. وفي تفسير الشيتي (Shiite) للقرآن [الكريم] الذي وضع في القرن العاشر ذكر أن قريشًا كانت تعيش على نقل الجلود والملابس والفلفل وبضائع أخرى كانت تصلها بحرا، ثم تقوم بعد ذلك بنقلها من مكة إلى سوريا(١٥٩). ويعني هذا القول أنه كان لا يتم تفريغ السفن في عدن ولكنها كانت تواصل إبحارها إلى ميناء الشعيبة حيث يتم نقلها براً من هناك.

(*) إن ورود كلمة زنجبيل في القرآن الكريم هو أكبر دليل على شهرته بينهم. وما السبب الذي يمنع أهل مكة من التجارة فيه خصوصاً أنه كان من محاصيل بلادهم كما ذكر بليني؟ إن عدم ذكره في المصادر لا يلغي تجارتهم فيه خصوصاً الطازج منه، وقد أشار ديوسكوريديس إلى أنه كان يمكن حفظ العيدان الطازجة من الفساد. لذلك فمن المحتمل أن الأنواع الطرية منه والتي تستوردها بلاد الشام كانت تأتي من الجزيرة العربية، أما الأنواع المجففة والمحفوظة في جرار فقد كانت الجزيرة تستوردها من الهند ومن شرق أفريقيا ثم تقوم بتصديرها إلى بلاد الشام. راجع النعيم، نورا، المرجع السابق، ص٢٤٠. (المترجمة)

(**) عندما حاصر ألريك Alaric ملك القوط روما الحصار الأول في مطلع القرن الخامس طلب من الرومان لقاء فك الحصار ذهبًا وفضة و« ... ثلاثة آلاف رطل من الفلفل، وكان الرطل منه يباع بخمسة عشر ديناراً ». جيبون (إدوارد): اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة، بدون تاريخ، جـ٢، ص٢٠١. (المترجمة)

ولكن هذه الفكرة تعتبر فكرة غريبة. أما بخصوص نقل قريش للجلود الحجازية والملابس إلى سوريا فهى فكرة معروفة فيما يسمى برواية الإيلاف (Ilaf) – التى سوف أعود للحديث عنها مرات عديدة فيما بعد – ومن الواضح أن هذه الروايات يسندها تقرير الكومى، ومن غير الواضح كيف استطاع أن يضيف الفلفل والبضائع الأخرى القادمة من وراء البحار . إن المرء يستطيع إذا رغب أن يدعى أن قريشا كانت تتاجر فى التوابل ، على أساس ما هو مذكور فى هذه الرواية ، وفى مثل هذه الحالة نكون قد قذفنا بالرواية الواحدة أمام كل ما هو مذكور فى المصادر الأدبية عامة(*).

بضائع شرق أفريقيا

لقد تكونت بضائع شرق أفريقيا من اللبان والمُر والقمقم (Concamum) والصمغ الجاوى (tarum) والقرفة والقرفة البرية وجوزة الطيب والجنزبيل . ولم يكن لأهل مكة دور فى تسويق هذه البضائع (حيث قام العالم اليونانى والرومانى باستيرادها منهم مباشرة) . وهو الأمر الذى لا يحتاج إلى العودة للحديث عنه . ولكن يرجع الفضل لأهل مكة فى تصدير العاج والذهب والعبيد الخاص بشرق أفريقيا ، وهذا الاعتقاد هو الجدير بالحديث عنه .

(*) إن الرواية التى ذكرتها المصادر الإسلامية والموضحة أعلاه عن تجارة العرب فى الفلفل والتى لا توافق عليها كرون، أيدها مصدر أثرى جديد، حيث عُثر على حبيبات الفلفل الأسود فى فتحتى أنف الملك رمسيس الثانى عندما أرسلت المومياء للعلاج من الفطريات التى أصابتها فى المتحف الوطنى للتاريخ الطبيعى فى باريس منذ عدة سنوات ، وهو العلاج الذى اشترك فيه عالما مصريا . فمن أين حصل قدماء المصريين على الفلفل ؟ أغلب الظن عن طريق العرب الذين نقلوه إلى سوريا من بضائع الهند مما يؤكد ما ذكره المصدر الإسلامى عن هذه التجارة على الرغم من أنه هو الوحيد الذى ذكر ذلك. راجع جريدة الأهرام المصرية ، ٢٠ أبريل عام ٢٠٠١، ص٣٨ : "رمسيس الثانى والنجاة بيد الأحفاد". وكان يتم استيراد الفلفل من السواحل الجنوبية الغربية من الهند مثل موزروى وباتيلا وعرفه الغرب منذ القرن الرابع ق.م، وحديث ثيوفراستوس عنه يدل على معرفة واسعة به، ويعد دليلا على قدم تجارة العرب البحرية. راجع : النعيم ، نورا : المرجع السابق ، والمصادر المذكورة لديها، ص٢٦٥ – ٢٦٦ . (المترجمة)

٢٠ - سن الفيل - العاج Ivory

ذكر لامينز أنه بخلاف تراب الذهب فقد كان يأتي على رأس صادرات أفريقيا العاج والعبيد . وأكد أن أفريقيا كانت تقدم هذه المحاصيل لإعادة تصديرها مرة أخرى إلى الشمال(١٦٠). ويشير لامينز إلى عدة حقائق: إن قوافل تجار مكة كانت تذهب شمالا محملة بالتوابل والعاج والذهب(١٦١). وفي مكان آخر كان يرى أن أهل مكة كانوا يعيدون بيع هذه المنتجات وكانوا يشترون في مقابلها بضائع غالية الثمن من الهند وفارس وأفريقيا إضافة للحبوب والزيت من سوريا، أو بمعنى آخر فإن العاج كان يُمكِّن أهل مكة من شراء بضائع أخرى في مقابله(١٦٢). هل معنى هذا أن أهل مكة كانوا يستوردون العاج من شرق أفريقيا لإعادة تصديره للشمال، أم أنهم كانوا يستوردونه للاستهلاك المحلي؟ وفي الواقع ليس هناك ما يدل على أنهم قاموا بأي منهما(١٦٣).

من المنطقي أن يقوم أهل اليمن باستيراد بعض العاج في العصــور القديمة ، وأن يقوموا بتوصيل بعض منه لبعض العرب من بينهم أهل مكة، ولذلك كان من الطبيعي أن يُذكر العاج في الحديث النبوي (١٦٤) [الشريف]. ولكن ليس من المنطق الافتراض أولا بأن عرب الجنوب ثم بعد ذلك أهل مكة، قاموا باستيراد العاج ثم قاموا بتصديره في قوافلهم للشمال(١٦٥). فلماذا يتم نقل العاج إلى بلاد العرب بالسفن ليتم إعادة نقله بعد ذلك بالقوافل عبر الصحراء ؟ من حسن الحظ أن جميع الأدلة تعارض هذه الفكرة . لقد استورد عالم البحر المتوسط العاج مباشرة من شرق أفريقيا (لأنه لم يكن يحصل عليه حتى الآن من الهند) حتى عصر البطالمة ، الذين اخترقوا شرق أفريقيا تحديدا لرغبتهم في الحصول على الأفيال؛ لاستخدامها في ميدان القتال في المقام الأول(١٦٦). وعندما وصلنا للقرن السادس ، أخبرنا كوزماس (Cosmas) بأنه كان يتم تصدير العاج من شرق أفريقيا عن طريق السفن البيزنطية وفارس وجنوب بلاد العرب، وحتى إلى الهند حيث كان هناك نقص في سن الفيل منذ ذلك الحين(١٦٧). وبطبيعة الحال فإنه لا يوجد ما يشير إلى قوافل تحمل العاج في المصادر الإسلامية(*).

(*) عثر على العديد من مصنوعات العاج بين الصناعات المحلية لشبه الجزيرة العربية كما تم استيراده لغرض التصدير . وقام الأنباط باستيراده ونقله إلى مصر. راجع النعيم (نورا) المرجع السابق والمصادر المذكورة ص٢٦٤ . (المترجمة)

٢١ - الذهب

إن ما ذكره لامينز عن تصدير شرق أفريقيا للذهب كان صحيحاً، ويوافق كل من بليني وكوزماس على أن شرق أفريقيا كانت تقوم بمد الإثيوبيين به[١٦٨]. ولكن لامينز هو المصدر الوحيد الذى ذكر أن إثيوبيا كانت تصدره إلى أهل مكة. وهذا لا ينفى إمكانية قيام أهل مكة بتصدير ذهب مناجم بلاد العرب نفسها، وهى تلك الإمكانية التى سوف أعود للحديث عنها فى الفصل التالى .

٢٢- العبيد

هناك حقيقة معروفة ، وهى أن عرب الجاهلية ومن بينهم أهل مكة كان لديهم عبيد بعضهم من الحبشة ، أى من مواطنى شرق أفريقيا[١٦٩]. وعلى أى حال ، فليس هناك ما يشير إلى أن مكة وليست اليمن كانت هى مركز توزيع هؤلاء العبيد فى بلاد العرب[١٧٠]. كما أننا لا نستطيع أن نفترض قيام أهل مكة بتصدير العبيد إلى الشمال، فلقد حصل البيزنطيون على عبيدهم الأفريقيين من شرق أفريقيا مباشرة[١٧١]. وسوف أعود للاحتمالية البعيدة وهى أن المكيين قاموا بتصدير عبيد عرب فى الفصل التالى .

بضائع الترف الأخرى

٢٣ - الحرير

عرف العصر القديم جيداً أن عالم البحر المتوسط كان يعتمد على فارس فى الحصول على الحرير، ومنذ القرن السادس كان يحصل على كمية منه عن طريق وسط آسيا ، وجزء آخر كان يصله بحراً عن طريق سيلان. وفى عام ٥٢٤ حاول الإمبراطور جستنيان أن يقضى على احتكار الفرس لتلك التجارة، بتشجيع الإثيوبيين على شراء الحرير

مباشرة من الهند، وليس من سيلان كما هو معروف، ولكن هذه المحاولة منيت بالفشل؛ لأن الفرس كانوا يحصلون على احتياجهم من الحرير من أحد الموانى القريبة من فارس، ربما من ميناء ضبا (Daba) ، الذى كان يلتقى فيه التجار من الهند والصين والشرق والغرب، وكانوا يقومون بشراء كل الحمولة[١٧٢]. ولكن البيزنطيين نجحوا بعد ذلك بثلاثين عاما فى إقامة صناعة للحرير خاصة بهم عن طريق تهريب دود الحرير ، وأغلب الظن أنهم جلبوه من وسط آسيا[١٧٣]. ولكن هذا لم يؤد إلى اكتفائهم الذاتى فى أول الأمر، لذلك قام الإمبراطور جستين الثانى ٥٦٥ – ٥٧٨م بمحاولة خداع الفرس بالتفاوض مباشرة مع الأتراك[١٧٤].

وعلى العكس من هذه الخلفية التاريخية فإن المرء يصاب بالدهشة عندما يعلم من لامينز وكُتّاب آخرين أن السبب فى ازدهار أهل مكة يرجع لتصديرهم الحرير للبيزنطيين[١٧٥]. وهو الرأى الذى شاع حتى أصبح يعتقد أن عرب الجنوب القدماء كانت لهم تجارة برية فى الحرير[١٧٦]. وليس من الواضح وجود أى دليل لصالح لامينز فيما ذهب إليه . وأشارت المصادر الإسلامية لشهرة اليمن فى المنسوجات هناك[١٧٧]، ولكن اليمنيين كانوا يقومون بإنتاج القطن وليس الحرير[١٧٨] ، بل من المحتمل توفر بعض أنواع من الحرير فى اليمن كما وجد الحرير أيضًا فى الحجاز . وإذا ما تركنا جانبا الأحاديث النبوية [الشريفة] عن استعمال أو عدم استعمال الحرير ، فقد ذُكر أن الكعبة [المشرفة] كانت تغطى فى أحيان كثيرة بالحرير قبل ظهور الإسلام[١٧٩]. ولكن حقيقة تداول الحرير فى الحجاز، لا يعنى أن أهل مكة كانوا يصدرونه للبيزنطيين ، بل سوريا البيزنطية هى التى كانت تعد مصدرًا لحرير العرب وليس العكس[١٨٠]. إن القصة التى يتداولها الرواة بأن هاشمًا هو الذى وضع أساس التجارة الدولية لأهل مكة بعد حصوله على إذن من الإمبراطور البيزنطى ببيع بضائع جلدية رخيصة الثمن وملابس فى سوريا كانت من الواضح أنها لم تدرك أن قريشًا كان يمكنها أن تبيع السلعة الوحيدة التى كان يريدها الإمبراطور فى حقيقة الأمر[١٨١]. ويبدو أن الأباطرة البيزنطيين الذين كانوا يحاولون الحصول على الحرير عن طريق الإثيوبيين والأتراك قد فوجئوا بأنهم

كانوا يقتربون من البرابره غير المناسبين(*). ومن المُسلَّم به أن الأدلة البيزنطية على تجارة الحرير معروفة جيداً ، فإن الأمر المثير للدهشة أن تجارة قريش في هذه السلعة قد حافظت على مكانتها مدة طويلة .

وزعمت المصادر أنه كانت هناك تجارة في الحرير بين اليمن وعكاظ وهي سوق بالقرب من الطائف، ومن الواضح أنها كانت مستقلة عن مكة . وذُكر أن النعمان بن المنذر كان يرسل قافلة بضائع لعكاظ سنويا، ويشترى مقابلها بضائع يمنية من بينها الحرير(**)(١٨٢). ومن الصعوبة بمكان تصديق ذلك ، وحتى إذا وافقنا على أن الحرير كان متاحا في اليمن بكميات معينة ، فإنه أمر لا معنى له أن يقوم النعمان بإرسال قافلة لتقصد عكاظ لشراء بضاعة متاحة بكميات أكبر وأنواع أجود من العراق. لذلك فمن المحتمل أنه كان يشترى ملابس يمنية من عكاظ ، لأن الادعاء بأنه كان يقوم بشراء الحرير، ادعاء خاطئ ، وسبق رفضه وأخطأ فيه فرنيكل (Fraenkel)(***)(١٨٣).

(*) لا يصح أن تطلق كرون أو تردد اصطلاح برابرة على العرب ، فالعرب ليسوا كذلك ، وهي إذا أعطت لنفسها هذا الحق فيحق لنا أن نطلق الاصطلاح نفسه على كل الشعوب الأوروبية والأمريكية فيما عدا الإغريق الذين استخدموا هذا الاصطلاح وأطلقوه على كل من هو غير مثقف بالثقافة الإغريقية الهللينية القديمة سواء من شعوب الشرق أو الغرب . (المترجمة)

(**) إن الأصفهاني (الأغاني) هو المصدر الوحيد الذى ذكر أن الحرير كان في اللطيمة (القافلة) التي يرسلها النعمان لسوق عكاظ محملة ببضائع الحيرة، ويشترى مقابلها بضائع يمنية من بينها الحرير ، وهناك احتمالان لا ثالث لهما في أمر هذا النص وهما على النحو التالي :
الأول: إما أن يكون هناك ثمة خطأ في النص والمقصود به القطن بدلا من الحرير، والأمر الثاني ، أن النص صحيح، فأسواق اليمن تصلها البضائع الشرقية الفاخرة كما هو ثابت تاريخيا، ولما كانت اليمن تشتهر بأنواع فاخرة من البُرد والملابس القطنية المخيطة ، فهناك احتمال كبير بأنه كان يتم فيها حياكة بعضها من الحرير، وهي تلك التي كانت تشتريها لطيمة (قافلة) النعمان من سوق عكاظ عند عودتها إلى الحيرة . ومما يرجح هذه الفرضية أنه سبق للكتاب الكلاسيكيين الإشارة إلى ملابس سكان الجزيرة المطرزة والموشاه بالذهب ، وقد ذكر صاحب الطواف أن عمانا (صحار) تصدر الثياب العربية .Periplus) (P.36، كما أشار إلى استيراد العديد من الأنسجة ، منها ما هو ثياب جاهزة ومنها ما يتم تصنيعه محليا . وهناك ما يشير إلى وجود صناعة المنسوجات في اليمن التي ظلت تكسو الكعبة حتى خلافة عثمان ابن عفان (رضي الله عنه)، كما أرسلت منسوجاتها هدايا إلى كسرى أنو شروان (٥٧١-٥٧٩م) . راجع النعيم ، المرجع السابق ، ص ١٩٤-١٩٥ . (المترجمة)

(***) كان الحرير باهظ الثمن ، ووصل سعر الرطل فيه إلى رطل من الذهب مما يدل على شدة حاجة السوق إليه ؛ لتغطية طلب الأثرياء عليه ، ولم يكن الغرب يعرف تربية دودة الحرير أو صناعة خيوطه ، وظل الأمر كذلك =

٢٤ – العطور Perfume

إن بعض السلع التي سبق الحديث عنها كانت أعشابها تستخدم في العطور وعُرفت أنواع أخرى منها من الروايات العربية خصوصاً مثل المسك والعنبر (musk, ambergris) . ولقد ظهر المسك والعنبر في أحد النصوص الخاصة بإرسال الحاكم الفارسي لليمن الضريبة لإمبراطور فارس[١٨٤]. ومن الصعوبة القول أنه كانت هناك تجارة منتظمة في هذه المنتجات بين اليمن وفارس[١٨٥]. إضافة إلى أنه لا يوجد دليل على ارتباط هذه المنتجات في المصادر بتجارة أهل مكة(*).

يبقى بعد ذلك السؤال التالي : هل كانت تجارة أهل مكة في العطور، تجارة في المنتج النهائي؟ هناك سند جيد بهذا الخصوص ، وسوف أعود للحديث عنه في الفصل

= حتى القرن السادس الميلادى، وعندما بدأت صناعته في الغرب لم تغط الخيوط احتياجات الصناعة فترة طويلة ، يضاف إلى ذلك بداية خبرتهم في هذا المجال مما أبقى لديهم الحاجة الدائمة إلى حرير الشرق الفاخر الذى ظل يأتي من الصين والهند وسيلان لفترة زمنية طويلة . وفي بداية القرن السادس كانت هذه التجارة في يد الفرس والعرب ، وكانت أحد عناصر الصراع بين الدولتين البيزنطية والفارسية على التجارة الشرقية . وعند احتدام النزاع بينهما كانت فارس تمنع وصول البضائع الشرقية إلى بيزنطة ، وهنا جاء دور العرب في هذه التجارة وفي مقدمتهم قريش. فقد كان الحرير يصل إلى أسواق العرب إما مباشرة عن طريق تجار البحر من الهنود والعمانيين، أو عن طريق أسواق الحيرة، ومن الأسواق العربية التي كانت تجارة الحرير واضحة بجلاء فيها سوق صحار والشحر وصنعاء (المرزوقي ، الأزمنة والأمكنة ، ص١٦٣-١٦٤) وقد ارتادت قريش أسواق اليمن وحضرموت إضافة إلى سوق الحيرة، وكان لقريش قوافل جرارة تذهب إلى هناك كما تحدثنا قصة الإيلاف ، لتحمل البضائع من هذه الأسواق ولاشك في أن الحرير كان من بينها لذلك لا يوجد وجه للغرابة في متاجرتهم في هذه البضاعة ، وأنها كانت أحد عناصر تجارتهم المهمة . راجع عن هذا الموضوع ، سحاب ، الإيلاف، ص٢٢٧-٢٢٨ . (المترجمة)

(*) هناك عدة بضائع أخرى كانت من إنتاج الجزيرة وقامت بتصديرها إلى الخارج مثل أغطية السلاحف والمصنوعات المعدنية والزجاجية والأواني المصنوعة من المرمر Alabaster والتمور . كما قامت الجزيرة باستيراد بضائع أخرى لاستخدامها المحلي وتصديرها مثل بعض الأنواع الجيدة من أخشاب الهند وأندونيسيا وشرق أفريقيا من أخشاب الساج والأبنوس والصندل والأرز الذى تم استيراده من سواحل الهند بهدف التصدير إلى شرق أفريقيا وعالم البحر المتوسط. وذكر صاحب الطواف أنه يتم استيراد زيت السمسم (السيرج) والسمن البلدى من شمال الهند إلى موشا في ظفار وإلى السواحل الصومالية ، وكان يصدر من الجزيرة إلى مصر. راجع: النعيم ، نورا، المرجع السابق والمصادر المذكورة ، ص٢٦٣- ٢٦٥ . (المترجمة)

التالى والذى سوف أتناول فيه كل السلع التى تتعلق بأهل مكة والتى لمستها المصادر الإسلامية . إن خاتمة هذا الفصل هى النفى الكامل . إن قريشاً لم تتاجر فى البخور أو أى من بضائع الترف الأخرى، أما إذا اعتبرت الطيوب من التوابل فهنا يستطيع المرء أن يتحدث عن تجارة قريش فى الطيوب ، ولكن هذا المفهوم لم يكن له وجود.

الحواشي

(١) لم يعد هناك وجود للبخور (اللبان الذكر) في بلاد العرب السعيدة، على الرغم من أن العطور ظلت عاملا له أهمية لدى العرب جميعًا. ويتم جلب أغلبها الآن من جزر الملاوى إلى مكة في موسم الحج (C.M. Doughty Travels in Arabia Deserta(*) I, 137) . وهذا يعني أن العرب حتى في العصور القديمة كانوا يفضلون الطيوب المستوردة على طيوبهم W.W. Muller, Notes on the use of Frankincense in South Arabia, p.126, . ومن الأمور المثيرة للدهشة ندرة الإشارة إلى البخور(اللبان الذكر) في النقوش العربية القديمة.

(٢) المرجع التالى Woerterbuch der klassichen Arabischen Sprache S.vv. لم يتضمن أى أمثلة عن اللبان والكندر Kunder ، والشيء نفسه بالنسبة لعمل موللر Muller Weihrauchالوثائقي الرائع إلا فيما يخص اللبان Lisan ، حيث أضاف فقرة واحدة عنه إذا اعتبرنا أن اللبان Luban يعني هنا اللبان الذكر Frankincense إذ يشير المصدر هنا إلى الشجرة وليس إلى إنتاجها، وجاء في تفسير هذه الشجرة أنها شجرة صنوبر (محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، ج٢٧، ص٢٦٠، لبن، عن امرئ القيس وأخرى متفرقات). أما المصادر الأخرى الخاصة باللبان Luban فهي لا تشير إلى اللبان الذكر Frankincense، ولكنها جاءت بمعنى الشجرة أو الراتنج، وينطبق الشيء نفسه على المصادر التي جُمعت من خلال نطاق قاموس الشعر الخاص بالجامعة العربية (وأدين هنا بالشكر للأستاذ كيستر M.J. Kister وكوهن Z. Cohen في تمكيني من الحصول عليه) . أما اللبان Lubna الذى ورد ذكره في J.H.Mordtmann and D.H. Muller, Sabaische Denkmaeler, p.82 فهو ليس اللبان الذكر Frankincense ، ولكنه نوع من اللادن Muller, Note on the use Storax (P.126; Jacob, Beduinenleben, p.15 وهو منتج أجنبي قام العرب باستيراده حتى في عصر بليني Natural History, x11, 81).

(٣) راجع : الأزرقي ، مكة ، ص١٠٥ وما يليها؛ ابن هشام، السيرة، ص٤٣٠ .

(٤) ذكر الواقدى أن الطيب والذهب والفضة كانت توضع في جوف صنم اللات (صنم ثقيف)، المغازى، ج٣، ص٩٧٢ .

(*) خطأ مطبعي لدى المؤلفة ، وصحتها : Desert . (المترجمة)

(٥) إنه واحد من أربعة محاصيل اعتقد الأصمعي أنه من منتجات العربية الجنوبية (أبو حنيفة الدينوري ، كتاب النبات، جزء من رسالة أحد الأقسام، رقم ٣٧٧؛ عبد الملك بن محمد الثعالبي، لطائف المعارف، ص١٢٣)، فهو ينمو على جبال ظفار وعُمان وليس على الساحل (أبو حنيفة الدينوري، قاموس النباتات (من حرف السين حتى الياء) رقم ٩٧١، وراجع أيضًا رقم ٩٧٩). ويتم الحصول عليه من إقليم شَحر Shihr ومهرة Mahra ويُصدر عن طريق عُمان وعدن(المقدسي، صفة، ص٨٧، ص٩٧، حاشية رقم ٩٨؛ V. Milnorsky (tr.) Hudud al-alam, p. 148 وهو أحد المنتجات الشهيرة التى تصدرها بلاد العرب (عمرو بن بحر الجاحظ ، المنسوب إليه كتاب التبصير بالتجارة، ص٣٥ = C.Pellat, tr., "Gahizia-na, I. Le kitab al-tabassur bil-tigara attribute a Gahiz, , 15 ويجب تجاهل تفسير بيللا Pellat عن الكندر Kunder . ولمزيد من المصادر راجع Woerterbuch, Luban, Kunder, 740 .

(٦) يذكر الطبرى ، تاريخ، مجلد ١، ص٧٢٩، ص٧٤٠ أن الذهب والمر واللبان قدموا هدية للمسيح [عليه السلام].

(٧) وردت المصادر الأساسية عن اللبان (البخور) والكندر فى Woertebuch, كما ذكر كثير منها لدى مولر Muller, Weihrauch, passin .

(٨) يذكر الطبرى أن والدة الخليفة هشام الذى كان ضعيفا من الناحية العقلية كانت تلوك الكندر حتى أصبح إحدى عاداتها (الطبرى ،تاريخ ، مجلد (٢) ، ص١٤٦٦). وقارن ذلك بما ورد لدى مولر Notes on the use, pp.130 f. وهو عن مضغ النساء والأطفال اللبان Frankincense فى عصرنا الحالى . وتنقلت مجموعات الإسماعيليين كتجار متجولين يحملون الفلفل، والنباتات العطرية والمغازل، والمرايا، واللبان Frankincense وما شابه ذلك (W. Ismaili Traditions. Concerning the Rise of the Fatimids, pp.158 f ، لاحظ أيضًا أن هذه البضائع من الأشياء التى تفضلها النساء والأطفال)(*). وظهر رجل من أنطيوخ يبيع اللبان فى كتاب محمد بن طاهر القيسرانى، كتاب الأنساب المتفقة، ص. ١٣١ كما ظهر اللبان الذكر كأحد البضائع فى مجموعة وثائق جنيزة S.D. Goitein, A Mediterranean Geniza Society, I, 154.

(٩) وطبقا لما ورد فى القائمة الكبيرة الخاصة بحِرف الأشراف لابن قتيبة، المعارف، ص٢٤٩، واعتاد أبو طالب بيع العطور أو ربما البُر(**) ، وفى رواية أخرى ذكرها أحمد بن عمرو بن رشد كتاب اللآلئ النفيسة،ص١٢٥، أنه كان يبيع العطور وربما أيضا لبان Laban ويمكن أن يكون المقصود به هو اللبان على أساس أنه يتواءم مع العطور، ولكن من الأسهل علينا أن نقول إن الكلمة قرأت خطأ بدلا من كلمة البُر.

(*) هناك فارق بين اللبان الذكر المستخدم كبخور، والذى يستخدم فى الأغراض الطبية وبين اللبان الذى تلوكه النساء والأطفال والذى يعرف باسم اللبان الحلو. حقيقة يمكن مضغ النوع الأول ولكنه مر المذاق ولذلك يفضل عليه النوع الثانى. (المترجمة)

(**) البُر : حبوب القمح دون تقشير، وما زالت هذه الكلمة مستخدمة فى المملكة العربية السعودية . (المترجمة)

(١٠) Lammens, Mecque, pp 296 ff; Rodinson, Islam et Capitalisme, pp.46, 260; Donner, Meccas food Supplies, p.223; B.Spuler, In review of Muller, Weihrauch, p.339 (وأدين بالشكر إلى الدكتور تسيمرمن F.W. Zimmermann الذى لفت انتباهى إلى هذا المرجع). ولاحظ أيضًا كيف قام بيركلاند Birkeland باستخدام ما ذكره إسترابون وبلينى لتفسير مدى انعكاس تجارة مكة فى القرآن (H.Berkrland, The ford Guidetl: Studies on Primitive Islam, P.122).

(١١) راجع .Periplus, 7f. 10.24

(١٢) وعندما ذكر تيرتوليان (Tertullianحوالى عام ٢٤٠م) أن المسيحيين استخدموا أغلب بضائع السبئيين فى دفن موتاهم أكثر مما كان يفعله الوثنيون فى عبادة أربابهم ، فهو لا يعنى طبقا لما ذكره أتشيلى Atchlayأن المسيحيين أصبحوا يحرقون البخور فى الجنازات، ولكنه يعنى أنهم أصبحوا يستخدمون قدرًا كبيرًا من الطيوب العربية ومن بينها المر فى التحنيط . وقد قدم أتشيلى نماذج عديدة لذلك من العالمين اليونانى والرومانى . وقد كُفن [من شُبه] بالمسيح [عليه السلام](*) فى كَفن من الكتان مع المُر والصبار طبقا لعادات اليهود فى الدفن .John, 19:39f

(١٣) cf. B.Laufer, Sino Iranica, pp.460 . وأدين هنا بالشكر للأستاذ شاكد S. Shaked الذى ذكرنى بهذا العمل .

(١٤) عرف كل من المقدسى والهمدانى والنويرى المر، وقد ذكر جرومان الثلاثة فى دراسته التالية:A. Grohmann, Sudarabien als Wirtchaftsgebiet, I,150f.

(١٥) E.W. Lane, An Arabic English Lexicon, s.v. murr. أما السبب فى اللبس فيرجع فيما يبدو للدينورى راجع : قاموس النباتات، رقم ١٠١١ .

(١٦) Miller, Spice Trade, pp.36,38 f., 66. 108f. وبالمثل فقد ترجمها راكمان صمغ بنيامين، وشجرة الصبار فى ترجمته لكتاب بلينى ويبدو أن ابن سينا هو السبب فى هذا اللبس . راجع : Grohmann, Sudarabien, I, 114f.

(١٧) cf. Mordtmann and Muller, Denkmaeler, pp.81ff.

(١٨) Dioscorides, Materia Medica, I, 24/23.

(١٩) Pliny, Natural History, XII, 98; Periplus, , 8 وقام شوف بترجمة كلمة كَنكامون Kankamon إلى قوبال هندى Indian Copal

(٢٠) cf. Grohmann, Sudarabien, I, 114, والمصادر المذكورة فى Woerterbuch, s.v. "Kamkam".

(*) لم تستخدم كرون فى الكتاب هذا التعبير ، ولذلك آثرت أن أضعه بين معقوفتين حرصا على أصل المتن . (المترجمة)

(٢١) Groom, Frankincense, p.142 ، الدينوري، جزء من رسالة رقم ٣٨٠ وما يليها ، ورقم ٨١٦؛ والمؤلف نفسه، قاموس، رقم ٦٤٨، ٩٦٨ .

(٢٢) Mordtmann and Muller, Denkmaeler, p.81 Prideaux وجد الضرو Drw بدون الكمكم في هذه السلة. راجع: ibid, Grohmann, Sudarabien, I, 116; G. Ryckmans, Inscriptions sub-arabes (troisieme Serie), pp.176 f.

(٢٣) . Dioscorides, Materia Medica, I, 24/23; Mordtmann & Muller, Denkmaeler, p.83

(٢٤) Thus Lewin in Abu Hanifa al Dinawari, The book of Plants (aliph to za), glossary, p.43; Grohmann, Sudarabien, S, 114,119; Groom, Frankincense, p.14. (ويعني الضرو أيضًا المرمَريّة) راجع Lewin, loc. Cit .

(٢٥) انظر أدناه حاشية رقم (١٠)، Grohmann, Sudarabien, I, 115 وطبقًا لما جاء في القاموس الجامع Woerterbuch S.V. kamkam فإن الكُمكم هو عبارة عن راتنج شجرة التربنتين؛ وهي تسمى terrebinthus وهناك رأي يصنفها على أنها شجرة البلسم العبرية Balm . وهنا يتضح خطأ ما ورد في القاموس الجامع Woerterbuch على الفور. حقيقة لقد ذكر أن شجرة التربنتين تنمو في جنوب العربية وينتج منها راتنج يشبه اللبان Frankincense كما يقول جرومان-Grohmann, Suda rabien, I, 114, (ولكن الدينوري، جزء من رسالة رقم ٨١٦، لم يستطع أن يثبت أنها كانت تنمو في بلاد العرب بأي حال) . إن الاسم الذي يطلق على شجرة التربنتين هو بُوتُوم butm وليس الضَرو darw أو الضيرو dirw والاسم الوحيد البديل لها هو babbat al khadra ؛ وقد ذكر الدينوري أن البوتوم Butm تشبه الضرو Darw ولكنه ليس هو (loc.cit) وكان يتم الحصول على راتنج شجرة التربنتين من سوريا في العصور القديمة (Theophrasts, plants, II,2:2 and passim) أو من سوريا ويهوذا والبتراء الصخرية Arabia Petraea ، وقبرص وأماكن أخرى، ولكن لم تكن اليمن من بينها Dioscorides, Materia Medica, I, 71/91; cf. also Maldenke and Moldenke, Plants of the Bible, p.178.

(٢٦) Howes, Vegetable Gums and Resins, p.138. وهو شائع في منطقة البحر المتوسط راجع: W.Walker, All the Plants of the Bible, p.129 ولكنه عمل غير أكاديمي .

(٢٧) Jawhari in Mordtmann and Muller, Denkmaeler p.83; ياقوت، البلدان ، ج٣، ص٤٧٠، مادة ضِرْوُ Darwa (*)؛ محمد ابنُ أحمد الخوارزمي ، كتاب مفاتيح العلوم، ص١٧٢(ويستخدم الجميع النص نفسه).

(٢٨) Howes, Vegetable Gums and Resins, p.158; J.C.T. Uphof, Dictionary of Economic plants, s.v. Cistus ladaniferus.

(*) والنص الذي ذكره ياقوت هو على النحو التالي :" والضِّرْوُ : شجر يُدعى الكَمكام ويجلب من اليمن". (المترجمة)

(٢٩) Herodotus, History, III, 112 ، ويتم جمع لادانوم ladanum اليوم بواسطة شد مجموعة من السيور المصنوعة من الجلد أو النسيج فوق الشجيرات وهى الطريقة نفسها التي ذكرها ديوسكوريديس Dioscorides (Materia Medica, 1,97/128) ، ويقال أنه يتم جمعها حتى الآن من ذقون الماعز التي تستطيع أن تنفذ بين هذه الشجيرات في بعض المناطق Howes, Vegetables Gum and Resins, p.158; Sigismund, Aromata, p.21; Moldenke and Moldenke, Plansts of the Bible, p.77) Pliny, Natural History, X, 73.

(٣٠) هي نوع من الشجيرات ما زالت موجودة حتى الآن وتنتشر جزئيا في غابات البحر المتوسط N.Polunin, Introduction to plants Geography, p.355.

(٣١) يقدم لوى هذا الاقتراح .I. Low, Aramaische Pflanzennamen, p.127 وتوجد أكثر تفصيلا في Id., Die Flora der Juden, I,361 ff وقُبلت الآن تلك الطابقة بصفة عامة راجع:& Moldenke Moldenke, Plants of the Bible, p.77, وعن صورة بهيجة لها راجع Walkers, All the plants, p.139.

(٣٢) Assyrian Dictionary, s.v.

(٣٣) Pliny, Natural History, XII, 74 ff; Dioscorides, Matria Medica, I, 97/128.

(٣٤) Sigismund, Aromata, p.21.

(٣٥) Herodatus, History, III, 112; Grohmann, Sudarabien, I, 116, 118.

(٣٦) صنف الدينورى اللَّذْبن ladbin على أنه من إنتاج نبات البردقوش (marzanjush (marjoram الذى لا ينمو بريا في بلاد العرب ، ولكنه ينمو بريا في غيرها Woeterbuch, s.v. ladhin, Grohmann, Sudarabien,1,118n.

(٣٧) راجع Miller, Spice Trade,pp. 94ff، ولا يُعوّل على كتاب ميللر من الناحية النباتية أو من النواحى الأخرى، ومن الصعوبة بمكان عدم الموافقة على رأى راشيكى Raschke في "New Studies, p.650.

(٣٨) وعن الاصطلاحات المساوية لذلك راجع Low, pflanzennamen, p.168; Id., Flora der Juden, I, 694 f.

(٣٩) Uphof, Dictionary, s.v.; similarly Miller, Spice Trade, p.94 وأعاد بُور Bor تصنيف نبات الأذخر C. Schoenanthus الهندى والأفغانستاني والعراقى ، وذكر أنه من النوع المعروف باسم C. olivieri (Boiss) ويرى بور أن نبات الأذخر من نوع C. schoenanthus هو النوع الأصلى ولا يوجد فقط إلا في بلاد العرب والأردن ومصر وشمال أفريقيا ومن المحتمل وجوده في العراق أيضًا N.L.Bor in k.H. Rechinger, Flora of lowland Iraq, p.39; id., Gramineae (=C.C. Townsend, F. Guest, and A.al-Rawi, eds., Flora of Iraq, IX, pp.552 f.) واكتشف الراوى بصعوبة هناك A.al-Rawi, Wild plants of Iraq with their distribution p.39; Simi-

ويبـــدو أن السـبب فى أن larly id and H.L. Chakravarty, Medicinal plants of Iraq, p.34. بور لم يضمه لقائمته فى ما نشره عام ١٩٦٨ إلى أنه كان يظن أنه لم يكتشف بعد فى العراق ، وفى عام ١٩٧٠ استـبـعـد بور وجـود النبـات فى إيران (.N.L. Bor, Gramineae /=K.H. Rechinger, ed ويبدو أنه لديه الرغبة في أن يستبعد وجوده من بلاد العرب Flora Iranica, no. 701, pp.541 ff.). أيضا (انظر حاشية رقم ٤١ أدناه) ، وشمال أفريقيا (cf. P. Guezel and S. Santa, Nouvelle وهكذا تم اختصارها إلى flora de L'Algerie, I,86; P.Ozenda, Flora du Sahara, p. 157) حد مثالي . ولكن إعادة التصنيف ليس له ثمة أثر على موضوعنا ، فمازال هذا النبات يعرف محليا باسم adbkbar فى شمال أفريقيا ويتم الحصول على الزيت منه .

(٤٠) امتد توزيع النبات من مراكش حتى السِّند قبل إعادة تصنيفه (-N.L. Bor, The Grasses of Bur ma, Ceylon, India and Pakistan, p.131) وقـــارن ذلك بالآتى .Uphof, Dictianary, s.v Cymbopogon Schoenanthus.

(٤١) D.F. Vesey- Fitzgerald, "The vegetation of Centeral and Eastern Arabia", P.780; id.; "The vegetation of the Red sea Coast North of Jeddah, Saudi Arabia," pp.553, 556; id., "Vegetation of the Red sea coast South to Jedda, Saudi Arabia", p.480. cf. also F. Blatcer, Flora Arabica (Records of Botanical Survey of India, VIII, pp. 483f (Andropogon= Cymbopogon Caesius and Jwarancusa).

(٤٢) Theophrastos, plants, IX,7:1 ومن الأحراش التى تقع خلف لبنان؛ XXI,120 والشيء نفسه Pliny, Natural History, XII, 104 من بلاد الأنباط وبابل وأفريقيا؛ Dioscorides, Materia Medica, I, 17/16 من بلاد الأنباط، والعربية، وليبيا ، وعرف الصنف العربى أحيانا بأنه بابلى؛ -Dio dorus Siculus, Bibliotheca, II, 49:2 من بلاد العرب السعيدة . أمـــا عـشب الزنجبيل فهو C. martini, وليس Scboenanthus راجع : . A.F. Hill, Ecenomic Botang, p.529

(٤٣) راجع : Miller, Spice Trade, p.96 وقد لاحظ ميللر رخص سعره، ولكنه لم يلاحظ عدم وجوده فى التعريفة .

(٤٤) إن حقيقة كون بلينى قد أنهى حديثه عن السمار الحلو بقوله : "والآن نترك البلاد التى تواجه المحيط ونعود إلى تلك التى تحيط ببحرنا"(*) Natural History, XII, 107 لا تعنى المعنى الذى حمله ميللر للجملة Spice Trade, p.96 وتمت مناقشة هذا النبات بعيداً عن معناه . لقد قام بلينى على وجه التحديد فى هذا النص بوصف نبات السمار الحلو على أنه ينمو فى لبنان، على بعد حوالى ١٧ميلا من البحر المتوسط .

(٤٥) Lane, Lexicon, s.v. ليس هناك ما يدعو إلى الظن بأن اسم نبات الأذخر izkbir اشتق من الكلمة اليونانية Skboinos، كما يقترح ميللر.(Miller, (Spice Trade, p.951

(*) المقصود به البحر المتوسط لأن كل ما كان يقع حوله وفيه كان ملكا للإمبراطورية الرومانية ، لذلك اعتاد الرومان على تسميته : "بحرنا" mari mostrum . (المترجمة)

(٤٦) Vesey- Fitzgerald, "Vegetation of the Red Sea Coast South, of Jedda", p.480. ؛البلاذرى ، فتوح ،ص١١ ؛ الأزرقى ، مكة ، ص١٢١؛ ابن هشام ، السيرة، ص ٤١٤(شعر منسوب). Gaudefroy- Demombynes, Pelerinage, pp.8f.

(٤٧) أحمد بن الحسين البيهقى ، السُّنَن الكبرى، ج٥، ص١٩٥؛ البلاذرى، فتوح، ص٤٢ وما يليها (التنظيف الطهور Tuhur بدلا من تسقيف ظهور zuhur المنازل).

(٤٨) مسلم بن حجاج ، الصحيح ، ج١٣، ص١٤٢ وما يليها (كتاب ، الأشربة ، رقم ١-٢) وكان على [ﷺ] يريد بيع السمار الحلو (الآنخر) لكى ينفق على حفل زواجه.

(٤٩) الاغانى ، ج١٢، ص١٢ .

(٥٠) راجع : ;.I.B. Balfour, Botany of Socotra, pp. 291f الدينورى، جزء من رسالة ، رقم ٢٧٦، ٣٩٠؛ المؤلف نفسه ، قاموس، رقم ٦١١؛ المسعودى، مروج ، ج٢، ص٣٦؛ ياقوت، البلدان ، ج٣، ص١٠٢٤ وما يليها ، انظر مادة سوقطرة ؛ Grohmann, Sudarabien, I,162f .

(٥١) الدِّينَورِى : جزء من رسالة رقم ٣٩٠؛ المؤلف نفسه ، قاموس ، رقم٦١١؛ Lane, Lexicon, s.v. Sa-bir التى ذكرها الدينورى ، وعن صورة لشكل النبات (على الرغم من أنها من نوع مختلف) راجع، Walker, All the plants, p.17 .

(٥٢) .The British Pharmaceutial Codex, pp.89 ff وذُكر فى أحد التقارير أن نبات الصبار كان يتم جمعه عشوائيا فى سوقطرة فى القرن التاسع عشر ، وساد الاعتقاد أن الصبار السوقطرى يأتى من شرق أفريقيا .(Grohmann, Sudarabien,(I, 164; Codex, p.41).

(٥٣) قارن ذلك بما ورد لدى مؤلف متأخر مثل يعقوب الأوديسى Jacob of Edessa, Hexaemeron, pp.138=115 f. حيث ذكر أن الطيوب تأتى من أرض سبأ، بينما لم يدعِ أحدٌ أن الصبار كان يأتى منها(وكان يعقوب يعرف كلا من اسمه الإغريقى والعربى).

(٥٤) Celsus, De Medicina, I, 3:26 ، أوصى به مادة مطهرة . كما ورد ذكره مرة أخرى فى المصادر التالية (Ibid., v,1; II, 20:2; II,6:5 f. and 24; VI, 7:2c وكثيرا ما ورد ذكره مع المر، ويذكر المترجم أنه لا يوجد ثمة دليل على أن الصبار المذكور فى هذه الفقرات يفهم منها على أنها هى شجرة الصبار، وبمعنى آخر كمادة مختلفة عن تلك المذكورة فى الفقرة الأولى . راجع cf. appendix 3

(٥٥) Dioscorides, Materia Medica, III, 22/25; Periplus, , 28 لقد ذكرت شجرة الصبار خطأ فى الترجمة ، راجع الكشاف ;p.132 المرزوقى، الأزمنة، ج٢، ص١٦٤؛ المقدسى، صفة، ص٩٧، يذكر كل من المسعودى وياقوت أن السبب فى استيطان الإغريق سوقطرة يرجع إلى رغبتهم فى الحصول على الصبار(راجع حاشية رقم ١٠٠ الفصل ٢).

(٥٦) cf. Liddel & Scott, Lexicon, s.v. kinnabri; Howes, Vegetable Gums and Resins, pp.139f. يستخدم نبات الزنجفر فى طلاء آلة الكمان.

(٥٧) Pliny, Natural History, xxx111, 116.

(٥٨) Periplus, , 30.

(٥٩) Balfour, Botany of Socotra, pp. 293f.; cf. also Grohmann, Sudarabien, I, 119f.

(٦٠) Pliny, Natural History, XXXIII, 116; Periplus, , 30; Dinawari in Grohmann, Sudarabien, I, 120 ذكر لنا أن التنين فى الهند اعتاد امتصاص دم الفيلة وأثناء انهماكه فى هذا العمل كان يُسحَق نتيجة لثقل وزن الحيوان النافق، وهكذا كان يريق دمه ودم ضحيته على الأرض. Pliny, Naturel Histiry, VIII, 32 ff. cf.xxx, 116. وعن الاسم العربى راجع: الدينورى, Lane, lexicon, s.v. dam; Grohmann, Sudarabien, I, 120. . أما أسم إيداب edab الذى ذكره بلفور Balfour, Socotra, p.293. فقد وجد أيضا فى الأدب الكلاسيكى . راجع: الدينورى، جزء من رسالة ، رقم ٣٧٦ ؛ ياقوت، البلدان ، ج٣، ص١٠٢، مادة : سُقُطرى (الأيدع).

(٦١) كانت جزيرة سوقطرة تابعة لحضرموت، لذلك كانت قنا هى ميناؤها الطبيعى، وكانت قنا تتاجر مع عُمان Periplus, 27,31 وفى عصر الدينورى كان يتم إرسال الصبر aloe إلى شَهَر Suhar التى تنطبق على عُومانا Ommana إلى حد ما ، كما تم إرساله إلى عُمان فى عصر المقدسى (الدينورى، جزء من رسالة، رقم ٣٧٦؛ المقدسى، وصف، ص٩٧).

(٦٢) ذكر صاحب الطواف دَرَقة السلاحف فقط من بين البضائع التى كانت السفن العائده من الهند تحصل عليها من سوقطرة (31) (*) .

(٦٣) Genesis 37:25; 43:11. Jereniah 8:22; cf. also Ezekiel 27:17.

(٦٤) Theophrastus, plants, IX, 6:1; Pliny, N.H., XII,111; Strabo, Geography, XVI, 2:41; Josephus, Jewish Antiquites, Ix, 7; XIV, 54, XI, 96; Id, The Jewish Wars, I, 138, 469; Diodorus Sciclus, Bibliotheca, II, 48:9; Sigismund, Aromata, pp.15f.

(٦٥) لم تعد زراعته مزدهرة الآن بعد أن قامت سلطات الخزانة الإمبراطورية بزراعته.. Pliny, NH, XII,113. Dioscorides, Materia Medica, I,19 (in the note)18. ويذكر سيجسموند أن زراعته انتقلت إلى مصر فى عصر فسباسيان(**). Sigismund, Aromata, p.15

(٦٦) راجع Laufer, Sino- Iranico, pp. 429,432 إن ما ذكره لاوفر عن سوريا لم يثبت وجوده فى أى من المصادر المحلية وطبقا لما ذكره كل من يعقوب الأوديسى Jacob of Edessa وموسى باركيفا Moses Bar Kepha فإن البلسم كان مصريا (Jacob of Edessa, Hexaemeron, p.138= 115; cf. also A. Voobus, Syrische Kanonessamm- lungen, Ia, 214 n; W. Strothmann, ed. And trs., Moses Bar Kepha, Myron Weibe, p.52=53) . وهو نبات قاصر على مصر طبقًا لما ذكره الجاحظ (تجارة ، ص٣٢=١٣، راجع أيضًا ص٣٥=١٥) وعدد آخر من المؤلفين ذكرهم البيرونى (محمد بن أحمد البيرونى، كتاب البيرونى عن الأدوية والمواد الطبية، ص٩٣ وما يليها=٧٣

(*) إلى الهند وليس من الهند . (المترجمة)

(**) الإمبراطور الرومانى فسباسيان (٦٩-٧٩م). (المترجمة)

وما يليها) ، عبد اللطيف البغدادى كرأى خاص بعبد اللطيف (كتاب الإفادة والاعتبار، والذى ترجم بعنوان The Eeaster Key,pp. 40 ff.. عرف كل من البيرونى وعبد اللطيف أنه كان ينمو فى إحدى الفترات فى سوريا، ولكن اعتمادا على المصادر الكلاسيكية فقط .

(٦٧) Laufer, Sino-Iranica, p.433.

(٦٨) cf. Theophrastus, plants, IX, 7:3; Pliny, Natural History, X11,111,123 ؛ ابن سمعان المذكور لدى عبد اللطيف، مفتاح، ص٤٤=٤٥) ويبدو أن ذلك نسخة من ديوسقورس المذكور أدناه حاشية ص٧٠ .

(٦٩) S. Brock, "Jocab of Edessa,s Dioscourse on the Myron", p.20; M.M. Ahsan, Social life under the Abbasids, p.288. وظهر البلسم المصرى فى القرن السادس. Liber Pontificalis (Atchley, "Use of Incense," p.141).

(٧٠) Diodorus Siculus, Bibliotheca, II, 48:9; Strabo, Geography, XVI, 2:41; Dioscorides, Materia Medica, 1,19/18. وهو يعادل ضعف وزنه فضة : laufer, Sino- Iranica, P.429 Celsus, De medicina, and وظهر كدواء لدى سيلسوس Celsus وهو يعادل وزنه ذهبا Budge, Book of Medicine, إن الكلمة السورية هنا ليست بلسم ولكن أفيرساما afursama.

(٧١) Groom, Frankincense, PP. 126 f; cf. also Vesey Fitzgerald, "Vegetation of the Red sea Coast South of Jedda," pp.485f. (commiphore opobalsamum).

(٧٢) يذكر أجاثارخيديس أن البلسامون ينمو على الشاطئ السبئى Agatharchides, , 97; Strabo, Geography, XVI,4:19; Diodorus Siculus, Bibliotheca, III,6.

(٧٣) كان أبوبلسامون Commiphora (or Amyris) opobalsamum هو الاسم التجارى العربى الذى أطلق على الباسبام Basbam كما لو كانت هى الشجرة نفسها التى تنمو فى فلسطين، وقد ترجم هورت Hort البلسامون balsamon على أنه البلسم المكى Meccan balsam فى ترجمته لثيوفراستوس . كما اشتهر الاسم التجارى للشجرة العربية باسم Commiphora (or Amyris) gileadensis ، كما لو أنها هى إنتاج الشجرة التى كان يحملها الإسماعيليون من الجيليد Gilead لبيعها فى مصر وأصبح الاسم التالى Balsamodendron gileodense هو الاسم التجارى الذى عرفت به النباتات الثلاث. راجع Moldenke and Moldenke, Plants of the Bible, p.84 n; Groom, frankincense, p.126 .

(٧٤) كان أحد أفضل ثمار الأرض(*) Genesis 43:11 ، وكان ضمن البضائع التى تبيعها يهوذا وأرض إسرائيل لصور Ezekiel 27:17 وهو عادة يصنف على أنه نبات الزَّقّوم المصرى Balanites aegyptiaca (L) Delile ، وهى شجيرة دائمة الخضرة أو . Pistacia lentiscus أو شجرة المصطكى

(*) أو كان "أفضل فاكهة الأرض" . (المترجمة)

أو Pistacia terebinthus شجرة التربنتين Moldenke and Moldenke, plants of the Bible, pp.55; 84,177f.; Hepper in Groom, Frankincense p.249, n.20; وعن صورة للنبات راجع Walker, All the plants, pp.29,129,221 ، وهناك عدد من الباحثين الذين يعتمدون على نصوص الإنجيل في الإشارة إلى منتجات أخرى عديدة.

(٧٥) انظر الحواشي أعلاه رقم ٤٦-٦٦؛ Theophrastus, Plants, IX, 6:4 ويُذكر أن البلسم balsam لم يعد ينمو بريا في أي مكان.

(٧٦) قارن ما ذكره بليني في Pliny, Natural History, XII,112ff. حيث فند ما ذكره ثيوفراستوس Plants,Ix, 6:1 ; Groom, Frankincense, ; Theophrastus, plants, IX, 6:3 pp. 126, 127, 129 ؛ ويرى بليني أن حموضة النبات تعد دليلا على أنه مغشوش .

(٧٧) Abd al-latif, Key,pp.42, 44=43,45 (*) cf. Pliny, NH., x11,116 ff.; عن البلسم اليهودي والمصري Schweinfurt in low Groam, عن الشجرة العربية Flora der Juden, I, 300 Frank-incense, p.127.

(٧٨) Groom, Frankincense, p.127.

(٧٩) ناقش البيروني البلاسان balasan دون الإشارة إلى الباسبام Basbam مطلقا، بينما قام عبد اللطيف البغدادي بوصف البلاسان balasan المصري على أساس ملاحظته الشخصية وقطع بأنه يختلف عن الباسبام العربي Biruni, Pharmacy and Materia Medica, pp.93f.=73ff; ، (عبد اللطيف ، مفتاح ، ص٤٤،ص٤٥).

(٨٠) Josephus, Autiquities, VIII, 174. نمت الشجرة اليهودية من (بذور الشجرة العربية) التي أهدتها ملكة سبأ لسليمان [عليه السلام] Abd al-latif, key, p.44=45

(٨١) CF. R.C. Steiner, The case for Fricative- laterals in Proto- Semitic, pp. 123 ff

(٨٢) قارن ما ذكره بليني NH., XII,112:117 الذي استنتج حدوث تغيرات في زراعة النبات .

(٨٣) See Hepper in Groom, Frankincense, pp. 129,250 n.33.

(٨٤) الدينوري ، جزء من رسالة رقم ٨١١؛ الأزرقي، مكة ، ص٣٧٤؛ راجع الدينوري، جزء من رسالة رقم ٨٣٥ .

(٨٥) عبد اللطيف، مفتاح، ص٤٤ .

(٨٦) Groom, Frankincense, pp.126f., 130; cf. Jacob, Beduinenleben, p.15.

(٨٧) cf. Muller, Weihrauch, Col. 717; Miller, Spice Trade, p.102; A.H.M. Jones, "Asian Trade in Antiquity", p.4 لاحظ جروم – وهو محق في ملاحظته – أن العرب القدماء ربما لم يروا

(*) عن كتاب عبد اللطيف البغدادي ، انظر قائمة المصادر . (المترجمة)

أن نبات الباسبام يستحق القيام باستغلاله ، هذا على الرغم من أن هذا لا ينفي أن بعضاً من راتنج الباسبام ربما تم تصديره تحت اسم المر التجاري Frankincense, p.131 ولكن من الصعب الاعتقاد بأن الخبراء القدامى قد خلطوا بين الصمغ الذي لا طعم له وصمغ وراتنج الصبار.

(٨٨) cf. Lane, Lexicon, S.V. balasan baramayn؛ مع الإشارة للفارق بين النوع المعروف باسم Yanbu,): Grohmann, Sudarabien, I, 156; cf. Jacob, Beduinenleben, p.15.

(٨٩) Sigismunl عن المذاق Low, Flora der Juden, I, 300; cf. also Groom, Frankincense, عن الرائحة p.127 Aromata, p.17 وعندما يتم حرقه تشبه رائحته المطاط الهندي .

(٩٠) British Pharmaceutical Codex, pp.94 ff. وعن دراسة مسحية لها فائدتها لمعرفة خصائص الأنواع المختلفة منه راجع: J.M.Watt and M.G. Breyer- Brandwijk, the Medicinal and Poisonous plants of Southern and Eastern Africa, pp. 566ff.

(٩١) ويرى والكر أنهما متماثلان.Walker, All the plants, p.48

(٩٢) Grohmann, Sudarabien, I, 161; Vesey. Fitzgerald, "Vegetation of the Red Sea Coast, North of Jedda", p.553; Lewin in his glossary to Dinawari, plants, p.39, British Pharmaceutical Codex, p.945. الأزرقي، مكة، ص٣٧٤؛ البلاذري، فتوح ، ص٤٥ .

(٩٣) المقدسي، وصف، ص٩٨؛ وراجع: الدينوري، قاموس النباتات، رقم ٥٤٣؛ Low, Pflanzennamen, p.384; British pharmaceutical Codex, p.945. وليس معنى هذا القول أن السنا Senna الذي يندرج تحت هذا الاسم يأتي بالضرورة من مكة .

(٩٤) Lammens, Mecque, p.299.

(٩٥) الدينوري، قاموس النبات، رقم ٥٤٣ . ويوجد كذلك في: Lane, Lexicon, s.v. Sana، البلاذري، فتوح، ص٤٥ .

(٩٦) C. Martius, Versuch einer Monographie der Sennasblatter pp. 24ff. انتقلت هذه المعلومات الطبية من المسلمين إلى البيزنطيين ومنهم إلى غرب أوروبا .

(٩٧) Pliny, Natural History, XII,35f; Dioscorides, Materia Medica, I, 67/80; Periplus, ,, 37,39,48f (bdella).

(٩٨) راجع Assyrian Dictionary, s.v. budulhu (ويقترح أن أصل هذه الكلمة آرامي دخل إلى اللغة البابلية الحديثة) B. Meisner, "Bdolah," pp. 270f.

(٩٩) Low, Pflanzennamen, p.359.

(١٠٠) Pauly- Wissova, Realencyclopadie, s.v. Myrrha, Col. 1141 (C.roxburgbiana الاسم المذكور هنا هو أحد الأسماء التجارية الرسمية للمُوقل C.mukul؛ Miller, Spice Trade, p.69; Uphof Dictionary, S.V. Commiphora Mukul; cf. also Low, Flora der Juden, I, 304.

(١٠١) راجع حاشية رقم ٩٧ أعلاه .

(١٠٢) Groom, Frankincense, p. 124; W.A. Talbot, The trees, shrubs and woody climbers of the Bombay Presidency, p.69 حيث عرف النوع الأصلي منه باسم Balsamodendron Kunth) بدلا من اسم Jacqs commiphora ، حقيقة لقد وصف الدينورى راتنج هذه الشجرة بأن له رائحة طيبة (قاموس، رقم ١٠٣٨)، ولكن الفرس كانوا يطلقون عليه "رائحة اليهود" (bu-yi Jabuden), cf. Biruni, Pharmacy and Materia Materia Medica, p.350-307) ولذلك يبدو أن الدينورى قد جانبه الصواب في هذا الجانب .

(١٠٣) Groom, Frankincense, p.124. لقد استخدمه كل من العرب والفرس في التبخير للشفاء من مرض البواسير ومن أمراض أخرى .

(١٠٤) راجع حاشية رقم ٩٧ أعلاه .

(١٠٥) A. Parsa, Flore de L'Iran, II,3F.K.Rechinger, Burseraceae, pp. 1 f. وفيه تم إطلاق اسم تجارى جديد على الأشجار Tallot, Trees, shrubs and woody climbers, p.170 وهو صمغ لا رائحة له وينوب في الماء؛ لا مذاق له D.Brandis, the forest Flora of North. West and central India, p65 ويبدو أن هذه المشكلة لم يلاحظها أحد من قبل .

(١٠٦) عثر التجار الفينيقيون الذين صاحبوا جيش الإسكندر على كثير من المُر عند فتح جيدروسيا Arrian, Anabasis, Gedrosia VI,22:4 ويرى جيروم أنه عبارة عن راتنج البيدلليوم bdellium وليس المر الأصلي. Frankincense, pp.115 f وإذا كان يشبه المُر فيمكن أن نقول بصعوبة أنه يمثل نوعي الكُميفورا Commiphora التي توجد في إيران الآن. ويعتقد سيجسموند Sigismund, Aromata, pp.19f. أن بعض البديلليوم الذي وصل إلى العالم الكلاسيكي كان في حقيقته هو صمغ بنيامين، وهو بعيد عن إنتاج الشرق، ولكن هذا القول لا يحل المشكلة، لأنه من الواضح أنه إنتاج قومي لإيران وشمال غربي الهند .

(١٠٧) وليس من شرق أفريقيا التي كانت تنتج أنواعا عديدة من نوع Commiphora الذى ينتج منها البديلليوم ذو الرائحة راجع Uphof, Dictionary, S.V Commiphora abyssinica, C. africana, C.erythraea, C.hildebrandti i, and C.kalaf, وكثيرا ما يقال أن bdolab المذكور في التوراة هو محصول تلك الأشجار Meisner, "Bdolah", pp. 270 f., Moldenke and Moldenke, Plants of the Bible, p.81) وكانت تحمل اسم المر عندما يتم توزيعها في السوق الرومانية Groom, Frankincense, pp. 123 f.)..

(١٠٨) Diescorides, Materia Medica, I, 67/80; Jastrow, Dictionary, s.v. bdolab (Genesis Rabba 2:12) وردّ في الترجمة السبعينية للتوراة نحاسى antbrax في سفر التكوين (٢:١٢) وشفاف Krystalles في سفر الأعداد (١١:١٧) وعن استخدام البيدلليوم عند الصيادلة راجع أيضًا Celsus, De Medicina, and Budge, Book of Medicine, indices.

(١٠٩) عرف ديسكوريديس، عدة أنواع من البيديلليوم، وصنّفَ النوع الذى يعطى رائحة طيبة بأنه شفاف، بينما صنف بليني النوع الذى يتم الحصول عليه من الهند والبتراء بأنه أسود اللون .

(١١٠) عرفه الدِّينَوري الذى صحح تصنيف المُوكل الطبى بأنه راتنج يشبه اللبان .Dictionnaire, no
1,038)؛ وقد ظهر في المؤلفات الخاصة بالأدوية ويبدو أنه حدث خلط بينه وبين ثمرة شجرة الدوم
(راجع: البيروني، الصيدلة والمواد الطبية، ص٣٥٠ وما يليها= ٢٠٧ وما يليها) ; W.Schmucker, Die
pflanzliche und mineraliscbe Materia Medica im Firdaus al-Hikma des Tabari,
pp.483f; Grohmann, Sudarabien, I, 155; below, n.112).

(١١١) المقدسي، صفة، ص٨٣ ذُكر في النص المروة Marwa بدلا من ذى المروة .Dhu L-Marwa

(١١٢) -A. al.Wohoibi, The Northern Hijaz in the Writing of the Arab Geoqraphers, 800
1150, pp.154 f; and Groom, Frankincense, p. 124؛ وراجع الدينوري، قاموس ، رقم ١٠٢٨،
(المُوقل الطبى هو راتنج شجرة تشبه اللُبان الذكر، أما المُوقل muql فهو ثمرة الدُوم وهى شجرة تشبه
شجرة النخيل). المؤلف نفسه، النباتات، رقم ٣٧٦ (عن شجرة النخيل، راجع المؤلف نفسه رقم
٢٠٨،٢٦١،٧٢،٥٢،٢٩ وما يليها)؛ ابن المجاور، صفة،ج ١، ص٥٤؛ مسعودى ، مروج، ج١ص٦١(حيث
تصنف واحدة من بين عشر أشجار تنتج ثمارها نوى، أحضرها آدم [عليه السلام] معه من الجنة)والدوم
هو نخل طيبة (راجع:-Lane, Lexicon, s.v.), or Hyphaene Thebaica, Palmaceae (cf. Up
hof Dictionary, s.v. حيث قُدمت معلومات غير مقنعة عن الشجرة، ويبدو أن السبب في ذلك يرجع
للخلط بين هذه الشجرة والشجرة التي تسمى .Hyphaene coriacea التي وصفها الكتاب
الكلاسيكيون (راجع F. Woenig, Die Pflanzen in alten Aegypten, p.315) . إن استخدام
كلمة موقل Muql لكل من الراتنج والثمرة أدى إلى لبس لا نهاية له . لقد كان البيروني محقا في قوله إن
الموقل بمعنى الراتنج عرف باسم جُوجل gugul في الهند، كما ذكر المتخصصون أن المُوقل هو ثمرة
الدوم كما لو أنها تحتوى على المادة نفسها، ونتيجة لذلك أصبح المُوقل المكى muql Makki هو ثمرة
الدوم المستورد من الهند .Pharmacy and material medica, pp.350f. =307f وشارك أبو الخير
Abu l-khayr في تصنيف المُوقل المكى على أنه راتنج الدوم، وهذا يعنى أن مكة تعد هى ذلك المكان
الذى يتم الحصول منه على الراتنج من شجرة النخيل .Low, Flora der Juden, I, 303; cfويوجد
ما يؤدى إلى لبس أكثر في .ibid., p. 305

(١١٣) الجاحظ ، الرسالة الثالثة، ص٦٣ وسوف أعود لهذا الافتراض في الفصل الثامن.

(١١٤) راجع : الدينوري، النباتات، رقم ٣٧٦ .

(١١٥) ,.cf. The testamonia in Sigismund, Aromata, p.36; Miller, Spice Trade, pp.37f
67f., 71ff.

(١١٦) .Miller, Spice Trade, pp.37f., 67f., 71ff.; cf. also Warmington, Commerce, pp
184 f.; Uphof, Dictionary, تحت الاسم المشار إليه.

(١١٧) .H.N. Ridley, Spice, p. 326

(١١٨) -Theophrastus, plants, IX, 7:2; Pliny, N.H., XII,48 ff.; Dioscorides, Materia Medi
ca, I, 615 and 15/14;69,73 عن أدلة من الشعر.Miller, Spice Trade, p.98

(١١٩) Pliny, Natural History, XII, 48 f. لم يتضح من خلال ما قدمه ديوسكوريديس أن الإنتاج كان يتم الحصول عليه من الأوراق ، ويتضح من ذلك أيضًا أنه ليس له علاقة بحبوب الفُلاف cf. Materia Medica, I, 15-14: ذات اللونين الأحمر والأخضر الباهتين، فهى لينة الملمس وخشبها مملوء بالعروق .

(١٢٠) Pliny, NH., XII,50.

(١٢١) Theophrastus, plants, IX ، ويبدو أن النص قد خُرب هنا كما أوضح الناشر Pliny, NH., XII, 135; Miller, Spice Trade, pp.58ff., حيث وضع النبات الذى ذكره ديوسكوريديس وآخرون ليحل محل قشر جوز الطيب.

(١٢٢) Uphof, Dictionary, s.v. Nardostachys jatamansi; Miller, Spice Trade, pp. 88ff.

(١٢٣) Miller, Spice Trade, p.91; G. Watt, the Commercial Products of India, p.792; الخوارزمى ، مفاتيح ، ص٢١٩ ، وهنا وصفت جذور السنبل الهندى فى القائمة دواء تحت اسم ضرو أصبهان ، بينما وضعت فى مكان آخر تحت اسم أسبلاتوس Aspalatos راجع Low, Pflanzennamen, pp. 340 f. وعن صورة للنبات راجع: Walker, All the plants, p.197 إلا أنه ذكر خطأ أن اسم nardostachys يشير إلى شكل الزهيرة .

(١٢٤) Song of Songs, 1:12; 4:13f. طبقًا لما ذكره ميللر فى Spice Trade, p.90 فقد ثبت وجود النرد Nard لدى الأكاديين Akkadian lardu. طبقا للاقتراح الذى قدمه إيبلنج F.Ebeling, "Mittelassyrische Rezepte zur Bereitung von Wohlriechen den Salben," p.137, وآخرون ، ولكن هذا الاقتراح لم يُصدق عليه فى القاموس الاشورى . Assyrian Dictionary

(١٢٥) Pliny, N.H., XII,45; Dioscorides, Materia Medica,I,716; وكلاهما يعرف أنواع النرد الأخرى. Periplus, ,, 39,48f.,56,63.

(١٢٦) Cosmas, Topographie, XI,15. وعن استيراد البيزنطيين للنرد nard فى القرن العاشر راجع حاشية(٧١) الفصل الثانى.

(١٢٧) Arrian, Anabasis, VII, 20. 2; Strabo, Geogrophy xv, I:22, cf. Ibid., XVI,4:25.

(١٢٨) Miller, Trade spice, p.90 مع مصادر النرد الجيدوسى؛ أما الأنواع العطرية من فصيلة Cymbopogon فقد كانت شائعة فى بلاد العرب (راجع الحاشية رقم (٥) أعلاه عن الأنواع العربية)، Grohmann, Sudarabien, I, 159.

(١٢٩) Pace Jones, "Asian Trade", p.4. وعلاوة على ذلك فيبدو أن النرد في الأصل كان يأتي عبر الطريق البرى من وسط آسيا وفارس ، راجع Low, Pflanzennamen pp.368f.

(١٣٠) راجع cf. Low, Pflanzennamen, pp.368f.; Lane, Lexicon (listed under both sbl and snbl).

(١٣١) Uphof, Dictionary, s.v. Saussurea Lappa; Low, Pflanzennamen, pp. 357. ; Woerterbuch, s.v. kust; Lane, Lexicon, s.v. qust; Miller, Spice Trade, pp.84ff.

(١٣٢) Theophrastos, Plants, IX, 7:3; Pliny, NH. X11, 41; Periplus, 39,48; Cosmas, Topographie, XI,15.

(١٣٣) Dioscorides, Materia Medica, 1, 16/15; Diodorus Siculus, Bibliotheca, II, 49:3.

(١٣٤) Lane, Lexicon, S.V.

(١٣٥) Mordtmann and Muller, Denkmaeler, p.81; Ryckmans "Inscription Sub-arabes," p.177. cf. A.J. Wensinck and others, Concordance et indices de la tradition musulmane s.v. qust.

(١٣٦) Mordtmann and Muller, Denkmaeler, p.84; Lane, Lexicon s.v. qust ، وتعتمد المعلومات هنا على ما ذكره ديوسكوريديس.

(١٣٧) Uphof, Dictionary, s.v. Aguillaria agallocha; Miller, Spice Trade, pp. 34ff., 65ff. وهناك أنواع عديدة أخرى استخدمت بطرق مماثلة وكان كل من الإغريق والرومان على عكس الهنود والعرب الذين لا يستخدمونها كثيرا فى التبخير .

(١٣٨) راجع الملحق رقم (٢).

(١٣٩) Dioscorides, Materia Medica, I, 22/21; Cosmas, Topography, XI, 15 .

(١٤٠) وعن المصادر العديدة الخاصة باستخدام خشب الصبار راجع Aga- Oglu, "About a type of Islamic Incense Burner" p.28. وكان خشب الصبار Aloe-Wood هو أحد المنتجات التى استوردها التاجر عبادى فى القرن الثامن من الصين T. lewicki, "Les premiers Commercants arabes en Chine", pp.179f. . وقد عرف الكتاب الكلاسيكيون وكتاب العصور الوسطى أنواعا عديدة من خشب الصبار.Lewicki, loc. Cit.; Minorsky, Hudud al-alam, pp.86f؛ الجاحظ ، التجارة، ص٢٢=٧، عبد الملك بن محمد الثعالبي، ثمار القلوب ، ص٥٥٣؛ المؤلف نفسه : لطائف، ص١٣٩، ١٤٦ وهو أحد البضائع المشهورة فى العصور الوسطى (Goitein, Mediterranean Society, I, 154; S.V. Labib, Handelsgeschichte Aegyptens in Spaetmittelalter, pp.3.49,130,193). وكان ما يزال له شهرته فى بلاد العرب خلال القرن التاسع عشر Doughty, Travels, I, 137; Groom, Frankincense, p.121).

(١٤١) Jacob, Beduinenleben, p.12; Woerterbuch, s.v.kiba,

(١٤٢) الأزرقى، مكة، ص١٧٦ وما يليها، ص١٠٥ وما يليها؛ وقارنه بما ورد لدى ابن هشام ، السيرة، ص٤٣٠ .

(١٤٣) الأزرقى ، مكة ، ص١٧٩ .

(١٤٤) cf. Noldeke in Low, Flora der Juden, III, 414; . الدينورى، جزء من رسالة رقم ٨٢٧ وما يليها، وعرفت بأنها كانت تسمى باسم ألوا aluwwa وألوى aloe؛ المؤلف نفسه، معجم، رقم ١١١٦؛ راجع ابن سعد : الطبقات ، ج١،ص٤٠٠، الطبرى، تاريخ، مجلد(١)، ص١٥٧١؛ Wensinck, Concordance s.v. al-ud al-hindi.

(١٤٥) Lane, Lexicon, s.v. rand Lane, Lexicon, s.v. rand وهناك من يرى بأنه ريحان الشام وشجرة الفار .Mordtmann and Muller, Denkmaeler, pp.81f ورفض جروهمان الاقتراح المقدم ص٧٢ بأن كلمة rana هي تحريف للنرد nard راجع.Grohmann, Sudarabien, I, 158 f Lane, Lexicon, s.v.v.. qust, bakhur.

(١٤٦) يذكر في إحدى قوائم الضرائب التي أرسلها الحاكم الفارسي لليمن إلى الملك الفارسي أن العود Ud كان من بين الهدايا التي قدمها للملك (الأغاني، ج١٧،ص٣١٠).

(١٤٧) Uphaf, Dictionary, s.v. Zingiber officinale; Low pflanzennamen, pp.138 f.; A.S.C. Ross, Ginger, A Loan Word study; Miller, Spice Trade, pp.53ff.

(١٤٨) ثبت وجوده لأول مرة في Celsus, De Medicina, V,23:3 وتم تحضير الترياق (مضاد للسموم) منه في عام ٨٠ق.م ، راجع .Muller, Spice Trade,p.5

(١٤٩) Ross, Ginger, p.19; ويمكن صرف النظر عن الاشتقاق الذي قدمه موللر في Spice Trade, p.56 Pliny, N.H., XII,28, Dioscorides, Materia Medica, II, 160/190.

(١٥٠) كما فعل وارمنجتون .Warmington, Commerce, p, 184

(١٥١) يذكر موللر أنه كان من عادة الصينيين وضع الزنجبيل في أوعية وحمله على سفنهم Miller, Spice Trade, p.54 ويبدو أن آخرين فعلوا الشيء نفسه Watt and Breyer- Brandwijk, Medicinal and Poisonous plants, p.1,063 (East Africa); Miller, Spice Trade, p.108n (Ethiopia), Ross, Ginger, p.41 (Ethiopia and Arabia).

(١٥٢) .Ross, Ginger, pp.40ff كان كل من الدينوري وابن المجاور وعبد اللطيف هم مصدر الرواية الإسلامية، والاثنان الأولان أبرياء من الرواية الكلاسيكية . راجع Biruni, Pharmacy and Materia Medica, p.207=169; Laufer, Sino-Iranica, p.545 وقد أعاد لين Lane المعلومات التي أوردها الدينوري.Lane, Lexicon, s.v. zanjabil

(١٥٣) وبالمثل لدى موللر .Spice Trade, pp.107f، على الرغم من أنه يرى أن الزنجبيل كان يصل العالم الكلاسيكي عن الطريق نفسها من ملايا Malaya إلى مدغشقر ويرى أنه كان يتم الحصول منها على القرفة أيضاً .pp.56f

(١٥٤) وضعت في قائمة بطلميوس من بين منتجات سيلان Geographica, ed.C.F.A. Nobbe, VII, 4:1)، واقتبس ابن البيطار قول جالن أنه كان يتم إحضاره من الهند، عبد الله بن أحمد البيطار: الجامع الكبير، ج١، ص٥٢٨)، ولكن لم يرد له ذكر في كتاب الطواف Periplus أو لدى كوزماس Cosmas .

(١٥٥) (وَيُسقَونَ فِيهَا كَأسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً) سورة ٧٦ (الإنسان) آية١٧ (من القرآن الكريم)، ولم يكن لدى المفسرين الرغبة في الحديث عن ذلك(*).

(*) يعد شراب الزنجبيل من الأنواع المعروفة في الجزيرة العربية بصورة متواصلة بين العصور القديمة والمعاصرة ، لذلك فإن المعروف والشائع لا يُعرَّف عادة . (المترجمة)

(١٥٦) وعن بداية التجارة راجع Tarn, Greeks in Bactria, pp. 370 ff ، وعن طبيعة تلك التجارة فى العصور الكلاسيكية راجع Warmington, Commerce, pp.181 ff ؛ وعن التجارة بشكل عام راجع Miller, Spice Trade, pp.80 ff ، وعن الفلفل الطويل Piper longum والفلفل القصير P.migrum وعن النبات المقصود راجع Uphaf, Dictionary, s.vv .

(١٥٧) Cosmas, Topographie, XI,15f.

(١٥٨) Pace Rodinso, Mohammed, p.20 .

(١٥٩) أبو الحسن بن على بن إبراهيم الكومى، تفسير ، ج٢ص٤٤٤، وأدين بمعرفة هذا النص للأستاذ كوك M.A. Cook.

(١٦٠) Lammens, Mecque, p. 300 .

(١٦١) Donner, "Mecca's food Supplies", p.254 وما زعمه لامينز ردده حتّى فى : Hitt, Capital Cities, p.7 .

(١٦٢) Lammens, "Republique Merchande", p. 47.

(١٦٣) إن المصدر الذى استخدمه لامينس يعد أنموذجا لمنهجه فى العمل. ففى ص٢٠٤ فى كتابه "مكة" أورد ما ذكره بلينى N.H., II,173 عن وصف المركز التجارى فى شرق أفريقيا الذى كان يتم إحضار العاج والبضائع الأخرى إليه قبل خمسمائة عام من ظهور الإسلام: T.Noldeke, Neue Beitrage zur semitischen Sprachwissenschaft, p.6 حيث ذكر بشكل عام أن المكيين كانوا يتاجرون مع الأحباش، وكانوا يقومون بإحضار العبيد وبضائع أخرى منهم. ويعتقد فرنيكل Fraenkel, Fremd-woerter, p.177 أن ملك الحيرة قام بإحضار سن الفيل الحبشى، والعبيد والجلود إلى بلاد العرب . فالمصدر الأول أخطأ فيما يخص الفترة الزمنية، والثالث أخطأ فيما يخص المكان بينما النص الذى ذكر مكة فشل فى أن يذكر سن الفيل. كما أن المصدر المذكور فى "Republique Marchande", p.47n, فشل بالمثل فى ذكر سن الفيل، إن أغلب القوافل كانت تحمل مواد غذائية لمناطق مختلفة وإلى المدينة بصفة رئيسية.

(١٦٤) راجع: Wensinck and others, Concardance, s.v. aj

(١٦٥) وعن الرأى القائل بأن عرب الجنوب قاموا بتصدير سن الفيل براً راجع: Rodinson, Mohammed, p.20 .

(١٦٦) Kortenbeutel, Osthandel, passim; cf. also M.P. Charlesworth, Trade Routes and commerce of the Roman Empire, pp.58,64 وضعت النصوص المرتبطة بالموضوع وترجمت بطريقة مناسبة فى Periplus, Appendix, 5 .

(١٦٧) Cosmas, Topographie, x1,23.

(١٦٨) Pliny, N.H., VI,173; Cosmas, Topographie, II,50 ff. According to N. Chittick, "East African Trade with The Orient", p.101 . إن تجارة شرق أفريقيا فى الذهب لم يكن لوجودها (الدولى) أهمية حتى القرن الرابع عشر أو بعده .

(١٦٩) إن بلال ، والوحشي وصالح السكران كانوا عبيداً أحباشاً ، تم تحريرهم علي يد عدد من المكيين (بلال ابن رباح EI2, s.v. Bilal b. Rabah؛ ابن هشام ،السيرة ، ص٥٥٦؛ ابن سعد ، الطبقات، ج٣،ص٤٩). وكانت والدة الشاعر عنترة حبشية (من أسلاب العرب) (الأغاني، ج٣،ص٢٣٧، ٢٤٠) ، وكان عبد الله بن أبي ربيعة وهو مكي يمتلك أعداداً كبيرة من العبيد الأحباش الذين كانوا يمارسون حرفا عديدة (المرجع السابق ج١،ص٦٥) وقد وجد ابن حبيب أنه من المناسب القيام بتصنيف قائمة كاملة من أبناء الحبشيات في مكة وأماكن أخرى (المحبر، ص٣٠٦ وما يليها).

(١٧٠) ولم يُذكر أن أحدا من المكيين قام بشراء عبيد أحباش من الحبشة حسب أفضل ملعوماتي . أما عبد الله بن أبي ربيعة الذي كان يمتلك أعداداً كبيرة من العبيد الأحباش والذي سبق ذكره في الحاشية السابقة فيبدو أنه قام بإحضارهم من اليمن ، وهو المكان الذي ذكر أنه كان يقوم بالتجارة فيه (الأصفهاني، ج١، ص٦٤) ويبدو أن بلالاً أحضر من السراة إلي مكة بدلا من حضوره من الحبشة مباشرة، ابن سعد ، الطبقات، ج٢، ص٢٣٢؛ وهناك رأي آخر يذكر أنه ولد في العبودية في مكة ;cf.EI2 s.v، ويبدو أن أعداداً أخرى من العبيد الأحباش قد قدموا لمكة من المنطقة نفسها. (انظر حاشية رقم ٩٠ أدناه). وقد ذكر لنا أن إحدى الإماء السود تم شراؤها من حُباشة Hubasha، وهي سوق تقع في تهامة (ياقوت، البلدان، ج٢،ص١٩٢ وما يليها). ولكن القصة المذكورة تذكر أنها سوق بني قينقاع في المدينة). ولم يرد ذكر لقيام زوار مكة بشراء عبيد زنوج منها .

(١٧١) .Cosmas, Topographie, II, 64 إن أغلب العبيد الذين نعرفهم جاءوا من هؤلاء القوم، وحتى الآن يمكن وجود بعض منهم في يد التجار هناك، فمن المعروف أن عقود العبودية لم تكن موجودة في أواخر عهد الإمبراطورية(*) في الغرب فقط ولكن في الشرق أيضاً .

(١٧٢) .Procopius, Wars, I, 20,9 ff يذكر بروكوبيوس أن الفرس وصلوا أولا لأنهم سكنوا المناطق القريبة. ويرى أنهم حكموا سيلان. وعن ضَبَا Daba راجع : الفصل الثاني ص٦٢ وما يليها. وهذا لا يعني أن الأحباش لم يكن لديهم رغبة في التجارة الشرقية كما ذكر سميث -Smith, "Events in Ara bia", p.463.

(١٧٣) Procopius, Wars, VIII, 17; cf. R. Henning, "Die Einfuehrung der Seidenraupen-zucht ins Byzantinerreich,".

(١٧٤) Menander Protector in Kortenbeutel, Osthandel, pp.78f.; Henning "Einfueh-rung", pp. 303,310.

(١٧٥) Lammens, Mecque, p.299; followed by Watt, Muhammad, Prophet and States-man, p.I; Hitti, Capital Cities, p.7;Aswad, "Social and Ecological Aspects", p.426; Donner, "Meccas food supplies", p.250. and apparently even by Bulliet, Camel and the wheel, p. 295, n. 40.

(*) أي خلال عصر الإمبراطورية الرومانية : (٢٣ ق. م – ٤٧٦م) . (المترجمة)

(١٧٦) وكــذلك رودنســون Rodinson, Mahammed, p.20 ودوى Doe, Southern Arabia, p.52
ولا يوجد طبقًا لمعلوماتي أى دليل على بيع عرب الجنوب الحرير للإغريق والرومان .

(١٧٧) فى الواقع إن الأدلة التى ساقها لامينز لا توضح أكثر من ذلك . ولقد وصُف أبو لهب بأنه يرتدى عباءة عدنية فى منى(ابن هشام، السيرة، ص٢٨٢،٨١٥) . وورد ذكر العباءات اليمنية مرات عديدة فى النصوص المرتبطة بعصر قبل الإسلام والعصر الإسلامى المبكر (راجع المصدر السابق، ص٢٢٩، ٨٣٠؛ الأغانى ،ج١،ص٢٥٩؛ ج١٨،ص١٢٥) البلاذرى ،فتوح ، ص١٦٥ وعن دفع المسيحيين فى نجران ضريبة من ألْفى قطعة من البُلس؛ راجع Jacob, Beduinleben, pp.148,154; المرزوقى، الأزمنة ، ج٢، ص١٦٢ وما يليها . (.J. Baldry, Textiles In Yamen, pp. 7ff) واشتهر النسيج والملابس اليمنية فى الأعمال المتأخرة لدى: الجاحظ، تجارة ، ص٢٥ وما يليها، ٣٥=٨، ١٥؛ الثعالبى، ثمار ، ص٥٢٤،ص٥٢٩؛ ولنفس المؤلف ، لطائف، ص١٢٩ .

(١٧٨) .Baldry, Textiles in Yamen, p.7

(١٧٩) الأزرقى ، مكة ، ص١٧٤؛ الثعالبى، لطائف، ص٤٢ . (ولكن طبقا لما أورده البلاذرى، فهى لم تكس بالحرير إلا منذ عصر يزيد الأول (البلاذرى ، فتوح، ص٤٧). ومن المفترض أن عليا أعطى الرسول [ﷺ] عباءة من الحرير (أحمد بن يحيى البلاذرى، أنساب الأشراف، ج٢، ص٣٦ وما يليها). وكان من ضمن قائمة الهدايا التى أرسلها المكيون إلى النجاشى، جُبة من الديباج (على بن برهان الدين الحلبى، السيرة البهية، ج١، ص٣٢٢).

(١٨٠) راجع عن ترويج النبوءة المذكورة فى الأغانى، ج٢٢، ص١١٠ .

(١٨١) "Kister, Mecca and Tamim", p.116، وسوف أعود لهذه الرواية بكثير من التفصيل فى الفصلين الخامس والتاسع .

(١٨٢) الأغانى ، ج٢٢،ص٥٧ .

(١٨٣) .Fraenkel, Fremdwoerter, p.178 لم يُذكر الحرير فيما رواه البلاذرى من مشتريات النعمان فى عكاظ على الرغم من حديثه المختصر (أنساب، ج١،ص١٠٠ وما يليها).

(١٨٤) الأغانى ، ج ١٧، ص ٣١٨ .

(١٨٥) .Cosmas, Topographie, x1,15

الجـزء الثـانـى

بلاد العـرب بـدون الـطيـوب



الفصل الرابع

ماذا كان يصدر تجار مكة ؟

وفقًا لما تذكره المصادر ، فإن جميع السلع التى كان تجار مكة يقومون بالعمل فيها تشترك فى كونها ذات أصل عربى ، وإن ثلاثة منها كان يتم تصديرها للخارج وهى : الفضة والذهب والعطور ، وهذه البضائع مرتفعة الثمن ، وسوف تساعد فى معرفة سبب ازدهار مكة فى حالة إذا كانت الصادرات ذات حجم كبير ، ولكن الأمر لم يكن كذلك . وإذا قدر لنا أن نصدق الروايات فإن السلعة الوحيدة التى كان يتم تصديرها بحجم كبير كانت سلعة وحيدة ومتواضعة وتتمثل فى أشكال مختلفة من الجلود ، كما وجدت بضائع أخرى ولكنها كانت أيضا متواضعة وتتمثل فى : الملابس ، والحيوانات ، ومواد غذائية مختلفة ، أما بقية السلع فقد كان يتم بيعها فى بلاد العرب نفسها ، وتتمثل فى : العنب ، والنبيذ ، والعبيد وبضائع أخرى .

١ - الفضة

تتفق المصادر جميعها على أن أهل مكة سافروا إلى سوريا عن طريق العراق بعد هزيمتهم فى موقعة بدر حتى لا يقعوا فى يد رجال محمد [ﷺ] ، ومن أجل ذلك استخدموا مرشدين من رجال القبائل من وسط بلاد العرب وشرقها . ولكن قُدر لهذه المحاولة الفشل ، فقد تمكن رجال محمد [ﷺ] من اعتراض قافلة عند قردَة (Garada) ، وهى نبع للماء يقع فى نجد[١]، والشىء الذى يهمنا من هذا الموضوع هو ما ورد ذكره

بأن هذه القافلة كانت تحمل كميات كبيرة من الفضة(*) ، وذكر أنها كانت بقيادة صفوان بن أمية ، أما ابن إسحاق فقد ذكر أنها كانت بقيادة أبي سفيان[٢] ، ثم ذهب ابن إسحاق أبعد من ذلك بادعائه أن تجار مكة كانوا يتاجرون دائمًا في الفضة[٣]. وقد وافق سبرنجر (Sprenger) على ذلك القول ، ثم وجد بعد ذلك أن هذه الموافقة تمثل مشكلة .

كذلك قبل لامينز هذا القول ، دون أن يلاحظ المشكلة التي تنتج عن هذا القبول . ويبدو أن المصادر الأدبية الثانوية قد تناست منذ ذلك التاريخ أمر تجارة قريش في الفضة[٤]، وكان من الممكن أن نتغاضى عن ذلك لولا أن الفضة تعد من السلع القليلة ذات القيمة الكبيرة ، ولما كانت المصادر قد قدمت بعض التفاصيل القليلة عنها لذلك يجب علينا مناقشتها .

مما لا شك فيه أن الفضة وجدت في بلاد العرب في الماضي[٥]، أما الفترة التي تهمنا فقد وجدت مناجم الفضة فيها في نجد واليمن اللتين كانت مناجمهما تقع في قبضة الفرس كما سبق القول . أما منجم الشمام في نجد والذي كان يتم استخراج النحاس منه أيضا فقد كان عبارة عن مستعمرة يسكنها حوالي ألف أو بضعة آلاف من الزرادشتيين (Zoroastrians) ، وكانت تفاخر بوجود معبدين للنار فيها ، أما منجم الرضراض (Radrad) اليمني في إقليم حمدان فكان يقوم بإدارته من أُطلق عليهم اسم "فرس المنجم" وهم الذين قدموا إليه في العصر الجاهلي وظلوا موجودين هناك حتى القرن التاسع[٦]، وفي أحد الحسابات الخاصة بإحدى القوافل التي قام الحاكم الفارسي لليمن بإرسالها لإمبراطور فارس ، ذكر فيها أنها كانت تحمل سبائك الفضة[٧]. وكانت هذه هي المرة الوحيدة التي جاء فيها ذكر الفضة المحمولة برا للعراق ،

(*) أوضح الواقدي مقدار الفضة بقوله : " وأرسل معه أبو زمعة بثلاثمائة مثقال ذهب ونقر فضة. وبعث معه رجالا من قريش ببضائع وخرج معه عبد الله بن ربيعة وحويطب بن عبد العزى في رجال من قريش. وخرج صفوان بمال كثير نقر فضة وآنية فضة ووزن ثلاثين ألف درهم ". الواقدي ، ج١، ص١٩٨ . والنقرة القطعة المذابة من الذهب والفضة، وقيل هو ما سُبك مجتمعا منهما ، والجمع نقار. ابن منظور، لسان العرب، ج١٤، ص٢٥٧ . (المترجمة)

واستمرت القوافل تأتى من العراق فى العصر الإسلامى ، ويبدو أن هذه القوافل كانت تحمل بضائع فى طريق عودتها من العراق .

ولا يمكن من المعلومات التى سبق عرضها أن نشرح الدور الذى لعبه تجار مكة فى تجارة الفضة؛ لأنه لم يكن لهم مصادرهم الخاصة بهم . كما لم يُذكر أنه كانت توجد مناجم للفضة بالقرب من مكة ، إضافة إلى أنه لم تكن لديهم الأخشاب التى تمكنهم من القيام بصهر الفضة[٨]. بالإضافة إلى ما تقدم فقد غابت الفضة عن الاتفاق التجارى بين هاشم وإمبراطور بيزنطة، ولم تقدم هدية ممن هو بمثابة ملك العرب لإمبراطور بيزنطة ، كذلك غابت الفضة عن الهدايا التى قدمها أهل مكة لنجاشى (Negus) الحبشة والتى كانوا يرجون من ورائها أن يقوم بتسليم المسلمين الذين فروا إلى الحبشة ، كما لم يذكر أنهم بإمكانهم القيام بتصدير هذه السلعة إليه[٩]. وهنا نتساءل ، لماذا إذن وصفت الفضة على أنها سلعة مهمة لتجارة قريش ، وأن لها صلة بالإغارة على قَردَة ؟

والإجابة التى تكاد أن تكون شبه مؤكدة ، تتمثل فى أن قَردَة تقع فى نجد ، وهى المنطقة التى تستخرج الفضة منها ، ولكنها كانت تستخرج من هناك لصالح الفرس، أو بمعنى آخر فإن قريشاً ينسب لها هنا فضل الآخرين التجارى . وكان فى استطاعة أهل مكة القيام بشراء الفضة من الفرس ، أو أن يقوموا بحملها فى قوافل لصالح الفرس ، ولكن هذا الشيء لم يرد له ذكر فى رواية قَردَة . وعلى العكس من ذلك فإن هذه الرواية ، تذكر بطريق غير مباشر أن بضائع مكة كان يتم إرسالها لنجد وتوجهوا بها إلى قَردَة لأنهم كانوا مُهددين من قبل محمد [ﷺ] ، وحيث إنهم لم يكونوا على دراية جيدة بالطريق؛ فقد كانوا فى حاجة لمرشد لهم ، وذكرت المصادر التى جاءت بعد ابن إسحاق اسم هذا المرشد ، وهو الفرات بن حيان العجْلى، حليف قريش ، الذى كانت تستخدمه بانتظام[١٠]، وقد ورد ذكره عند ابن إسحاق على أنه كان أجنبيا تماما ، أما الواقدى فيذكر أن صفوان بن أمية قد أعلن بقنوط أنه لا يعرف الطريق للعراق[١١]. وباختصار فإن قصة قَردَة تقدم لنا رحلة استثنائية قام بها تجار مكة لإقليم غير مألوف لديهم ، وكان محض مصادفة أن هذا الإقليم كان يوجد فيه مناجم للفضة

خاضعة للفرس . وبسبب هذه الرحلة جاءت علاقة تجار مكة بالفضة، وصُوِّروا على أنهم مصدرون للفضة[١٢]، إضافة لوجود بعض الشك في استطاعة قريش القيام بتصدير هذه السلعة لعدم تمكنهم من صهرها .

ولقد تأكد ما ذهبنا إليه من قصة الإغارة على عز Is في السنة السادسة ، أي بعد أربع سنوات من الإغارة على قَردَة . ففي عز تمكن رجال محمد [ﷺ] من الهجوم على قافلة قريش ، ويذكر ابن إسحاق أن هذه القافلة كانت تحمل أموالاً (بدلاً من الفضة) لسوريا ، وكانت بقيادة أبي العاص بن الربيع ، وعندما كان عائداً محملاً ببضائع لم يحددها، ثم ذكر في موضع آخر أنه كان قادمًا من سوريا محملاً بفضة خاصة بصفوان بن أمية[١٣] . وبمعنى آخر ، ذكرت الرواية أن قريشا كانت تصدر لسوريا الفضة ، كما كانت تستوردها منها . واعتبر سبرنجر أن هذا الأمر يمثل مشكلة . فإذا كان يمكنهم القيام بالعمليتين في الواقع من الناحية التاريخية، فيمكن القول إنهم يعدون مصدرين للفضة عندما يخاطرون بعبور نجد، ويعتبرون مستوردين للفضة أو ببساطة حاملين للأموال عندما يكونون في طريق عودتهم المعتادة . ولذلك يمكننا القول إن ازدهار مكة لم يكن يعتمد على تصدير تلك السلعة.

وترتيبًا على ما تقدم ، فإن النتيجة السابقة تكفي لتحقيق الهدف من ذلك الفصل، وعلى أي حال فإن المعلومات الخاصة بتجارة أهل مكة والتي تكررت في المصادر تعد عديمة القيمة لوجود مشكلة في تلك المصادر ، فهذه المصادر تقدم تقارير متزنة للأحداث إذا كانت منفصلة ، ولكن عند إعادة صياغتها وجمعها في قالب واحد لا تلبث أن تصبح عديمة القيمة . فالقصتان الخاصتان بالإغارة على قَردَة وعز ، التشابه فيهما واضح ، ففي كلتيهما كانت قوافل قريش محملة بالفضة (عملة مسكوكة وغير مسكوكة) وقد قام أتباع محمد [ﷺ] بالإغارة عليهما ، كانت الأولى ملك أو تحت إشراف صفوان بن أمية أو أبي سفيان في قصة قَردَة ، وصفوان بن أمية أو أبو العاص بن الربيع في قصة عز . وكان زيد بن حارثة هو القائد المسلم في كلتيهما[١٤]، ومن الصعب علينا أن نصدق أن هذا القائد المسلم هو الذي قام بالهجوم على القوافل المكية المحملة بالبضاعة

نفسها للقوم أنفسهم مرتين . وعندما نعلم أن جميع أفراد قافلة عز وقعوا جميعا فى يد المسلمين بعد ست سنوات ، لذلك يكون من الصعب أن لا نختتم الحديث بأن السيناريو نفسه كان سيحدث فى المرة الثالثة[١٥]. ولم يتوقف التصاعد فى القصة بعد ذلك ، فذكرت بعض المصادر أن حويطب بن عبد العزى وعبد الله بن أبى ربيعة ، ظهرا فى قافلة قَردَة مع سفيان بن أمية[١٦] . وذكر لنا فى مكان آخر أن النبى [ﷺ] قام باقتراض مبلغ ٤٠,٠٠٠ درهم من حويطب بن عبد العزى وعبد الله بن أبى ربيعة ، ومبلغ ٥٠,٠٠٠ درهم من أبى سفيان بن أمية ، وقام بردها بعد هزيمة هوازن[١٧] ، ونعلم من مكان آخر أن غنائم الحرب التى أخذها النبى [ﷺ] من هوازن قام بتوزيعها بين عدة أفراد من بينهم حويطب بن عبد العزى وصفوان بن أمية وأبو سفيان، وتمثلت هذه الغنائم فى ٤,٠٠٠ أوقية من الفضة[١٨]. وعلى هذا فإننا نكون أمام عدة أسماء لأفراد من قريش يرتبط اسمهم بالفضة ، ولكن على الجانب الآخر قام النبى [ﷺ] بالاستيلاء عليها عندما قاموا بإرسالها إلى سوريا ، أو عندما قاموا بإحضارها من هناك ، أى أنه اقترضها منهم ، ثم ردها إليهم أو أعادها لهم لكى يستولى عليها ويأخذها من الآخرين. وهذه القصص تشترك فى عناصر ثلاثة رئيسة وهى : قريش والرسول والفضة . لذلك فهى لا تؤكد شيئا سوى وجود الروايات ، وهذه الرواية هى الشىء الوحيد الذى يمكننا استخدامه . أما بقية التفاصيل فلا قيمة تاريخية لها لكى نتوسع فيها . وإذا قمنا باستعراض حقيقة الموضوع فإن كل الروايات لا تزودنا بالمعلومات التى نحتاج إليها(*).

(*) تنكر كرون أن الفضة تستخرج من نجد لصالح الفرس وتذكر "أن قريشًا هنا ينسب لها فضل الآخرين التجارى" . وهكذا أغفلت من الذى كان يستخرج الفضة ويتاجر فيها قبل الفرس ، كما أنه لا يوجد هناك ما يمنع من أن تتاجر قريش فى الفضة مع وجود الفرس هناك واستغلالهم لمناجمها فى هذه الحقبة حيث حرصت قريش دائمًا على سياسة الحياد فى علاقتها مع كل من فارس وبيزنطة ؛ حرصا على مصالحها التجارية ، إضافة إلى أن قريشًا كان يمكنها استيراد الفضة من أماكن أخرى فى الجزيرة وحملها فى قوافل تجارتها وخصوصاً من اليمن وأيضاً من شرق أفريقيا التى اشتهرت بها (راجع، جواد على، جـ٤، ص٢٢٤). ويعد ذلك تؤكد أنه لم يكن فى استطاعة قريش تصدير هذه السلعة لعدم تمكنهم من صهرها لعدم وجود الأخشاب لديهم، حقيقة أن مكة لا يوجد بها الأخشاب التى تصلح لبناء السفن ولكن توجد بها الأشجار التى تصلح لصهر الفضة والحديد وإلا كيف كانوا يقومون بتصنيع سيوفهم وأدوات قتالهم وأدواتهم =

إن هذه المشكلة لا تختص بالقضايا ، التي يرد عنها روايات عديدة لموضوع معروف، فكثير من الروايات لم يقدر لها البقاء، وحتى إذا قدر لها البقاء فالرواية الإسلامية كبيرة الحجم دائما، ولا تمكن المرء من قراءتها أو ملاحظتها . إن أغلب المعلومات الحقيقية التي وصلتنا عن ظهور الإسلام مستمدة من روايات تقرأ كل واحدة منها معزولة عن مثيلاتها . إن الرواية الإسلامية عن ظهور الإسلام تتضمن القليل من المعلومات ولكنها أقاصيص، كما أن المعلومات المكثفة التي يريد المرء أن يستعيدها من هذه الروايات، لا تقدم لنا الحقائق مباشرة . وهي النقطة التي سوف أعود إليها

= اليومية الأخرى . وهي (كرون) بعد ذلك تحاول أن تنفث عن حقدها على المسلمين والإسلام بتجريح المصادر الإسلامية الخاصة بحادثة الإغارة على قَردَة وعز فهي تستبعد بعد أن تعجبت من كيفية أن يكون القائد المسلم في الحملتين واحد ، ولا نعلم ما هو وجه الغرابة في ذلك ، إن الزمن بين الحادثين ست سنوات فقط وليس قرنا من الزمان حتى يكون هناك داع للتعجب . أما القول بأن «الرسول (ﷺ) قد اقترض الأموال منهم ، ثم ردها إليهم أو أعادها لهم لكي يستولي عليها ويأخذها من الآخرين" فهو ينافي الحقيقة جملة وتفصيلا ، إن الأموال التي حصل عليها كانت من قبيلة هوازن وهي مشروعة له وللمسلمين بحق الفتح ولذلك قام بتوزيعها عليهم طبقا لقاعدة تقسيم الفيء التي شرعها الله سبحانه وتعالى للمسلمين أي أنه لم يستول على أموال هوازن كتعويض عن قيمة القرض الذي سبق وقام برده. ومن الواضح هنا تأثير عواطفها الشخصية التي أفسدت تحليلها لهذا الموضوع إفسادا تاما مما ينزع عنه أية قيمة تاريخية. إضافة لما تقدم ما المشكلة في أن يقوم أهل مكة بتصدير الفضة حينا، ثم استيرادها حينًا آخر حيث يمكنهم تصديرها خاما واستيرادها مصنعة . وهو أمر من أبسط قواعد الاقتصاد على مر العصور. ثم ما كل هذا التحامل على ابن إسحاق عندما ذكر في المرة الأولى أن قافلة قريش عند الإغارة على قردة كانت تحمل أموالا ثم ذكر في المرة الثانية أن هذه القافلة كانت محملة بالفضة ، فالمقصود بالأموال في تلك العصور هي النقود المعدنية إما ذهب أو فضة فهو إن لم يوضحها في المرة الأولى فقد حددها في المرة الثانية ، وبطبيعة الحال لم يكن المقصود فيها أوراقا نقدية أو شيكات أو فيزا كارت على سبيل المثال . إن كرون تنظر هنا إلى الرواية الإسلامية وتحكم عليها بعقلية المؤرخ المعاصر وليس بعقلية عصرها ، هذا على الرغم من القصور الذي تعاني منه الرواية الإسلامية في بعض الأحيان أو التضارب في أحيان أخرى ، نظراً لأن كتابة التاريخ وتسجيل أحداثه كانت في بداياتها الأولى ، وهي على الرغم من هذا كانت أفضل بكثير من الكتابات التاريخية لدى شعوب أخرى معاصرة نظرا الضوابط التي استفاد بها المؤرخون المسلمون من علم رواية الحديث الشريف وطبقها كثير منهم على كتاباته ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا عند رواية الأحداث التاريخية المبكرة لظهور الإسلام .

وعن التعدين والصناعات المعدنية في الجزيرة العربية راجع : النعيم ، نورا، مرجع سابق، ص١٦٦-١٧٦، وعن الأخشاب والصناعات الخشبية راجع المرجع السابق نفسه ، ص١٨٤-١٨٧ . (المترجمة)

بتفصيل أكبر فى ختام هذا الكتاب . لذلك فإننى سوف أرجئ ذكر أغلب المصادر التي اعتمدت في شكوكي النقدية عليها . إن الهدف من هذا الجزء من الكتاب هو فحص ما تذكره الرواية الإسلامية التي تتعارض مع ما ورد فى المصادر الأدبية والثانوية عن طبيعة تجارة أهل مكة، وماذا يمكن أن نفهم من خلال هذه المعلومات ، على افتراض أنها صحيحة فى أساسها، والتي تتفق مع منهج البحث الذى اختاره غالبية الكتاب المسلمين . ولذلك سوف أفترض صحة هذه المعلومات ،إلا فى حالة إذا ما ثبت العكس ، وبمعنى آخر فسوف أقبل المعلومات التى حازت أكبر قدر من القبول فى الروايات سواء كانت ما تقدمه هو الحقيقة أو عكسها (طالما أنها لا تتعارض مع روح الرواية)، وأقوم برفض الادعاءات التى تخالف الرواية بوجه عام ، أو عن طريق المصادر الخارجية عنها، وعلى سبيل المثال الادعاء بأن تجار مكة كانوا يصدرون الفضة، ولكى أقدم بعض الأدلة المادية على ذلك، فسأوافق على أن أبا سفيان تاجر فى سوريا، على الرغم من أن بعض هذه القصص التى زعمت ذلك ذكرت فى قصص دلائل النبوة (dalail- nubuwwa) التى تعنى قصص معجزات نبوة النبى محمد [ﷺ] ، ولكننى سأرفض الادعاء بأنه تاجر فى اليمن . ويرجع السبب فى ذلك، إلى أنه لم يذكر قيامه بهذا العمل إلا فى مثل هذه الروايات فقط ، وفى الروايات المتعلقة بموضوع حديثنا والتى قام مفسرو القرآن [الكريم] بشرحها فى ضوء الظروف المحلية، وبالمثل سأقبل القول بأن قريشا ربما قامت ببيع بضائع مثل الجلود والعطور فى مصر، كما فعل عمرو ابن العاص فى القصة التى تنبأت بفتحه لهذه البلاد ، ولكننى لن أغامر بالقول بأن عمرو بن العاص اعتاد القيام بذلك ، لأن ذلك الادعاء لم يكن هو الهدف من القصة ، وسأرفض تماما الادعاء بأنه قام هو (أو غيره من قريش) ببيع هذه البضائع فى الإسكندرية ؛ لأن هذا الادعاء لم يكن هو الهدف من القصة من جهة ، ولأن الرواية غير مؤكدة بوجه عام ولا يمكن تصديقها لأسباب عدة . وباختصار سوف أقبل كل ما يتذكره المسلمون على أنه أحداث من الماضى، على شريطة أن لا يكون هناك خطأ واضح فى استعادة الماضى ، أو أنه أمر لا يقبل تصديقه . إن هذا المنهج يتعرض للحد الأدنى من النقد ، كما أنه لا يمكن الدفاع عنه على طول المدى ، لأن المرء لا يجد معنى

للمعلومات المقدمة دون أن يدعي أن إعادة تجميعها يعد خطأ في جوهره في جانب أو عدة جوانب منها (وهو على الأقل أمر لا أستطيع القيام به)، ولكن من الأهمية بمكان أن تستفيد الرواية من إيجابية الشك فيها ، وأن نطلق العنان لأنفسنا ، سواء كان في ذلك نجاتنا أو هلاكنا ، بما نجده متبقيا فيها . فما هي البضائع الأخرى ، التي تقدمها الرواية وتمثل جزءًا من بضائع مكة بخلاف الفضة ؟

٢ - الذهب

يذكر الواقدي في تقريره عن غارة قَردَة ، أن قافلة قريش لم تكن محملة بالفضة فقط ، ولكنها كانت محملة بالذهب أيضا ، وتذكر القصة التي تنسب إلى الكلبي أن عمرو حاول تهريب الذهب إلى سوريا[١٩]. وذُكر في إحدى عبارات هذه القصة أن تجار قريش كانوا يحملون معهم لسوريا الذهب عادة[٢٠]. فهل معنى هذا أن تجار مكة كانوا يدينون بثروتهم لتصدير الذهب للإمبراطورية البيزنطية ؟ والإجابة هي بالنفي على هذا السؤال مرة أخرى.

حقيقة أن الذهب يوجد في شبه الجزيرة العربية[٢١]، وكانت مناجم الشمال لا تقل عن مناجم الجنوب[٢٢]؛ بل إن هناك بعض المتخصصين الذين يرون أن مكة كان يوجد فيها الذهب، هذا على الرغم من خطأ ذلك الاعتقاد[٢٣]. لقد جاء ذكر لثلاثة مناجم على مقربة من مكة لها صلة بحياة الرسول : الأول في بحران (Buhran) وكان يملكه الحجاج ابن علاط السُلمي طبقًا لما ذكره ابن إسحاق، والذي كان هدفًا لإحدى السرايا التي بعث بها الرسول [ﷺ] والتي لم يقع فيها قتال[٢٤]. أما المنجم الثاني فهو المنجم المسمى بمنجم بني سُليم . وطبقًا لما ذكره الواقدي فإن المنجم الذي كان يملكه الحجاج بن علاط كان يقع في بحران ، وذكر لنا أنه كان يملك عدة مناجم وأنه كان يقوم بإقراض بعض الذهب المستخرج منه لزبائنه من المكيين[٢٥]. ولكن منجم بني سُليم لم يكن يقع في بحران، أو قريبًا منها ، فقد بدأ استغلاله في عهد الخليفة أبي بكر طبقًا لما ورد عند ابن سعد[٢٦] . فإذا كان الحجاج بن علاط يقرض ذهبه لأهل مكة ، فلابد من أن يكون قد حصل عليه من بحران (Buhran) أو من مكان آخر . وأخيرا سمعنا عن ما سمي

بالمناجم الجبليّة (Gabaliyya) فى إقليم جهينة وذكر أن الرسـول [ﷺ] قد منحـها أو منح دخلها لشخص معين من مزن (Muzani)(*)، ولذلك وصف ابن سعد دخلهم بأنه يذهب للدولة فى عهد الخليفة أبى بكر(٢٧) . ولم يأت لها ذكر يرتبط بتجارة مكة .

ولذلك لا تذكر المصادر اشتغال قريش فى مناجم الذهب ، ولكنها تثبت حصول قريش على الذهب من جيرانها، وأن بعض هذا الذهب قد وجد طريقه للشمال. وواضح أن السبب فى اتجاه بعض الذهب للشمال يرجع إلى أنه كان بديلا للعملة ، ولم يكن بضاعة للتصدير، من أجل ذلك توسع الواقدى فى قائمة القافلة التى هُددت عند بدر ، وأشار إلى أن عديداً من تجار مكة اشتركوا بجمال كثيرة كانت تحمل كثيراً من الذهب، ولذلك فإن الذهب يذكر هنا سبيكة وبديلاً للعملة فى قصة تهريب عمرو له(٢٨). وهكذا رأينا تعاقب الفضة والدراهم فى قصص الإغارة على عز. إن ما تصفه المصادر هو عبارة عن تجارة استيراد يُدفع ثمنها بالسبائك الذهبية وليس تجارة تصدير للذهب(٢٩) . لقد اختفى الذهب من الاتفاق التجارى الذى عقده هاشم مع إمبراطور بيزنطة، وفى الهدايا التى قدمها للبيزنطيين من يُعد ملكًا لمكة، ومن الهدايا التى حاول بها أهل مكة رشوة نجاشى الحبشة(**). إضافة إلى ذلك لا يوجد أى تسجيل لواردات من الذهب والفضة للعالم اليونانى الرومانى(٣٠). لذلك لا يمكن أن يصنف أهل مكة على أنهم كانت لهم تجارة فى الذهب .

(*) وهو بلال بن الحارث المزنى ، ياقوت ، ج٤ ، ص٣٠٧ . (المترجمة)

(**) اعترفت كرون بوجود الذهب فى شمال بلاد العرب وجنوبها ، ولكنها أصرت على عدم وجوده فى مكة على الرغم من ذكرها لثلاثة مناجم للذهب تقع فى مكة أو على مقربة منها ، وترى أن مكة حصلت على الذهب من جيرانها ، وأن هذا الذهب وجد طريقه للشمال بديلا للعملة وليس للتصدير. ولكنها فى الوقت نفسه أغفلت تفسير ماذا فعل أهل مكة بذهب مناجمهم ، على الرغم من أنها أشارت إلى أن الحجاج بن علاط السلمى الذى كان يملك أحد هذه المناجم عرف عنه الثراء الواسع وأنه كثيرا ما كان يقوم بإقراض أهل مكة أموالا كثيرة (وقد استغرق فى جمعها أياما قبل أن يكتشف أهل مكة إسلامه) ولدينا من النصوص ما يهدم هذا الرأى ، وهى نصوص عرفتها كرون ولكنها لم تستخدمها فى موضعها ، وهى على النحو التالى :

أولاً: تصريح ننبة محصل الضرائب البيزنطى الذى قال "جاءت قافلة قريش إلى سوريا بدون الذهب ، هذا أمر مستحيل" ، (أبو الباجة ، المناقب، رقم ٢١١). والذهب المقصود هنا هو السبائك وليس العملة ، وهى التى كانت بيزنطة تُحَصِّل عليها الضرائب فى أغلب الظن . =

٣ - العطور

لقد سبق القول ، إن هناك أدلة جيدة على تجارة مكة فى العطور وتعد عدن هى مركز صناعة العطور العربية . وذكر المرزوقى أنها كانت ذات شهرة كبيرة فيها قبل الإسلام، لدرجة أن التجار الهنود كانوا يقومون بتصنيع عطورهم فيها، بعد أن يقوموا بمدها بالمواد الأساسية ثم يقومون بإعادتها لبلادهم مصنعة ومنتجًا نهائيا (طيبًا معمولاً). وفى الوقت نفس كان هناك تجار آخرون يقومون بنقل العطور اليمنية لفارس والإمبراطورية البيزنطية[٣١]. وعندما قام الفرس بغزو اليمن ، وقعت تجارة العطور فى أيديهم ، كما ورد ذكر العطور فى أحد سجلات الضرائب التى أرسلت لملك فارس[٣٢](*).

= ثانيًا: يذكر الهمدانى ، جوهرة العيان، ص١٣٧- ١٣٨ أن الذين يعرفون مكة يقولون إن بها جبلى العير والعيرة، وهما يشرفان على مكة، يوجد فيهما منجم الذهب، وتصر كرون إصرارا على عدم وجود هذين الجبلين فى مكة، وتحيل القارئ إلى ياقوت فى معجمه والبكرى فى معجمه أيضًا . وبالرجوع إلى ياقوت نجده يذكر الآتى :

"العير جبل بالحجاز .. عير جبلان أحمران على يمينك وأنت ببطن العقيق تريد مكة" !! أما البكرى فيذكر "أن العير جبل بناحية المدينة" . ولمن مزيد من التفاصيل راجع تعليق المترجمة على حاشية رقم (٢٣) من الفصل الرابع .

إن هذه المصادر نفسها تتحدث عن نفسها ، وإذا كنا لم نقابل أحدا من مكة يعمل فى مناجم الذهب فإن هذا لا ينفى استخراجهم له ، ولا يستبعد أن العبيد هم الذين كانوا يقومون بالعمل فى مناجم الذهب نظرًا لشقة العمل وخطورته ، مثلهم فى ذلك مثل العبيد الإغريق الذين كانوا يعملون فى مناجم لاوريوم Laureum للفضة والعبيد الرومان الذين قاموا بالعمل فى المناجم على مختلف أنماطها . (المترجمة)

(*) يحتوى البان والمُر على مادة زيتية لها رائحة عطرة استخدمت فى صناعة العطور. ويتكون ١٧٪ من حجم المُر من الزيت إذا كان طازجا، ويعرف بدهن المُر . ويذكر كل من ثيوفراستوس وبلينى أنه إذا أدخل فى صناعة العطور يحافظ على رائحتها لمدة طويلة حددها الأول بعشر سنوات ، وتزداد رائحته قوة مع مرور الأيام . ويذكر لنا إسترابون نوعا من العطور السبئية يسمى لاريموم Larimum وورد فى النقوش العربية أسماء لأنواع أخرى من العطور مثل "نعم" و "قبلت" و "قلم" و "سليخة" وغيرها . وكانت عدن من أشهر مراكز صناعة الطيوب العربية ، ومن أشهر عطورها تلك التى يدخل فى تركيبها دهن العنبر . (ويذكر الأصفهانى أن الأعشى باع فى سوق الحيرة "كرشا مدبوغة مملوءة عنبرا بثلاثمائة ناقة حمراء" الأغانى جـ٩ ، ص ١٢٥) ، ودهن المسك ، وهو مادة ثمينة يستخرجها سكان سواحل البحر الأحمر والبحر العربى . (المسك لفظ فارسى مُعرب ، يؤخذ من حيوان يسمى ظباء المسك أو غزلان المسك ، وتوجد المادة فى غدة خارجية فى بطن الحيوان ، إذا حكها خرج المسك منها . ويقوم الأفراد الذين يعرفون هذا الحيوان بتجميعها ، ويسميها العرب المشموم). واستمرت بعض أنواع العطور اليمنية فى العصر الإسلامى مثل =

ولا يوجد لدينا ما يثبت وجود تجار قرشيين في عدن أو في تنظيم قريش لقوافل من عدن إلى سوريا(*). ولكن يبدو أن قريشًا شاركت في توزيع العطور اليمنية في جزيرة

= عطر "عبير" الذي يدخل الزعفران في تركيبه . كما كانت البتراء أحد المراكز المعروفة لتصنيع العطور من المُر واللبان والبلسم ، واشتهر لديهم نوع من جرار الفخار كانوا يصدرون فيها عطورهم ، وعُثر على أعداد كبيرة من هذا النوع من الفخار الرقيق مما يدل على ازدهار هذه الصناعة لديهم .

راجع : شاه بهاي ، جيهان ، دور مكة المكرمة في الحياة الاقتصادية قبل الإسلام ، دراسة لما بين القرنين الرابع والسابع الميلاديين ، رسالة ماجستير لم تنشر ، جامعة الملك عبد العزيز ، فرع الطالبات، قسم التاريخ، نوقشت وأجيزت عام ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م ، ص٢١٨ . (المترجمة)

(*) تذكر كرون أنه لم يثبت لديها وجود تجار من قريش في عدن ، أو قيامها بتنظيم قوافل من عدن إلى سوريا كما أن الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية كانت لديهما صناعة العطور الخاصة بهما. وهي ترى أنه إذا كانت قريش قد شاركت بنصيب في بيع العطور للإمبراطورية البيزنطية فهو يقتصر على العرب القاطنين على حواف سوريا في أيلة وغزة وأذرعات. وتأخذ حجة على ذلك قيام اليهود بشراء العطور من سوريا وبيعها في المدينة في عصر الرسول ﷺ .أما واقع الأمر فهو يخالف ما ارتأته الباحثة، فهي هنا تحاول أن توحي للقارئ بأن عدن شيء واليمن شيء آخر ، على الرغم من أن الأولى هي ميناء الثانية، حقيقة ليس لدينا ما يشير إلى وجود تجار من قريش في عدن ، أو في تنظيم قريش لقوافل من عدن إلى سوريا مباشرة ، ولكن لدينا ما يؤكد وجود تجار من قريش في اليمن فقد كان متجر المطلب في اليمن طبقا لرواية الإيلاف التي سنها هاشم لقريش والتي اختص فيها كل واحد من إخوته بسوق خارجية محددة فرضتها خبرتهم فيها في أغلب الظن . وتخصص عبد الله ابن أبي ربيعة الملقب "بعدل قريش" وهو والد الشاعر عمر بن أبي ربيعة وهو أحد بني مخزوم الذين هم أثرياء مكة وأرباب المال فيها ، تخصص في تجارة اليمن، وكان يرسل العطور لأمه لبيعها في المدينة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وكانت تبيعه نقدا أو دينا ، وإذا باعت دينا كتبت مقدار الدين، في كتاب (الأغاني) جـ١، ص٦٤ . وكانت هناك نساء أخريات غيرها فمن يبيع العطور فيها. وتاجر العباس بن عبد المطلب في العطور اليمنية في أسواق الحج في منى كما تذكر كرون نفسها . وتاجر أبو طالب في البضاعة نفسها، أغلب الظن أنها كانت يمنية أيضاً.

أما سوق مصر وهي إحدى ولايات الإمبراطورية البيزنطية فقد أرسلت زوجة عمر بن الخطاب لزوجة هرقل هدية من العطور، وزارها عمرو بن العاص ووصل إلى الإسكندرية وكان يحمل معه الجلود والعطور، وشارك أثناء إحدى الاحتفالات فيها في لعبة الكرة الذهبية التي دخلت في كُم ثوبه، وكان المصريون يتنبئون للفائز بها بحكم البلاد ، وهي القصة التي ترفضها كرون ، فهي إن جاز لها أن تنفي الجزء الثاني منها فلا ينبغي لها رفضها بأكملها لأن العطور اليمنية كانت معروفة في مصر منذ زمن طويل .

لقد عرفت السوق البيزنطية العطور العربية والتي كانت من بين البضائع التي كانت تحملها قافلة قريش إلى سوريا في رحلة الصيف منذ أن سن هاشم سياسة الإيلاف ، وهي تلك الرحلة التي أكدها القرآن الكريم في سورة الإيلاف . وينبغي أن يدرك القارئ أننا عندما نتحدث عن قافلة قريش للشمال أو للجنوب فينبغي أن يكون واضحًا في الأذهان أن قوام هذه القافلة كان يصل في بعض الأحيان إلى أكثر من ألفين من البعير يتقدمها كشافة الطرق ، ومن حولها الحراس، وكانت تنزل في محطات محددة لها في أيلة وغزة وبصرى في الشام لكي تضمن الحكومة الرومانية الحصول على نصيبها من الضرائب (سلامة ، عواطف ، قريش ، ص٢١٧) . =

. . . .

= وتعد سوق الحيرة أحد المنافذ المهمة للعطور اليمنية فقد خرج الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس ومعه عطر يريد الحيرة، وكان بالحيرة سوق يجتمع إليه الناس كل سنة (الأغانى، ١٦، ص٩٥) فقد كان متجر نوفل بن عبد مناف في العراق، ومات في مكان فيها يسمى سلمان وقد عقب ابن حبيب (المحبر، ص١٦٣) على ضخامة قوافل الإيلاف بقوله " وكان كل من هؤلاء - قادة القوافل - رئيس من يخرج معه ممن يتجر في وجهه" . مما يؤكد أن تجارة هؤلاء لم تكن تجارة تجزئة لبائع متجول في المناطق العربية المحيطة . ومما يؤكد أهمية تجارة العطور اليمنية في العالم القديم ما ذكره المرزوقي (الأزمنة والأمكنة، جـ٢ ص١٦٤) عند حديثه عن سوق عدن بأن "طيب الخلق جميعًا بها يسبأ، ولم يكن أحد يحسن صنعه من غير العرب، حتى أن تجار البحر لترجع بالطيب المعمول تفخر به في السند - والهند - وترحل به تجار البر إلى فارس والروم". لقد حدد المرزوقي في هذا النص تجار البحر الذين يبدو أنهم الهنود والعمانيون، أما تجار البر فهم العرب بدون شك ، ومنهم قريش قائدة قوافل التجارة البرية في الجانب العربي من الجزيرة العربية في القرن السادس الميلادى ، والذين لاشك في قيامهم بدور مهم في المجال البيزنطي ، ففي رحلة الشتاء يجلبون البضائع العربية الجنوبية ومن بينها العطور والبضائع الشرقية، ويحملونها إلى مكة لتأخذ السوق المحلي حاجتها منها ، ثم يواصلون حمل ما تبقى منها في قافلة الصيف إلى الشمال إلى سوريا . ولا يتعارض مع ذلك معرفة العرب للعطور البيزنطية التى كانت لها أسواقها، والتى جلبها اليهود إلى المدينة المنورة في عهد الرسول ﷺ ، وهو أمر معروف في عملية تبادل المتاجر في كل زمان ومكان لاختلاف أذواق البشر ومستوياتهم الثقافية والمادية . ولمزيد من التفصيلات عن قوافل قريش، راجع : شاه بهاى ، المرجع السابق ، ص١٦٤-١٧٠ .

ختمت كرون مناقشة موضوع العطور بتعجبها "من أن تساهم العطور - كما صورتها - في نمو مدينة مكة اقتصاديا وهى التى تقع في الصحراء على بعد رحلة تبلغ مسافتها شهراً" وقامت بتهميش دور مكة في هذه التجارة كعادتها لنفي أى دور تجارى لها في مجال التجارة العالمية. ونحن بدورنا نتساءل إذا لم يكن لمكة إلا دور هامشى في التجارة العالمية - وهى المدينة التى تقع في الصحراء - فمن أين حصل المكيون على ثرواتهم الضخمة قبل البعثة النبوية الشريفة؟ لقد قام حكيم بن خزام بجمع ثروة طائلة من التجارة ، وأعتق في الجاهلية مائة رقبة في يوم عرفة، ونحر مائة بدنة يوم النحر، وقام بعمل مثله في الإسلام . وجمع أبو بكر الصديق من عمله في التجارة أربعين ألف درهم ، أنفق منها خمسة وثلاثين ألفًا في شراء العبيد الذين دخلوا الإسلام ليخلصهم من عذاب كفار مكة. ومن أغنى أغنياء أهل مكة عبد الله بن جدعان (حاسى الذهب) وهو رئيس تميم والذى جمع شقًا كبيراً من ثروته من التجارة. ومنهم أيضًا أبو سفيان بن حرب الذى كان من كبار التجار، وكان واسع الثراء وكان يمول ويجهز تجار مكة ، وبلغت قيمة بضائع قافلة أبى سفيان يوم غزوة بدر حوالى خمسين ألف دينار، وساهم فيها أبو أحيحة سعيد بن العاص بثلاثين ألف دينار بمفرده ، واشتهر الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر من مخزوم ثرى أثرياء بنى مخزوم بأنه كان فاحش الثراء ولُقب "بالعدل" لأنه كان يعدل قريشا كلها ثروة تقريبا، فكانت قريش تكسو الكعبة عامًا ، ويكسوها الوليد وحده عامًا آخر. (وعن هذا الموضوع راجع : سلامة ، (عواطف) ، المرجع السابق، ص٩٧ وما يليها والمصادر المذكورة في الهوامش) . ولم يكن هذا الثراء بالشىء الجديد على العرب فقد سبق وذكر بلينى "أن العرب أغنى أمم العالم طرا، لتدفق الثروة من روما وبارثيا (فارس) إليهم ، وتكدسها في أيديهم ، فهم يبيعون ما يحصلون عليه من البحر ومن غاباتهم ، ولا يشترون شيئًا مقابل ذلك" Pliny, p.461 ; =

العرب وما حولها وكانت تبدأ أغلب الظن من نجران[٣٣]. لذلك قام العباس بن عبد المطلب ببيع العطور اليمنية فى منى (Mina) ومناطق أخرى فى موسم الحج ، بينما قامت والدة عبد الله بن أبى ربيعة ببيعها فى المدينة خلال خلافة عمر [رضى الله عنه]، ويبدو أن ابنها أرسل لها هذه البضاعة من اليمن ، كذلك ذُكر أن أبا طالب تاجر فى العطر، أغلب الظن العطر اليمنى[٣٤]. وقام عمرو بن العاص [رضى الله عنه] ببيع المصنوعات الجلدية والعطور فى مصر، وقاده هذا النشاط إلى مدينة الإسكندرية، وسافر الحكم بن أبى العاص فى إحدى المرات للحيرة لبيع العطور فيها ، وبعد الاستيلاء عليها كان الطيب من بين الهدايا التى أرسلتها زوجة عمر [رضى الله عنه] لزوجة هرقل[٣٥]. وهكذا كانت العطور هى السلعة التى أوجد تجار مكة لها أسواقًا ليس فقط فى الحجاز، ولكن فى خارجها أيضاً .

ومع ذلك فإنه من الصعب بمكان أن نقدم قريشاً على أنها كانت تقوم بتوريد حجم كبير من العطور للإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية. وقد كان لدى الإمبراطورية البيزنطية صناعة عطور خاصة بها، وكانت الإسكندرية هى مركزها، كذلك لم تُسجل واردات من العطور المصنعة فى الجانب اليونانى الرومانى[٣٦]. بل على العكس من ذلك فقد أنتجت الإمبراطورية قدرًا كافيًا من العطور لتصدير بعضه للعرب أنفسهم . ولذلك نكر أن يهود المدينة قاموا باستيراد العطور من سوريا للمدينة فى عصر الرسول [ﷺ][٣٧]. كما قاموا باستيرادها للمدينة فى العصر الأموى[٣٨]. ولا نستبعد قيام العرب باستيراد العطور كما قاموا بتصدير عطورهم . ويبدو أنهم كانوا يفضلون الطيوب الأجنبية حتى فى العصور القديمة[٣٩]. ومن المحتمل أنهم كانوا يواجهون صعوبة فى بيع عطورهم فى الإسكندرية ، إلا فى حالة أن يتولوا بأنفسهم القيام بذلك ، ولذلك فإن قصة زيارة عمرو لهذه المدينة مشكوك بوضوح فى صحتها[٤٠]. أين إذن كانوا يبيعون عطورهم فى

= حقيقة أن هذا القول وإن كانت فيه مبالغة فإنه يعكس أوضاع القرن الأول الميلادى ، تلك الأوضاع التى عادت إلى قريش من جديد فى القرن السادس الميلادى - الأول الهجرى، وعن نماذج لأثرياء قريش راجع: سلامة (عواطف)، المرجع السابق، ص٢٤٦، ص٢٥٧ . (المترجمة)

الإمبراطورية البيزنطية ؟ يبدو أنهم كانوا يقومون بذلك لزبائنهم في سوريا: غزة، وبصُرى، وأذرعات (Adhriat)(*) وكذلك[٤١]. أو بمعنى آخر يبدو أنهم كانوا يقدمون خدماتهم لمجتمعات فى أقصى الجنوب وكذلك العرب المحيطين بالإمبراطورية البيزنطية. وهذا يتفق مع الأدلة المماثلة لنشاطهم فى العراق. ويبدو كذلك أن الإمبراطورية الفارسية كان لديها صناعة عطور خاصة بها، كما أن الحكم بن أبى العاص لم يكن لديه الرغبة للذهاب أبعد من الحيرة ، التى كان يوجد بها سوق "كان العرب يجتمعون فيه كل عام"[٤٢]. ولقد ظهر بائع تجزئة لزبائنه مباشرة، وليس بائع جملة لأرستقراطيي المجتمع الفارسى. وينطبق الشىء نفسه على عمرو الذى قام ببيع بضائع جلدية متواضعة إلى جانب العطور. وإذا كانت تجارة العطور القرشية فى سوريا ومصر والعراق هى بضاعة عربية لبائع متجول فى المناطق العربية المحيطة لذلك فسوف تصيبنا بعض الدهشة لوجود سوق خاص بها ، ولعدم تسجيل صادرات هذه البضاعة . كذلك فمن الصعوبة بمكان أن تساعد مثل هذه الأنشطة على نمو مدينة تقع فى الصحراء على بعد رحلة تبلغ مسافتها شهرا بالقوافل البرية.

٤ - الجلود

إن تجارة الجلود هى التجارة الوحيدة التى لم يثبت فقط وجودها بل إنها ارتبطت دائمًا بصادرات قريش. وطبقًا للقصة المعروفة ، والتى سأشير إليها وهى ترجع لابن الكلبى عن الإيلاف (Ilaf) ، فإن الفضل يرجع لهاشم فى إيجاد تجارة دولية لمكة بعد أن حصل على إذن من الإمبراطور البيزنطى ببيع البضائع الجلدية والملابس فى سوريا[٤٣]. وتتمثل فى جلود الحيوانات وأجولة القَرْظ (وهو نبات يستخدم فى الدباغة)، وأجولة جلدية مملوءة بالسمن والتى تصور "عثمان بن الحويرث" ملك مكة المنتظر،

(*) أذهريات هى أذرعات بلد الشام وتعرف اليوم بدرعا ، وعن أسواق بصرة وأذرعات راجع ، الأفغانى ، أسواق العرب ، ص ٢٦٥-٢٧٣ . (المترجمة)

أنها تعد بعد عام ٥٧٠م هدية ملائمة للبيزنطيين(٤٤). وقدم أهل مكة الجلود لنجاشى الحبشة عندما كانوا يريدون أن يُسلِّم لهم المهاجرين المسلمين فى الحبشة ، إذ كانت الجلود هى أفضل المنتجات القرشية التى يمكن أن يفكر فيها النجاشى(٤٥). وبالمثل قدم له عمرو بن العاص [رضى الله عنه] الجلود هدية عندما انقلبت الأحوال وحاول هو نفسه اللجوء للحبشة(٤٦). واعتاد الرسول [ﷺ] أن يتاجر فى الجلود، كما فعل أبو بكر الصديق [رضى الله عنه]، وعمر [رضى الله عنه] طبقًا لما رواه البعض. وقام أبو سفيان فى إحدى المرات بإهداء الرسول بعضًا منها(٤٧). وباع عمرو بن العاص [رضى الله عنه] فى مصر ليس العطور فقط ولكن الجلود أيضًا(٤٨). وعندما قدم عبد الرحمن بن عوف [رضى الله عنه] للمدينة مارس نشاطه التجارى بذكاء ، وطبقًا لعبارة وردت فى القصة، نعرف منها أنه كان يشترى الجلود والجبن القَرِيش والسمن ثم يقوم ببيعها ، أغلب الظن ، فى سوريا مما مكنه من تحقيق ثروة تمكن بها من إحضار ٧٠٠ جمل حملها بالقمح والدقيق من هناك(٤٩).

يضاف إلى ذلك أننا سمعنا عن مصادر هذه البضاعة ، فذكر ابن الكلبى أن الجلود تأتى من الحجاز، وكانت القوافل التجارية الذاهبة فى طريقها إلى سوريا تقوم بانتقائها، ويبدو أن بعضًا منها كان يتم الحصول عليه من الطائف. لذلك كانت القوافل تحمل من الطائف الجلود والعنب (طبقًا للواقدى) والنبيذ حيث اعترضها أتباع محمد [ﷺ] فى نخلة التى تقع بين الطائف ومكة. وكان لبضاعة جلود الطائف شهرتها ، وهى التى تشير إليها أغلب المصادر فى العصور التالية(*)(٥٠). وإذا تتبعنا فكرة عثمان بن الحويرث عن الهدية فهذا يعنى أن الجلود كان يتم إنتاجها فى مكة نفسها ، على الرغم مما تذكره إحدى الروايات عن أصول ثروة قُصى التى تدل على أن الأمر لم يكن دائمًا كذلك : فذكر أن قُصى ورث ثروته من رجل قدم لمكة لبيع الجلود(٥١). وأنتجت الجلود فى المدينة بعد الهجرة ، طبقًا لما ورد فى الحديث . ومن الواضح أن الرسول [ﷺ]

(*) كانت الطائف مشهورة بدباغة الجلود ، وفيها الأهب الطائفية المعروكة تدبغ وتُلين ويزال ما بها ثم تصدر. سحاب، المرجع السابق ، ص٢٣٦ . (المترجمة)

نام فى إحدى المرات وسط مدبغة للجلود فى المدينة؛ وقامت أسماء بنت أمية بصباغة أربعين قطعة جلد فى اليوم الذى توفى فيه زوجها. وهناك أرملة أخرى كانت تقف وسط المصبغة عندما قدم الرسول لزيارتها : لذا قامت بتنظيف يديها من الصبغة وقدمت له وسادة محشوة بالقش؛ وهلم جرا[٥٢]. وبطبيعة الحال فإنه من غير المجدى معارضة صدق هذه الروايات، وينطبق الأمر نفسه بالنسبة للمواد المرتبطة ببيع الجلود خارج الحجاز وعلى أى حال فمن الواضح أن هؤلاء الذين ندين لهم بالمصادر وضعوا تجارة الجلود فى مكة على رأس قائمة جميع البضائع ولا يمكننا أن نذهب أبعد من ذلك .

ولكن ثمة مشكلة تعترض طريقنا حيث إنه من غير المعقول أن يتمكن سكان هذا الوادى السحيق القاحل من إنشاء إمبراطورية تجارية ذات بعد عالمى على أساس جلود الحيوانات[*]. وبذل سبرنجر (Sprenger) أقصى ما عنده لتوضيح المغزى التجارى للجلود العربية مع الإشارة إلى ارتفاع أسعارها فى العصور الوسطى[٥٣]. إن الشهرة التى حصلت عليها البضائع العربية فى العالم الإسلامى فى العصور الوسطى ترجع فى المقام الأول لمكانة بلاد العرب الدينية أكثر منها لجودة منتجاتها[**]. وثانيًا إن إنتاج البضائع الجلدية لم يكن احتكارًا لأهل مكة قبل الإسلام أو بعده حيث يبدو أن الإنتاج كان يتركز فى العربية الجنوبية أكثر منه فى الحجاز . وكان يتم بيع الجلود فى قبر هود فى حضرموت[٥٤] وتصدر من سنا[٥٥] ، وكانت الجلود اليمنية من بين البضاعة التى كان يشتريها نعمان الحيرة من عكاظ[٥٦]. وكانت اليمن تسيطر على السوق فى

(*) لم يسبق لأحد أن ذكر أن امتداد قريش التجارى الواسع قام على أساس تجارتها فى الجلود فقط . لقد نشأ هذا الامتداد التجارى من قيامها بحمل البضائع المحلية والمستوردة والمتاجرة فيها ونقلها إلى الأسواق التى تحتاج إليها، وهو الأمر الذى تصر كرون على رفضه وتحاول بكل الطرق إلغاءه. وإذا لم يكن لقريش هذا الوجود التجارى الملموس والواضح فكيف تفسر لنا كرون وجود تلك الثروات الضخمة التى حققتها قبل الإسلام وهى التى تسكن فى ذلك الوادى السحيق ؟ وعن ثروة قريش راجع تعليق المترجمة ص١٧١-١٧٢ وما يليها، كما يتبادر إلى الذهن سؤال آخر وهو : كيف تمكن الإغريق وبلادهم فقيرة فى مواردها الاقتصادية من غزو أسواق البحر المتوسط فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ؟! (المترجمة)

(**) لم يسبق حسب علمنا معرفة منتج تجارى نبعت شهرته فقط من مكانة المنطقة الدينية التى ينتمى إليها فى أى عصر من العصور . وحتى لو افترضنا إمكانية حدوثه، فهو لن يكون إلا لفترة وجيزة ولن يقدر له الاستمرار إلا بسبب جودة المنتج . (المترجمة)

العصور الوسطى[٥٧]. والمعروف أنه حيثما يوجد الاقتصاد الرعوى توجد صناعة قوية للجلود ودباغتها، لذلك يبدو أن الجلود كان يتم إنتاجها فى جميع أنحاء جزيرة العرب[٥٨]. ويدخل فى إطارها دون شك الصحراء السورية : ولعبت الجلود دورًا مهما فى تجارة تدمر (Palmyra)، وأشار اليهود للجلود بالتحديد مع التجار من آل إسماعيل[٥٩]. ثالثًا إن بضاعة الجلود المكية لا تبدو أنها كانت على أحدث الطرز . لقد استخدم الجلد لأغراض مختلفة، فى الحجاز وأماكن أخرى ، فى الخيام ، والأحواض، والجرادل، والسروج، والجلود التى تعبأ فيها الزيوت والمياه والسمن، والأحزمة، والصنادل، والمراتب، وأدوات الكتابة ، بل فى صناعة المراكب كما رأينا سابقًا[٦٠]. أما الأنواع الفاخرة من هذه المنتجات فقد كانت تصنع فى اليمن[٦١]، وكان أهل مكة يقومون ببيع المنتجات الخام مع الجبن القريش والسمن والقَرْظ الذى اشتهروا به، وهو الأمر الذى يتفق مع ما ذكره هاشم عن رخص ثمنها[٦٢]، وإذا كان أهل مكة يعملون فى منتجات الجلود الرخيصة التى تستخدم يوميا، فلماذا اختار سكان سوريا البعيدة شراء تلك البضائع منهم على الرغم من أنها فى متناول أيديهم فى بلادهم ؟ وإذا كان أهل مكة يقومون بنقل مصنوعاتهم الجلدية على طول الطريق إلى سوريا ، فكيف يمكن إذًا أن تكون رخيصة الثمن؟ لقد تعامل وات (Watt) مع المشكلة بتجاهل تجارة قريش الجلدية باعتبارها غير ذات أهمية بالمقارنة بتجارة اللبان الذكر وبضائع الترف الهندية[٦٣]. ولكن القول بأن قريشًا لم يكن لها تجارة فى اللبان الذكر وبضائع الترف الهندية، يجعلنا نتساءل: كيف قدر لمكة إحراز هذا الازدهار الاقتصادى ؟ لاشك فى أن ثمة خطأ ما يوجد هنا .

٥ – الملابس

وطبقًا لرواية ابن الكلبى عن قصة الإيلاف، أنشأ هاشم تجارة المكيين الدولية بحصوله على الإذن ببيع، ليس فقط البضائع الجلدية ولكن أيضًا الملابس فى سوريا[٦٤]. وتوصف الملابس مثلها مثل الجلود بأنها حجازية[٦٥]، وثبت أن جزءا منها على الأقل

كان تجار قريش يقومون باختياره من قبـائل الحجـاز وهم فى طريقهم إلى سـوريا. وهذا يعني أنه لابد من أن يكون لديهم أقمشة صوفية ، ولكنها لم تكن حديثة الطراز مثلها فى ذلك مثل البضـائع الجلدية التي كان أهل مكة يتاجرون فيها ؛ وعندما عقدت المقارنة بين سُمْك ومَلْمَس مـلابس الحجـاز وبين أنواع من المنسـوجات تم الحصـول عليـها من مناطق أخرى فى العصر الأمـوى كانت النتيجة في غير صـالحها[٦٦]. وهذا يؤكد مرة أخرى السبب في رخص ثمنها .

إن تجـارة الملابس تثـير نفس مـشكلة تجـارة الجلود ، فـالبضـائع الجلدية لم يكن وجودها نادرا في سوريا، كما أن الملابس ذات الثمن الرخيص كانت تشبه وجود الفحم في نيوكاسل . وكان لدى سوريا تجارة النسيج الخـاصة بها، مثلها فى ذلك مثل مصر، وأصبحت صناعة النسيج فى أنطيوخ منذ القرن الرابع قادرة على إنتاج ملابس سميكة بثمن أقل من تلك التى كان يمكن أن تباع بها المـادة الخام للرهبان في الأماكن البعيدة حتى روما ، بل انتـشرت صـناعـة النسـيج فـى الريف ، وقـام غـالبـيـة السكان بصنع ملابسهم بأنفسهم، أو على يد الصناع المحليين[٦٧]. ولم تكن سوريا تفتقر إلى الأغنام، بل إن الصـحراء السـورية تعد أفضل من الحجـاز لرعى الأغنام[٦٨]. وادعى المكيون أن أكبر جزء من المنسوجات التى يتم نقلها بالقوافل من الحجاز إلى سوريا لمسافة تقدر بحوالى ثمـانمائة ميل ، كانت تبـاع للسوريين بسعر أقل من سعر البضـاعة المناظرة فى سوريا نفسها. إن هذا الكلام لا معنى له .

بل إنه يصبح عديم المعنى إذا وضعنا فى اعتبارنا أن الحجـازيين أنفسـهم قاموا باستيراد الملابس من سوريا ومـصـر ، وإن أحد التـجـار البيـزنطيين بـاع عبـاءة باهظة الثـمن فـى مكة[٦٩]. وكـان يتم ارتداء العبـاءات الصـفُورية من الجليـل فى المدينة[٧٠]. وعند عودة طلحة في القافلة من سوريا كان لديه رداء سورى[٧١]. وكـان من المفروض عودة ليس أقل من سبع قـوافل مـحملة بالملابس وبضـائع أخرى من بُصـرى وأذرعات ليهود المدينة في يوم واحد ، وظهر اليهود باعة للمـلابس فى مكان آخر[٧٢]. وورد ذكر كل من الكتـان السورى والقبطى المصرى في الشعر والنثر، لأن كلا من سـوريا ومـصر

كانتا المكانين اللذين يجهز فيهما المكيون أنفسهم بالثياب كما لاحظ لامينز[٧٣]. كما رأيناهم أيضًا وهم يزودون أنفسهم بالملابس من اليمن[٧٤]. ومن المفترض أن ملابس كل من شَحْر وعُمان كانت متاحة فى الحجاز بصفة عامة ، وقيل إن سراويل هجر (Hajar) تم بيعها فى الحجاز[٧٥]. وعلى هذا يمكن القول بأن تجار مكة كانوا يقومون باستيراد وتصدير السلعة نفسها ، ولكن هذا القول لا يعتبر صحيحًا تمامًا . إن الملابس التى قاموا باستيرادها من البحر المتوسط وأماكن أخرى كانت مصنوعة من الكتان والقطن وأنواع أخرى فاخرة من المنسوجات ، أما الملابس التى كانوا يقومون بتصديرها فهى ملابس صوفية وخشنة . وبمعنى آخر صُوِّر المكيون على أنهم وصلوا لدرجة من الثراء جعلتهم ينقلون الملابس الخشنة لمسافات طويلة جداً، ويشترون كميات قليلة من الملابس الفاخرة مشابهة فى طريق العودة . وإذا كان قد حدث هذا، فإنه يكون أمراً غريبًا . بطبيعة الحال يمكن للفرد أن يحقق عائدا عن طريق بيع كميات كبيرة من الملابس الخشنة، وشراء كميات قليلة من الأنواع الفاخرة وبيعها بأثمان باهظة فى الأقاليم التى لا تتوفر فيها . ولا يمكن للفرد القيام بهذا العمل إلا إذا توفر الزبائن الذين يجدون أن هذه الملابس الخشنة رخيصة بما فيه الكفاية ليقوموا بشرائها . فكيف يمكن لملابس الحجاز أن تنافس إنتاج جنوب سوريا ؟ يبدو أنه لا يوجد إجابة على هذا السؤال .

٦ - الحيوانات

إن أغلب عبارات ابن الكلبى فى قصة الإيلاف تذكر قيام أهل مكة ببيع البضائع الجلدية والملابس من بين البضائع التى يقومون ببيعها ، ولكن هناك بعض الاستثناءات . فقد عدد الكومى الجلود والملابس والبضائع الأجنبية مثل الفلفل[٧٦]. ومن ناحية أخرى ذكر الجاحظ والثعلبى الجلود والملابس ثم أضافوا أن قريشًا كانت تقوم بسوق الجمال إلى سوريا نيابة عن القبائل التى يمرون فى أراضيها[٧٧]. ولا يوجد هنا شىء لا يقبل العقل تصديقه، فالجمال كانت ترحل مع الجلود والمنسوجات الصوفية ، ومن المحتمل

أنها كانت تحمل الفلفل. إن أغلب الإحصائيات عن أنشطة قريش في أسواق سوريا توضح أنهم كانوا يبيعون بضائع غير حيوية (سلع بدائية) أكثر من الحيوانات، والصفقة الوحيدة التي رأينا فيها أحد التجار البيزنطيين يدفع له الثمن بالجمال عقدت في مكة وليس في بُصرى[٧٨]. وعلى أي حال فهناك شعر هجائي يُقدح فيه أهل مكة لأنهم كانوا يبيعون الحمير لقبائل دوس ومراد[٧٩].

٧ – مواد غذائية مختلفة

سبق أن رأينا عثمان بن الحويرث فكر في إرسال السمن لبيزنطة، كما قام عبد الرحمن بن عوف ببيع السمن والجبن الحالُوم في سوريا[٨٠]. هذا على الرغم من أن الصحراء السورية كانت تتوفر بها مثل هذه البضائع أكثر من المناطق القاحلة في مكة ومحيطها. وذاع أن عبد الله بن جدعان قام بإرسال ٢٠٠٠ (ألفي) جمل لسوريا لشراء السمن ، وعسل النحل ، والقمح ، لإطعام أهل مكة ، والتي بسببها ذاع صيته في الكرم[٨١]. وهكذا نرى أهل مكة ، مرة أخرى، ينخرطون في نشاط عجيب وهو تصدير الفحم لنيوكاسل، كما أنهم يقومون باستيراده منهم في الوقت نفسه(*). وذكر أن عثمان [رضي الله عنه] كان يعمل في تجارة المواد الغذائية ولكن لم تحدد أنواعها[٨٢]. وفي إحدى العبارات التي تضمنتها قائمة مهن الأشراف تذكر أن أبا سفيان كان يتاجر في الزيت مع الجلود. ويبدو أن المقصود هنا بالزيت هو الزبيب (في صيغة الجمع)، ويمكن أن يكون الزيت تم استيراده من سوريا[٨٣]. ولم يذكر لنا ما إذا كان عثمان [رضي الله عنه] قام باستيراد أو بتصدير البضاعة .

(*) اعتاد التجار الرومان القيام ببيع محصول القمح الإيطالي بعد تغطية حاجة السوق في روما لشهور قليلة في السنة، ثم يقومون باستيراده مرة أخرى من الخارج عندما تحتاج السوق الإيطالي له . وهكذا يحققون الأرباح مرتين: الأولى عند التصدير والثانية عند الاستيراد . وكثيرا ما ترتب على هذه السياسة أزمات اقتصادية وسياسية في روما خلال القرنين الثاني والأول ق.م . راجع عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ الروماني، عصر الثورة، القاهرة ١٩٧٣، ص٢٢-٢٤ . (المترجمة)

٨ - الزبيب

لاحظ لامينز بدهشة أن تجار مكة قاموا بتصدير عنب (زبيب) الطائف لبابل وحتى سوريا[٨٤]. والواقع أنه لأمر عجيب أن يقوموا بذلك ولكن القصة لم تصل لهذا الحد. وكان أمراً حقيقيا أن القافلة التى اعترضها رجال محمد [ﷺ] فى نخلة كانت محملة (بالزبيب) إلى جانب بضائع أخرى[٨٥]، ولكن هذه القافلة لم تكن فى طريقها من الطائف إلى مكة، كما لم تكن فى طريقها إلى سوريا. وكان أبو سفيان يتاجر فى (الزبيب)، ولكننا لم نره يرسله إلى منطقة أبعد من عكاظ[٨٦]. وإذا كان هناك ثمة تبادل للعنب بين سوريا والحجاز، فستكون سوريا هنا هى المصدرة له[٨٧](*).

٩ - النبيذ

وطبقًا لما ذكره الواقدى فإن القافلة التى تم اعتراضها فى نخلة لم تكن محملة فقط بالجلود والزبيب ولكن أيضًا بالنبيذ، كما هو واضح، من الطائف. ومن المفترض أن عقبة بن أبى المؤيد كان يتاجر فى النبيذ[٨٨]. ويبدو أن النبيذ الذى ذكره الواقدى كان ادعاءً يقف على قدم المساواة مع الذهب الذى أضيف إلى الفضة فى قردة، والفضة التى أضيفت للأسلاب فى حنين، ويرجع هذا الادعاء فيما يبدو إلى أن الجلود والعنب والنبيذ كانت أشهر ثلاثة منتجات تنتجها الطائف[٨٩]. إن تناول نبيذ الطائف فى مكة أمر معقول، حتى ولو لم يكن موجود شيئًا منه فى هذه القافلة، كذلك هناك إمكانية أن يقوم عُقبة بالتجارة فيه، فهذه الأشياء نعرفها. ولكن بلاد العرب لم تكن تصدر النبيذ، كما يبدو أن تجار مكة لم يكن لهم دور فى توزيعه فى شبه الجزيرة نفسها، إن النبيذ كان يأتى أولاً من سوريا، على الرغم من أنه لم يكن قاصراً عليها

(*) لم تلاحظ كرون أهمية اختلاف نضج محصول العنب فى كل من منطقة الطائف وسوريا، حيث ينضج المحصول الطائفى أسبق زمنيا نتيجة لاختلاف المناخ عنه فى سوريا، هنا تكون السوق السورية فى حاجة إليه قبل أن يتم نضج محصولها سواء فى العنب أو الزبيب والنبيذ ولو لفترة قصيرة. (المترجمة)

كما هو واضح من الشعر الجاهلى[٩٠]. وكانت سوريا "هى أرض النبيذ" فى عيون العرب[٩١]. ومن هناك كان يأتى عادة تجار النبيذ ، على الأقل لمنطقة شمال شرق الجزيرة العربية ، وكان عدد كبير منهم من اليهود والباقى من المسيحيين[٩٢]. وكان السوريون العرب وغير العرب هم تجار النبيذ فى المدينة قبل منع الخمور فيها[٩٣].

١٠ - العبيد

ذكر أن عبد الله بن جدعان كان تاجرا للرقيق، وأنه كان يحتفظ بإناث العبيد لاستخدامهن فى البغاء، أما أبناؤهن فكان يقوم ببيعهم[٩٤]. وعلى الرغم من أن مثل هذه الممارسات ثبت وجودها فى أماكن أخرى من بلاد العرب، فإن المعلومات ذات القيمة عنها تعد معلومات غامضة[٩٥]، وعلى أى حال ، فإن الإناث موضوع الحديث هنا كن حبشيات وأجنبيات أخريات أكثر من كونهن عربيات، مما يقودنا مرة أخرى إلى السؤال الذى سبق مناقشته[٩٦]. فمن المعروف أن العرب اعتادوا فى الجاهلية استعباد بعضهم البعض نتيجة لشن الغارات القبلية وللحروب، وقد قام أحد أفراد هذيل ببيع أحد أسرى الحرب فى مكة[٩٧]. وبالرغم من ذلك فإن إمكانية قيام العرب بتصدير العبيد العرب لبيزنطة ومناطق أخرى يمكن أن نسقطها من جانبنا ، حقيقة اعتاد رجال القبائل استعباد بعضهم البعض، لأنه لا يمكن لتجار العبيد أن يصلوا من الخارج لبلاد العرب، وإذا قدر للإغريق والفرس الذهاب لبلاد العرب من أجل العبيد ، لأمكن لقريش أن تحقق ثروة من هذه التجارة ، ولكن فى واقع الأمر ترك تجار العبيد فى العالم القديم الجزيرة العربية لحالها(*). وكانت الصحراء موحشة ، كما كان

(*) لم يكن العرب بعيدين عن تجارة العبيد قبل الإسلام ، ويؤيد ذلك ذكر الرقيق فى كثير من النقوش العربية القديمة . جلب العرب الرقيق من سواحل البحر المتوسط ومصر وشرق أفريقيا والهند ، وكانت هذه التجارة تشكل جزءا من تجارة العرب الداخلية والخارجية . وراجت تجارة العبيد عند المعينيين ويتضح ذلك من قائمة عبيد المعبد Hierodulenlisten التى قدمها ريكمانز Ryckmans والتى ورد فيها ذكر أربع وسبعين من الإماء من جنسيات مختلفة من غزة ، ومصر ، وديدان وغيرها . ويبدو أن تجار معين =

سكانها مستعدين لشن الغارات المنظمة على الذين يرغبون فى الحصول على العبيد ، بل يبدو أن العرب أنفسهم كان لديهم شعور عميق بوحدة الأصل يمنعهم من أن يبيعوا أسراهم للدخلاء مثلما كان يفعل كل من الأفارقة والأتراك، ولدينا أدلة كثيرة متوفرة من خلال المصادر الكلاسيكية والإسلامية تدل على وجود إغريق وسوريين وفرس وجنسيات أخرى اتخذهم العرب عبيداً[٩٨]، ولكن من النادر جداً وجود عبد عربى خارج نطاق شبه الجزيرة العربية ، ولا يوجد دليل على قيام أى تاجر قرشى بتصدير هذه السلعة[٩٩]. وفى غياب السوق الأجنبية ، لم يكن هناك مراكز كبيرة لتجارة العبيد العرب. وكان تجميع وتوزيع مثل هؤلاء العبيد يتخذ له مكانا فى كل أنحاء شبه الجـزيرة العربية ، ولا يوجد دليل على أن مكة لعبت دوراً فى مثل هذه العملية عن أى سوق من الأسواق الأخرى[١٠٠](*).

= قدموا بعض الإماء إلى معابدهم كجزء من ضريبة التجارة ، فى حين اتخذ بعضهم الآخر منهن زوجات لهم ، كما قامت أخريات بالخدمة فى المنازل . راجع : Ryckmans (J.), Hierodulen listen, de Macin et la Colonisation Minaenne, in Scrinium Lovaniense: Melanges historiques Etienne Van Cauwenbergh, Louvan (1961); . وراجع: الفاسي، هتون أجواد : "الحياة الاجتماعية فى شمال غرب الجزيرة العربية فى الفترة ما بين القرن السادس قبل الميلاد والقرن الثانى الميلادى"، الرياض، ج١، ١٩٩٤، ص١١٩، سعد الخثعمي، المرجع السابق، ص٦٠-٦٢، وعن جنسيات العبيد فى مكة والسوق المخصص للنخاسة فى وسط المدينة والحرف والأعمال التى قاموا بها راجع : سلامة (عواطف) المرجع السابق، ص٦٣-٦٩ . (المترجمة)

(*) فى الفصل الثالث من ص١٠٩ وحتى نهاية الفصل الرابع ص١٨٥ من الترجمة تغفل كرون متعمدة توضيح الفوارق بين ثلاثة أنواع من التجارة : (١) التجارة المحلية ، (٢) التجارة شبه الدولية ، (٣) التجارة الدولية ؛ حتى تبعثر تركيز القارئ وتقوده إلى النهاية التى خططت لها مسبقا وهى هدم تجارة قريش العالمية قبل ظهور الإسلام .

فالنوع الأول منها نبع من حاجة جزيرة العرب إلى التبادل التجارى داخل الجزيرة العربية وبلاد الشام منذ زمن سحيق، وأدى ازدهار التجارة الدولية إلى ازدهار هذا النوع من التجارة نظراً لزيادة مصادر الثروة ، فاقبلوا على شراء الطعام والملابس والعبيد . وكان البدو يصنعون الجبن والسمن ويشترون مقابله الخمور والدقيق والحبوب والزيت والسكر والزبيب . ويدخل فى إطار هذه التجارة تجارة النسيج واشتهرت البُرد اليمنية، وفاخر آل مخزوم بإكساء الكعبة من القماش اليمنى الفاخر الذى كان سببا من أسباب ثروتهم . وحملت القوافل من الشام المنسوجات والمصنوعات القطنية والصوفية بل المنسوجات الحريرية أيضاً. أما الجلود فكانت من إنتاج قريش الخاص واشتهرت الطائف بأنواع معينة منها . وبالرغم من ذلك فلم تكن الجلود تمثل احتكارا بأية حال، وكانت تجارتها خارج إطار الصراع الدولى على تجارة الشرق . =

١١ - حِرف أخرى

طبقًا لقائمة مهن الأشراف اعتاد سعد بن أبى وقاص [رضى الله عنه] سن السهام(١٠١)، ومن الممكن أنه كان يقوم بذلك ، ولكن سهام يثرب هى التى ضُرب بها المثل فى الشعر العربى وليست رماح مكة(١٠٢). وذكر أن واحدا من أهل مكة قام

= أما النوع الثاني والمتمثل في التجارة شبه الدولية ، فكان يمكن لبضاعتها أن تكون جزءا من التجارة الدولية لأن منبعها ومصبها خارج شبه الجزيرة . وتتمثل في تجارة الحرير والذهب والأحجار الكريمة والرقيق الحبشي والسوري،وفي الأدوات المعدنية والأسلحة كالسيوف والتروس ورءوس الحراب والرماح وكذلك العاج والأبنوس. وكانت القوتان العالميتان قادرتين في ذلك الحين على أن يكون لدى كل منهما مصادرها للحصول على تلك البضائع . أما العاج والأبنوس فهما مادتان ثقيلتان ، ولو حملت منها القوافل المكية فلن تحمل المقادير التى تجعل تجارتها عبر الطرق البرية الطويلة تجارة مجزية . لأن التجارة المجزية على مثل هذه الطرق ينبغي أن تكون خفيفة غالية في سعرها وهذا يقودنا إلى التجارة الدولية التى دار حولها صراع الفرس .

التجارة الدولية ، وهى التى اصطلح الباحثون على أنها تنقسم إلى أربع فئات ، وهى : البخور والتوابل والحرير والفضة . ويندرج تحت كل فئة من هذه الفئات أنواع عديدة تختلف في مصادرها وبالتالى فى موقعها على خريطة الصراع السياسي والعسكري، ويمثل البخور العربي أجود الأنواع وهو ذلك الذى كان مصدره ظفار فى حضرموت ، وقد احتكر العرب تجارته منذ أقدم العصور ونقلوها إلى العالم الخارجي عبر طريق القوافل الصحراوية ، ويمثل هذا الطريق أفضل طرق نقله للأسواق العالمية ، بل كان لهذا المحصول الفضل في الحفاظ على بقاء هذه الطرق على قيد الحياة عندما احتدم الصراع بين الفرس والبيزنطيين على شبه الجزيرة العربية لاحتكار مصادر ثروتها .

ويضاف إلى اللبان المُقل والكشت والبلنجوج أو العود الهندى ويسمى الكباء والعنبر الفارسي والسيلاني والمسك والصندل والكمكم والضرو ، واللادن أو اللاذن والأذخير أو الحمض والوَجّ والبلسان والمُر والسنا أو القرفة الصينية وهى دواء ينبت - رغم اسمه - فى الجزيرة العربية والصومال ، والبلسم وهو نبات طبى اشتهرت به اليمن وأصبح اسمه اسما لكل دواء من كثرة انتشاره ، ويضاف إلى ذلك القرفة العربية ، وأنواع من الأصباغ مثل الورس وهو صباغ يمني أصفر اللون يستخرج من نبات يشبه السمسم ويتخذ منه الزعفران، ودم الأخوين والخطر وهو خضاب يمني .

ويلاحظ أن نسبة كبيرة من بضاعة هذه التجارة كان مصدرها جزيرة العرب . وقد حملت القوافل العربية هذه البضائع مع اللبان ، مما يؤيد الرأى القائل بتعزيز اللبان وتنشيطه لطريق القوافل العربية. أما بخصوص البضائع الشرقية سواء من الهند أو الصومال أو الحبشة فإن قرب الجزيرة العربية من الأسواق البيزنطية بالمقارنة مع طريق الهند والحبشة لهذه الأسواق، واضطراب الأوضاع على طريق الهند والحبشة في القرن السادس بالمقارنة مع السلام الذى عم القبائل العربية وطريق قوافلها بفضل إيلاف قريش قد روجت للبضائع العربية وسهلت تصريفها قبل نظيرتها الآتية من بلاد أخرى . وهذه العوامل إذا ما أضيفت إلى العوامل التى أضرت بالطرق البحرية فلابد من أنها ضخمت تجارة القوافل العربية وزادت حصتها من تجارة الشرق وضاعفت أرباح القبائل العربية وزادت ثقتها بمشروعها المشترك . (المترجمة)

بصناعة وبيع الأوثان ، وبطبيعة الحال لم يكن هو الوحيد الذى قام بهذا العمل ، على اعتبار أن كل بيت فى مكة كان مزودا بأحد التماثيل ، بل حتى البدو كان يمكنهم القيام بشرائها. ولكن من الصعوبة أن نتخيل أن مكة كانت تدين بثروتها لتجارة التماثيل، إضافة إلى أنه ليس هناك أى تسجيل لبيع تماثيل للحجاج .

وعلى ذلك يمكننا أن نلخص ما تقدم في الآتي : قام المكيون بتصدير نوع واحد من البضائع اليمنية الممثلة فى العطور، وقاموا بتصدير عدة بضائع مكية تتمثل فى : الجلود والملابس، وربما أيضًا الجمال أو الحمير وبعض السمن والجبن الموسمى، ولم تكن أى من هذه البضائع نادرة الوجود في سوريا، كما كان لدى الإمبراطورية البيزنطية صناعتها الخاصة في ميدان العطور والمنسوجات، إضافة إلى ذلك أمدتها الصحراء السورية بالجمال والأغنام ومنتجاتها، وكثيراً ما ورد وصف المكيين عند عودتهم ، بأنهم كانوا يحملون منتجات تماثل أو تشبه تلك التي قاموا ببيعها. ولا يبدو أن البضائع المكية المذكورة كانت من الأنواع الممتازة فيما عدا العطر اليمنى . وكانت أغلبها غير مهندمة وغالبيتها رخيصة في ثمنها، ومن الممكن بل فى أغلب الظن أن معظم المعلومات التى ترتكز عليها هذه الخلاصة تعتمد على معلومات وهمية بما فى ذلك الفضة والذهب والفلفل ، واتفقت القصة بطريقة مثيرة للدهشة على نوع البضائع التى كان يتاجر فيها أهل مكة . وبطبيعة الحال فإن هذه النقطة الجوهرية يمكن أن تكون غير صحيحة . وإذا كان الأمر كذلك فلا يوجد ما يمكن أن يقال فى موضوع تجارة مكة ، وتكون هذه هى أفضل نتيجة يمكن أن يكون لها معنى فى النهاية. ولكن إذا تم قبول الصورة التى رسمتها الرواية المتواترة، فمما لا شك فيه أنه يجب مراجعتها بدقة شديدة . وهو العمل الذى سوف أقوم به تحديداً فيما يلى.

الحواشى

(١) ابن هشام، السيرة، ص٥٤٧؛ الواقدى، المغازى، ج١، ص١٩٧ وما يليها؛ ابن سعد ، الطبقات، ج٢، ص٣٦؛ البلاذرى، أنساب، ج١، ص٣٧٤؛ الأغانى ، ج١٧، ص٣٢٤ (أخذ أغلب المعلومات من الواقدى)؛ اليعقوبى، تاريخ، ج٢، ص٧٣ .

(٢) كان أبو سفيان هو القرشى الوحيد الذى ذكره ابن إسحاق بالاسم ، كما كان ما يزال موجودا لدى كل من اليعقوبى ودراسة الواقدى عن غزوات الرسول [ﷺ]. (المغازى، ج١ ،ص٣؛ على عكس ما هو موجود فى النص الرئيسى)، ولكنه حُذف من عبارات أخرى وحل محله صفوان.

(٣) "وبها عظم تجارتهم". وبالمثل فى دراسة ابن حميد لما أورده ابن إسحاق المذكور فى الطبرى، التاريخ ، مجلد١، ص١٣٧٤؛ ومحمد بن سلامة المذكور لدى حميد الله M. Hamidallah, ed., Sirat Ibn Ishaq, no.500 .

(٤) Sprenger, Leben, III,94 والحاشية المذكورة فيها؛ Lammens, "Republique Marchande", pp.46f. ويبدو أن ولف هو الاستثناء الوحيد E.R. Wolf, The Social organization of Mecca and the Origin of Islam, p.113. وهو ليس من المتخصصين فى الدراسات الإسلامية وقد اعتمد فى دراسته على كل من سبرنجر Sprenger ولامينز Lammens .

(٥) كانت الفضة جزءًا من المكوس التى دفعها بعض الحكام العرب للآشوريين فى القرن الثامن ق.م Rosmarin, "Aribi und Arabien", pp.8f وقد ذكرها إسترابون فى قائمته بأنها واحدة من المنتجات الوطنية فى العربية والتى لم يقم الأنباط باستيرادها Geogrophy, XVI,4,26 ويبدو أنهم والجرهائيون كان لديهما ما يكفى منها. وفى عام ٣١٢ ق.م نهب الأنباط كميات كبيرة من الفضة والمر واللبان Diodorus Siculus, Bibliotheca, XIX, 45:13. وأرغم الجرهائيون فى عام٢٠٥ ق.م على دفع ضريبة كبيرة من الفضة ، وزيت المر Stakte واللبان Polybius, History, XIII,9 .

(٦) راجع أعلاه الفصل الثانى، حواشى، (١٥٠، ١٦٠).

(٧) الطبرى، تاريخ، مجلد(١)، ص٩٨٤؛ راجع أيضا: Lyall, Mufaddaliyat, I,708 (ad CVI,6) وفيها تم استبدال السبائك بالأوانى.

(٨) ويوجد عدد من مناجم الفضة فى أجزاء غير معروفة من بلاد العرب طبقا لما ذكره (الهمدانى، جوهرة العيان،ص١٤٢=١٤٣؛ . Dunlop, "Sources of Gold and Silver", p.40 وقد ورد ذكر لبعض

المناجم التي لها ارتباط بحياة الرسول [ﷺ] ولكن دون تحديد لمحتوياتها وربما كانت تحتوى على الفضة فى المقام الأول، ولكن يبدو من الناحية العملية أنها كانت مناجم ذهب(*)، أما تلك المناجم التى لم تكن معروفة، فقد كانت كذلك لأنها لم تكن قد استُغلت بعد .

(٩) عن المصادر راجع حاشية ٤٢-٤٥ بعدُ .

(١٠) وذلك فى فترة مبكرة منذ ابن هشام .

(١١) وقاموا بتأجير رجل من بكر بن وائل يسمى فرات بن حيان(ابن إسحاق المذكور لدى ابن هشام ، السيرة، ص٥٤٧؛ والشيء نفسه فى روايات أخرى). الواقدى، المغازى،ج١،ص١٩٧؛ لقد كان المرشد أجنبيا مثل أولئك الأشخاص الذين كانوا يستفيدون من عمله .

(١٢) وذكرت إحدى روايات المفسرين (السورة رقم ٥ الآية الكريمة رقم١٠٥) أن أحد موالى قريش ذهب لسوريا أو الحبشة فى تجارة، حاملا فيها قدحا من الفضة Jam ، كما قيل أنه كان مُوَشى بالذهب (وقام ابن عساكر بجمع عبارات أخرى: على بن الحسين بن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج١٠، ص٤٧٠ وما يليها. أما النص الأصلي الذى صيغت حوله كل الرويات فقد قدمه إسماعيل بن عمر بن كثير، تفسير القرآن العظيم،ج٢،ص١١١ وما يليها حيث تمت فيه مناقشة الروايتين). لقد قُدم هذا القدح هدية إلى الملك، ولذا لا يمكن أن يدعى أحد بأن قريشاً كانت تقوم بتصدير الأوانى الفضية فى الظروف العادية .

(١٣) ابن هشام ، السيرة ، ص٤٦٩ ، ولا يذكر ابن إسحاق اسم المكان أو التاريخ (الواقدى ، المغازى ، ج٢، ص٥٥٢ وما يليها؛ ابن سعد، طبقات ،ج٢، ص٨٧؛ وراجع كذلك البلاذرى، أنساب، ج١، ص٣٧٧، ٣٩٨، ولم يرد ذكر لمحتويات القافلة)(**) .

(١٤) وقد أضاف الواقدى أن المغيرة بن معاوية بن أبى العاص قد حضر أيضًا فى اللقاء الثانى (المغازى، ج٢، ص٥٥٣) .

(١٥) ابن هشام ، السيرة، ص ٧٥٢؛ الواقدى ، المغازى، ج٢،ص٦٢٧ .

(١٦) ورد ذلك لدى كل من الواقدى وابن سعد، وليس لدى البلاذرى الذى يذكر عيان ayan آخر فقط .

(١٧) البلاذرى، أنساب ،ج١،ص٣٦٣ ويوجد عدة اختلافات بخصوص هذه القصة فقد كانت فى يوم حنين

(*) لم تذكر كرون هنا المصادر التى اعتمدت عليها فى هذا الترجيح . (المترجمة)

(**) لا يوجد تعارض بين ما يذكره ابن هشام (ت بين ٢١٣ – ٢١٨هـ) وما ذكره الواقدى (ت ٢٠٧هـ). فقد ذكر الأول "مالاً له وأموالا لرجال قريش" ، وحدد الثانى هذه الأموال بأنها"فضة كثيرة" لأن المقصود بالمال فى ذلك الوقت هى "النقود المعدنية" وليست الورقية بطبيعة الحال. أما السبب فى أن الواقدى كان أكثر تفصيلا فيما يخص المكان والزمان الذى تم فيه الاستيلاء على قافلة قريش، فيرجع لتنوع المصادر التى اعتمد عليها كل منهما ، على الرغم من أن كلاً منهما كان معاصرا للآخر. راجع ابن هشام، ج١، ص٦٥٧، الواقدى، المغازى، ج٢، ص ٥٥٣ . (المترجمة)

(الذى هزمت فيه هوازن) عنــدما طلب الرسول [ﷺ] من سفيان بن أميــة أن يقرضـه مالا (أو دروعا) (أحـمـد بن حنبل، المسند، ج٤، ص٤٦٥)، وأنه كـان في مكة عندمـا قـام بذلك (الطبري، تاريخ، مـجلد٣، ص٢٣٥٧)، حدث ذلك عندمـا أسلم حويطب بن عبد العزى فطلب الرسول [ﷺ] منه القرض؛ وشـارك حويطب بعد ذلك في معركة حنين (الطبرى، التاريخ، ج٣،ص٢٣٢٩) وهكذا(*).

(١٨) الواقدى ، المغازى، ج٣،ص٩٤٤ وما يليها؛ ابن سعد ، الطبقات، ج٢، ص ١٥٢ وما يليها ؛ وهذه القصة معروفة من خلال مصـادر أخرى، ولكن دون ذكر الفضة ، كما لم تكن الفضة من بين الغنائم التى تم توزيعها.

(١٩) الواقدى ، المغازى ، ج١،ص١٩٨؛ زبير بن بكر، الأخبار الموفقيات ، ص٦٣٥ مأخوذة من موفقيات ابن حجر، الإصابة ؛ ج٢،ص١٢، رقم ٢٨١١ راجع مادة زنبة بن سلامة وقد قام على بن محمد الماوردى بتلخيص القصة ولكنه لم يذكر الذهب في : أعلام النبوة ، ص١٩٤، ويرجع الإسناد فيها إلى الكلبي. وورد ذكرها مع تغيير طفيف في الصياغة لدى أبي الباجة هبة الله، المناقب المزيدية، رقم ١١، أ ، ب.

(٢٠) "جاءت قافلة قريش إلى سوريا بدون الذهب هذا أمر مستحيل " وهذا ما صرح به زنبة Zinba محصل الضرائب في الرواية التى ذكرها أبو الباجة (المناقب رقم ١١ب).

(٢١) ذكرت المصـادر الكلاسيكية أن الأقاليم التي يوجد فيهـا الذهب تقع في جنوب بلاد العرب -Agathar chides, 95ff; Pliny, NH., VI,161; Von Wissmann, "Ophir und Hawila", ويعتقد جلاسر أن الذهب كان يتم استيراده من عُمانا Ommana وأبولوجوس Apologos (الأبلة uballa) في كتاب الطواف Periplus, 95، ومن اليمامة Skizza, II,350, with reference to Hamdani .

(٢٢) راجع: الهمـداني، جوهرة العيان، ص١٢٧ وما يليهـا=,"Dunlop, "Sources of Gold and Silver pp.154f.، أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، كتاب البلدان، ص٣١٦ وما يليهـا=;Les pays, pp.154f Wohaibi, the Northen Hijaz, pp. 160,293, أما الذهب الذى قام بدفعه مختلف الحكام العرب

(*) يذكر ابن هشام ج٢،ص٤٤٠، أن الرسول (ﷺ) عندما كان يستعد لملاقاة هوازن "ذُكر له أن عند صفوان ابن أمية أدرعا وسلاحا، فأرسل إليه وهو يؤمئذ مُشرك وكان في المدة التي جعل له رسول الله صلى الله عليه وسلم الخيار فيها– فقال : يا أبا أمية، أعرنا سلاحك هذا نلق فيه عدونا غداً . فقال صفوان أغصبْا يا محمد؟ قال بل عارية ومضمونة حتى نؤديها إليك ؛ قال: ليس لهذا بأس، فأعطاه مئة درع بما يكفيها من السلاح، فزعموا أن رسول الله سأله أن يكفيهم حملها، ففعل. ثم يذكر بن هشام أن الرسول (ﷺ) بعد أن منّ الله تعالى عليه بالنصر يوم حنين ، وبعد أن انصرف عن حصـار الطائف"ومعه من هوازن سبى كثير" قـام بتقسيم الفيء وأعطى لكل من أبـي سفيان وكان قـد أسلم يـوم الفتح وحسن إسلامه مئة بعير ولكل من حويطب بن عبد العزى وصفوان بن أمية مئة بعير (ابن هشام، ج٢، ص٤٨٨). وكان كلاهما قد بايع رسول الله قبل ذلك اليوم – يوم الجعرانة – راجع ابن هشام،ج٢، ص٤٩٤، طبعة بيروت. (المترجمة)

للملوك الآشوريين فيبدو أنه جاء من أقصى شمال شبه الجزيرة العربية Rosmarin, "Aribi und Arabien", pp.8f. ويبدو أن الأنباط فعلوا الشيء نفسه. Strabo, Geography, XVI,4:26.

(٢٣) يقول أولئك الذين يعرفون مكة أن بها جبلين هما العير والعيرة ،وهما يشرفان على مكة ، يوجد فيها منجم للذهب = Hamdani in Dunlop, Sources of Gold and Silver, p.37 ؛ الهمداني ، جوهرة العيان، ص١٣٧=١٣٦) ولكن يبدو أنه لا يوجد جبل أو جبلان يسميان باسم العير(راجع ياقوت ، البلدان، ج٣، وما يليها؛ أبو عبيد بن عبد الله بن عبد العزيز البكري، معجم ما استعجم، ص٦٨٨وما يليها). والجدال حول الموضوع يسبب مشكلة . فقد ورد ذكر العير وثور في الرواية عند تحريم المدينة . ويرفض أهل المدينة القول بأنه كان يوجد في مدينتهم جبل يسمى جبل ثور، كما رفض مُصعب (ابن الزبير) أنه كان يوجد جبل يسمى العير (البكري، معجم، ص٢٢٢ وما يليها مادة ثور)(*) .

(٢٤) حجاج بن اللات: في رواية ابن إسحاق عن محمد بن سلامة (حميد الله، السيرة، ص٤٩٥) والتى استخدمها ياقوت (البلدان، ج١، ص٤٩٨ وما يليها مادة بحران) ولكن ابن هشام لم يستخدمها (السيرة، ص٢٤٤) وكذلك ابن حميد (الطبرى، التاريخ مجلد١، ص١٣٦٨) الغزوات: ابن هشام، السيرة، ص٥٤٤؛ الواقدى ، المغازى، ج١، ص٢ ، ١٩٦ وما يليها.

(٢٥) الواقدى ، المغازى، ج٢، ص٧٠٢ وما يليها (راجع ج١، ص٩٦)، وكذلك ابن سعد ، الطبقات، ج٤، ص٢٦٩ وما يليها(يوجد جزء ناقص فيها)؛ على بن الحسين بن عساكر، تاريخ دمشق الكبير، ج٤، ص٤٨ . ويوجد رواية أقل إحكاما كان يعرفها ابن إسحاق (راجع، ابن هشام، السيرة، ص٧٧٠ وما يليها) حيث قام بإقراض أهل مكة مالا من مصدر مجهول.

(٢٦) Wohaibi, The Northern Hijaz, p.133, cf.p71 وقام بتصحيح المسعودى في الخطأ الذى كان قد وقع فيه بسبب الواقدى . ومن الواضح أن الواقدى اعتقد أن المنجم الذى كان يملكه سلَمى، هو مدين بن سلَيم . واعتقد آخرون أن منجم سلَمى كان ينتج الفضة كذلك . ابن حنبل، المسند ، ج٤، ص٤٣٠؛ راجع Lammens, Mecque, p.291؛ ابن سعد، الطبقات،ج٢، ص٢١٣ .

(٢٧) البلاذُرى، فتوح ، ص١٢ وما يليها . وعلى بن أحمد بن حزم، جوهرة أنساب العرب، ص٢٠١ . وياقوت، البلدان ، مجلد ٤، ص٣٢، مادة القَبَليَّة . وابن سعد ، طبقات ، ج٢، ص٢١٣ .

(*) يذكر ياقوت أن "العير جبل بالحجاز، قال عَرام : عير جبلان أحمران من يمينك وأنت ببطن العقيق تريد مكة ومن عن يسارك شوران وهو جبل مطل على السد" راجع ياقوت ، البلدان ، مادة عَيْرُ ج٤، ص١٧٢، ويخبرنا ياقوت أنه ورد في الحديث: أن النبي (ﷺ) حرم ما بين عير إلى ثور، وهما جبلان: عير بالمدينة وثور بمكة.. وقال بعض أهل الحديث: إنما الرواية الصحيحة أنه عليه الصلاة والسلام ، حرم ما بين عير إلى أحد ، وهما بالمدينة . كما يخبرنا "أن العَيْرَة موضع بأبطح مكة . راجع البلدان، ياقوت مادة عَيْرُ، العيرة، ج٤، ص١٧٢ طبقة بيروت؛ البكرى، معجم ، مجلد١، مادة ثور، ص٣١٥، طبعة بيروت ١٩٩٨ ويذكر البكرى أن عَيْر، جبل بناحية المدينة ، معجم ، مجلد ٢، ٢٣٩ . (المترجمة)

(٢٨) الواقدى ، المغازى، ج١، ص٢٧ وما يليها. (قيم الذهب بالمثقال والدينار) المناقب، رقم (١١) أ، ب، وفيه شرح "أن الغساسنة اعتادوا الحصول على بعض الذهب الذى كان يوجد مع التجار"؛ وبمعنى آخر يمكن القول بأن جميع التجار يقومون بحمله معهم . وكان أى قرشى فى القافلة يفعل الشيء نفسه ، وقد فضل أحد التجار أن يقوم بإخفائه بدلا من أن يعطيه للجمل لكى يبتلعه، كما فعل عمر [ﷺ] وآخرون مما يدل على أن الكميات كانت قليلة وكان يتم توزيعها بين الأفراد: ولم يكن الذهب هو تلك السلعة التى تحملها القوافل : وسبقت الإشارة إلى التعجب من استيراده فى الحاشية السابقة رقم (٢٠) (*)، حيث أصبح من الواضح "كيف يمكنهم الانخراط فى تجارة العبور دون أن يكون لديهم المال؟ بدلا من القول ما هى الأشياء التى أحضروها للبيع طالما أنه لا يوجد ذهب لديهم" .

(٢٩) وفى مصدر آخر أصبح من المسلم به أن المكيين كانوا يدفعون ثمن البضائع التى يشترونها بالبلايين(**). وقد اشتهر عن ابن عباس أنه أخذ معه عشرين أوقية من الذهب عندما ذهب إلى بدر، لينفقها على شراء طعام لقومه (***) ؛ واشترى أبو بكر بلالا ودفع فيه رطلاً من الذهب (على بن أحمد الواحدى، أسباب النزول ، ص١٨٠، ٢٣٧).

(٣٠) Miller, Spice Trade, p.199 ؛ وراجع حواشى رقم ٤٣-٤٥ أدناه.

(٣١) المرزوقى، الأزمنة، ج٢ ،ص١٦٤؛ قارن الرواية المختصرة والشبيهة بها المذكورة فى اليعقوبى، تاريخ ، ج١،ص٣١٤ (مذكورة فى الفصل الثانى أعلاه ، حاشية رقم ٥٩)؛ أبو العباس أحمد القلقشندى، صبح الأعشى،ج١، ص٤١١؛ أبو حيان التوحيدى، كتاب الإماطة والمؤانسة ،ج١، ص٨٤ .

(٣٢) .Lyall, Mufaddaliyat,I,708 (ad CV1,6) قرض أبانَ الحاكم الفارسى ضريبة العشر على عدن (راجع المصادر المذكورة لدى المرزوقى واليعقوبى فى الحاشية السابقة وابن حبيب، المحبر، ص٢٦٦ .

(٣٣) انظر الفصل الخامس أدناه، ص١٢٢ وما يليها.

(٣٤) عن عبد المطلب: الطبرى، تاريخ، مجلد(١)، ص١١٦٢؛ وعن والدة عبد الله بن أبى ربيعة، الأغانى، ج١ ،ص٦٩ وما يليها؛ الواقدى، المغازى ،ج١، ص٨٩؛ البلاذرى، الأنساب، ج١،ص٢٩٨ وما يليها؛

(*) إن التعجب الوارد فى هامش (٢٠) لم يكن من استيراد الذهب ولكنه كان لعدم وجوده أصلا فى قافلة قريش، مما يدل على أن القوافل اعتادت حمله كمادة خام كانت بيزنطة تُحصِّل عليها الضرائب فيما يبدو. ومن هنا جاءت دهشة زنبة مُحصل الضرائب البيزنطى. وهذا لا ينفى أن يقوم التجار بطبيعة الحال بحمل النقود الذهبية معهم للتجارة التى لا يمكنهم الانخراط فيها بدونها. (المترجمة)

(**) لا يجوز استخدام اصطلاح البلايين المعاصر فى الفترة الزمنية التى يتحدث عنها الكتاب لأنها لم تكن معروفة فى حينه . (المترجمة)

(***) افتدى العباس نفسه بسبعين أوقية وابن أخيه بسبعين أوقية عندما أسرهم المسلمون فى معركة بدر الكبرى. راجع اليعقوبى ، تاريخ ، ج٢، ص٤٦، ولم يذكر اليعقوبى ما إذا كانت ذهبا أم فضة، ولكن ذلك يؤكد على وفرة النقود فى مكة سواء من الذهب أو من الفضة. (المترجمة)

ابن سعد، الطبقات، ج٨، ص٣٠٠ وعن نساء أخريات كن يبعن العطور في المدينة في عهد الرسول [ﷺ] راجع: ابن الأثير، أسد، ج٥، ص٤٣٢، ٥٤٨ وما يليها؛ ابن حجر، الإصابة، ج٨، ص٥٦، ١٩١، حواشي ٣١٤، ١٠١٤، مادة: "خولة ومليكة بنات السائب بن الأقرع" ؛ وعن أبي طالب، ابن رُستة، الأعلاق، ص٢١٥؛(*) ابن قتيبة، معارف، ص٢٤٩ .

(٢٥) وعن عمرو بن العاص: محمد بن يوسف الكندي، حكام مصر وقضاتها، ص٦ وما يليها. وعن الحكم بن العاص: الأغاني ، ص١٧،ص٣٠٩ والعبارة المناظرة لها المذكورة في F. Schulthess, ed.and tr., Der Diwan des arabishen Dichters Hatim Tej, p.29=48 and n. XLV111 ؛ ولم يُذكر ما الذي كان ينوي القيام ببيعه في الحيرة؛ ولكن الروايتين نكرتا أنه طُلب منه أن يحضر الطيب معه الذي طَيَّبَ به الضيوف بعد تناوله الطعام عندما كان في الطريق . ويبدو أنه كان طيبًا أكثر من كونه عطرا، ولكنه كان في كل الحالات منتجًا نهائيًا مرة أخرى. وعن زوجة عمر [ﷺ] راجع: الطبري، تاريخ، مجلد (١)، ص٢٨٢٣ .

(٢٦) Miller, Spice Trade, pp. 199f.

(٢٧) الواهدي، أسباب، ص ٢٠٨ (عن سورة الحجر رقم (١٥)، الآية الكريمة رقم (٨٧)؛ محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ، ج-١٠، ص٥٦ (ولأول مرة استعان بهما كستر في Kister, "Some Reports", p.77n وهو عمل غير ناضج من ابتداع المفسرين سأعود إليه مرة أخرى في الفصل الأخير، وظهر اليهود أيضًا تجارًا للعطور(أينما كان موطنهم) عند قيس بن الخاتم، ديوان ، ج٧، رقم (٤) وما يليها .

(٢٨) راجع: الأغاني، ج٢٢، ص٣٨، حيث باع أحد التجار العطر والبُر burr في المدينة ، وهما بالتحديد نوعا البضاعة التي قيل أن أبا طالب كان يتاجر فيهما (انظر أعلاه حاشية رقم ٣٤).

(٢٩) راجع الفصل الثالث أعلاه رقم (١) . وأكثر من هذا لا يوجد دليل يؤيد استيراد المكيين للعطور من سوريا إلا في حالة لو اعتبرنا أن كلمة "لطيمة" تعني الطيوب، وعلى أي حال فإن الاستيراد في هذه الحالة يكون قد أتي من مكانه المعتاد. راجع: Fraenkel, Fremdwoerter, p.176. وعرف الواقدي أن "اللطيمة" تعني العطر بوجه خاص، كما عرف أيضا أنها ربما تعني التجارة بشكل عام (المغازي ، ج١،ص٣٢)، وكثيرا ما استخدمت المصادر هذه الكلمة في معناها العام .

(٤٠) كان وجوده هنا مطلوبا لأهداف خاصة بالتنجيم، في تلك النبوءة التي تقول "بأنه سيكون حاكم مصر في المستقبل عندما اختارته الكرة " وواضح هنا الطابع الفارسي للنبوءة ، قارن ذلك بما ورد في Noldeke,

(*) هو أحمد بن عمر أبو علي بن رسته (ت٢٩٠هـ- ٩٠٣م) الأعلاق النفيسة، عن المؤلف راجع: صالحية (محمد عيسى صالحية)، المعجم الشامل للتراث العربي، القاهرة١٩٩٣، الجزء ٣ من حرف الراء إلى حرف الظاء . (المترجمة)

. Geschichte, p.29 ورفض لامينز هذه القصة ، على الرغم من أنها كانت دليله الوحيد على تجارة المكيين فى التوابل (راجع " Republique marchande", p.47 والحاشية المذكورة).

(٤١) راجع الحاشية، ص١١٨ وما يليها فى الفصل الخامس.

(٤٢) وطبقا لما تكر في: الأغاني (ج٢٤،ص٦٢) قام الفرس بتصدير العطور إلى اليمن. وأرسل كسرى قافلة تحمل عطرًا وأشياء أخرى إلى حاكمه باذهام فى اليمن ويعد هذا القول واحداً من صياغات عديدة للقصة، وحينا يكون المقصود بكسرى هو كسرى أنوشروان وحينا آخر كسرى برويز، وأحيانا تتجه القافلة إلى اليمن وأحيانًا أخرى تتجه من اليمن. وعن حكَم راجع المصادر المذكورة فى حاشية رقم ٣٥ أعلاه .

(٤٣) ابن حبيب، المنمق، ص٣٢؛ إسماعيل بن القاسم القالى، كتاب دليل الأمالى والنوادر(*)، ص١٩٩؛ اليعقوبى، تاريخ، ج١،ص٢٨٠ وما يليها؛ راجع . Kister "Mecca and Tamim", p.250 قام ابن حبيب بتصنيف هذه القصة التى ترجع إلى ابن الكلبى . وأعيد كتابتها واختصارها وأشير إليها فى مصادر عديدة، ولكن دون تحديد للبضائع التى تتكون منها .

(٤٤) محمد بن أحمد الفاسي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ص١٤٣؛ أبو الباجة، مناقب، رقم ١٠(ب)، وقام بتتبع الإسناد حتى أرجعه إلى عروة بن الزبير. وتم تحديد التاريخ على أساس غزو الفرس لليمن. ويرى ابن سعد فى الطبقات ، ج٨، ص٢٥٢، إن هذه البضائع كان لها قيمتها . وعندما طلّق أبو بكر [ﷺ] قتيلة، أعطاها هدية من القَرظ ، والسمن والزبيب.

(٤٥) ابن هشام ، السيرة ، ص٢١٨؛ راجع البلاذرى ، الأنساب، ج١، ص٢٣٢ .

(٤٦) ابن هشام، السيرة، ص٧١٦؛ الواقدى، المغازى، ج٢، ص٧٤٢ .

(٤٧) محمد بن الحسن الشيباني، الكسب، ص٣٤،ص٤١؛ ابن رُسته ، الأعلاق ، ص٢١٥؛ ابن قتيبة، المعارف، ص٢٥٠(وكلاهما عن مهن الأشراف): A.Khan, "The Tanniny Cottage Industry in Pre- Islamic Arabia," pp. 91f.

(٤٨) الكندى، الحكام ، ص٧ .

(٤٩) ابن الأثير، أسُد، ج٣،ص٣١٥: يوجد النص في : عبد الرزاق بن همام السنانى، المصنف، ج٦، رقم ١٠٤١١، وقد حذف القمح والدقيق وهما الدليل على التجارة الخارجية؛وهؤلاء المذكورين فى طبقات ابن سعد، ج٣، ص١٢٥ وما يليها والذين باعوا بضائع غير محددة في سوق المدينة وعادوا ومعهم السمن والأقط laqitالذى حصلوا عليه (وبالمثل محمد بن إسماعيل البخارى،Le recueil des traditions mabometanes, III, p50.

(*) أبو على القالي اللغوى ولد بقليقلة من ديار بكر سنة٢٨٨هـ وتوفى بقرطبة ٣٥٦هـ . وعن مزيد من المعلومات عنه راجع : إسماعيل باشا البغدادى، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون، مجلد(٥)، القاهرة، دار الفكر ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م. وأدين بالشكر لما ورد فى هذه الحاشية إلى الزميلة الدكتورة تؤدة الشريف أستاذ مساعد التاريخ الإسلامى بجامعة الملك عبد العزيز . (المترجمة)

(٥٠) ابن هشام، السيرة ، ص٤٢٤؛ الواقدى، المغازى، ج١، ص١٦؛ ابن سعد، الطبقات، ج٢، ص١١؛ الواهدى، أسباب ، ص٤٧، وعن صناعة الجلود راجع: Lammens, Taif, p.226; Khan, "Cottage Industry", pp. 92f.، ويبدو أن كلا الكاتبين تعاملا مع معلومات جغرافيي العصور الوسطى كما لو أنها تنطبق على بلاد العرب قبل الإسلام. وظهرت قيمة جلود الطائف الكبيرة لدى ابن حبيب فى ، المنمق ص٧٣ .

(٥١) البلاذرى، الأنساب،ج١،ص. ٤٩ ورث قُصي هذه الأموال لوفاة الرجل الأجنبى دون وريث ولذلك صادرها. ويرد لامينز القصة نفسها.

(٥٢) Khan, Cottage Industry, pp. 91f.

(٥٣) Sprenger, Leben, pp.94 ، والمؤلف الذى أُغفل ذكره هو ابن المجاور.

(٥٤) المرزوقى ، الأزمنة، ج٢، ص١٦٣ وليس من الضرورى أن نتفق مع رأى سيرجنت فى أن كلمة أدوم (*) Udum تعنى أى شيء يغمس فيه الخبز، والاحتمال الأكبر أنها تشير إلى التوابل . R.B. Serjeant, "Hud and Other Pre Islamic Prophets of Hadramawt", p.125).

(٥٥) القلقشندى، صبح، ج١، ص. ٤١١

(٥٦) البلاذرى، الأنساب، ج١،ص. ١٠١ ويوجد فى الأغانى، ج٢٢،ص٥٧، تقرير مناظر لذلك يذكر فيه البضائع، ولكنه أخفق فى تحديد أنها كانت يمنية، وترتيبا على ذلك اعتقد لامينز أن الجلود تأتى من الطائف. راجع Taif, p.228 .

(٥٧) ;Khan, Cottage Industry, pp.9 ff وراجع أيضا: الجاحظ ، التجارة، ص٢٤ وما يليها=١٥ .

(٥٨) راجع ابن المجاور، وصف، ج١، ص١٢؛ الدينورى ، جزء من رسالة ، ص٤١٢ وما يليها عن دبغ الجلود فى بلاد العرب مع ملاحظة أن القصة المذكورة لدى البلاذرى ، أنساب ،ج١،ص١٨ ، أخذتها كأمر مسلم به وأن القوم يقومون بجمع القرظ. وكان يتم دبغ الجلود وبيعها فى سوق عكاظ. راجع:,Tirimmah, II, 25 in F. Krenkow, ed. And tre., The poems of Tufail Ibn Auf al-Ghanawi and at Tirimmah Ibn Hakim at Tayi؛ ياقوت ، البلدان، ج٣،ص٧٠٤، مادة عكاظ). وكانت الجلود من بين المكوس التى دفعها العرب للنعمان فى الحيرة طبقا لما ذكره فرينكل، Fraenkel, (Fremdwoerter, p.178) ولكن المصدر المذكور أخطأ.

(٥٩) J.B. Chabat, Choix d' Inscription de Palmyre, pp.29f. Above, ch.2.n. 74; Great Britain foreign office, Arabia, p.68 تُصنف الجلود المدبوغة والجلود كأهم مصدر للثروة فى منطقة جبل شمر وما يليها شمالا.

(*) تستخدم كلمة إدام وجمعها أدوم فى المملكة العربية السعودية حتى اليوم للإشارة إلى الطعام الذى يغمس فيه الخبز، وربما هناك ثمة خطأ فى كتابة الكلمة المذكورة أعلاه . (المترجمة)

(٦٠) Lammens, Taif, p.227; Khan, "Cottage Industry", pp. 85f.

(٦١) ويبدو أن هذا هو السبب الذى دفع النعمان لشراء البضائع الجلدية اليمنية بدلا من المحلية فى عكاظ (راجع حاشية رقم ٥٦ أعلاه) وبالمثل فقد وضع الحاكم الفارسي لليمن البضائع الجلدية مثل الأحزمة المزخرفة من بين المكوس المخصصة للملك الفارسي، كذلك فكر عثمان بن الحويرث فى أنه لا يوجد شيء أكثر حداثة من القرظ والجلود غير المدبوغة لكي يجلبها للبيزنطيين، الأغاني، ج١٧، ص٣١٨؛ .cf. Lyall, Mufoddaliyat, I, 708; above n. 44.

(٦٢) راجع حاشية رقم ٤٣ أعلاه .

(٦٣) Watt, Muhammad, at Mecca, p.4.

(٦٤) راجع حاشية رقم ٤٣ أعلاه .

(٦٥) ذكرها كل من ابن حبيب واليعقوبي باسم قالي Qali وسماها حميد الله باسم اليمنى M. Hamidallah, "Al-ilaf, ou les rapports economique- diplomatiques de la Mecque pre-Islamique", p.299. وتتبعه فى ذلك بالدرى . Baldry, Textiles in Yamen, p.7

(٦٦) الأغاني ، ج١، ص٢١٠ .

(٦٧) Jones, "Asian Trade", p.6 cf. "Economic life", P.166 وفى المعاهدة التى عقدت بين الرسول [ﷺ] ويهود مقنا Maqna طلب منهم أن يقوموا بدفع ربع ما تنتجه أنوال نسائهم. البلاذري، فتوح، ص٦٠(*) .

(٦٨) Foreign office, Arabia, p.75.

(٦٩) الأغاني، ج١٩، ص١٢٢ . أصبح يضرب المثل بجمال ثياب الروم فى العصور التالية (الثعالبى ، ثمار، ص٥٢٥).

(٧٠) ابن حنبل ، المُسند، ج٤،ص٧٥، وقد ذكر لامينز أن عقبة بن أبى معيط أمضى عشر سنوات فى صفورية، ولكن هذا غير صحيح. إن القصة التى يشير إليها تتحدث عن أمية (وليس عن عقبة) الذى أمضى عشر سنوات فى مكان ما فى سوريا (الأردن طبقا لما ذكره أبو الباجة، مناقب، ١٢ "أ"). وهناك تبنى الطفل الذى أنجبته أمة من أحد يهود صفورية ؛ وكان هذا اليهودى هو الجد الحقيقى لعُقبة Lammens, Mecque, p. 119؛ ابن قتيبة، المعارف، ص١٣٩؛ البكرى، معجم ، ص٦٠٩، مادة صفورية وكليهما عن الكلبي؛ راجع أيضاً : ابن حبيب، المنمق، ص١٠٦ وما يليها.

(٧١) ابن سعد ، الطبقات ، ج٣، ص٢١٥ .

(*) وذكر ياقوت أن النبى (ﷺ) صالحهم "على ربع عروكهم والعروك حيث يصطاد عليه، وعلى أن يعجل منهم ربع كراعهم وخلفتهم . ياقوت، البلدان، ج٥، مادة مقنا، ص١٧٨، طبعة بيروت. وقال الواقدى: صالحهم على عروكهم وربع ثمارهم . (المترجمة)

(٧٢) انظر المصدر المذكور فى حاشية رقم (٣٧) أعلاه. Goldziher, I., ed., "Der Diwan des Garwal b. Aus al-Huteya", p.185 (ad II,3) ويبـدو أن عبـاءة أبى بكر [ﷺ] الفـدك قـام بصناعتها أو باعها له أحد اليهود (ابن هشام، السيرة، ص٩٨٥) . وعندما قام محمد [ﷺ] بغزو خيبر، وجد فيها ما لا يقل عن ١٫٥٠٠ ثوب وعشرين بالة من الملابس اليمنية (الواقدى، المغازى، ج٢، ص٦٦٤).

(٧٣) Jacob, Beduinenleben, p.149; Tirimmah, IV,28, نفس المؤلف، فـتـوح، ص٤٧ ؛ Lammens, Mecque, p.300 .

(٧٤) راجع حاشية رقم ١٧٧ الفصل الثالث أعلاه .

(٧٥) البـلاذرى، أنسـاب، ج١ص٥٠٧ ومـا يليـهـا، وعن مـلابس الرسـول [ﷺ] راجع:ابن سـعـد، الطبـقـات،ج١ص٣٢٧؛ Lammens, Mecque, p.299n.; id, "Fatima et les Filles de Mohamet", p.70، ابن حنبل، المسند،ج٤، ص٣٥٢ .

(٧٦) راجع الفصل الثالث، حاشية رقم ١٥٩ أعلاه .

(٧٧) عمرو بن بحر الجاحظ ، رسائل ، ص٧٠ ؛ الثعالبى ، ثمار ،ص١١٦ .

(٧٨) انظر المصدر المذكور فى حاشية رقم ٦٩ أعلاه .

(٧٩) ابن هشام، السيرة ، ص٧٠٧ .

(٨٠) انظر المصدر السابق فى الحواشى رقم ٤٤ ، ٤٩ أعلاه .

(٨١) ابن كثير ، البداية ، ج٢، ٢١٨ .

(٨٢) الشيبانى ، الكسب، ص٤١ .

(٨٣) ابن قتيبة ، المعارف، ص٢٥٠؛ راجع : ابن رُسته ، الأعلاق، ص٢١٥ .

(٨٤) Lammens, Meque, p.289 id; "Republique marchande", p.46 (with references to his Taif) id; Taif, p. 148. بدون مصادر). يبدو القول بأن قوافل قريش كثيرا ما حملت الزبيب من بين بضائعها فيه شيء من المبالغة .

(٨٥) انظر المصدر المذكور فى حاشية رقم ٥٠ أعلاه .

(٨٦) ابن رُستـه، الأعـلاق، ص٢١٥؛ راجع: الأغـانى، ج١٤، ص٢٢٢، حيث يمكن أن نفسر زواجه من ابنة الثقفى فى ضوء اهتمامه بالزبيب. ابن هشام، السيرة، ص٥٩٠ .

(٨٧) وعلى سبيل المثـال قـدم بحْيـة بن الخليفـة هديـة للرسول [ﷺ] من الزبيب والبلح والتين السورى (ابن حبيب، المنمق، ص٢٨). وفى مكان آخر ورد خطأ استيراد الزبيب من سوريا بدلا من الزيت (انظر على سبيل المثال، البخارى، رسائل، ج٢، رقم٤٥).

(٨٨) انظر حاشية رقم ٥٠ أعلاه؛ ابن رُسته ، الأعلاق، ص٢١٥؛ ابن قتيبة، معارف، ص٢٤٩ وما يليها.

(٨٩) ابن حبيب، المنمق، ص٧٣؛ وعند وصول أبرهة جرى الاحتفاء به بتقديم هذه المنتجات الثلاثة له .

cf. Jacab, Beduinenleben, pp.96 ff.; Fraenkel, Fremdwoerter, p.157. (٩٠)

(٩١) ابن هشام، السيرة، ص١٣٦؛ الواقدى، المغازى، ج٢ص٧١٦ وقارن ذلك بما ورد فى كل من الأغانى ، ج٢٢، ص١١٠؛ الأزرقى ، مكة، ص٥٤ وما يليها .

(٩٢) قدم جولدزهر Goldziher, "Huteja," p.185 (ad.11.3) نماذج عديدة لذلك. وأورد ليال Lyall, Mufadaliyat, LV,10 فى الحاشية التى ذكرها : (تاجر نبيذ يهودى من الجولان). أما تجار النبيذ من أذرعات ووادى جَدْر (*) الذين ذكرهم أبو ذُؤيب الهُذلى فقد كانوا مسيحيين (J.Helle,ed and tr. Neue Hudailiten- Diwane, Vol 1,1X,11).

(٩٣) ابن الأثير، أُسد، ج٤ص٢٥٨ ؛ ابن حجر، الإصابة، ج٢، ص٦٧،هامش، ٢٠٩٧ مادة سراج التميمى؛ راجع كذلك ابن حنبل، المُسند، ج٢ص١٣٢

(٩٤) ابن قتيبة ، المعارف، ص٢٥٠؛ ابن رشد، العلاج،ص٢١٥؛ المسعودى، مروج، ج٤، ص١٥٣ وما يليها.

(٩٥) كانت دعارة إناث الإماء تمارس فى دومة الجندل ، (ابن حبيب، المحبر، ص٢٦٤). كما ثبت وجودها فى عدن (ابن المجاور، وصف،ج١ص٧)، وطبقا لما ذكره فإن نساء مكة كن يمارسن العمل نفسه فى الماضى. ولم تعرف هذه الممارسة من خلال سيرة عبد الله المذكورة لدى الأغانى، ج٨، ص٣٢٧ وما يليها، أو بالنسبة لابن حبيب ، المنمق، ص١٧١ وما يليها، أو ابن كثير ، البداية، ج٢،ص٢١٧ وما يليها .

(٩٦) راجع حاشية رقم ٢٢ الفصل الثالث أعلاه .

(٩٧) J.G.L. Kosegarten, ed. Carmina Hudsailitarum, p.116 (ad LV111) ؛ راجع ، الأغانى، ج٤، ص٢٢٦ .

(٩٨) راجع Periplus, , 20 ستقع فى الأسر إذا جنحت سفينتك J.B. Segal, "Arabs in Syriac literature before the Rise of Islam", pp. 120f. أسر الراهب ملاكا Malaka من نصيبين Nisibis H.Lammens, L'Arabie occidentale avant L Hegire, p.19 عن أسر عبيد من أصل يونانى وقبطى وبيزنطى ؛ ابن هشام، السيرة، ص١٣٩ وما يليها؛ ابن سعد ، الطبقات، ج٣، ص٨٥؛ البلاذرى، أنساب، ج٢، ص٤٧ (عبيد من الفرس).

(٩٩) وتم تحرير عبد عربى فى ناوپاكتوس Naupactos فى القرن الثانى R. Dareste, B. Haussoullier and T. Reinach, Recueil des Inscriptions jusidiques greques, II, 286 كان صُهيب الرومى يدعى أنه عربى، ولكنه كان بيزنطيا فى فجر الإسلام (ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص٢٢٦). وأقرب شىء لدينا عن تصدير قريش العبيد هو ذلك الأسير اليهودى الذى باعه الرسول [ﷺ] فى سوريا (انظر حاشية رقم ٥ فى الفصل السابع).

(*) جَدْرٌ : مسرح على ستة أميال من المدينة بناحية قباء . راجع ياقوت ، البلدان، مادة جَدْرٌ ص١١٤، طبعة بيروت. (المترجمة)

(١٠٠) ولما كان سجين الحرب الهُذلي لم يتم أسره بالقرب من مكة، لذلك فقد تم بيعه في عكاظ (راجع حاشية رقم ٤٥ الفصل السابع أدناه). وقام رجل من كَلْب ببيع صهيب الرومي لرجل مكي وليس العكس (ابن سعد، الطبقات،ج٣، ص٢٢٦) وقام رجل آخر من كَلْب ببيع سلمان الفارسي لرجل يهودي من وادي القرى، الذي قام بدوره ببيعه ليهودي من المدينة (ابن هشام، السيرة، ص١٣٩ وما يليها).

(١٠١) ابن رُسته، الأعلاق، ص٢١٥؛ ابن قتيبة ، المعارف، ص٢٤٩ ، وذكر لنا أن بعض أشراف قريش كانوا يعملون في الجزارة والحدادة ... إلخ، ومن الواضح أن مثل هذه المعلومات لا أهمية لها .

(١٠٢) راجع على سبيل المثال: Tirimmah, XLV111,32; I, 57; Amr b. Qami a poems,.: X111,27; A.A. Bevan, ed. The Naka' id of Jarir and al Farazdak, CV,57.



الفصل الخامس

أين كان تجار مكة يمارسون نشاطهم؟

ينبغي علينا أن نبدأ الحديث بالأدلة التي توضح الأماكن التي كان يعمل بها تجار مكة. وتذكر لنا المصادر الأدبية الثانوية أنهم كانوا يعملون في سوريا واليمن والحبشة والعراق، حيث كانوا يربطون بين المناطق الأربعة بشبكة تجارية فريدة . ويرجع هذا القول لما ذكره ابن الكلبي في قصة الإيلاف والتي كانت تسير على النحو التالي[1](*):

كانت تجارة مكة محلية ، حيث كان التجار العرب هم وحدهم الذين يقومون بإحضار البضائع لمكة ، ثم كانوا يقومون ببيع جزء منها في مكة، وجزء آخر كانوا يتاجرون فيه بين جيرانهم[2]. هكذا كانت تجري الأمور حتى قام هاشم، وهو الجد الأكبر لمحمد [ﷺ] بزيارة سوريا، ومنها جذب إليه أنظار الإمبراطور البيزنطي بطهو الثريد، وهو نوع من أنواع الطعام لم يكن معروفًا لغير العرب. وعندما أصبح صديقًا للإمبراطور أغراه بأن يمنح قريشًا الإذن ببيع جلود الحجاز وملابسها في سوريا لرخص ثمنها بالنسبة للسوريين. ثم عاد إلى مكة بعد أن عقد معاهدات مع القبائل التي كانت في طريقه. وعرفت هذه الاتفاقات بأنها إيلافات (Ilafs)، ومُنحت قريش بمقتضاها حق المرور الآمن في مناطق تلك القبائل، وحصلت قريش في مقابلها على حق تمثيل تلك القبائل؛ بأن تقوم (قريش) بجمع بضائعها وهي في طريقها لسوريا ثم تقوم بتسليم القبائل ثمن ما حصلت عليه وهي في طريق عودتها[3]. صاحب هاشم

(*) صلة مكة بسوريا صلة قديمة ، ومن أولى الإشارات الموثقة لدينا ما ذكره ابن إسحاق عن أن عمرو بن لحي ذهب إلى بلقا وأحضر معه من هناك الصنم هُبل ونصبه في الكعبة . راجع حاشية ص٢٠٤ وما يليها . (المترجمة)

القافلة الأولى لسوريا حتى يرى ما تم إنجازه من الاتفاقات التي عقدها ولكي يرسخ قدم قريش في المدن أو القرى السورية، وتوفي في غزة أثناء هذه الرحلة. ثم قام إخوته الثلاثة ، بعقد معاهدات مماثلة مع حكام فارس واليمن والحبشة، مكنت قريشاً من أن تنقل تجارتها بأمان ، كذلك عقدوا معاهدات مع القبائل الواقعة على الطريق، مما سهل لهم السفر إلى البلاد المذكورة بدون خوف. وقد ماتوا جميعًا في الأماكن التي كانت ترتبط بتجارتهم ، وبفضل هاشم وإخوته تمكن أهل مكة من تحقيق ثروتهم .

إن هذه القصة مؤثرة للغاية ، ولن تصيبنا الدهشة لقبول عدد كبير من المتخصصين في العصر الحديث لها، سواء كان قبولهم لها قبولاً كاملا أم قبولاً جزئيًا ولكن للحديث بقية . فهناك عدد من الرواة من بينهم والد ابن الكلبي نفسه قد قدم لنا رواية مخالفة لهذه القصة بالتحديد .

حيث ذكر أن تجارة مكة ، كانت في العادة تجارة دولية، فكان تجار مكة يذهبون لسوريا كل صيف وشتاء(٤)، أو لسوريا في أحد الفصول ، ولليمن في فصل آخر(٥) (ولا توجد هنا إشارة عن تجارة مكة مع الحبشة أو مع العراق في هذه العبارة) . وكانوا يقومون بهذا العمل لأن مكة لم يفد إليها أي من التجار الآخرين(٦). ولما كان هذا يعد مجهودا كبيراً عليهم(٧)، كما لم يكن لديهم وقت يخصصونه للعبادة(٨)، لذلك أمرهم الله بأن يظلوا في ديارهم ليقوموا بعبادته وقد أطاعوه(٩). ولكي يمكنهم الله من البقاء في ديارهم ، دفع بعرب آخرين من أماكن أخرى في شبه الجزيرة ، ليحضروا المواد الغذائية لمكة(١٠)، وقام الأحباش بهذه المهمة(١١). وعلى الرغم من ذلك ، ترك أهل مكة معبدهم بعد وقت ليس بالطويل، أو أنهم كانوا يقومون بذلك بين الحين والحين(١٢). لهذا السبب كانت تجارة مكة تجارة محلية كاملة .

ويذكر أحد المفسرين، أن تجارة مكة الدولية ، انتهت مع ظهور الإسلام ، وذلك عندما بدأ الحجاج يفدون لمكة للحج، وفي أثناء بعثة الرسول [ﷺ] المدينة ، لم يعد أهل مكة في حاجة للذهاب لسوريا لإحضار متطلباتهم(١٣). وأغلب هؤلاء الشراح، يؤكدون على انتهاء هذه التجارة في مرحلة غير محددة قبل الإسلام(*)،

(*) يلاحظ هنا أن كرون لم تحدد المصادر التي ذكرت ذلك . (المترجمة)

والمعروف أن السورة القرآنية الخاصة بذلك التطور قد نزلت فى مكة. وهذا الرأى هو الذى سنقبله إذا كان فى إمكان المرء أن يختار أقرب الروايات التقليدية. وهذا يعنى أنه فى الوقت الذى بدأ فيه محمد [ﷺ] يتلقى الوحى فى مكة، لم يكن هناك وجود لتجارة مكة بالمعنى المتعارف عليه عادة.

ونحن هنا سنكون فى وضع متعارض، مماثل لذلك الوضع الذى رأيناه فى أثناء الحديث عن الفضة، لقد صدر أهل مكة الفضة، أو ربما كانت الفضة هى إحدى السلع التى قاموا باستيرادها ؛ إن تجارة مكة كانت تجارة دولية فى وقت ما قبيل الإسلام ، ولكنها ربما تحولت لتجارة محلية فيما بعد. إن المصادر التقليدية تؤكد الرواية الأولى وليس الثانية . وعلى هذا الأساس يمكن للمرء القيام بإعادة كتابة حياة محمد [ﷺ] طبقًا للمصادر التى اعتمد عليها مونتجومرى وات على أن يستخدمها بصورة مخالفة لرأيه تمامًا.

الآن كيف يمكننا أن نقوم بحل هذه المشكلة التى بين أيدينا؟ الواقع أنه لا يمكن حلها بأى حال من الأحوال. لأن القصص التى رويت ، وتلك الخاصة بقريش والتى ذكرت فيها كلمة الإيلاف يتعارضان[١٤]. ويبدو أن التجارة التى كانت فى المواد الغذائية نمت وتطورت بطريقة دائرية؛ فقد حصلت قريش على هذه المؤن من آخرين ، ثم قاموا هم بتسليمها لآخرين. ولا شك فى أن قريشًا كانت تتاجر خارج مكة كما هو معروف عشية الإسلام، أو أن هذا الوضع لم يكن معروفا. وكان الشراح سعداء بأن يؤكدوا أنهم قاموا بهذا ، ثم يقومون بنفيه فى الوقت نفسه . الشىء نفسه حدث فى موضوع الفضة حيث قاموا بوضع الديباجة، وغلفوا بها الموضوع الأصلى دون اعتبار لما كان مخزونًا فى ذاكرتهم .

إن مثل تلك القصص، التى تنسج دونما اعتبار للحقيقة لا يمكن استخدامها لإعادة كتابة تاريخ الماضى؛ لأنها لا معنى لها. ولذلك ينبغى علينا أن نرفض تاريخ بداية ونهاية تجارة مكة الدولية. وإذا افترضنا جدلا أن هناك بعض الحقائق التاريخية خلف هذه الروايات – أو ربما خلف واحدة منها بمعنى أصح – فأى واحدة نقبل وأى واحدة نرفض، بمعنى أنه من الصعوبة بمكان معرفة أيها كانت هى الحقيقة أو أقرب إليها .

إن القاعدة الأساسية فى البحث التاريخى، تتمثل فى أن أقدم المعلومات عن الحديث ، هى التى يفضل الأخذ بها . إن كل من الكلبى ومقاتل (Muqatil) أسبق زمنيا من ابن الكلبى، فإذا كان الكلبى يذكر أن تجارة مكة ، جاءت نهايتها قبل الإسلام ، ويذكر ابنه العكس، فإن ما يذكره الأب ينبغى أن يكون له الأفضلية عما يذكره الابن. ويعضد هذا الرأى بأن التقرير الذى يذكره الابن يعد خطأ فى عدة نواح ، فقد ذكر أن أربعة إخوة تاجروا مع أربعة أقاليم مختلفة ، وقاموا بعقد اتفاقات مع قبائل فى أربع مناطق مختلفة فى طريق عودتهم ، كما أنه أخطأ فى افتراضه بأن الإمبراطور البيزنطى كان يقيم فى سوريا. إضافة إلى أنه من غير المحتمل أن تقوم قريش بالتفاوض مع الأباطرة والتفاوض فى الوقت نفسه مع أعدائهم من ملوك الغساسنة واللخميين (الذين ورد ذكرهم فى بعض العبارات)[١٥]. إضافة إلى ما تقدم فإن الاتفاقات التى تمت بين قريش والقبائل الأخرى، لا يمكن أن تعتبر إيلافات[١٦]. كذلك لم يكن من الممكن أن تعقد قريش اتفاقات منفصلة مع القبائل، وهم فى طريقهم للحبشة، لأنها هى الأخرى تعد إيلافات، أو بمعنى آخر سواء وصل أهل مكة إلى الحبشة عن طريق اليمن التى يمكن أن يكون هناك اتفاق معها فى مثل هذه الحالة ، أو إلى منطقة أخرى أبحروا لها مباشرة دون أن يكون أى وجود للقبائل هناك ، وهكذا يكون من الواضح أن رواية ابن الكلبى ليست رواية حقيقية ، ويمكن أن يفترض البعض أن روايته ربما تكون أكثر احتمالا من رواية والده ، على أساس أنه إذا افترضنا توقف تجارة مكة قبل الإسلام فكيف كان يمكنهم أن يواصلوا معيشتهم ؟ لابد من أنهم واجهوا صعوبة بالغة لتسديد نفقات معيشتهم لحرصهم على التعبد، ومواظبتهم عليه ، فكونها أكثر احتمالا لا يؤكد حقيقتها التاريخية . فى الواقع إن قصة الكلبى أكثر احتمالا من ناحية أخرى؛ فإذا كان أهل مكة هم حراس الكعبة قبل الإسلام، فقد كان يمكنهم أن يعيشوا عن طريق توزيع الخدمات الدينية فقط، ولكن كم كان عدد الحراس قبل الإسلام ، الذين يمكنهم أن يضاعفوا دخلهم من العمل فى ميدان التجارة ؟

أما الأمر الذى يمثل خطورة أكبر فهو أن القصة التى يقدمها كل من الكلبى ومقاتل تناقض القصص المتواترة تناقضًا كاملا، بل تتناقض أيضًا مع المعلومات

الأخرى التي قدمها كلاهما في مكان آخر[١٧]. إن الفكرة بأن قريشاً كانت تعد عاملا سلبيا في تسلُّم البضائع التي يحضرها الآخرون قد وردت في رواية المفسرين المتواترة، كذلك ذكر ابن الكلبي ومقاتل أنه لم يكن هناك تجار من غير العرب أو آخرين يقومون بمهمة إمداد مكة بالمواد الغذائية . كما ورد في التعليق على سورة التوبة ، إن غير المؤمنين اعتادوا إحضار البضائع لمكة ، وعندما منع الله غير المؤمنين من الاقتراب من الكعبة أصبح يناط بالمؤمنين إحضار المئونة إليها ، أو عن طريق غير المؤمنين على شكل الجزية[١٨]. ويبدو أن المفسرين أخذوا هذا القول على أنه أمر مسلَّم به، وأن مكة كان يتم تموينها على يد أناس من الخارج وظل الأمر كذلك حتى ظهور الإسلام. ومن الجانب الآخر فإن الرواية بكاملها يمكن أن تكون خطأ . وإذا كان كبار الكتاب الأوائل مثل الكلبي ومقاتل وأيضا ابن عباس، قد ذكروا أن تجارة مكة قد توقفت في وقت ما قبل الإسلام(*)، ألا يكون من حقنا أن نعتقد بصحة قولهم الذي يستند على أساس من الحقيقة التي غرقت في بحر من الإضافات المتراكمة ؟ وعلى هذا فإن قافلة قريش التجارية التي اشتهرت بها الرواية المتواترة يمكننا أن نسقطها ، على اعتبار أنها تضم فكرة دخلت في نطاق الرواية الشفوية ، التي ما لبثت أن أضيفت إليها أجيال مختلفة من القصص. ومثالاً على ذلك تحديداً ؛ قصة ابن الكلبي عن الإيلاف، فقد كانت روايته متأخرة، وغير صحيحة؛ وإذا كان ثمة وجود لأصل تاريخي ، عن بداية ونهاية تجارة مكة ، فعلينا هنا أن نعتمد على ما ذكره الكلبي ومقاتل. وباختصار فإن المصادر، تكاد تدفعنا للقول بأن أهل مكة، لم يكن لديهم تجارة خارجها عشية ظهور الإسلام.

من الواضح أننا أمام لغز خطير. فالواقع أن القصص الخاصة ببداية ونهاية تجارة مكة هي عبارة عن روايات ذكرت لتفسير القرآن ، ولكنها ليست جزءاً من تاريخ الماضي. أما حقيقة كون الكلبي قد ذكر قصة، ثم قام ابنه بذكر قصة مخالفة ، فإن هذا لا يعني

(*) تُصر كرون هنا على استخدام القصة التي يذكرها الكلبي ومقاتل والتي تناقض المصادر الإسلامية الأخرى تناقضا كاملا. فهي هنا تكون قد قنفت بالرواية الواحدة أمام كل ما هو مذكور في المصادر الأخرى، وهو الأمر الذي سبق واعترضت عليه. راجع ص١٣٣ من الترجمة . (المترجمة)

أن الأب قد ذكر الحقيقة، ثم قام الابن ببحثها، ولكن على العكس من ذلك تماما ، فكلاهما لم يكن مهتما بذكر الحقيقة التاريخية .إن ما قدماه ، كان عبارة عن قصص، وعكس صورتها على مرآة الأسطورة . أما عن قضية تجارة أهل مكة خارجها عشية ظهور الإسلام مِنْ عدمها ، فهو السؤال الذى لا يمكننا أن نجيب عليه، استنادا لهاتين القضيتين ، بل يمكن أن يكون موضوع التجارة ، أسطورة بأكمله. هنا ينبغي على المرء أن يرجع إلى مصادر غير إسلامية ، لتساعده فى حل هذا اللغز، ولكن هذه المصادر لا تقدم لنا شيئًا بخصوص هذا الموضوع. فقد ذكر لنا كل من بسيدى – سيبيوس Pseude Sebeos ويعقوب الإيديسي (Jacob of Edessa) أن محمداً [ﷺ] لم يكن واحداً من تُجَّارهم[١٩]. وإذا قبل المرء أن أهل مكة كانوا يقومون بالتجارة خارجها عشية الإسلام ، فإن المرء يذكرها على أساس من الرواية الإسلامية بصفة عامة، وهذا ما سوف أقوم بفعله ؛ لأن أحد اهتماماتى فى هذا الكتاب هو المدى الذى وصل إليه المدافعون عن تجارة مكة فى ضوء ما تقدمه الروايات المتواترة. أما إذا ارتكز حديثنا على المصادر فلن تكون فى مركز القوة؛ لأن القارئ ينبغي عليه أن يلاحظ الأحكام العرفية النظرية المتعلقة بهذا الموضوع وغيره بإعادة صياغة تاريخ ظهور الإسلام على أساس الروايات المتواترة . إن وجود هذه الظاهرة التى كرست من أجلها هذا الكتاب يمكن إثارتها فى ضوء الحواشى الخاصة بالكُتاب المسلمين المنزهين عن الخطأ . لقد كانت قريش تصدر البضائع، وسوف أتناول ظهورهم فى البلاد الأجنبية ومن بينها اليمن فى هذا الفصل . ثم أتناول تجارتهم مع بلاد العرب فى الفصل السابع(*).

(*) فى هذا الجزء من الترجمة (ص١٩٩-٢٠٤) تحاول كرون بكل ما أوتيت من علم وذكاء أن تغرق القارئ فى بحر لُجى من الأقوال لكى تنفى وجود تجارة نقل دولية لقريش بعد أن تكون قد اقتربت منها لتقفز إلى لب غرضها وهدفها الأصلى وهو معارضة ما جاء فى سورة الإيلاف . لذلك اقتطعت من المصادر ما يمكن أن يؤيد رأيها تاركة وراءها جميع المصادر الأخرى التى تخالفها والتى سبق واعتمد عليها الباحثون فى الغرب والشرق على السواء للتأكيد على تجارة قريش الدولية . مدعية أن أقدم المصادر تعد أفضلها حتى تفهم القارئ بحجة دعواها وحفاظها على قواعد البحث التاريخى، هذا فى الوقت الذى تحاول فيه أن تلغى ما أجمعت عليه المصادر التاريخية جميعها عن حياة الرسول (ﷺ) وذهابه إلى الشام للمرة الأولى عندما كان صبيا فى صحبة عمه عبد المطلب والثانية فى تجارة للسيدة خديجة رضى الله عنها . =

. . . .

= ويمكننا أن نفند دعواها ونرد عليها في النقاط التالية :

أولاً: إن جميع الروايات الخاصة بقصة الإيلاف تجمع على أن هاشما هو الذى وضع حجر الأساس في تجارة قريش الدولية . وهو أمر مقبول منطقيا نظرا لحاجة بيزنطة إلى بديل من الخطوط التجارية التي كانت تعبر أراضي ومناطق نفوذ الدولة الفارسية في تلك المرحلة من مراحل الصراع الدائر بينهما . ثم قام إخوته الثلاثة بعد ذلك بعقد إيلافات مع الحيرة والحبشة واليمن لأن تجارة هذه المناطق لم تكن خاضعة لحسابات الحرب والسلام على نحو مباشر ، بسبب سياسة الحياد التي التزمتها قريش.

ثانيًا: إن الإيلاف يعني تأمين قريش بغير حلف مع القبائل الأخرى نظير أن تحمل لهم قريش بضائعهم إلى أسواق الشام ، وترد عليهم رأسمالهم مع الأرباح في طريق عودتها .

ثالثًا: هذه العهود التي عقدت مع بيزنطة وملوك الحيرة واليمن والحبشة هي إجازة للتجارة فقط، بمعنى أنها ليست أحلاف . وهو الأمر الذى يفسر عقدها مع طرفين متنازعين وهما بيزنطة وفارس.

رابعًا: وحتى لو افترضنا أن هذا الإيلاف كان قاصرا فقط على بيزنطة ، فإن وجود قوة دولية يعطى الإيلاف صفة العالمية .

خامسًا: لقد اقتربت كرون من الاعتراف بتجارة قريش الدولية ، ثم عادت وذكرت أنها توقفت في وقت ما قبل ظهور الإسلام ، فما هي التجارة التي أوقفوها هل تلمح إلى غزوة بدر وما أدت إليه من توقف القوافل المكية ، وإذا كانت تلمح إلى ذلك فلماذا لم تصرح به ؟ هل تخشى بتصريحها أن تصل إلى الاستنتاج المنطقي ، وهو أن غزوة بدر أوقفت تجارة قريش مع الشام ، أى أن قريشاً كانت لها تجارة مع الشام ؟ وإذا لم تكن قريش هي التي حملت تجارتها وتجارة الشرق إلى الشام فمن إذن الذى نقلها أثناء احتدام النزاع بين فارس وبيزنطة وانقطاع الخط التجاري بين فارس والشام وسوء الأوضاع في الخط الملاحي في البحر الأحمر .

سادسًا: تنفي كرون هنا ما هو ثابت في جميع الروايات الإسلامية المعاصرة عن ذهاب الرسول مرتين إلى الشام ، ويمكنها بهذه الطريقة نفي أكبر الأحداث إذا شاءت طالما أنها بيتت النية وعقدت العزم.

سابعًا: تحاول بكل الطرق الملتوية وغير المنطقية أن تجد منفذا لتلغي كل التفسيرات التي قيلت بشأن سورة الإيلاف في القرآن الكريم ورحلتي الصيف والشتاء . والقرآن الكريم هو النص الذى لا يداخله شك بأى حال من الأحوال ، فهو المصدر الأول لتأكيد رحلتي الشتاء والصيف، ولو كان المشركون يعلمون غير ذلك عند تلاوة السورة لاتخذوها حجة ضد الإسلام ؛ أى أنه لا يوجد أدنى شك في أن قريشا سيرت رحلة في الشتاء وأخرى في الصيف ، وأجملها القرآن بسورة المفرد ليظهر فضل الله في تمكن تجار مكة من تسيير الرحلتين معا . أى إن تجارة مكة قد خرجت بفضل هذه الرحلات من نطاقها المحلي إلى نطاقها الدولي وكان الإيلاف هو الفيصل بينهما . وهكذا أصبح مؤمنا لأهل مكة بفضل هذه الرحلات طعامهم بعد الجوع وأمنهم من الخوف .

ثامنًا: تتعجب كرون في ص ١٩٩ من قيام هاشم وإخوته الثلاثة بعقد الإيلافات مع بيزنطة والحيرة واليمن والحبشة ومع القبائل المختلفة . ولا أرى وجهًا للتعجب في ذلك فمن المعروف أن قريشاً كانت تمسك بزمام الزعامة السياسية وكانت لها مكانتها الاجتماعية مضافًا إليها الثراء المادي ، وهو الأمر الذى لا يستطيع أحد إنكاره . أما بخصوص نفي كرون لما ذكره ابن الكلبي من أن الإمبراطور البيزنطي كان يقيم في =

– سوريا

تتفق الروايات اتفاقًا يكاد يكون كاملاً على وجود تجارة مكية في سوريا (أو أن العادة جرت على أنهم يقومون بالمتاجرة مع سوريا)، ومن المعروف أنه كان هناك وجود تجارى لقريش في سوريا أكثر من أى مكان آخر. وقدم ابن الكلبى لنا تفاصيل عن الإيلاف مع سوريا. أما عن الترتيبات الخاصة بالتجارة، مع كل من اليمن والحبشة والعراق، فإنها نظمت بطريقة ازدواجية وفهم المفسرون الرحلتين المذكورتين في سورة قريش على أنهما رحلتان تجاريتان ، وخصوا سوريا بواحدة منهما، بل تبدو سوريا في بعض الأحيان كما لو أنها البلد الوحيد الذى كانت لقريش معه صلات تجارية[٢٠].
ظهر عدد من القرشيين ممن لهم تجارة هناك وتضم تلك القائمة أمويين مثل أبى سفيان[٢١]، وصفوان بن أمية[٢٢]، وعثمان[٢٣]، وسعيد بن العاص[٢٤]، وأبنائه: أبان[٢٥]، خالد وعمرو[٢٦]، ومن الهاشميين عبد المطلب[٢٧]، والحارث بن عبد المطلب[٢٨]، وأبو طالب[٢٩]، والرسول نفسه [ﷺ][٣٠]، أما غالبية الهاشميين بخلاف الرسول [ﷺ]

= سوريا عندما عقد الإيلاف مع هاشم ، فلا أرى غرابة في ذلك فما هو السبب الذى يمنع الإمبراطور من الإقامة في سوريا لبعض الوقت حيث إنها كانت تمثل جزءا من أملاك الإمبراطورية البيزنطية التى كان يمكن للإمبراطور أن يقيم فيها مؤقتًا ويزور أى جزء منها .

تاسعًا: تحاول كرون أن توهم القارئ بأنها تطبق قواعد البحث التاريخى حتى توحى له بحيادها حيث تقول إن أقدم المعلومات عن الحدث هي التى يفضل الأخذ بها . وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لم تأخذ بقدم المعلومات التى ذكرها المؤرخون الكلاسيكيون عن مكة في العصور القديمة والتى وصل فيها الأمر إلى رفضها جميعها ، بل حركت موقع مكة من على الخريطة وقالت بأنها لم يكن لها وجود في الحجاز بل كانت قريبة من خليج العقبة ص٢٢٥–٢٢٩ . راجع الصفحة.

عاشرًا : إن الإيلاف الذى أسسه جد الرسول عليه الصلاة والسلام ، والذى أسس به تجارة مكة الدولية كان يجله العرب في قيمته الخلقية وفي مآثره في بث الأمن والأمان . وقد نسب إلى مطرود بن كعب الخزاعى قوله فيه:

يأيها الرجلُ المحَوِّلُ رحله ... هلاّ نزلت بآل عبد مناف
هبلتك أمُّك لو نزلت بحيِّهم ... ضمنوك من جوع ومن إقرافِ
الآخذون العهدَ من آفاقها ... والراحلون لرحلة الإيلاف
والمطعمون إذا الرِّياح تناوحت ... حتى يكون فقيرهم كالكافى

البلاذرى ، الأنساب ... تحقيق حميد الدين ، ص٦٠ . (المترجمة)

فقد كان ارتباطهم باليمن أكثر من سوريا[٣١]، ومن العشائر الأخرى، نجد عبد الله ابن جدعان[٣٢] ، وأبا العاص بن الربيع[٣٣] ، وطلحة[٣٤]، وأبا بكر وابنه[٣٥]، وعمرو ابن العاص[٣٦] وأبناء أبي زمعة وأبا جهل (أو أبا لهب)[٣٧]. كذلك تسمع عن أفراد من خارج قريش يذهبون إلى سوريا مع القافلة المكية[٣٨]؛ وكان المهاجرون للمدينة يعرفون طريقهم إليها جيداً لأن قوافلهم اعتادت المرور عليها، عندما كانوا يقومون برحلاتهم لسوريا[٣٩]. ورأى الرسول [ﷺ] القافلة المكية ، في ليلة إسرائه لبيت المقدس، كما واصل هو نفسه إرسال المتاجر إليها بعد الهجرة[٤٠]. وكانت قافلة قريش، التي تذهب وتعود إلى سوريا، معروفة للمسلمين ومن محاولاتهم للهجوم عليها ، والتي كانت إحداها سببا في معركة بدر، والأخرى مهاجمة قَرَدْة (Quarada) وعز[٤١]. وطبقًا لما ذكره الواقدي ، وبعض المصادر الأخرى قام الرسول [ﷺ] بشن عدة حملات ناجحة ، كان هدفها قوافل قريش المسافرة بين مكة والمدينة، وحقق عدة انتصارات[٤٢]. وكان لقريش مكان للإقامة[*] (diaspora) حيث ذكر أن هاشماً وطن قرشيين في قرى (qura) في سوريا[٤٣] وأمضى أحد القرشيين عاما كاملا في سوريا[٤٤]، بينما امتدت إقامة آخر لعشر سنوات[٤٥]، وقيل في ذم أحد الأشخاص أنه كان يعمل كسائق عربة (عربجي) في بلقا[٤٦]. وهذا يعني أنه لم يكن ينقص عثمان بن الحويرث وجود القرشيين في سوريا التي لجأ إليها عندما عجز عن تحقيق طموحه السياسي[٤٧].

إضافة إلى ما تقدم ، فلدينا بعض المعلومات عن كيفية ذهابهم إلى هناك ، والأماكن التي وصلوا إليها[٤٨]. كانت غزة هي إحدى المحطات النهائية ، وقد زارها هاشم ثم بعد ذلك أبو سفيان ، وعدد آخر من عبد مناف[٤٩]. أما بُصرى فهي المحطة

(*) في الصفحات السابقة من هذا الفصل تصر كرون على أن قريشًا لم يكن لها تجارة مع الشام وفي هذا الجزء تركز الأضواء وتكثفها على امتداد علاقة قريش بالشام والأماكن التي كانوا يقيمون ويتاجرون فيها ، مما يدل على التناقض الواضح فيما تقول . أما اصطلاح diaspora المستخدم هنا فهو اصطلاح يعني الشتات، وهو يستخدم مع الذين لا وطن لهم مثل اليهود والغجر . ولم تكن قريش قبيلة بلا وطن تعيش في الشتات سواء في سوريا أو في اليمن . إن استخدام هذا الاصطلاح مع القبيلة التي خرج منها النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم هو استخدام في غير موضعه من جهة ثم إنه يكشف النقاب عن مشاعر خاصة ضد قبيلة قريش . راجع عن الاصطلاح: Liddel And Scott, Greek English Lexicon, S.V. diaspora.. (المترجمة).

الثانية (Busra, Bostra) ، وفيها السوق الشهيرة التى زارها الرسول [ﷺ] وتاجر فيها نيابة عن السيدة خديجة(٥٠). كذلك ذكر أن تجار مكة ، زاروا أيلة (Ayla) وأذرعات (Adhriat)(٥١). ولا يبدو أنهم ترددوا على القدس كثيراً(٥٢). أما دمشق فكان ظهورهم فيها قليلا(٥٣)، وقيل إنهم ذهبوا شمالا للأردن فى بعض الأحيان(٥٤). وذكر يعقوب الإيديسى ، أن تجارة محمد [ﷺ] لم تشمل فقط، بلاد العرب وفلسطين وفينيقيا ، لكنها وصلت أيضاً إلى صور، وهى المدينة التى لم تذكرها المصادر الإسلامية على وجه الإطلاق(٥٥)، بمعنى آخر، قام القرشيون بزيارة المدن والمناطق الصحراوية فى المثلث الذى يتكون من غزة وأيلة وبصرى، وهى المناطق التى ذكرتها الرواية الإسلامية ، وليست المدن الهللينيستية للشاطئ وظهيرها القارى .

- مصر

من المفروض أن هاشماً سافر من سوريا إلى أنقرة كما ورد فى إحدى المناسبات(٥٦)، ولكن سواء أكان هذا القول حقيقيا أم غير حقيقى ، فهو لم يرد له ذكر، مرة ثانية مع تجار مكة المتأخرين(٥٧). وعلى أى حال، فهناك عدة حقائق جيدة تربطهم بمصر. وذكرنا سالفًا أن عمرو بن العاص قام ببيع العطور والبضائع الجلدية فيها(٥٨). كما كرس صفوان بن أمية نفسه للتجارة معها(٥٩). وذهب المغيرة بن شعبة فى إحدى المرات لمصر(*)، وكان معه آخرون من ثقيف وقريش ليتاجروا فيها(٦٠). وفى إحدى العبارات التى وردت فى صلح الحديبية ، ذكر فيها أن أهل مكة كانوا يقومون بالمرور بالمدينة فى أثناء رحلتهم إلى كل من سوريا ومصر(٦١). كذلك حلَّت مصر محل اليمن ، فى إحدى عبارات رواية الإيلاف الخاصة بهاشم وإخوته(٦٢). أما بخصوص زيارة عمرو للإسكندرية ، فهى مشكوك فى أمرها، حيث لا يوجد لدينا معلومات عن المنطقة التى

(*) راجع ص٢٩٩ من الترجمة عن بيع سفيان بن أمية بضائع مصرية فى الجزء الأسفل من سوق مكة. (المترجمة)

ذهب إليها . ويمكن الافتراض بأنهم قاموا بزيارة سيناء ، ذلك المكان الشهير فى القرآن [الكريم][٦٣]، والصحراء الشرقية ، ولكن سيظل السؤال قائما أو مطروحا حول المدى الذى تمكنوا فيه من الوصول إليه .

- اليمن

وصفت اليمن بأنها المكان الثانى ، المهم والكبير الذى وصلته تجارة مكة . وقد تم توصيف الرحلتين المذكورتين فى سورة قريش ، على أنهما رحلات تتجه إلى سوريا واليمن[٦٤].

وقد قامت هناك علاقة بين عدد من القرشيين واليمن ، كان من بين الهاشميين[٦٥] : عبد المطلب (الذى ذكر أن رحلاته كانت بهدف التجارة)[٦٦]، والعباس بن عبد المطلب[٦٧] وابن عباس[٦٨]، ويأتى فوق جميع المخزوميين أبو ربيع بن المغيرة[٦٩] ، والوليد بن المغيرة[٧٠]، وفقيه بن المغيرة[٧١]، وهشام بن المغيرة وأبناؤه[٧٢]، وعبد الله بن أبى الربيع[٧٣] ، وعمارة بن الوليد[٧٤]. وارتبط المخزوميون باليمن والحبشة من عدة وجوه[٧٥]. أما القصة المذكورة فى كتاب دلائل النبوة، عن زيارة أبى سفيان لليمن فيمكن رفضها بسهولة[٧٦]، على الرغم من مشاهدة قرشيين آخرين فى رحلات تجارية إلى اليمن[٧٧]، وهذا يعنى أن الدلائل التى تشير إلى القوافل التجارية المسافرة بين مكة واليمن ، لم تكن نادرة[٧٨].

ولدينا بعض المعلومات عن الأماكن التى ذهب إليها التجار، ففى رواية ابن الكلبى عن الإيلاف يذكر أن المطّلب (الذى عمل فى اليمن ما قام به هاشم فى سوريا) وتوفى وهو فى طريقه إلى اليمن فى مكان غير مشهور يسمى رَدْمَان (Radman)[٧٩]، وهو عكس المكان الذى كان يتوقعه المرء، فهو لم يكن فى عدن التى كانت بمثابة السوق اليمنية الكبرى للعطور فى ذلك الوقت[٨٠]. كذلك يرد ذكر صنعاء فى المواضع السياسية أكثر من ذكرها فى النصوص التجارية[٨١]. حيث يذكر أن رجلاً من صنعاء كان يدين

بمال لعبد المطلب، كذلك يذكر في إحدى العبارات الخاصة بقصة بناء أبرهة للكنيسة وجود قرشيين في هذه المدينة[٨٢] ولكن ورد في أحد النصوص المناقضة ، أن نجران كانت هي مكان الحديث[٨٣]، ونحن هنا نقف على أرض صلبة، فقد استقر هاشم بن المغيرة في نجران، وإليها هَرَبَ هُبيرة بن أبي وهب بعد فتح مكة . وذكر البعض أن الوليد بن المغيرة كان يدين لأسقف نجران بمبلغ من المال[٨٤]. وكان كل هؤلاء الرجال الثلاثة من مخزوم . ومن المفترض أن عبد المطلب كان صديقا لأسقف نجران[٨٥]، وكان لديه حمَّال يهودي من نجران اعتاد التجارة في أسواق تهامة[٨٦]، وإضافة إلى ذلك فقد ورد ذكر نجران في أحد النصوص الخاصة بالمكان الذي كان يحصل منه تجار مكة على العطور[٨٧]، وحيث كان يمكنهم شراء الملابس منه أيضا[٨٨].

واشتهرت قبيلة مراد في نجران ببيع الحمير[٨٩] ، وعرف عنهم قيامهم ببيعها لقبيلة دوس في السراة ، ويبدو أنهم كانوا يحصلون من قبيلة دوس ، وقبائل أخرى ، على العبيد الأحباش[٩٠]. وكان لأبي سفيان حليف مهم أزدي من السراة[٩١] ، مما يعني أن عدد القرشيين كان كبيراً في تلك المنطقة[٩٢]، كذلك قام التجار القرشيون بزيارة سوق حباشة السنوي، على مسافة ستة أيام من جنوب مكة ، في إقليم بارق (Bariq)، وهي قبيلة أزدية حيث قام بعض أفرادها بشراء ملابس من هناك[٩٣]. وعلى هذا فإن التجارة مع (اليمن) يبدو أنها كانت تعني التجارة بين مكة ونجران ، على تلك الحافة من الأرض التي كان يحتلها كل من الأحباش والفرس ، أكثر مما يعني أنها كانت تجارة مع اليمن نفسها .

- الحبشة

إن قصة التجارة مع الحبشة تعد مشكلة في حد ذاتها ، فالحبشة تصنف على أنها سوق كبيرة للقرشيين لها بعض الأهمية ، فيما ورد لدى ابن الكلبي وآخرين[٩٤]، وذلك على الرغم من عدم وجود أدلة عن التجارة التي نعنيها . وذكرت إحدى الروايات أن أحد التجار القرشيين عاد من الحبشة عن طريق اليمن ، ولكن البعض يرى أن هذا

التاجر لم يتجاوز اليمن[٩٥](*). ويذكر آخر أن عمارة بن الوليد المخزومي أبحر إلى الحبشة مع عمرو بن العاص للتجارة[٩٦]، ولكن المفسرين ذكروا أن هذه الرحلة كانت تعكس أهدافا سياسية، أكثر منها أهدافًا تجارية[٩٧]. وهناك قصة أخرى يذكرها المفسرون وهي أن مولى ابن سهم أحد بطون عشيرة عمرو بن العاص أبحر إلى الحبشة للتجارة ، وكان يصاحبه اثنان من التجار المسيحيين من فلسطين[٩٨]، ومما لاشك فيه وجود قصص كثيرة من هذا النوع ، وعلى ذلك يمكن أن نرد على المتحمسين ، الذين ينادون "بأن الأدلة التي تشير إلى نشاط العلاقات التجارية بين مكة والحبشة توجد في كل مكان" بأن رأيهم يمكن بصعوبة أن يكون صحيحاً[٩٩].

ونحن لا نعرف أية معلومات عن الأماكن التي كان يذهب إليها تجار قريش في الحبشة ، فاسم أدوليس(**) ؛ وهو الميناء الحبشي المشهور، لم تعرفه مصادر قبل الإسلام أو بعده [١٠٠]؛ وعلى الرغم من أن جميع الروايات الخاصة بالقرشيين في الحبشة، تظهرهم تجاراً أو دبلوماسيين ، ومن بينها تلك الخاصة بنجاشي الحبشة، فإنها جميعها لم يرد فيها ذكر لاكسوم . مما يبدو معه أنها كانت تجهل أسماء المناطق الحبشية ، فقد مات هاشم في غزة ، ومُطلب في ردمان (Radman)، طبقًا لحديث الإيلاف لابن الكلبي، ولكن أخاه عبد شمس مات في مكة نفسها .

كيف يمكن للروايات أن تصور التجارة بين مكة والحبشة ؟ يتمثل أحد الاحتمالات في قيام الأحباش بالقدوم إلى مكة أو إلى الشعيبة مباشرة، بدلاً من الطريق الدائري[١٠١]. ولدينا عدة روايات بخصوص وجود الأحباش في مكة ، من بينها القصة الخاصة بأصول ثروة قصي ، حيث قام بقتل أحد النبلاء الأحباش، ونهب ثروته ، وكان قادمًا لمكة من أجل التجارة[١٠٢]. وفي إحدى الروايات الخاصة بكيفية وصول تجارة مكة لنهايتها، تذكر أن الأحباش كانوا يحضرون المواد الغذائية لجدة ، لهذا السبب لم يعد

(*) راجع الحاشية رقم ٩٤ المذكورة في ص٢٩٩ والتي يذكر فيها أبو النعيم ، دلائل ، ص١٩٧ سؤال النجاشي لرسول قريش عندما استفسر منه عن سبب وجوده إذا لم يكن قد جاء لهدف التجارة ، مما يعد دليلاً على ذهاب قريش إلى الحبشة بهدف التجارة . (المترجمة)

(**) راجع شعر طرفة بن العبد الذي يذكر فيه ميناء أدوليس في تعليق المترجمة ص٢٤ . (المترجمة)

أهل مكة فى حاجة للقيام برحلتهم الشاقة لسوريا[١٠٣]. وذكر أن حى مخزوم فى مكة كان يوجد فيه دار العلوج (dar al-uluj)، التي كان يقطنها الأحباش[١٠٤]. ومن المرجح أن جيش أبرهة ، أقام فى منطقة خلف الكعبة ، وعمل أفراده حرفيين ورعاة أغنام[١٠٥](*). إن بعض هذه الروايات ، وليست جميعها ، تعكس الأحباش المحررين ، أكثر من كونها تعكس التجار الأحرار . لقد ذكرت الرواية العربية المتشددة، أن تجار مكة كانوا يقومون بزيارة الحبشة ذاتها، حيث قاموا بإجراء مباحثات مع حاكمها، أما عن قيام بعض التجار الأحباش بزيارة مكة، فإن ذلك لا يقدم حلا للمشكلة التى نحن بصددها. ويتمثل الاحتمال الثانى فى أن تجارة مكة لم تكن مع الحبشة ذاتها، ولكنها كانت مع اليمن خلال الحكم الحبشي لها. وهنا نجد أمامنا قبيلة مخزوم نفسها ، التى كانت تتاجر مع كل من اليمن والحبشة، وعلى الرغم من ذلك، فهى لا تقدم سوى معلومات قليلة عن تجارة الحبشة . ومن الغريب أن بعض المصادر ، تذكر تجارة مكة على أن رحلة منها كانت مع سوريا والحبشة ، أو سوريا ومصر أو مع الحبشة ، فى حالة استبعاد اليمن . وربما أن كلمة حبشة (Habasha) هنا تعنى الأحباش الموجودين فى اليمن، وليس الموجودين فى الحبشة ذاتها[١٠٦]. يضاف إلى ذلك ، أن أحد المصادر الحالية يذكر أن أحد الحكام الذين حصلت منهم قريش على الإذن بالتجارة مع اليمن كان حبشيا[١٠٧]. إن الرواية لم تذهب أبعد من ذلك ، كأن نقول إن حاكم اليمن كان النجاشى نفسه ولكنها تصر على عبور قريش للبحر، للوصول لإثيوبيا، وهو الأمر الذى لا نوافق عليه(**).

(*) تعترف كرون هنا ضمنا بأن الكعبة تقع فى مكة المعروفة والثابتة تاريخيا وجغرافيا، ولكنها فى ص٢٣٦، ص٣١٨ وما يليها تحرك مكانها إلى الشمال من الجزيرة العربية . (المترجمة)

(**) تذكر كرون أن تجارة مكة كانت محلية بالكامل ص٢٠٢-٢٠٣ ، ثم بعد ذلك توافق على أنه كان لها تجارة مع اليمن وسوريا والحبشة . هل تعني بالمحلية شبه الجزيرة العربية ؟ وإذا كان الأمر كذلك فمن قال إنهم عبروا البحر المتوسط . إن المصادر الإسلامية لم تتجاوز فى وصف تجارة مكة مع البلدان المجاورة ، فلماذا النفي ثم الإثبات الذى إن دل على شيء فهو يدل على التخبط . هل يمكن للقرشيين الذين فروا من قريش إلى الحبشة أن يذهبوا إلى مكان لا معرفة لهم به ؟ ثم ما معنى أن تجارة الحبشة كانت تدار من اليمن . لقد عددت أعداداً من المكيين الذين وُجِدوا فى الحبشة ، وما هو الفارق بين أن يتبادل أهل =

وهناك احتمال ثالث ، يتمثل في أن قريشًا كانت تتاجر مع الحبشة عن طريق القرشيين المقيمين في اليمن وليس عن طريق مواطني مكة ، وعلى أي حال ، فإذا كان القرشيون ذهبوا للحبشة فيكون ذلك قد تم عن طريق اليمن . فقد ذُكر أن المهاجرين أبحروا مباشرة من الشعيبة، بواسطة سفن من الواضح أنها أجنبية(*)، تصادف أنها كانت راسية هناك(١٠٨). كما فر عكرمة بن أبي جهل بعد فتح مكة عن طريق العبور إلى الحبشة كما يذكر الطبري(١٠٩) وعن طريق اليمن كانت تأتي تجارة الحبشة(١١٠).

= مكة تجارة الحبشة ويتسلموها من اليمن أو من الحبشة ذاتها، الشيء المهم أنهم تعاملوا مع البضائع الحبشية سواء بطريق مباشر أو عن طريق وسطاء لهم في اليمن . ثم تختم حديثها بمحاولة بث الشك في نفس القارئ بقولها أن الرسول ﷺ لم يذهب إلى الحبشة ولم يلجأ إليها إضافة إلى أن كُتاب الرواية لم يعرفوا شيئًا عن التجارة التي كان من المفروض أن يعكسوها في كتاباتهم . فهل هذا يكفي دليلا على نفي تجارة الحبشة مع قريش ؟! إن الرسول ﷺ لم يذهب إلى اليمن فهل يكفي ذلك لنفي تجارة قريش المنطقية والتي تقيم البراهين دليلا على وجودها . حقيقة أنه لم يذهب إلى الحبشة ولم يلجأ إليها ولكنه أرسل أوائل المسلمين إليها عندما اشتد ضغط الكفار عليهم في ديارهم . وأميل إلى الاعتقاد أن الكتاب المسلمين لم يقوموا بتصنيفها لسبب رئيسي يتمثل في عدم الاهتمام بالنواحي الاقتصادية وذكرها تفصيلا طالما أنها لم تكن لها صلة مباشرة بالأحداث التي كانوا يقومون بتدوينها وهي الأحداث السياسية الخاصة بظهور الإسلام ، وعلى الرغم من هذا فقد تناثرت منها في كتاباتهم ما له صلة مباشرة بالأحداث العسكرية والسياسية ، وعلى سبيل المثال تؤكد المصادر العربية أن قريشا تاجرت في اليمن بتصريح رسمي من حاكمها الحبشي، إذ تروى أن أبرهة حين علم بتطليخ القليس قال :"هذا دسيس قريش لغضبهم لبيتهم الذي تحج إليه العرب ... وكان بصنعاء تجار من قريش فيهم هشام بن المغيرة فأرسل إليهم أبرهة فأقبلوا حتى دخلوا عليه فقال لهم : ألم أطلق لكم المتجر في أرضي وأمرت بحفظكم وإكرامكم ؟" جواد علي ، جـ٢، ص٦٢٣، وإذا صح هذا القول فإنه يعني أن أبرهة عقد لهم إيلافا يجيز لهم الاتجار في اليمن ، أو أنه أجاز ما كان سلفه يجيزه لهم قبله . ومما لا ريب فيه أن هزيمة أبرهة عام ٥٧٠أمام مكة كانت فاتحة عهد جديد وصل بمكة إلى ذروة نفوذها في اليمن وبين سائر العرب بعد فشل أعظم محاولات إخضاعها وأخطر مخططات الاستيلاء على تجارتها وانتزاع الزعامة الدينية والسياسية والاقتصادية منها ، إضافة إلى ما تقدم فإن رفض كرون لعبور قريش البحر للوصول إلى إثيوبيا لم يقم على سند قوي أو واضح . إن أحدا لم يذكر لنا أن قريشا كانت تملك أسطولا خاصا لتجارتها مع الحبشة. والشواهد كثيرة تدل على قيام علاقات بين الحبشة وقريش، وإذا كان أزد عمان الذين امتهنوا الملاحة وكانوا يأتون ببضاعة الهند وسيلان إلى موانئ الخليج واليمن لحساب تجار مكة ، فلماذا تستبعد أن تستأجر مكة سفنها منهم لتجارتها مع الحبشة ؟ (المترجمة)

(*) لم تذكر لنا كرون ما الأساس الذي استنتجت منه أن هذه السفن كانت أجنبية ؟ وبالرجوع إلى الحاشية رقم (١٠٨) ، نجد فيها الإحالة إلى الحاشية رقم (١٠) الفصل نفسه ، وفي تلك الحاشية تقول في فترة مبكرة لدى ابن هشام دون ذكر أي تفصيل . (المترجمة)

وطبقًا لما ذكره الواقدى، فإن عكرمة قام بركوب السفينة فى منطقة ما من تهامة (بدلاً من عدن)[١١١](*)، وهو الأمر الذى يتفق تمامًا مع المعلومات الخاصة بالمناطق التى كان يتاجر فيها أهل مكة فى اليمن . كل هذه المعلومات، بالإضافة إلى حقيقة ارتباط مخزوم مع كل من التجارة اليمنية والحبشة، يمكن أن يعنى أن المكيين المقيمين فى اليمن كانوا يشاركون فى التجارة المحلية مع الحبشة وقاموا ببيع بضائع محلية ، أكثر من كونها بضائع مكية فى الحبشة، كما قاموا بتوزيع البضائع الحبشية محليا وليس فى أسواق مكة، وإذا أصرت الرواية العربية على أن البضائع كانت مكية وأنها نالت إعجاب النجاشى ؛ حتى إنه أخذ يفكر فى تجارة حبشية توجه من مكة نفسها ، فإنه يمكننا التغاضى عن هذا لأننا أبدا لم نر قرشيين يقومون بتوزيع بضائع حبشية فى أسواق مثل سوق عكاظ[١١٢]. وإذا كانت التجارة القرشية مع إثيوبيا، تتم عن طريق اليمن ، فإنه أقل غرابة من أن الرواية المرادفة، لم تتذكر سوى إشارتها فقط إلى أنها كانت موجودة .

وهناك رأى يقف ضد هذا الطرح وهو المستمد من الروايات التى تذكر أن تجارة مكة مع الحبشة تمثل امتدادًا لتجارة مكة مع بيزنطة وسوريا أكثر من كونها كانت قائمة مع اليمن ، والاعتماد هنا على جملة وردت فى رواية الإيلاف حيث يذكر فيها أن الإمبراطور البيزنطى هو الذى حصل على تصريح لقريش ، للتجارة مع الحبشة[١١٣]. وهناك رواية منفصلة ، تذكر أن عبد شمس ، المؤسس التقليدى للتجارة مع الحبشة ، مات فى غزة مثل أخيه هاشم[١١٤]، أما المولى الذى أبحر للحبشة مع المسيحيين الذين كانوا من فلسطين، فيبدو أنهم أبحروا عن طريق أيلة[١١٥]. ومن المفترض أيضًا أن

(*) ذكر ابن إسحاق أن عكرمة بن أبي جهل فر إلى اليمن ، وبعد أن استأمنت زوجته أم حكيم من الرسول (ﷺ) "فلحقت به باليمن ، فجاءت به" أما الواقدى فيذكر أن زوجته أدركته بعد فراره إلى اليمن فى ساحل من سواحل تهامة وأحضرته معها إلى رسول (ﷺ) . ثم يوضح الطبرى أنه بعد خروجه إلى اليمن "كان يريد ركوب البحر ليلحق بالحبشة" وفى هذا دليل على صلة قريش المباشرة بالحبشة والتى تريد أن تنفيها الباحثة. راجع ابن هشام ، السيرة، ج٢، ص٤١٨؛ الواقدى، المغازى، ج٢، ص٨٥١؛ الطبرى، ج٣، ص٦١، طبعة بيروت عام ١٩٦٢ . (المترجمة)

عمرو بن العاص ، كانت له تجارة في سوريا ومصر والحبشة أيضًا . ولكن من المنطقى أن نترك جانبًا هذا العامل، لأنه يحرك إلى جانب أشياء أخرى ، تلك الصلات المعروفة بين بيزنطة والحبشة، ويجب أن نواصل الحديث على أساس التفسير بأن تجارة الحبشة كانت تدار من اليمن(١١٦) ، ولا يبدو أن أيا من هذه الحلول يعد دقيقًا بمعنى الكلمة .

ويرجع السبب فى وجود هذه المشكلة المستعصية إلى حقيقة الوضع البارز والاستثنائى بالنسبة للحبشة : من الناحيتين السياسية والدينية ، وارتباطها بظهور الإسلام . فهى تلك البلاد القابعة خلف البحر والتى وجد فيها كل من المسلمين وغير المسلمين ملجأ وملاذا ، وكان لحاكمها شهرة كبيرة ، وخصوصًا بين المسلمين، فقد استقبلهم ، ورفض تسليمهم ، وكان هو الحاكم الوحيد الذى قبل دعوة محمد [ﷺ] للدخول فى الدين الجديد(١١٧). ويتفق مع ذلك وجود عدد كبير من الكلمات الخاصة بالقروض فى اللغة الحبشية لها ارتباط باللغة العربية، ويأتى فوق كل شىء ذلك الارتباط القائم فى النواحى العقائدية هذا على الرغم من أنَّ جميعها – أو أغلبها – يمكن أن ترجع فى أصولها إلى العربية الجنوبية(١١٨). ولكن من الصعب القول بأن هذه الإشارات تعكس صلات تاريخية . لقد جرت العادة على تفسير هذه الأدلة فى ضوء وجود العلاقات التجارية ، وهى الطريقة نفسها التى لجأ إليها العلماء المسلمون المبكرون(١١٩). ومن الصعوبة بمكان القول بأن أيا من الكلمات الخاصة بالقروض تفسر اصطلاحات تجارية؛ إن الغالبية العظمى منها قد دخلت العربية عن طريق القرآن، إضافة إلى كل ذلك فلم يكن لمحمد [ﷺ] تجارة مع الحبشة ، كما لم يذهب إليها لاجئًا ، وخصوصًا أن كُتاب الرواية لم يعرفوا شيئًا عن التجارة، التى كان من المفروض أن يعكسوها فى كتاباتهم . لهذا فمن الخطأ أن نُحمِّل هذا القول أكثر مما يحتمل ونتوسع فيه لينسحب على التجارة لنفسر بها تلك الحلقة الغامضة من التجارة مع الحبشة ، ويكون من الأفضل على ما يبدو أن نقوم بشرح هذه الأدلة الخاصة بالتجارة عندما أو إذا كان لدينا تصنيف لها . وفى الختام يمكن القول إنه مهما كانت صورة تجارة قريش مع الحبشة ، فمن المستبعد أنها لعبت دورا كبيراً فى اقتصاد مكة .

- العـراق

وهذا ينقلنا للحديث عن العراق . ويذكر ابن الكلبى فى روايته عن الإيلاف أن أهل مكة كانت لهم تجارة منتظمة مع العراق . وهناك عدة أدلة مادية تؤيد هـذا الرأى ، حيث ذكرت إحدى الروايات أن أبا سفيان رافق قافلة قريش وثقيف إلى العراق[١٢٠]، وفى رواية أخرى تظهره على أنه تاجر فى الحيرة[١٢١] كذلك صاحب أبو سفيان وسفيان بن أمية القافلة التى قام المسلمون بمهاجمتها فى قَرَدة[١٢٢]. وذهب الحكم ابن أبى العاص إلى الحيرة لبيع العطور فيها[١٢٣]. أما مسافر بن أبى عمر فقد ذهب إلى هناك للحصول على المال من العمل فى التجارة طبقًا لما ذكره البعض، ويذكر آخرون أنه اختار أسهل وسيلة لطلب المساعدة من النعمان بن المنذر[١٢٤]. وطبقًا لرواية ابن الكلبى نفسه فإن تجارة قريش مع الحيرة هى التى نشرت الزندقة فى مكة[١٢٥]. ويلاحظ هنا أن جميع الأفراد، الذين ورد ذكرهم سابقًا ، كانوا من بنى أمية ، وكانوا يرحلون للحيرة دائمًا[١٢٦]. ولم تذكر رواية الإيلاف أسماء الأماكن التى وصلوا إليها، فيما عدا نوفل مؤسس تجارة العراق، الذى ذكر أنه وصل إلى منطقة سالمان **(Salman)** فى بلاد العرب على طريق العراق . وهناك بعض المصادر التى تذكر تفصيلات أخرى عن الصلات التى تمت بين قريش والقبائل الواقعة على الطريق الذى نعنيه[١٢٧].

ويرجع السبب فى صعوبة هذه الأقوال لتضاربها ، بحيث إن الواحدة منها تنقض الأخرى . وعلى سبيل المثال فإن ما ذكره ابن الكلبى من أن نوفل تمكن من الحصول على إذن من الإمبراطور الفارسى (أو ملك الحيرة) بمنح قريش حق التجارة مع العراق ، غير أن الرواية القائلة بأن أبا سفيان الذى كان يصاحب قافلة قريش وثقيف للعراق جعله يصرح بأن هذا الوضع أصبح خطيراً لأن الفرس لم يمنحوه تصريحا بالتجارة فى أراضيهم ، وأنه لا يوجد متجر لهم هناك[١٢٨](*).

(*) تقول كرون إن الروايات العربية متضاربة عن وجود تجارة بين قريش والحيرة حيث إن الواحدة منها تنقض الأخرى . وتقدم أنموذجًا لذلك ما ذكره ابن الكلبى عن حصول نوفل على إذن الإمبراطور الفارسى (أو ملك الحيرة) بمنح قريش حق التجارة مع العراق ، ثم تقدم بعد ذلك رواية أبى سفيان عندما كان يقود قافلة لقريش وثقيف، وتضيف بأن الفرس لم يمنحوه تصريحًا بالتجارة فى أراضيهم وأنه لا يوجد لهم =

وبالمثل يقول ابن الكلبى أن نوفل تمكن من عقد اتفاقات - إيلاف - مع القبائل التى كانت تقيم على طريق العراق، حتى يضمن المرور الآمن إلى قريش، ولكن مصادر أخرى (اعتمدت على ابن الكلبى) تقول إن قريشًا تمكنت من إحراز حصانة تلقائية بين القبائل المقيمة على طول الطريق ؛ لأن قبائل مضر وحلفاء هم كانوا يحترمون صلاتهم المباشرة أو غير المباشرة بقريش(١٢٩)، لأنهم كانوا يعتبرون أن رجال قريش رجال مقدسون . إن هذه الأقوال تتضارب مع قصة الحكم بن أبى العاص الذى طلب الجوار ، من أحد حلفاء مضر عندما كان فى طريقه للعراق ، أو بمعنى آخر أنه قام بعقد ترتيبات لضمان سلامته على الطريق لأنه كان يجهل إيلافات قريش، وحصانتها بين القبائل الأخرى(١٣٠). بل ذكروا أكثر من ذلك ، حيث قالوا إنه عندما استولت قريش على الطريق الواقع فى إقليم ربيعة ، قام بحراستهم أبناء عمر بن المرصد ، زعيم قيس بن ثعلبة من بكر بن وائل حتى يتمكنوا من المرور بأمان(١٣١). ويبدو أن هذا يتفق مع وجود الاتفاقات - الإيلافات - (ولكنه يصعب مع وجود الحصانة) . ويبدو أن أبا سفيان وصفوان بن أمية كانا يجهلان أمر هذه الترتيبات ، لذلك قالا أنهما سوف يصابان بخسائر شديدة عندما يرغمهم محمد [ﷺ] على قيادة قافلتهما لسوريا عن طريق العراق. وقد حل لهم بكر بن وائل المشكلة بأن أشار عليهم بأن يتخذا دليلا لهما ، ويبدو أنه كان يعمل حارس أمن أيضًا، لقد كان هذا المرشد هو شخص غير معروف، ويسمى فرات بن حيان(١٣٢)، وليس عمر بن المرصد.

إن الرواية تذكر هنا أن المكيين كانت لهم علاقات تجارية منتظمة مع الحيرة، ثم تقوم بنفيها فى الوقت نفسه، ويحسب لهذه الرواية أنها ذكرت أن المكيين لم يكن لهم متجر، بدلا من أن تدعى حرمانهم من متجر تاريخى كان لهم . ويبدو أن الافتراض

= متجر هناك" وأود أن أشير هنا إلى أنها أغفلت أو تغافلت أن قول أبى سفيان كان لاحقا لحروب الفجار التى انتصرت فيها إرادة مكة على الحيرة مما كان له انعكاسه على العلاقات بين الطرفين خصوصا وقد تجدد تعدى العرب على قوافل الحيرة وكسرى بعد حروب الفجار . راجع: ص٢٥٠، ٣٠٢ والتعليق المذكور فيها .

بأنه لم يكن لهم صلات تجارية منتظمة هو أقرب إلى الواقع . لأن قصة قَرَدة تشير إلى أن المكيين لم يتاجروا مع العراق . إن ما ذكره أبو سفيان قاله وهو قائد لقافلة قريش وثقيف، وفعل حكم بن أبي العاص الشيء نفسه في الجوار. وفيما عدا ابن الكلبي فلم يذكر أحد من المفسرين العراق أو فارس في تفسير رحلتي الشتاء والصيف اللتين ذكرتا في القرآن [الكريم] . إن الوصف الذي ورد بخصوص علاقة قريش مع مضر وربيعة ، على طول الطريق للعراق قد ورد نتيجة لزياراتهم لدومة الجندل (الجوف حاليًا)(*) . إن الروايات التي وصفت أبا سفيان ومسافر كتجار في الحيرة كانت مختلقة حيث حذفت التجارة من بعضها[١٣٣] وينطبق الشيء نفسه على قصة الكلبي عن نشر الزندقة في مكة ، وهي الظاهرة المشكوك تاريخيا في أمرها[١٣٤]. وليس هناك من سبب يجعلنا نقول إن زياراتهم لم تكن نادرة بحيث أنها لم تعبر الحيرة . ويصبح من العبث أن نتحدث عن تجارة لقريش مع العراق وهو الأمر الذي سبق وقمنا بإيضاحه[١٣٥] .

(*) يروي الأصفهاني كثيراً عن علاقات بعض المكيين بالحيرة ، فيقول مثلا مسافر بن أبي عمرو بن أمية، إن له شعرًا ليس بالكثير، " والأبيات التي فيها الغناء يقولها في هند بنت عتبة وكان يهواها . فخطبها إلى أبيها بعد فراقها الفاكه بن المغيرة، فلم ترض ثروته وماله. فوفد على النعمان يستعينه على أمره ثم عاد" . ويقول في رواية أخرى: " فخرج حتى أتى الحيرة، فأتى عمرو بن هند فكان ينادمه . وأقبل أبو سفيان بن حرب إلى الحيرة في بعض ما كان يأتيها " ، الأغاني ، ج٩، ص٥٠ . ونعلم الكثير عن وفود النابغة الذبياني على النعمان وعلى بني جبلة الغساسنة ، ثم اعتذاره شعرا للنعمان. وعن عمرو بن كلثوم ووفوده على الحيرة وقصته مع عمرو بن هند. إن علاقات قريش هذه بالحيرة قد حُفظت لنا بفضل الشعر، وليس فيها ما يتعلق مباشرة بالأوضاع التجارية أو السياسية والتي لم يكن الشعر يهتم بمثلها ، ولكنها تدل على صلات بين قريش والحيرة، ولم يكن لمثل هذه العلاقات أن تزدهر إلا بفضل المواصلات التجارية التي ازدهرت مع إيلاف قريش وقوافلها ، ورحلة الشتاء والصيف وما كان من أمر المواسم . (المترجمة)

إن تجارة مكة مع الدول الخارجية ، تعنى تجارتها مع سوريا ومصر من جيرانها، وبالرغم من أن المصادر ، تشير لوجود علاقات تجارية مع اليمن ، فيبدو أن المقصود بها هى تلك المنطقة الجنوبية من شبه الجزيرة ، والتى كان يمكن منها العبور للحبشة ، ورغما عن ذلك فإننا لا نعرف شيئًا مؤكداً عن البضائع التى كانوا يتاجرون فيها . كذلك لا يمكننا أن نقول ، أنهم كانت لهم صلات تجارية منتظمة مع العراق(*).

(*) بعد أن تقدم كرون أحد المصادر الإسلامية التى تؤكد قيام تجارة بين قريش والحيرة ، ثم ترفقها بذكر الأدلة المادية على قيامها تعود فى الختام وتقول "أنه من العبث أن نتحدث عن تجارة لقريش مع العراق" ، والمعروف والثابت تاريخيا أن مملكة الحيرة كانت حليفة للفرس التى تقف خلفها وحقيقة أن الفرس والحيرة واليمن ، ولم يكن لدى مكة ما تنقله إلى الفرس والحيرة سوى التجارة الحبشية التى تضمنت اللادن وريش النعام والعاج والرقيق، وكان ملوك السأسَان يرسلون قوافلهم إلى جنوب الجزيرة العربية يخفرها وكلاؤهم فتحمل إلى العراق وأسواق فارس منتجات تلك المناطق. أما منتجات الحبشة فيمكن أن نفهم سبب عدم وصولها إلى الفرس مباشرة فى عهد أبرهة الذى عادى الفرس، وفى عهد ذى يزن وخلفائه الذين عادوا الحبشة . ويبدو أن البضاعة الحبشية كانت تصل بحرا إلى ميناء الشعيبة ، فتتولى قوافل مكة بموجب الإيلاف نقل ما تيسر منها وفقا لحاجات الحيرة وفارس . وكان تجار مكة يفدون على المدائن ويتصلون بديوان كسرى ويشتغلون هناك بالبيع والشراء . وكان فى الحيرة سراة نصارى اشتركوا مع سراة قريش فى تجارتهم مثل كعب بن عدى التنوخى، وكانت له شركة فى الجاهلية مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى تجارة البز ، ويبدو أن تجارة قريش مع الحيرة تعاظمت بينما تهاوت مكانة الملوك اللخميين فى بلاط كسرى، لأن القبائل العربية أخذت تهاجم قوافل الفرس ، أما قوافل ملوك الحيرة فلم تعد ترسل مثلما كانت ترسل كل عام ، واستفادت مكة من ذلك وأخذت السوق لنفسها خصوصاً بعد مقتل النعمان ابن المنذر وانتصار العرب على الفرس فى يوم ذى قار . وقد تميز موقع قريش فى الإيلاف على كل الأطراف الأخرى ، بأنها لم تضيع أية فرصة ، وكانت تملأ كل فراغ شاغر فى تجارة الشرق حتى استولت شيئًا فشيئًا عليها. (سحاب .المرجع السابق، ص٢١٨-٢١٩ والمصادر المذكورة لديه) . وعن يوم ذى قار راجع : عبد الحميد (سعد زغلول) ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، بيروت ١٩٧٦ ، ص٢٣٠ وماپليها . (المترجمة)

الحواشى

(١) عن أهم الروايات فى الفصل الرابع، راجع : حاشية رقم (٤٢). أما رواية اليعقوبي فهي أضعف من الروايتين الأخريين. وهناك رواية أخرى أكثر صحة أوردها سليمان بن سالم القلعي، كتاب الاكتفاء، ص٢٠٧ وما يليها (على الرغم من حذفه ذكر البضائع المكية) وجرت مناقشة الرواية فى المراجع التالية : Hamidallah, "Rapports"; Simon, Hums et Ilaf and Kister, "Mecca & Tamim" .

(٢) وذكر الثعالبي هذه النقطة في الشرح الذي قدمه في : الثمار ، ص١١٥ .

(٣) ورد في القلعي كلمة "تحمله إليهم" بدلا من "تحمله لهم"، ثمار ،ص١١٥، ويحصل رجال القوافل على كل من رأس المال والربح الذى استثمروه والذى حصلوا عليه، وتمثل ربح قريش بشكل خاص فى تأمين المرور، وأوضحت رواية الثعالبي بجلاء أنهم كانوا يستقطعون نصيبهم من الربح.

(٤) جلال الدين السيوطي،كتاب الدُر المنثور في التفسير المطهر،ج٤، ص٣٩٧، رواية عكرمة (يبدو أن المقصود بالروم وسوريا هو التعبير عن سوريا بطرق مختلفة وليس الأناضول وسوريا).

(٥) ابن حبيب ، المنمق، ص٢٦٢، رواية الكلبي : مقاتل بن سليمان، التفسير، /Ms Saray, Ahmet, III, 47 11, Fol. 253a وأدين بشكر للدكتور روبن U.Rubin لنسخه صفحة المخطوط): محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، ج٣٠، ص١٩٩، رواية عكرمة ، إن الرأى القائل بأن قريشا اعتادت أن تتاجر مع سوريا فى أحد الفصول ومع اليمن فى فصل آخر لا يقتصر فقط على هذه الروايات .

(٦) مقاتل ، التفسير ، رقم ٢٥٣ (أ).

(٧) الكلبي المذكور في ابن حبيب، المنمق، ص٢٦٢ (اشتد عليهم الجَهْد)؛ مقاتل، التفسير، رقم ٢٥٣(أ)؛ المذكور لدى فخر الدين الرازي،مفاتيح الغيب، ج٨، ص٥١٢ (شكى إليهم الاختلاف لهم والعودة والذهاب إلى اليمن والشام).

(٨) وذلك بدلا من الماديات التي ركز عليها الطبرى في جامع التفسير، الطبرى، الجامع، ج٣٠، ص١٩٨ وما يليها .

(٩) Ibid : ذكر ابن عباس (أن رحلاتهم لم تدر عليهم أى ربح، لذلك منعهم الله وطلب منهم عبادة رب البيت)، وقال عكرمة (أن الله طلب منهم البقاء في مكة) ثم قال ابن عباس مرة ثانية (إن الله طلب منهم التمسك بعبادته كما يحافظون على رحلتى الصيف والشتاء؛ لقد طلب منهم البقاء فى مكة وعبادته بدلا من رحلاتهم للطائف.) ؛ وذكر السيوطي الشيء نفسه في الدُر ، السيوطي ، الدُر، ج٤،ص٣٩٧ وما يليها، رواية عكرمة وابن عباس.

(١٠) الكلبي المذكور في ابن حبيب، المنمق، ص٢٦٢، حيث تأتي المواد التموينية من تبالة وجرش وساحل اليمن، فحمل أهل الساحل في البحر إلى جدة، وحمل أهل البر إلى المحصب (بين مكة ومنى، راجع ياقوت الحموي، البلدان، ج٤، ص٤٢٦) . لم تذكر أي من الروايات التي أوردها الطبري هذه التفصيلات.

(١١) مقاتل، التفسير، رقم ٢٥٤ (أ)، حيث يصل التموين إلى جدة؛ الرازي، مفاتيح ، ج ٨، ص ٥١٢، وذكر حميد الله إحدى صيغ هذه الرواية Hamidallah, "Repports", p.302 .

(١٢) وطبقًا لابن عباس الذي ذكره الطبري، الجامع، ج٣٠، ص١٩٨، كان باستطاعتهم الذهاب في هذه الرحلات أو البقاء في ديارهم حسب رغبتهم.

(١٣) الكومي ، التفسير ، ج٢، ص٤٤٤ .

(١٤) انظر الحاشية الفصل التاسع أدناه .

(١٥) ذكر البلاذري ، الأنساب، ج١، ص٥٩ : (ملوك الشام، ملوك العراق)؛ وذكر الطبري، التاريخ، مجلد (١)، ص١٠٨٩ : (ملوك الشام ، والروم، وغسان، ولكنه عسكر على الجانب العراقي)، نهاية الأرب المذكور لدى كيستر : .Kister, "Some Reports", pp.61f (جبلة بن الأيهم في سوريا، والملك الفارسي في العراق).

(١٦) راجع أدناه الفصل التاسع.

(١٧) عرف كل من الكلبي ومقاتل مولى قريش الذي كان يتاجر في سوريا أو الحبشة في فجر الإسلام (ذُكر المصدر في الحاشية رقم ٩٨ أدناه) وقرشيٌ آخر كان يتاجر مع فارس في الفترة نفسها (راجع حاشية رقم ١٢٦ أدناه).

(١٨) عن طريق المؤمنين رواية مقاتل المذكورة في : ;Kister "Some Reports", p.74 ؛ محمد بن عمر البيضاوي ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عن سورة التوبة، الآية الكريمة رقم ٢٨ . عن طريق المشركين: الطبري، الجامع، ج١٠، ص٦٦ وما يليها؛ السيوطي، الدر، ج٣، ص٢٢٧؛ ابن كثير، التفسير، ج٢،ص٣٤٦ وما يليها (عن سورة التوبة رقم (٩)الآية الكريمة٢٨). ووجد البيضاوي الحل على النحو التالي : لقد هدى الله شعب تبالة وجرش للإيمان وقاموا بإحضار المؤن (راجع حاشية رقم(١٠) أعلاه)، ثم بعد ذلك جاءت الفتوحات .

(١٩) Sebeos, Histoire, p.95; L.Guidi and others, ed. And trs. Chronica Minora, p.326=250.

(٢٠) وجاء ذكر ذلك سابقا، وذكر السيوطي رأي عكرمة من أن قريشاً اعتادت الذهاب إلى بلاد الروم والشام في الشتاء والصيف (الدُر،ج٦،ص٣٩٧)؛ وهذا يعني أن عكرمة استند إلى الرأي القائل بأنهم اعتادوا الذهاب لسوريا في كل من الصيف والشتاء، حيث كانوا يسافرون على طرق مختلفة حسب كل فصل (المرجع السابق،ص٣٩٨)؛ ولذلك فقد أخذ ابن هشام أن ذلك أمر مسلم به حيث أن الرحلتين المذكورتين في القرآن كانتا تذهبان إلى سوريا فقط ، وليس إلى مكان آخر.(السيرة، ص٣٧). أما الكومي الذي ذكر أن الرحلتين كانتا تذهبان إلى سوريا واليمن فقد أغفل ذكر اليمن عندما قال "بأن قريشاً لم تعد بحاجة للذهاب إلى سوريا" (التفسير، ج٢، ص٤٤٤) .

(٢١) انظر على سبيل المثال : ابن هشام، السيرة ، ص٤٢٧؛ الواقدي ، المغازي، ج١،ص٢٨، وكان أحد أفراد القافلة التي أدت إلى معركة بدر خلال عودتها من سوريا؛ راجع حاشية رقم (١) الفصل الرابع أعلاه،

حاول قيادة القافلة إلى سوريا عبر قردة ؛ انظر حاشية رقم ٥٢ أدناه، وزار سوريا مع أمية بن أبي الصلت ؛ الطبري، التاريخ، مجلد ١، ص١٥٦١؛ الأغاني، ج٦، ص٣٢٤، (والاثنان مذكوران لدى ابن إسحاق)، حيث ذهب إلى غزة خلال فترة الهدنة بين مكة والمدينة .

(٢٢) وعن اشتراكه في القوافل التي أغارت على قردة وعز، راجع هامش١ الفصل الرابع أعلاه. وطبقا لما ذكره الواقدي، المغازي، ج١،ص١٩٧، كان صفوان مع الرأي القائل بأن قريشا استقرت في مكة من أجل القيام بالتجارة مع سوريا والحبشة. ولكن طبقا لما ذكره الفاكهي الذي ذكر في كيستر Kister, "Some Reports", p.77 فقد كان صفوان يتاجر مع مصر على وجه الخصوص .

(٢٣) كذلك أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دلائل النبوة، ص٧٠، رواية الواقدي، حيث التحق بالقافلة (وردت كلمة عير خطأ في الطباعة على النحو التالي ghaÿr) الذاهبة إلى سوريا وسمع عن نبوءات ظهور النبي [ﷺ] .

(٢٤) وهو أحد تجار قريش الذي سجنه عثمان بن الحويرث في سوريا (ابن حبيب) المنمق، ص١٨٠، أبو الباجة، مناقب، رقم ١١(أ)؛ أبو ذؤيب هشام بن شعبة (ربيعة لدى ابن حبيب)العمري، الذي ذكر أنه قد سجنه هو الآخر.

(٢٥) ابن حجر ،الإصابة، ج١،ص١٠، حاشية رقم (٢)؛ نفس المرجع، ص١٨١، حاشية رقم ٧٧٩ مادة بكة . وتلك هي قصة تاجر آخر سمع عن نبوءات النبي [ﷺ] في سوريا .

(٢٦) كانوا شركاء في العمل ويبدو أنهم كانوا يتبادلون الذهاب إلى سوريا .

(٢٧) ويذكر هنا أنه هو أو أبو طالب هو الذي أخذ محمدا [ﷺ] إلى سوريا عندما كان صبيا .

(٢٨) راجع ابن حبيب ، المنمق، ص٤٤١ .

(٢٩) يذكر عادة أنه هو الذي أخذ معه محمدا [ﷺ] إلى سوريا: انظر على سبيل المثال ابن سعد، الطبقات، ج١، ص١٥٣ وما يليها، وعن مصادر أخرى راجع الفصل التاسع أدناه .

(٣٠) وهو المذكور على سبيل المثال لدى ابن سعد، الطبقات، ص١٢٩ وما يليها، ص١٥٦ وعن مسح لزيارات محمد [ﷺ] لسوريا راجع الفصل التاسع أدناه .

(٣١) راجع أدناه، وإذا قمنا بحذف الزيارات التي قام بها الهاشميون لسوريا بوصفهم أوصياء على محمد [ﷺ] سوف يختفي ارتباطهم بها في واقع الأمر .

(٣٢) ابن حبيب، المنمق، ص١٧١؛ راجع ابن كثير، البداية ،ج٢، ص٢١٧ وما يليها.

(٣٣) وعند ذهابه إلى سوريا كان يحمل مالا كان يملك جزءًا منه والجزء الآخر أؤتمن عليه، واعترضه المسلمون في طريق عودته (راجع هامش١٣ الفصل الرابع أعلاه)وعند عودته من سوريا مع القافلة التي كانت تحمل الفضة اعترضه المسلمون في طريق عودته إلى عز في السنة السادسة (الفصل الرابع هامش ١٣ أعلاه). لقد ذهب إلى سوريا ومعه بضائع لم يتم تحديدها ، وعند عودته من سوريا اعترضه المسلمون الذين كانوا يعملون على الساحل خلال فترة الهدنة بين مكة والمدينة ، وكان ذلك في الفترة بين السنة السادسة والثامنة (موسى بن عقبة في ابن حجر، الإصابة ، ج ٨ ، ص١١٨، حاشية رقم ٦٨٤ مادة، أبي العاص بن الربيع) وطبقا لما ذكره الواقدي ، فإن هذه الحقبة تمثل معركة أخرى في عز ليس لها علاقة بأبي العاص (أعلاه حاشية رقم ١٥ والفصل الرابع). وأينما وكيفما حدثت، فقد منحته زوجته زينب (وهي

ابنة الرسول ، [ﷺ] حق الجوار، طبقا لجملة وردت في دستور المدينة "بأن المؤمنين يدهم أعلى من سواهم ، يُجير عليهم أدناهم".(*)

(٣٤) كان طلحة موجودا في سوريا أثناء الهجرة (ابن هشام، السيرة، ص٤٨٩؛ البلاذري، أنساب، ج١، ص٢٧٠) ، أو أنه عاد من هناك بقافلة أثناء هجرة الرسول [ﷺ] (ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص٢١٥). وقابل راهب في بُصرى Busra كان يعرف بظهور نبي في بلاد العرب (المرجع السابق، الإصابة، ج١، ص٢٩١، حاشية رقم ٤٢٥٩ مادة طلحة بن عبيد الله).

(٣٥) كان أبو بكر [ﷺ] معروفا في يثرب التي كثيرا ما كان يمر عليها في طريقه لسوريا (ابن سعد، الطبقات، ج١، ص٢٢٢؛ راجع أيضًا الواقدي، أسباب ، ص٢٨٤) كما سافر عبد الرحمن بن أبي بكر إلى سوريا في تجارة (الأغاني ، ج١٧، ص٣٥٩؛ ابن حجر، الإصابة، ج٦، ص١٦٨، حاشية رقم ٥١٤٣).

(٣٦) كان أحد أفراد القافلة التي تسببت في معركة بدر خلال عودته من سوريا. (السيرة، ابن هشام، ص٤٢٧ ، الواقدي، المغازي، ج١،ص٢٨، وذكر الاثنان مُشترك آخر هو عكرمة بن نوفل).

(٣٧) كانت سوريا هي متجر زَمعة (ابن حبيب،المنمق، ص٤٨٥) وقتل أسد ابن أبي جهل في حوران عندما ذهب إليها للتجارة (البلاذري ، الأنساب، ج١، ص١٣١) . وورد في مكان آخر أن الذي قتله الأسد هو ابن أبي لهب (مع أو بدون أبي لهب نفسه) بعد أن دخل في صراع معه عندما كان في رحلة إلى سوريا، هذا على الرغم من أنهم لم يوجدوا دائما في حوران (أبو النعيم، دلائل، ص٣٨٩ وما يليها؛ الماوردي ، أعلام، ص١٠٧؛ حسان بن ثابت، ديوان ، ج١، ص٢٤٩ حاشية؛ ج٢، ص٣١٠، ورقم ٢٤٩: ١)؛ وهناك من جعله يقوم بالتجارة في حُباشة جنوب مكة بدلا من حوران (المرجع السابق، ج٢،ص٣١٠) .

(٣٨) راجع: ابن حبيب ، المنمق، ص١٧٣، ص٤٤١ ذهب أحد أفراد تميم مع أحد القرشيين إلى سوريا ، ثم اشتبك القرشي مع حليفه التميمي في عِراك.

(٣٩) البلاذري ، الأنساب ، ج١، ص٢٥٧

(٤٠) ابن هشام، السيرة، ص٢٦٧،ص٩٧٥ وما يليها، أرسل الرسول [ﷺ] تجارة مع دِحْيَة بن خليفة، الذي أغار عليه رجل من جُذام، انتقاما من غزوة زيد بن حارثة ضد الأخير ؛ راجع الواقدي ، المغازي ، ج٢، ص٥٦٤، وأرسلت تجارة رفاقه مع زيد بن حارثة، الذي قام بالانتقام من فزارة وشن حملة على أم قرفة.(**)

(٤١) ابن هشام، السيرة، ص٤٢٧ وما يليها، الواقدي، المغازي، ج١،ص١٩ وما يليها، وإذا وافقنا على ما ذكره الواقدي فمعنى هذا أنه لا يوجد مكي واحد ليس له مصلحة تجارية مع سوريا، بمعنى أن كل قرشي ، وكل قرشية ممن كانوا يملكون أي شيء قد اشتركوا في هذه القافلة (المصدر السابق، ص٢٧) (وعن القردة وعز راجع أعلاه الفصل الرابع حاشية رقم (١) .

(*) لمزيد من التفاصيل ، راجع ابن هشام ، السيرة ، ج١ ، ص ٦٥٧ وما يليها ؛ الواقدي ، المغازي ، ج٢ ص ٥٥٣ . (المترجمة)

(**) راجع لمزيد من التفصيلات ابن هشام ، السيرة ، ج٢ ، ص ٦٢١ – ٦١٨ . (المترجمة)

(٤٢) كذلك سرية حمزة على الساحل والغارات على خَرار، والأبواء، وبواط، والعشيرة كانت جميعها انتقاما من القوافل القرشية طبقًا لما ذكره الواقدى الذى يعرف هنا كما العادة دائمًا أكثر مما يعرفه ابن إسحاق (الواقدى، المغازى، ج١، ص٩، ص١١ وما يليها؛ راجع ابن هشام، السيرة، ص٤١٢، ٤٢١ وما يليها). وفى جميع هذه الغزوات لم يقع اشتباك ولم يتم الاستيلاء فيها على أى قافلة ، ثم قام المسلمون بعد ذلك بالاستيلاء على كل قافلة قرشية، فقد ذُكر ذلك فى حقبة أخرى لم يعرفها ابن إسحاق، وهى الغارة الثانية على عِز (الواقدى، المغازى، ج٢، ص٦٢٧). فقد جاءت إحدى هذه القوافل من سوريا عندما قام تسعة من العَبْسيين بالاستيلاء عليها وكانوا قد دخلوا حديثا فى الدين الإسلامى .(ابن سعد، الطبقات، ج١، ص٢٩٦ رواية الواقدى).(*)

(٤٣) راجع أعلاه ص١٠٩ وما يليها .

(٤٤) ذلك هو أبان بن سعيد (ابن حجر، الإصابة، ج١، ص١٨١، حاشية ٧٧٠، مادة بكة .

(٤٥) وهو أمية الذى ذُكر أنه ترك مكة بعد أن خسر منافرة مع هاشم وكانت هذه بداية العداء بين الأمويين والهاشميين. (ابن سعد، الطبقات، ج١، ص٧٦، ابن حبيب ، المنمق، ص١٠٦؛ ابن قتيبة، المعارف، ص١٣٩، أبو الباجة، مناقب، ملف رقم ١٢٠أ ، راجع الفصل الرابع من الكتاب،حاشية رقم (٧٠) .

(٤٦) حسان بن ثابت،الديوان، رقم ٢٠٦: ٢ (طبعة هيرشفيلد Hirschfeld ، ٢٠٩، ٢).

(٤٧) ابن حبيب، المنمق، ص١٨٠، أبو الباجة، المناقب، رقم ١١ (أ). والقصة التى ذكرها الأغانى (ج٢، ص٢٤٢) تنطبق أيضًا على قريش ورحلاتها لسوريا وذلك فى حالة إذا لم يكن ورد خطأ ذكر الشراة (Sharat) بدلا من السراة (Sarat) (راجع حاشية رقم ٩٢ أدناه).

(٤٨) قدم الواقدى تفصيلات عن الطرق التى كانت تتبع فى ذلك الوقت ؛ الواقدى، المغازى ، ج١،ص٢٨؛ ج٢، ص٦٢٧؛ بكرى ، معجم، ص٤١٦، ص٥٥٠، انظر مادة : روضة المعارك، وذكر السيوطى عكرمة من خلال ابن أبى حاتم (راجع حاشية رقم ٢٠ أعلاه)، وراجع كذلك Lammens, Mecque, pp.142ff .

(٤٩) الواقدى ، المغازى ، ج١، ص٢٨، ص٢٠٠ . وراجع حاشية رقم (٢١) أعلاه عن أبى سفيان، وص ١٢٠ عن هاشم.

(٥٠) وعن السوق راجع: المرزوقى، الأزمنة ، ج٢، ص١٦٩ وما يليها. وعن زيارات محمد [ﷺ] عندما كان صبيًا وعندما كان يعمل وكيلاً للسيدة خديجة [رضي الله عنها] راجع المصادر المذكورة فى الفصل التاسع أدناه. وقام طلحة هو الآخر بزيارة بُصرى Busra وهى المكان التقليدى للروايات الخاصة بأدلة النبوة (راجع حاشية رقم ٣٤ أعلاه)، وعن المدينة نفسها راجع EI^2 s.v. Bosra .

(٥١) كانوا يذهبون عن طريق الساحل عبر أيلة إلى فلسطين فى الشتاء، وعن طريق بصرى Busra وأذرعات Adhriat فى الصيف.

(٥٢) وهناك رواية متأخرة عن أدلة النبوة بأن أمية بن أبى الصلت الثقفى ذهب "إلى غزة أو فلسطين" فى صحبة أبى سفيان كما هو واضح لدى (ابن كثير، البداية، ج٢، ص٢٢٤). ولكن الواقدى لا يذكر إلا غزة فقط (راجع حاشية رقم ٥٤أدناه)، ومما يثير الدهشة هو عدم ذكر ذلك فى رواية تجارة مكة .

(*) راجع التعليق المذكور فى ص ٢٧٦ من الترجمة .

(٥٣) سبق أن وردت الإشارة إلى رواية مختلفة للقصة فى الحاشية السابقة فقد ذهب كل من أبى سفيان وأمية ابن أبى الصلت فى رحلة تجارية إلى سوريا، والتى قادتهم على طول الطريق إلى غوطة دمشق حيث مكثوا فيها لمدة شهرين (ابن كثير، البداية، ج٢، ص٢٢٠ وما يليها ، ذكرها ابن عساكر؛ ج٣، ص١١٥ وما يليها). وفى حوران قابل أحد التجار القرشيين أسدا كما ذكر البعض (راجع حاشية رقم ٣٧ أعلاه) ، مما يدل على أن التجارة قد قادت عبد الرحمن بن أبى بكر إلى دمشق (الأغانى، ج١٧، ص٣٥٩ وما يليها). وقيل إن الوليد بن المغيرة كان يدين بأموال لأحد أساقفة دمشق يدعى المقوقس Muqawqis (وفى مكان آخر يذكر أنه كان مدينا بهذه الأموال لأسقف فى نجران . ابن حبيب ، المنمق، ج٢٢٦)؛ Kister Some Reports, p.73, رواه ابن حبيب عن زبير بن بكر. وفى رواية أخرى تذكر أن أحد رجال ثقيف هو الذى كان مدينا له . كما ذكر أن حاكم دمشق قضى فى نزاع نشب فى إحدى المناسبات بين اثنين من العرب، ولم يكن أحد منهما من قريش (البلاذرى ، الأنساب،ج١، ص٢٨٢)، ويرى وات Watt أن المكيين كانوا يتاجرون مع دمشق وغزة فى الصيف، ومع اليمن فى الشتاء اعتمادا على ما جاء فى سورة قريش (راجع EI, s.v. Kuraysh; وقارن ما جاء فيها مع ما ذكره وات Watt, Muhammed, Prophet and stateman, P.I) .

(٥٤) ويذكر مقاتل أنهم تاجروا مع فلسطين والأردن (مقاتل، التفسير، رقم ٢٥٣ (أ)، وفى الأردن أمضى أمية فترة نفيه طبقًا لما ذكره أبو الباجة (راجع حاشية رقم ٧٠ الفصل الرابع أعلاه). ومن جهة أخرى شرح لنا الواقدى الوضع بقوله إن أبناء عبد مناف لم يتجاوزوا غزة فى سفراتهم. (المغازى، ج١، ص٢٠٠).

(٥٥) Guidi , Chronica Minora , P. 326=250

(٥٦) ابن سعد ، الطبقات، ج١، ص٧٥ .

(٥٧) ذكر أنهم كانوا يتاجرون أحيانا مع الروم (راجع المصادر المذكورة فى الفصل الأول ، حاشية رقم (١٠) ورقم (٢٠) أعلاه ورقم ٧٢ أدناه)، ويرى لامينز أن بلاد الروم هنا تعنى الأناضول Republique mer-chande p.26، (على أساس المصدر الذى ذكر فى حاشية رقم ٧٢ أدناه)، ولكن يبدو أن المقصود بها هى الإمبراطورية البيزنطية بشكل عام . وجاء ارتباط هاشم بأنقرة من الاعتقاد بأن أفرادا من قبيلة إياد العربية كانوا يقيمون هناك. (الأغانى ، مجلد٢٢، ص٣٥٨) .

(٥٨) الكندى، حكام، ص٦ وما يليها .

(٥٩) راجع حاشية رقم (٢٢) أعلاه .

(٦٠) أحمد بن يحيى البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ج١، ص٢١١ ، (وأدين بهذا المصدر للدكتور هندس G.M. Hinds) .

(٦١) الطبرى، جامع ، ج٢٦، ص٥٥، عن السورة رقم ٤٨، الآية ٢٥ (من القرآن الكريم).

(٦٢) السهيلى، الروض، ج١، ص٤٨، وتتكون البلاد المذكورة من سوريا وفارس ومصر والحبشة (كما ورد لدى الجاحظ الذى ذكره كيستر Kister, Mecca and Tamim, p.137 (Byzantium, Egypt, and Ethiopia).

(٦٣) راجع الآيات القرآنية : ٢٣ : ٢٠ ، و٩٥ : ٢ (أما بقية الإشارات فهى تشير إلى سيناء موسى) .

(٦٤) راجع: مقاتل ، تفسير، رقم ٢٥٣(أ) ؛ الطبرى، جامع ، ج٣٠، ص١٩٩؛ الكومى ، تفسير، ج٢، ص٤٤٤؛ ابن حبيب، المنمق، ص٢٦٢، ذكره الكلبي؛ عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، تأويل مُشكل القرآن، ص٣١٩؛ وعديد آخرين .

(٦٥) راجع حاشية رقم ٢٠ أعلاه. وعن استبدال مصر باليمن راجع حاشية رقم (٦٢) أعلاه. وعن تصنيف الرحلتين على اعتبار أن واحدة لسوريا وأخرى إلى الحبشة راجع ، اليعقوبى ، تاريخ، ج١، ص٢٨٠؛ عبد الحميد بن أبى الحسين بن الحداد، شرح نهج البلاغة ، ج٣، ص٤٥٧، الذى روى عن الزبير بن بكر، أعلاه حاشية رقم (٢٢) (ورأى صفوان له تفسير دينى).

(٦٦) ابن حبيب، المنمق ، ص١٢٢، ٢٦٤ وما يليها؛ الأزرقى ، مكة ، ص٩٩؛ الأغانى، ج١٦، ٧٥، ابن قتيبة، معارف ، ص٢٤١، حيث ذهب لليمن وظل هناك مع ملك حدثه عن صبغة الشعر، أو مع شخص يدعى حزم تنبأ بالنبى [ﷺ] ، أو ذهب لتهنئة سيف بن ذى يزن على طرد الأحباش وعرف بنبوءات كثيرة عن النبى . وقد وصف ابن كثير بعضا من هذه الرحلات بأنها كانت رحلات تجارية . ابن كثير، البداية، ج٢، ص٢٥١؛ ويذكر أبو نعيم، دلائل، ص٨٩، أنه ذهب إلى اليمن فى رحلة الشتاء لكى يستشير نبوءة أحد الكهنة اليهود ويطلب نصيحته .

(٦٧) كان يذهب لليمن لشراء العطور(الطبرى، تاريخ، ج١ ص١٦٢)؛ وهناك قصة مسهبة فى دلائل النبوة جعلته يذهب لليمن مع أبى سفيان (الأغانى ، ج٤، ص٢٤٠) .

(٦٨) الأغانى، ج٦، ص٣٤٩ .

(٦٩) الأزرقى، مكة ، ص١٧٥ .

(٧٠) هو أحد تجار قريش الذى عاد مع إحدى القوافل العائدة من اليمن كما ذُكر لدى بن حبيب (المنمق، ص١٦٣)، أو من الحبشة عبر اليمن (راجع المصدر السابق ص٢٤٦)؛ حسان بن ثابت ، ديوان ، ص٢٦٥؛ وقيل أنه اقترض مبلغا من المال من أسقف نجران . (راجع حاشية رقم ٥٣ أعلاه).

(٧١) وهو أيضًا أحد أفراد قافلة عادت من اليمن أو من الحبشة ، ابن حبيب ، المنمق، ص١٦٣، ٢٤٦ وما يليها .

(٧٢) قابل هشام بن المغيرة زوجته أسماء بنت مكربة ، أثناء إقامته فى نجران ، وأغلب الظن باعتباره تاجراً . البلاذرى : الأنساب، ج١، ص٢٠٩ . Kister, Some Reports, p.64, حيث ظهر بين تجار مكة فى صنعاء كما ثبت من خلال الشعر قيام اثنين من أبنائه بالتجارة مع الروم والأحباش Goldziher, "Hu-teja", p.520,xxx, 6f, ويضيف كتاب العصور الوسطى بلاد فارس بدلا من اليمن .

(٧٣) كان يتاجر مع اليمن ومنها أرسل العطور لأمه أسماء بنت مكربة (التى تزوجت من أبى ربيعة بعد انتهاء الزواج الذى ذكر فى الحاشية السابقة أعلاه)؛ لكى تقوم ببيعها فى المدينة . كما كان يمتلك عدداً كبيراً من العبيد الأحباش ، (الأغانى، ج١، ص٦٤ وما يليها) .

(٧٤) وقيل أنه إما أن يكون قد ذهب إلى سوريا أو إلى اليمن مع عمرو أجيرا له، ابن حبيب، المنمق، ص ١٤٧ ولكنه كان له علاقة أكبر مع الحبشة.

(٧٥) فر هُبيرة بن أبى وهب إلى نجران بعد الفتح ، أغلب الظن لوجود علاقات له هناك (البلاذرى ، الأنساب، ج١، ص٣٦٢؛ الواقدى، المغازى، ج٢، ص٨٤٧). وفر أيضًا عكرمة بن أبى جهل إلى اليمن كما ذكر البعض ، على أساس أنه من هناك سوف يتمكن من العبور إلى الحبشة (راجع حاشية رقم ١٠٩ أدناه).

وتاجر عمارة بن الوليد في الحبشة (انظر حاشية رقم ٩٦ أدناه)، أما دار العلوج dar al-uluj فكان يقيم فيها الأحباش ، في حي المخزوميين في مكة (راجع حاشية رقم ١٠٤ أدناه) . أما المخزومي الذي ذكر أنه عاد من اليمن في إحدى الفقرات فذكر أيضاً أنه عاد من الحبشة في عبارة أخرى(راجع حاشية رقم ٧٠ أعلاه) ؛ وعلى الرغم من أن أحد رجال مخزوم كان له ارتباط باليمن، فقد ثبت قيام أبنائه بالتجارة مع الحبشة (راجع حاشية رقم ٧٢ أعلاه). وبصرف النظر عن التجارة فقد ذكر أن واحدا من مخزوم وأخرين قد ذهبوا اليمن لاستخراج المياه حيث يبدو أنهم كانوا يقومون بحفر بئر هناك (الأغاني، ج١٥، ص١٩؛ راجع الفصل التاسع، ص٢٢٣ من الترجمة).

(٧٦) راجع حاشية رقم ٦٧ أعلاه ، وهناك قصص كثيرة حلت فيها سوريا محل اليمن، ابن عساكر، تطبيب، ج٣، ١١٨ وما يليها؛ ابن كثير، البداية، ج٢، ص٢٢٣، ٢٢٤ .

(٧٧) راجع : ابن حبيب، المنمق، ص١٤٠، ١٤٣، ١٤٦ .

(٧٨) وبخلاف القوافل العائدة سواء من اليمن أو الحبشة وتلك التي كان من المفروض أن يذهب معها أبو سفيان ، فلم أقابل أي واحدة منها . (راجع الهوامش الآتية رقم ٦٧، ٧٠ وما يليها ، ٧٦).

(٧٩) البكري، معجم، ص٤٠٥، ص٦٩٥، راجع ردْمان، غزة؛ ياقوت، البلدان، ج٢، ص٧٧٢ وما يليها؛ راجع مادة: ردَ – رَدْمانُ، ج٤، ص٩٣٣، راجع وَعْلان (*).

(٨٠) راجع الفصل الرابع أعلاه ، حاشية رقم ٣ .

(٨١) وقد وصفت بأنها كانت عاصمة أبرهة وباقي الحكام الأحباش لليمن (ابن هشام، السيرة، ص٣٦، ٤٣)؛ وقد ذهب القرشيون إليها بالتحديد (بقيادة عبد المطلب) وآخرون لقصر غمدان لتهنئة سيف بن ذي يزن على طرد الأحباش من اليمن (ابن حبيب، المنمق، ص٥٣٨ وما يليها؛ الأغاني، ص١٧، ص٣١١ وما يليها ؛ الأزرقي، مكة، ص٩٨ وما يليها؛ أبو نعيم، دلائل ، ص٥٦ وما يليها)، ولكن ليس هناك ما يثبت قيام المكيين بزيارة سوقها الذي كان له أهميته في ميدان تبادل تجارة القطن والزعفران والأصباغ والملابس والحديد طبقًا لما ذكره الأزرقي، (الأزمنة، ج٢، ص١٦٤)، والعباءات والسبح والجلود طبقًا لما ذكره القلقشندي (صبح الأعشى، ج١، ص٤١١)؛ والتوحيدي (الإماطة، ص٨٥).

(٨٢) كيستر "Some Reports," p.64 الذي روى عن نهاية الأرب ، أما الرأي الآخر فهو أنهم كانوا مجموعة من كنانة قامت بتدنيس كنيسة أبرهة هناك، (ابن حبيب، المنمق، ص٦٨). وقد أثار هؤلاء الكنانيين طلب أبرهة لهم بتحويل الحجيج إليه (أبو النعيم، دلائل، ص١٠٧ وما يليها رواية ابن إسحاق وآخرون؛ ابن هشام، السيرة، ص٢٩ وما يليها).

(٨٣) أبو النعيم، دلائل، ص١٠١ ;.Kister , Some Reports, p.68تبدو هذه القصة مختلفة عن قصة الحبشي الذي تمت سرقته في مكة (راجع الفصل السادس أدناه ص٢٤٣)؛ ولاحظ أنه بالرغم من أن السلب قد حدث في نجران، فإن المجني عليه (وهو حفيد أبرهة الذي جاء حاجا لمكة والذي يبدو أنه كان يجهل رغبة أبرهة بتحويل الحجيج إلى اليمن) ، قد اشتكى من ذلك في مكة .

(*) حصن بالجبل من ناحية رَدْمان وهو رئام . راجع . ياقوت ، معجم ، ج ٥ ، ص ٣٨٠ مادة وعلان . (المترجمة)

(٨٤) راجع الحواشى المذكورة أعلاه : رقم ٧٠، ٧٢، ٧٥ .

(٨٥) القلعى، الاكتفاء، ص٢٤١، وهى قصة أخرى من دلائل النبوة .

(٨٦) ابن حبيب، المنمق، ص٢٤١، ج١، ص٧٢ ، والشيء نفسه لدى البلاذرى فى الأنساب ج١، ص٧٢ وما يليها. ولكن دون أن يذكر الأصل النجرانى لليهودى .

(٨٧) كما سبق ذكره، قابلت أسماء بنت مكرية هشام بن المغيرة فى نجران (حاشية رقم ٧٢ أعلاه). فماذا كانت تفعل هناك ؟ فهى لم تكن من نجران ، كان والدها من تميم وكانت أمها بكرية Bakriyya، وكانت أرملة عندما قابلها هشام (البلاذرى ، الأنساب، ج١، ص٢٠٩)، ومن المحتمل أنها كانت تقوم بأعمال هناك (قارن ذلك بخديجة [ﷺ] وهى أرملة أخرى كانت تعمل بالتجارة ، وهند بنت عُتبة وكانت مطلقة وتقوم بنفس العمل . (راجع الفصل السادس حاشية رقم ١٣٣أدناه)، وبعد أن استقرت فى المدينة عملت فى ميدان العطور التى كانت تحصل عليها من اليمن (راجع حاشية رقم ٧٣ أعلاه) . كما يبدو أنها كانت تحصل عليها من نجران أيضًا .

(٨٨) فرض الرسول [ﷺ] مكوسا سنوية بلغت ألفى عباءة على أهل نجران . (البلاذرى، فتوح، ص٦٤ وما يليها).

(٨٩) راجع حاشية رقم (٦)، الفصل الرابع أعلاه .

(٩٠) ذُكر أن بلالا كان عبدا حبشيًا (وهذا يعنى أنه لم يولد فى الأسر فى بلاد العرب) من السراة Sarat (ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص٢٣٢؛ البلاذرى، أنساب، ج١، ص١٨٤). وكان أنس بالمثل مُوَلّدًا -Muwal) (lad من السراة، بينما كان أبو كبشة من بلاد دوس ،ج١، ص٤٧٨، وكان عُمير بن فهيرة مُوَلّدًا من الأزد (المرجع السابق، ص١٩٣) ، وكانت ناهدية مولاة ابن نهد بن زيد ، يمنية أكثر من كونها تنتمى إلى المجموعة السورية فى تلك القبيلة، (المرجع السابق، ص١٩٦ وما يليها؛ راجع أيضًا -Caskel, Gamba) (ra, II, s.v.Nahd b. Zaid . وتم فى سوق حُباشة التى توجد فى تهامة بيع إحدى الإماء السود. (راجع الفصل الثالث، حاشية رقم ١٧٠أعلاه).

(٩١) وهو أبو عُزير الدوسى ، الذى ذكر ابن حبيب قصته كاملة فى المنمق، ص٢٣٤ وما يليها؛ راجع أيضًا: حسان بن ثابت، ديوان ، ج٢، ص٢٥٨ وما يليها؛ ابن هشام، السيرة، ص٢٧٣ وما يليها، وكان لدى أبى بكر حليف من السراة (ابن سعد، طبقات، ج٨، ص٢٧٦). ولاحظ أيضًا أنه يبدو أن الموالى كانوا رجالاً أحرارا لعبد الدار الذى صرح بأن الأخير حليفا له عندما قام بتقديمه لليمنيين من الأزد (المرجع السابق، ص٢٤٦).

(٩٢) راجع : الأغانى، ج٢ص٢٤٣ ، وذكر لنا هنا أنه عندما قتل هشام بن الوليد أبا عُزير الدوسى ، اتخذ منه أبو سفيان حليفا له ، فأرسلت قريش رجلاً إلى الشراة Sharat لكى يحذرهم(*) من البيع من تجار قريش ، بينما ذهب رجل من الأزد لتحذير قومه . ولا معنى هنا لتحذير تجار قريش فى سوريا، بينما

(*) مكتوبة لدى كرون Wam وصحتها Wom ، والشراة صقع بالشام بين دمشق ومدينة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وفى نواحيها القرية المعروفة بالحميمة . راجع ياقوت الحموى ، مادة الشراة ، ج٣ ، ص٣٣١ ، و٣٣٢ . (المترجمة)

هؤلاء الموجودون في السراة يرغبون في الخروج منها بأسرع ما يمكن ، ويبدو أن الشراة Sharat التي وضعت هنا قد حلت خطأ بدلاً من السراة Sarat . ونسمع من مكان آخر أن أحد رجال قريش قام يتعقبه رجل من دوس بعد سماعه لنبأ مقتل أبي عُزير ، ولكن تم إنقاذه بعد دخوله منزل إحدى السيدات هناك (البلاذري ، أنساب ، ج١، ص١٣٦، ابن هشام السيرة، ج٢٧٦، حسان بن ثابت، ديوان ، ج٢، ص٢٦٣).

(٩٣) راجع حاشية رقم (٢٣) الفصل السابع أدناه . كان حكيم بن حِزَم هو أحد رجال قريش الذي قام بشراء ملابس(البكري، معجم ، ص٢٦٤) .

(٩٤) كان متجرا لقريش حيث وجدوا فيه وفرة من الرزق والأمان (الطبري ، تاريخ ، ج١، ص١٨١ ، وأيضًا في جامع، ج٩، ص١٥٢، بالارتباط بهجرة المسلمين هناك)، وهناك رواية متأخرة في قصة الإيلاف تجعل منها أفضل الأماكن لتجارة المكيين . (Kister, "Some Reports", p.61) الذي روى عن نهاية الأرب ، ويرجع لصفوان بن أمية الفضل في الرأى القائل بأن قريشا أقامت في مكة بهدف التجارة مع سوريا والحبشة (حاشية رقم ٢٢ أعلاه) . "ما هو العمل الذي تقوم به ، ولماذا حضرت إليّ إذا لم تكن تاجرا ؟" وهو السؤال الذي سأله النجاشي لرسول قريش الذي قدم للمطالبة بتسليم المسلمين (أبو نعيم ، دلائل، ص١٩٧) .

(٩٥) راجع حاشية رقم (٧٠) أعلاه .

(٩٦) الأغاني، ج٩، ص٥٥ وما يليها؛ ابن إسحاق في فحصه لرواية يونس بن بكري لدى حميد الله : Hamidallah, Sira, No.211

(٩٧) إن القصة الخاصة بذهاب عمرو وعمارة إلى الحبشة للتجارة هي قصة دون جوان(*) الذي خدع نفسه وذهب عمرو واشتكاه للنجاشي . ومن النظرة الأولى فهي ليست لها علاقة كبيرة بالسبب الذي ذهب عمرو من أجله للنجاشي لكي يسلم له المسلمين المهاجرين عنده أو عند انقلاب الآية وطلبه هو نفسه اللجوء إلى النجاشي. ففي الروايات الثلاث نجد أن عمرو ذهب إلى النجاشي، وقد أوضح رافن Raven أن الرواية الخاصة بلجوء المسلمين هي قصة لها مغزى ديني نُسجت حول أحد نصوص القرآن (٣ : ١٩٨) وتمت استعارة مادتها من قصة عمارة Umara وعمرو. وقد ثبت ذلك من حقيقة أن بعض المصادر قد جعلت كلا من عمارة وعمرو يذهبان معًا إلى الحبشة لكي يستردوا المسلمين، تاركة عمارة ليصل إلى هذه النهاية الشائكة بدلاً من البحث عن سبب آخر. (مصعب بن عبد الله الزبيري، كتاب أنساب قريش، ص٣٢٢؛ أبو نعيم، دلائل، ص١٩٦ وما يليها، روى عن عروة بن الزبير؛ الحلبي، سيرة ، ص٣٢٢ وما يليها؛ وراجع المناقشة في البلاذري، أنساب، ج١، ص٢٣٢ وما يليها). ومن المحتمل أن يكون رافن Raven صحيحًا فيما ذهب إليه بخصوص تلك القصة التي ذهب فيها كل من عمارة وعمرو معًا للتجارة . ولا شك في أنها تعد أساسا ممتازا لرواة القصص. كما أن جميع القصص الخاصة بالموضوع يمكن أن تكون أشكالا مختلفة ومتعددة من مادة مشتركة؛ وإذا كان الأمر كذلك ، فإن الشيء الذي يمكن أن نخرج به منها يتمثل في أن عمرو قد قام بإجراء المباحثات مع النجاشي (راجع W.Raven, Some Islamic Traditions on the negus of Ethiopia) .

(*) لم يكن لقصة الدون جوان وجود في القرن السابع الميلادي . (المترجمة)

(٩٨) راجع الفصل الرابع أعلاه ، حاشية رقم ١٢ . وقد ورد في عبارة الكلبي أنه ذهب إلى سوريا (ابن عساكر : تاريخ ، ج١٠، ص٤٧١)، وذكر مقاتل أنه أبحر إلى الحبشة (المرجع السابق، ص٤٧١ وما يليها)، ولما كان الإناء الفضي الذي كان يحمله قد أعد كهدية للملك كما هو مذكور لدى الكلبي، هنا يفترض المرء أن الرحلة كانت أصلا إلى الحبشة: فالملك البيزنطي لا يقيم في سوريا، بينما كثيراً ما قَدم تجار قريش للنجاشي. ولكن حيث أنه صحبه اثنان من غير المسلمين (والذين كانوا في حاجة إليهم من الناحية القانونية) وهما اثنان من المسيحيين السوريين يدعى أحدهم تميم الدرعي ، وشخص آخر، ذكرهما مقاتل، كل هذا يدفعنا إلى الافتراض أن كلا القصتين المتعارضتين قد أخذتا من نص أقدم منهما. فحقيقة كون بطل الرواية الأولى سهمي Sahmi (وهو على غير العادة مولى Wala) (*) فهو يعد حلقة لربط القصة بالحبشة، على الرغم من أن عمرو بن العاص وكما سبق رؤيته، كان يتاجر في سوريا أيضاً . وحيث أن بطل الرواية الأولى هو مولى mawla ابن هاشم كما ورد في عبارة الكلبي ، فإن هذا يجعلنا نفترض وجود رواية تذهب فيها الرحلة إلى اليمن . وهكذا يصبح هذا الدليل غير ثابت.

(٩٩) Shahid, The Arabs in the peace Treaty, p.191.

(١٠٠) حقيقة لقد ذكر شعراء قبل الإسلام والشعراء التالون السفن التي عرفت باسم عدوالي adawli ، وأن هذه السفن تعد على أنها من أدوليس (انظر لامنيس، Lammens, Mecque, p. 380 ، والمصادر العديدة المذكورة فيه ؛ (Jacob, Bedinenleben, p.149; Seafaring, p.42) ولكن علماء المسلمين قاموا بوصفها على اعتبار أنها كانت تأتي من أحد موانئ البحرين (البكري، معجم، ص٦٤٨، ياقوت، البلدان، ج٣، ص٦٢٢، كليهما انظر: مادة عدوالي)، ويبدو أن هذا التصنيف يعود إلى الأصمعي (وكذلك من مؤلفات كُثير عزة ، ديوان، ج٢، ص١٣٨). وقد ذكر طرفة وهو أحد الشعراء المبكرين هذه السفن ، وهو الرأي الذي يبدو أكثر احتمالا (**).

(١٠١) Cf. Lammens, L'Arabie occidentale, p. 15; Similary Simon, Hums et Ilaf , pp. 223f.

(١٠٢) ابن حبيب ، المنمق، ص١٠٨، أما القصة الأخرى فهي أنه ورث ثروته من ذلك الأجنبي الذي جاء ليبيع الجلود فيها (راجع الفصل الرابع أعلاه حاشية رقم ٥١) . وإذا قمنا بوضع القصتين أمام ناظرينا معا ، لرجحنا قيام الحبشي ببيع الجلود في مكة أكثر من أن يكون المكي هو الذي كان يبيعها في الحبشة، وهو مثال جيد على عدم وضوح الدليل .

(١٠٣) راجع حاشية رقم ١١١ أعلاه .

(١٠٤) Kister, Some Reports p. 73 ، الذي نقله عن الفاكهي .

(١٠٥) الأزرقي ، مكة ، ص٩٧ .

(١٠٦) راجع الحواشي رقم ٦٢، ٦٥ أعلاه. إن الروايات التي تشير إلى الرحلات القاصدة سوريا والحبشة واليمن يمكن قراءتها بنفس الكيفية (ابن سعد، طبقات، ج١، ص٧٥؛ الثعالبي، ثمار ، ص١١٥).

(١٠٧) Kister, Some Reports, p.61 الذي روى عن نهاية الأرب (أبرهة) وفي نص آخر يذكر أن هاشما نفسه هو الذي أتم جميع المعاهدات الأربع.

(١٠٨) راجع حاشية رقم ١٠ أعلاه .

(*) وردت هنا خطأ كلمة Wala وصحتها مولى Mawla . (المترجمة)

(**) راجع التعليق المذكور في ص ٤٠

(١٠٩) الطبرى، تاريخ، ج١، ص١٦٤٠؛ وردت رواية ابن إسحاق لدى ابن هشام ، السيرة، ص٨١٩ ، الذى ذكر أنه ذهب لليمن فقط . وطبقًا لما ذكره الواقدى المغازى، ج٢، ص٨٥١ ، فقد ركب سفينة من مكان ما من ساحل تهامة ، ولم يذكر الواقدى أن غايته كانت الذهاب إلى الحبشة ، ولكن يمكن اعتبارها كذلك .

(١١٠) راجع حاشية رقم ٧٠ أعلاه .

(١١١) راجع حاشية رقم ١٠٩ أعلاه .

(١١٢) كانت البضائع السورية والمصرية والعراقية تباع في واحد من أكبر الأسواق التى كانت تعقد فى عكاظ، ولم يكن من بينها البضائع الحبشية كما هو واضح (المرزوقى : الأزمنة، ج٢، ص١٦٨) أما بخصوص القافلة التى كانت عائدة من الحبشة أو من اليمن فقد ذكر لنا أنها كانت تحمل ممتلكات الجنيْمى الذى مات فى اليمن (ابن حبيب، المنمق، ص١٦٣، ص٢٤٦).

(١١٣) ابن سعد، طبقات، ج١، ص٧٨ .

(١١٤) المرجع السابق ، ج٤، ص١٦، حيث قدم أسقف غزة إلى محمد [ﷺ] فى تبوك وقال له "هلك عندى هاشم وعبد شمس وهما تاجران وهذه أموالهما" وهذا هو أنموذج واحد من روايات عديدة صور بها هاشم على اعتبار أنه كان له نشاط وحركة قبل فترة وجيزة من ظهور النبي. وهذا ما أشرنا إليه سابقا فى الحواشى (رقم ١٥، ١٠٧ أعلاه) ، فقد قدمته على أنه يقوم بالتفاوض مع جبلة بن الأيهم في سوريا ، وهو آخر سلالة ملوك الغساسنة الذى مات فى المنفى بعد غزو المسلمين لسوريا، بينما كان كافادح (Kavadh ت٥٣١) هو الحاكم على الجانب الفارسى. وتذكر نفس القصة أن هاشم تفاوض مع أبرهة الذى ذاع صيته في الفترة التالية (سنة ٥٤٠)، وخصوصا إذا وضعنا فى اعتبارنا أن الرواية تنسب إليه قيامه بشن حملة على مكة في العام الذى ولد فيه النبي عام (٥٧٠) ، لكن ابن سعد فى الطبقات، ج١، ص٧٥، يروى عن ابن الكلبى قوله أن هاشما تفاوض في المعاهدة بين قريش وهرقل الذى توفى عام ٦٤١م : ومن ناحية التسلسل الزمنى فقد اكتملت المعاهدة في البحر (*) .

(١١٥) راجع حاشية رقم (٩٨) أعلاه .

(١١٦) ويمكن غض النظر عن بعض الأدلة من منطلقات أخرى. وعلى ذلك فإن حقيقة إبحار المولى إلى الحبشة بصحبة المسيحيين السوريين ربما تكون نتيجة للتضارب (راجع حاشية رقم ١٩٨ أعلاه). أما موضوع تجارة عمرو بن العاص مع مصر فيبدو أنها تولدت من حقيقة كونه هو الذى قام بفتح مصر، وكذلك فمن المحتمل أن نضع علاقته مع الحبشة فى دائرة الاستفهام كما سترى : فعمرو الذى تذكر الروايات صلته بالنجاشى ليس المقصود به دائمًا عمرو بن العاص .(راجع حاشية رقم ٢٢١ الفصل التاسع وما يليها). وربما قام بالتجارة مع سوريا فقط (راجع حاشية رقم ٣٦ أعلاه).

(١١٧) انظر على سبيل المثال ، الطبرى، تاريخ، ج١، ص١٥٦٨ وما يليها.

(١١٨) Noldeke, Neue Beitraege, pp.31 ff ويعضِّد الأستاذ بيستون A.F.L. Beeston الرأى الذى يقول بإمكانية أن يكون عدد منهم ينتمى إلى العربية الجنوبية (اتصالات شخصية) .

(١١٩) راجع ، الطبرى، تاريخ ، ج١، ص١١٨١، نقلا عن هشام بن عروة فى الهجرة إلى الحبشة، وشرحه فى ضوء حقيقة كون إثيوبيا كانت تعد متجراً لقريش .

(*) إن كرون تقصد من عبارتها الأخيرة الإشارة إلى عدم تصديق تلك الرواية وتهكمها عليها . (المترجمة)

(١٢٠) الأغاني، ج١٣، ص٢٠٦، رواية هيثم بن عدي ؛ وذكرت رواية الأغاني في صياغة أخرى لدى ابن حجر . الإصابة، ج٥، ص١٦٢ وما يليها، رقم ٦٩١٨ مادة: حجلان بن سلامة؛ وهو وصف يكاد يتطابق مع ما ذكره محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي،لطف التدبير، ص٧١ وما يليها (وأدين بالشكر فى الهامشين السابقين للأستاذ كيستر M.J. Kister) .

(١٢١) الأغاني، ج٩، ص٥٢، رواه نوفل .

(١٢٢) راجع حاشية رقم (١) الفصل الرابع أعلاه .

(١٢٣) الأغاني، ج١٧، ص٣٦٩، رواية ابن السِقط وآخرين.

(١٢٤) الأغاني،ج٩، ص٥٠، ٥٢ ، لقد ذهب إلى الحيرة ، وقدم إلى هناك ليطلب مساعدة النعمان، وقد ذهب للنعمان ليطلب منه مالا للمهر؛ مصعب، نسب قريش، ص١٣٦ (لقد ذهب إلى الحيرة ومات عند النعمان).

(١٢٥) G- Monnot, L' Histoire des religions, p 29, رواية ابن الكلبي : مثالب العرب .

(١٢٦) لم أعرف أي رواية عن ذهاب تجار قريش إلى أي مكان آخر فى العراق، ولكن يبدو أن هناك رواية عن قيام أحد التجار بزيارة إلى فارس . وفى شرح للسورة رقم (٣١ : ٥) من القرآن الكريم " ومن الناس من يشترى لهو الحديث" ، أخبرنا الكلبى ومقاتل أن نادر بن الحارث، وهو أحد أفراد عبد الدار، اعتاد أن يتاجر مع فارس، حيث أحضر معه قصصا فارسية (وكيف يمكن أن نصف هذه الروايات)، كان يقوم برواياتها لقريش عند عودته لمكة قائلا لهم إذا كان محمد [ﷺ] يستطيع أن يخبرهم عن عاد وثمود فهو باستطاعته أن يروى لهم عن رستم ، وأصفنديار وأباطرة الفرس، (الواقدى ، أسباب ، ص٢٥٩). ويمكن للمرء أن يدعي بصعوبة وجود تجارة لقريش مع فارس على أساس ما ورد ذكره سلفا (*) .

(١٢٧) ابن حبيب، المحبر، ص٢٦٤ وما يليها؛ المرزوقي ، الأزمنة، ج٢، لقد روى الاثنان عن ابن الكلبي .

(١٢٨) راجع الحاشية رقم ١٢٠ أعلاه؛ كان سيمون هو أول من لاحظ هذا التضارب Simon, "Hums et Ilaf", p.228 .

(١٢٩) راجع حاشية رقم ١٢٧ أعلاه. كان المرزوقي ، هو أول من نسب إليهم تلك الحصانة على أساس علاقتهم بالبيت الحرام .

(١٣٠) راجع حاشية رقم (١٢٣ أعلاه). من القبائل التى يرى أنه كان لها حق الجوار قبيلة طيئ Tayyi، وقد فسر ذلك ما ذكره ابن حبيب والمرزوقي بأنها كانت حليفة لمضر وعليها أن تحترم حصانة قريش .

(١٣١) راجع حاشية رقم ١٢٧ أعلاه .

(١٣٢) راجع الفصل الرابع حاشية رقم ١٤ وما يليها.

(١٣٣) وعن مسافر، راجع حاشية رقم ١٢٤، ولقد قابلنا مسافر مع أبى سفيان فى الحيرة ولقد ذكر في رواية واحدة فقط أنه ذهب إلى هناك للتجارة ، الأغاني، ج٩، ص٥٠، ٥٢ .

(١٣٤) راجع الفصل الثانى ، حاشية رقم ١٧٠ .

(١٣٥) Bulliet, Camel and the wheel, pp. 295 f (=no40); Donner, Mecca's food Supplies, p.255. مع وجود المصدر الخاص بقصة قرضة راجع أيضا J.M.B. Jones, "Al-Sira al-nabawiyya as a Source For the Economic History of Western Arabia at the time of The rise of Islam", 17f. حيث يلاحظ غياب ذكر كل من فارس والعراق من رواية الإيلاف بالإضافة إلى رواية قردة .

(*) راجع الفصل الثامن ، حاشية ٨٣ . (المترجمة)

الفصل السادس

ألم يكن هناك وجود لتجارة مكة ؟

What Meccan Trade Was Not ?

ويمكننا الآن أن نقدم ثلاثة عوامل سلبية بخصوص صادرات مكة التجارية :

الأول : أنها لم تكن تجارة ترانسيت .

الثانى : أن بضاعتها لم تكن من النوع الذى يمكن أن يغرى سكان مصر والهلال الخصيب بشرائها .

الثالث : أنها لم تكن من النوعية التى يمكن أن تفرض سيطرتها على الطرق التجارية فى بلاد العرب .

ومن السهل إثبات العامل الأول . لقد صُوِّر المكيون دائمًا على أنهم وسطاء على الطريق الطويل لشبكة التجارة ، وذكر أنهم كانوا يقومون بتجميع البضائع ، سواء الوطنية أو الأجنبية ، من كل جنوب بلاد العرب والحبشة ، ثم يقومون بنقلها إلى سوريا والعراق لإعادة توزيعها لكل من الإمبراطورية البيزنطية والفارسية . وتكونت التجارة التى كانت توزع شمالاً من بضائع تأتى من شمال بلاد العرب ، وليست من بضائع واردة من جنوبها أو من الحبشة ، ونترك جانبًا البضائع الهندية ، وتلك التى كانت ترد من جنوب شرق آسيا أو من الصين . حقيقة كانوا يقومون بشراء العطور من بلاد العرب الجنوبية ، لكى يقوموا ببيعها فى مناطق أبعد شمالاً، ولكنهم من ناحية : كانوا يقومون ببيع أغلبها فى الحجاز أكثر من بيعها للإمبراطورية البيزنطية والفارسية ، ومن ناحية ثانية : لا يوجد لدينا ما يؤكد أن أيا من البضائع المكية سواء كان يدخل ضمنها العطور

أو غيرها كانت توزع داخل هاتين الإمبراطوريتين . وكانت هناك سوق لتوزيع جلود وملابس الحجاز والعطور اليمنية في المدن و القرى الواقعة جنوب سوريا ، وربما أيضا في الحيرة ولكن ليس في مدن أنطيوخ والإسكندرية والقسطنطنية أو المدائن . وعندما ذكر لنا ابن الكلبي أن هاشماً قام بتوطين القرشيين في مدن وقرى سوريا فقد كان يدرك تمام الإدراك أن البضائع التي كانوا يقومون ببيعها هناك كانت للاستهلاك المحلي[1]. وهو الأمر الذي يتفق مع الوصف الذي وصف به باعة العطور من القرشيين هناك[2]. وعندما عرفنا أن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان السابقة قامت باقتراض مبلغ ٤٠٠٠ دينار من خزانة الدولة في عصر عمر [رضي الله عنه] واستخدمتها في التجارة في أراضي كلب – وهي قبيلة عربية كانت توجد في جنوب سوريا[3] – فإننا سوف نقبل بصعوبة القول بأن نشاطها التجاري كان يختلف عن النشاط التجاري الذي كانت تمارسه السيدة خديجة أو أبو سفيان ، وبمعنى آخر فإن المصادر التي لدينا ترجح أن المكيين كانوا يتاجرون مباشرة مع الزبائن العاديين في جنوب سوريا ، أي أنهم لم يسلموا تجارتهم لتجار جملة في غزة أو دمشق[4]. وباختصار فإن تجارة مكة تبدو كما لو أنها كانت عبارة عن تبادل للسلع المحلية ، وهو الذي تم تصويره على أنه تم تحت إشراف بيزنطة الكامل ، وتحت مظلة سيادتها وليس مع الإمبراطورية الساسانية .

أما بخصوص النتيجة الثانية ، فمن الواضح أنه لو كان المكيون يقومون بدور الوساطة التجارية على ذلك الطريق التجاري الطويل والذي جاء وصفه في المصادر الأدبية الثانوية ، فنحن نتساءل لماذا لم يرد لهم ذكر في كتابات عملائهم ؟ لقد كتب الإغريق والرومان بإسهاب عن عرب الجنوب الذين قاموا بمدهم بالطيوب في العصر السابق ، وقدموا لنا وصفاً عن مدنهم، وقبائلهم ونظمهم السياسية، وقوافلهم التجارية ، كما كتبوا عن الحبشة وأدوليس في القرن السادس، إضافة إلى أن الأوضاع السياسية والدينية والشئون العربية ، جذبت انتباههم في القرن السادس ، فلماذا إذن لم يرد أي ذكر لقريش ونشاطهم التجاري، عند الإغريق واللاتينيين والسوريين، والآرميين والأقباط أو الكتابات التي تم تأليفها خارج بلاد العرب قبل الفتوحات ؟

لا شك في أن صمت هذه المصادر يثير الانتباه ، وله أيضا مغزاه . أما المحاولات التي قدمها البعض لعلاج هذا الصمت ، فإنها أضافت مزيدا من اللبس على هذا الموضوع ، فقد رأى البعض ، أنه جاء ذكر لقريش ، بطريقة غير مباشرة ، فيما كتبه بلينى (Pliny) عند حديثه عن إقليم نو بنوجريش (Dabanegoris regio)[٥]، وذكرها بطلميوس تحت اسم مكورابا (Macoraba)[٦]، وهو الاسم الذى ينطبق على جدة[٧] كما ذكر أميانوس ماركيللينوس هو الآخر مكة تحت اسم المدينة المقدسة (Hierapolis)[٨]، والواقع أنه ينبغى غض النظر تمامًا عن كل هذه الآراء التى سبق تقديمها . فمنطقة (Dabonegoris regio) لا يمكن أن تتطابق مع (Dbu Bani Quraysh) التى تعنى المنطقة الخاصة ببنى قريش كما يعتقد فيسمان (Wissmann)، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن المرء كان يتوقع أن يكون هناك انعكاس للغة هنا ، ولكن البناء اللغوى بهذه الطريقة السابقة يرجع إلى اللغة العربية الجنوبية ، أكثر منه للغة العربية . هذا من ناحية[٩]، ومن ناحية أخرى فإن عبارة "بنو قريش" هو تعبير غير صحيح فقريش ليست اسمًا يدل على السلف ، إن قريشًا عبارة عن مجموعة منحدرة من بنى فهر[*] ويأتى فوق كل ما تقدم ، أن بلينى قام بوضع الإقليم المذكور فى العربية الجنوبية ، وبالتحديد فى منطقة بين عمان وحضرموت[١٠]، وينطبق الأمر نفسه على منطقة ميناء مكورابا (Portus Mochorbae) التى ذكرت في الفقرة نفسها من النص. إن هذه المناطق تصنف فى العربية الجنوبية ، ويمكن أن يذكر بعض المتخصصين خطأ[١١] أنها كانت تدخل فى إطار سيطرة مكة نظرًا لما للأخيرة من تأثير سحرى على بعض عقول المتخصصين ، ولذلك فإن فكرة مطابقة مكة لمكورابا (Macoraba) التى ذكرها بطلميوس وجدت تأييدا وقبولاً كبيرًا لدى البعض ، وهذه المضاهاة قامت أولا على أساس أن الأسماء الغامضة متشابهة ، وأن الأماكن الغامضة صحيحة ، لذلك فإن كلمة ماكورابا (Macoraba) يشتق منها مكة رابة

(*) قريش لقب منح للنضر أو لحفيده فهر بن مالك (مطلع القرن الثالث م) وأولاده من بعده، فاشتهروا بهذا الاسم حتى صار فى عداد النسب، ومنه لجميع أحفاد فهر وأسباطه. وعم اللقب عليهم واشتهروا به منذ عهد قُصى (منتصف القرن الخامس م) . إلهام أحمد البابطين ، الحياة الاجتماعية فى مكة منذ ظهور الإسلام حتى نهاية العصر الأموى ، الرياض ١٤١٩ ، ص ٢١ - ٢٣ . (المترجمة)

(Makka-Rabba) أى مكة العظيمة ، ولكن هذه البنية اللغوية خطأ على طول الخط[١٢]. ففيها تم استبدال الاسم بكلمة ماكراب أو ميكراب (Makrab or Mikrab) وهى تعنى المعبد، كما أن الجذر اللغوى كرب (Krb) ليس له معنى القداسة فى اللغة العربية ، على عكس الحال مع العربية الجنوبية. وهكذا نحن هنا مرة أخرى ، كنا نتوقع أن يكون هناك انعكاس فى اللغة ولكننا لم نجده .

ومن ناحية أخرى فإن الاسم الذى يتكون منه الحروف الساكنة مك (mkk) لا يمكن أن يكون مشتقًا من الجذع كرب (Krb)[١٣]. ويترتب على ذلك أن بطلميوس كان يشير إلى مدينة مقدسة ، ولكنها ليست مكة. لماذا إذن تمت المطابقة بين الاثنتين ؟ إنها محاولة من محاولات الإنقاذ مثل محاولة مضاهاة محراب مكة (Mikrab Makka) ، التى لم تكن أفضل من المحاولة السابقة فى مكة العظيمة (Makka Rabba) ،التى هى فى حاجة للاستعانة بحالة المؤنث الموجودة فى اللغة اليونانية[١٤]، فالحقيقة الواضحة أن اسم مكورابا (Macorabe) ليس له أى ارتباط بمكة، إضافة إلى أن المكان الذى يشير إليه بطلميوس بمكورابا ، لا يتطابق مع الاثنتين[١٥]. وإذا كانت مكوراب Macorabe تقع فى محيط يتحدث العربية، فالاحتمال الأكبر أن يعكس اسمها الشكل العربى وهو موكارابا Muqarraba بدلاً من أن يشتق من كرب Krb ، الذى يعكس لغة عرب الجنوب[١٦]، وإذا كانت تقع بين المتحدثين باللغة العربية الجنوبية، فهى لذلك لا يمكن أن تكون هى المدينة موضوع حديثنا؛ وإذا كان قدر بطلميوس أن يذكرها فكان يجب أن يذكرها على النحو التالى وهو موكة (Moka)، وهى مدينة فى البتراء العربية[١٧]. إضافة إلى أنه لم يرد ذكر لمكة عند أميانوس ماركللينوس[١٨](*).

(*) فى هذا الجزء من الدراسة تحاول كرون نفى إشارة الكتاب الكلاسيكيين إلى مكة . لقد وردت هذه الإشارات لدى ثلاثة منهم وهم : بلينى ، والجغرافى بطلميوس، والمؤرخ أميانوس ماركللينوس .
أما بلينى (٢٣/٢٤- ٧٩م) فقد وردت الإشارة إليه عند حديثه عن إقليم ذو بنو جريش، وجاء اعتراض كرون على تلك الإشارة سريعًا لأن قريشًا فى رأيها ليست اسما يدل على السلف وأنهم مجموعة منحدرة من بنى فهر هذا على الرغم من أن الأمر عكس ذلك لأن قريشًا هو اسم يدل على السلف المنحدرين من بنى فهر على عكس ما ترى راجع ص٢٣٥ . كما تذكر كرون أن بلينى وضعهم فى منطقة بين عمان وحضرموت، وتعزز رأيها بأن نفس الشىء نفسه ينطبق على منطقة (Portus Mochorbae ميناء مكو أرباى =

= الذى يعني ميناء أرض مكة باللغة اللاتينية) الذى ذكر فى الفقرة نفسها من النص على أساس أن بليني عندما تحدث فى الفصل السادس ، (الفقرة ١٤٧) جاء قوله بأنه " سوف يقوم الآن بوصف الساحل من خاراكس Charaxوما يليه ، ثم ما يليه من جرها Gerrha إلى عمانا والشواطئ الأخرى الواقعة على الخليج الفارسي التي وصلها (في الفقرة ١٤٩ من نفس النص)، ثم وصل إلى العربية الجنوبية فى الفصل السادس (فقرة ١٥٤)، ولذلك فهي تستبعد أنه كان يتحدث عن الساحل قرب مكة (فى الفقرة رقم ١٥٠) .

ونرد على ذلك بالقول أنه عندما وصل بليني فى حديثه إلى شواطئ الخليج الفارسي (فى الفقرة ١٤٩) ، كان من المنطقي أن يتحدث عن مكة قبل أن يتحدث عن العربية الجنوبية (في الفقرة رقم ١٥٤)، مما يدل على معرفته بها، الأمر الذى يرجح أن ميناء موكوأورباي لا يقع بين عمانا وحضرموت بل كان يقع على الساحل قرب مكة. بل يرجح أيضا أن اسم الميناء مشتق من اسم مكورابا Macoraba الذى ذكره بطلميوس فيما بعد .

أما الجغرافي بطلميوس الذى كتب فى الفترة من (١٢١-١٥١م) والذى ينتمي إلى علماء جامعة الإسكندرية القديمة بمصر فقد ذكر مكة باسم مكورابا Macoraba وترفض كرون ذلك لأنه يستند على أساس أن الأماكن الغامضة متشابهة، وأن الأماكن الغامضة صحيحة. ثم تدخل بعد ذلك فى تفسير الاشتقاقات اللغوية الجنوبية . وتدعم رأيها بأن المؤرخ أميانوس ماركللينوس (ولد عام ٣٣٠م) ، لم يرد لديه الإشارة إلى مكة أو مكورابا .

ومما تقدم يتضح التالي :

أولاً: إن قول كرون أن الأسماء الغامضة متشابهة ، وإن الأماكن الغامضة صحيحة هو قول غير علمي لأن التشابه لابد من أن يستند إلى أسس علمية.

ثانياً: إن بطلميوس الجغرافي الذى كان أحد علماء الإسكندرية والذى عاش فى منتصف القرن الثاني الميلادى قد ذكرها باسم مكرروبا لتوفر المعلومات لديه أكثر من بليني .

ثالثاً: إن المؤرخ أميانوس ماركللينوس قام بوضع قائمة لسبع مدن في بلاد العرب الجنوبية ليس من بينها مكة أو مكورابا ولكنه ذكرها بصفتها التى اشتهرت بها كمدينة مقدسة Hierapolis لذلك ذكرها بهذا الاسم .

رابعاً: إذا قمنا بعقد مقارنة بين المدن التى ذكرها كل من أميانوس وبطلميوس فى الجانب الغربي من بلاد العرب نلاحظ أنها تكاد تكون متماثلة فيما عدا قيام أميانوس بترجمة مدينة مكورابا التى ذكرها بطلميوس ووضعها تحت اسم المدينة المقدسة . لقد كان الفارق الزمني بينهما حوالى قرنين من الزمان اشتهرت فيها المدينة كمدينة مقدسة لذلك ذكرها تحت هذا الاسم .

خامساً: وأخيراً وليس آخراً: تذكر كرون "أنه إذا كانت مكوراب تقع في محيط يتحدث العربية فيجب أن تعكس اللغة الشكل العربي للاسم وهو موكارابا (Muqarraba) بدلاً من أن يشتق اسمها من الجذع كرب (Krb) الذى يعكس لغة عرب الجنوب".

ونرد على ذلك بالقول إن كثيرا من أسماء البلدان والمدن القديمة لا تعكس أسماءها لغة قومها، ومثالا على ذلك اسم "مصر" فقد أطلق المصريون القدماء على بلادهم اسم (كمت) الأرض السوداء، أى الخصبة، إضافة إلى تسميتها بأسماء وصفات أخرى أشهرها "تاوى" بمعنى الأرضين – أى مصر السفلي ومصر العليا –، ثم أطلق عليها اسم مصر وهي كلمة سامية الأصل تعني الحد الفاصل بين أرضين. وظهرت لأول مرة في النقوش الآشورية وكانت تدل على ثلاثة مواضع ثالثها وادى النيل . =

هذا من جهة ومن جهة أخرى فليس هناك مشكلة لعدم ذكر مكة وقريش فى الكتابات الكلاسيكية ، فلماذا نتوقع أن نقرأ عن مكة وقريش عند كل من بلينى وبطلميوس، بينما يوجد رجال آخرون مثل بروكبيوس (Procopius) ، و نونوسوس (Nonnosus) ورجال الكنيسة السورية، كان من المفترض أن يشيروا إليها ، وسوف يزداد الوضع تعقيداً ، إذا سلمنا بشهرة كل من مكة وقريش، لدى الكتاب الإغريق والرومان، قبل أن تكون كل منهما ذات أهمية لديهم ، بل إنهما لم يكونا معروفين لهما حتى بعد ازدياد أهميتهما الاقتصادية والسياسية. إن صمت مصادر القرن السادس هى التى لها معناها، والواقع أن هذا الصمت لا يرجع لفقدان تلك المصادر، على الرغم من ضياع بعضها[١٩]، ولكن يرجع إلى أن المصادر كتبت عنهما بعد انتشار الفتوحات، وليس فى أثناء الإشارات الخافتة عنهم أو عن المدينة التى أتوا منها فى سجلات الحكام الجدد للشرق الأوسط . فلم يذكر فى أى مكان أن قريشا أو "ملوك العرب" كانوا هم الأفراد الذين اعتادوا أن

= ظهر اسم مصر في القرن الرابع عشر في وثائق تل العمارنة عندما كتب (ربعدى) أمير الجبيل إلى فرعون مصر أنه قد يضطر إزاء تهديد جيرانه إلى أن يرسل أهله إلى (ماتو مصرى) أى إلى أرض مصر. كما ورد اسم مشرى ومصرى فى لوحة ميتانية، واسم (مصر) في نص من رأس الشمرا، واسم (مصرم) فى نص فينيقى يرجع إلى أوائل الألف الأولى ق.م.

وعرف الآشوريون مصر باسم "مصرو" و "مصِر"، وعرفها الفرس باسم (مضرايا) و (مدرايا) و(مودراتو)، وعرفها المعينيون باسم (مصر) و (مصرى)، والآراميون باسم (مصرين). وذكرتها التوراة باسم (مصر) و(مصرايم)، وقصدت بها البلد حينا، وأهلها حينا آخر، واعتبرتها اسمًا مذكراً مرة واسما مؤنثا مرة أخرى. أما القرآن الكريم كتاب الله سبحانه وتعالى وهدايته للبشر فقد عبر عن الاسم بلفظه الفصيح (مصر) فى السور الكريمة الآتية : سورة البقرة (٦١)، سورة يونس (٨٧)، يوسف (٢١، ٩٩) .

أما اصطلاح ايجويتوس (Aiguptos) فلقد أطلقه الإغريق على النيل وأرضه فى آن واحد، منذ عهد شاعرهم هوميروس Homeraeus على الأقل، ثم قصروه على مصر نفسها فيما بعد، وكتبه الرومان ايجبتوس Aegyptus ، ثم شاع بعد ذلك فى اللغات المعاصرة بمرادفاته المعروفة Egypt, Egypte, Egitto, Aegypten على الرغم من عدم استخدام المصريين له وعدم وجوده على الآثار المصرية.

وإذا كان اسم مصر يرجع إلى أصل سامي هل معنى ذلك أن المصريين كانوا يتحدثون اللغة السامية أو إحدى مشتقاتها؟ إنه من الصعوبة بمكان إيجاد تفسير دقيق لأسماء الأماكن فى العصر القديم أو إلحاقها بلغة أو بجنس معين وأخذ ذلك كرأى قاطع . راجع : Lewis and Short, A Latin Dictionary, S.V Aiguptos ؛ محمد بيومي مهران ، مصر والشرق الأدنى القديم ، ج١، ١٤٠٩ - ١٩٨٨، الإسكندرية ص٢١-٢٤ ؛ عبد العزيز صالح ، حضارة مصر القديمة وآثارها ، ج١، القاهرة١٩٦٢، ص٢-٦ . (المترجمة)

يقوموا بتغطية حاجة البلاد بهذه البضائع أو تلك . وعرف أن محمداً [ﷺ] هو نفسه كان تاجراً[٢٠] ، أو أن المدينة التي كان من المفروض أن يرد ذكر لها فكانت هى مدينة يثرب ، وليس مكة التى لم يرد لها ذكر لمدة طويلة، بل إن أول المصادر التى ذكرت بيتها قد فشلت فى ذكر اسمها ، بينما فشل المصدر الأول الذى ذكر فيه اسمها فى تحديد موقعها فى بلاد العرب[٢١]. وعرف يعقوب الإيديسى أن الكعبة هى المكان الذى يتجه إليه المسلمون فى صلواتهم ، وهى تقع فى مكان قريب لموكا (Moka) التى ذكرها بطلميوس ، أكثر من مكة الحالية ، أو بمعنى آخر أبعد كثيراً شمالاً من روايات الصحابة فى عصر الإسلام[*]، أما المعنى التجارى لهذا المكان فمن الواضح أنه كان يجهله تمامًا[٢٢]. ولكن أيا كان معنى هذا الدليل بالنسبة لتاريخ بيت المسلمين فإن مركز قريش التجارى لم يكن هو المكان الذى كانت له شهرته بين المسلمين .

وهكذا فإن الادعاء بوجود تجارة لقريش وصمت المصادر بخصوص هذا الموضوع يمكن أن يفسر فى ضوء الإشارة للتجارة نفسها، ولكن لا يوجد فى الرواية الإسلامية ما يرجح أنها جذبت الأنظار خارج بلاد العرب ، إن بيع الجلود والمنسوجات والعطور فى أماكن مثل بصرى وأذرعات لا يمكن عمل علاقات معها، وإذا كانت قريش مارست التجارة فقد كان نشاطها التجارى من ذلك النوع الذى كان يمارس فى المنطقة منذ زمن غير معروف ، ويترتب على هذا أن السؤال التقليدى المتمثل فى كيف ومتى تمكن المكيون من إحراز السيطرة على الطرق التجارية بين اليمن وسوريا والحبشة والعراق، يصبح سؤالاً بلا جدوى ، كما أن المصادر لا تشير إلى أنهم مارسوا السيطرة ، على أى من الطرق التى كانت تتحكم فى تجارة الصادرات لأى منطقة ، وعلى هذا ينبغى أن نترك جانبًا أمر احتكارهم لتجارة الصادرات العربية .

(*) وعن خصوصية موقع مكة وتوسطها لليابسة وانتفاء الانحراف المغناطيسى على مسار خط طول مكة المكرمة (٣٩,٨١٧ درجة شرقا)، إضافة إلى كرامة الحرم المكى وحمايتها من الهزات الأرضية والثورات البركانية راجع: زغلول النجار، "من أسرار القرآن"، جريدة الأهرام المصرية، ٩من ذى الحجة ١٤٢٣هـ- ١٠ فبراير ٢٠٠٣، ص١٢ . (المترجمة)

مكة – سوريا

جاء الوصف التقليدى للطريق بين مكة وسوريا ، على أنه يمثل نهاية طريق البخور الشمالى، وذكر المتخصصون فى العصر الحديث أن الغساسنة كانوا يسيطرون عليه ، ثم قامت قريش بعد ذلك بإبعادهم عنه . ويذكر سيمون (Simon) أن البند الخامس من معاهدة السلام بين بيزنطة وفارس عام ٥٦١م تضمنت برهانا قاطعا على متابعة الغساسنة لنشاطهم التجارى ، وتحكمهم فى الجزء السورى من طريق البخور[٢٣]. فقد فرض هذا النص على العرب إحضار بضائعهم لدارا (Dara) ونصيبين (Nisibis) فى أعلى شمال منطقة بين النهرين ، كما منعتهم من تهريب بضائعهم لبيزنطة والإمبراطورية الفارسية بالطرق الأخرى[٢٤]. ولكن من الواضح أنه كان لتنظيم التجارة الشرقية – الغربية بين عرب الصحراء السورية وجيرانهم ، وليس التجارة الشمالية الجنوبية بين سوريا والعراق وبلاد العرب ، والواقع أنه لا يوجد سبب يؤدى إلى ذكر التجارة الشمالية الجنوبية فى معاهدة بين بيزنطة وفارس . وأيا كان ما ذكرته المعاهدة عن عمل الغساسنة فى ميدان التجارة الشرقية الغربية ، فإنها لم تذكر شيئًا عن سياستهم التجارية فى بلاد العرب ، إضافة إلى أنها لا تثبت ولا توضح أنهم كانوا يسيطرون على طريق بعينه . وفى الواقع فإننا لا نعرف شيئًا عن سياسة الغساسنة، التجارية ، كما أنهم لم يظهروا فى المصادر التى لدينا منافسين لقريش فى التجارة[٢٥]. إن ابن الكلبى يذكر فى روايته أن قريشا أبعدت عن طريقها التجار من غير العرب وليس الغساسنة ، وأن ما قامت به قريش أنها أخذت على عاتقها إمداد مكة بما تحتاج إليه ، وليس تزويد بيزنطة ببضائع الترف الشرقية . وبوضوح فليس هناك ما يدل على تحول السيطرة على الطريق الشمالى من الغساسنة إلى المكيين(*) .

(*) نصت المادة الخامسة فى معاهدة السلام عام ٥٦١ه على أن يحضر العرب تجارتهم إلى دارا على الجانب الفارسى ، ونصيبين على الجانب البيزنطى من الحدود ، وفى حالة تهريب البضائع يعاقب المهربون وتصادر بضاعتهم (Shahid, Tha Arabs in the peace treaty, Arabica III (1956), p. 197 .

ونتفق مع كرون فى أن هذا النص كان خاصًا بتنظيم التجارة الشرقية الغربية بين اللخميين والغساسنة =

وعلى العكس من ذلك ، فإن الرواية تعطينا الفرصة لفهم المجتمعات العديدة لكل من العرب وغير العرب، الذين كانوا يمارسون النشاط التجاري في شمال غرب العربية، جنبًا إلى جنب مع قريش . وحتى على الرغم من ادعاء ابن الكلبي بأن قريشا قامت بإزاحة التجار غير العرب من مكة فإن هناك من القرائن ما يثبت عكسها، إذ قام تجار من سوريا بزيارة مكة بعد موت قُصي(٢٦). وكانوا ما يزالون هناك عشية الإسلام ، وخضع تجار بيزنطة لدفع ضريبة الثلث عند دخولهم مكة(٢٧). كما قام أحد البيزنطيين ببيع عباءة غالية الثمن هناك، وزوج رجل رومي يدعى قمطة الرومي ابنته لنبيه بن الحجاج (Nubayh) مما مكن الأخير من تحقيق ثروة(٢٨)، واستقر أحد التجار اليهود هناك، وكانت له علاقة بنبوءات النبوة(٢٩)، إضافة إلى أن التجـار اليمنيين كان لهم نشاطهم في مكة وشمالها .

= وجيرانهم ، وأنه لم يكن له علاقة مباشرة بالتجارة الشمالية الجنوبية . ولكن إذا قمنا بإلقاء نظرة فاحصة لأمكننا رؤية الخيوط الخفية التي تربط الأحداث بعضها ببعض على النحو التالي :

أولاً : إن هذه المادة تمهد السبيل لفهم بعض جوانب الأوضاع الدولية التي ساهمت في انتقال دفة التجارة الشرقية إلى طريق القوافل المكية ، حيث يؤدي تطبيق هذا النص إلى قيام التجار العرب بدفع الضرائب مرتين على بضائعهم : الأولى للفرس والثانية للبيزنطيين ، أما في حالة انتقال التجارة إلى الجانب العربي فسوف يتم دفع الضرائب على البضائع مرة واحدة للبيزنطيين بينما تحرم منها الخزينة الفارسية .

ثانيًا : إذا كانت هذه المعاهدة "تبرهن على متابعة الغساسنة لنشاطهم التجاري وتحكمهم في الجزء السوري من طريق البخور" فكيف وصل البخور أو بمعنى أشمل كيف وصلت البضائع الغربية والشرقية إلى الغساسنة في وقت تقطعت فيه المواصلات بين مشرق الجزيرة العربية وغربها بسبب الصراع بين الفرس والروم ؟ والإجابة المنطقية إنها وصلتهم برًا وبحرًا من جنوب بلاد العرب ، وإذا كان الأمر كذلك كما هو في الحقيقة فمن كان يمكنه حملها برًا غير قريش وقوافلها الجرارة ؟!

ثالثًا : إن هذه المعاهدة التي يذكر فيها العرب صراحة تعد دليلا على اشتراكهم في التجارة الدولية وتبرهن على دورهم الرئيسي فيها وهو الأمر الذي دفع الدولتين الكبريين فارس وبيزنطة على الاتفاق فيما بينهما لتكبيل وكلائهم العـرب (المناذرة والغساسنة) نتيجة لعجزهم عن تولي شئون الشبكة التجارية اللازمة لتيسير الخط التجاري من شرق جزيرة العرب وغربها نتيجة لتحول الحروب بينهما في النصف الثاني من القرن السادس إلى مجال شخصي خارج نطاق حاجات القوتين الكبريين ومصالحهما . لمزيد من التفصيلات عن هذا الموضوع راجع : سحاب ، المرجع السابق ، ص ١١٢ وما يليها . (المترجمة)

وظهرت صورة مشابهة لتلك بالنسبة للمدينة ، فحتى نهاية حياة الرسول [ﷺ] كان يوجد بها بعض الأنباط من سوريا(*)، يقومون ببيع المواد الغذائية، وبفضلهم تمكن المسلمون من الحصول على معلومات عن الأوضاع في سوريا(٣٠)، وكان هؤلاء التجار يحملون القمح والزيت في قوافلهم(٣١) وقاموا بزيارة دومة الجندل واليمامة واستوردوا التمر من اليمامة(٣٢)، ونعرف أن أحد التجار المسيحيين من بلقا قام ببيع القمح في المدينة في مقابل التمر(٣٣). وعندما قام والد الرسول [ﷺ] بشراء التمر من المدينة كان واحداً من تجار عديدين هناك(٣٤). وسيطر اليهود والمسيحيون على بيع النبيذ في المدينة ، وكان أمراً مسلماً به في كثير من المصادر وجود التجار المسيحيين فيها(٣٥). وعمل يهود المدينة في القوافل التجارية مع سوريا بصورة كبيرة ، وقاد العمل واحد منهم إلى وادي القرى(٣٦). وذهب تجار المدينة إلى سوريا ، كما هو واضح من النصوص الخاصة بنبوءات النبوة(٣٧).

كان اليهود يتاجرون بصفة عامة في بضائع مثل العطور ، والملابس والكحل (Kohl) والنبيذ(٣٨). ومما لا شك فيه أن يهود خيبر لعبوا دوراً كبيراً في توزيع الملابس اليمنية في الشمال ، والتي كانت تعد سوقًا كبيراً لها(٣٩). ويهود يثرب واليمن الذين كانوا يقيمون في منطقة الطائف للتجارة ، دفعوا الجزية عند ظهور الإسلام(٤٠). وعمل سكان الطائف في ميدان التجارة بالتعاون مع تجار مكة أكثر من القيام بمنافستهم(٤١)، وقابلنا من حين لآخر أحد التجار النجديين في الحجاز(٤٢)، من هذيل وكان يذهب للتجارة في سوريا، ويعود منها مثل الآخرين ومعهم نبوءات عن النبي، كما كانوا يقومون بزيارة المدينة ، على الأقل حتى عهد عمر [رضي الله عنه](٤٣).

ولما كانت أغلب هذه الأدلة ترتبط بفترة ما قبل الهجرة فإنه لا ينبغي تفسيرها في ضوء ضعف احتكار مكة للتجارة ، ونتيجة للعداء بين المسلمين وقريش ، ولكن يمكن أن

(*) ارتاد هاشم بن عبد مناف أسواق النبط في يثرب ، وهناك التقى بسلمى بنت عمرو من بني النجار، وكانت تشارك التجار في البيع والشراء وتزوجها وكانت أم ابنه عبد المطلب. راجع : ابن بكار (الزبير)، جمهرة نسب قريش وأخبارها، شرح وتحقيق محمود محمد شاكر ، بيروت ١٩٨١، ص٣٥٢؛ ابن حبيب، المنمق، ص٤٥٧ . (المترجمة)

يكون لها أهميتها في مكان آخر. وإذا كان الأمر كذلك فإن الفكرة العامة واضحة ، وهناك عدة وثائق تؤيدها. وتوضح لنا أوراق بردى نيسانا وجود عدد من الإسماعيليين كان لهم نشاط فى نيسانا ، التى تبعد حوالى ٦٠ كيلو متراً عن غزة ، وكانوا يتاجرون في الأصواف والجمال والحمير والقمح ، وفى سلع أخرى تشبه تلك التى تقوم قريش بالتجارة فيها، فى نفس المكان والزمان(٤٤). ونتساءل الآن عن قيمتها، إن هذا الدليل لا يعنى أن المكيين كانت لهم السيطرة على التجارة بين شمال العربية وجنوب سوريا ، ولنترك جانبًا القول بأنهم كانوا يحتكرونها، وعلى أى حال يمكننا افتراض أنهم تمكنوا من احتكار سلعة واحدة فى شمال العربية، وهذه السلعة تتمثل فى الجلود، وحتى إذا كانوا قد تمكنوا من ذلك فإنه من الصعب أن نقبل أو نرفض هذا الافتراض.

اليمن – مكة

وإذا كان ما يسمى نهاية طريق الطيوب الجنوبى له أهمية بالنسبة لنا، فقد ذكر أن المكيين تمكنوا من السيطرة عليه غداة فشل الإثيوبيين فى غزو اليمن عام ٥٢٥م . حقيقة يمكن القول بأن الغزو يؤدى إلى نشوب الصراع السياسى الذى يؤثر بدوره على الحياة الاقتصادية، ولكن هذا الأمر لم يكن واضحًا وضوحًا جليًا. ويمكن افتراض أن اليمنيين ربما فقدوا تجارتهم لصالح المكيين جراء فقدانهم لمكانتهم السياسية فى العربية(٤٥)، لكن ليس هناك ضرورة للاعتقاد بأن المكيين قد ورثوا سيادتهم أو تجارتهم من خلال اليمن. وتأكيداً على ما سبق فإنه يتضح من المباحثات التى جرت بين جستنيان والإثيوبيين لتنصيب السميفع (Sumayfa) الملك الصغير الذى نصبه الإثيوبيين ملكًا عليهم، إن اليمن كان مايزال لها دور سياسى فى شمال العربية خلال الفترة المبكرة من عهد جستنيان (٥٢٧ – ٥٦٥). إن سياسة أبرهة العسكرية ، ومغتصب العرش الإثيوبى الذى خلف السميفع تدل على أن اليمن تحت الحكم الحبشى كان لها دورها المؤثر فى بلاد العرب ، وعندما استولى الفرس على اليمن بعد ذلك، كانوا يمثلون كيانًا كبيراً(٤٦). إن توقف اليمنيين عن حكم أنفسهم لا يعنى أن بلاد العرب أصيبت بفراغ سياسى وأنه كان مقدرا لمكة من الناحية التاريخية أن تقوم بشغله .

وبالنسبة للتجارة فإن السبب البديهي في قيام كل من الحبشة والفرس ببسط سيطرتهما على اليمن يرجع إلى أهمية موقع الأخيرة بالنسبة لتجارة الشرق وليس لأنها فقدت دورها التجارى لصالح مكة، حيث كانت اليمن تعنيهم بسبب وقوعها فى طريق تجارة الشرق، حقيقة أنها لفكرة باهرة، فبينما كان العمالقة يتصارعون للسيطرة على السواحل، يقوم أحد أقزام الصحراء بالحصول على الجائزة(*) مما تسبب فى قيام أبرهة بمهاجمة مكة ؛ لإزاحتهم عن تحقيق النجاح التجارى ، وهو الأمر الذى لم يقدر له فيه النجاح، وعلى أى حال فقد نتج عن ذلك رحيل الفرس عن اليمن[٤٧]. إذن ما هو نوع الأدلة التى يمكن أن يخرج بها المرء من كل ما تقدم ؟

ورد فى إحدى عبارات الإيلاف أن تجارة قريش مع اليمن بدأت مع أبرهة، بيد أن أبرهة -الذى حكم حتى سنة ٥٤٠- لا يمكن أن يكون فى الواقع معاصراً لهاشم الجد الأكبر لمحمد[٤٨] [ﷺ]، وادعى بعض المفسرين أن سبب فشل أبرهة فى مهاجمة الكعبة، كان سبباً قاطعًا لاستمرار تجارة مكة، وهذا يعنى أن المكيين كان لا يمكنهم أن يغدوا تجارًا بدون البيت الذى كان أبرهة عازما على تدميره[٤٩]. ويذكر شاهد (أحد الباحثين) أن السورة القرآنية التى تشير إلى هزيمة أبرهة، وتلك التى تشير إلى رحلات قريش، إضافة إلى شواهد أخرى من القرآن ، تدل على أن المكيين قد بدءوا فى السيطرة على طريق البخور[٥٠](**). ولكن أيا ما كانت الروح التى قُرأتْ بها السورتان فإن المفسرين يذكرون أن مكة واصلت تجارتها بعد هزيمة أبرهة، على الرغم من المعلومات القليلة التى يذكرها القرآن عن موضوع الرحلتين، حيث لا يصفهما بأنهما رحلتان تجاريتان ، كما أن المفسرين لا يذكرون أن رحلة اليمن كانت من بينهما دائمًا، إضافة إلى أن خط سيرها كان غير محدد، ولم يكن طريق البخور معروفًا للقرآن وللمفسرين، حقيقة ربما

(*) تقصد كرون قبيلة قريش، وأريد أن أنوه هنا أن قبيلة قريش لم تكن من أقزام الصحراء كما تدعى ، ولكنها كانت من أعلامها. (المترجمة)

(**) المقصود بذلك سورة الفيل الذى يفضل بعض المفسرين قراءتها مع سورة الإيلاف والتى لم تشر إليها كرون إلا بهذه الإشارة الغامضة، واكتفت بالإشارة فى الحاشية إلى ذكر، قاله شهيد عن السورتين. راجع التعليق ص٣٥٤ وما يليها . (المترجمة)

بدأ المكيُّون تجارتهم مع اليمن زمن أبرهة، ولكن القصة التي وضعت زمن أبرهة لم تذكر إطلاقًا حضور تجار يمنيين(*)، أو تجار أحباش إلى مكة، ولما كان المكيون في ذلك الوقت يعانون من وقت صعب، نظرًا لامتناع المطر وتحولهم لرعي الأغنام، لذلك فإنهم لم يستطيعوا مقاومة سلب ثروتهم . تلك هي الصورة التي يمكن رسمها بصعوبة لبداية تجارتهم(٥١).

أما سيمون (Simon) فقد أجل اضطلاعهم بالتجارة إلى زمن حلف الفضول(٥٢). ولما كان تكوين هذا الحلف تم عندما كان محمد [ﷺ] في العشرين من عمره ،أي حوالي عام ٥٩٠م ، فإن توسع مكة التجاري بالقطع بدأ متأخرا بحيث أنه لم يغير كثيرًا في خلفية الصورة لمحمد [ﷺ]، وعلى الرغم من أن هذا الموضوع يظل له أهمية بالنسبة للفتوحات، ولكن هذا الرأي لم يقدر له النجاح، حيث أن حلف الفضول عبارة عن حلف أقسم عليه عدد من المكيين عندما باع أحد التجار اليمنيين بضاعة له، وفشل في الحصول على ثمنها ، وكان هدف الحلف هو ضمان عدم وقوع مثل هذه الحوادث(٥٣). إن هذه القصة التي تعهد فيها المكيون بتحقيق العدالة لتجار اليمن في مكة تجعلنا نفترض أنهم قاموا بطرد التاجر المذكور، خصوصًا عندما يرينا الحلف

(*) لم يذكر القرآن الكريم أن رحلتي الإيلاف كانتا تجاريتين لأنهما كانتا معروفتين بهذه الصفة لأهل مكة الكبير منهم والصغير، لذلك لم يستفسر أحد الرسول ﷺ عنهما إضافة إلى أن العصر لم يكن يعرف غير هذا النوع من الرحلات . وتدعي كرون أن تجارة مكة مع اليمن لم تبدأ إلا بعد حملة أبرهة على اليمن وأن القصة التي وضعت زمن أبرهة لم تذكر إطلاقًا حضور تجار يمنيين أو تجار أحباش إلى مكة، فإذا صح هذا القول فما المصدر الذي عرف منه أبرهة عن وجود البيت الحرام في مكة والذي كان يهدف إلى تدميره؟! ألم تكن تلك المعرفة نتيجة للصلات بين الجانب المكي واليمني؟ إضافة إلى أن المصادر توثق لنا تلك الصلة وهي المصادر التي صرفت كرون النظر عن استخدامها هنا والتي تعرفها . فقد ذكر ابن الكلبي أن مُطلبا أخا هاشم بن عبد مناف عمل في اليمن ما عمله هاشم في سوريا ، وتوفي وهو في طريقه إلى اليمن في مكان يسمى ردمان وقد أقرت كرون بأن مندوبي نعمان الحيرة كانوا يقومون ببيع بضائع العراق في عكاظ ويقومون بشراء بضائع يمنية في مقابلها ص٢٦٦ من الترجمة . فمن الذي حمل التجارة اليمنية إلى سوق عكاظ؟ إما أن قريشا قامت بإحضارها، أو قام بذلك تجار اليمن. لقد كانت الصلة بين مكة واليمن صلة منطقية نظرا للقرب بينهما، وهي تلك الصلة التي قامت المصادر بتوثيقها . (المترجمة)

المذكور، قدوم طائفة من التجار اليمنيين لمكة للتباحث حول موضوع الظلم الذى يجب أن يُرفع فى حينه(٥٤)(*).

ويقول سيمون إنه من المحتمل أن هذه القصص غيرت من ملامح حقيقة الأحداث التى نقوم بوصفها، ولذلك فمن الأصوب أن نعتبرها قصصا أسطورية، ولكن إذا كانت القصص التي تفاخر فيها المكيون بأنهم شكلوا مجلسًا للنظر فى شكاوى اليمنيين والتجار الأجانب فى مكة، وأن ذلك يعد برهانًا قاطعًا على أن المكيين أزاحوا تجار اليمن من ميدان التجارة على طول طريق البخور، وأنهم أصبحوا يقومون بتنظيم القوافل لليمن ، فإن هذا يعنى أننا يمكن أن نستخرج من أى دليل ما نريده منه. إن هذه القصص تعتمد على افتراض أن التجار اليمنيين كان لهم نشاط فى مكة عشية الإسلام، وعلى الرغم من أن ابن الكلبى يذكر فى قصة هاشم وإخوته أن قريشًا قامت بإزاحة التجار غير العرب، فيمكن أن يفهم من روايته أن المقصود بهم أحباش اليمن ويمنيون آخرون، فإن الرواية فى عمومها بريئة من فكرة قيام المكيين بإزاحتهم من طريقهم، إن القوافل التى كانت تحمل العطور من عدن لكل من الإمبراطورية البيزنطية

(*) يرجع السبب فى عقد هذا الحلف إلى أن رجلا من بنى زبيد (من اليمن) جاء بتجارة له إلى مكة فاشتراها منه العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم ، فماطله بحقه، وأكثر الزبيدى الاختلاف إليه فلم يُعطه شيئًا فتمهل الزبيدى حتى إذا جلست قريش مجالسها وقامت أسواقها ، قام على جبل أبى قبيس فنادى بأعلى صوته : يا أهل فهر لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائى الأهل والنفر .

ثم نزل وأعظمت قريش ما قاله وما فعل، ثم خشوا العقوبة، وتكلمت فى ذلك المجالس. ثم إن بنى هاشم وبنى المطلب وبنى زهرة وبنى تميم اجتمعوا فى دار عبد الله بن جدعان، فصنع لهم طعامًا وتحالفوا بينهم أن لا يُظلم بمكة أحدُ ، إلاّ كنا جميعًا مع المظلوم على الظالم ، حتى نأخذ له مظلمته ممن ظلمه، شريف أو وضيع منا أو من غيرنا. ثم خرجوا" . ابن حبيب : المنمق، ص٤٥-٤٦ . وأضاف ابن هشام إلى الحلفاء بنى أسد بن عبد العزى ، وأضاف ابن حبيب فى المحبر ابن الحارث بن فهر. ابن هشام ، ج١، ص١٤٥، والمحبر ، ص١٦٧ . ويقدم ابن حبيب بعض النماذج التى نجح فيها أفراد الحلف فى رفع الظلم عن المتضررين ، المنمق، ص٤٧-٤٩ . مما يوضح العلاقة بين هذا الحلف وتجارة مكة وتنظيمها ، لحفظ سمعة مكة التجارية وضمان الأمن والسلامة فيها . ومن الملاحظ أن قريشًا قبلت هذا الحلف بدليل عدم قيام حلف مناوئ له لما رأت فيه مصلحتها. وينبغى أن يوضع فى الاعتبار أن هذا الحلف لم يضع أساس التجارة مع اليمن على أساس عهود الإيلاف ، لأنه كان تال للإيلاف وليس سابقًا عليه . ولذلك يمكن اعتبار أنه كان بمثابة حماية لتلك التجارة حتى تظل قائمة . (المترجمة)

والفارسية ، كانت -من المحتمل- قوافل يمنية، أو على الأقل لم يتم تصنيفها على أنها قوافل قرشية(٥٥)، وقد ذكر أن اليمنيين كانوا يوجدون بكثرة في سوق دومة الجندل ، بعيداً عن محاولة إزاحتهم ، وكان يمكن لقريش أن تقوم بمدهم بما يحتاجون إليه من حراسة على طول الطريق(٥٦). أما بخصوص القوافل التي قيل إن المكيين كانوا يقومون بتنظيمها لهم، فنادرا ما جاء ذكرها في الروايات، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن تجارة اليمن البحرية لم تتأثر بقريش بأى صورة من الصور(٥٧). وليس بالضرورة أن تكون هذه المعلومات صحيحة ، ولكن تلك هي المعلومات التي لدينا ولا يوجد عندنا وسيلة لكي نؤيد التصور بانتقال السيطرة على التجارة من اليمنيين إلى المكيين .

الحبشة - مكة

وربما قام المكيون بالسيطرة على نهر البضائع القادمة من الحبشة إلى مكة، ولذلك علينا أن نقوم برسم صورة للطريق المقصود. واعتماداً على ما ذكره أحد الشراح فإن المكيين لم يكن لهم من منافسين سوى الأحباش، الذين استولوا منهم، أو تمت إزاحتهم على أيديهم(٥٨). أما التجارة بين الحبشة والإمبراطورية البيزنطية والفارسية، فقد كانت تجارة بحرية ، إضافة إلى ذلك، فإننا لم نر المكيين يبيعون بضائع حبشية في بلاد العرب أو شمالها، لذلك ينبغي أن تسقط الفكرة القائلة بأنهم أحرزوا نوعًا من الاحتكار على التجارة بين شرق أفريقيا والبحر المتوسط(٥٩).

مكة - العراق

وفي ضوء حقيقة أن المكيين نادراً ما تاجروا في العراق ، فمن غير المقبول الافتراض بأن مكة سيطرت على الطريق الموصل إلى تلك البلاد ، إضافة إلى أن الدليل المستمد من تلك الرواية لا يشير إلى شيء من هذا النوع. هذا في الوقت الذي يذكر فيه وات (Watt) وسيمون - ويشاركهما آخرون الرأى - إن حرب الفُجار ، والتي تُعد حرب الحروب قد انتهت عام ٥٩٠م وجد فيها أهل مكة فرصتهم لانتزاع التجارة من منافسيهم اللخميين في الحيرة(٦٠). وحتى إذا ثبت أن العراق قد تمت إضافتها

للأسواق التى سيطر عليها المكيون مثلها في ذلك مثل اليمن ، فإن هذه الإضافة تكون قد وقعت في فترة متأخرة ولا تعني شيئًا بالنسبة لتكوين محمد [ﷺ] ، ولكن قد يكون لها أهمية بالنسبة للفتوحات العربية إلا إن هذا الافتراض لا يتفق مع ما تقدمه المصادر للأسباب الآتية :

أولاً : إن القصص الخاصة بحروب الفجار لم يكن لها أية علاقة بالشئون التجارية، وعندما جلسوا فى سوق عكاظ فمرجعه أن الأفراد اعتادوا الذهاب والاجتماع هناك، وليس لأن صفقات التجارة كانت تعقد فيه(*). كما أن الصورة التى قدمت كانت صورة

(*) تذكر كرون أن العرب "عندما جلسوا في سوق عكاظ فإن الأفراد اعتادوا الذهاب والاجتماع وليس لأن صفقات التجارة كانت تعقد فيه" إنها تغفل هنا أن السبب الرئيسي للذهاب إلى عكاظ كان من أجل التجارة في المقام الأول، وكانت من أشهر الأسواق العربية وتضم بضائع مختلفة ، تضم البرود اليمانية المخططة والموشاة والمسيّرة بخطوط الحرير، والزعفران والأصبغة والعلك والخضاب والبخور والعقيق، والمُر والتوابل والطيب. تلك تجارات اليمانية . أما العمانيون فنجد عندهم اللؤلؤ من البحرين وتمور هجر وجوارها. وكان الشاميون يحضرون الزيوت والزبيب والدقيق والقمح والأواني وأرجوان صيدا وصور وزيت السمسم والمصوغات الذهبية والفضية من البتراء والجِفَاء من عسقلان . وكان الأعراب يبيعون الصوف والشعر والدهون والسمن والوبر والأغنام والإبل والجلود المدبوغة والأحذية . ولم تكن السوق تخلو من عطارين يحملون عطارتهم والأدوية والأعشاب والمسك والطيوب والعطور، وبياطرة يعالجون الدواب ، ونجارين وحدّادين وبزّازين يبيعون الثياب والسلاح . وقد اشتُهرت فى السوق الرماح الخطية المصنوعة في بلدة الخط على ساحل البحرين، والرماح الردينية ، وكانت تصنعها امرأة من البحرين اسمها ردينة ، أما أشهر الخمور فى السوق فكانت تلك الآتية من بُصرى وغزة والأندرين التى ذكرها عمرو بن كلثوم فى معلقته . وفى السنوات الأخيرة التى سبقت الإسلام ازدهرت تجارة الرقيق الحبشى والقين الشامية .

وكانت بضاعة السوق معفاة من العشور والمكوس، وكانت لديها شبه محكمة تجارية ، خصوصاً بعد حلف الفضول وتعاظم نفوذ مكة والحمس ، إثر حروب الفجار . وكان القضاء فيها لهوازن قبل الفجار، وصار لكنانة بعدها . وقد أشاعت عدالة المحكمة وأمن الشهر الحرام الاطمئنان التام بين قُصّاد السوق ، وكان ازدهارها هذا الازدهار العظيم منطقيا ومفترضًا . كما كان للسوق كُتابا عُدولاً كانوا يقومون بكتابة العقود والمعاملات،كما كانت فيها وسائل الإعلان للتشهير بمنتهكي العهود أو بمرتكبى أعمال الغش أو التدليس، وكان يحضر السوق سائر قبائل العرب ، وعرب الشام والعراق والخليج واليمن والبلاد المجاورة، فكانت تكتظ بالناس وتضيق على سعتها بهم ، فيكسب التجار ما لا يكسبون مثله في أى سوق آخر . ويذكر المرزوقى أنه لما "دخلت سنة خمس وثلاثين من عام الفيل حضر السوق من نزار اليمن ما لم يعرف أنه حضر مثله فى سائر السنين ، فباع الناس كل ما كان معهم من عروض تجارية ". وكان لكل قوم منازلهم ومضاربهم ، واختلطوا وامتزجوا معا فى بحث شتى الأمور من تجارية وأدبية ، راجع المرزوقي، الأزمنة، ج٢، ص١٦٨ - ١٦٩. وعن موعد قيام السوق راجع سحاب ، المرجع السابق ، ص٢٩٢-٢٩٣ . (المترجمة)

لمجتمع بدون دولة (وهو فى الواقع مجتمع حيوى جدا) حيث تدور فيه الحروب إذا ما شاغب أحد المراهقين فتاة جميلة(٦١)، أو بسبب فشل أحد الأفراد فى استرداد الديون المالية المستحقة له، وقصص أخرى مثل قصة براض (Barrad) ، ذلك الخارج على القانون الذى أصبح حليفًا لحرب بن أمية، فهو الذى قام بقتل أحد حراس القافلة التى أرسلها نعمان الحيرة إلى عكاظ، مما أدى إلى توريط حليفه القرشي والقبائل الأخرى فى حرب مع قيس وهى القبيلة التى ينتمى إليها القتيل(٦٢). وفى خلال المرحلتين الأولى والثانية من الحرب ظهرت قريش رسول سلامٍ ، أما فى المرحلة الثالثة فهى التى دفعت قريشًا إلى الدخول فيها ، ويخبرنا وات (Watt) أن براض كان يعمل وفقا لرغبات قريش ، إذا لم يكن طبقًا لأوامرها ، وعندما قتل قائد قافلة الحيرة، والتى أخطأ وات فى تقديمها على أنها كانت متجهة لليمن بدلاً من عكاظ(٦٣). أما الذى ذكر لنا بالفعل فهو أن حرب بن أمية كان يريد التخلص من براض لأنه لا يصلح لشيء، وعندما شعر براض بذلك توسل إليه للإبقاء على تحالفه معه، ثم رحل للحيرة حتى لا يكون سببًا فى إثارة مشاكل لحليفه، وكان هذا هو السبب فى ذهابه للحيرة ووجوده هناك، ولكنه أساء التصرف مرة أخرى ، وقتل خزاعى (Khuzai) بعد أن تحالف مع حرب ، ثم هرب إلى اليمن ومنها رحل إلى الحيرة ، دون أن يخبر حليفه عن وجهته كما هو واضح(٦٤). وعلى أى حال ، فإن مجريات الأمور تدل على أن براض كان شخصًا مثيرًا للمتاعب(٦٥)، وكانت المسألة مسألة جرح كرامة، ولم تكن السياسة التى اتبعها المكيون هى التى أدت إلى قتل حارس القافلة، الذى أهان براض عندما كان فى الحيرة(٦٦). وذكر صاحب الأغانى ، أن براض قاد القافلة إلى مكة ، بينما ذكرت مصادر أخرى أنه هرب إلى خيبر . ولكن حقيقة قبول أهل مكة لوجوده بينهم كما يذكر فى هذا النص كانت تعنى أنهم أيدوا حليفهم تمسكًا بالحلف ، ولذلك فإن الحرب قادمة فى كل الأحوال . إن قصة براض تمثل قصة الفشل والمشاكل التى كان سببًا فيها لكل فرد من حوله، وإن محاولة القراءة الميكانيكية لسلوك قريش خلالها تخطئ الهدف .

ثانيًا : إن قريشًا لم يقدر لها الانتصار فى حرب الفجار ، مثلها فى ذلك مثل الآخرين . وذُكر أن قريشًا كانت أكثرهم خسارة ، ثم جاءت نهاية الحرب بسبب الإجهاد الذى

أصاب جميع الأطراف ، ومن ثم دارت مفاوضات الصلح، وجُمعت أعداد القتلى ثم فرضت دية الدم على الجانب الذى كان هو السبب الرئيسى فى نشوبها ، وليس على الجانب الذى كانت خسائره فيها أكبر. وكانت هذه الحروب أنموذجًا للحروب التى تدور بين القبائل ، ولم تكن تهدف لإحراز التفوق التجارى . وإذا كان المقصود هو إحراز ذلك التفوق فيمكن القول بأن قريشًا تمكنت من تحقيقه ولكن بصعوبة بالغة(*).

(*) تصور كرون أحداث حروب الفجار التي وقعت بين سنتي ٥٨٥-٥٩٠م بأنها تمثل نوعا من النزاع المعتاد بين قبائل العرب، وادعت "أن الناس عندما جلسوا فى سوق عكاظ فسببه أن الأفراد اعتادوا الذهاب والاجتماع هناك"، وأغفلت أن المحور الرئيس الذى كان يدفع العرب للاجتماع هناك كان يدور حول التجارة ويلتف حولها ولم يكن وجودهم لمجرد الاجتماع والحديث والمسامرة . إضافة إلى إغفالها أن حرب الفجار الأولى التى دارت فى ثلاثة أيام ، وفى حرب الفجار الثانية التي وقعت أحداثها فى خمسة أيام ، كانت قريش وحلفاؤهم هم المتحرشون والبادئون فيها مما يوحى بأن قريشا هى التى حرضت عليها خصوصا فى حرب الفجار الثانية. ويقول ابن هشام فى السيرة "وكان الذى هاجها أن عروة الرحّال .. أجار لطيمة للنعمان بن المنذر فقال له البرّاض ... : أتجيرها على كنانة ؟ فأجاب بنعم ، وعلى الخلق ... فأتى آتٍ قريشاً فقال : إن البراض قد قتل عروة وهم فى الشهر الحرام بعكاظ، فارتحلوا وهوازن لا تشعر، ثم بلغهم الخبر فاتبعوهم فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم، فاقتتلوا حتى جاء الليل ودخلوا الحرم، فأمسكت عنهم هوازن" ابن هشام ، ج١، ص١٩٩-٢٠١ .
ومن الواضح أن هذه الحروب كانت تمثل نزاعا بين قريش وهوازن على النفوذ التجارى، خصوصًا أن سوق عكاظ يقام فى أرض هوازن. ولقد تمكنت قريش من إحراز الانتصار على الحيرة فى حرب الفجار، وهو الانتصار الذى تحاول كرون أن تقلل من شأنه وتعترف به بصعوبة بالغة فى قولها "إن قريشًا تمكنت من تحقيقه ولكن بصعوبة بالغة" وبالرغم من ذلك الاعتراف فقد قامت بنفيه مرة أخرى بقولها :" إن حقيقة كون إحدى هذه الفترات قد حدث فيها اعتداء على إحدى القوافل فهو لا يعني أن نربط بينها وبين مغزى اقتصادى أو سياسى... إننا نصنع تاريخا اقتصاديا مزيفا إذا قمنا بتضخيم مثل هذه المنافسات وتحويلها لصراع طويل يخدم أهدافا تجارية أو سياسية" . كما أنها تغفل تماما أحد نتائج انتصار قريش فى حروب الفجار، وهى تلك الحملة التى أعدها النعمان بن المنذر ضد بني عامر بن صعصعة وهم أحد بطون هوازن وكانوا من الحُمس الذين انتصروا لقريش فى حروب الفجار وساهموا فى هزيمة قبيلتهم . إضافة إلى ما تقدم فإنها لم تذكر كلمة واحدة عن وقعة ذى قار التى توضح بجلاء الارتباط بين التنافس التجارى والعلاقات بين الفرس والعرب .
ويذكر ابن حبيب "وكان أمرهم أن كسرى بعث بلطيمة إلى عكاظ فتعرضت له بنو تميم وبنو شيبان فاقتطعوها ، فبعث إليهم كسرى خيلا واستعمل عليهم وهرز فخرجوا حتى لقيتهم تميم وشيبان بذى قار فقتلوا فارسا واقتطعوها "المنمق ص٣٢٠ .
كانت سوق عكاظ لقبيلة هوازن القوية المرهوبة الجانب، وظلت كذلك بلا اعتراض لقريش عليها حتى حاولت الحيرة أن تتجنب تسيير قوافلها عبر مكة ، وأن تسيرها عبر الطائف إلى اليمن مباشرة. عندئذ فقط حدثت حروب الفجار وسيطرت مكة على عكاظ . هكذا أصبح لقريش شبكة مكتملة من العلاقات المكية تغطى =

وقد لاحظ كل من لانداو – تاسيرن (Landou - Tasseren)[٦٧] أنه خلال معركة الأيام الأربعة ، تمكنت قريش من إحراز الانتصار في اليوم الثالث ، ولكنها هزمت في بقية الأيام . وعلى أي حال فإن ملاحظة "وات" التي صاغها بذكاء يقول فيها : "حيث إنهم تمكنوا من إحراز النصر كما هو واضح، فمعنى ذلك أنهم تمكنوا من تحقيق أهدافهم"، أما "سيمون" فيرى أنه لما كانت تمثل "هزيمة فادحة" انعكست على منافسي قريش، مما أدى إلى نمو تجارة قريش مع العراق[٦٨]. وهكذا تم استنتاج سيطرة قريش على طريق العراق بواسطة التوفيق بين الافتراضات والتخمين والتحريف.

إن قصص حرب الفجار هي عمل أدبي في المقام الأول، وليست سجلاً لأحداث التاريخ السياسي أو التجاري وهو نفس الحال مع أغلب الشواهد الخاصة بفترة ما قبل الإسلام . وأيا كان أول من ذكرها فقد كان معنيا بتصوير المجتمع الجاهلي كما كانت الأوضاع السائدة فيه ، واستخدم ما تذكره عن زمانها والمشاركين فيها ، وينبغي علينا أن نستخدمها للهدف نفسه أما حقيقة كون إحدى هذه الفترات قد حدث فيها اعتداء على إحدى القوافل فهو لا يعني أن نربط بينها وبين مغزى اقتصادي أو سياسي[٦٩]. وهنا يحق لنا أن نتساءل عن المكان الذي يوجد في بلاد العرب ، والذي لم يتم فيه الاعتداء على القوافل ؟ لقد فقد النعمان نفسه عدة قوافل تجارية من قبل[٧٠]. ومما لاشك فيه أنه كثيراً ما كان التنافس بين القبائل وراء وقوع هذا النوع من

= احتياجات التجارة المكية، إذ كانت قوافل قريش آمنة في دومة الجندل بفضل الأحلاف، وكانت دومة الجندل تعد عقدة المواصلات بين مكة والحيرة ، وبين الخليج وبصرى . كما قامت قريش بالخفارة في سوق المشقر التي كانت تعد من أكبر أسواق الخليج ، وكانت تعقد لمدة شهر . وفي سوق حضرموت في الرابية على الرغم من أن قريشًا كانت فيها مخفورة ، فإن بني آكل المُرار سادوا على سائر الناس هناك بفضل قريش .

وهكذا يتضح لنا أن قريشًا لم تسيطر فقط على الأسواق الثلاثة (عكاظ ومجنة، وذو المجاز) لقربها منها فقط ، بل كان لها شأنها في أسواق بعيدة عنها مثل : دومة الجندل والمشقر والرابية إضافة إلى الإيلافات التي قام هاشم وإخوته بعقدها ، هنا يمكننا أن نتصور وضع قريش وإمساكها بزمام التجارة في شبه الجزيرة العربية في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي . راجع أيضًا : سحاب ، إيلاف قريش، راجع المراجع المذكورة في ص٣٩٠ . (المترجمة)

الحوادث، ولكننا نصنع تاريخًا اقتصاديا مزيفًا إذا قمنا بتضخيم مثل هذه المنافسات، وتحويلها لصراع طويل يخدم أهدافًا تجارية وسياسية[٧١]. إن النتيجة التجارية الوحيدة التي تمخضت عما قام به براض - بصرف النظر عن الخسائر التي تكبدها النعمان - تتمثل في تأجيل سوق عكاظ في تلك السنة. كما أن قريشًا لم تقم في عام ٥٩٠ بإقصاء اللخميين في الحيرة عن طريق العراق ، فإن هذه الأسرة قضى عليها بواسطة الفرس في عام ٦٠٢م ، وإذا كان طريق العراق قد أغلق كما يظن "وات" بسبب ذلك ، فإننا يجب أن ندعم الحقيقة بأن ذلك يرجع للفرس أكثر منه إلى قريش . كما أن قريشًا بالرغم من كل شيء لم يكن لها تجارة منتظمة مع العراق . وكان أبو سفيان هو ابن حليف براض هو الذي وصف العراق، بأنها تلك البلاد التي لم يسمح لقريش بالتجارة فيها، وقام هو ومعه بعض القرشيين استثناءً بالمخاطرة باتخاذ طريق العراق للوصول إلى قَرَدة عام ٦٢٤م[٧٢](*).

(*) راجع التعليق المذكور في ص٢١٧، ٢١٩ .

الحواشى

(١) راجع حاشية رقم ١٠٩ وما يليها الفصل الخامس أعلاه. ويذكر الشيء نفسه ضمنا من خلال الملاحظة التى ذكرها هاشم من أنها قد تكون أرخص سعرا بالنسبة للسوريين. ومن هنا افترض لامينز Lam-mens أن قريشًا لم تقم ببيع المواد المصنعة، ولكن المواد الخام التى بدونها لا تستطيع أن تقوم الصناعة البيزنطية Mecque, p. 134 .

(٢) راجع حاشية رقم ٢ ، الفصل الرابع.

(٣) الطبرى، التاريخ، مجلد١، ص٢٧٦٦ وما يليها، وقارن القصة المشابهة لذلك عن عتبة بن أبى سفيان ، الذى عمل فى التجارة زعيمًا لقبيلة كنانة.

(٤) ولاحظ أيضا أنه لم يرد ذكر ميناء غزة فى الروايات الخاصة بالتجارة المكية.

(٥) . H.Von Wissman, "Makoraba," With reference to Pliny, N.H., v1,.150

(٦) راجع : A. Grohmann, Makoraba, With reference to Ptolemy, Geograrohy, V1,71,7:32 والأدب المبكر حيث تمت مقابلتها بالكعبة فى :.. EI2, s.v. kaba

(٧) ولذلك ذكرها جروهمان مكروابا Makoraba اعتمادا على بلينى فى التاريخ الطبيعى .VI, 150 وفى الجانب الآخر فقد قام فيسمان بوضع ميناء مكروبا فى مواجهة جزيرة نعمان Naman فى المدخل الشمالى للبحر الأحمر، ووضع جدة فى مكان أرجاكومى Arga Kome التى ذكرها بطلميوس H.Von Wissmann; "Madiana", col. 539; id Makoraba.

(٨) Grohmann, "Makoraba", بالإشارة إلى أميانوس ماركيلينوس Ammianus Marcellinus, XX111, 6:47.

(٩) إن هذا البناء اللغوى يعنى فى اللغة العربية بطبيعة الحال"المالك" أى الذى أنعم عليه بأن يكون ابن قريش" ولا يبعد عن الاحتمال أن هذا الرجل الذى ينتمى إلى العربية الجنوبية كان يعرف اللغتين (lingua fran-ca) السائدتين فى المنطقة فى تلك الفترة (هى هنا اللغة الآرامية) ؛ ولكن معرفة اللغتين السائدتين لا تؤثر عادة على أسماء الأماكن .

(١٠) بدأ بلينى كتابة الفصل السادس فقرة ١٤٧ بقوله : " وسوف نقوم الآن بوصف الساحل من خاراكس Charax وما يليه، ثم ما يليه من جرها Gerrha إلى عمانا والشواطئ الأخرى الواقعة على الخليج الفارسى" والتى وصلها فى الفصل السادس فقرة ١٤٩، ثم وصل إلى العربية الجنوبية ببخورها

الحضرمي Chatramotitae والسبئي في الفصل السادس، فقرة ١٥٤، فكيف إذن يشير في الفصل السادس ، فقرة ١٥٠ إلى الساحل قرب مكة؟(*)

(١١) ولم يلاحظ ذلك فون فيسمان بالرغم من اعتداله ، ولكن وصف جروهمان لم يكن له صدى ، وهناك نماذج لآراء متطرفة أخرى اقترحها بعض الباحثين السابقين وذكرها في دراسته "Makorab" .

(١٢) لقد ثبت إلحاقها بأسماء مثل ربة مؤاب Rabbath-Moab أو ربة أمون (Rabbath- Ammon راجع Makoraba" Grohmann,). ولكن القياس على ذلك غير صحيح حيث إن ذلك يتوقف على تركيب الأسماء، بينما الأمر على غير ذلك في حالة مكة – ربة -Makka- Rabbaوبالرغم من كل ذلك فهي يمكن أن تكون مكة الرب Makka al-rabba ؛ ولكن اصطلاح الرب rabb لم يستخدم كصفة في اللغة العربية، كما لم توصف مكة بأنها مكة الكبرى Makka al-kubra .

(١٣) ومن الصعب أن نوافق على رأى رودنيسون Rodinson بأن اسم مكة يمكن أن يكون مشتقا من الشكل العربي الجنوبي المكون للكلمة "مكورابا" Macoraba ربما عن طريق الاختصار ,Mohammed pp.38

(١٤) راجع فون فيسمان "Makoraba" يبدو أن اسم ميكراب مكة Mikkab Makka يضاف إليه في اللغة الإغريقية النهاية Ka بدلا من be . ويبعد عن الاحتمال بأنه قد تم إعادة تركيب اسم ميكراب Mikrab بإضافة نهاية المؤنث المأخوذة من مكة. وقد لاحظ بهل Buhl – وهو محق في ملاحظته – أن اسم مكة لا يمكن أن يكون مشتقا من الكلمة السابقة التي ترجع إليها Macoraba ، ولكن مكة هي اسم مرادفا لبكة Bakka ولكن من الواضح أيضًا أن هذا الرأى لا يقدم شيئا بخصوص هذه المناقشة (,F.Buhl Das Leben Muhammeds, p.130 n).

(١٥) ويرى فون فيسمان في مقالتة عن مكورابا "Makoraba " أن بطلميوس الجغرافي قد وضع لاثريبا Lathrippa على خط طول ٧٨، ويرى فيسمان أنه هو خط الطول التي تقع عليه يثرب (col.528) ولكن يثرب تقع على خط طول ٧٣، أو بمعنى آخر درجتين أبعد إلى الشرق، حيث يصبح مكانها في اتجاه وسط العربية بدلا من اقترابها من الساحل (راجع خريطة بطلميوس عن سبرنجر Sprenger وستيفنسون Stevenson وفون فيسمان المذكورة لدى جروم Groom, Frankincense, p.86 بحيث أعاد وضعها في هذا المكان، وقارن الصلة بين مكة والمدينة في ص١٩٢، وبطبيعة الحال فإن خطوط الطول والعرض لدى بليني كانت غير دقيقة، ولكن إذا كانت خطوطه غير دقيقة فلا يمكن للمرء أن يحدد الأماكن اعتمادا عليها فقط.(**)

(*) ان وصول بليني في حديثه إلى الشواطئ الأخرى الواقعة على الخليج الفارسي في فقرة ١٤٩، ثم وصوله إلى الحديث عن حضرموت وسبأ في الفقرة ١٥٤ لا يمنع بأى حال من الحديث عن مكة في الفقرة رقم ١٥٠ من نفس الفصل ، مما يدل على أنها كانت معروفة له وأنه كان يقصدها تحديداً فتحدث عنها قبل أن يبدأ في حديثه عن الجزء الجنوبي الغربي من بلاد العرب . (المترجمة)

(**) إن حقيقة كون خطوط الطول والعرض عند بليني (ت٧٩م) غير دقيقة نظراً لإمكانيات العصر العلمية ، لا تمنع من الأخذ بها ، خصوصها إذا كانت هناك إمكانية في القيام بتصويبها من خلال المصادر الأخرى. (المترجمة)

(١٦) راجع : مكرب Maqarib هي مكان قريب من يثرب لدى ياقوت: البلدان ، ج٤، ص٥٨٧ وما يليها .

(١٧) Ptolemy, Geography, V, 17:5 ، وقد لفت نظري إلى هذه الملاحظة كوك .M.A.Cook

(١٨) راجع : . Ammianus Marcellinus, Rerum Gestarum libri, XX111,6 : 67 يضع أميانوس قائمة لسبع مدن فقط Civitates eximiae في العربية السعيدة، وهي جيابوليس Geapolis ، وخمس مدن أخرى بالإضافة إلى ديوسقوريس Dioscuris (والتي يبدو أنها سوقطرة). لاحظ جروهمان أن المدن الخمس المذكورة تواتر ذكرها على أنها عواصم أقاليم Metropoleis لدى بطلميوس، حيث ذكرت قائمتها بنفس الترتيب ثم تبعها ذكر مدينة ديوسقوريس Dioskoridous Polis أيضًا Geography, VI, 7,35-45. . ويرى جروهمان أن كل من أميانوس وبطلميوس استخدما نفس القائمة، ولذلك كان يجب أن يأتي ذكر جيابوليس Geapolis لدى بطلميوس أيضًا . وربما وجدها في شكل ماكورابا Makora-ba، قائلا أن هناك آراء عديدة ترى على أن جيابوليس Geapolis هي هيرابوليس Hierapolis أو بمعنى آخر قام أميانوس بترجمة اسم المدينة المقدسة الذي قام بطلميوس بنقل كتابتها فقط "Makoraba" Grahmann,. وينهار هذا الرأى أمام حقيقة ذكر بطلميوس لاسم جيابوليس Geapolis تحت اسم (Gaia polis, III, 7:21) وهذا يعني أن قراءة هيرابوليس Hierapolis خطأ، وبالتالي فمن غير المحتمل أن تكون مكروبا هي مكة، ومن ثم فإن الإشارة إليها لا تعني الإشارة إلى مكة بأي حال من الأحوال(*) .

(١٩) وبخصوص ما ذكره نونوسوس Nonnosus على سبيل المثال، فهو عبارة عن نبذة صغيرة ذكرت لدى فوتيوس Photius ، وما ورد ذكره هو عن معبد له أهمية كبيرة، ولكن هذا المعبد الذي ورد ذكره كان له نشاط وحيد خلال الأشهر الحرم يقف على قدم المساواة مع أسواق الحجيج الأخرى، ولذلك من المستبعد أن يكون المقصود به مدينة قائمة بذاتها تسمى مكة. (راجع Nonnosus in Photius, Bibliotheque, I,5,f).

(٢٠) راجع حاشية رقم ١٩، الفصل الخامس أعلاه .

(٢١))P.Crone and M. Cook, Hagarism, pp.171n.8, وفي On the Continuatio Arabica، وضعت مكة في مكان "ابراهيمي" بين أور وحران، وفي حولية كوزيستاني Khuzistani chronicle and Bar Penkaye, p. 176, n.48 فشل في إعطاء اسم لها.

(٢٢) Ibid., p.173,no.30

(٢٣) Simon, "Hums et Ilaf," p.226

(*) ذكر بطلميوس (ت حوالي منتصف القرن الثاني الميلادي) مدينتي جيابوليس Geapolis وماكورابا .Makoraba أما أميانوس (ولد ٣٣٠م) فقد ذكر جيابوليس ومدينة هيرابوليس (Hierapolis أي المدينة المقدسة)، ولما كان الاثنان قد ذكرا جيابوليس فهذا ينفي تماما أن أميانوس قد قام بترجمتها خطأ إلى هيرابوليس، ولكنه ذكر مكة باسمها الذي عرفه في عصره وهو المدينة المقدسة (هيرابوليس)نظرًا للفارق الزمني بينه وبين بطلميوس والذي بلغ حوالي قرنين ونصف من الزمان والذي كان فيه الرومان قد اقتربوا منها.راجع تعليق ص٢٢٦-٢٢٨ . (المترجمة)

(٢٤) راجع .Shahid, "The Arabs in the peace treaty" pp.192.f

(٢٥) روى كيستر Kister هذه القصة فى "p.121, "Mecca and Tamim الدور الذى لعبته قريش كمعرب خُلص للحط من قدر الغساسنة ، ولكن ذلك لا يعكس شيئًا عن المنافسة التجارية .

(٢٦) الأزرقى، مكة،ص٣٧٥ ، رواه مجاهد (قتلوا غزالا فى الحرم).

(٢٧) المرجع السابق، ص١٠٧ .

(٢٨) الأغانى، ج ١٨ ، ص١٢٣؛ ابن حبيب، المنمق، ص٥٣ .

(٢٩) كما سبق ذكره من قبل ، وحصل أبو طالب على جَرّة من أحد يهود نجران اعتاد أن يتاجر فى سوق تهامة، (ابن حبيب، المنمق، ص٩٤)، وهو اليهودى الوحيد الذى لم يتنبأ بظهور النبى [ﷺ]. وكان هناك يهودى يقيم فى مكة للتجارة عندما ولد محمد [ﷺ] ، وكان يعلم تماما عن مستقبل نبوته (ابن سعد، ج١ ،ص١٦٢). أما العبارة التى وردت لدى الماوردى، (أعلام، ص١٥٣) فقد حذف منها التجارة . وهناك يهودى من تهامة كان يتاجر مع مكة أو اليمن أخبر عبد المطلب بنبوة محمد [ﷺ] ، (القلعى ، الاكتفاء ، ص٢٤٠ وما يليها ؛ أبو النعيم، دلائل، ص١٢٢).

(٣٠) الواقدى، المغازى، ج٣، ص٩٨٩ وما يليها، ص١٠٥١؛ ابن هشام، السيرة، ص٩١١

(٣١) كانوا يعرفون أحيانا باسم الساقطة وأحيانا أخرى باسم ضا فيطا وكانوا يحملون الدرمك (darmak الدقيق الممتاز) والزيت للمدينة طبقا لما ذكره الواقدى ، المغازى، ج٣،ص٩٨٩ وما يليها ، حيث اشترى رفاعة بن زيد الدرمك منهم (البلاذرى، أنساب، ج١، ص٢٧٨؛ كما رواه ابن الأثير، أُسد،ج٤،ص٢٦٢، وفى مجموعات الحديث). وجاء ذكر لسورى با ع الزيت فى المدينة ذكره (ابن حنبل، المسند، ج٤،ص١٩١)، وعن النبط أو عن أنباط أهل الشام وبيعهم القمح والزيت فى المدينة فى عصر الرسول [ﷺ] راجع: البخارى، رسائل،ج٢،ص٤٥ وما يليها (بينما تذكر الرواية الأولى الزبيب بدلا من الزيت)؛ راجع ، المرجع السابق، ص٧ ، وعن "سوق النبط" فى المدينة راجع الواقدى، المغازى، ج١، ص٣٩٥ .

(٣٢) الواقدى، المغازى، ج١،ص٤٠٣؛ محمد بن يزيد المبرد، الكامل، ص٢٠٢ وما يليها حيث يوجد عرب بين السواقط . وعن تحديد معنى اصلاح سواقط راجع ..Lane, Lexicon.S.V

(٣٣) ابن الأثير، أسد، ج٢، ص٣٨٢؛ ابن حجر، الإصابة، ج٣، ص١٥٧، رقم ٣٦٢٩ سايمونا .Saymuna

(٣٤) عبد الرزاق، مصنف ، ج٥، ص٣١٧ .

(٣٥) راجع حاشية رقم (٩) الفصل الرابع أعلاه. ذكرت إحدى الروايات فى تفسير السورة رقم (٢)، آية ٢٥٧ ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(*) أن أحد الأنصار وكان يدعى حصين أو حصينى أو أبو الحصين -Abu al Husayn كان له ولدان تحولا إلى الديانة المسيحية على يد تاجر سورى فى المدينة ، وكان السوريون يبيعون الزيت أو الزبيب أو المواد التموينية بصفة عامة ، الواقدى، أسباب، ص٥٨ وما يليها؛ ابن كثير، تفسير،ج١، ص٣١٠ وما يليها؛ ابن حجر، إصابة، ج٢، رقم ١٧٥٣، تحت اسم حصينHusayn .

(*) وصحة رقم الآية هو ٢٥٦ . (المترجمة)

(٣٦) وعن القوافل السبع التي كان من المفترض أن تصل إلى يهود المدينة من بصرى وأذرعات خلال يوم واحد، راجع الحاشية المذكورة في الفصل الرابــع ، رقم (٣٧). ولاحظ أيضًا أن ابن سنينة Sunayna أو ابن سبينة Subayna كان تاجرا يهوديا في المدينة طبقا لما ذكره ابن هشام ، السيرة، ص٥٥٣، (راجع، المغازي، ج١، ص١٩٠ وما يليها) حيث لم يذكر لنا أنه كان تاجرا. وذكر البلاذري أنه قام بشراء سلمان الفارسي من هناك (البلاذري، أنساب، ج١، ص٤٨٦).

(٣٧) ابن سعد ، طبقات ، ج١، ص١٦٥ .

(٣٨) راجع الفصل الرابع ، رقم ٣ ، ٥ ، ٩ . وعن تجارتهم في الكحل Kohl راجع: Goldziher, "Huteja" p.185,

(٣٩) وجدت أعداد كبيرة من الملابس والثياب اليمنية في خيبر بعد فتح المسلمين لها (الواقدي، مغازي، ج٢، ص٦٦٤)، وعن السوق راجع، ابن حبيب، المحبر، ص٢٦٨؛ المرزوقي، الأزمنة، ج٢، ص١٦١، ص، ١٦٥ لاحظ أيضًا الغساني الذي فر إلى الحيرة بعد أن قتل أحد رفاقه في القبيلة وتظاهر بأنه أحد تجار خيبر(القلعي، إماطة، ص١٧٩).

(٤٠) البلاذري، فتوح، ص٥٦ .

(٤١) راجع الفصل الخامس حاشية ٦٠ وما يليها أعلاه : (كان المغيرة بن شعبة يتاجر مع قرشيين في مصر)، وفي حاشية رقم ٧٦ (كان أبو سفيان يتاجر مع أمية بن أبي الصلت)، وفي رقم ١٢٠ : (كان أبو سفيان يقود إحدى قوافل قريش وثقيف للعراق). وعن الرجل الغامدي الذي أقام في الطائف للتجارة راجع ابن حجر، إصابة، ج٣، ص٢٤٠، رقم ٤٠٤٩، مادة صخر بن وَدّعي.

(٤٢) الواقدي ، مغازي ، ج١،ص٣٩٥ ، الذي يعرف هنا من المعلومات أكثر مما عرفه ابن إسحاق ، راجع ابن هشام ، السيرة، ص، ٦٦١

(٤٣) يهود في سوريا : ابن سعد ، طبقات، ج١،ص١٦١؛ أبو نعيم، دلائل، ص٧٠؛ يهود في المدينة: ابن حجر،الإصابة، ج١، ص٢٧٥، رقم ١٢٧٥، ١٢٩٧ مادة جندبة بن سلام .

(٤٤) C.J. Kraemer, Jr., ed. And tr. Excavations at Nessana, No.89 وتتمثل قائمة البضائع الكاملة التي قاموا بتسليمها في : المنسوجات الصوفية ، والملابس، والمنسوجات ، والحديد ، والجمال ، والحمير، والخيول، والشعير، والقمح، والزيت ومواد تموينية أخرى. وطبقًا للرواية الإسلامية فيبدو أنهم ذهبوا أبعد من ذلك مثل الأنباط والسواقط Sawaqit وما شابه ذلك .

(٤٥) Shahid "The Arabs in the Peace Treaty", pp.188f. تعد مقدمة هذا البحث واحدة من أكثر المقدمات ذكاء للتأكيد على الرأي التقليدي لتجارة مكة. راجع أيضًا J. Wellhausen, Reste arabis-chen Heidentums, p.92 . يبدو أنه بعد سقوط مملكة حمير أصبحت مكة في أكبر وأقوى مدينة في بلاد العرب .

(٤٦) راجع :عن أبرهة Procopius, Wars, I, 19, 14; 1, 20,9 ؛ راجع الفصل الثاني عن الفرس .

(٤٧) Watt, Muhammad at Mecc, p.13; Hitti, Capital Cities,p.9.

(٤٨) راجع الفصل الخامس حاشية رقم ١٠٧ أعلاه .

(٤٩) ابن قتيبة، تأويل مُشكل القرآن، ص٣١٩ .

(٥٠) Shahid "Two Quranic Suras", pp. 435f.

(٥١) M.J. Kister, "The Campaign of Huluban", pp.429f. حيث أعـاد نشـر نـص البـلاذرى في (الأنسـاب) ، ملف ٨١١ (أ). ولقـد ذكـره سـيـمـون Simon لأول مـرة في بحـثـه "Hums et Ilaf",pp.221f)

(٥٢) Simon, "Hums et Ilaf," pp. 222f.

(٥٣) راجع: البلاذرى ، أنساب، ج٢، ص١٢؛ الأغانى، ج١٧، ص٢٨٧ وما يليها؛ ابن حبيب، المنمق، ص٤٥ وما يليها، ص٢١٧ وما يليها؛ اليعقوبى، تاريخ، ج٢، ص١٦ وما يليها؛ الجاحظ ، الرسائل، ص٧١ وما يليها؛ ابن أبى الحديد، شرح، ج٣، ص٤٥٥ وما يليها؛ القلعى، الاكتفاء، ص١٤٦ . وعادة كان التاجر يمنى من بنى زبيـد (زيد لدى القلعى) أو سعد العشيرة ؛ وهنـاك اقتراح آخر بأنه ربما يكون غير عربى (من الحبشة). ويذكر اليعقوبي أنه من عرب الشمال. ويؤرخ الحادثة بالإشارة إلى عمر الرسول [ﷺ] في ذلك الحين: حيث كان فى العشرين، أو فى العشرينات من عمره .

(٥٤) البلاذرى، أنساب، ج٢، ص١٢ وما يليها؛ الأغانى، ج١٧، ص٢٩٧؛ ابن حبيب، المنمق، ص٤٧ وما يليها، الجاحظ، الرسائل ، ص٧٣ .

(٥٥) راجع المرزوقى، الأزمنة، ج٢، ص١٤٦ .

(٥٦) ابن حبيب، المحبر، ص٢٦٤ ، مع الإشارة إلى موضوع حصانة قريش بين المُضريين ، وقد تطور هذا الموضوع بطريقة مختلفة فى الرواية المرادفة لذلك لدى المرزوقى ، الأزمنة ، ج٢، ص ١٦٢.

(٥٧) راجع الفصل الرابع حاشية رقم (٧٨). وعن اليمنيين فى أيلة راجع الفصل الثانى حاشية رقم (١٣٦) .

(٥٨) راجع الفصل الخامس ، ص١٧١-١٧٣ .

(٥٩) راجع.. EI2, s.v. Kuraysh (watt).

(٦٠) Watt, Muhammad at Mecca, pp.14f.; Simon, Hums et ilaf, pp.227f.; Shahid, "The Arabs in Peace treaty," p.191n; EI2, S.V. Fijar (fuck).(*) كان النبى يبلغ الرابعـة عشـرة أو السابعة عشرة أو العشرين أو الثانية والعشرين من العمر فى ذلك الوقت ، كما أشارت بعض الروايات إلى أنه كان أصغر عمرا (راجع E.landau- Tasseron, "The Sinful Wars," Religious, Social and Historical Aspects of Hurub of Fijar).

(٦١) وذكر فى مكان آخر أن أحداث هذه القصـة وقعت فى المدينة ، وفى تفسير طرد بنى قـينقـاع (راجع Watt, Prophet and Statesman, p.130).

(٦٢) وعن صورة حية للحياة فى عكاظ تتضمن مراحل حرب الفجار راجع Wellhausen, Reste, pp 88 ff. وقد وردت أهم أحداث الحرب فى المصادر التالية: ابن حبيب، المنمق، ص١٨٥ وما يليها؛ الأغانى، ج٢٢، ص٥٤ وما يليها؛ البلاذرى، أنساب، ج١،ص١٠٠ وما يليها، ويوجد مصادر أخرى قام بتحقيقها لانداو وتاسيرون Landau - Tasseron, "Sinful Wars" .

(*) وردت فى الكتاب Fidjar وصحتها Fijar . (المترجمة)

(٦٣) Watt, Muhammed at Mecca, p.11 ومما لا شك فيه أنه كان يعرف أن إقدامه على هذا العمل كان يتفق مع سياسة المكيين ، لذلك يبدو أنه تعقب نهايتها (أي نهاية القافلة)؛ راجع ص١٤ (إن حقيقة قيام أحد حلفاء قريش بالهجوم الخاطف على قافلة تتجه من الحيرة إلى اليمن (خطأ) كان يعني أن يحاول المكيون إغلاق هذا الطريق أو القيام بفرض نوع من السيطرة عليه). وسبق أن ذُكر أن النعمان اعتاد إرسال قافلة لعكاظ سنويا، وهذه كانت واحدة منها ، الأغاني، ج٢٢، ص٥٧؛ البلاذري، أنساب، ج١،ص١٠١؛ ابن حبيب، المحبر، ص١٩٥؛ المنمق، ص١٩١؛ ابن سعد، طبقات، ج١،ص١٢٦ وما يليها. قارن ذلك بما ورد في اليعقوبي، تاريخ ، ج٢، ص١٤؛ ابن حبيب، المنمق، ص٤٢٨ وما يليها؛ Kister, "Hira," p.154 عن النعمان وسوقه .

(٦٤) يوجد ذلك لدى ابن حبيب، المنمق، ص١٠٩، والمحبر، ص١٩٥ .

(٦٥) لقد وضع اسمه في قائمة ابن حبيب تحت عنوان "فتّاك الجاهلية" Futtak al-Jahiliyya في ابن حبيب، المحبر، ص١٩٢، ١٩٥، وقارن ذلك بما ورد لدى الثعالبي ثمار، ص١٢٨, وبطبيعة الحال فإن هذا هو السبب في عبارة وات المتحفظة. (الحاشية رقم ١٦٢ أعلاه).

(٦٦) وعندما تطوع بقيادة القافلة واجهه قائلا أنه : "كلب خارج على القانون".

(٦٧) Landau- Tasseron, "Sinful Wars" .

(٦٨) Watt, Muhammad at Mecca,pp.14f.; Simon, "Hums et Ilaf", p.227.

(٦٩) وقام سيمون بنفس الشيء، وعلى سبيل المثال ليس فقط فيما يخص حرب الفجار، ولكن أيضًا عند مناقشته للقافلة الفارسية التي سلبها أحد أفراد تميم.Hums et Ilaf", P.227 n

(٧٠) راجع : Kister, Hira, pp.154ff.; Landau- Tasseron, Sinful wars, n.60 (B.Amir;) ابن حبيب ، المحبر، ص١٩٥ وما يليها؛ اليعقوبي، ج٢، ص١٤ وما يليها . بلعاء بن قيس زعيم الليث ، الذي بدأ بالسطو على قوافل النعمان بعد أن قتل الأخير أخاه؛ Segal, Arabs in Syriac literature, p.108, (الثعالبي من الجانب البيزنطي للصحراء السورية حيث أغار على قافلة النعمان).

(٧١) وأختلف هنا مع لانداو- تاسيرون Landau- Tasseron الذي يرفض تفسير وات لحرب الفجار وليس للفكرة القائلة بأن قريشا كانت تحاول فرض سيطرتها على طريق العراق. ويتمثل العامل الرئيس في هذا التفسير في أن ابن عُمير قد سبق وأغار مرة أو عدة مرات على قوافل النعمان، مما يفترض معه جدلا أن ابن عُمير قد قام بهذا العمل بالاتفاق مع قريش ، وكان الهدف من ذلك الاعتداء هو إرغام النعمان على منح ابن عُمير حق حراسة قوافله. وعن طريق منح هذا الحق لقبيلة صديقة كان يمكن فقط لقريش أن تحرز السيطرة على هذا الطريق، ولكن بغض النظر عن هذا الافتراض المبالغ فيه، فإن هذا الرأي ليس له معنى. فمن المحتمل أن ابن عُمير كان يهدف للحصول على حق حراسة قوافل الحيرة، ولكن لماذا ساعدته قريش في هذا المجال؟ وإذا افترضنا أن قريشا كانت تهدف لإحراز السيطرة على هذا الطريق بمعنى أنه إذا كانت هذه البضائع التي تنقل على الطريق تؤول للقرشيين بوصفهم منافسين للحيرة أو لقوافل أخرى، أو لم يكن هناك منافسة على الإطلاق. الواقع لم يكن هناك ثمة فارق كبير بالنسبة لقريش إذا كان لقبيلة

أو لأخرى حق حراسة قوافل منافسيهم ، فقد كان يمكن لقوافل قريش أن تعبر أراضى ابن عُمير بغض النظر عما إذا كان ابن عُمير يقوم بحراستها من عدمه ، وإذا كان ابن عُمير يريد القيام بالحراسة فلم يكن فى استطاعتهم أن يساعدوا قريشا فى جهودها المبذولة لإيقاف قوافل الحيرة .

(٧٢) راجع الفصل الرابع، ص١٦١– ١٦٣ من الترجمة .

الفصل السابع

أين وجدت التجارة المكية ؟

ماذا يمكننا أن نقول لصالح تجارة مكة ؟ من الواضح أن تلك التجارة كانت محلية ، وأكثر من ذلك كانت تجارة عربية ، أى أنها كانت تجارة تشمل كل العرب ، ولدت معهم أكثر من كونها جاءت لتلبية الاحتياجات الأجنبية ، ولكن من الصعب أن نتعرف على طبيعتها بالتحديد بسبب المشاكل الصعبة التى تحيط بها ؛ فكيف يمكن لتجارة من هذا النوع أن تقترن بمركز تجارى يقع فى مكة ؟

كانت تجارة مكة تجارة محلية ، بمعنى أن بضائعها كانت عربية الأصل ، ويتم استهلاكها فى بلاد العرب ذاتها أو مباشرة مع الخارج . وصورت بعض المصادر معاملات المكيين على أنها تجارة تصدير حملوا فى مقابلها سبائك الفضة فى طريق عودتهم ، بينما صورتها مصادر أخرى على العكس من ذلك باعتبار أنها كانت تجارة استيراد وفيها حملوا سبائك الفضة إلى سوريا[١]. ولكن أيا كانت طبيعة دور سبائك الفضة في صناعتهم، فإن أغلب المصادر تصور المكيين على أنهم يقومون ببيع البضائع فى سوريا وأماكن أخرى بقصد العودة ببضائع مقابلة فى طريق عودتهم ، وفى حقيقة الأمر فإننا نتساءل عن البضائع التى كانوا يقومون ببيعها فى الحبشة فيما عدا الجلود[٢]، ولا نعرف نوع البضائع التى كانوا يقومون ببيعها لليمن فيما عدا الحمير . ولذلك لربما كان فى استطاعتنا أن نسقط الحبشة من تجارة مكة (وأيضًا قريش) ، ولكن لدينا معلومات أكبر عن صفقات قريش مع اليمن ، كذلك فإننا نعرف أنهم باعوا فى سوريا الجلود الخام والإهاب(*)، وبضائع جلدية مختلفة ، وملابس ، وربما أيضًا

(*) الإهاب يعنى الجلد المدبوغ ، راجع ص١٧٥ من الترجمة . (المترجمة)

الحيوانات والسمن في إحدى المناسبات إضافة إلى العطور . وتصنف هذه البضائع السابقة من وجهة نظر العصر الحديث على أنها ما يزيد عن حاجة الاستهلاك المحلى لمجتمع الرعاة وسكان الجبال[٣] .

ويمكن للمرء أن يتعرف بسهولة على نوع البضائع التى كان يحملها تجار مكة فى طريق عودتهم من رحلاتهم . فقد عرفنا أنهم استوردوا من سوريا ومصر الملابس الفاخرة والثياب[٤] والأسلحة[٥] والحبوب[٦] وربما الزيت[٧] والفاكهة[٨] والعطور فى إحدى المناسبات[٩]. وحصلوا بالمثل من اليمن على الملابس الفاخرة والثياب[١٠]، وأخيراً العبيد من الحبشة[١١]، إضافة إلى السيوف الهندية[١٢] ، وربما بعض المواد الغذائية[١٣]. ومما لاشك فيه أنهم أحضروا من هناك العطور التى كانوا يقومون ببيعها أحياناً فى الخارج، ولما كان من غير المعروف نوعية المتاجر التى كانوا يقومون بإحضارها للحبشة[١٤] ، لذلك يجب إسقاطها من تجارة مكة . إن مثل هذه المعلومات لا تترك مجالاً للشك فى أن وارداتهم كانت تمثل احتياجاتهم ، وبضائع الترف المحدودة التى كان سكان العربية يحصلون عليها عادة من حافة الهلال الخصيب وبعض الأماكن الأخرى، ولكن ليست هى بضائع الترف التى يذكر لامينز (Lammens) أنهم كانوا يجهزونها ، لكى يقوموا بالتجارة فيها مع الخارج[١٥]. وباختصار لقد قام المكيون بمبادلة بضائع المجتمع الرعوى مع هؤلاء الذين يقطنون فى المجتمعات الزراعية التى كان يمكنهم الوصول إليها، وهو العمل نفسه الذى كان يقوم به سكان حائل فى القرن التاسع عشر الميلادى. إن سكان دولة ابن الرشيد طبقاً لما ذكره موسل (Musil)، كانوا يرسلون أربع قوافل على الأقل سنويا للعراق محملة بالصوف وشعر الماعز وشعر الجمال والسمن، ودهن الجمال، وسروج الجمال وهكذا. وكثيراً ما كان تجار الجمال والأغنام والماعز يصاحبون هذه القوافل ويقودون الحيوانات التى اشتروها للعراق ، ومنها كانوا يتجهون على طول الفرات إلى سوريا، إضافة إلى البدو الذين كانوا يبيعون حيواناتهم هناك والذين كانوا يحصلون منها على ما يحتاجون إليه من مواد غذائية وملابس[١٦]. إن الوصف الذى قدمه موسل عن حائل وتجارتها مع العراق يشبه إلى حد كبير ما وصفته المصادر بالنسبة لسوريا، وهو يمثل بطبيعة الحال النشاط الذى كان يمارس فى شبه الجزيرة العربية منذ أن عاش فيها الرعاة .

وعلى ذلك فإن تجارة مكة خلقتها احتياجات العرب ، وليس لتلبية الرغبة التجارية للإمبراطوريات المحيطة بهم ، لذلك تعامل التجار المكيون فى داخل بلاد العرب نفسها أكثر من تعاملهم مع خارج حدودها[١٧] . ولم تكن بلاد العرب تعنى لهم تحديداً نهاية الطرق التجارية الطولية فقط ، ولكنها تعنى كل منطقة يمكن أن تتجمع فيها تجارتهم ، لذلك فإنهم نشطوا فى غرب العربية من نجران وحتى حدود سوريا الجنوبية والصحراء السورية ، حيث كانوا يزورون دومة الجندل[١٨] ، وربما كانوا يتجهون منها بين الحين والآخر لزيارة الحيرة ، وربما يفسر لنا هذا سبب جهلهم بطريق العراق من مكة من جهة[*]، وحقيقة معرفه الأمويين بأحوال سوريا التى كانوا يقومون بزيارتها من ناحية أخرى، وعلى كل الأحوال فقد كانت أهم أسواقهم التجارية توجد فى غرب بلاد العرب والتى كانت تعقد سنويا خلال الأشهر الحرم فى عكاظ[١٩] ، وذى المجاز (Dhu'L - Majaz)[٢٠]، ومجنَّة (Majanna) ومنى (Mina)[٢١]، وهذه الأسواق جميعها تقع بالقرب من الطائف ومكة. كذلك عرفنا أنهم زاروا أسواقًا أخرى فى المنطقة مثل سوق "بدر" شمال مكة[٢٢]، وسوق "حباشة" فى الجنوب[٢٣] . بل لقد زارو أسواقًا بعيدة مثل رابية (Rabiya) فى حضرموت[٢٤] ويبدو أنه لم يكن لهم تجارة واسعة فى وسط ومشرق بلاد العرب[٢٥]، ولذلك لم نقابل أحداً من القرشيين فى اليمامة إلا نادراً[٢٦]. وادعت إحدى الروايات أن المكيين كانوا يحصلون من اليمامة على مواد غذائية بانتظام ، ولكن يبدو أنها فى أغلب الظن غير صحيحة[٢٧]. لقد كانت منطقة وسط وشرق بلاد العرب تمثل حلقة وصل تجارية مع العراق فى هذه الفترة والفترات التى أعقبتها، وكل ما نعرفه عنها يرجع الفضل فيه لوجود الفرس هناك[**].

إن المصادر تصف نشاط المكيين فى منطقة تمتد من سوريا وحتى حدود اليمن ، إلى جانب نوع من التوسع الغامض فى حضرموت فى الشرق والحبشة فى الغرب . تلك هى حدود شبكتهم التجارية الوحيدة ، وليس فى مناطق سوريا واليمن والحبشة

(*) راجع ص٢١٦-٢١٩ والتعليق المذكور أدناها . (المترجمة)

(**) راجع الحاشية المذكورة فى ص٢٥٠ أدناها . (المترجمة)

والعراق ، أو بمعنى آخر الدول التي كانت تحيط بغرب بلاد العرب نفسها أي غرب بلاد العرب فقط. وحقيقة إن أجزاء من هذه المساحة كان قد تم إلحاقها بالإمبراطورية البيزنطية، والإمبراطورية الفارسية ، لذلك ينبغي علينا أن نسقطها من حسابنا ، لأن قريشاً لم تتاجر مع سوريا ، ولنترك الساسانيين في العراق جانبا ، فقد تاجروا مع سوريا أو بتحديد أكثر تاجروا في سوريا وأحيانًا في العراق ، لأن جنوب سوريا والحيرة يعدان جزءاً من بلاد العرب من كل جهة فيما عدا جهة واحدة .

وإذا نظرنا لهذه المساحة على اعتبار أنها تمثل وحدة واحدة ، فسوف نلاحظ أن تجارة مكة لا تظهر كما لو أنها كانت تجارة تصدير أو استيراد وتوزيع في مناطق مختلفة من بلاد العرب نفسها . إن منطقة جنوب سوريا وحافتها المصرية تعد بلا شك أهم مجتمع مستقر اقتصاديا في المنطقة ، ولكنها كانت ولا تزال ينظر إليها على أنها جزء من بلاد العرب، أما المنتجات الزراعية التي استخدمها المكيون فقد كانت تأتي من اليمن والطائف[٢٨]. وبالمثل فإن المكيين لم يبيعوا لسوريا ومصر المنتجات الرعوية فقط، ولكنهم بادلوا مثل هذه البضائع مع شبه جزيرة العرب أيضًا[٢٩]. وإذا كان المكيون يعدون هم تجار كل العرب كما يصر على ذلك ابن الكلبي[٣٠] ، فقد كانوا تجار العرب بمعنى الذين يقومون بمدهم باحتياجاتهم، وفي الواقع فإن هذه الصورة هي التي قدمها عنهم كل من ابن الكلبي وقصة الإيلاف والتي تعكسها مرآة تجارة مكة في أواخر فتراتها ، وذُكر لنا أن أحدا لم يتعود من غير العرب القيام بمهمة تزويد مكة بالطعام حتى تولت قريش هذه المهمة إلى أن تسلمها غير العرب . وبطريقة أخرى ، فقد رأينا أن التجارة عبارة عن النشاط الذي قاموا به حلاً لمشكلة واجهها العرب وهي تزويد مكة بالمواد الغذائية – وكانت كل من سوريا واليمن والحبشة والعراق تمثل تحديداً الأماكن التي كانوا يحصلون منها على احتياجاتهم من المواد الغذائية، ولم تكن تمثل حلقات في شبكة تجارية كاملة . إن مثل هذه الأقوال تعبر عن نعرة قومية أو من وحي القرآن بطبيعة الحال[٣١]، ووافقت عليها الروايات بصفة عامة . إن المصادر لم تكن تعلم شيئًا عن ماهية الاحتياجات الإمبراطورية التي كان يمكن لقريش استخدام الفرصة لتحقيقها من بين العرب عامة والمكيين خاصة . وإذا كان هناك ثمة صدق في المصادر

فإن المكيين هنا كانوا يلعبون دوراً مشابها لسكان حائل أو للعَقَّال (Uqayl). كان جميع تجار الجملة يستخدمون وكلاء يعرف الواحد منهم باسم العَقَّال ويقوم العقَّال بتصدير الجمال لسوريا ومصر، وبدرجة أقل للعراق ، نظير استيراد القهوة والأرز والتوابل والأسلحة مقابلها، ثم القيام بتوزيعها بين العرب من خلال مركزهم في القصيم[٣٢]. وهكذا كانوا مثل تجار حائل هم تجار كل العرب. إن البضائع التى كانوا يقومون بتصديرها لم تكن شيئًا نادراً أو غاليًا في ثمنه ، كما أن ما قاموا باستيراده لم يكن بالتأكيد من بضائع الترف ، وبالتالى لا يقدر لمثل هذا النشاط أن يضفى عليهم الثراء. وعندما يفكر المرء فى تجارة قريش ينبغى عليه أن يدرك أنها لم تكن تشبه التجارة المعينية أو السبئية التى ذكرناها، والتى كانت ذكراها ما تزال عالقة فى الأذهان ، ولكن دورها كان أقل من دور الجمهوريات الإيطالية التجارية[٣٣] .

وينبثق من هذه النهاية سؤالان آخران : **الأول** هو وضع قضية سيادة مكة التجارية فى مكانها ، وكما سبق أن رأينا أنه لم يكن للمكيين فضل فى السيطرة على أى من الطرق فى شبه الجزيرة العربية ، ولكن هل هذا يعنى أنهم كانوا يسيطرون على تبادل البضائع فى بلاد العرب نفسها؟ وبطبيعة الحال فإنه كان من غير المستطاع قيامهم بذلك فى كل أنحاء بلاد العرب ، كما لم يستطع أى شعب تجارى أن يقوم بذلك[٣٤]. وكما سبق ورأينا أن قريشًا لم تعتد القيام بأى نشاط تجارى فى وسط وشرق بلاد العرب . ويتساوى فى ذلك حقيقة كونهم قد تعايشوا مع تجار بيزنطيين، ويمنيين ، ويهود، وعديد آخرين فى غرب بلاد العرب نفسها فإن ذلك يعنى أنه من الصعوبة بمكان أن نرجع الفضل إليهم فى إحراز سيطرة مثل تلك التى كانت تحظى بها حائل ، فى أن يكون لها مكان مرموق فى مجال عموم تبادل المنتجات الرعوية والزراعية فى أقاليم معينة ، ومن الصعب أيضًا أن نرجع لهم الفضل فى إحراز سيطرة مثل تلك التى تمتع بها العَقَّالون (Uqayl) الذين كانوا يسيطرون على تجارة الصادرات فى نوعية خاصة من البضائع (الجمال) فى كل أنحاء، أو أغلب أنحاء شبه الجزيرة : وبما أن المكيين لا يبدو أنهم قاموا بتسليم اليمنيين المنتجات الجلدية[٣٥]، فإن سيطرتهم على مثل هذه التجارة كانت محدودة وخاصة بشمال غرب الجزيرة العربية ، ولذلك ينبغى أن نصوغ

السؤال على النحو التالى: هل كانوا يسيطرون على تبادل البضائع فى أسواق الحجيج فى ذلك الإقليم[٣٦]؟ وهنا نلاحظ أيضًا أن الأدلة على ذلك غير مقنعة .

لقد جرت العادة على إظهار المكيين أنهم يسيطرون على هذه الأسواق ، وفى حقيقة الأمر، فإن هذه الأسواق كثيرًا ما وصفت بطريقة تجعل القارئ العادى يظن أنهم كانوا يمتلكونها ، ولكنهم فى حقيقة الأمر لم يكونوا كذلك . كانت هذه الأسواق عبارة عن تجمعات تعاونية فيها مخاطرة، وتقع فى أقاليم عدة قبائل (جميعهم غير قرشيين)، ولم تكن تخضع لأى سلطة ، وكانت مناطقها خالية من السكان المقيمين فيها بصفة دائمة[٣٧]. وفى الأشهر الحرم عندما يُحَرَّم استخدام السلاح كان يأتى إليها أعداد كبيرة جميعهم من رجال القبائل حجاجًا وتجارًا[*]: وكانت عكاظ على سبيل المثال تجتذب الزائرين من قريش وهوازن وخزاعة (Khuza'a) وغطفان وأسلم وآخرين[٣٨]، وقد علمنا أن الأسلحة كانت توضع لدى قريش فى عكاظ ، وهذا يعنى أن قريشًا كان لها مكانتها هناك[٣٩]. وكذلك كانت تميم التى توارثت العمل فى ميدان القضاء[٤٠]، ولكن القول بأن هذا العمل آل إليهم بفضل سماح قريش لهم وليس بسبب القبول العام فإنه رأى غير مقنع[٤١]. إن هذه القصة بصرف النظر عن وجهة النظر القائلة بأن قريشًا قد تمتعت بأهمية خاصة فى أسواق الحج ظهرت بشكل كبير فى حقيقة أن أسواق الحجاج لها أهمية خاصة لديهم، ولكن الأمر لم يكن كذلك[**]. فمن الطبيعى أن نسمع الكثير عن قريش فى هذه الأسواق أكثر مما نسمعه عن المشاركين الآخرين، لأن قريشًا هى التى خرج منها النبى [ﷺ]، غير أن مندوبى نعمان الحيرة كانوا يقومون ببيع بضائع العراق فى عكاظ، ويقومون بشراء بضائع يمنية فى مقابلها[٤٢]. وربما كان القرشيون هم الذين قاموا بحمل البضائع اليمنية هناك ، على الرغم من أن أحدًا لم يخبرنا بذلك . كما عرض آخرون فى هذه الأسواق بضائع مثل الجمال والماشية[٤٣]

(*) لقد سبق أن قمت بإثبات أن التجارة كانت تسبق الحج فى المواسم ، ولذلك يجب أن تكون صياغة العبارة الأخيرة على النحو التالى :" كان يأتى إليها أعداد كبيرة جميعهم من رجال القبائل تجارًا وحجاجًا". (المترجمة)

(**) راجع تعليق المترجمة ص٢٤٨ وما يليها . (المترجمة)

والأسلحة[٤٤]، والعبيد[٤٥]، والمعادن النفيسة[٤٦] والسمن[٤٧]، ومن الصعب الاقتناع بأن تجارة الجلود والنبيذ في سوق عكاظ كانت في يد قريش وحدها[٤٨] . إن المرء ليس لديه الإحساس بأن أسواق الحجيج كانت ستفقد أهميتها لو انسحبت قريش منها . ومما لا شك فيه أن هذه الأسواق قد قدر لها الاستمرار فى عصر الفتوحات، ولكنها بدأت في الذبول ولم تعد تستخدم في أواخر العصر الأموى[٤٩]. وفيما سبق عرضه لا يتضح لنا أن قريشا كانت تسيطر على عملية توزيع البضائع السورية والمصرية فى هذه الأسواق أو فى الأسواق الأخرى فى بلاد العرب[٥٠]. أما بخصوص إمكانية سيطرتهم على تجارة الجلود فى الشمال، فإننا لا يمكن قبولها أو لا نقبلها على نحو مؤكد .

أما السؤال **الثاني** وهو على جانب كبير من الأهمية فهو:كيف تمكنت قريش من العمل في تجارة من هذا النوع الذى اختصت به من مكة ؟ إن تبادل المنتجات الرعوية لهؤلاء المستقرين فى المجتمعات الزراعية يتم عادة بين المجتمعات التى تقع على بعد مسافات مناسبة لبعضها ، مثل حائل والعراق ، أو بين المجتمعات المستقرة والبدو الذين يقيمون فى مناطق بعيدة ، ولكنهم يزورون هذه المجتمعات المستقرة بانتظام خلال دورة هجراتهم. ولكن المسافة التى تفصل بين مكة وسوريا تبلغ حوالى ٨٠٠ ميل، كما أن المكيين لم يكونوا بدوا ، إضافة إلى أن البضائع التى كانوا يقومون ببيعها هناك كان من المتاح الحصول عليها فى سوريا نفسها. وباختصار فقد وصف المكيون بأنهم كانوا يذهبون إليها فى رحلات منتظمة ولكنها شاقة يبلغ طولها شهراً – لكى يقوموا ببيع الفحم فى نيوكاسل – حيث يقومون ببيع بضائع من المفترض أن يكون سعرها أقل من البضائع المحلية ، ثم يعودون ببضائع من المنتجات المحلية أجود من تلك التى قاموا ببيعها . وهو الأمر الذى يصعب فهمه فى واقع الأمر .

حقيقة لقد عُرف أن سكان العربية قبل اكتشاف البترول كانوا يتكبدون مشقة السفر لمسافات طويلة من أجل مكسب زهيد[٥١]، ولدينا مثال على شعب تجارى قام بالعمل نفسه على وجه التحديد وهم العَقَّالون ، الذين كانوا يجمعون جمالهم من جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية ليقوموا ببيعها فى دمشق وغيرها من الأماكن[٥٢].

لقد تخصص العَقَّال في نوع من البضاعة كانت متوفرة في سوريا أيضًا ، وحقيقة أنهم كانوا يستطيعون القيام بذلك يدل على أن نفقات الانتقال كانت رخيصة: فإذا كان العَقَّال يستطيع القيام بمثل هذا العمل فلماذا لم تكن قريش قادرة على القيام بنظيره ولكن في بضاعة الجلود والمنتجات الجلدية؟

والإجابة عن ذلك السؤال هو إن الجمال كان في إمكانها السير، بينما المنتجات الجلدية وجلود الجمال لم تكن تستطيع ذلك ، وكان العَقَّال يعمل تاجراً طوافًا ، يتجول بين القبائل كل عام ليعود بأكبر عدد من الجمال يستطيع أن يجمعها ، وفي بعض الأحيان كان يجمع أعداداً غفيرة منها إذا قام بتأجير الرعاة لمصاحبته في كل الطريق أو جزء منه ، ويبدو أنهم كانوا يفعلون ذلك كثيراً[٥٣]، ويشترك كل من البدو والتجار المتجولين في حقيقة واحدة مشتركة تتمثل في أن السفر كان يشكل لهما شكلا آخر من الحياة ، وكان هذا النشاط لا يتكلف إلا القليل ، أو بمعنى آخر لا يمثل بالنسبة لهم نفقات إضافية. لكن المنتجات الجلدية والإهاب ، ولا نذكر المنسوجات الصوفية ، كان يجب حملها، ولكن الكميات التي يمكن للفرد حملها كانت قليلة(*). وتبعًا لذلك فقد قُدِّمت قريش لنا على أنها كانت تقوم بتنظيم القوافل، كما أنها كانت تقوم بالتقاط وتجميع بعض المنتجات في طريقها ، وطبقًا لسيرة ابن الكلبي ، فإن مكة كانت هي المركز الأول لتجميع البضائع التي ستنطلق القافلة منها، ولكن تجارة القافلة تعني نفقات نقل الحمولة: لأنه بوضوح لا يمكن نقل البضائع بالقوافل دون نفقات إضافية تمثل نفقات الأفراد العاملين فيها : والحيوانات التي يتم تأجيرها، والتزود بحاويات البضائع ، وأجور السائقين، وإعداد جميع الترتيبات الخاصة بغذاء الحيوانات ، والطعام والشراب، على طول الطريق[٥٤]. ولو فُقدت إحدى القوافل لأي ظرف من الظروف تكون الخسارة أكبر بكثير مما لو فقدت القافلة أحد العَقَّاليين .

(*) كانت الجمال هي التي تحمل البضائع في القوافل وليس الأفراد، فلماذا التساؤل عن الكمية التي يمكن للفرد أن يحملها؟! هل يمكن للفرد أن يحمل بضائعه على ظهره لمثل هذه المسافات الطويلة؟! لقد بلغت حمولة الجمل حوالي مائتي كيلو جرام وهي الحمولة المعتادة في الرحلات البعيدة. راجع سحاب، المرجع السابق، ص٢٥١ . إنها بهذا السؤال تقدم للقارئ معلومة خطأ ، لكي تدفعه إلى الموافقة على ما تريد . (المترجمة)

ولدينا أمثلة على القوافل التى كانت تحمل بضائع متواضعة عبر مسافة طويلة فى العربية، فقد وجد مواطنون من عنيزة - وهى إحدى مدن القصيم فى القرن التاسع عشر - أنه أمر مربح لهم أن يحملوا السمن الذى قاموا بجمعه من البدو المحليين على طول الطريق من عنيزة إلى مكة ، وقطعوا مسافة تبلغ ٤٥٠ ميلاً وأمضوا فى رحلتهم عشرين يوماً أو أكثر فى طريقهم(٥٥). وعرفنا أنهم حصلوا على ضعفى ثمن بضاعتهم مما لو كانوا قد قاموا ببيعها محليًا. وذكر الواقدى أن المكيين كانوا يكسبون من بيع بضاعتهم فى سوريا ١٠٠٪ من ثمنها(٥٦) . فأين إذن يكمن موطن الخلاف ؟ لقد كانت الرحلة إلى سوريا أطول فى مسافتها ، وعلى الرغم من ذلك فيمكن القول إن ما قام به المكيون كان له طبيعة مختلفة .

وعلى كل فإن التطابق بينهما يسقط لسببين :

الأول : أن أهل عنيزة كانوا يخدمون السائحين فى مدينة لا تنتج شيئًا لنفسها(*)، كما أنهم كانوا يفتقرون إلى المحيط الزراعى وراءهم ، وكذلك فإن تصفية الزبدة كانت تعد سلعة نادرة فى مكة ، وكانت أسعارها لا اعتراض عليها. ولكن جنوب سوريا فى القرنين السادس والسابع لم تكن بلاداً سياحية ولا أراضى تنقصها موارد مكة والمنطقة المحيطة بها. وكان زبائن قريش فى جنوب سوريا هم رجال القبائل ، والقرويون ، ورجال المدن الذين ينتجون أغلب الأشياء التى يحتاجون إليها ، والذين كانوا فى استطاعتهم الحصول على البضائع الإضافية التى يحتاجونها من القوافل المحلية مثل قافلة الإسماعيليين المسيحيين الذين كانوا يعملون فى نيسانا (Nessana) . كما أنهم لم يكونوامضطرين لشراء البضائع الجلدية ، والسمن ، أو الملابس الخشنة ، من أولئك التجار القادمين من مسافة تبعد ضعفى المسافة عن عنيزة . لذلك من الصعب علينا القول بوجود سوق فى جنوب سوريا للبضائع المتواضعة التى تنقل من تلك المسافة البعيدة .

الثانى : أن أهل عنيزة كانت لهم قاعدتهم التجارية فى القصيم ، وهى ذلك الجزء الخصيب فى وسط بلاد العرب والذى كان يوجد فيه رابطة العقّالين ، بينما كان لقريش

(*) لا أعرف على وجه التحديد ما هو المقصود بهذه العبارة ؟ إن عنيزة التى تقع فى هضبة نجد لم تكن يوما مدينة سياحية فى القرن التاسع عشر، ولذلك أفضل استخدام كلمة «التجار» بدلا السائحين . (المترجمة)

مركزها في الحجاز ، وبتحديد أكثر في الأراضي المنخفضة التي تعرف باسم تهامة . وصفت مكة وكل منطقة الحجاز في الأدب الحديث بأن فيها رقعا زراعية ، وهي فقيرة في مراعيها، وغير منتجة بصفة عامة[٥٧]. وأخبرنا المفسرون أن السبب في عمل قريش في ميدان التجارة يرجع أساسًا إلى أنه لم يكن أمامهم طريقة أخرى يتعيشون منها في مكة[٥٨]. ولكن فكرة التجارة في بضائع الآخرين من أجل التمكن من الإقامة في مناطق غير صالحة للبشر والاستقرار فيها تعد فكرة ساذجة ، وهي بمثابة انتزاع أكمام ملابس الآخرين، وكيف يمكن على سبيل المثال لمدينة خالية من الأراضي الزراعية أن تقوم بتموين (١٠٠٠) أو (٢٥٠٠) جمل ، والتي ذكر أن قوافلهم كانت تتكون منها بعض الأحيان[٥٩]. وبطبيعة الحال فإن هذه الأرقام خيالية تمامًا[٦٠]، ولكنها تخدم في إبراز القضية، وكان على المكيين أن يقوموا باستيراد مواردهم الغذائية وأيضًا غذاء الحيوانات ولا ننكر القرظ (qaraz) الذي كانوا يستخدمونه في الدباغة[*]. وكان من بين هذه المواد الغذائية الفاكهة التي تأتي من منطقة الطائف[٦١] المجاورة لهم ، وهي تلك المدينة التي يفترض أن الله [سبحانه وتعالى] نقلها لهم من سوريا لبلاد العرب تعبيراً عن رغبته في التأكد من ضمان أن أهل مكة سوف يجدون شيئًا يأكلونه[٦٢]. ولكن الإنسان لا يعيش فقط على الفاكهة ، كما تفعل بعض الحيوانات، ولابد له من مواد غذائية أخرى تأتي إليه من مناطق بعيدة[٦٣]، لكن استيراد المواد الغذائية من هذه المناطق البعيدة يكلف كثيراً ، فنقل القمح بالقوافل من سوريا لمسافة تبلغ ٨٠٠ ميل أمر مُكلفٌ جداً ، وقد عرفنا أنه عندما قامت يثرب التي تبعد حوالي ٢٠٠ ميل عن شمال مكة باستيراده من جنوب سوريا كان هذا يعد نوعًا من الترف بحيث لم يستطع شراؤه إلا الأغنياء[٦٤] وبناء على ذلك كم كان عدد المكيين الذين كان في استطاعتهم التجارة مع سوريا من مكان لا يقع بعيداً عنهم فقط، ولكنه يفتقر أيضًا لغذاء الإنسان والحيوان بصفة عامة؟

(*) القرظ: هو ورق السلم ، وقيل إنه شجر عظيم واسع الانتشار في الجزيرة العربية . وهو شبيه بأشجار الجوز وينبت في قيعان الأودية ، ارتفاعه من مترين إلى ثلاثة أمتار ، وترعى الأغنام أوراقه ، ويستعمل وقوداً ، وتستعمل ثماره في الدباغة . راجع : النعيم ، نورا ، المرجع السابق ، ص ٧٩ . (المترجمة)

والإجابة النموذجية على هذا السؤال : إن الكعبة كانت تغرى الحجاج بالقدوم إليها، وعرفنا أن قريشًا بدأت تجارتها مع الحجيج ، ثم أخذوا يتوسعون فى هذا النشاط، ولا شك في أنهم كانوا ينفقون بعض الأموال التى حصلوا عليها من الحجاج فى سوريا . وسوف أعود للحديث ثانية عن هذا الافتراض فى الفصل التالي . وكل ما أريد قوله هنا أنه لو كان هذا القول يمثل الحقيقة فإنه لا يقوم بحل المشكلة . فكيف يمكن للمكيين أن يتواءموا مع آلاف الحجاج ودوابهم التى يسافرون عليها ، وبقية الحيوانات الأخرى، إضافة إلى السكان المحليين وحيواناتهم ؟ كان ذلك ممكنا بعد عصر الفتوحات ، ولكن فقط بفضل الاستيراد المنتظم للحبوب من مصر (عن طريق البحر بطبيعة الحال)، وللنشاط فى حفر الآبار ، وغيرها من أشكال الاهتمام الأخرى ، من طرف حكام الشرق الأوسط، الذين كان تحت تصرفهم مصادر أكبر من التى كانت متاحة للمكيين قبل الإسلام . ولما كانت مكة قبل الإسلام هى بيت القصيد ، فالقضية المسلَّم بها أنه كلما زاد عدد الأفراد الذين كانوا يرغبون فى الإقامة فى مكة ، زادت الحاجة إلى استيراد المواد الغذائية الغالية التى تحملها القوافل . حقيقة إن أموال الحجاج يمكن أن تقدم بعض المساعدة ، وذلك إذا كانت أموال الحجاج متاحة فى الواقع. وحتى إذا قبلنا أن مكة كانت مكانًا للحج قبل الإسلام فنحن الآن نواجه مشكلة من أن أهل مكة رفضوا تقريبًا التجارة مع الحجاج عندما قيل لهم ذلك[٦٥]، وحتى إذا كان فى استطاعتنا أن نطعن فى صحة المصادر بخصوص هذه القضية ، فما زالت أمامنا مشكلة استثمار المكيين لأموالهم فى هذا النوع من البضائع التى لا يمكن نقلها برًا من مكة لسوريا دون أن تصبح أغلى من البضائع السورية المناظرة لها أو تلك التى هى أكثر جودة منها. فلماذا إذن يقوم السوريون بشراء هذه البضائع؟ وكيف كان يمكن لقريش أن تدفع ثمن وارداتها بمثل هذه الأسعار وعلى هذا النطاق الواسع ؟ وباختصار هل كانت هذه التجارة تعد مشروعًا حيويا بالنسبة لقريش ؟

هناك أربعة طرق على الأقل يمكن بها حل هذه المشكلة . وهذه الحلول الأربعة تحتاج على الأقل لرفض أحد الفروض التى يوجد عليها اتفاق تام فى المصادر؛ وبمعنى آخر فإن هذه الحلول الأربعة تحتاج لتبنى موقف متشكك نحو هذه المصادر أكثر من

تلك التي سادت في هذا العمل . لذلك فسوف أقوم بتوضيح الخلاف بين المصادر الأدبية الثانوية ، والمصادر ، وبين الأقوال التي ذكرت في تلك المصادر نفسها، وذلك بدون الشك في الحقيقة الأساسية المذكورة في الرواية ، بل على العكس قمت سلفًا بافتراض ذلك . هذه هي الطريقة التي قمت فيها بعزل جسم الدليل، حيث يجب علينا الآن أن نقوم بمحاولة إعادة بناء طبيعة تجارة مكة . ويبدو أننا يجب أن نقوم بوضع علامة استفهام على الرواية الموثوق بها . فإذا اتفقت المصادر على ما يمكن أن يسمى بالموضوعات ذات الثنائية المتعارضة : التي يمكن لبعض القراء قبولها على مضض، أي قبول تجارة مكة كما جاء وصفها، على الرغم من المغزى الضئيل الذي يظهر منها ، ولكن يبدو أن هذا الحل أيضًا يعد حلاً غير مقنع . فإذا كان لتجارة مكة وجود ، فيجب أن تكون تجارة من نوع مفهوم ، وإذا كانت المصادر قد فشلت في وصفها كذلك ، فيجب علينا أن نضع في الاعتبار إمكانية وقوع هذه المصادر في الخطأ.

وإذا اخترنا القيام بذلك ، فإن أول الفروض وأوضحها التي نضعها لحل المشكلة هو أن الحديث عن مركز لقريش كان يقع في مكان أقرب من سوريا منه إلى مكة الحالية ، أي أنه كان يقع في منطقة في شمال الحجاز يمكن الوصول منها بسهولة إلى بُصرى (Busra) وأذرعات (Adhriat) وغزة(*). فإذا كانت قريش قد اتخذت لها مركزا في هذه المنطقة ، فمثلها في ذلك مثل من يقوم بالعمل الغريب وهو "بيع الفحم في نيوكاسل" ولكنهم – أكثر من ذلك – يظهرون في صورة من يقوم بتوزيع الفحم المحلي في نيوكاسل والمناطق المحيطة بها، ولكن حقيقة كونهم غالبًا يقومون بشراء بضائع مناظرة أو شبيهة ببضاعتهم لاستخدامهم الشخصي فسوف يكون هذا أمراً مستغرباً. ويعزز هذه الفكرة أنه يمكن القول إن المصادر صورت طبيعة العلاقات بين مكة وسوريا كما لو أنهما كانتا قريبتين من بعضهما بشكل غير عادي. فكما كان المكيون يزورون

(*) وإذا صح هذا الفرض أفلا يكون هذا المركز بعيدا عن سوق اليمن؟ التي تقر كرون بأن قريشًا كانت لها سوق فيها. راجع ص ٢٠٩ – ٢١٠ والواقع أن الهدف من هذا الجزء هو مقدمة لما سوف يأتي (عندما تدعي كرون أن ظهور النبي (ﷺ) لم يكن في مكة بل في منطقة حددتها في شمال غرب بلاد العرب)، راجع فيما بعد : ص ٣١٩ وما يليها . (المترجمة)

سوريا، فإن التجار السوريين والبيزنطيين يمكن أن يزوروا مكة[٦٦] ، وكانت مكة مرتبطة بسوريا البيزنطية فى المصالح السياسية ، ولذلك فقد قيل إن قصى حصل على مساعدة بيزنطية لغزو مكة[٦٧]، بينما ظن عثمان بن الحويرث أن البيزنطيين ربما يفضلون أن يكون لهم ملك عميل هناك[٦٨]. وعندما وصل قصي لفتح المدينة فإنه فعل ذلك من الصحراء السورية ، وتحديداً من أرض درعا (Udhra) لقبيلة قضاعة (Guda) كما شاركه أيضاً أقاربه من قضاعة[٦٩]، والواقع إن صلة قريش بالبيزنطيين هذه هى التى دفعت أحد القرشيين طبقًا لما أورده ثيوفانيس (Theophanis) إلى أن يقوم بتحذير البيزنطيين عندما بدأ المسلمون غزو سوريا[٧٠]، ومن الناحية الطبوغرافية كانت سوريا معروفة بصورة أكبر لقريش من أى متجر (Matjar) آخر من أسواقهم ، وكانت أسماء مثل بصرى، وأذرعات، وزرقا (Zarqua) ، ومعان (Maan) وبلقا (Balqa) ، والشراة (Sharat) وغزة قد ورد ذكرها مراراً. وكانت مناظر جنوب سوريا تعد علامات إرشادية ومعروفة للمكيين بصفة عامة[٧١]. ولذلك فإنه عندما كانت آمنة حاملاً وخرج منها النور الأعظم فإنها شاهدت قلاع بصرى وليست قلاع يثرب أو اليمن[٧٢]. لقد ذكر الله [سبحانه] أن المكيين سيقومون بالمرور على البقايا المتحجرة لشعوب عديدة فى جنوب فلسطين "فى الصباح وفى المساء"[٧٣]. إن المرء لا يظن أن المكيين كان عليهم أن يقوموا بالسفر نحو ٨٠٠ ميل لكى يروا هذه الآثار المقصودة(*).

تاجرت قريش أيضًا فى أسواق الحج ، وكانت هذه الأسواق تقع بالقرب من الطائف الحالية ومكة[٧٤]، ولكن هذه الأسواق كانت تقام خلال الاحتفالات السنوية أى مرة فى العام ، وليس مرة كل أسبوع أو كل يوم ، وعلى عكس ما كان يثار دائمًا ، فلم يكن هناك ميزة يمكن أن ترجى من المناطق القريبة منها لأنها كانت خالية من

(*) إن المعنى الواضح من سورة الصافات الآية (١٣٧) ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن قوافل قريش كانت تمر على بقايا قوم لوط فى الصباح والمساء أثناء قيامهم بالرحلات إلى سوريا، وليس لأنهم كانوا يقطنون فى مكان قريب منها كما توحى كرون مقدمة لادعائها التالى الذى تدعى فيه بظهور الرسول (ﷺ) فى شمال بلاد العرب وليس فى مكة . ولو فهم كفار مكة خلاف ما قصدت إليه الآية الكريمة لما صمتوا عنها بطبيعة الحال. راجع ص٣١٩ . (المترجمة)

السكان لفترة طويلة من السنة(٧٥). وأمكن لهذه الأسواق أن تغرى الزوار بالحضور إليها من أماكن بعيدة مرة كل عام ، وربما كانت قريش من بين أولئك الذين كانوا يرغبون فى قطع مسافات طويلة للاشتراك فيها، ولكن ممارسة التجارة لتغطية الاحتياجات اليومية كان يجب أن يمارس فى مكان آخر ، وهذا المكان الآخر هو شمال الحجاز وجنوب سوريا والذى سوف يجرى مناقشته .

وإذا تبينا هذا الموقف ، فإن بين أيدينا مشكلة : فماذا يمكننا أن نعمل بالأدلة التى تربط مكة باليمن والحبشة؟ فالصلة التجارية المباشرة بين مكة والحبشة يمكن إنكارها، أما تلك الخاصة بمكة واليمن فيمكن أن نضيق نطاقها، حقيقة أنه ليس أمراً مستبعداً أن يقوم المجتمع التجارى الناجح فى الشمال بإرسال بعض القوافل التجارية لليمن بين الحين والآخر ، ولكن مثل هذه الإجابة تتهرب من المشكلة أكثر من أن تقوم بحلها. إن ما وصف به تجارة المكيين فى اليمن لا يبدو منه أنها كانت مصادفة، ولدينا مادة كبيرة عن صلات المكيين بقبائل جنوب مكة الحديثة ، ومنها قبيلة دوس من أزد السراة(٧٦) (Sarat) ، كما أن كلاً من اليمنيين والأحباش كان له دور سياسى بارز فى مصادر عصر ظهور الإسلام .

وحيث إنه لا يمكننا استبعاد سوريا نظراً لأهميتها ، فإنه ينبغى أن نناقش فكرة وجود مركزين تجاريين لقريش وليس مركزاً تجاريا واحداً ، ومن المحتمل أنه بدأ أولاً من مركز واحد ثم ما لبث أن تفرع منه مركز آخر . ولكن أين كان يقع هذا المركز التجارى أو تلك المستوطنة الأصلية ؟ لابد من أنه كان هناك مركز مرتبط قبل كل شىء بالأمويين، وآخر فى الجنوب كان مرتبطا بالهاشميين والمخزوميين. ويبدو أن هاتين المستوطنتين ارتبطتا بروابط تجارية وأسرية عن طريق الزواج بالموطن الأصلى . إن هذا الفرض سيؤدى إلى نسف الرواية التقليدية لسيرة محمد [ﷺ] أكثر مما يؤدى إلى أنها مجرد علامة لتحديد مكة، ومع ذلك وكما سنرى أن المصادر الإسلامية الخاصة بالكعبة توحى بوجود وصف لأكثر من مكان(*).

(*) لم تذكر كرون المصادر التي اعتمدت عليها في هذا الفرض الخياليّ ؟ (المترجمة)

والاحتمال الثالث يتلخص فى أن نقوم بالفصل الحاد بين مكة من جهة وتجارة قريش من جهة أخرى، أو بمعنى آخر أنه يجب أن نتصور قريشًا شعبًا تجاريًا وهو يتحرك مستقلاً قليلاً أو كثيرًا عن المكان الذى خرجوا منه ، إن مثل هذا الشعب التجارى كان معروفًا فى بلاد العرب فيما قبل البترول. فالجبانيتى (Gebbanitae) الذين ذكرهم بليني وقام بيستون (Beeston) بتوضيحهم ربما هم الذين ترجع أصولهم إلى منطقة نيساب (Nisab)، كانوا يعملون فى كل المناطق الواقعة فى غرب بلاد العرب، يتاجرون فى البخور (اللبان الذكر) والقرفة وأنواع الطيوب الأخرى أينما ذهبوا ، وكانوا يقيمون فى عدد من المدن خارج وطنهم الذى لم يقدر له أن يكون مركزًا لتجميع أو توزيع البضائع(٧٧). وقام العَقَّالون بنشاط مماثل فى أية منطقة توجد فيها الجمال . أما العائلات التى كانت تقوم بتنظيم التجارة فكانت تقيم فى القصيم ، حيث كانوا يختارون وكلاء هم، ومع أن القصيم عملت إلى حد ما مركزًا لتجميع وتوزيع البضاعة ، فإن معظم التجارة كانت تتم خارجها(٧٨). مثال آخر يجذب الانتباه خاص بالقبيسيين (Kubaysis) ، وهم جميعًا أو أغلبهم يفدون من منطقة القبيسة فى العراق ويعملون تجارًا وسطاء فى بلاد العرب ، ويتاجرون فى كل مكان فيها عدا القبيسة (Kubaysa) ذاتها(٧٩). لقد تخصصت كل الشعوب الثلاثة فى نوعية معينة من البضائع أكثر من أنهم كانوا مخصصين لإقليم بعينه ، ويتضح هذا فيما يخص كل من القبيسيين (Kubaysis) والعَقَّاليين (Uqaulis) نتيجة لطبيعة انتشار كل من البضائع والزبائن . ولما كانت قريش تقوم بتسليم بضائع تم إنتاجها فى كل مكان من شبه الجزيرة العربية فإنه من المنطقى أنهم توسعوا بعيدًا حتى فى سوريا ، وحضرموت والحبشة أيضًا ، دون أن يكون ثمة ارتباط بين أنشطتهم فى الشمال والجنوب. وبوضوح يمكن أن تكون مكة هى مركز تجمعهم ولدرجة ما مكان التنظيم، ولكنها لم تكن مركزًا لتجميع البضائع ، حيث لم يكن يوجد فيها أى مركز لذلك، ولكن من المحتمل وجود العديد من المراكز الصغيرة ، وإذا كان يوجد فيها ثمة مراكز لتوزيع البضائع فهى تتمثل فى أسواق الحجيج، وعكاظ وذى المجاز وليس فى مكة. وسوف أعود لمناقشة هذه النقطة. وهذا الأنموذج يمكن أن يكون الميزة الإضافية فى أن يجعل قريشًا مرتبطة ارتباطًا وثيقًا خاصة

بالنصف الغربى من شبه الجزيرة العربية، دون أن نرجع لها فضل إحراز سيادة سياسية أو لوجود "كومنولث مكى" يكون قد حدث نتيجة للغزو الحبشى لليمن .

لكن المصادر تصر على اعتبار أن مكة كانت هى مركز تجارة قريش، وأنها المدينة التى ترد إليها جميع الواردات والتى ترحل منها جميع قوافل الصادرات ؛ وذلك على الرغم مما ذكره ابن الكلبى من أن قوافل قريش كانت تقوم بجمع البضائع من القبائل المحلية وهى فى طريقها لسوريا فى روايته عن الإيلاف، فلا هو أو أى من المصادر الأخرى المعروفة لى تذكر أنهم كانوا يتاجرون على الطريق . وأكثر من ذلك فإننا إذا قمنا بالفصل بين مكة وتجارة قريش، فإننا سنواجه مشاكل مع الرواية التقليدية عن كيفية إرغام محمد [ﷺ] مكة على الاستسلام . ولكن من ناحية فإن أنموذج العَقَّال يمكن الاستعانة به لتحاشى هذه المشكلة. ومع ذلك يمكن أن يناقش الرأى بأن مكة كانت تعد نقطة عبور أغلب البضائع التى تتداولها قريش، وعلى الرغم من أن معظم الشراء والبيع كان يتم خارجها، ونقلا عن ابن الكلبى وآخرين قولهم بأنهم كانوا يتاجرون على الطريق ، ومن الناحية الأخرى فمن الممكن أن يدور النقاش حول رفض الرواية التقليدية التى أرغم فيها محمد [ﷺ] مكة على الاستسلام عند دخولها لسبب واحد يتمثل فى أن عدد القوافل التى هُددت أو التى اعترضها محمد [ﷺ] كانت فى الواقدى أكثر عدداً مما ذكره ابن إسحاق(*) : فالقوافل الثلاث التى استولى عليها

(*) تسير كرون فى هذا الجزء على نفس نهج سياستها فى التشكيك فى المصادر الإسلامية وتقدم للقارئ أنموذجًا على ذلك بأن عدد السرايا التى أرسلها الرسول ﷺ المذكورة لدى الواقدى كانت أكبر من تلك التى ذكرها ابن إسحاق ولم تفسر لنا السبب فى ذلك .
إن كتاب ابن إسحاق (ت ١٥٠/١٥٢هـ) لم تصلنا نسخته الأصلية ، ولكنه وصل إلينا من خلال كتاب ابن هشام (ت بين عامى ٢١٣و٢١٨هـ) فى السيرة الشريفة عندما قام بجمع وتدوين وتعقب كثير مما أورده ابن إسحاق بالاختصار، أو النقد أو إضافة رواية جديدة وبطبيعة الحال لابد من أنه حذف من العمل الأصلى بعض الأجزاء . أما الواقدى (ت ٨٢٣م) فمن الواضح أنه توافر لديه قدر أكبر من المصادر مكنته من القيام بتلك الإضافات والتى تصورها كرون على أنها لا تمثل الحقيقة .
فإذا قمنا فى الوقت نفسه بالنظر فى السياسة التى سار عليها الرسول ﷺ حتى فتح مكة نلاحظ أنها وجهت جميعها ضد قوافل قريش التجارية المتجهة إلى الشام وضرب طرق تجارتها والقبائل المتحالفة معها رداً على استيلاء قريش على أموال المهاجرين وثرواتهم بعد هجرتهم من مكة. وتدل سياسة الرسول ﷺ =

المسلمون في مدة تراوحت بين خمس أو ست سنوات كما هو مذكور عند ابن إسحاق كانت كافية لتوضح لنا لماذا تركت مدينة تجارية لها مثل هذه الأهمية الكبيرة ، بمفردها دون أن يقوم "الكومنولث المكي" بمساعدتها بدلاً من الوقوع في وكر اللصوص(*)؟ وإذا كانت أعداد القوافل المشاركة التي تتزاى بمعدل النمو نفسه قبل ابن إسحاق مثل ما حدث في الفترة ما بين ابن إسحاق والواقدي ، فإننا نصل إلى المرحلة التي لن يتبقى فيها ولا قافلة واحدة ، ومن ناحية أخرى فإنه ليس واضحًا أبدًا أن مكة قد استسلمت بطريقة سلمية، وعندما يتذكر عباس بن مرداس (Mirdas) هذه الحادثة يقول : "وطئنا مكة بالقوة وبسيوفنا"(**)[80]. وقال شاعر آخر "تقدم المسلمون بسيوفهم ضدهم وبدأوا في الضرب حتى لم يعد يسمع سوى صوت صياح الرجال في المعركة "[81]، وتفاخر حسَّان بن ثابت قائلاً : إن سيوفنا تركتك عبداً وعبدُ الدار سادتها

= هذه على إلمامه بدق تفاصيل هذه القوافل التجارية فقد سبق وعمل بها قبل البعثة، لذلك قام بإرسال العيون لتسقط أخبارها ، وأخذ المسلمون يعترضون القوافل ويأسرون التجار ، منها سرية ودّان أو سرية الأبواء، وسرية عبيدة بن الحارث إلى ثنية المروة (على بعد ١٥كم شرق بدر على خط قوافل الشام) ، وسرية حمزة بن عبد المطب إلى ساحل البحر ، وسرية بواط ، سرية العشيرة في بطن ينبع، وسرية سعد ابن أبي وقاص لوادي خَرّارٍ، وسرية عبد الله بن جحش إلى نخلة . ثم جاءت غزوة بدر الكبرى أنموذجًا لهذه السياسة. وعندما حاولت قريش أن تسلك إلى الشام عن طريق العراق تجنبا لاعتراض المسلمين أرسل إليهم الرسول ﷺ زيداً بن حارثة الذى تمكن من إصابة عير قريش بقيادة أبي سفيان على القردة ماء من مياه نجد .

لقد أتت هذه السياسة بثمارها واشتكت قريش أنها بدأت تأكل من رأس مالها مما يؤكد على وجود هذه التجارة وأهميتها كمصدر رئيسي لحياتهم الاقتصادية . راجع ابن هشام ج٢، ص٦٠٨ ، ٦٠٩ . (المترجمة)

(*) إن عبارة : "وكر اللصوص" التى استخدمتها كرون هنا ، لوصف المسلمين، تكشف أن أهواءها الشخصية التي حاولت طوال البحث كبتها، أفلتت منها ، وسقط عنها القناع تماما ، وهو الأمر الذى يفسد أي عمل تاريخي ويفقده مصداقيته مهما كانت قدرة الباحث وتمكنه من امتلاك أدوات بحثه. (المترجمة)

(**) ابن هشام ، جـ٢ ، ص ٤٦٤ .

وقال عباس بن مرداس :

فجسنا مع المهْدى مكة عَنْوةً بأسيافنا والنقعُ كابٍ وساطعُ

عَلَنيةً والخيلُ يغشى مُتونها حَميمٌ وآنٍ من دم الجَوْف ناقع

حقيقة كان هناك بعض القتلى عند دخول مكة، ولكن تم قتلهم لأسباب عديدة، راجع ابن هشام، ج٢، ص ٤٠٦ . (المترجمة)

الإماء(*)[٨٢]. وهناك عدد من العدول الأوائل يؤيدون الرأى القائل بدخول مكة عنوة[٨٣]. لذلك ينبغي عدم رفض أنموذج العَقَّال لأنه لا يتفق مع الأقوال المأثورة عن حياة محمد [ﷺ] بشكل واضح(**).

وأيما اخترنا من النماذج فستظل حقيقة وجود منطقتين محددتين انعكستا فى الروايات الخاصة بحياة محمد [ﷺ] وهما جنوب سوريا وشمال الحجاز من ناحية ، والسراة والأماكن الأخرى الواقعة جنوب مكة من ناحية أخرى ، لماذا كان الوضع على هذا النحو ؟ وما المنطقة التى كانت موطن نشاط محمد [ﷺ] قبل الهجرة ؟ وما المدينة التى أرغمها على الاستسلام أو فُتحت بالقوة ؟ وأين كانت تقع الكعبة؟ إنه لا مجال لدينا لفهم تجارة قريش دون أن نضع فى اعتبارنا الرواية بوجه عام .

وأخيراً فيمكننا المجادلة فى أن كل محاولة لإعادة بناء طبيعة تجارة مكة إنما هى محاولة مجدية . وإذا ادعت المصادر أن المكيين أوقفوا التجارة خارج مكة ، أو أنهم بدأوا بالفعل القيام بذلك ، وأنهم فى المقابل قاموا بتصدير البضائع التى دفع لهم ثمنها بالسبائك الفضية ، أو أنهم صدروا سبائك الفضة نظير البضائع التى قاموا بشرائها ، أو قاموا بتصدير البضائع للآخرين ، ففى هذه الحالة يصبح من حق المرء الشك فى أن

(*) ألا أبلغ أبا سفيان عَنّى ... مُغلغلة فقد بَرِحَ الخَفاءُ
بأن سيوفَنا تَركَتْك عَبْداً ... وعبدُ الدار سادَتُها الإماءُ
هَجَوت محمدًا وأجبتُ عَنْهُ ... وعندَ الله فى ذاكَ الجَزاءُ
أتهجوه ولست له بكُفءٍ ... فشرُّكما لخيركما الفداءُ
ابن هشام ، ج٢، ص ٤٢٣ . (المترجمة)

(**) أجمعت المصادر على استسلام مكة سلما، مع إشارتها إلى بعض الاشتباكات الفردية التى حدثت نظرا لظروف خاصة. إن كرون تحاول أن تتخذ من هذه الحالات الاستثنائية التى لم تخفها المصادر قاعدة وحجة لتبرير تشكيكها فى المصادر . إضافة إلى أنها تستخدم الشعر دليلاً آخر بغض النظر عن مساحة الخيال الفسيحة التى تتداخل مع قليل من الحقائق التى يُبنى الشعر عليها، مما يعد مخالفة لمنهج البحث التاريخى العلمى ؛ فالمؤرخ يستخدم هذه الأداة لإعطاء صورة عامة غير تفصيلية . وإذا كانت ترى غير ذلك فينبغى علينا أن نستخدم إلياذة هوميروس وأوديسته بكل تفاصيلهما الأسطورية والخيالية لبناء التاريخ اليونانى القديم (الهلينى)، وإنيادة فرجيل لبناء التاريخ الرومانى فى القرنين الأول قبل وبعد الميلاد . (المترجمة)

ما تحتويه المصادر من معلومات لم يكن يمثل إعادة تجميع ما كانت عليه تجارة مكة في الواقع ، ولكنه لم يكن سوى عبارات رددها الرواة المبكرون عما كانوا يظنون أنه يمثل تجارة مكة ، فكل عبارة منها يمكن قبول ظاهرها فحسب؛ لأنها ترتكز على معرفة نوع التجارة التى كانت تدور في بلاد العرب . وإذا كان الأمر كذلك فلا يدهشنا أن الرواية لم تنجح فى أن تضيف شيئًا لتصبح الصورة وحدة متماسكة، كما أننا لن نحاول القيام بذلك. إن الموضوع لا يكمن فى أن بعض التفاصيل خاطئة والأخرى صادقة ، ولكن يجب غض النظر عن كل ما تم نسجه من موضوعات عامة ، مثل التجارة والثروة والغارات وما يماثلها .

وليس هناك شك في أنه لا يوجد في البحث فى الوقت الحاضر ما يوضح أيا من هذه الفرضيات يمكن أن يفيد اتباعها . فكل الفرضيات السابقة يمكن أن تكون خطأ فيما يخص بعض الموضوعات الأساسية ، وحيث إنه لم يتم قبول هذا الاقتراح على نطاق واسع ، فإننا لا نستطيع أن نفهم من خلال عباراتهم المتناثرة والتى هى فى أضعف حالاتها الأحداث التى قادت إلى ظهور الإسلام ، ويتمثل قلب الموضوع فى أن المصادر الأدبية كان ينبغى أن تعالج موضوع تجارة مكة دون مشاكل . ولذلك يجب أن يكون واضحًا من خلال هذه الفرضيات، أن مكة ذاتها تعد مشكلة أكبر من تجارتها، فهى بالتحديد مشكلة أبعد ما تكون عن الوضوح . وسوف أتناول فيما يأتى جوانب الالتباس المتناظرة فى كلتيهما .

الحواشي

(١) راجع الفصل الرابع ، حاشية ١-٢ أعلاه .

(٢) وهذا واضح من خلال غرام النجاشي بالجلود المكية (راجع الفصل الرابع الحواشي رقم ٤٥-٤٦ أعلاه)، ويبدو أن الجلود والمنتجات الجلدية كانت في حقيقة الأمر يمنية (راجع الفصل الخامس، ص١٧٦). وعلى أي حال فإنه ينبغي أن نلاحظ أنه لم يكن من المعقول أن تكون المنتجات الجلدية أكثر ندرة في الحبشة عنها في سوريا. وكانت المنتجات الجلدية مطلوبة في كل مكان في عصر ابن المجاور.

(٣) Great Britain, Admiralty, A Hand book of Arabia, I,24.

(٤) راجع الفصل الرابع ، حاشية رقم ٥ أعلاه.

(٥) عن السيوف السورية التي ترد من البصرة وأماكن أخرى راجع F.W. Schwarzlose, Die Waffen der alten Araber, p.131. وعندما قام الرسول ببيع عدد من أسرى بني قريظة في سوريا، قام بشراء بعض الأسلحة والخيول مقابل ذلك.الواقدي،المغازي، ج٢،ص.٥٢٣

(٦) استورد المكيون الحبوب ، والدرمك (الدقيق الممتاز) darmak والملابس من سوريا طبقا لما ذكره الكومي ، التفسير، ج٢، ص٤٤٤ . وقام عبد الله بن جدعان بإرسال ٢,٠٠٠ جمل لسوريا لإحضار السمن والعسل والبُر ، ابن كثير، البداية، ج٢، ص٢١٨ . وسبق أن رأينا من قبل الطعام يأتي من سوريا عند توضيح كيفية قيام هاشم بإطعام أهل مكة إثر فترة الجدب التي أصيبت بها مكة (راجع الفصل الثامن أدناه ص٣١٤). إن إحضار الخبز والدقيق لمكة أُخذ قضية مسلم بها في كثير من الروايات دون تحديد لمصدره. راجع: (ابن هشام،السيرة، ص٢٣٢-٥٣١؛ ابن حبيب،المنمق، ص٤٢٤؛ الرازي، مفاتيح، ج٨، ص٥١١). إن المصادر القليلة التي ذكرها لاميز عن صادرات مكة عن القمح السوري يشير قليل منها بالفعل إلى مكة (راجع Republique Merchande, p.47; Mecque, p.307, L'Arabie occidentale, p.22;) بينما تشير أغلب المصادر إلى المدينة .

(٧) يستند هذا الافتراض إلى دليل يشير إلى المدينة ومكان آخر (راجع Lammens, Mecque, p.301; id., "Republique Marchande," p.47.; L'Arabie occidentale, p.22).

(٨) راجع هدية دحية بن الخليفة للرسول [ﷺ] والتي تكونت من البلح والتين والزبيب السوري؛ ابن حبيب، المنمق، ص٢٨ .

(٩) إن هذا الافتراض يعتمد على دليل يشير إلى المدينة مرة أخرى.(راجع الفصل الرابع أعلاه، حاشية رقم ٣).

(١٠) راجع الفصل الرابع حاشية رقم ٥ أعلاه.

(١١) راجع الفصل الثالث حاشية رقم١٦٩، والفصل الخامس حاشية رقم ٩٠أعلاه.

(١٢) كما يفترض جاكوب Jacob, Beduinenleben, p.149,cf. olso Schwarzlose, Waffen, pp.127 f. ، ولاحظ أن إحدى الروايات الخاصة بالضرائب التى فرضها الحاكم الفارسى على اليمن كانت من بينها السيوف. Lyall, Mufaddaliyat, I, 708.

(١٣) وقد ذكر لامينز Lammens, Mecque , pp.142,302, أن المكيين كانوا يستوردون القمح من السراة دون أن يذكر لنا أى مصدر . وذكر المسعودى أن اسم شهر صفر يرجع إلى أسواق في اليمن عرفت بهذا الاسم وكان العرب يقومون بتموين أنفسهم منها، وعلى أى حال فهو لم يذكر قريشًا فى هذا النص (مروج، ج٣، ص٤١٧) .

(١٤) وعلى الرغم من أن الافتراض هنا يعتمد على أساس لغوى حيث إن الملابس كانت هي المقابل لذلك،راجع Baldry, Textiles in Yamen, p.8

(١٥) انظر على سبيل المثال Lammens, "Republiqe Merchande", p .47.

(١٦) A. Musil, Northern Neged, P.241.

(١٧) وإذا كنت قد استطعت أن أوضح موضوع هذا الجانب، فإننى أدين بالشكر لسمنار الأستاذ بيستون A.F.L. Beeston فى أكسفورد عام ١٩٨٢م والذى قدمت فى أثنائه صورة أولية لهذا الكتاب .

(١٨) ابن حبيب، المحبر، ص٢٦٤ (حيث طلب منهم فقط أن يقوموا بإمداد حرس الأخرين القادمين إلى هناك بالمؤونة؛أما المرزوقى فى الأزمنة ص٢ ، ١٦٢ فهو يذكر أنهم ذهبوا إلى هناك على مسئوليتهم) ولا أعرف ما يوضح أنه كان لقريش قدم ثابتة فى الدومة Duma .

(١٩) ابن حبيب، المحبر، ص٢٦٦ وما يليها؛ المرزوقى، الأزمنة، ج٢،ص١٦٥؛ اليعقوبى، تاريخ، ج١، ص٣١٤ . ولقد تمت مناقشة حروب الفجار فى الفصل السابق والتى وقعت جميع أحداثها فى عكاظ.

(٢٠) كان المكيون يتاجرون فى عكاظ وذى المجاز قبل أن يتاجروا ببضاعتهم عالميا (الثعالبى، ثمار، ص١١٥). وكثيرا ما صوروا على أنهم كانوا يتاجرون هناك بعد أن قاموا بذلك (ابن حبيب، المنمق، ص٢٢٦؛ ابن هشام، السيرة، ص٢٧٤؛ الجاحظ، الرسائل، ص٧٦؛ ابن سعد ، الطبقات، ج١، ص١٥٢ .

(٢١) الواقدى هو فقط الذى ذكر حضور قريش إلى مِجَنة ؛ الواقدى، المغازى،ج١، ص٣٨٨ (والتى يبدو أنه نوع من المبالغة فقط). وعن تجارة قريش فى منى راجع الطبرى، تاريخ، مجلد١، ص١١٦٢، وقد ظهرت جميع أسواق الحج فى المصادر كما لو أنها كانت أسواقا للمكيين (راجع على سبيل المثال البكرى، معجم، ص٦٦٠، مادة عكاظ).

(٢٢) وكذلك فى :الواقدى، المغازى، ج١، ص٣٨٤؛ راجع أيضًا: ابن سعد، طبقات، ج٢، ص١٢ . وهى تبدو كما لو أنها نوع من المبالغة .

(٢٣) وطبقًا لما ذكره البعض فيبدو أن الرسول [ﷺ] تاجر فى حُباشة بدلا من بصرى وكيلا [للسيدة] خديجة (عبد الرزاق، مصنف، ج٥، ص٣٢٠؛ حسان بن ثابت، ديوان، ج٢،ص٣١٠، ياقوت، البلدان، ج٢،

ص١٩٢ وما يليها) حيث استبدل المكان بالمدينة، وكانت تقع في إقليم قبيلة الأزد على بعد ستة أيام جنوب مكة طبقا لما ذكره الأزرقي ، مكة، ص١٣١، وهي تعد أكبر سوق في تهامة طبقًا لما ذكره البكري، معجم، ص٢٦٢، ص٢٦٤، وكان البكري يعرف أن الرسول [ﷺ] حضر إلى هذا السوق.

(٢٤) ابن حبيب ، المحبر، ص٢٦٧؛ المرزوقي، الأزمنة، ج٢، ص١٦٥، ومرة أخرى فإنني لا أعرف ما يدل على وجود قريش هناك ، أما التاجر الذى زار حضرموت وذكره ابن حبيب فقد كان من كنانة .ابن حبيب، المنمق، ص٣٢١ .

(٢٥) لم يزعم أحد أنهم قاموا بزيارة أسواق مثل ضَبا Daba أو صُحار Suhar في عمان. ولقد ادعى ابن حبيب أنهم كانوا يقومون بحراسة القوافل التى تزور المشقر Mushaqyar في البحرين ، (المحبر، ص٢٦٥)؛ ويرتكز هذا الادعاء على الاعتقاد بأن قريشا كان لها حصانتها فى كل أراضى مُضر، ولذلك فنحن نقدم الشكر لاحترام المضريين لروابط القربى، والواقع أن هذه الفكرة بعيدة عن الاحتمال (لقد كانت مضر بعيدة عن التفكير فى أن نُقارن العلاقات القائمة بين جميع أفرادها كجماعة بتلك التى كانت قائمة بين القبائل المتحالفة، ذكر المرزوقي فقط أن جميع قبائل العرب كانت تقوم بزيارة المشقر، مما يظهر معه أنه كان سوقا على قدر من الأهمية ، ولا يعني بالضرورة أن تكون قريش قد قامت بزيارته؛ الأزمنة، ج٢، ص١٦٢ وما يليها).

(٢٦) وقد ذكر أن بجير بن العوام ذهب إلى اليمامة للتجارة حيث قتل هناك رجلا من أسد أخذا بثأر أبى عُزير.ابن حبيب، المنمق، ص٢٥٠، وهناك بعض روايات تحذف موضوع التجارة من الرواية (البلاذرى ، الأنساب ،ج١، ص١٢٦؛ Caskel, Gambara, II, S.V. Bujair b. al-Auwam.

(٢٧) ولقد ذكر لنا أن ثمامة بن أثال Thumamab. Uthal قام بقطع تموين القمح من اليمامة لمكة عندما ارتد عن الإسلام، ابن هشام، السيرة، ص٩٩٦؛ .Kister, "Mecca and Tamim," p.135 ولهذه القصة أصل ديني . ففي تفسير السورة رقم ٢٣ : ٧٥ (*) ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ ﴾ ، ذكر أن الرسول [ﷺ] دعا الله في صلاته أن يصاب المكيين بالمجاعة لسبع سنوات "مثل أيام يوسف"، واشتكى أبو سفيان(**) له قائلا إن محمدا قتل الآباء بسيفه والأبناء من الجوع، وقد قيلت هذه العبارة إجابة لطلبه. وبدأت المجاعة عندما قام ثمامة بقطع إمدادات القمح من اليمامة(***)، ولهذا السبب ذهب أبو سفيان للشكوى من ذلك (الطبرى، جامع، ج١٨، ص٣٠ وما يليها ؛ السيوطي، الدُر، ج٥، ص١٣، ابن كثير، التفسير، ج٣، ص٢٥٢؛ الطوسى، تبيان، ج٧، ص٣٨٤ وما يليها؛ القرطبى، التفسير، ج١٢، ص١٤٣ . ولكن البعض يأخذ إشارة القرآن إلى العذاب على أنها إشارة لمعركة بدر(السيوطي،الدُر، ج٥، ص١٤) أو فتح مكة (القرطبى، المصدر نفسه) بدلا من المجاعة. وكما جرت عليه العادة في القصص الدينية، فإن الحدث

(*) صحة الآية الكريمة هى: (٧٦) . (المترجمة)

(**) أى اشتكى أبو سفيان إلى ثمامة بن أثال . (المترجمة)

(***) راجع أيضًا : ابن هشام، السيرة ، ج٢، ص٦٣٨/٦٣٩ . (المترجمة)

مشكوك في أمره من الناحية التاريخية، كما أن المصادر لا تشير لوجود علاقة قوية بوجه عام بين مكة واليمامة حتى بعد الفتوحات: ومنذ أواسط العصر الأموي حصلت كل من مكة والمدينة على التموين الغذائي من اليمامة والبحرين؛ (أحمد بن يحيى البلاذري، أنساب الأشراف، ج٩، ص١٣٩ وما يليها؛ لاحظ أن ابن عباس وهو أحد الرواة ، هو الذي قام هنا بالاستناد إلى قصة ابن أثال).

(٢٨) بالنسبة للعلاقة مع اليمن، فقد سبق توضيحها؛ أما بالنسبة العلاقة مع الطائف، لاحظ أن أبا سفيان كان يقوم ببيع عنب الطائف في عكاظ . (راجع الفصل الرابع أعلاه، حاشية رقم ٨) .

(٢٩) كانت قريش تقوم ببيع الحمير في السراة، وتشتري مقابلها من هناك الجمال والخراف، لاستخدامهم الشخصي في مكة كما يبدو. (راجع الفصل الثامن أدناه حاشية ٥٦).

(٣٠) رواية ابن الكلبي عن الإيلاف(راجع: المصادر التي سبق ذكرها في الفصل الرابع أعلاه حاشية رقم ٤٣)، وهو ما وصف به هاشم قريشا لإمبراطور بيزنطة، لهذا السبب يتضح لنا الآن أن قريشا لم يكن لها تجارة خارج مكة في ذلك الوقت .

(٣١) راجع دعوات إبراهيم [عليه السلام] في الصلاة للرزق والأمن في الآية (٢ : ١٢٠)(*) في رواية الطبري عن متجر الحبشة (المذكورة أعلاه الفصل الخامس، حاشية رقم٩٤).

(٣٢) A. Musil, The Manners and Customs of the Rwala Bedouins, pp.278 f.; cf. also Foreign office, Arabia, p.73.

(٣٣) راجع Lammens, "Republiqne marchande," p.29; Hitti, Capital Cities, p.9.

(٣٤) وحتى المعينيين، الذين من المحتمل أنهم اقتربوا من ذلك أكثر من كل الشعوب التي عملت في التجارة، فقد عاصروا السبئيين والجرهائيين والجيبانيتي Gebbanites، ومما لاشك فيه وشعوب أخرى غيرهم .

(٣٥) إن الشيء الوحيد الذي يدل على اهتمام قريش بالمصنوعات الجلدية اليمنية يتمثل في ذلك النوع المسمى أدم خَولاني adim Khawlani الذي كان يستخدمه الرسول [ﷺ] في الكتابة في المدينة (الواقدي، المغازي، ج١، ص١٣). ومن المحتمل أنه كان يأتي من خولان Khawlan في اليمن بدلا من القرية السورية التي كانت تعرف بهذا الاسم؛ (ياقوت ، البلدان، ج٢، ص٤٩٩، وجاء ذكر الجلد كمادة للكتابة في الأدب أيضًا ، ولكن دون تحديد لمصدره). ويمكن أن نعد هذا المصدر دليلاً كافيا على وجود تجارة لقريش في هذه السلعة.

(٣٦) من الواضح وجود أسواق أخرى للحجيج في أماكن أخرى في شبه الجزيرة العربية فالسواقط الذين استوردوا البلح من اليمامة زاروا اليمامة وليس الحجاز في الأشهر الحرم (مبرد، الكامل، ص٢٠٢).

(٣٧) الأزرقي ، مكة ، ص١٣١، (تقع عكاظ في إقليم نصر من قيس عيلان ، الأزرقي، مكة، ص١٣١ وتقع مجنة في إقليم كنانة ، ويبدو أن ذا المجاز كانت تقع في إقليم هذيل ، ويبالغ سيمون في تصوره بأن هذه

(*) الآية الصحيحة رقم ١٢٦ . (المترجمة)

القبائل سيطرت على هذه الأسواق" .(Hums et Ilaf," p.215 وقد صحح فيلهوزن هذه الملاحظة في Niemand war hier in Hause (Reste, p.92) .

(٣٨) ابن حبيب، المحبر، ص٢٩٧؛ المرزوقي، الأزمنة، ج٢، ص١٦٥ . اليعقوبي هو فقط الذي ذكر أن المُشتركين كانوا قرشيين وعربًا آخرين ، أغلبهم من مضر. (تاريخ ، ج١، ص٣١٤).

(٣٩) الأغاني، ج٢٢، ص٥٩ .

(٤٠) قام كيستر Kister بتغطية جيدة لمصادر هذا الموضوع في "Mecca and Tamim," pp.145 ff

(٤١) مع كل التقدير الواجب لرأى كيستر الذى يرى أن قريشا عهدت بهذا العمل وأعمال أخرى لتميم (راجع الحاشية التالية).

(٤٢) وعن قوافله السنوية لعكاظ راجع الفصل السادس، حاشية (٦٣)، وعن مشترياته من البضائع اليمنية هناك راجع الفصل الرابع حاشية رقم ٥٦ .

(٤٣) المرزوقي، الأزمنة، ج٢ ص١٦٨ .

(٤٤) راجع: الأغاني،ج٩ ص١١٩، حيث تخلص القاتل من سيف ضحيته في عكاظ، التى أعتقد أنها تعد المكان الملائم الذى يقوم فيه المرء ببيع ما يريد أن يتخلص منه .

(٤٥) قام ابن أخت السيدة خديجة [ﷺ] بشراء زيد(*) من قينيس Qaynis في سوق عكاظ (ابن سعد ، طبقات ، ج٣، ص٤٠) . ومن المكان نفسه قام فاكه بن المغيرة بشراء المرأة التى سوف تصبح والدة عمرو بن العاص وكانت مثل زيد ضحية لإحدى الغارات.ابن الأثير، أسد ، ج٤ ، ص١١٦ .

(٤٦) المرزوقي، الأزمنة، ج٢ ، ص١٦٨، (نقد) . ومن المحتمل أن المكيين كانوا يحصلون من هنا على بعض بلايينهم(**).

(٤٧) الأغاني، ج١، ص٢٩٩ .

(٤٨) وعن قيام أبى سفيان ببيع الزبيب في عكاظ، راجع: ابن هشام: السيرة، ص٥٩٠ وعن تجارة الجلود هناك راجع الفصل الرابع، الحواشي أرقام ٥٦ ، ٥٨ وهناك مصدر آخر عن بيع الجلود في ذى المجاز: النابغة الذبياني: ديوان ، رقم (٤)، ص١٤ وما يليها . حيث تم بيعه على يد جرمية . فهل كانت مكية ؟ اقترح لامينز أن يكون اسمها جَرمِيّة (Jarmiyya (Mecque, pp.154 n. 264f .

(٤٩) هُجرت عكاظ إثر فتح أبى حمزة لمكة عام ١٢٩هـ، وحدث الشيء نفسه لكل من ذى المجاز ومجنة بعد فترة قصيرة (الأزرقي، مكة، ص١٣١). اعتقد لامينز خطأ أنهما تقلصتا بعد أن أغلق محمد [ﷺ] مكة، أو على الأقل بعد أن حول تجار مكة تجارتهم إلى المدينة بعد الفتح (راجع، Mecque, p. 112

(*) زيد بن حارثة. ولمزيد من التفصيلات راجع، ابن هشام، السيرة، ج١ ص٢٤٧-٢٤٨ ، حيث ذكر " أن حكيم بن حزام بن خويلد قدم من الشام برقيق، فيهم زيد بن حارثة" . (المترجمة)

(**) تستخدم كرون اصطلاح "بلايين قريش" هنا كنوع من التهكم، وعن صورة لثراء قريش، راجع الحاشية المذكورة في ص١٧٢- ١٧٣ من الترجمة.

(٥٠) وعن بيع بضائع سورية ومصرية وعراقية في عكاظ راجع (المرزوقي، الأزمنة، ج٢، ص١٦٨)، وعلى أي حال فلم يذكر أن قريشا كانت تقوم ببيعها . ويبدو أن المقصود بالبضائع العراقية هي تلك التي كان يرسلها ملك الحيرة (راجع الفصل السادس أعلاه، حاشية رقم ٦٣).

(٥١) Daughty, Travels, II, 534

(٥٢) راجع المصدر الذي ذكر في الحاشية رقم ٣٢ أعلاه .

(٥٣). Musil, Rwala, p.280

(٥٤) توضح المصادر المتأخرة أن نفقات حمولة قافلة التجارة كانت منخفضة بدرجة مدهشة راجع (Steensgaard, Carracks, Caravans and Companies, p.31 ff.) . وبعد انتهاء مداولات الصحراء فسرعان ما تبدأ نفقات الحمولة في الارتفاع التدريجيIbid. p.39؛ وتنطبق هذه التقديرات على القوافل التجارية التي تحمل بضائع ثمينة بطبيعة الحال، ويختلف الأمر تماما بالنسبة للقوافل التي تحمل بضائع رخيصة الثمن Ibid, p.39, with an example at p.40 .

(٥٥) Daughty, Travels, II, pp.481 ff. cf.p.345

(٥٦) Daughty, Travels, II,p. 487 الواقدي، المغازي، ج١، ص٢٠٠، وراجع: ص٢٨٧ . إن التفصيلات التي ذكرها الواقدي والتي لم يكن ابن إسحاق يعرفها أصبحت شائعة في الآداب بعد ذلك .

(٥٧) Foreign office, Arabia, pp.9,11,89; Admiralty, Handbook of Arabia , I, p. 98ff.

(٥٨) ومثال ذلك ابن قتيبة ، مشكل القرآن، ص ٣١٩ .

(٥٩) راجع : الواقدي، المغازي،ج١، ص١٢-٢٧، عن القوافل التي حاول الرسول اعتراضها عند بواط وبدر. وكالعادة فإن هذه المعلومات لم يكن يعرفها ابن إسحاق ولكن تردد ذكرها في المصادر بعد الواقدي .

(٦٠) وعلى الرغم من أنها اعتبرت قيمةً اسميةً بصفة عامة (كما فعل جروم Groom, Frankincense, p.162 وكان في تلك الآونة في المراحل الأولى لمعرفته لبلاد العرب). لقد كان عدد الجمال كبيرا جدا، أما نسبة عدد الرجال لعدد الجمال فقد كان منخفضا : حيث قام ثلاثون رجلا بالإشراف على ألف رأس جمل، ومائة رجل على (٢،٥٠٠) رأس جمل في الواقدي، بينما يذكر دوتي أن عدد سبعين رجلا (منهم ثلاثون سائقا) قادوا عدد مائة وسبعين ١٧٠ جملا Travels II, p.488 أما السبب في وجود ذلك الحجم الكبير للقوافل الذي لا يصدق والذي ذكره الواقدي فهو يرجع إلى أننا نعرف الحجم الكبير لقوافل الحجاج خلال العصور الإسلامية. وبطبيعة الحال كان الواقدي يعرف هذه الحقيقة .

(٦١) راجع: ابن المجاور، وصف، ج١، ص٣٢، حيث استوردت مكة القرظ من عقيق.

(٦٢) الأزرقي، مكة، ص٤١؛ راجع أيضًا ابن المجاور، وصف، ج١ ص٢٢، ولقد ورد ذكرها بإسناد مختلف على أن الطائف تعد من أرض فلسطين .

(٦٣) راجع ص ٢٧٠ أعلاه .

(٦٤) راجع حديث رفاعة بن زيد البلاذري، أنساب، ج١، ص٢٧٨، ابن الأثير، أُسد، ج٤، ص٢٦٣؛ وفي أماكن أخرى.

(٦٥) وسوف أتعرض لهذه القضية في الفصل التالي.

(٦٦) راجع الفصل السادس أعلاه ، حواشي ٢٦ – ٢٨ .

(٦٧) ابن قتيبة، المعارف، ص٢٧٩ .

(٦٨) راجع :الفاسي، شفاء، ص١٤٣ وما يليها؛ أبو باجة، مناقب، رقم ١٠ب ، ١١أ .(تلك هي المصادر التي تشير إلى ما سبق وعلاقتها بعثمان وتصوره للهدية)، ابن حبيب، المنمق، ص١٧٨ وما يليها؛ مصعب الزبيري، نسب قريش، ص٢٠٩ وما يليها؛ أحمد بن يحيى البلاذري، أنساب الأشراف، ج٤ب، ص١٢٦ وما يليها؛ القلعي، الاكتفاء، ص٣١٦ وما يليها، وراجع أيضا: Kister, "Mecca and Tamim", p.14 on .

(٦٩) بعد وفاة والد قصي، تزوجت والدته من عذرى Udhri وذهبت لتعيش معه في سوريا، وأخذت قُصيا معها. وعندما عرف قصي أصله عاد إلى مكة وفتحها وأخذها من خزاعة بمساعدة أخيه غير الشقيق رزاح الذى قدم من الشام وأفنى خزاعة ؛ ابن حبيب، المنمق، ص١٦ وما يليها، ص٨٢ وما يليها، اليعقوبي، تاريخ، ج١، ص٢٧٣ وما يليها؛ ابن هشام، السيرة، ص٧٥ وما يليها ؛ البلاذرى، أنساب، ج١، ص٤٨ وما يليها. وذكرت الرواية في مصادر أخرى.

(٧٠) Theophanes, Chronographia, I, 335; A.M. 6123 وعن قرشي يدعى قتابة، راجع ,ibid p355, A.M.6169، حيث كان لدى معاوية مجلس من الأمراء وأفراد من قريش).

(٧١) صُدم لامنس من مدى معرفة المكيين لمدن سوريا مثل مدينة بُصرى على سبيل المثال راجع Lammens, Mecque, p.142 .

(٧٢) ابن هشام، السيرة، ص١٠٢؛ ابن سعد، الطبقات، ج١، ص١٤٩(قصور وأسواق بُصرى) ؛ عبد الرزاق، مصنف، ج٥، ص٣١٨ (قصور سوريا).

(٧٣) القرآن الكريم ٣٧ : ١٣٨ (*) وبطبيعة الحال فقد عد المفسرون أن هذه الملاحظة تشير إلى رحلات قريش التجارية، وكانت سَدُوم Sudum تقع في طريقهم لسوريا (راجع على سبيل المثال ، الطبرى، جامع ، ج٢٣، ص٥٦؛ البيضاوى، أنوار، ج٢، ص٢٢٣) .

(٧٤) تقع الطائف على بعد بريد واحد على طريق سنا، وتقع مجنة على بعد بريد من مكة ، وذو المجاز كانت تقع على بعد فرسخ واحد من عرفة (أى على مسافة ١٢ ميلاً شرق مكة على طريق الطائف)،راجع: الأزرقي : مكة ، ص١٣١(**). وعن الأسواق بصورة عامة راجع .Wellhausen, Reste, pp.87ff وعن مزيد من المصادر راجع الفصل الثامن أدناه ،حاشية رقم (١١).

(٧٥) كما لاحظ فيللهوزن بالإشارة إلى سوق عكاظ " وإلا كانت بقعة قاتلة "Sonst war es ein Toter Fleckon" (Reste, p.92)

(*) وصحتها الآيتان الكريمتان من سورة الصافات رقم ١٣٧ و ١٣٨ . (المترجمة)

(**) بالرجوع إلى الأزرقي، ج٢، ص١٣١، نجد أن المسافة بين عرفة والطائف من بطن نمرة أحد عشر ميلا . (المترجمة)

(٧٦) راجع : ابن حبيب، المنمق، ص٢٣٤ وما يليها؛ ص٢٨٠ وما يليها.

(٧٧) راجع .Beeston, Pliny Gebbanitae, id., "Some observations, pp.7f

(٧٨) راجع المصادر المذكورة في الحاشية رقم (٣٢) أعلاه .

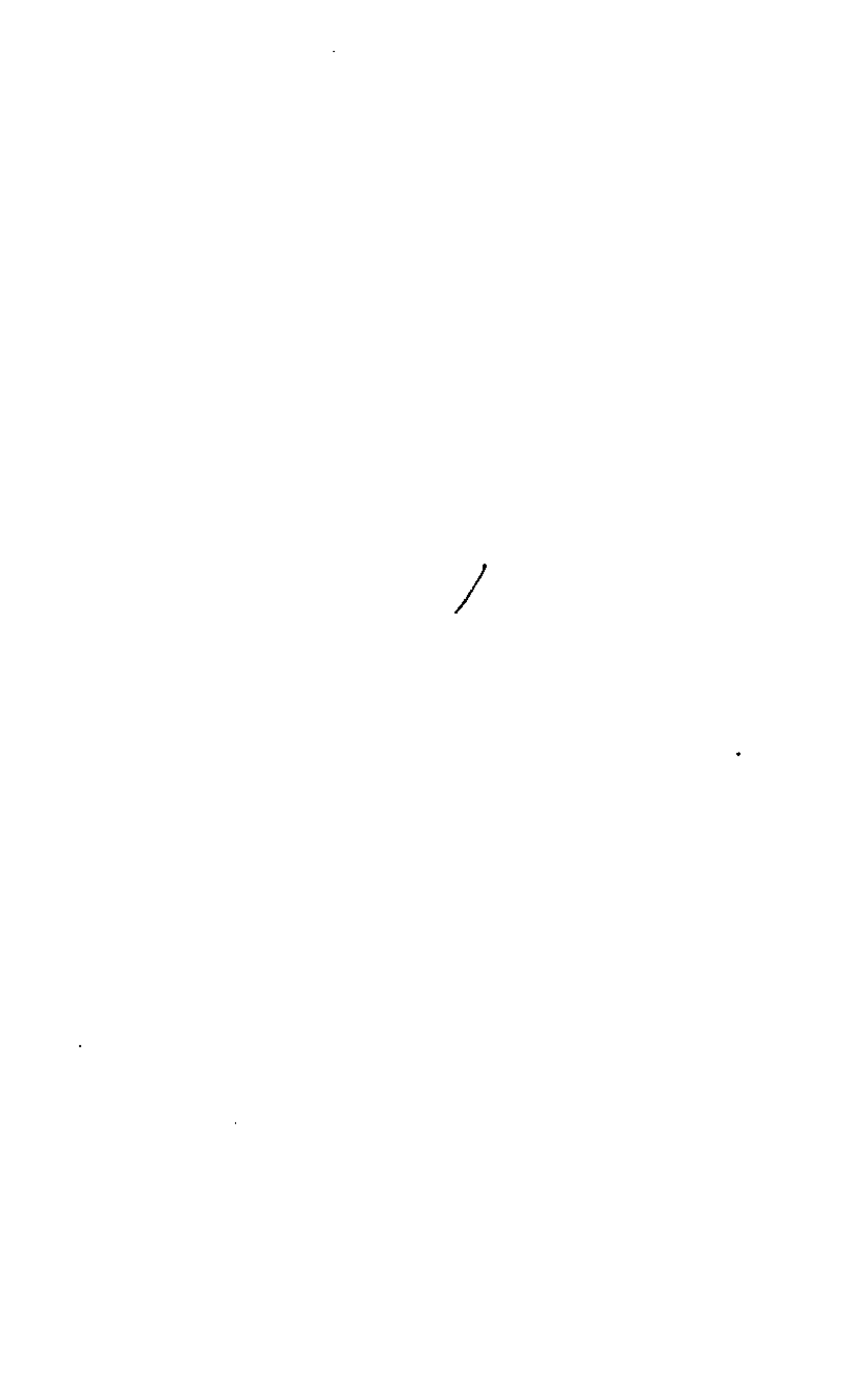
(٧٩) .Musil, Rwala, P.269

(٨٠) ابن هشام، السيرة، ص٨٦٠؛ حيث أعيد نشره مع إضافة حواشي جديدة من ديوان عباس بن مرداس، ص٢٤، ص٨٠

(٨١) قام فيللهوزن بنشر وترجمة " الجزء الأخير من أغاني الهذيليين " إلى اللغة الألمانية J.Wellhausen, ed. And tr., "Letzter Teil der Lieder der Hudhailiten," p.31=137, no.183 وهو هنا ينطبق على أبي راس السهيلي وذكر ابن هشام هذه القصة مع تفصيلات أكثر عن المؤلف: ابن هشام، السيرة، ص٨١٨، وهو هنا حماس بن قيس وبالمثل لدى الواقدي دون ذكر القصيدة (المغازي، ج٢، ص٨٢٢) ونؤكد هنا أن هذه القصيدة لا تشير إلى فتح مكة على أساس وجود أسماء لثلاثة مؤلفين للقصيدة .

(٨٢) حسان بن ثابت، المذكور لدى ابن هشام ، السيرة، ص٨٢٩ Diwan, ed. Hirschfeld, no. I, lines 22f ورفض عرفات هذا السطر (الديوان، ج١، ص١٩) .

(٨٣) ..Kister, "Some Reports", p.87



الفصل الثامن

الكعبة وتجارة مكة

إن تاريخ تجارة مكة يفسر عادة بالإشارة إلى حقيقة أن مكة كانت حرما أو منطقة قدس الأقداس فهي هدف الحج السنوى من ناحية ، ومن ثم أصبحت سوقا للحج، ويذكر دونر (Donner) أنها تعد أنموذجًا ... للجمع بين كونها مركزًا للحج ومكانا للتسوق[١]، ومن ناحية أخرى فهي مُحَرَّمَة ولا يسمح فيها بإراقة الدماء ، وبسبب هذه الحقيقة استقطبت الأفراد للإقامة فيها، والزوار لزيارتها على مدار السنة ، ويذكر وات (Watt) أنها أصبحت مركزًا تجاريا لأنها غدت مكانًا "يمكن للأفراد الحضور إليه بدون أن ينتابهم شعور بالخوف أو الإزعاج"[٢]. ولا يتضح لنا دائمًا من خلال الأدب الثانوى إذا كان الحج السنوى أو التحريم الدائم ، أو كلاهما، هما اللذان أديا إلى انتعاش التجارة، كذلك لم يتضح دائمًا متى أصبح للكعبة هذا التأثير الجذاب. يرى البعض أن مكة كانت تعد مركزًا دينيا وتجاريا حتى خلال العصور القديمة ، وشاع القول إن تطورها وتوحدها اعتمدا على سكنى قريش لها[٣]. وعلى أى حال ليس هناك اعتراض على جوهر الموضوع – بطريقة أو بأخرى – لأن كل باحث فى الموضوع يقر بوجود ارتباط كامل بين الحرم المكى وتجارة مكة[٤] . ولكن لماذا حاز هذا الافتراض على هذا الوضع الذى أصبح من المسلَّمات ؟

أما من جهة المصادر القديمة التى قدمت هذا العرض المجانى فإننا لا نعرف شيئًا عن تجارة مكة قبل أن تسكنها قريش. لقد اعتمد هذا الاعتقاد على مطابقة مكة بما ذكره الجغرافى بطلميوس عن ماكورابا (Macoraba) ، ولكننا لا نؤيد هذا التطابق كما

سبق وذكرنا(*). وحتى إذا كان الأمر ليس كذلك فلن يمكننا أن نقول أى شيء عن المدينة ؛ لأن بطلميوس لم يقدم لنا معلومات عنها خلا ما ذكره عن خطوط الطول والعرض للمنطقة التي تقع فيها[٥]. وقد ذكرت الرواية الإسلامية أن حكام مكة من العماليق (Amalekite) والجراهمة (Jurhumite) اعتادوا جمع ضريبة الثلث من التجار هناك ، ولكنها صمتت عن الموضوع[٦].

يمكن أن تدور المناقشة حول أن القرشيين كانوا تجارا قبل سكناهم لمكة ، وعثر على نقش من عُقلة (Uqla) يؤرخ من عام ٢٧٠/٢٧٨م جاء فيه لمن يدعوهن قرشتن (Qrshtn) جاءوا ضيوفًا على الملك الحضرمي ، وكان معهم ممثلين من تدمر وكزد والهند[٧]. وربما المقصود بالقرشتن نساء من قريش ، وإذا كان الضيوف الآخرين تدمريين وكلدانيين (Chaldaens) وهنودًا ، فيبدو أن هذا اللقاء كان يرتبط بالتجارة[٨]، وإذا صح هذا الأمر فإنه يعني ظهور أهمية قريش التجارية منذ فترة مبكرة ترجع للقرن الثالث الميلادى ؛ أى قبل قرنين من استقرارهم فى مكة[٩]، وهذا يعنى أن الفضل فى تجارتهم هناك لا يرجع بأى صورة من الصور لمكانة المدينة الدينية. وعلى أية حال لا يريد المرء هنا تناول مدى أهمية هذا النقش الذى يظهر فيه شيء غريب، وهو أن قريشًا مثلها هنا أربع عشرة امرأة : خديجة وأسماء وهند ونساء أخريات ، اللاتى قمن بالتجارة دون أن يكون بينهن رجل واحد(**)، كما أن رقم (١٤) وهو عدد عضوات الوفد يعد عددًا كبيرًا إذا وضعنا في اعتبارنا أن أولئك الذين يفترض أنهم تدمريون وكلدانيون وهنود قد أرسل كل منهم اثنين ممثلين لهم . ثم ماذا كانت النساء تفعل في حضرموت؟! من الصعوبة القول بأن إرسالهن كان للتباحث فى أمر التجارة[١٠]. وإذا كان تصنيفهن بأنهن نساء من قريش صحيحًا ، فمعنى هذا أن قريشًا كانت لها أهميتها فى القرن الثالث ، هذا فى الوقت الذى لم تحتفظ فيه الرواية الإسلامية بأى

(*) راجع ص٢٣٥ وما يليها وتعليق المترجمة عليها .

(**) كان مع النساء القرشيات عند زيارة الملك (العز بن العزيلط) الحضرمى عند زيارة (حصن أنود) كاتبًا يدعى (حبسل قرشم) مما يوحي بأنه من قريش. راجع : مهران (محمد بيومى)، دراسات فى تاريخ العرب القديم، الرياض ١٣٩٧- ١٩٧٧، ص٤٠٩ وما يليها . (المترجمة)

معلومات عنها . ولكن هذه الأهمية ليست بالضرورة أهمية تجارية ، كذلك من الممكن وقوع خطأ في هذا التصنيف، ومن المحتمل وجود تجارة في مكة قبل أن تستقر فيها قريش، ومن المحتمل أيضًا أن القرشيين كانوا تجارا قبل أن يستقروا في مكة ، والواقع إننا لا نعرف إجابة عن أي من السؤالين .

ما المعلومات التي نعرفها بخصوص العلاقة بين الحرم المكي وتجارة قريش بعد استقرار قريش في المدينة ؟ لقد قدمت الرواية التقليدية كما هائلاً من المعلومات للإجابة على هذا السؤال ، وسوف نبدأ بالحديث عما إذا كانت مكة عُدت سوقًا للحج .

تتفق الرواية بصورة عامة على أن مكة لم تكن سوقًا للحج، ولدينا قائمة شهيرة تضمنت أسماء ستة عشر من الأسواق ذات الأهمية الكبيرة في بلاد العرب قبل الإسلام، ولم يأت ذكر لمكة في أي من عبارات هذه القائمة(*)(١١) . وأكثر من ذلك فليس هناك سؤال عن مكة ، أغفلناه بطريقة أو بأخرى، فقد عرفنا أن ثلاثة من هذه الأسواق

(*) إن قائمة الأسواق ستة العشر التي ذكرها كل من ابن حبيب والمرزوقي لم يأت فيها ذكر لسوق في مكة تحديداً ، ولكن ثلاثة من هذه الأسواق وهي مجنّة وعكاظ وذو المجاز كانت على مقربة شديدة من مكة حتى تعد كما لو كانت أسواقًا لها . فسوق مجنّة يبعد عن مكة ثلاثة أميال ، أما ذو المجاز فهو موضع بمكة من ناحية كبكب وهو من ديار هذيل . أما عكاظ "أعظم أسواق العرب" كما تذكر الرواية فقد كان بالقرب من الطائف في ضاحية من ضواحيها، هذا على الرغم من أن مساحة السوق كانت تتمدد أو تنكمش طبقًا لظروف الازدحام فيه . إن كرون هنا تحاول أن تستغل عدم معرفة القارئ بالمسافة بين الأسواق الثلاثة لتوهمه بعدم وجود ذكر لمكة في هذه الأسواق أو غيرها من الأسواق العربية حتى تقوده إلى الموافقة على رأيها الذي تسعى جاهدة إليه وهو نفي كل تجارة لمكة قبل الإسلام . لقد كانت قريش ملء السمع والبصر في هذه الأسواق وخصوصًا في سوق عكاظ الذي اقترن بقريش وذكر "بعكاظ قريش". أبي حبيب ، المحبر ، ص٢٤٧ . وجعله حكيم بن حزام لقريش في قوله "كانت لنا ثلاثة أسواق : سوق بعكاظ ..." ، ابن عساكر ، ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن (ت ٥٧١ هـ) ، تهذيب تاريخ دمشق الكبير ، ترتيب عبد القادر بدران ، ص٤ ، ص ٤١٧ ، بيروت ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م . ويذكر المرزوقي أن "عكاظ من أعظم أسواق العرب ، وكانت قريش تنزلها، وهوازن، وغطفان ، وخزاعة ، فالأحابيش، وعضل والمصطلق وطوائف من أفناء العرب.. ولم يكن فيها عشور ولا خفارة وكانت فيها أشياء ليست في أسواق العرب" ، المرزوقي ، الأزمنة والأمكنة ، جـ٢ ، ص ١٦٥، ابن حبيب ، المحبر، ص٢٦٣/٢٦٨ ، وراجع أيضًا : الأفغاني (سعيد) ، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام حيث ذكر فيها قوائم بجميع أسماء الأسواق العربية المذكورة في المصادر الإسلامية ، القاهرة ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ص٢١٧ - ٢٢٦، راجع أيضًا الحاشية المذكورة ص ٢٥٠ وما يليها من الترجمة . (المترجمة) .

وهى عكاظ وذو المجاز ومجنّة كانت تقام خلال الأشهر الحرم . وبعد أن تنتهى التجارة كان على التجار القيام بواجبات شعائرهم فى عرفة (وهى تقع على مقربة من هذه الأسواق خارج مكة مباشرة) ، وبعدها يعودون لديارهم(١٢) . وذُكر لنا فى عبارة واحدة أنهم كانوا يستعدون للحج إلى مكة وهو ما كانوا يقومون به فى يوم التروية (٨ ذو الحجة) وفيه ينادون بوقف التجارة والانتقال من عكاظ أو ذى المجاز إلى عرفة(١٣). وفى هذا اليوم أيضًا يلحق بهم جميع أولئك الذين لم يحضروا إلى الأسواق المذكورة ، من الذين لم يكن لديهم شىء يباع أو يشترى(١٤) . ولم تكن التجارة تمارس فى عرفة أو منى(١٥)، وبالتالى لم تكن تمارس التجارة فى مكة ذاتها .

وترجع قائمة الأسواق قبل الإسلام إلى ابن الكلبى ، ولكن الجزء الخاص بأسواق الحج نقلة عن تفسير والده لسورة البقرة،الآية رقم ١٩٤(*)(١٦) وعن خلفية هذه الآية ذكر لنا مفسرون آخرون أن العرب قبل الإسلام اعتادوا عدم التجارة فى أثناء موسم الحج لأنهم يكونون فى حالة إحرام(١٧) ولذلك ذكر لنا أنه لم يكن هناك تجارة فى عرفة أو مكة(١٨). وتبعًا لذلك ذكر لنا أنه لم تمارس تجارة فى عرفة ولا فى منى . ثم عادوا بالتعاقب وأخبرونا أن عرب قبل الإسلام كانوا يتاجرون فى موسم الحج ، أو أن بعضا منهم كان يفعل ذلك(١٩). وفى الواقع إن المسلمين الأوائل وليس القبائل الوثنية هم الذين كانوا يشعرون أن الجمع بين الحج والتجارة يعد خطأ(٢٠). وقد حددت الأماكن التى قيل إن الوثنيين كانوا يتاجرون فيها قبل الإسلام فى أثناء موسم الحج بعكاظ وذى المجاز ومجنّة ، وليست مكة أو منى أو عرفة . وهذا يعنى أن مكة ما زالت لم تظهر على أنها سوق للحج، وبطريقة أخرى وضع الله [سبحانه] نهاية لتأنيب الضمير عندما ذكر فى ٢ : ١٩٤(**) "ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم" . ومنذ ذلك الوقت بدأ الناس يتاجرون فى عرفة، ومنى، وضمنا مكة نفسها أثناء موسم الحج(٢١). حقيقة أن أسواق عكاظ وذى المجاز ومجنّة لا تدخل فى نطاق موسم حج المسلمين، ولكن مكة

(*) صحة رقم الآية هو ١٩٨ من سورة البقرة وفيها يقول المولى سبحانه وتعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴾ . (المترجمة)

(**) السورة هى سورة البقرة ، الآية ١٩٨ ، راجع الهامش السابق أعلاه المترجمة .

ومنى، وعرفة ، أصبحت تمثل بالتحديد منذ الآن أسواقًا للحجيج على الرغم من استمرار وجود الأسواق القديمة حتى نهاية العصر الأموى[٢٢].

وعلى أساس ما ورد فى الآية اتفق المفسرون على أن مكة أصبحت فقط بعد ظهور الإسلام سوقًا للحجيج ، وقالوا عكس ذلك عندما شرحوا الآية رقم (٩ : ٢٨) ، وعن خلفية هذه الآية ذكروا أن المشركين العـــرب كانوا قد اعتادوا جلب بضائعهم – والتى هى فى أغلبها مواد غذائية – إلى مكة خلال موسم الحج ، وعندما حرم الله على المشركين الاقتراب من البيت الحرام خاف المكيون على مورد حياتهم ، لذلك أكد الله لهم قوله "إن خفتم عَيلةً فسوف يغنيكم الله من فضله"(*). ولقد أغناهم الله بدخول أهل جدة وحنين وصنعاء، وتبالة (Tabala) وجرش (Jurash) فى الإسلام ، لذلك لم يعد أهل مكة يعملون فى التجارة مع الكفار للحصول على طعامهم[٢٣]، أو حتى بجعل الكفار يدفعون الخراج والجزية، لدرجة لم يعد أهل مكة يعملون فى التجارة على الإطلاق[٢٤].

وتعد هذه القصة، قصة مختلفة فى موضوع إمداد مكة بالمواد الغذائية ونهاية تجارة مكة التى سبق مناقشتها[٢٥]، وبسبب اختلافها فإنه من الصعب توضيحها، إضافة إلى أنها صورت المكيين على أنهم مستقبلين سلبيين للمواد التموينية التى يحضرها آخرون ، بدلاً من أن يكون لهم دور إيجابى فى تجارة الحج . وهكذا لا يوجد أى دليل يؤيد الافتراض بأن مكة كانت سوقًا للحج . وسوف نلاحظ هنا أيضًا أن القصة تشبه ما ورد فى موضوع تجارة مكة فى البخور، من حيث إن الحقائق الأساسية المستمدة من الآداب الثانوية ليس لها إلا علاقة التماس مع ما تقدمه المصادر .

وأثار الرأى القائل بأن مكة كانت سوقًا للحج الدهشة منذ مدة طويلة ترجع لعام ١٨٨٧ عندما ناقش فيلهاوزن هذا الموضوع وقال إنها لم تكن مقصدا للحج بأى شكل من الأشكال قبل الإسلام[٢٦]. إن نظرية فيلهاوزن كما أوضح فى حاجة إلى دعم لتوضيحها.

(*) سورة التوبة ، الآية ٢٨ : ﴿ يا أيُّها الَّذين آمنُوا إنَّما المُشركُون نجسٌ فلا يقربُوا المسْجد الحَرام بعد عامهم هذا وإنْ خفْتُم عَيلةً فسوف يُغنيكُمُ اللَّهُ من فضله إن شاءَ إنَّ اللَّهَ عليمٌ حكيمٌ ﴾ . (المترجمة)

لقد تاجر العرب خلال موسم الحج قبل الإسلام ، ولكنهم لم يتاجروا في مكة خلال موسم الحج ؛ لأن الحجيج لم يذهبوا لمكة قبل ظهور الإسلام.

من السهولة بمكان أن نوضح تجارة العرب قبل الإسلام . إذ كانت كل من عكاظ وذي المجاز ومجنّة تعد حرمًا يمكن للمرء أن يقوم بزيارتها أثناء الأشهر الحرم(*)[٢٧]، وقد فعلوا ذلك وهم حجاج . كما أنها كانت حرما حيث أمكن للناس التجارة فيها، وهذا يعني أن عرب قبل الإسلام كانوا يتاجرون في أثناء الحج ، وبطبيعة الحال كانوا يقومون بذلك وهم في حالة الإحرام ، أي قاموا بتكريس أنفسهم بنية الإحرام : فكيف يمكنهم القيام بذلك إذا لم يكونوا على هذه الحالة ؟ وأخبرنا ابن حبيب أن قريشًا لم تكن لتذهب إطلاقًا إلى ذي المجاز إلا وهي محرمة[٢٨]. وكانت قريش في حالة الإحرام حينما كانت في عكاظ عندما نشبت حرب الفجار التي كان براض السبب في إشعال نيرانها[٢٩]. وطبقًا لما نكره الأزرقي فإن أي فرد لم يكن باستطاعته الذهاب إلى عكاظ أو ذي المجاز أو مجنّة إلا وهو في حالة الإحرام[٣٠]. واستوعبت مصادرنا هذا لأن هؤلاء الأفراد الذين كانوا يذهبون في هذه الحالة للتجارة في الأسواق السابقة كانوا يتبعون ذلك بالحج لعرفة ومنى ومكة ، ولكن من الواضح أن ذلك الأمر لم يكن صحيحًا ؛ لأن الأفراد الذين كانوا يذهبون بنية الحج للأماكن المقدسة في الأشهر الحرم كانوا يتوجهون للأماكن المخصصة لذلك ، وكانت زيارة عكاظ وذي المجاز ومجنّة جزءًا من الحج وليست مقدمة له . وباختصار فإن الحجاج الذين يزورون عكاظ وذا المجاز ومجنّة كانوا يقومون بالتجارة .

كان الحجاج يقومون بعد زيارة عكاظ وذي المجاز ومجنّة بزيارة عرفة ومنى، ولكن هل كانوا يتبعون ذلك بزيارة مكة أيضًا؟ لقد رفض فيلهاوزن هذا الرأي على

(*) تذكر كرون أن الأسواق الثلاثة تعد حرمًا، فقد كان التجار وقريش يرتدون في أثناء زيارتها ملابس الإحرام، ولكن هذا القول غير صحيح على إطلاقه، حقيقة أنهم كانوا في الأشهر الحرام التي يحرم فيها القتال في أي مكان في شبه الجزيرة العربية ، ولكن هذه الأسواق لم تكن حرما. لقد كان بيت مكة هو حرمها الذي يقصده التجار للحج إليه عقب زيارتهم للمواسم ، وهو الأمر الذي كان قاصرا عليه فقط دون بقية الأسواق الثلاثة عشرة الأخرى التي انتشرت في الجزيرة العربية والتي سبقت إشارة المرزوقي وابن حبيب إليها، راجع الحاشية المذكورة ص٢٩٨ من الترجمة .(المترجمة)

أسـاس أن إجـراءات حج المسلمين مـا زالت تدور أغلب مـراحلها خـارج مكة ، وهذه الفكرة من الصـعب إنكارها. حقيقة أن الحج يبدأ من مكة ، ولكن بدايته الرسـمية تبدأ بعرفة ، ثم ينتهي في مكة أيضًا ، أما نهايته الحقيقية فهي تنتهي في منى التي يتم فيها تقديم الأضاحي وفيها يقوم الرجال بحلق شعرهم ولحاهم(*) أي تنتهي فيها حالة الإحرام(٣١). وهذا يدفع إلى القول بأن زيارات مكة قد أضيفت إلى الإجراءات الأصلية، ولدينا سببان إضافيان يؤيدان هذا الافتراض : **الأول** : يتمثل فيما لاحظه فيلهاوزن من حيث ارتباط المناصب الدينية المرتبطة بالحجاج إلى عرفة بأنها تقع في أيدي تميم وآخرين وليست قريش ؛ لأن قريشًا كانت مسئولة فقط عن الحجاج في مكة ذاتها(٣٢). **والثاني** : لقد تمت إضافة مكة لكي ينتهي الحج فيها ؛ إذ كانت كل من منى وعرفة غير مأهولة بالسكان ، ولا يوجد بها حراس، ولا يقيم فيها سكان بصفة دائمة ، وكان نشاطها يقتصر فقط على الأشهر المقدسة . وكانت كل من عكاظ وذي المجاز ومجنّة هي الأماكن المقدسة التي يبدأ منها الحجاج زياراتهم : وكونت الهياكل الخمسة المقدسة خارج مكة مجموعة طبيعية . ولكن مكة كانت هي المدينة التي يقيم فيها السكان بصفة دائمة ، والتي يوجد فيها البيت المقدّس ، المزود بالحراس وكان هيكلها المقدس يقف على قدم المساواة مع عبادة هُبل في الطائف والعزى في نخلة، والتي لم تكن مجرد هياكل مقدسة في الصحراء. وكان الحج عبارة عن شعائر تقام في الأماكن والأزمنة التي يضع فيها كل فرد سلاحه ولم يكن يخضع لأحد : مما يعني أن الهيكل المقدس الذي كان يقع تحت سيطرة قبيلة معينة كان لا يدخل في إطار هذه التركيبة(**).

ويمكن بطبيعة الحال القول إن الحج كان يمتد لمكة حتى قبل الإسلام وتلك هي الصورة التي رأى لامينز مكة عليها ، فهو يرى أنه تم اختصار هياكل كل من عرفة ومنى لتصبح محطات على حدود الطريق لمكة قبل الإسلام نتيجة لشروع قريش في

(*) لا يوجد في مناسك الحج الإسلامي قيام الرجال الملتحين بحلق اللحى . والمعروف أن منى التي تقدم فيها الأضاحي تقع في إطار مكة . (المترجمة)

(**) راجع مقدمة الكتاب الذي أثبتت فيه المترجمة خطأ هذا الادعاء كلية ، راجع ص١٤-٢٦ . (المترجمة)

توسعها التجارى[٢٣]. ولكن هذا الرأى بعيد عن الاحتمال . إن الرواية فى المقام الأول كانت حريصة على فصل كل من عرفة ومنى عن باقى المقدسات الصحراوية وبدلاً من ذلك ألحقتها بمكة . وعندما أخبرنا المفسرون أن الكفار اعتادوا الامتناع عن التجارة خلال الحج (فهو يعنى حج المسلمين لعرفة ومنى ومكة) أو أنهم كانوا يقومون بالتجارة خلال موسم الحج (أثناء الحج الوثنى فقط إلى عكاظ وذى المجاز ومجنّة) ، فقد كانوا يحرصون على إظهار منى وعرفة على اعتبار أنهما أماكن لها قدسية خاصة(*). ولكن الناس لم يتوقفوا عن التجارة فى منى وبالتالى فى عرفة[٢٤]، وإذا ما كانت كل من عرفة ومنى تعد محطات فى الطريق لمكة قبل الإسلام فإن الرواية لم تكن فى حاجة ماسة لحلقة ربط مصطنعة من هذا النوع ، ثانيًا : إنه لأمر مثير للدهشة أن مناقشات المفسرين عن وجود التجارة أو عدمه خلال موسم الحج ، تركز على عرفة ومنى وتستبعد مكة : فعندما يتم منع الحجاج من التجارة خلال موسم الحج فإن هذا يعنى عرفة ومنى ، وإذا قاموا بالتجارة خلال الحج فلا يشمل ذلك عرفة ومنى . وعندما سمح الله [سبحانه وتعالى] لهم بالتجارة فى أثناء الحج فإنهم بدأوا ذلك فى عرفة ومنى.

(*) وردت هذه الفقرة فى الأصل ص١٧٤ كما يلى :

When the exegetes tell us that the pagan Arabs used to obstain from trading during the pilgrimage (meaning the Muslim pilgrimage to Arafa, Mina, and Macca,) or that they did trade during the pilgrimage (but only during the pagan pilgrimage to Ukaz Dhu,l- Majaz, and Majanna, they are concerned to present Mina and Arafa as places of particular holiness.

وهى تلك التى قمت بترجمتها أعلاه ، ويبدو أنها يجب أن تكون على النحو التالى :

When the exegetes tell us that the pagan Arabs used to trade during the pilgrimage (that only the pagan pilgrimage to Ukaz, Dhul-Majaz and Majanna), and when the Muslim used to abstain from trading during the Pilgrimage (meaning the Muslim pilgrimage to Arafa, Mina, and Arafa as places of particular holiness.

وترجمتها :

وعندما أخبرنا المفسرون أن العرب قبل الإسلام اعتادوا التجارة فى أثناء موسم الحج (فكان المقصود بذلك الحج إلى عكاظ وذى المجاز ومجنّة) ، وعندما امتنع المسلمون عن التجارة خلال موسم الحج (فهو يعنى الحج الإسلامى لعرفة ومنى ومكة) ، لأنهم حرصوا على إبراز أهمية كل من منى وعرفة المقدسة وهو الأمر الذى يتسق مع سياق الكلام . (المترجمة)

فليس هناك إشارة لمكة في هذه المناقشات، ويبدو أن الأزرقي عندما قام بإضافة مكة كان ذلك رأيًا متأخرًا[٣٥] حقيقة لقد أوضح الأزرقي أن في الإذن بالتجارة إشارة إلى محطات الحجيج (مواسم الحج) ، وهي منى وعرفة وعكاظ ومجنة وذو المجاز، فهذه كانت محطات الحجيج[٣٦]. أما مكة نفسها التي كان يفترض أن تكون محطة للحج فإن ذلك أغفل تمامًا . ثالثًا: نفهم من الرواية أنها سلمت بتوقف الحجاج لفترة قصيرة في مكة حتى أثناء حياة محمد [ﷺ] ، فعندما أخذ يبحث عن القبائل التي كان يأمل أن يتخذ لديها ملاذًا ، كان يتجول في أسواق الحج بالقرب من مكة لمدة سبع أو عشر سنوات بدلا من أن ينتظر وصولهم لمكة ذاتها[٣٧]. وفي مثل مواسم الحج هذه قابل لأول مرة الذين سيصبحون الأنصار طبقًا لما ذكره البعض[٣٨]. كما أننا لا نعرف شيئًا عن ممارسات الحجاج في مكة ذاتها[٣٩]. وكما رأينا الآن ، أنه قد ورد في نص واحد من قائمة أسواق الحج قبل الإسلام العبارة التي تقول إن زوار أسواق الحج سوف يعودون لديارهم بعد إتمام الشعيرة في عرفة[*].

وعلى ذلك يبدو أنه من المناسب أن نختم حديثنا بقول فيلهاوزن إن مكة لم تكن موضعا للحج قبل الإسلام ، ويترتب على ذلك أنها لم تكن مقصدًا للحج[٤٠]، باستثناء ما ذُكر لنا في الآية التاسعة فقرة ٢٨ (من القرآن الكريم). فلا يوجد في واقع الأمر أي دليل في رواية التجارة عن الحجاج الذين يفترض وصولهم هناك في الجاهلية ، وذكر أنه كان يتم تزويد كل الحجاج أو أغلبهم بالطعام والشراب بدون مقابل ، ولقد وافق المكيون على دفع الضرائب لتأدية هذا العمل[٤١]. أما الملابس التي كان يحتاجها الحاج فكانت تمنح له أو يقوم باقتراضها من آخرين . أما المقابل الوحيد الذي حصل عليه المضيفون المكيون نظير ذلك فيتمثل كما قال البعض في المشاركة في الأضاحي[٤٢]. أما التماثيل التي اشتهر أهل مكة ببيعها فقد كانت تباع لجيرانهم وليس للحجاج القادمين إليهم[٤٣]، وفيما يخص وصف مارجليوث (Margolioth) لتجارة مكة المزدهرة مع الحجاج فليس هناك ما يؤيدها في الرواية ، أما تلك التي قام لابيدوس بتقديمها فإنها كانت تشير إلى عكاظ[٤٤].

(*) لم يُذكر المصدر هنا ! (المترجمة)

وليس معنى هذا القول أننا ننكر أن جزءًا كبيرًا من ثروة قريش كان يرجع الفضل فيه للحجاج ، فعندما سؤل عمر [رضى الله عنه] عن شرعية الجمع بين الحج والتجارة رد قائلاً " كيف كان يمكنهم العيش إذا لم يكن من الحج"[٤٥] ولكن الحج الذى أدى إلى ذلك الازدهار كان هو الحج الوثنى للهياكل المقدسة خارج مكة[*]، وفى مقدمتها عكاظ وذو المجاز، تلك هى أسواق الحجاج التى تمكّن السكان من أن يتكسبوا منها فى الجاهلية، فمواسم الحج هى الأوقات التى كانوا يقيمون فيها متاجرهم ؛ أى الأماكن التى يتاجرون فيها[٤٦] . وعندما أخبرنا أن قريشًا اعتادت أن تتاجر فقط مع هؤلاء الذين كانوا يحضرون لمكة ، فقد تم تلميع مكة ليصبح لها نفس معنى ذى المجاز وعكاظ[٤٧]، بل غدت مكة فى بعض الأحيان كما لو كانت اختصارا (أو للاتجاه لتحل محل) أسواق الحج التى يتاجر فيها المكيون[٤٨]. كانت تلك الأسواق هى "أسواق مكة" بينما لم تكن مكة نفسها سوقًا[٤٩]. فعكاظ وذو المجاز ومجنّة كانت هى أسواق قريش والعرب ، ولم يكن هناك سوق أعظم من سوق عكاظ[٥٠]. ولذلك أوضحت المصادر أن هذه الهياكل كانت هى السبب فى ثروة قريش ، وليس هيكل مكة هو الذى حقق لها تلك الثروة.

ويمكن مواصلة النقاش، على أساس أنه بالرغم من أن مكة لم تكن مقصداً للحج ، فقد كانت تجذب الزوار إليها فى شهر رجب ، أى فى وقت أداء العمرة، مما يترتب عليه انتعاش التجارة[٥١]. ولكن يمكن الاعتراض على هذا الرأى لسبب واحد يتمثل فى أن كلا من الحج والعمرة يبدآن من المكان المقدس نفسه : فإذا كان الحجاج يتوقفون فترة قصيرة فى مكة ، فإنهم يفعلون الشىء نفسه فى أثناء العمرة[٥٢]. وهناك رأى ثان لكنه ضعيف يقول بأن العمرة خلقت تجارة مكة[٥٣]، لأن المعبود هُبل المُنصب فى الكعبة – وكما نعرف جميعًا – كان يغرى الزائرين طوال العام[٥٤]. ومع ذلك فهناك معلومات قليلة تشير إلى أن مكة كانت سوقًا له بعض الأهمية . فكان يوجد فيها سوق[٥٥]،

(*) يلاحظ هنا استبدال كلمة : الهياكل ، بكلمة : الأسواق أو المواسم، وقبل ذلك جعلت كرون من هذه المواسم مناطق محرمة ص٢٩٤، حتى تصل بالقارئ إلى الموافقة على رأيها بأن مكة لم تكن مقصد الحج قبل الإسلام . (المترجمة)

كما ورد أحيانًا ذكر لأفراد من هذيل وكنانة وآخرين يقومون ببيع الجمال والأغنام(٥٦)، والعبيد(٥٧)، وبضائع أخرى فيه(٥٨). وذكر أن سفيان بن أمية كان يبيع بضائع مصرية في الجزء الأسفل من المدينة (يقصد مدينة مكة)(٥٩)، كما ورد أن أحد أفراد تميم كان لديه متجر في مكة (وهناك عبارة مناظرة تحذف كلمة متجر، كما فشلت عدة عبارات أخرى في تحديد نوع التجارة)(٦٠). وذكر أن تجاراً بيزنطيين قاموا بزيارة مكة ، كما نفترض أن اليهود كان لهم نشاط فيها كما سبق ورأينا(٦١) . ولكن المصادر تجعلنا نفهم أن قريشاً كانت تمارس سيطرتها التجارية خارج مكة في سوريا واليمن وأماكن أخرى وفوق كل ذلك سوق الحجيج .

هنا يميل المرء إلى الشك في الادعاء بأن السبب في ازدهار تجارة قريش يرجع إلى تمكن الأفراد من الحضور إلى مكة بدون الإحساس بالخوف. وفي الحقيقة فهنا وكما تكرر حدوثه مرارا تداخلت مكة مع أسواق الحج التي تحيط بها . إن الوقت الوحيد الذي كان يمكن للأفراد القدوم فيه إلى مكة دون أن يخالجهم شعور بالخوف كان خلال فترة الأشهر الحرم ، ولكن الأشهر الحرم بطبيعة الحال لا يرجع الفضل في وجودها لبيت مكة(*)، ولكن يرجع الفضل فيها لعكاظ وذى المجاز ، وغيرها من أسواق الحجيج التي كان يذهب إليها المكيون والآخرون خلال الشهور المذكورة. والميزة التي يمكن أن تكون مكة قد حصلت عليها من وضعها المقدس (بصرف النظر عن موضوع الحج الذي سبق وقمنا بمناقشته) هو حرمتها الدائمة، التي تعني أن الناس كان يمكنهم أن يعيشوا هناك دون خوف من الإزعاج ، سواء من جهة القبائل المجاورة

(*) نبعت حرمة مكة من وجود الحرم فيها ، وقد جعلت قريش له حدودا رسمية معلنة ومعترفا بها من قبل جميع العرب، وأبعاد تلك المسافة : من التنعيم على طريق سرف إلى مر الظهران الحالية حوالي خمسة إلى ستة أميال، ومن طريق جدة الحالية عشرة أميال، ومن طريق اليمن ستة أميال. أما محيط هذه المساحة فحوالي ٧٣٠ ميلا. فهذه المساحة كلها أرض حرم لا يجوز القتال فيها قطعيا وقد عظم العرب حرمة الحرم ورعوها أكثر من حرمة الشهر الحرام . وحروب الفجار خير مثال على ذلك. راجع سلامة (عواطف)، المرجع السابق، ص١٧٥-١٧٦ والمراجع المذكورة لديها . (المترجمة)

أو من الأعداء الشخصيين فى أى مكان . وكثيراً ما أفاض المفسرون في أن مكة استثنيت من الإغارات ومن العنف، وأن الله منحها حصانة ضد هذه النوعية من المخاطر استجابة لصلاة إبراهيم [عليه السلام] بمنحها الأمن ومقومات الحياة(٦٢)، وكثيراً ما ذكر فى الأدب الثانوى أن مكة أغرت الخارجين على القانون والفارين وهؤلاء الذين يحتاجون لمأوى باللجوء إليها . هذا هو فيما يبدو ما قام المفسرون بتطويره عن موضوع الحصانة ولكن تحديداً بطريقة معارضة تماماً لطريقة وات فيما يتعلق بالتجارة . إن الموضوع لم يكن خاصاً بالآخرين الذين كان يمكنهم الحضور إلى مكة دون خوف ، ولكن كان الحال على العكس من ذلك ، فقد كان المكيون أنفسهم هم الذين يمكنهم الخروج من مكة دون الشعور بمثل هذا الخوف . فبينما ذكر لنا أن عربا آخرين لم يكن فى مقدورهم ترك أقاليمهم دون أن يخاطروا بإمكانية حدوث غارة ضدهم ، كان القرشيون فى مأمن أينما ذهبوا ، حيث أضفت عليهم صلتهم بالبيت المقدس الحصانة (أو القداسة)(٦٣). أما فى حالة حدوث غارة عليهم بطريق الخطأ كانت أملاكهم كما قيل سرعان ما ترد إليهم عند اكتشاف هويتهم بسبب قداستهم التى تمتعوا بها فى كل مكان(٦٤) .

إن هذه الفكرة لا ترجع للمفسرين والشراح ، ولكن وردت فى إحدى العبارات الخاصة بقائمة الأسواق قبل الإسلام حيث تذكر أن جميع أفراد قبيلة مُضر وحلفائهم (ولم يكونوا جميعاً من العرب كما أوضح المفسرون)، كانوا يعتبرون قريشاً من ذوى الحصانة لارتباطها بالبيت المقدس(٦٥). وقد حاول الجاحظ أن يستنبط دليلاً على هذه الحصانة من الشعر الجاهلى ولكن بطريقة فيها غرور وتعال: لقد قيل لنا إن القرشيين كانوا مجرد تجار ، وكانوا يستمدون الحماية من بيتهم المقدس ، وعندما يغادرونه كانوا يزينون أنفسهم بالمقل (Muql) ولحاء الأشجار لكى يتم التعرف عليهم ولا يعتدى عليهم أحد. وباختصار فهناك دليل على أنه كان ينظر لرجال قريش على اعتبار أنهم من ذوى الحصانة ، ولكن هذه الحصانة كما يقول سيرجنت (Serjeant) ، لم تكن من نوع حصانة القائمين بتصريف العدالة ولكنها كانت من نوع حصانة التجار(٦٦).

إن هذه الأقوال ليست جميعها غير قابلة للتصديق . إن التجار كثيراً ما يعدون ذوى حصانة في بلاد العرب ، رغم أنه لا يوجد لديهم بيتًا مقدسًا يُسبغ عليهم

حصانته(*)[٦٧]. وبالمثل فقد سعى حراس الأماكن المقدسة لكى يكون لهم حصانتهم ، على الرغم من أن كثيراً منهم لم يكونوا تجارا. ولذلك فإن القول بأن قريشًا كانت لها حصانتها أمر يصعب قبوله للأسباب التالية :

أولاً : من هم الذين اعترفوا بمكانة قريش المقدسة ؟ إن جميع العرب لم يعترفوا لها بها؛ لأن الرواية نفسها سلمت بأن مكانة مكة المقدسة لم يعترف بها جميع العرب[٦٨]. ربما تكون مضر وحلفاؤها قد سلموا بذلك كما ذكر المرزوقى ، ولكن طبقًا لعبارة وردت لدى ابن حبيب فى النص نفسه فإن هذه الموافقة قامت على أساس من الروابط العائلية أكثر من القداسة ، على اعتبار أن هذه القبائل كان سيقع عليها ضرر من تفوق قريش، لذلك قال : "إن أى مضرى أو حلفاء مضر لا يتعرضون لتجار مضر"(**) الأمر الذى يعنى أن تجار قيس وتميم كانوا يتمتعون بالحماية نفسها التى كان من المفروض أن يتمتع بها رجال قريش المقدسون[٦٩]، وعلى أى حال، فقريش كان يمكنها أن تتمتع بحماية تلقائية، على أساس آخر يتمثل فى أن الاتفاقات التى عقدها هاشم فى قصة الإيلاف كانت تعنى أنهم قاموا بعقد اتفاقات خاصة من أجل سلامتهم على أى طريق يذهبون إليه ، ومن ثم فإن قصة الحكم بن أبى العاص الخاصة بالجوار كانت بالمثل تفتقر إلى الحماية التلقائية حيث إنها كانت تفتقر سلفا للاتفاقات الخاصة على الأقل بالنسبة للطريق إلى العراق[٧٠]. ولكى نعيد صياغة العبارة بطريقة أفضل نقول إننا عرفنا من كل من المرزوقى وابن حبيب أن قبيلة طيئ كانت ستتضرَّر من تفوق قريش لأنهم كانوا حلفاء لمضر، التى كانت تنظر باحترام للبيت المقدس فى مكة ، أو ربما

(*) الحاشية رقم (٦٧) التى تشير إليها الباحثة فى المتن لا ترتبط بما ذكر فى تلك الفقرة ولكنها تتحدث عن مناقشة الجاحظ وشرحه لبعض أبيات من الشعر الخاصة بالتجارة ، وهى خالية من أى مصدر. ولم يذكر فى أى من المصادر ما يشير إلى حصانة التجار التى تتحدث عنها كرون. (المترجمة)

(**) يذكر نص ابن حبيب : "وكان كل تاجر يخرج من اليمن والحجاز يتخفر بقريش ما داموا فى بلاد مضر ، لأن مضر لم تكن تتعرض لتجار مضر ، ولا يهيجهم حليف لمضرى.كان ذلك بينهم " إن هذا النص يرتبط بحالة معينة، تتمثل فى قيام قريش بحراسة التجار الذين يخرجون من اليمن والحجاز عند مرورهم فى أرض مضر، حلفاء قريش المقدسين الذين يسبغون قداستهم على حلفائهم. ابن حبيب ، المحبر ، ص ٢٦٤ . (المترجمة)

كانت هى أواصر القربى فقط مع المضريين . وعلى العكس من ذلك ذكر لنا آخرون أن طيئ كانت من بين القبائل التى لم تحترم قدسية مكة ، وكانوا يقومون بشن الغارات على الحجاج في الأشهر الحرم . وربما كان هذا السبب وراء قيام هاشم بإجراء المباحثات لعقد اتفاقات الإيلاف لعدم احترام طيئ والآخرين مكانة مكة المقدسة(٧١). كما يبدو أن هذا كان هو السبب فى أن الحكم كان مضطراً للبحث عن الجوار(*). وانطلاقا مما تقدم فيمكننا الاعتقاد بأنه تم استثناء قريش من الإغارة عليها بسبب الاتفاقات التى تمت مع مضر وحلفائها .

ثانيًا : كيف كان يحق لقريش أن تدعى القداسة لنفسها؟ إن القداسة لدى القبائل العربية تعنى الطرد من الرابطة القبلية التى تتحدد المكانة فيها على أساس القوة الحربية بصفة عامة . كان يمكن طرد الفرد من القبيلة لأن هذا الفرد له مكانة مقدسة ومن الصعب منازلته ، كما هو فى حالة القديس ، أو أن السبب يكمن فى أنه كان أضعف من أن يُقدم على ذلك ، كما هو فى حالة المنبوذ ، ولكن فى كلتا الحالتين يرفض الفرد استخدام القوة ، ومن الظاهر أنه لا يمكن الإعلان بأن الفرد يعد مقدسًا وفى الوقت نفسه منافسا بالمعنى الحربى ، ولكن القرشيين كانوا شعبا محاربا شجاعًا . حقيقة أن هناك بعض الآراء التى تقدم عكس ذلك، وذُكر كثيراً أنهم كانوا يمتنعون عن الإغارة(٧٢)؛ فقد رد يهود المدينة هزيمة قريش فى بدر لافتقارهم للخبرة العسكرية(٧٣)، وقد شرح الجاحظ أن التجار العرب قبل الإسلام ومن بينهم قريش كان ينظر إليهم باحتقار لعدم قدرتهم على الدفاع عن أنفسهم ، وهذا التفسير يجعلهم فى وضع المنبوذين(٧٤). ولكن الرواية تخلو بشكل عام من فكرة عدم رغبتهم أو عدم قدرتهم على القتال . وهناك روايات كثيرة توضح انخراطهم فى غارات مثل تلك التى يقوم البدو بها ، كما أنهم كانوا يقومون بأخذ ثأر موتاهم ، ولدينا قائمة طويلة لحروبهم مع الأزد

(*) بالنسبة إلى قصة الحكم بن أبى العاص وذهابه لبيع العطور فى الحيرة وطلبة الجوار تغافلت كرون عن الجديد فى الموضوع، وهى الحرب التى كانت دائرة بين كفار قريش والمهاجرين والأنصار فى ذلك الوقت مما دفعت به ويأبى سفيان إلى القيام بتأمين الطريق إلى الحيرة.راجع ابن هشام، المرجع السابق ، جـ٢ ، ص٥٠ ؛ وراجع ص٢١٦ – ٢١٧ من الترجمة والتعليق عليها . (المترجمة)

والقبائل الأخرى ، ولا نذكر هنا حرب الفجار وحروبهم مع محمد[ﷺ][٧٥]. إضافة إلى أن بعض الأفراد المشاركين فى القوافل التجارية كانوا يشتبكون ببسالة فى مناوشات حربية مع القبائل الأخرى نيابة عن الجماعة الضعيفة فيها، وفى الواقع لم يكن عبد الدار حارس الكعبة أكثر من قريش امتناعًا عن استخدام السلاح(*)[٧٦]، وبطبيعة الحال لم يكن الأفراد المقدسون فوق استخدام القوة ، كما هو المفروض فيهم دائمًا، ولكنهم عندما كانوا يلجأون للقتال كانوا يواجهون بالمعارضة، ولكننا لم نجد شيئًا من ذلك فى الرواية[٧٧]. وفوق ذلك من الذى أمد جميع قادة الفتوحات من الناحية العملية بالرجال ؟ من الصعب علينا الاعتقاد أن قواد مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص نشأوا فى البداية رجالاً مقدسين (أو رجال ضعفاء) ثم اشتركوا مباشرة فى استخدام القوة .

ثالثًا : من الواضح أن المصادر تخلط بين القداسة المؤقتة خلال الأشهر الحرم والقداسة الدائمة التى نتجت عن الارتباط بالبيت ، وقد استمرت الأخيرة مع ظهور الإسلام ، وعندما ذكر الجاحظ أن رجال قريش كانوا يزينون أنفسهم بالمقل (muql) ولحاء الشجر عند مغادرتهم للبيت المقدس ، عدها بمثابة إعلان عن قداستهم المستمدة من بيتهم المقدس ، وأنها كانت قاصرة على سكانه من القرشيين . ولكن طبقًا لما ذكره أبو عبيدة كان سكان يثرب يقومون بتزيين حصونهم بالحبال وسعف النخيل عندما كانوا يزمعون القيام بالعمرة أو الحج : حتى يعرف كل فرد أنهم فى وضع الإحرام عند ذهابهم وذلك حتى يتاح لهم حرية المرور[٧٨]. كذلك يخبرنا ابن الكلبى أن كلا من الحجاج والتجار ، كانوا يزينون أنفسهم بوضع ضفائر الزهور وخُصلات الصوف على شعورهم حتى يُعرف أنه تم استثناؤهم من قواعد العرف المعتادة للعلاقات القبلية ، ولذلك كان كل من الحجاج القادمين من مكة يستخدمون فروع الأشجار كما قال

(*) بالرجوع إلى كتاب ابن حبيب ، المُنمق فى أخبار قريش ، طبعة دلهى عام ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م ، والمذكورة فى حاشية رقم (٧٦) وهى الطبعة التى اعتمدت عليها كرون لم أجد فيها أى شىء يخص عبد الدار أو استخدام قريش للسلاح فى الصفحات التى ذكرتها وهى ص ١٧١ ، ٤٤١ . (المترجمة)

الجاحظ بالتحديد(٧٩). وذكر الأزرقي أن أولئك الذين اعتادوا ارتكاب العنف في الحرم كان يُقدم لهم ضفائر من لحاء الأشجار تعبيراً عن توقف العنف(٨٠). وفي الحالات الثلاث جميعها يظهر لنا الإعلان المؤقت للقداسة ، وليس الطرد النهائي من المجموعة القبلية التي حدث الاعتداء من قبلها . إن الوصف الذي قدمه الجاحظ ظهر أيضاً من المعلومات التي قدمها ابن الكلبي، والتي ذكر فيها أن قريشا كانت تغادر مكة وهي في وضع الإحرام. ومنحوا ضفائر لحاء الأشجار والمقل لأنهم كانوا في طريقهم للأماكن المقدسة مثل عكاظ وذي المجاز ، وهي الأماكن التي اعتادوا القيام بزيارتها حجاجًا وتجاراً في الأشهر الحرم ، إن هذا هو السبب في قداستهم : لقد نبعت قداستهم من حقيقة أنهم كانوا في طريقهم لزيارة الهياكل المقدسة ، وليس لأنهم يقيمون في واحدة منها، وكانوا يشتركون في هذه الصفة مع كل الزوار الذين يقومون بزيارة هذه الهياكل المقدسة(*). وأصبحت قريش تكوِّن مجموعة خاصة في سجلات الجاحظ على أساس نفس نظرية انتزاع المعلومات التي عددناها في موضوع الحج : والتي تتمثل في أن الخصائص العامة للهياكل المقدسة خارج مكة ، أصبح لها الخصائص الفريدة نفسها التي تمتعت بها مكة . ويبدو أن هذه العملية نفسها كانت خلف الادعاء بقداسة قريش في كتابات المفسرين ، كما أن الوحي القرآني من جهة ، وإحلال الأشهر الحرم بالرجال المقدسين في الإسلام من جهة أخرى هو الذي ساهم في الالتباس(٨١).

على أي أساس يمكن القول الآن إن هيكل مكة المقدس ساعد على نمو التجارة المكية ؟ إن الموضوع لم يكن هو موسم الحج والحجاج التي تصر الرواية على حضورهم فيه إلى مكة على الرغم من عدم انخراطهم في التجارة . ربما جذبت مكة الزوار بالقدوم إليها، على قدم المساواة مع الهياكل المقدسة الأخرى، مثل هيكل العزى في نخلة ، ولكن من الصعب أن يكون ذلك قد ساعد التجارة المكية بأية وسيلة (وهل أدى ذلك إلي جذب

(*) لقد كانوا يقومون بذلك لأنهم في الأشهر الحرم ، وفي طريقهم لتأدية مناسك الحج في مكة بعد انتهاء تجارتهم في الأسواق: عكاظ، وذي المجاز، ومجنّة. راجع مقدمة الترجمة ص١٤-٢٤ .

التجارة إلى نخلة؟). وأرجعت الرواية انتعاش التجارة لأنه كان فى استطاعة القرشيين أن يسافروا لمسافات بعيدة ، وليس لأنه كان فى استطاعة الآخرين الحضور إليهم ، كما أن الحرم لم يساعد عمليات قريش التجارية خارجها . إن جميع المعلومات النمطية التى لدينا عن العلاقة بين بيت مكة المقدس والتجارة المكية تنطبق على أسواق الحج . وكانت كل من عكاظ وذى المجاز ومجنّة مناطق مقدسة ، بحيث يمكن أن يأتى إليها الأفراد بأمان ودون مضايقات (وذلك خلال الأشهر الحرم) التى لم يسمح فيها بإراقة الدماء (ويكون ذلك خلال الأشهر الحرم أو طوال العام) ، إن هذه الأماكن المقدسة هى التى كانت تعد أماكن الحج قبل الإسلام(*)، وهى التى أدت إلى قيام التجارة وفيها كان يوضع حد للخلافات ، كما كانت ترد فيها الديون. وعلى أى حال فإن العلاقة بين هذه الأماكن المقدسة هى بالتحديد التى كانت ذات أهمية بالنسبة لتجارة قريش ، وبالمعنى التجارى فإن حرم مكة كان إضافيا عليها أو ملحقًا بها.

وهكذا نجد أنفسنا مرة أخرى فى الوضع نفسه الذى كنا عليه فى الفصل السابق: أى التناقض بين الأدب الثانوى والمصادر . إن المعلومات المتناقضة فى هذه المصادر تقود المرء إلى التطرف فى وضع الافتراضات غير المنطقية التى ينبغى تتبعها . فإذا لم يُغر الحرم المكى الحجاج ، ولم يسبغ قداسته على سكانه ، ولم يكن له ثمة تأثير على النشاط الاقتصادى ، فكيف يمكن فهم بقاء أهل مكة على قيد الحياة ؟ ولكى نعرف ما إذا كانت مكة تعد حرمًا قبل الإسلام ، أو لم تكن كذلك ، فينبغى علينا أن نعيد فحص الرواية فى كتاب آخر يتعدى كتابًا عن التجارة ؛ ولكن إنه لأمر جدير بالاهتمام

(*) يلاحظ القارئ أن الرأى الذى قدمته الباحثة سابقا، والذى رجحت فيه أن يكون المقصود بالحج الجاهلى هو: مواسم التجارة الثلاثة فى عكاظ وذى المجاز ومجنة، قد حولته هنا إلى حقيقة ثابتة وأن مكة كانت إضافية على المواسم أو ملحقة بها، وبالتالى فلم يكن لهذه المواسم ثمة أثر مباشر أو غير مباشر على تجارة مكة. هذا على الرغم من ارتباط قريش بهذه المواسم القريبة منها والتى كانت لها مكانتها الرفيعة فيها، ولم تقل لنا إذا لم تتاجر قريش فيها فلماذا كانت حريصة على الذهاب إليها والمشاركة فيها. وهو الشىء نفسه الذى فعلته كرون عندما رجحت فى ص٣١٩ إرجاع جميع أركان حياة الرسول ﷺ إلى شمال شبه الجزيرة العربية ثم تحدثت فى ص٣٤٢ عن هذا الترجيح كما لو أنه حقيقة تاريخية مسلم بها . (المترجمة)

أن نقول إن المصادر التى تثبت الانطباع بقدسية هيكل مكة ، ترجع فى أصولها للعصر الإسلامى أكثر من كونها ترجع لعصر ما قبل الإسلام لعوامل ثلاثة رئيسية وهى(*) :

أولاً : إن هناك مشكلة خاصة بالاقتراح القائل بأن سدنة الأماكن المقدسة كانوا يعتمدون فى حياتهم على التجارة . لقد كشف الأنموذج الحضرمى الذى قدمه سيرجنت (Serjeant) النقاب عن الوضع فى مكة ، ويذكر سيرجنت أنه يوجد فى حضرموت أفراد لهم مكانة مقدسة (وهم الآن أولئك الذين ينحدرون من نسل الرسول [ﷺ])، و يتصدرون إقليماً كاملاً له مكانة مقدسة (يسمى الآن قبر الشيخ)، ويقيم هناك رجال آخرون يعملون فى ميدان التجارة ، والحرف اليدوية ، وأعمال أخرى ينظر إليها نظرة دونية. ويطلق على الذين يقومون بها الضعفاء، أى الذين لا يستطيعون حماية أنفسهم . ويرجع الفضل لشيخهم ومكانته الكبيرة فى إبعاد المضايقات القبلية عنهم . فإذا كانت قريش تعد من النسل الشريف، فمن يكون هؤلاء الضعفاء إذن؟ إن قريشاً لم تحتل مركز الصدارة على سكان منبوذين من التجار ودباغى الجلود والكناسين والخدم ، لقد كان الأمر على العكس من ذلك ، فقد قام القرشيون أنفسهم بدبغ الجلود والتجارة ، بينما أن ذلك الرأى الغريب الخاص بكل من الرجال الذين لهم مكانتهم المقدسة وأولئك المنبوذين جاء فى مناقشة الجاحظ لهم(٨٢). فكيف يمكن لقريش أن تكون الاثنين معاً ؟ مما لا شك فيه أن سدنة الأماكن المقدسة سواء كان ذلك قبل الإسلام أو بعده استصوبوا العمل فى التجارة فى أزمنة عدة ؛ إضافة إلى أن حرفة التجارة لم يكن ينظر إليها باحتقار فى بلاد العرب ، كما لا يبدو أن قريشاً فقدت مكانتها من عملها فيها . وباستثناء قريش ، فإن سدنة الكعبة من الذين كانت لهم مصالح تجارية لم يصفوا أنفسهم بأنهم تجار ، وإن كان عدد قليل منهم اختار العمل فى التجارة بنفسه. على الرغم من أن العمل فى التجارة لا يعد بحال من الأحوال عملاً لائقًا بهؤلاء الذين

(*) يرجع السبب فى ذلك إلى أن العرب لم يكن لديهم كتابات عن تاريخهم قبل الإسلام ، ولكنهم بدأوا فى ذلك بعد فترة وجيزة من وفاة الرسول ﷺ . والمعروف عن العرب أنهم كانوا يحتفظون ويختزنون عن طريق الرواية بأحداثهم ، وخصوصاً تلك القريبة منهم ، وهى الفترة التى تشملها هذه الدراسة. (المترجمة)

يعهد إليهم برعاية الأماكن المقدسة . وعلى أى حال فقد كان يُثنى على التجارة دائمًا عندما يقوم بها الآخرون ، لأن سدنة الكعبة لا يمكن أن يكونوا تجار قوافل : ما هو ذلك النمط من حراس الكعبة الذى كان يقضى وقته في نقل الزبيب والجلود والعطور بين مكة واليمن والطائف وسوريا، ويقوم بالمساومة في أسواق بصرى وعكاظ ؟ وبعيداً عن طبيعة تلك الفكرة غير المناسبة ، فقد كان من المفروض على سدنة الكعبة البقاء في هياكلهم لاستقبال نهر الزوار المتدفق والراغبين فى خدماتهم التي اشتهروا بأدائها . أما قريش فكانت دائمة الحركة، أي إنها كانت تؤدى عملاً أدنى من مكانتها. وحتى عبد الدارالحارس القائم للكعبة ، رأيناه وهو يعمل بالتجارة ، كما مارس الهاشميون بالتأكيد أعمالاً ترتبط بموسم الحج[٨٣]. ومن ثم لا تتملكنا الدهشة عندما أمر الله [سبحانه وتعالى] قريشًا بالبقاء في ديارهم وعبادته : ويبدو أن المفسرين أدركوا أن كلاً من حراسة الكعبة والتجارة متناقضان .

ثانيًا : إن قريشًا لم تلعب أى دور من الأدوار التى كان من المتوقع قيامها بها كسدانة الكعبة قبل الإسلام ، فمن الناحية الفعلية كان جميع سدنة الأماكن المقدسة قبل الإسلام من العرافين ، وهم الذين كانوا يتنبئون بأحداث المستقبل، ويقدمون النصائح المناسبة للعمل المزمع القيام به . وبوجه عام كانوا يعرفون ما لم يكن معروفا ، وكانوا دائمًا خبراء في عملهم[٨٤]. ولكن لم يكن عبد الدار ولا أى فرد من قريش من الكهنة (kuhhan). حقيقة لقد رأيناهم وهم يقومون باستطلاع الطالع ولكنهم كانوا يقومون بذلك كرجال علمانيين مزودين بمعداتهم الخاصة لاستطلاع الغيب[٨٥]، وليسوا متخصصين يقومون بعملهم أمام زوار مكة . بل كان الوضع على العكس من ذلك فقد كانوا هم أنفسهم زبائن للكهنة المتخصصين ، بل فى بعض الأحيان كانوا يقومون بالبحث عن أحد الكهنة أو إحدى الكاهنات خارج مكة أو داخل مكة ذاتها ، وفي أحيان أخرى قاموا باستشارة نبوءة أقداح الإله هُبل(*) الذى ذكر أن تمثاله كان يوجد داخل الكعبة[٨٦].

(*) بعل أو البعل هو إله الكنعانيين ، ويبدو أنه أصل إله قريش فى الجاهلية. والمعروف أن الهاء أداة تعريف في بعض اللغات السامية . هبعل أى البعل . ثم التقت العين الساكنة باللام الساكنة فاندمجت فيها . (المترجمة)

وهو أمر منطقي أن يوجد حارس لهُبل للقيام باستطلاع الغيب، ولكن من الغريب أنه لم يكن قرشيا كما هو واضح. وذكرت بعض المصادر سواء أكان ذلك حقيقة أم خيالاً أن منصب الأزلام (azlam) وهي سهام الرجم الخاصة بالتنبؤ بالغيب كانت في يد قريش قبل الإسلام(٨٧)، ولكن هذه المصادر فشلت في القيام بذلك فيما يخص هُبل . كما أُغفل دائمًا ذكر المشرف على السهام. أما هُبل فقد كان له حاجب كما ذكر لنا. وأسندت سهام التنبؤ الخاصة به لشخص عرف باسم صاحب القداح(٨٨). وكان سدنة البيت هم الذين يقومون بتسليم السهام نيابة عن قريش لاستطلاع رأى النبوءة(٨٩). فمن هم هؤلاء السدنة ؟ ومن هم أولئك الأفراد الذين قاموا بالخدمة في الكعبة باسم إله قيل إن مكانه كان داخل الكعبة ذاتها(٩٠)، وكانوا يمارسون عملاً له خصائص عمل الكهنة الوثنيين ؟ وللإجابة عن هذا السؤال نذكر أنهم كانوا على ما يظهر مثل غوديرة بن الحبشية وهو خزاعي ينتمي إلى نفس سلالة هليل بن الحبشية ، وهي السلالة التي قيل إنها كانت تقوم بحراسة بيت مكة المقدس قبل دخول قصي وإقامته فيها . وقد عرف كلاهما بشخصيتهما أكثر من كونهما يكونان جماعة : وكان هليل هو آخر سدنة البيت من خزاعة ، أما أخاه غوديرة (Ghadira)(٩١) فقد كان مكلفًا بسهام النبوءات الخاصة بالإله هبل في فترة معينة، يبدو أنها كانت خلال وجود قريش في مكة، وكان يؤدي عمله نظير الحصول على درهم واحد وتقديم أضحية بأحد الحيوانات(٩٢).

وذُكر لنا أنه عندما تمكن قصي من فتح مكة ، قرر مختارا أن يترك الإجازة بالحج في عرفة لتميم ، وأمر المزدلفة في يد العدوانيين وأمر التقويم في يد كنانة ، وترك عدة سهام أخرى غير محددة في يد مُرة بن عوف الذبياني(٩٣). وقد سُمح كما رأينا لتميم بمواصلة توارثها لأمر القضاء في عكاظ(٩٤). وكما سيتضح الآن فإنه سوف يسمح لخزاعة بالمثل في الإشراف على هبل في الكعبة. وعلى هذا الأساس فنحن نتساءل عن الأعمال التي ذُكر أن قريشًا كانت تقوم بها بعد أن ظفرت بالحرم . لم يكن القرشيون كهنة أو أطباء أو قضاة : وقاموا بنفسٍ راضية بإصلاح الكعبة ومد الحجاج

بالطعام والشراب[٩٥] ؛ أى إن كهانتهم كانت تتمثل فقط فى التجميع لإقامة أعمال الحفر والبناء وتوفير الطعام(*). وكانوا يقومون بقطع مسافات طويلة فى رحلات شاقة للحصول على المواد الغذائية ، كما كانوا يقومون بجمع الجلود والمنسوجات الصوفية لبيعها فى سوريا، وبيع الزبيب فى عكاظ والحمير فى السراة (Sarat) ؛ لكى يعودوا بأنواع من البضائع السورية واليمنية ، وكانوا يجتهدون فى استخدام الجاروف والمسطرين فى طريق عودتهم . ولكنهم لم يؤدوا عملاً واحداً من النوع الذى يقوم به أولئك الذين تربطهم علاقة خاصة بالمكان المقدس الذى كانوا يرتبطون به قبل الإسلام(**).

فأى نوع من السدنة كان هؤلاء القوم ؟

(*) تحاول كرون أن تقدم صورة باهتة الملامح لقريش فى إدارة مكة قبل الإسلام، حيث ترى أنها لم تكن تؤدى عملا واحدا من النوع الذى يقوم به أولئك الذين تربطهم علاقة خاصة بالمكان الذى ارتبطوا به. وتُقصر هذا الدور على قيامهم بأعمال الحفر والبناء وتوفير الطعام، ولا تذكر الملابس ، ولا من أجل من كانت قريش تقوم بهذه الأعمال ؟! وتستبعد تماماً السبب فى ذلك والذى يتمثل فى الحجيج الذين يقومون بتأدية الحج فى مكة وبيتها الحرام . كما أنها لا تذكر كلمة واحدة عن سياسة قصى التى سار عليها بعد أن آل أمر مكة إليه والتى أوضحها ابن إسحاق بقوله أن قصى "أقر للعرب ما كانوا عليه ، وذلك أنه كان يراه دينا فى نفسه لا ينبغى تغييره. فأقر آل صفوان وعدوان والنسأة ومُرة بن عوف على ما كانوا عليه .. فكان قصى أول بنى كعب بن لؤى أصاب ملكًا أطاع له به قومه، فكانت إليه الحجابة والسقاية والندوة واللواء ، فحاز شرف مكة كله" . إن إبقاء قصى على المناصب السابقة فى أيدى أصحابها كانت سياسة حكيمة منه حتى لا يثير عليه أمر هذه القبائل فى مقتبل حكمه لمكة. كما أن المناصب التى أبقاها فى يده وهى الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء فهى لا يستطيع أن يقوم بها إلا من يتمكن من الإنفاق عليها لعبء نفقاتها المالية لخدمة حجاج بيت الله الحرام، وهى فى الوقت نفسه فى حاجة إلى تنظيم العمل الجماعى فى المجتمع مما يؤدى فى الوقت نفسه إلى إحكام قبضته على مكة بأسرها " فحاز شرف مكة كله".
راجع : ابن هشام، السيرة، ج١، ص١٢٤-١٢٥؛ الطبرى، ج١، طبعة بيروت ، ص٢٥٨- ٢٥٩ . (المترجمة)

(**) الإسلام هو دين الله الواحد منذ بداية الخليقة وحتى النبى الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم وقال سبحانه وهو عز من قائل: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلَامُ ﴾ والإسلام يتضمن جانبين : الإقرار بوحدانية الله تعالى وقدرته، ووضع التشريع لإقامة المجتمع الإنسانى الصالح . وتضمنت جميع الرسالات السماوية الجانب الأول ، أما الجانب الثانى فقد نُزّل من المولى سبحانه وتعالى على مراحل ، كل مرحلة منها تتفق والمستوى الفكرى والحضارى الذى بلغته الحضارة الإنسانية فى وقت الرسالة السماوية والتى كانت لها صفة المحلية ، أما الإسلام فقد تكاملت فيه أركان التشريع ولذلك جاءت صفة العالمية لتكامل التطور الحضارى البشرى منذ ذلك الحين وقد وردت آيات كثيرة تؤكد ذلك :
قال نوح عليه السلام لقومه : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (يونس ٧٢) .
=

ثالثًا : ونتساءل عن أى نوع من أنواع العبادة كانت تمثله قريش؟ لقد ضم هيكل مكة تمثالاً لهُبل ، وذكرت بعض المصادر وجود أعداد هائلة من تماثيل الآلهة الصغيرة الأخرى التى كان من المسلم بوجودها إلى جانبه[٩٦]. ولكن قريشًا لم تقم بسدانة هُبل كما سبق ورأينا ، ومن الواضح أن معبودهم لم يكن مثل إساف (Isaf) ونائلة (Naila) اللذين زودتهما بسبب وجودهما. إذن من هم أولئك ؟ لقد ندد القرآن الكريم باللات والعزى ومناة (٥٣ :١٩) ، كما يبدو أن هذه الآلهة لعبت دورًا أكثر أهمية فى عقائد قريش من هُبل ، واللذين لم يأت ذكر لهما فى القرآن [الكريم] ، كما أنهما لم يكونا بارزين فى الرواية أيضًا[٩٧]، ولم تقم قريش على سدانة هذه الآلهة أو على أى واحدة منها. وكانت هياكلها توجد خارج مكة ، ويحرسها رجال آخرون يقومون بعبادتها ، وكان تمثال العزى فى نخلة أكبر صنم لهم كما ذكر الكلبى[٩٨].

لقد صورتهم الرواية على أنهم كانوا سدنة الله ، إله إبراهيم وإله الإسلام القادم. وكانت قريش تقول "نحن أبناء إبراهيم ، وأهل الحرم (hurma) ، وولاة البيت (wulat al- bayt) وقُطان مكة"[٩٩]. وكانت الكعبة هى بيت الله الحرام (bayt allah al-haram) وخليله إبراهيم[١٠٠]. وعلى طريقة العرب ، فقد أفسدت قريش عقيدة إبراهيم التوحيدية بتبنى

= ﴿ ما كان إبراهيمُ يهوديًا ولا نصرانيًا ولكن كان حنيفًا مُسلمًا وما كان من المُشركين ﴾ (آل عمران ٦٧).

﴿ قال موسىٰ يا قوم إن كُنتُم آمنتُم بالله فعليه توكَّلوا إن كُنتُم مُسلمين ﴾ (يونس ٨٤).

﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهُم فرعونُ وجنودُهُ بغيًا وعدوًا حتىٰ إذا أدركهُ الغرقُ قال آمنتُ أنَّهُ لا إله إلاَّ الَّذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المُسلمين ﴾ (يونس ٩٠) .

﴿ إذ أوحيتُ إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسُولي قالُوا آمنَّا واشهدْ بأنَّنا مُسلمُون ﴾ (المائدة ١١١).

﴿ فلمَّا أحسَّ عيسىٰ منهُمُ الكُفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريُّون نحنُ أنصارُ الله آمنَّا بالله واشهدْ بأنَّا مُسلمُون ﴾ (آل عمران ٥٢) .

لذلك فالمسلم يؤمن بجميع الرسل والأنبياء تصديقا لقوله عز وجل : ﴿ قُل آمنَّا بالله وما أُنزل علينا وما أُنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أُوتي موسىٰ وعيسىٰ والنَّبيُّون من رَّبهم لا نُفرِّقُ بين أحدٍ منهُم ونحنُ لهُ مُسلمُون (٨٤) ومن يبتغِ غير الإسلام دينًا فلن يُقبل منهُ وهُو في الآخرة من الخاسرين ﴾ (آل عمران ٨٤، ٨٥) .

وعن الأدلة المادية التى تؤكد وجود بقايا ديانة التوحيد لله سبحانه وتعالى فى أنحاء كثيرة فى شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام راجع : الفاسى ، مرجع سابق ، ص ٢١٢ – ص ٢٢٠ . (المترجمة)

فكرة تعدد الآلهة(*)[١٠١]. ولكنهم هم الذين حافظوا على استمرار عقيدة التوحيد فى ديانة إبراهيم بشكل قاطع[١٠٢] : فقد كانوا يؤمنون بالله ويدبرون أمر الحجاج فى بيته. وقد احتلوا تلك المكانة العالية فى بلاد العرب بفضل ذلك الدور الذى لعبوه[١٠٣].

ولكن ما مدى صدق هذه الرواية ؟ إن الاعتقاد بأن إبراهيم [عليه السلام] قد ورَّث عقيدة التوحيد لنسله من العرب قد ثبت وجودها فى شمال بلاد العرب. منذ فترة مبكرة ترجع إلى القرن الخامس فى المصادر اليونانية[١٠٤]. ولذلك فليس من المستبعد أن تكون قريش قد اختارت نسب إبراهيم وعقيدته حتى قبل الإسلام ، ولكن من الصعب قيام كل بلاد العرب بذلك . ولكن إذا كانت قريش تعد نفسها سادنة لإله إبراهيم ، هذا مع اعترافهم بوجود آلهة أخرى ، فلماذا جاء رد فعلهم ضد محمد [ﷺ] على هذا النحو، وهو الأمر الذى يصعب فهمه . فعندما قام محمد [ﷺ] بمهاجمة عبادة الأصنام ، كان رد فعل قريش عنيفًا فى الدفاع عن اللات والعزى ، ولحد ما عن هُبل ، وتوسلوا إلى الأصنام فى معركتهم ضد محمد [ﷺ] وفى محاولتهم لاستعادة

(*) وعن بداية تنصيب الأصنام فى الكعبة يقدم ابن إسحاق تفسير ذلك بقوله "أن عمرو بن لُحيّ خرج من مكة إلى الشام فى بعض أموره، فلما قدم مآب من أرض البلْقاء، وبها يومئذ العماليق - وهم ولد عملْاق. ويقال له عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح - رآهم يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأصنامَ التى أراكم تعبدون؟ قالوا هذه أصنام نعبدها، فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا؛ فقال لهم : أفلا تعطونى منها صنما، فسير به إلى أرض العرب فيعبدوه؟ فأعطوه صنما يقال له هُبل، فقدم به مكة ، فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه". لقد كان بيت مكة له وضع خاص فى نفس كل عربى قبل الإسلام وعلى الرغم من أنهم كانوا يحتفظون ببعض من بقايا ديانة إبراهيم عليه السلام فإنهم بدأوا منذ عهد عمرو بن لحى فى تنصيب الأصنام فيه لتقربهم زلفى إلى الله كما أشار القرآن الكريم . وعندما أعادت قريش بنيان الكعبة وكان ذلك قبل مبعث الرسول (ﷺ) بخمس سنين واختلفوا فى وضع الحجر الأسود واستعدوا للقتال، كل منهم يريد أن ينال شرف تنصيب الحجر الأسود لولا مشورة أحد كبارهم فى أن يقوم بتنصيبه أول من يدخل البيت عليهم ، فكان الرسول (ﷺ) أول الداخلين وعندما رأوه قالوا الأمين ، رضيناه، وأخذه ووضعه فى ثوب وأخذت كل قبيلة بناحية من الثوب ثم رفعوه جميعا ، حتى إذا بلغوا موضعه ، وضعه هو بيده ، ثم بنى عليه ، إن كل الذى تقدم ليؤكد على أن عبادة إبراهيم كان لها وجودها فى بيت الله فى مكة بصرف النظر عن تلك الأصنام التى نصبت حول الحجر الأسود ، وهى تلك الأصنام التى هدمها الرسول والمسلمون عند فتح مكة، راجع : ابن هشام ، ج١، ص١٧٧، ١٩٧، ج٢، ص٢١٤؛ ابن الكلبى، الأصنام ، ص٢٢ وما يليها . (المترجمة)

الذين تحولوا للإسلام للعودة لديانتهم[١٠٥]. وبمعنى آخر فقد جاء رد فعلهم ضده بشحذ قوى جميع الآلهة حتى تلك التى لم يكن لها بها صلة وثيقة ضد إله محمد [ﷺ] الذى كان من المفترض أنهم يؤمنون به . فإذا كانوا قد استحونوا على مكانتهم فى بلاد العرب لأنهم كانوا يؤمنون بإله إبراهيم ، فلماذا اختاروا الآلهة الوثنية ؟ وإذا كان إله إبراهيم هو إله آبائهم، فلماذا اختاروا الآلهة الوثنية ووصفوها بأنها آلهة آبائهم[١٠٦]؟ من الواضح أنه سُقط فى يد الرواية وأصبح هناك مشكلة أمامها عندما وصفت قريشًا بالتوحيد وبتعدد الآلهة فى الوقت نفسه : فهم من ناحية كانوا أساس التوحيد وأصله وهى العبادة التى سوف يقوم محمد [ﷺ] بإحيائها، ومن ناحية أخرى كانوا متحمسين لتعدد الآلهة وحاربوا محمداً لأنه وقف ضدها[١٠٧] . وفى الواقع أنه لا يمكن أن يمثلوا الأمرين معًا من الناحية التاريخية ، وإذا قبلنا بأنهم قاوموا محمداً [ﷺ] بدرجة أكثر أو أقل مما وصفوا به ، فينبغى أن نرفض الادعاء بأنهم كانوا يمثلون إله إبراهيم[*].

(*) عُرفت ديانة إبراهيم عليه السلام فى الجزيرة العربية وفى فلسطين موطن آل يعقوب وبين اليهود ، كما عرفتها قريش قبل الإسلام . وإثبات المصادر اليونانية لوجودها فى شمال الجزيرة العربية منذ القرن الخامس قبل الميلاد يحسب لقريش لا عليها ، أى أنه يؤكد على معرفتهم بها وهى الحقيقة التى رددوها كثيرا قبل الإسلام، والتى كان يرددها يهود المدينة منذ استقرارهم فيها وهروبهم من وجه الرومان بعد تدمير هيكلهم فى أورشليم فى عام ٦٩/٧٠م. أما السبب فى خلط عقيدة إبراهيم التوحيدية بكثير من مظاهر الوثنية فهو يرجع للسبب نفسه الذى أدى إلى خلط جميع العقائد والرسالات السماوية قبل الإسلام بالمظاهر والعقائد الوثنية، والذى يتمثل فى الجهل لعدم شيوع القراءة والكتابة من جهة، وتدخل الكهنة فى تحريف العقائد السماوية من أجل مصالحهم الخاصة ومصالح سادتهم الدنيوية . وقد أشار القرآن الكريم فى سورة الزمر الآية الكريمة رقم (٣) إلى ذلك ، يقول المولى عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ . راجع ابن حبيب، المنمق، ص١٧٥، ١٧٦، ٣١٥ . لقد كان كفار مكة يؤمنون بإله إبراهيم وبالآلهة الوثنية معا، ومن هنا جاءت مقاومتهم لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه يحرم عليهم عبادة الأوثان التى اعتادوا عليها وشاركتهم حياتهم وتداخلت معها ومع عبادة إبراهيم . إضافة إلى أن الإسلام يحرم عليهم الخمر والميسر والزنا والربا ووأد البنات وفوق كل ذلك يساوى بينهم وبين عبيدهم الذين دخلوا الإسلام بأعداد كبيرة مما كان سيترتب عليه فقدهم لمصدر مهم من مصادر ثروتهم، إضافة إلى ما تقدم فقد ملأ الحقد والغيرة والكراهية قلوب بعض أثريائهم لأن الله سبحانه وتعالى خص محمداً (ﷺ) بالرسالة ولم يكن من أثريائهم ، ولذلك قال أبو جهل " تنازعنا نحن وبنو عبد مناف =

وهذا الرأى لا يستبعد إمكانية أنهم كانوا يمثلون عبادة محلية معروفة باسم الله ، وأنهم بوصفهم سدنة هذا المعبود كانوا يصورون فى الآداب الثانوية . وحتى هذا الافتراض يواجه صعوبات .

وإذا سلمنا بما تقدم فينبغى علينا أن نقوم بتوضيحه. لقد ارتبط الله بالحجر الأسود ، وتذكر بعض الروايات أن هذا الحجر هو فى الأصل حجر قربانى (أى قدم كقربان)(*)(١٠٨). وهذا يرجح أن الحجر وليس البناء المحيط به كان هو بيت الله وهو يماثل بيت بُعل (bet bel) في التوراة.إن طقوس عبادة الإله ذو شارة (dhu shara) يبدو أنها كانت تتركز فى حجر تضحية أسود(١٠٩). وطبقًا لما ذكره المؤرخ إبيفانيوس (Epiphanius) كان يعبد ومعه أمه العذراء كاعبو (kaabou) أو بمعنى آخر كايب (kaib) أو كعاب (Kaab) وكانت فتاة ذات صدر بارز(١١٠). وقد وجدنا شيئًا يشبه ذلك فى أحد النقوش النبطية من البتراء ، ويتحدث النقش عن التضحية بالأحجار (نُصب (nsyb,) = أنصاب (ansab)) الخاصة برب هذا البيت (mrbyt) والعزى، وربة أخرى كاعب (kaba)(١١١)

= الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب، وكنا كفرسى رهان، قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء، فمتى ندرك مثل هذه ، والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه!" ابن هشام ، ج١، ص٣١٦ . وعبر الوليد بن المغيرة عن هذه المشاعر الحاقدة نفسها بقوله : " أيُنَزَّل على محمد وأُترك وأنا كبير قريش وسيدها ! ويُترك أبو مسعود عمرو بن عُمير الثقفى سيد ثقيف، ونحن عظيما القريتين ! وأنزل الله تعالى فيه : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ . ابن هشام ، ج١، ص٣٦١ .

من هنا جاءت مقاومة كفار قريش للرسول، ولا غرابة في ذلك فقد سبق لليهود وهم أهل دين سماوى أن قاوموا السيد المسيح عليه السلام بشدة عندما بدأ يبشر بالمسيحية على الرغم من أنه كان منهم ، وتآمروا عليه، ولم يتركوا وسيلة لمحاربته إلا لجأوا إليها وهم جميعًا أهل كتاب . (المترجمة)

(*) بالعودة إلى الإحالة في الحاشية رقم ١٠٨، لم نجد فيها المصدر الذى اعتمدت عليه الكاتبة فى قولها بارتباط الله بالحجر الأسود، وترجيحها أن الحجر وليس البناء المحيط به هو بيت الله . ولا تشير بأى إشارة إلى ما ذكرته المصادر الإسلامية عن هذا الحجر الذى وصفه إبراهيم عليه السلام بعد أن أحضره له جبريل عليه السلام. أما بخصوص تفسير لونه فالمعروف أنها تستند فى التفسير إلى الروايات التى يغلب عليها طابع الخرافة ولا تلقى بالا إلى أن الأحجار فى الطبيعة معروف أن لها ألوانا عديدة من الأبيض والبنى بدرجاته والأحمر والأسود والرمادى . وذكر أن الحجر الأسود والمقام من أحجار الجنة. راجع الأزرقى، المرجع السابق، ج١، ص٣٤٢؛ ياقوت، المرجع السابق، ج٢، ص٢٢٣؛ وراجع تعليق المترجمة على حاشية رقم ١٠٨ الفصل الثامن . (المترجمة)

وإذا افترضنا أن البيت (bayt) والكعبة (kaba) كانا في الأصل يشيران إلى حجر مكة أكثر من البناء المحيط بها، إذن فإن إله هذا البيت هو إله وثني يعبد مقترنا بزوجة أنثى مثل العُزى وبنات أخريات لله أو "بنات الله"(١١٢). وهذا يقودنا لوجود عبادة وثنية أصيلة لقريش، كما يفسر لنا في الوقت نفسه تكريسهم للربات(*)(١١٣).

ولما كانت قريش تعبد الله فماذا كان يفعل هُبل في هيكلهم؟ بل الواقع ماذا كان يفعل البيت ؟ فلا يمكن تقديم قرابين لحجر معلق على الحائط ، كما أن إقامة تمثال لهبل ووضعه في الكعبة ليس له معنى حول حجر يمثل الله(**)، وبطبيعة الحال كانت قريش تدين بالتعدد ، وكانت الآلهة الوثنية العربية تفضل أن يكون لكل منها معبدها المستقل ، فنحن لا نعرف أن معابد قبل الإسلام سواء لحجر أو لبناء ، كانت تضم أكثر من معبود ذكر واحد منها ، وعارض العرب فكرة وجود إله ذكر ومعه زوجته الأنثى. كما أن الله الذي ذكر في النقش ، الذي يرجع للقرن الثاني الميلادي لم يُرغم على أن يشارك في بيته آلهة أخرى(١١٤). والشيء نفسه مع الأضرحة الإسلامية التي يضم كل منها قبر شيخ واحد(***). إن قريشاً لم تكن تسمح لهبل أن يشترك مع الله في معبده ، إذا كان الله هو إله وثني مثل الآخرين ، ليس لأنهم كانوا موحدين، ولكن لأنهم كانوا مشركين على وجه التحديد(****).

(*) يلاحظ القارئ أن هذه القبائل التي كان لها طقوس عبادة ترتبط بحجر هي جميعها قبائل عربية انتقلت وتحركت إلى شمال بلاد العرب. ويذكر ابن إسحاق "أن أول عبادة الحجارة في بني إسماعيل، أنه كان لا يَظْعَن من مكة ظاعن منهم ، حين ضاقت عليهم ، والتمسوا الفسح في البلاد ، إلا حمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم، فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم في الكعبة ، حتى سلخ ذلك إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة ، وأعجبهم ؛ حتى خلف الخلوف، ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره، فعبدوا الأوثان ، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات" . (المترجمة)

(**) يلاحظ أن فرضية كرون التي قدمتها في أعلى الصفحة بأن الحجر الأسود وليس البناء المحيط به كان هو بيت الله، قد حولتها هنا إلى حقيقة تاريخية . (المترجمة)

(***) جاءت المقارنة هنا في غير مكانها لوجود فارق بين المعبد الذي يخصص لإله أو عدة آلهة وبين الضريح الإسلامي الذي يضم قبرا لأحد الشيوخ الصالحين . (المترجمة)

(****) عرف العرب وجود الله سبحانه وتعالى بالرغم من عبادتهم للأصنام وهو أمر لم يكن بغريب عليهم أو على غيرهم من الشعوب القديمة ، فقد عرف اليهود الله سبحانه وتعالى، وبالرغم من ذلك عبد يهود =

ينبغي على المرء أن يعود ثانية للرأى الذى يرى أن الله لم يكن إلهًا مثل الآلهة الأخرى . فمن ناحية يمكن أن يكون الله هو اسم مرادف لهبل كما يرى فيلهاوزن : مثل اليهود الذين يعرفون إلههم يهوه باسم إلوهيم (Elohim) ، كذلك فإن العرب ، عرفوا هبل بالله ، والذى يعنى بسهولة "الرب"[١١٥] ويترتب على ذلك أن يكون سادن هُبل هو نفسه سادن الله . أما قريش فلم تكن سادنة لهبل أو سادنة لله . ولاحظ فيلهاوزن توقف استخدام اسم الله منذ فترة طويلة ، ولم يعد اصطلاحا يطلق على أى معبود . وكان الله اسمًا شخصيا لعبادة معينة ، تقف على قدم المساواة مع عبادة اللات، ولم تكن صفة تعنى الرب (الله) . وأصبح لهذه العبادة سادنها الخاص بها فى القرن الثانى[١١٦]. وعندما وصف عبد المطلب أنه كان يؤدى الصلاة لله ، بينما كان يقوم باستشارة الأقداح، فقد جاء ذلك لأن المصادر كانت تصف بوضوح وثنية جد النبى الخالصة، وليس لأن الله وهبل كانا يمثلان إلهًا واحداً . وكان يجب أن يظل هُبل على قيد الحياة لو كان سميًّا لله[١١٧] ، ولكنه لم يكن كذلك ، بالإضافة إلى أنه لا يوجد فى الروايات ما يشير إلى أنه قد طُلب من الأفراد أن يتركوا إلها منهما لصالح الآخر[١١٨].

ومن ناحية أخرى فمن المفروض أن الله (Allah) هو إلهٌ كبير فوق كل الآلهة الأخرى. وفى الواقع فتلك هى الصورة التى رآه بها فيلهاوزن وقدمه بها وات (Watt)[١١٩]. ولكن لم تكن هى صورته التى ظهر بها من خلال النقوش التى كان فيها يمثل إلهًا لمجموعة خاصة من الأفراد[١٢٠]، والتى عرف فيها باسم الله ولا يوجد فيها ثمة دليل على سموه : ولم تكن الربة "اللات" أكثر تفوقًا من "العزى" أو "مناة" ، ولكن هذا الإله يمكنه أن يتطور ويرتقى ليصبح مثل الله [سبحانه وتعالى] الذى ظهر فى القرآن كما يرى كل من فيلهاوزن و وات . وعلى أى حال فإذا قبلنا هذا الرأى فنحن بهذا نكون فى

= إلفنتين (أسوان) فى مصر آلهة وثنية ، وتشير الوثائق الآرامية التى عثر عليها فى ألفنتين إلى أنه كان لديهم خمسة آلهة . كما كانت العلاقات ودية بين يهود إلفنتين وكهنة الإله المصرى خنوم حتى أواخر القرن الخامس ق.م . راجع :

Cowley (A.), Aramic Papyri of the 5 th Cent. B.C., Oxford, 1923; Driver (G.R.), Aramic Document of the 5th cent. B.C., Oxford, 1924 . (المترجمة)

الاتجاه نحو حل مشكلة عدم وجود سدنة مختصين بخدمته . والذين يرون أنه كان إلهًا ساميًا ، وأنه إله عالمي ، حيادي عادل ، لذلك منع وجود شعائر خاصة له كما لاحظ فيلهاوزن(*)، كذلك لم يكرس له معبد فيما عدا أنه كان يمكن أن يتماثل مع الآلهة العادية(١٢١). ويبدو أن هذا الإله السامي في العربية لم يكن في حاجة ولن يستفيد من الشعائر التي تربطه بمجموعة خاصة من المتعبدين (ويمكن أن يكون فيلهاوزن قد أخطأ فيما ذهب إليه قربما استفاد هذا الإله السامي في العربية من مثل هذه الروابط) ، ولكن إذا كان الأمر على هذا النحو فهذا يعني أننا نعود مرة أخرى لمشكلة مشاركة هذه الروابط مع هُبل .

وإذا كانت قريش سادنة هذا الإله الذي يسمو فوق جميع الآلهة الأخرى، فربما تكون بداياتهم قد بدأت كسدنة لإله آخر. ولكن قريشًا لم تظهر على أنها كانت سادنة لهُبل ، كما أن هُبل لا يتطابق مع الله كما سبق ورأينا، إضافة إلى أن شعائره لم تُعضد الله بأي طريقة(١٢٢). وإذا سلمنا جدلاً بأنهم بدءوا سدنة الله الذي تطور وأصبح إلهًا ساميًا ، فنحن هنا نكون قد عدنا إلى المشكلة نفسها وهي مشكلة وجود هُبل في معبده ، وفي حقيقة الأمر إن وجود هُبل - والله في مكة يعد أمرًا غريبًا ! هل كان يمكن لمثل هذا المعبد الاستمرار في ضوء الحقائق التاريخية ؟ يبدو أنه كان يوجد معبدان على الأقل خلف الهيكل الذي تذكره الرواية ، ولكن قريشًا لم تعمل سادنة لأي منهما(**).

(*) عرف العرب أن الله سبحانه هو رب البيت ، ولذلك لم يكن له شعائر خاصة كما لاحظ فيلهاوزن وهو محق في ملاحظته ، وكما حافظ العرب على ذلك فقد حافظوا على الحج الإبراهيمي أيضا، وإن كانوا قد خلطوا المظاهر الوثنية به معًا . (المترجمة)

(**) يتضح للقارئ هنا مدى التخبط الذي وقعت فيه كرون عند مناقشة هذه القضية الخاصة بعبادة الله، ووجود تمثال هبل في الكعبة والتي خرجت منها بنتيجة" أن هبل لم يتطابق مع الله، وأن وجوده في الكعبة يعد أمرا غريبا" حيث إنها هنا قد أغفلت تماما حقيقة أن قريشًا قد جمعت بين التوحيد ، ديانة إبراهيم عليه السلام وبين الوثنية ، وأن الكعبة كان يوجد فيها أصنام لآلهة أخرى مثل اللات والعزى. ولم تذكر للقارئ السبب في وجود هذه التماثيل في الكعبة ، وتذكر الرواية الإسلامية أن عمرو بن لُحي هو أول من أحضر هُبل من شمال الجزيرة العربية وهو في هذا يشبه السامري الذي نصب لليهود عجلا له خوار ليعبدوه إلى جانب عبادتهم لله سبحانه وتعالى على الرغم من أنهم أهل عقيدة سماوية. ولقد ظلت هذه الأصنام قائمة في الكعبة حتى مَنَّ الله سبحانه وتعالى على الرسول (ﷺ) بالفتح وقام بتحطيمها هو ومن معه من المسلمين وطهر منها بيت الله الحرام . أما المعبدان اللذان رجحت وجودهما خلف الهيكل فلا تذكر لنا المصادر التي اعتمدت عليها في هذا الترجيح . (المترجمة)

وعلى الرغم مما تقدم فهناك إمكانية الافتراض بقيام قريش بالسدانة، وظهرت قريش فى المصادر على أنها من أرباب المهنة . وقاموا كأرباب المهنة باستشارة الكهنة، والكاهنات عندما كانت تواجههم مشكلة ، كما قاموا باستشارة أقداح هبل ليقدم لهم نصيحة الخبير. ولأنهم أيضًا من أصحاب المهنة فقد كانوا أحرارًا فى أن يقدموا تكريسهم لأى عدد من الآلهة يرغبون فيها، وكانوا يلحقون بجموع من عدنان ومضر حول العزى فى نخلة[١٢٣]، ويقومون ويلحقون بزيارة اللات فى الطائف ومناة عند قضاعة (Gudayd) ، ويؤدون حجا سنويا لمعبود فى باوانا (Bawana)[١٢٤]، ويقومون بالحج السنوى خارج مكة(*). ولا يوجد مما تقدم شىء يدل على علاقة خاصة أو استفادة من إله معين، كما أننا لم نر قريشًا تلعب أى دور فى الخدمات الدينية للآلهة الآخرين ، إن الرواية ترجع فضلهم فى السدانة على اعتبارات أن حرم مكة يعد ذروة الحج الإبراهيمى ، وعندما نرى قريشًا وهى تغادر المدينة فى وضع الإحرام ، فينبغى أن لا نأخذ ما تصر عليه المصادر من أن قريشًا كانت تذهب لتأدية الحج فى أماكن بعيدة ، بل على العكس من ذلك فإنهم كانوا يقومون بذلك لكى يعودوا حجاجًا للمدينة نفسها التى خرجوا منها؛ أى أنه لم يكن يوجد شىء فى السدانة بخلاف الحج(**). وعلى هذا تعد قريش سادنة بمعنى أنهم يقومون برعاية الحجاج المسلمين للبيت المقدس لإله المسلمين، أما جميع الطقوس الوثنية الخالصة فقد كانت فى أيدى الآخرين. وعلى هذا فإذا قمنا بإبعاد العناصر الإسلامية ، فنحن هنا نكون قد أنهينا مشكلة السدانة ، ونترك القرشين يعملون تجارًا عاديين .

وعلى هذا يمكن أن نلخص العلاقة بين مكة وتجارة قريش على النحو التالى: لقد قيل إن السبب فى نمو تجارة قريش يرجع لأن مكة كانت تعد محطة على طريق البخور

(*) لم يكن هناك حج سنوى خارج مكة، ولكنه كان يبدأ منها وينتهى إليها . راجع التعليق ص١٤-٢٤ . (المترجمة)

(**) يلاحظ القارئ هنا أن كرون تعترف بوجود حج فى مكة ، كما أنها أحجمت عن ذكر المصادر التى تذكر أن قريشًا كانت تذهب لتأدية الحج فى أماكن بعيدة ! (المترجمة)

لوقوعها على مفترق طرق تجارية مهمة في العربية ، وخاصة لأن بيتها المقدس كان يجذب إليه الحجاج مرة كل سنة وبسبب تقديمها الحماية الدائمة للراغبين فى الإقامة فيها . وظهر الآن أن جميع هذه الادعاءات غير صائبة ؛ لأن مكة لم تقع على طريق البخور ، كما أنها لم تكن فى مفترق الطرق التجارية في بلاد العرب . إضافة إلى أنها لم تكن مكانًا للحج ، فهى لم تكن مدينة مقدسة(*)، وحتى إذا كانت كذلك فيبدو أن قريشًا لم تكن سادنتها(**). إضافة إلى أنها لم تكفل أى نوع من الحماية لأولئك الراغبين في الإقامة فيها ، ويرجع الفضل للأمان الذى تمتع به المقيمون فى مكة للتحالفات التى عقدت مع أفراد قريش وليس بسبب القداسة التى افتُرضت فى أراضي مكة[١٢٥]، وكان المكان مجدبًا ، يفتقر إلى الخلفية الزراعية فيما عدا الطائف ، ولم يكن مجهزًا للتجارة البحرية ، وكان يقع بعيداً عما وصفته القبائل بطريق القوافل المتجه لسوريا(***).

ونحن نتساءل الآن هل كان لقريش حقيقة مركز تجارى فى هذا المكان ؟ وإذا قبل البعض هذا الرأى ، فينبغى أن نعترف بأن القرشيين تمكنوا من أن يصبحوا تجاراً بالرغم من طبيعة المكان الذى يقيمون فيه وليس بسببه ، كذلك نحن نكون بحاجة إلى

(*) نجد فى الخبر الذى أورده المسعودى والذى يفيد بذهاب الفرس إلى مكة وطوافهم بالبيت وحجهم وإهدائهم الأموال والجواهر للكعبة ومنها غزالتين من ذهب وجواهر وسيوف وذهب كثير أهداها ساسان بن بابك ما يدل على تعظيم الفرس لبيت مكة دون غيره من البيوت فما بالنا بتعظيم وتقديس العرب لها ؟! لقد فاخر بعض شعرائهم بعد ظهور الإسلام بذلك حيث قال أحدهم :

وما زلنا نحج البيت قدماً ونلقى بالأباطح آمنينا
وساسان بن بابك سار حتى أتى البيت العتيق يطوف بينا
فطاف به وزمزم عند بئر لإسماعيل تروى الشاربينا

المسعودى ، مروج الذهب ، جـ١ ، ص ٢٤٢ . (المترجمة)

(**) كانت السدانة فى يد بنى عبد الدار وظلت كذلك حتى فتح مكة وإسلام قريش حيث ألغى النبى (ﷺ) كل المناصب بها ولم يبق إلا على السقاية والسدانة تقديراً لأهميتهما ودفع عليه الصلاة والسلام المفتاح إلى عثمان بن طلحة ثم قال : "... خذوه يا بنى أبى طلحة بأمانة الله سبحانه واعملوا فيها بالمعروف خالدة تالدة لا ينزعها من أيديكم إلا ظالم" . الأزرقى : أخبار مكة ، جـ١ ، ص ١١٠ ، ١١١ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٨٨ ؛ الشيبى (محمد صالح بن أحمد ت ١٣٣٥) : إعلام الأنام بتاريخ بيت الله الحرام ، تحقيق إسماعيل حافظ ، جـ١ ، مكة المكرمة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ ، ص ٢٤٧ . (المترجمة)

(***) سبق التعليق على جميع هذه النقاط فى الفصلين الأول والثانى من هذه الترجمة . (المترجمة)

إعادة تفسير طبيعة تلك التجارة، وأن نسلم بأنها اعتمدت اعتماداً كبيراً على استقلال مكة ، وكانت تشبه بدرجة أو أخرى المثال الذى قدمناه عن العَقَّال (uqayli). أما إذا رفضنا مطابقة مكة القديمة بمكة الحديثة ، فيمكننا أن نضعهم فى مكان يقع فى شمال غرب العربية ، هنا يمكن قبول الصورة التى قدمت عن تجارتهم ، ولكن فى المقابل نكون قد تركنا علاقاتهم التجارية مع الجنوب مبهمة ، وفى كل الأحوال فالمصادر الخاصة بظهور الإسلام قد جانبها الصواب فى جانب رئيسى أو أكثر .

أما فيما يتعلق بوجهة النظر الخاصة بظهور الإسلام فيمكن إعادة ترتيب المشكلة على النحو التالى : يبدو أننا سنُرجع جميع أركان سيرة محمد [ﷺ] إلى شمال غرب العربية. هنا تصبح التجارة أكثر حيوية، بل أكثر وضوحاً وأهمية فى واقع الأمر ، دون أن يكون لها امتداد نحو جنوب العربية والحبشة . وإذا كان هناك ثمة مركز تجارى لقريش فى الشمال ، فسوف نضع هذا المركز فى مكان موكا(*) (Moka) التى ذكرها بطلميوس(١٢٦)، وهى تقع إلى الشمال بعض الشىء، حيث كان يوجد معبد فى الصحراء له أهميته لجميع العرب كما قال نونوسوس (Nonnosus)(١٢٧) فمكة كانت فى الأصل معبداً فى الصحراء كما قال الكلبى(١٢٨) ويبدو أنه كان أحد الأبنية التى تذكر الروايات أن معاوية شمله بنشاطه العمرانى هناك(١٢٩)، ويبدو أن المعبد الذى حوله إلى "مدن وقصور"(١٣٠)، كان يقع فى شمال العربية(١٣١). كما ثبت وجود جماعات يهودية فى شمال غربى العربية . بل وُثقت عقيدة التوحيد الإبراهيمية هناك(١٣٢)، إن النبى الذى أتى بديانة جديدة انبثقت من هذه العقيدة(**) كان هو نفسه تاجراً فى شمال غرب العربية . هذا على الرغم من أن كل ما قدر له أن يدور من الأحداث حدث إلى الجنوب بعض الشىء، فى مكان وصف على أنه معبد مقدس لمدينة ، سُكنت منذ تاريخ

(*) أود أن أشير هنا وأنبه القارئ إلى أن هذا الجانب هو جوهر القضية ولب الموضوع الذى تسعى إليه كرون منذ البداية وقامت ببحثه تحت موضوع التجارة، والذى سوف تنطلق منه إلى التشكيك فى جوانب أخرى من العقيدة الإسلامية والتاريخ الإسلامى ومصادره كما سيرى القارئ بعد قليل وعلى سبيل المثال لا الحصر تاريخ غزوة بدر التى وثقها القرآن الكريم . راجع ص٢٣٥ وما يليها؛ ص٣٧٢ والتعليق عليها . (المترجمة)
(**) عن الإسلام دين الله سبحانه وتعالى ، الواحد والوحيد راجع حاشية المترجمة ص٣٠٩ وما يليها .

غير معروف[١٣٣]، وتقع كما ذكرها البعض في منطقة غير عادية خالية من الزرع[١٣٤]، خاصة بقبائل جنوبية مثل جرهم وخزاعة (Khuza) ، ولها صلات مع كل من اليمن والحبشة ، وتتزين ببناء يضم صنم هُبل وكهنته[١٣٥]. لماذا ؟ وما العلاقة التاريخية بين هذه الأماكن ؟ ثم ما الحل النهائي لهذه المشاكل ؟ ومن سوء الحظ إننا لم نتمكن من أن نجده بين الكم الهائل من الأساطير التى تنشر حوله(*).

(*) لقد دارت كرون حول فرضيات من أفكارها، هدفها الأساسي النفاذ إلى العقيدة الإسلامية خلف ستار التجارة وتحت مظلة البحث التاريخي العلمي الزائف، فهي تقدم الفرضية ثم تقوم بنفيها، وبعد النفي تعيدها مرة أخرى إلى صدر الصورة ، في سلسلة طويلة من الفرضيات التى لا تقدم لنا مصدرها الذى اعتمدت عليه فيها ، ولكنها تستخدمها بعد ذلك كما لو أنها حقيقة مؤكدة ، فقد قامت كما هو واضح للقارئ بالتشكيك في مصادر تاريخ الفترة ، وإذا استخدمت بعضها فإنها تأتي بنصوص مبتورة وغيرت بذلك من المواقع الجغرافية ، فمكة ليست في مكانها المعروف والثابت، والبيت الحرام يوجد في شمال غرب بلاد العرب ، وتكاد تطابقه بالمعبد الذى ذكره نونوسوس هناك، بل تدعى أن ظهور الرسول (ﷺ) كان في بلقا، على الرغم من تأكيدها "على أن الأحداث التى ارتبطت به قدر لها أن تدور إلى الجنوب" هكذا تظن أن القارئ في غفلة من أمره، ولا شك في أنها تملك قدرا كبيرا من الخيال يؤهلها لأن تكتب قصة أدبية مستمدة من التاريخ وليس البحث في موضوع تاريخي على أساس علمي . وحاولت تحت مظلة من البحث التاريخي المزيف أن تلغي الأحداث المهمة التى شكلت التاريخ الإسلامي ، وحاولت أن تنفذ منها إلى صلب العقيدة ، وقمنا بدحض هذه الفرضيات الواحدة وراء الآخر في إطار من البحث التاريخي العلمي، راجع أيضًا الفصل التاسع والعاشر من الترجمة . (المترجمة)

الحواشي

(١) F.M. Donner, The Early Islamic Conquest, p.51

(٢) Watt, Muhammad at Mecca, p.3.

(٣) اعتقد جروهمان أن مكة كانت لها أهمية دينية كبيرة كما كانت مركزا تجاريا في العصور القديمة، "Makoraba" ، وبالمثل في كتابه .Capital Cities, pp.4f؛ واعتقد دونر أنها كانت تعد سوقا للحجاج لقرون قبل ظهور الإسلام (Conquests, p.51) وعن الآراء الأخرى راجع: المناقشات التى دارت حولها والتى ذكرها سيمون فى Simon, "Hums et Ilaf", p.206m .

(٤) راجع على سبيل المثال Lammeus, "Republique marchande", pp.33f.; Margoliouth, Mohammed, pp.13f.; Rodinson, Mahammed, p.39; Shaban, Islamic History, I,p.3; Hitti,Capital cities, p.5; Kister, "Some Reports" , p.76.

(٥) راجع الفصل الخامس، ص٢١١-٢١٢ أعلاه.

(٦) الأغاني ، ج١٥، ص١٢ وما يليها؛ المسعودي، مروج، ج٢، ص٩٠ .

(٧) A.Jamme, ed. And tr., The Al-Uqlah Texts (Documentation Sud- Arabe, III), (Ja 919-931) pp.38.44 . وسبق نشر النقوش في جزأين من قبل ، ولكن الكلمات المتعارضة لم يتم تفسيرها بعد ، راجع Repertoire d'Epigraphie Semitique, v11, no. 4.829, 4, 862 .

(٨) وصف جامي Jamme النساء على أنهن قرشيات وظن بإمكانية أن يكون كلمة هنديين Hindites تعني هنوداً ، ولكن لم يذكر شيئًا بخصوص تعريف تدمر Tadmar وكاسد Kasd (Al-Uqlah Texts, pp.17,25, 38f., 45) وأدين بالشكر لاقتراح الأستاذ بيستون A.F.L. Beeston، الذى قال أنه يبدو أننا نرى هنوداً وكلدانيين وتدمريين وقرشيين معا (اتصالات شخصية).

(٩) Cf. EI2, S.V. Kusayy

(١٠) لم يذكر جامي Jamme أى افتراض لما كانوا يقومون بعمله على الرغم من أنه يظن أن الاجتماع لابد من أن يكون له أسباب أخرى غير التجارة Al-Uqlah Texts, p. 25 .

(١١) ذكر المرزوقي الرواية كاملة في الأزمنة ، ج٢، ص١٦١ وما يليها، وذكرت الرواية المختصرة لدى ابن حبيب في المحبر، ص٢٦٣ وما يليها؛ أبو حيان، الإماطة ، ج١، ص٨٣ وما يليها؛ اليعقوبي، التاريخ، ج١، ص٣١٣ وما يليها؛ القلقشندي، صبح، ج١، ص٤١٠ وما يليها ؛ كما أعيد تقديم الجزء الخاص بأسواق الحجاج ولكن بشكل مختلف لدى كل من :الأزرقي، مكة، ص١٢٩ وما يليها؛ ابن حبيب، المنمق، ص٢٧٤

وما يليها. وهناك بعض المعلومات الإضافية وردت لدى: البكرى، المعجم، ص٦٦٠ وما يليها؛ ياقوت البلدان، ج٣، ص٧٠٤ وما يليها؛ مادة عكاظ لديهما. وبصفة عامة راجع : الأفغانى، أسواق العرب فى الإسلام.

(١٢) وذكر أبو حيان ، الإحاطة، ص٨٥ (ثم يقفون بعرفة ويقضون ما عليهم من مناسك ثم يتوجهون إلى أوطانهم).

(١٣) اليعقوبى ، تاريخ، ج١، ص٣١٤؛ ابن حبيب، المنمق، ص٢٧٥؛ والمحبر، ص٢٦٧؛ المرزوقى، الأزمنة، ج٢، ص١٦٦؛ الأزرقى، مكة، ص١٢٩ . وقارن ما ذكر بالأغانى، ج٢٢، ص٥٧ ، حيث وضح أن سوق عكاظ يظل قائما بصفة مستمرة حتى بداية الحج (*) .

(١٤) الأزرقى، مكة، ص١٣٠؛ المرزوقى ،الأزمنة ، ج٢، ص١٦٦ .

(١٥) الأزرقى، مكة، ص١٣٠؛ وراجع أيضًا ص١٢٩: ابن حبيب ، المنمق ، ص٢٧٥ "كان يوم التروية آخر أسواقهم" .

(١٦) يعد ابن الكلبى هو صاحب القائمة الكاملة الموثوق بها لدى المرزوقى، بينما يعد الكلبى هو المصدر الموثوق به للجزء المرتبط بأسواق الحج وما يرتبط بها لدى الأزرقى (Makka, p.122) . فالإسناد لدى الأزرقى هو عن أبى صالح Abu salih عن ابن عباس ، مشيرا إلى أن المعلومات مصدرها كتاب التفسير Tafser المفقود للكلبى (راجع تاريخ الكتابة العربية F.Sezgin, Geschichte des arabischen Schrifttums, I, 34f. ، ويعتقد سيزكين Sezgin أن عمله ما يزال فى حاجة إلى الإثبات (راجع الفصل التاسع أدناه، حاشية رقم ٥٩).

(١٧) الطبرى : جامع، ج٢، ص١٥٨ وما يليها، رواه عن مجاهد وعمرو بن دينار وكلاهما عن بن عباس، وبالمثل M.J. Kister, "Labbayka, Allahumma, Labbayka ...on a monotheistic Aspect of a Jahiliyya practice," pp.37f., رواية مقاتل وآخرين ؛ راجع أيضًا Some Reports, p.76 والحاشية المذكورة هناك (حيث تم تفسير المصدر بطريقة مختلفة).

(١٨) الطبرى، جامع، ج٢، ص١٥٩ رواية مجاهد عن عرفة، وسعد بن جبير من المدينة.

(١٩) راجع اليعقوبى، تاريخ، ج١، ص٢٩٨، حيث قدم الحمس والحلة على أنهما مختلفان فى هذا الجانب .

(٢٠) الطبرى، جامع، ج٢، ص١٥٩ وما يليها؛ محمد بن الحسن الطوسى، التبيان فى تفسير القرآن، ج٢، ص١٦٦؛ ابن كثير، تفسير، ج١، ص٢٣٩؛ الواقدى، أنساب، ص٤١ وما يليها (وقد ذكر فى عملية السابقين الفكرة القائلة بأن عرب قبل الإسلام هم الذين شعروا بخطأ التجارة أثناء الحج).

(٢١) راجع الأزرقى، مكة، ص١٣٠ وما يليها، وقد تعودوا عدم الشراء أو البيع يوم عرفة أو فى خلال أيام منى ، ثم سمح الله لهم بذلك بعد أن أنزل الإسلام ، كما دلهم الله تعالى على ذلك فى القرآن الكريم ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ وعندما هُجرت أسواق عكاظ وذو المجاز ومجنة أقاموا أسواقا فى مكة ومنى وعرفة). وراجع انعكاس الفكرة نفسها أيضًا فى التعليق على السورة رقم ٢٢ : ٢٨

(*) ليس كل من يذهب إلى المواسم كان يقوم بتأدية مناسك الحج . (المترجمة)

وما يليها ، وكثيراً ما فهمت كلمة منافع على أنها تشير للتجارة : رخصة لهم في الركوب والمتاجرة كما فسرها مجاهد، انظر الطبرى، جامع، ج١٧، ص٩٣ ؛ وأيضاً المرجع نفسه ، ج٢، ص١٥٩ فى تفسير السورة رقم ٢، الآية ١٩٤ . (*)

(٢٢) الأزرقى ، مكة ، ص١٢١ .

(٢٣) مقاتل المذكور لدى كيستر فى Some Reports; p.79;P ؛ البيضاوى ، أنوار، ج١، ص٤٩٦ .

(٢٤) الطبرى، جامع، ج١٠، ٦٦ وما يليها. السيوطي، الدُر، ج٣، ص٢٢٧؛ ابن كثير، تفسير، ج٢، ص٣٤٦ وما يليها؛ البيضاوى، أنوار،ص١٤٩٦؛ راجع أيضاً ، الطوسى، تبيان، ج٥، ص٢٠١ .

(٢٥) انظر أعلاه الفصل الخامس ، ص٢٠٠ وما يليها. ولاحظ أن شعب تبالا وجرش الذين أوضح الكلبى فى روايته أن المكيين كانوا يحصلون منهما على التموين بعد الرحلتين أصبحوا أكثر أهمية بالنسبة لهم، كما أوضح البيضاوى فى روايته كيف كانوا يحصلون على حاجتهم من التموين بعد أن تم منع غير المؤمنين من الاقتراب من البيت الحرام .

(٢٦) Wellhausen, Reste, pp.79ff.

(٢٧) "أحضرها لسوق عكاظ فى الحرم" ، وذكر لنا عن محاولة أحد الأفراد القيام ببيع سيف فى عكاظ بعد أن قتل صاحبه فى الحرم ، الأغانى ، ج١١، ص١١٩. وعن تواريخ الأسواق راجع القائمة التي ذكرت في حاشية رقم (١١) أعلاه .

(٢٨) ابن حبيب، المنمق، ص٢٧٥ .

(٢٩) ابن حبيب المنمق، ص١٩٦. "قدم سوق عكاظ فوجد الناس فى عكاظ قد حضروا السوق والناس محرمون للحج" .

(٣٠) الأزرقى، مكة ، ص١٣٢ .

(٣١) Wellhausen, Reste, pp. 79 ff.

(٣٢) Wellhausen, Reste, p.83 n; cf. ibid., p.81; below, p. 188; Kister, "Mecca and Tamim", pp.141 f. 155 ناقش كيستر ذلك معارضا رأى فيلهاوزن على أساس أن قريشا هى التي استفادت من تميم (وهم الذين كانوا يشغلون معظم الوظائف المهمة) فى أعمالهم : وأكملت تميم نظام المكيين . ولكن لما كانت المصادر قد أوضحت أنه لم يسبق لأى قرشى شغل هذه المناصب المذكورة ، لذلك فمن الصعب أن نرى كيف كان يمكنها أن تكون فى مركز التفاوض معهم .

(٣٣) Lammens, "Repulique Marchande," p. 35.

(٣٤) اعتبر المرزوقى منى سوقا قبل الإسلام ؛ الأزمنة، ج٢، ص١٦١، وعن تجارة الحج فى منى راجع: الطبرى، جامع، ج٢، ص١٥٩، عن السورة ٢ : ١٩٤ (**) حيث أكد على منع التجارة هناك ؛ أما الأزرقى،

(*) سورة البقرة، الآية ١٩٤ لا يوجد فيها شىء يشير إلى ما تذكره كرون. (المترجمة)

(**) راجع تعليق المترجمة على السورة ، المذكور فى ص٢٩٢ أدناه .

مكة، ص٣٩٩، فقد ذكر ضمنا عدم منعها . وعن قيام العباس بن عبد المطلب ببيع العطور اليمنية في منى خلال موسم الحج راجع الفصل الرابع أعلاه ، حاشية رقم (٣٤). وليس هناك ما يوضح شيئا بخصوص عرفة .

(٣٥) راجع أعلاه حاشية رقم ٢١ .

(٣٦) الأزرقي، مكة ، ص١٣٠ .

(٣٧) راجع :ابن هشام، السيرة، ص٢٨١ وما يليها، الذى ذكر منى فقط في شرحه؛ وذكر بن سعد في الطبقات، ج١، ص٢١٦، أن الرسول [ﷺ] كان يقابل الحجاج كل عام في منازل المواسم ، والأماكن التي ورد ذكرها هي عكاظ ومجنة وذو المجاز ومنى، وبالمثل في أبي نعيم، دلائل ، رواية الواقدى ؛ البكرى ، معجم ، ص٦٦١ (مادة عكاظ) رواه أبو الزبير عن جابر . ولكن لاحظ كيف ساوى ابن سعد بين التجول في هذه الأماكن وبين البقاء في مكة.

(٣٨) ابن هشام، السيرة، ص٢٨٦؛ ابن سعد، طبقات، ج١، ص٢١٧، (حيث كان أهل يثرب يقومون بحلق رءوسهم؛ راجع: ص٢٢١؛ أبو نعيم ، دلائل ، ص٢٥٣–٢٦١ ؛ رواه ابن إسحاق وعروة بن الزبير .

(٣٩) وهناك عدد من القصص تنافس الرواية الموثوق بها عن كيف قابل محمد [ﷺ] الأنصار عند العقبة، وهناك من يرى أن المقابلة الأولى تمت في مكة؛ ولكن الأنصارى الذى ذهب إلى مكة لم يذهب إليها للحج. وتذكر إحدى الروايات أن اثنين من الخزرج ذهبا إلى مكة ليسلما منافرة (مباراة في التفاخر) لعتبة ابن الربيع ؛ وعرض عليهما الرسول [ﷺ] الإسلام فأسلما وعادا إلى المدينة بديانة جديدة (ابن حجر، الإصابة ، ج١، ص٣٢؛ رقم ١١١؛ ج٢، ص١٧٢، رقم ٢٤٣٢ ، وهما أسد بن زرارة ودهقان بن عبد القيس وقد ظهر الرجلان أيضاً في الروايات الموثوق بها). وهناك رواية أخرى تقول إن عددا من الأوس ذهبوا إلى مكة لكي يطلبوا من قريش مساعدتها ضد الخزرج ومكثوا هناك عند عتبة بن ربيعة ولكن قريشا رفضت مساعدتهم ، وعرض محمد [ﷺ] عليهم الإسلام حيث تحول إليه أحدهم وهو ليث بن معاذ، ولكنه مات بعد ذلك بقليل. وتظاهرت الأوس بأنهم ذاهبون إلى مكة لأداء العمرة Umra ولكنهم قابلوا محمدا في مكان في ذى المجاز (ابن سعد، طبقات، ج٣، ص٤٣٧ وما يليها؛ ابن هشام ، السيرة، ص٢٨٥ وما يليها)، راجع الرواية المختصرة المذكورة لدى (البلاذرى، أنساب، ج١، ص٢٣٨) ثم دخل شخص آخر في الإسلام وهو أبو الهيثم ويبدو أنه كان قادما إلى مكة للغرض الذى سبق توضيحه (ابن سعد، المرجع السابق، ص٤٤٨) . وهناك قصة أخرى تقول إن أول من تحول للإسلام هو سويد بن الصامت الذى كان قادما إلى مكة لأداء العمرة أو الحج والذى توفي هو الآخر بعد فترة وجيزة من دخوله الإسلام. (ابن هشام، السيرة، ص٢٨٤، وذكر أيضاً لدى الطبرى، مجلد١٢،ص١٢٠٧ وما يليها؛ ولدى البلاذرى، نفس المرجع والصفحة) ومن النظرة الأولى نلاحظ أنه لدينا هنا لقاء محمد [ﷺ] مع الحجاج في مكة . ولكن حيث وصف محمد [ﷺ] بأنه كان يزور أسواق الحج في ذلك الوقت، فمكة تعنى هنا المواسم Mawasim للمناطق القريبة منها ، وهي على ما يبدو ذو المجاز (كما هو الحال في القصة الثانية). وهناك قصة أخرى تقول إن أحد الأنصار قدم لمكة لأداء العمرة وهو قيس بن الختم الذى تأثر بالرسول وناصره، ولكنه توفي قبل نهاية العام. البلاذرى ، أنساب، ج١، ص٢٣٨ .

(٤٠) تخلص فيلهاوزن بمهارة من ذلك بقوله في الخاتمة : " إننا يمكن إلى حد ما أن نعتبر أن مكة كانت واحدة من أسواق الحجاج"، (Reste, p.91) . ولم يوضح شيئا عن تجارة الحجاج في مكة وفي الواقع فإن حصر الرواية لوقوع الحدث الواحد في المواسم إما في عكاظ أو في ذى المجاز أو في مكة الآن فهو يعزى بالتأكيد إلى التطور الطبيعي للحدث الذى تقوم بوصفه وهو إحلال مكة محل عكاظ وذى المجاز في زيارة المسلمين للأماكن المقدسة.

(٤١) راجع :ابن هشام، السيرة، ص٨٧، وعندما أنشأ الرفادة ألقى خطبة بليغة توحى بأن الحجاج هم ضيوف الله. وفى ص٨٣ نجد أن قصيا هو الذى قام بإنشائها وألقى الخطبة نفسها ، ذلك على الرغم من أن الرفادة في ذلك الوقت كانت خاصة فقط بهؤلاء الحجاج الذين كانوا لا يستطيعون الإنفاق على أنفسهم.

(٤٢) راجع Kister, "Mecca and Tamim" , pp.136 والحاشية المذكورة هناك، ص١٢٧، ١٢٩ .

(٤٣) راجع الفصل الرابع ، حاشية رقم ١١ أعلاه .

(٤٤) راجع مارجيليوث .Margoliouth, Mohammed, p.13 فرض سادن هبل رسما على من يقوم باستشارة نبوءته، وكان زبائنه من قريش وليس من الحجاج القادمين إليها (وهو الموضوع الذى سأعود إليه بعد فترة قصيرة). كما ثبت وجود ضريبة على الزائرين البيزنطيين، ولكن ليس على الحجاج راجع: الأزرقى، مكة، ص١٠٧. أخذ لامينز كلمة حريم harim التى ذكرها ابن دُريد على أنها رسم فُرض على الحجاج (راجع: محمد بن الحسن بن دُريد، كتاب الاشتقاق، ص٢٨٢)؛ . Mecque, p.140 وعلى أى حال ففى الحقيقة فإن الحريم harim هى عبارة عن المساهمة فى أضحيات الحجاج الذين كانت قريش تستضيفهم فى مقابل رعايتها لهم ومدهم باحتياجاتهم (راجع Kister, Mecca and Tamim, p.136n) . وحتى إذا رُفض هذا التفسير؛ راجع القصة الأخرى لدى زويلم عن معانى الحريم ، المذكورة فى المصدر السابق من البلاذرى . Lapidus, The Arab Conquests, p.35 وقارن ذلك مع فيلهاوزن . Wellhausen, Reste, pp.89f

(٤٥) الطبرى، جامع، ج٢، ص١٦٠ ؛ ابن كثير، تفسير، ج١، ص٢٤٠ : "وهل كانت معايشهم إلا فى الحج" .

(٤٦) "كانت عكاظ وذو المجاز أسواقهم فى الجاهلية يقيمونها مواسم الحج وكانت معايشهم فيها". (البيضاوى، أنوار، ج١، ص١٤٥) ."كان متجر الناس فى الجاهلية عكاظًا وذا المجاز" (الطبرى، جامع، ج٢، ص١٥٩، رواه عمرو بن دينار عن ابن العباس). " كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقهم فى الجاهلية " (ابن كثير، تفسير، ج١، ص٢٣٩ . ورد ذكر جميع ما تقدم فى تفسير السورة رقم (٢)، آية ١٩٤ من القرآن الكريم والتى نزلت عن مواسم الحج (*).

(٤٧) "كانت قريش لا تتاجر إلا مع من ورد إليها "مكاتا" فى المواسم وبذى المجاز وسوق عكاظ وفى الأشهر الحرم" (**). ومن الواضح أن هذه الفقرة لا تصف الأماكن الأخرى البديلة أو تاريخ الوصول إليها؛ وكلمة

(*) صحة الآية هى رقم ١٩٨ من سورة البقرة راجع ٢٩٢ والحاشية المذكورة أدناه . (المترجمة)

(**) عن هذا النص راجع مقدمة المترجمة عن الحج قبل الإسلام ص ١٤ - ٢٤ من الترجمة. (المترجمة)

في المواسم هي مرادف في الأشهر الحرم ، وكان الناس يأتون فقط في الأشهر الحرم إلى ذي المجاز وعكاظ وحرف و Wa الأول والأخير واو (العطف) and ولكن بالأحرى يعني "وتلك هيThat is"، ولذا يجب أن تكون ترجمة الفقرة التالية على النحو التالي:" قد اعتادت قريش على أن تتاجر فقط مع أولئك الذين يحضرون إلى مكة في موسم الحج، والممثلة في ذي المجاز وسوق عكاظ في الأشهر الحرم" .

(٤٨) إن الأحداث التي وقعت في مكة في أحد المصادر سوف تقع في مصدر آخر في ذي المجاز أو في عكاظ.(راجع أعلاه حاشية رقم (٤)؛ وقارن المساواة بين مكة وذي المجاز في الحاشية رقم ٣٩). وعندما قال ابن سعد أن النبي [ﷺ] "ظل مقيما طوال فترة وجوده في مكة يدعو القبائل إلى الله، وكان يقدم نفسه إليهم كل عام في مجنة، وعكاظ ومنى"، فقد اعتبر أن هذه الأسواق أجزاءً من مكة دون أن يذكر شيئا صحيحا (طبقات، ج١، ص٢١٧، وبالمثل في ص٢١٦). وعندما تتحدث المصادر عن أسواق الحج فهي تتحدث عنها كما لو أنها "أسواق لمكة" (راجع الحاشية التالية)، فإنها تعود مرة أخرى إلى توضيحها بأنها امتداد لمكة أكثر من كونها أسواقًا تقع خارجها حيث يتاجر أهل مكة؛ ولاشك في أن القارئ في العصر الحديث يستطيع أن يتابع القضية .

(٤٩) البكري، معجم، ص٦٦٠، مادة عكاظ :"عكاظ ومجنة وذو المجاز كانت أسواقا لمكة". ابن سعد ، الطبقات، ج٣، ص٣٢٢ : "ذو المجاز كانت سوقا من أسواق مكة".

(٥٠) ياقوت الحموي، البلدان، ج٣، ص٧٠٥، مادة عكاظ، ذكرها الواقدي، راجع:ابن حبيب، المحبر،ص٢٦٧ (كانت عكاظ من أعظم أسواق العرب).

(٥١) راجع Wellhausen, Reste, pp. 84-97 ff .

(٥٢) هذه ليست وجهة نظر فيلهاوزن، ولكن قارن ذلك بوصف نونوسوس Nonnosus لمعبد عربي على الطراز نفسه كان يوجد فيه خليط من أسواق الحج التي عرفت من خلال الرواية الإسلامية، ويمكن أن يوصف بأنه شبيه له: فقد كان يتم زيارته خلال الأشهر الحرم الثلاثة ومن بينها رجب (راجع أدناه الحواشي رقم ١٢٧ و١٢٨)، ولاحظ أيضًا أنه يبدو أن العمرة كانت تتجه لذي المجاز كما جاء في إحدى الروايات بعد دخول المدينة في الإسلام والمذكور في الحاشية رقم ٣٩ أعلاه (*) .

(٥٣) تذكر إحدى العبارات في قصة حلف الفضول أن اليمني الذي كان قد ارتكب خطأ في مكة قدم لأداء العمرة والعمل بالتجارة (قدم مكة معتمرا بالهدى ، كما قال ابن أبي الحديد، شرح، ج٣،ص٤٦٤؛ القلعي ، اكتفاء ، ص١٤٦، رواية زبير بن بكر لدى الاثنين). وروى القلعي قصة النبوءة، كتاب الاكتفاء، ص٢٤٠ وما يليها؛ أبو النعيم ، دلائل، ص١٢٢، واصطحب اليثربي الذي كان يقوم بالعمرة معه تاجراً يهوديا، والذي كان لا يؤدي العمرة بطبيعة الحال. ولا أعرف أي قصة أخرى تذكر فيها العمرة مقترنة بالتجارة .

(٥٤) ليس هناك في الروايات ما يدل على وجود زيارات موسمية لهُبل. وعن الاقتراع (**) الذي كان يقدم له راجع الأزرقي ، مكة، ص٣١-٤٩ ، وقارن ذلك بالاقتراع الذي كان يقدم إلى اللات (راجع الفصل الثالث أعلاه حاشية رقم٤). وبطبيعة الحال لم يكن هناك علاقة بين هذا الاقتراع الذي يقدم له وبين التجارة.

(*) راجع تعليق المترجمة على هذا الموضوع في المقدمة ص ١٤ - ٢٤ . (المترجمة)

(**) تقصد هنا الاقتراع بالأقداح . (المترجمة)

(٥٥) ولذلك وجد نبيه بن الحجاج أنه من الصعوبة بمكان الاحتفاظ بزوجتيه من خلال ما استطاع أن يكتسبه من مال في يوم السوق بمكة (ابن حبيب، المنمق، ص٥٢) . كان أبو جهل يجلس في النهاية من السوق عندما قدم زبيدى ليشكو للرسول عن الظلم الذى وقع عليه (البلاذرى ، أنساب، ج١، ص١٣٠، وهى صورة أخرى من قصة حلف الفضول).

(٥٦) قام حراشى Irashi ببيع جمل لأبى جهل الذى رفض أن يدفع ثمنه وقام محمد [ﷺ] برد الظلم الذى وقع عليه (ابن هشام، السيرة، ص٢٥٧؛ البلاذرى، أنساب، ج١، ص١٢٨؛ أبو نعيم، دلائل ، ص١٦٦ وما يليها) وباع سُلَمى جمالا إلى أحد المكيين وقد رفض هو الآخر أن يقوم بدفع ثمنها (ابن حبيب، المنمق، ص١٦٤). وقام رجل من هذيل ببيع أغنام فى مكة بحضور أبى جهل (البلاذرى، أنساب، ج١، ص١٢٨)، وهى جميعها روايات متباينة عن حلف الفضول .

(٥٧) قام رجل من هذيل ببيع أحد أسرى الحرب فى مكة (راجع الفصل الرابع أعلاه حاشية رقم (٩٧). ولما كانت ذو المجاز تقع فى إقليم هذيل ، لذلك فمن المحتمل أن مكة كانت تقوم بحماية ذى المجاز.

(٥٨) باع أحد أفراد كنانة بضاعة غير محددة في مكة (ابن حبيب ، المنمق ، ص٢٧٥ وما يليها). ومن المفترض أنه هنا تم بيع سروالين لاثنين من بني عبد الدار قاموا بشرائهما من هَجر (راجع الفصل الرابع حاشية رقم ٧٥ .) كما تم تبادل السمار الحلو بنوع من البوص(راجع الفصل الثالث حاشية رقم ٤٩).

(٥٩) Kister, "Some Reports", p.77، ذكره الفاكهى .

(٦٠) ابن أبى الحديد، شرح، ج٣، ص٤٦٥ وما يليها؛ ابن عساكر، تطبيب، ج٧، ص٣٢٩، وما يليها، وراجع أيضاً . Kister, "Mecca and Tamim," pp.130f ؛ وكلاهما يقصان قصة عن أحد أفراد تميم وكان يقوم بحمايته الزبير بن عبد المطلب وهو الذى قام حرب بن أمية بصفعه على وجهه فى مكة . وعلى أى حال فلم يذكر ابن عساكر حضور التميمي لمكة من أجل التجارة، أيضا لم تذكر التجارة فى القصة الخاصة بخلف بن أسد الذى قام حرب بن أمية بصفعه على وجهه. (الرسائل، ص٧٦ ؛ ذكرها ابن أبى حداد، شرح ،ج٣ ، ص٤٥٧).

(٦١) راجع الفصل الخامس أعلاه ، ص٢١٦ .

(٦٢) الطبرى، جامع، ج٣٠، ص١٧٢؛ السيوطى، الدُر، ج٤، ص٣٩٧ ؛ الرازى، مفاتيح، ج٧، ص٥١٣؛ الطوسى، تبيان، ص٤١٤ . (والأخير ليست فيه إشارة إلى إبراهيم) ؛ راجع القرآن الكريم سورة إبراهيم الآية ٤٠ وجميع تفسيرات سورة قريش رقم (١٠٦).

(٦٣) الطبرى، جامع، ج٣٠ص١٧٢، رواية قتادة وابن زيد ؛ السيوطى ، الدُر، ج٦، ص٢٠٨، رواية قتادة ؛ ابن قتيبة، مشكل القرآن، ص٣١٩؛ الرازى، مفاتيح، ج٨، ص٥١٣ .

(٦٤) القلعى، الاكتفاء، ص٧٨، رواية أبى عبيدة (القرشى بكل بلدان الحرم) ؛ وبالمثل رواية قتادة لدى الطبرى، جامع، ج٣٠، ص١٧٢ .

(٦٥) المرزوقى ، الأزمنة، ج٢، ص١٦٢ .

(٦٦) الجاحظ، الرسالة الثالثة ، ص٦٣، راجع Serjeant, "Haram and Hawtah, the Sacred Enclave in Arabia" .

(٦٧) وبالرغم من وجود بيت الله الحرام، فمن الواضح أنه لم يكن لهم مكانتهم فى مناقشات الجاحظ، فالشعر الذى كان يقوم بالتعليق عليه كان يزدرى التجار(والتجارة تحتقر) وشرح الجاحظ ذلك بقوله إن السبب فى ذلك يرجع إلى أن التجار لم يكن باستطاعتهم الدفاع عن أنفسهم . وهكذا يُعد رجال قريش منبوذين أكثر من كونهم رجالا مقدسين .

(٦٨) راجع : Kister, Mecca and Tamim, pp.142 ff. .

(٦٩) ابن حبيب، المحبر، ص٢٦٤ .

(٧٠) راجع الفصل الخامس أعلاه ، حاشية رقم ١٢٣ .

(٧١) Kister, "Mecca and Tamim," pp. 118 f., 142, رواه الثعلبى والجاحظ وآخرون.

(٧٢) المرجع السابق، ص١٣٦ وما يليها، رواه الجاحظ والحلبى.

(٧٣) ابن هشام ، السيرة ، ص٣٨٣ .

(٧٤) راجع الحواشى رقم ٦٦ و٦٧ أعلاه .

(٧٥) راجع ابن حبيب ، المنمق، ص١٥٠ وما يليها، حيث تركوا مكة ليقوموا بالإغارة على القوافل البعيدة ونهبها مثل لخم وبلىّ . راجع أيضًا ص١٢٤ وما يليها، ١٦٤، ص٢٣٥ وما يليها.

(٧٦) ابن حبيب، المنمق، ص١٧٠(*)، و ٤٤١ . والبلاذرى، أنساب، ج١، ص١٠٢ .

(٧٧) راجع R.B. Serjeant, The Saiyids of Hadramaut, pp.15.17.14

(٧٨) ابن حبيب، المنمق، ص٣٢٧ ، وقد نقل هذا القول عن ابن أبى عبيدة.

(٧٩) المرزوقى، الأزمنة، ج٢، ص١٦٦ وما يليها.إن التفصيلات التى قدمت خاصة بالدجيج وهم التجار خلال الأشهر الحرم، ولكن الفقرة الخاصة بالمقدمة التى ذكرها أوضحت أنها تنطبق أيضًا على الحجيج .

(٨٠) الأزرقى، مكة، ص١٣٢ ، إذا قام أحد الأفراد بقتل أو صفع شخص على وجهه أو ضربه فى الحرم (فى خلال أسواق البيت قبل الإسلام) كان عليه أن يقوم بعمل ضفيرة من لحاء الشجر ويقول أنا سارورة (وليس ضرورة darura، كما جاء فى طبعة فيستنفيلد Wustenfeld) حتى يتحاشى الثأر (وقد فُسر هذا التعبير على أنه يعنى أنه يجهل مكانة المنطقة المقدسة (راجع Lane, lexicon, s.v.) . وعن مقارنة استخدام الحجاج للتيجان فى العصر القديم راجع Gaudefroy Demombynes, Pelerinage, p.285 (ولم تؤيد المصادر الافتراض باستخدام المكيين لقلائد السمار).

(٨١) وفى الواقع فإن صورة الرجال المقدسين الذين صورهم المفسرون لا وجود لها خارج نطاق أدب الشراح. وهم يعرفون جيدا الآن فى حضرموت، وهى قائمة على أساس الملاحظات الحديثة (أكثر من أدب المفسرين) حيث يذكر سيرجنت Sergeant أنهم يشبهون القرشيين . وحجة سيرجنت فى هذا أن المناصب الحضرمية تعد استمرارًا لمؤسسات ما قبل الإسلام ، وهى حجة مقنعة، ولكن إذا كانت مؤسسات

(*) إن المصدر المشار إليه وهو ابن حبيب المنمق، ص١٧٠ لم نجد فيه أى شىء يتعلق بالموضوع . (المترجمة)

بلاد العرب قبل الإسلام ما تزال قائمة فأولى بها أن تكون موجودة اليوم في المناطق التي كانت موجودة بها من قبل . ومن الناحية العملية فهي ليست معروفة اليوم في شمال بلاد العرب (وهي الحقيقة التي تستحق الحوار الجيد الذي قدمه : M.E.Meeker, Literature and Violence in North Arabia ، ويوجد في العصر الحديث عدد كبير من الكهنة Kahins ولكن بدون أرض مقدسة (*) ، وأكثر الأراضي المقدسة هنا، كما هو الحال في الجنوب هي عادة عبارة عن مقابر الشيوخ دون وجود حراس عليها . أما الحراس الذين يشغلون هذه الأماكن في حضرموت، فهم يقومون بحماية الضعفاء الذين يقيمون هناك ويقومون بفض منازعات القبائل التي تقيم حولها (وهو نوع من المكافأة لهم لما لهم من مكانة) وهو أيضا الأمر الذي لا مثيل له في الشمال : حتى لقد فشل أشراف مكة في أن يؤكدوا لأنفسهم هذه الخاصية. ولهذا يبعد عن الاحتمال أن هذا النظام كان موجودا في شمال بلاد العرب قبل الإسلام، والقول بأن قريشًا كانت قبيلة شجاعة انخرطت في التجارة بدلا من فض المنازعات (وهي النقطة التي سوف أعود إليها فيما بعد) وهو عكس ما يدعيه المفسرون لأنه غير مقنع . وقرأ سيرجنت كل سيد وشريف في بلاد العرب قبل الإسلام على أنها تعني رجلاً مقدسًا، بينما كلاهما كان يعني ببساطة نبيل noble في ذلك الوقت (راجع .Sayids of Hadramwet, pp. 4ff) كما اضطر دونر Donner على أن يقدم كل حارس في عصر قبل الإسلام على أنه مثل المنصب الحضرمي ، لهذا كان كل الحراس (السدنة) في عصر قبل الإسلام لهم أعمال مختلفة (راجع Early Islamic Conquests,pp. 34ff) لهذا السبب فقد أخطأ الاثنان في أدلة فترة قبل الإسلام، وفي الوقت نفسه كانا يجهلان الأدلة الحديثة عن شمال بلاد العرب.

(٨٢) راجع أعلاه ص١٨١، وعن سيرجنت راجع ,.Serjent, See "Haram and Hawtah," ; cf. id . Sayids of Hadramawt

(٨٣) وذكر أن عبدريًا (**) عمل كرجل قافلة في بلقا Balqa في حين يعد ذكر ذلك نوعًا من القذف (راجع الفصل الخامس حاشية ٤٦). كما اشتهر عبدري آخر بأنه كان يتاجر مع فارس(راجع الفصل الخامس حاشية رقم ١٢٦).

(٨٤) راجع .T. Fahd, La divination arabe, p.110; Wellhausen, Reste, pp.131 ff ولاحظ أيضا أنه قد ذكر أن سدنة الكعبة السابقين كانوا يقومون بممارسة الكهانة. (ابن حبيب، المنمق ، ص ٣٤٦-٤٠٥) .

(*) لا يوجد كهنة في الإسلام ، ولا يجوز إطلاق صفة "القداسة" على علماء الدين الإسلامي. ويطلق لقب "شريف" بعد الإسلام على من ينحدر من نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم . أما لقب سيد أو شريف قبل الإسلام فهو يعني نبيل أو أرستقراطي بالمعنى المعروف الآن أي سادة المجتمع أو أخياره، وتنبع هذه السيادة من الأصل والثروة . وهي الألقاب التي كان يلقب بها كبار رجال قريش قبل الإسلام راجع: سلامة (عواطف) المرجع، السابق، ص١٦٥ . (المترجمة)

(**) أي أحد أفراد بني عبد الدار . (المترجمة)

(٨٥) استشار سراقة بن مالك الرماح في مسألة ما إذا كان ينبغي عليه أن يقتفي أثر الرسول [ﷺ] عندما هرب الأخير من مكة (*) : وقد أخذت الرماح جانب الله (ابن هشام ، السيرة، ص٣٣١). واشتهر عن أبي سفيان أخذه رماحه معه عند حنين (المرجع السابق، ص٥٤١؛ الواقدي، المغازي، ج٣، ص٨٩٥)، وعن مزيد من الأمثلة (عن القرشيين وغير القرشيين) راجع Fahd, Divination, pp.181n, 186 f .

(٨٦) راجع ابن حبيب، المنمق ، ص٢٠ وما يليها، ص١٠٥ وما يليها ، ص١٠٧ وما يليها؛ (خزاعي كاهن في عسفان) ص١٠٩ وما يليها (كاهن)، ص١١٢ وما يليها (سطيح الكاهن في اليمن ؛ وردت هذه القصة أيضًا في الأغاني، ج٩، ص٥٣ وما يليها). وعن أمثلة أخرى راجع الفصل التاسع أدناه ، ص٢١٩ ، وعن تنبؤ رماح هبل راجع: ابن هشام ، السيرة، ص٩٧ وما يليها؛ الأزرقي، مكة،ص٣١-٥٨ وما يليها (رواه ابن إسحاق)؛ هشام بن محمد بن الكلبي، كتاب الأصنام، ص٢٨ راجع أيضًا: EI2, S.V. Hubal ورأينا أنهم استخدموا بصفة أساسية مع عبد المطلب الذي استشارها بخصوص حفر زمزم وقدم لذلك التضحية بابنه (ابن هشام ، السيرة، ص٩٤-٩٧ وما يليها) . وعرض الأزرقي استخدامها في بعض المناسبات (مكة، ص١٠٧)، ولكن ابن سعد في النص المناظر يقوم بحذف كل من هبل والسهام (طبقات، ج١، ص١٤٦). وطبقًا لما ذكره الواقدي ، فقد قامت قريش باستشارتهم فيما إذا كانت تقدم على الحرب في معركة بدر من عدمه (المغازي، ج١، ص٣٣).

(٨٧) راجع Lammens, Mecque, p.163; cf, "Republique marchande", pp.30 f.

(٨٨) الأزرقي، مكة، ص٧٤ (رواية ابن إسحاق)؛ ابن هشام، السيرة، ص٩٤-٩٧ .

(٨٩) رواه الأزهري (**) Fahd, Divination, p. 181 n,

(٩٠) ذكر ذلك لدى كل من : ابن هشام، السيرة، ص٩٧؛ الأزرقي، مكة، ص٥٨؛ ولدى آخرين. وعلى أي حال فقد قام الواقدي بتحريكه إلى الخارج .

(٩١) ابن هشام، السيرة، ص٥٧؛ راجع .Caskel, Gambara, II, s.v هليل ابن الحبشية -Hulail b. Ha basiya, .

(٩٢) الأزرقي ، مكة ، ص١٣٣، راجع ابن هشام، السيرة ،ص٩٧، حيث ذكر أن قريشًا كانت تدفع مائة درهم وجزور (***) لصاحب القداح Caskel, Gambara, II,s.v. Gadira b. Habasiya .

(*) لا تعد هجرة الرسول (ﷺ) هروبا من مكة، ولكنها أمر من الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريم بالهجرة بعد أن اشتد أذى الكفار في مكة لدعوته . ولذلك لا يصح ولا يليق أن تطلق هذه الصفة على سيد الخلق والنبي الخاتم محمد (ﷺ) لقيامه بتنفيذ الأمر الإلهي الذي صدر إليه ، كما نفذ موسى عليه السلام أوامر الله سبحانه وتعالى بالخروج ببني إسرائيل من مصر بعد المعاناة التي واجهتهم من اضطهاد فرعون وإذلاله لهم . (المترجمة)

(**) صحة الراوي الأزرقي وليس الأزهري كما ورد لدى كرون . (المترجمة)

(***) الجزور : هو الجمل الصغير. (المترجمة)

(٩٣) ابن هشام، السيرة، ص٨٠، راجع ص٣٠ وما يليها، ص٧٦ وما يليها.

(٩٤) راجع أعلاه الفصل الثامن، ص٣٠٩ .

(٩٥) ذكر ابن حبيب قائمة بأشهر القضاة : ابن حبيب، المحبر،ص١٣٢ وما يليها. اليعقوبي، تاريخ، ج١، ص٢٩٩ وما يليها، ولا يذكر من بينهم قرشيين . والرواية الكاملة لقائمته ذكرها ابن حبيب في كتابه المنمق ، ص٤٥٩ وما يليها؛ الفاسي،شفاء، ص١٤٢ وما يليها. ويتضح من ملاحظة الفاسي أن قضاة قريش كانوا يقومون بالفصل بين القرشيين فقط ، وقد أوضح أنهم كانوا يقومون بهذا العمل لإرضاء قريش، وليس من أجل الحصول على منصب يتمتع بالنفوذ. وليس هناك أي مثال عن وجود قضاة من قريش في المنازعات القبلية . ومن الواضح أن اشتراك سعيد بن العاص في النزاع بين قريش والليث، والذي ذكره ابن حبيب كان من أجل مصلحة حزبه، (المنمق، ص١٣٧ وما يليها) ؛ إن حكام تميم الذين تدخلوا في حرب الفجار الأولى قاموا بهذا العمل بوصفهم رجالاً مدنيين، ومما هو مؤكد أنهم قاموا بهذا العمل بوصفهم مختصين بفض المنازعات بين الحجاج الذين من المفترض حضورهم إلى مكة .

(٩٦) وقد ذكر أن عددهم لم يكن أقل من ٣٦٠، ثم بدأ العدد يهبط عندما بدأ الرسول [ﷺ] يتلو سورة الإسراء رقم (١٧) ، الآية ٧٨ عن فتح مكة (الأزرقي، مكة، ص٧٥ وما يليها، رواه ابن إسحاق؛ الواقدي، المغازي، ج٢، ص٨٢٢؛ راجع: ابن هشام السيرة، ص٨٢٤ وما يليها؛ ابن الكلبي، الأصنام، ص٣١). وهناك شيء يجب أن يذكر بخصوص رأي لولنج Luling من أن العدد المذكور يماثل عدد الأيام في السنة (*) . G.Lulling, Die Wiederentdeckung des Propheten Muhammad, p.168)

(٩٧) راجع Wellhausen, Reste, p.75 كانت قريش تقسم باللات والعزى (ابن هشام، السيرة، ص١١٦، وراجع ص٥٦٦؛ الواقدي، المغازي، ج٢، ص٤٩٢). ولذلك كان الذين يعتنقون الإسلام يعلنون تبرأهم من اللات والعزى (ابن هشام، السيرة، ص٢٠٥ وما يليها؛ البلاذري، أنساب، ج١، ص١٨٥ وما يليها) لقد كانت اللات والعزى تمثل معبودات قريش الكبرى (راجع: البلاذري، أنساب، ج١، ص٢٣٠؛ الواقدي، المغازي، ج١، ص٢٥). وتبرأ زين بن عمرو وكان حنفيا قبل الإسلام ، تبرأ من هُبل أيضًا (ولسبب غير معروف حل محله غانم Ghanmفي المخطوط، راجع ابن هشام، السيرة، ص١٤٥؛ Giullaume, tr, The life of Muhammad, p. 100n; Wellhausen, Reste, p. 75); وقد أعلن بعض الذين دخلوا في الإسلام تبرأهم من جميع الأصنام الكبرى التي كانت تعبدها قريش ، البلاذري ، أنساب ، ج١، ص١٨٥، رواه الواقدي؛ (راجع: الواقدي، المغازي، ج٢، ص٤٩٢) وقام أبو سفيان بالتضرع لهبل في أُحد ، (الواقدي، المغازي، ج١، ص٢٩٦ وما يليها، وذكر ذلك أيضًا في مكان آخر)؛ وفي بعض الأحيان قيل إن هُبل كان أكبر صنم لقريش (الواقدي ، المغازي، ج٢، ص٨٣٢؛ الأزرقي، مكة، ص٧٣؛ ابن الكلبي ، الأصنام، ص٢٧). وابتهل أبو سفيان أيضا للعزى في أُحد (الواقدي، المغازي، ج١، ص٢٩٧؛ البلاذري، أنساب، ج١، ص٢٢٧ (وقارن ذلك بما ورد لدى ابن هشام، السيرة، ص٨١١، عن فارس اللات)؛ كما قيل

(*) العدد المذكور لا يماثل أعداد الأيام في السنة الهجرية التي تبلغ ٣٥٤ يومًا، أو السنة الميلادية التي يبلغ عدد الأيام فيها ٣٦٥ وربع يوم ، لذلك فصحة العبارة أنها (تقارب) عدد أيام السنة . (المترجمة)

أن العزى كانت أكبر أصنام قريش(راجع الحاشية التالية) وورد اسمها من بين أسماء الأعلام لدى قريش، بينما لم يحدث ذلك بالنسبة إلى هُبل. وفى الواقع لم يثبت وجود أى اسم علم تسمى به على الإطلاق. على الرغم من أن اسم هبل يبدو أنه اسم علم فهو لم يكن له وجود لدى قريش .(راجع ,Caskel (Gambara, II, s.v. أما بخصوص رأى لولنج Luling من أنه يجب أن يضاهى هُبَل بأبل Abel فيبدو أنه رأى غير مقبول.(*)

(٩٨) ابن الكلبي ، الأصنام، ص١٤ وما يليها ، ص٢٧؛ راجع .Wellhausen, Reste, pp.24 ff

(٩٩) حيث اخترعوا الحمس على هذا الأساس. ابن هشام، السيرة، ص١٢٦ .

(١٠٠) وأكد أحبار اليهود أن الأمر كان كذلك. راجع: ابن هشام ، السيرة، ص١٣-٢٣، وراجع ص١٥ .

(١٠١) راجع : ابن هشام ، السيرة، ص١٥، ص٥١ .

(١٠٢) وصف الحج على أنه إبراهيمى،على سبيل المثال لدى المسعودى، مروج، ج٢، ص٩٩ . (بالإشارة إلى سورة البقرة، الآية الكريمة رقم (١٢١)؛ ابن هشام، ص١٢٦ "فإن الحُجاج هم ضيوف الله وزوار بيته ".

(١٠٣) ابن هشام، السيرة، ص١٢٦؛ راجع : ابن حبيب، المحبر، ص٢٦٤؛ المرزوقى، الأزمنة، ج٢، ص١٦٢ .

(١٠٤) Cf. Sozomen, Kirchengeschichte, VI,38,10ff. = The Ecclesiastical History of Sozoment, pp. 309f . سوزومن هو أحد مواطنى غزة فى القرن الخامس، وربما كانت لغة والدته هى اللغة العربية (كان يسمى باسم سلامانيس Salamanes) ، ويخبرنا بأن العرب ينحدرون من نسل إسماعيل وهاجر، وحيث إنهم كذلك فقد حرم عليهم تناول لحم الخنزير، كما كانوا يقومون بممارسة بعض العادات اليهودية الأخرى، ولكنهم ابتعدوا بمضى الزمن عن العادات اليهودية، ويرجع ذلك لمرور الوقت واتصالهم بالشعوب الأخرى. وقام موسى عليه السلام بوضع التشريعات لليهود فقط الذين قادهم من مصر، ولسكان المناطق القريبة (ومن بينها بلاد العرب)، ولذلك فمن المحتمل أنهم نسوا القوانين التى فرضها عليهم جدهم السابق إسماعيل عليه السلام. ويبدو أن ذلك جميعه بمثابة إضافات مسيحية من الإنجيل. ثم واصل سوزومن قوله أن العرب بدأوا يعرفون منذ ذلك التاريخ عن حقيقة أصلهم من اليهود ولذلك بدأوا يعودون إلى القوانين والعادات اليهودية؛ ثم أردف قائلاً : إنه حتى وقتنا الحالى فإنه يوجد بعض العرب الذين ينظمون حياتهم طبقًا للقواعد اليهودية . ويستخلص من المعلومات التى قدمها سوزومن أن العرب أنفسهم أصبحوا فى القرن الخامس يعرفون جيداً أنهم ينتمون فى الأصل إلى عقيدة إبراهيم، على الأقل فى منطقة غزة التى كانت متجرا لقريش، وأن بعضهم قد تأثر بها وهم هؤلاء الذين تصفهم الرواية بأنهم حنفاء hanifs (وعنهم راجع U.Rubin, Hanifiyya and ka'ba. An Inquiry into the Arabian pre- Islamic Background of Din Ibrahim) وهذه المعلومات لا قيمة لها لأنها ترجع الفكرة لاتصالهم باليهود وليس بالمسيحيين.

(١٠٥) راجع حاشية رقم (٩٧) أعلاه .

(*) يضاهى هُبل ببعل وليس بأبل كما ورد فى الأصل باللغة الإنجليزية. (المترجمة)

(١٠٦) ابن هشام، السيرة، ص١٦٧ وما يليها، وعن رد فعل قريش على إحدى الخطب العامة لمحمد [ﷺ] :
"يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا.. لا نصبر على هذا ، من شتّم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا.. قد خالف دينك ودين آبائك ".

(١٠٧) ظهر العرب قبل الإسلام بوجه عام على أنهم حيناً يكونون موحدين، وحينا آخر غير مؤمنين ، فعندما منعوا من البيع والشراء أثناء الحج، فقد كانوا مقدمة للمسلمين، ولكنهم عندما كانوا يتاجرون خلال موسم الحج، منعوا من الاقتراب من المسجد الحرام (كانوا مقدمة للمتحمسين Proto- dhimmis) (*) ويمكن فهم هذه الثنائية الواضحة في المنظور فيما يتعلق بقبيلة الرسول ، راجع الفصل الثامن أدناه، ص٣٠١ .

(١٠٨) ويرجع السبب في لون الحجر الأسود إلى عادة وثنية هي نثر الدماء والأمعاء عليه ، راجع (cf. U.Rubin, "Places of Wrship in Mecca") وكما يتوقع المرء، توجد تفسيرات أخرى بخصوص لونه (**).

(١٠٩) J.H.Mordtmann, "Dusares bei Epiphanius," p.104, Citing Suidas.

(١١٠) bid, pp. 101f.

(١١١) T.Noldeke, Der Gott Mr' Byt' und die Ka'ba, p.184.

(١١٢) راجع .. Wellhausen, Reste, p.24 لاحظ أن العُزى تظهر كأنها أم للات ومناة في الشعر الذى رواه ابن هشام .

(١١٣) ولكنها ستؤدى لرفض الفكرة القائلة بأنهم قاموا بتقديس العزى وبنات الإله أو آلهة آخرين في معابد أخرى غير الكعبة.

(١١٤) J.T.Milik, "Inscriptions grecques et nabateennes de Rawwafah," p.8. (وهنا أدين بالشكر للدكتور G.M. Hinds الذى لفت انتباهي إلى هذا النقش) ويصف أحد السادات Sadat نفسه بأنه كاهن (فكل Fkl) من لب Lb وباني معبده (بيت ,byt) .

(١١٥) Wellhausen, Reste, pp. 75.; cf. p.218 .

(١١٦) راجع حاشية رقم ١١٤ أعلاه.

(*) الاصطلاح كتب هنا خطأ ، وصحته Proto-himmis . (المترجمة)

(**) تمكن أحد الرحالة البريطانيين في العشرينات من القرن العشرين من الوصول إلى مكة متخفيا في زى الإسلام من الحصول على قطعة من الحجر الأسود، وعند القيام بتحليلها في معامل بريطانيا ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن مكوناته لا نظير لها بين أحجار الكرة الأرضية، مما يعزز ويؤكد الرواية التى تقول بأن جبريل عليه السلام أحضره من السماء وأعطاه لإبراهيم عليه السلام لوضعه في الكعبة بعد أن تم بناؤها . حديث تليفزيوني للدكتور زغلول النجار . الفضائية المصرية ، أكتوبر عام ٢٠٠٢م ؛ وعن كونه جزءا من النيزك الأسود راجع: سلامة ، عواطف أديب، المرجع السابق، ص٢٦٧ والمصادر والمراجع المذكورة لديها . (المترجمة)

(١١٧) ابن هشام، السيرة، ص٩٤، ص٩٨(وقد وردت الفقرة الأولى خطأ في طبعة فستنفيلد Wustenfeld حيث سقطت كلمة الله "Allah" وراجع: ابن هشام، السيرة النبوية، طبعة السقا وآخرون، ص١٤٧ . (وقد اقتبس فيلهاوزن الفقرة الثانية من الطبري، التاريخ، ج١، ص١٠٧٦، وراجع ص١٠٧٧). وفي مناسبة أخرى شبيهة لدى بن اسحاق في تنقيح يونس بن بوقير (Hamidallah, Yunus b.Bukayr, Sira, no.28)؛ وقارن ابن إسحاق في تنقيح ابن هشام ،حيث تم حذف هُبل. السيرة، ص١٠٦ وما يليها.

(١١٨) راجع أعلاه حاشية رقم (٩٧).

(١١٩) لقد كان الإله الاسمى (Wellhausen, Reste, p.76) ويختلف فى ذلك مع (Gotzen (Ibid, p218 f.، فهو فوق الانقسامات القبلية والكهنوتية (Ibid., pp.219,222ff.). cf. W.M. Watt, "The high god in Pre- Islamic Mecca ; Id., The Quran and Belief in a high god".

(١٢٠) فقد كان إله رباط Rubat، وهى القبيلة التى يتتمى إليها الحارس (السادن) راجع Milik, "Inscriptions"., p.58 ، الذى قدم نقشا طلّب فيه من إلاها Ilaha أن يخص قبيلة رباط بعمل الخير .

(١٢١) Wellhausen, Reste, pp.219,221.

(١٢٢) وبالعودة إلى فهد في EI2, s.v. Hubal ، حيث ذكر لنا "فيما يخص التقوى المألوفة على الأقل فقد حجب بقية الآلهة فى مُجمع الإله المكى، لدرجة أنه أصبح هناك نوع من التفكير فى أن هذه العبادة لم تعد تساعد على إيجاد الطريق إلى الله" . ولكن الأدلة توضح أن عبادة اللات والعزى قد توارت لصالح هُبل (راجع حاشية رقم ٩٧ أعلاه)؛ وفهم فهد خطأ ما قاله فيللهوزن، وهو الذى يتخذه دليلاً على تأييد وجهة نظره. وكان فيللهوزن يشرح كيف أصبح المرء يسمع القليل عن هُبل ، وليس لماذا لم يعد مشهوراً؛ ووصل فى النهاية إلى أن هُبل كان هو الله ، وليس لكونه كان يُمهد الطريق إليه: وكان الاسمان يشيران إلى شيء واحد هو الإله نفسه.

(١٢٣) قدست كُل من قريش وكنانة ومضر هذا الهيكل ، وفقا لما ذكره كل من ابن هشام ، وابن الكلبى : ابن هشام ، السيرة، ص٨٢٩؛ راجع أيضًا ابن الكلبى، الأصنام، ص١٨، ص٢٧ .

(١٢٤) وعن بوانا Buwana راجع ابن سعد الطبقات، ج١، ص١٥٨، ص١٦١، ج٣، ص٣٨٠؛ القلعى، الاكتفاء ، ص٢٥٧، وهى واحدة من الأصنام التى لم يذكرها البلاذرى، أنساب، ج١، ص١٨٥ .

(١٢٥) كان جميع الأجانب فى مكة إما حلفاء وإما موالى لقريش، ومن المفترض أن اللجوء كان يكفُل الحماية لهؤلاء الأفراد الذين كانوا لا يجدون من يقوم بحمايتهم . وكان بّراض خارجا على القانون ولكنه وجد ملاذا فى مكة، ويرجع الفضل فى بقائه سالما فيها إلى حليفه حرب بن أمية : وفى حالة إذا ما قرر حرب إسقاط هذه الحماية عنه ، فسيكون وضعه فى مكة مثله مثل أى مكان آخر (راجع الفصل السادس، ص١٤٦).

(١٢٦) راجع الفصل السادس أعلاه، حاشية رقم (١٧) .

(١٢٧) إن غالبية العرب، وهؤلاء الفينيقيين ومن وراء جبال طورون، كان لديهم مكان مقدس لمعبود لا أعرفه، وكانوا يجتمعون فيه مرتين كل عام، وبخصوص هذه التجمعات، واجتماعهم الأول كان يستمر لمدة شهر

حتى منتصف الربيع .. أما الاجتماع الثاني فكانت مدته شهرين.. وأثناء هذه التجمعات كانوا يعيشون في سلام كامل كما يقول نونوسوس Nonnosus مع بعضهم البعض ومع كل الشعوب التي تعيش في بلادهم . وكانوا يقولون إنه حتى الحيوانات المتوحشة كانت تعيش في سلام مع البشر بل أكثر من هذا بين بعضهم البعض . Nonnosus Cite, by Photius, Bibliotheque, I, 5f.; cf. Wellhausen, Reste, p.101 ويبدو أن الفينيقيين كانوا بمثابة حديقة النخيل بالنسبة لبروكوبيوس Procopius Wars, I, 19, 7 ff., II,3, 41) على الساحل الشمالي للبحر الأحمر. ويبدو أن المقصود بجبل طاورين Tauren هو جبل طيء Tayyi . وإذا كان الأمر كذلك فيبدو أن هذا المعبد كان يوجد في مكان ما في الشمال. وكما لاحظ إبيفانيوس Epiphanius من قبل أن وجود شهر حجة البيت (Aggathalbaeith, Ijjat al-bayt) يدل على وجود مركز للحج يقع في الشمال (EI; S.V. hadjdi) .

(١٢٨) البكرى، المعجم، ص٥٨: قال ابن هشام نقلا عن الكلبي: "إن الأفراد كانوا يذهبون الحج ثم يتفرقون بعد ذلك ، ولذلك تظل مكة خالية، ولا يكون فيها أحد"، وهو ما لاحظه فيلهوزن Wellhausen, Reste, p.92 وإذا قمنا بترحيل المعلومات من أسواق الحجاج فإنها توعز بوضوح أن هيكل المسلمين الأول كان ببساطة هو واحد أو أكثر من هذه الأسواق. إن مثل هذا الافتراض يحتاج على أى حال إعادة وضع سوق أو أكثر من الأسواق المشار إليها في الشمال. وعارض لامينز تغيير المكان (Cf. Mecque, pp. 131n, 53). وعلى ذلك سوف نقوم بتحقيق أسواق الحج التى ذكرها نونوسوس Nonnosus مع الحرم ونثبت أن كليهما كان يمثل الهيكل الأول للإسلام. لقد كان يتم زيارة الهيكل الذى ذكره نونوسوس Nonnosus مرة لمدة شهر، والزيارة الأخرى كانت لمدة شهرين، بينما أسواق الحج كان يتم زيارتها خلال فترة شهرين وهما ذو القعدة وذو الحجة . ولكن إذا كانت العمرة التى تقع فى شهر رجب تذهب أيضًا لأسواق الحج بدلا من مكة (كما يبدو ذلك فى الحاشية رقم ٣٩)، فسوف تنتهى هذه المشكلة .كما أن هذا يعنى بطبيعة الحال وبكل بساطة أنه يمكن وجود عديد من مراكز الحج فى بلاد العرب قبل الإسلام. ولكننا إذا اخترنا عدم مضاهاة حرم نونوسوس بأسواق الحجاج، فإنه ينبغي أن نسلم بأن ذلك الهيكل الذى كان له أهمية كبرى فى بلاد العرب قد اختفى دون أن يترك أثرا وراءه أيا كان ما ذكرته الرواية . وإذا اخترنا عدم مضاهاته بالهيكل الأول للإسلام ، فسوف يصبح مثل هذا الصمت أمراً غريبًا بوجه خاص: إن مزاحمة حرم haram له مثل هذه الأهمية ينبغي أن يكون موضوعًا للطعن فيه(*) .

(١٢٩) عندما بدأ معاوية بن ابى سفيان نشاطه المعمارى فى مكة ، ثارت ضده عاصفة من المعارضة، ليس فقط بسبب أنه لم يكن من حقه زراعة البساتين فى مكان وصفه الله (تعالى) بأنه خال من الزرع ولكن لأنهم شعروا بأن مكة يجب أن تكون فيها أماكن كثيرة متسعة وبدون مبان... ليتمكن أى فرد من الوصول إليها" (Kister, Some Reports, pp.89 ff.) حيث اعتاد الأفراد أن يضربوا خيامهم فى أى مكان من منطقة الهيكل، ولذلك ينبغى إبقاء الوضع على ما هو عليه (Ibid, pp. 86f.) . وقارن ذلك بالمحاولات الواعية (والناجحة) للإبقاء على منى بدون سكان، الأزرقى،مكة، ص٤٠٠؛ ياقوت، البلدان، ج٤، ص٦٤٢ .

(*) راجع تعليق المترجمة على هذه المزاعم وتفنيدها ، ص ١٦ - ٢٠ .

(١٣٠) Cf. Kister, "Some Reports", p.88، حيث زجرت عائشة [رضى الله عنها] معاوية لأنه حول مكة لمدن وقصور، بينما جعلها الله حرة للجميع (الفاكهى) (*).

(١٣١) وعن مسجد الكوفة وهو قبلة الأمويين الأوائل راجع (البلاذرى، فتوح، ص٢٧٦) وعن المساجد الأموية في واسط وأصحاف بني جنيد حيث قدمت كل من كرون وكوك أدلة أثرية بخصوصها Crone and Cook, Hagrism, p.23 . وراجع الجاحظ (رسائل، ص٢٠٦). وعن ملاحظات يعقوب الإدريسى عن القبلة ، المرجع نفسه، ص١٧٢، حاشية (٣)، وبطبيعة الحال فلا يمكن أن يفترض تفسير هذا الدليل بالقول بتحامل الكتاب المسيحيين على الإسلام، من حيث عدم قدرتهم على تمييز الشرق أو الغرب من الجنوب (يعقوب الإدريسى) أو أن الفاتحين أنفسهم لم يكن لديهم إلا قدر ضئيل من الإحساس بالاتجاهات ولم يكن باستطاعتهم تمييز الغرب من الجنوب، البلاذرى، دليل أثرى، ويمكن أن يقال أن الأمويين قاموا باختيار القِبْلة من الناحية الرسمية لمواجهة الجهات حتى يتحاشوا التساؤل: أين الكعبة ، الأمر الذى سيتيح لهم الاتجاه شرقا من ناحية الغرب إلى جنوب العراق، وشرقا إلى جنوب مصر. (راجع D.A. King, The Practical Interpretation of Quran 2. 144; Some Remarks on the Sacred Direction in Islam وأدين بالشكر للدكتورG.M.Hinds في معرفة هذا البحث). وعلى أى حال، فمن غير المقبول إلى حد ما أن الفاتحين الجدد ذوى الحس القوى بالمنطقة التى قدموا منها كان يمكن أن يختاروا بسهولة رأى علماء وسط آسيا وإسبانيا في العصور الوسطى عند تحديد القبلة. وحقيقة أن المسجدين الأمويين فى العراق يتجهان إلى الشرق أبعد شمالا بحوالى ٢٠ درجة (من ٢٠-٣٣) يعنى أن الأمويين كانوا يهدفون لذلك بالضبط . وذكرت الرواية أن مسجد عمرو بن العاص فى مصر كان أبعد اتجاها نحو الشمال ، وتم تصحيح الوضع فى عهد قرة ابن شريك . راجع (Crone and Cook, Hagarism, p.24) ، كما لم يفسر الجاحظ السبب فى انحراف قبلة مسجد واسط Wasit كمثال على الاتجاه شرقا من جهات الكعبة وإلى المدى الذى كان مختصا به، فقد كان ذلك خطأ واضحاً. وما زالت الأدلة على وجود هيكل إسلامى فى شمال غرب بلاد العرب، قوية (**) .

(١٣٢) راجع حاشية رقم (١٠٤) أعلاه .

(*) لم تذكر كرون اسم كتاب الفاكهى، كما لم تذكر أى تفصيلات أخرى عنه فى قائمة المصادر . (المترجمة)

(**) على الرغم من أن كرون تعرف أن إمكانيات العصر ووسائله فى قياس الاتجاهات كانت محدودة إلى حد ما ، إلا إنها تحاول أن تستخدم هذه المحدودية لغرض فى نفسها ، ولكن الهدف الذى تقصده وضح فى نهاية الحاشية، عندما ألمحت من طرف خفى لما تسعى إليه وهو الاتجاه إلى الشمال حتى تؤكد ادعاءها المغرض بأن بيت الله الحرام لم يكن له وجود فى مكة ، ولكنه كان يقع فى منطقة ما من الشمال. راجع الرد المفصل على هذا الادعاء فى مقدمة المترجمة عن : الحج فى مكة قبل الإسلام ص١٦-١٨, وراجع أيضاً تصحيح الوضع فى مسجد عمرو بن العاص فى عهد قرة بن شريك ، فى الحاشية رقم ١٣١ أعلاه . (المترجمة)

(١٣٣) وبتحديد أكثر منذ عصر إبراهيم (راجع: ابن هشام، السيرة،ص٥١) ، ولاحظ أنها كانت مدينة حقيقية، ولم تكن مجرد تجمع لخيام متناثرة: وكان يحكمها ملكان في عهد العماليق Amalekites والجراهمة Jurhummites، أحدهما للجزء السفلي للمدينة والآخر للجزء العلوى منها، حتى يتمكنوا من تحصيل ضريبة العشور (راجع حاشية رقم (٤٦) أعلاه). وعندما وطَّن قصي قريشًا في مكة، واصل تحصيل ضريبة العشور (ابن سعد، الطبقات ، ج١، ص٧٠).

(١٣٤) من ذلك قصة هجرة قطور وجرهم حيث استقرت هاتان القبيلتان في مكة نظرا لوفرة النبات فيها ، (ابن هشام، السيرة، ص٧١ وما يليها؛ الأغاني، ج١٥، ص١٢؛ الأزرقي، مكة، ص٤٥، ص٤٧)، كما استفاد العماليق من خصوبتها (الأزرقي، مكة، ص٥٠؛ الطبري، تاريخ، مجلد(١)، ص٢٧٨)؛ وعندما استوطن قصي مكة كانت لا تزال كثيرة الأشجار والهضاب والسلام (ابن سعد ، الطبقات، ج١، ص٧١)، وقد وصفت بمطاليج البطاح ويعني" السهل الغني بالعشب" كما ذكر ابن هشام، السيرة، ص٦٥ (راجع Lane, Lexicon, S.V. I,talaja) وكان الزبير ابن مطاليج البطاح (عبيد الله بن قيس الرقيات، ديوان، ١، ٦٧؛ وترجم إلى الألمانية "dichest bewachsenen der Thalgruende (von Mecca)" ؛ ويعد ذلك تفاخر عُبيد Alid بنفس الشيء D.S. Margoliouth, ed. And tr., The Table- Talk of a Mespotamian Judge, p. 51=56, translated "the meeting- place of the low grounds") . ويطبيعة الحال يمكن أن يقول البعض إن مثل هذه الأقوال تعكس أفكار شعب آخر عن خصائص المعبد (راجع Crone and Cook, Hagarism, p. 22 and n.16 thereto; A.J. Wensinck, the Ideas of the Western Semites Concerning the Navel of the Earth, pp. 34f.) وإذا كان هناك ثمة وجود حقيقي للبيت الحرام الذى نتحدث عنه ، فيجب أن يكون موقعه في محيط خصيب (*) .

(*) منذ ظهور بئر زمزم بدأت الحياة تدب من حولها ، ونعلم من المصادر أنها حُفرت بمكة مع مرور الزمن آبار أخرى . وفي موسم نزول الأمطار قد يبلغ من غزارتها أن تهدم البيوت وتخرب الطرق كما يذكر الأصفهاني . من أجل هذا فإن توفر العشب فيها يعد أمرا منطقيا، بل إنه من المنطق أن تنمو فيها بعض الأشجار التي تتلاءم مع المناخ ومنها النخيل على سبيل المثال . من أجل ذلك أصبحت مكة محطة لتوقف القوافل لتحصل منها على حاجتها من المياه منذ مرور قافلة خزاعة عليها بعد مولد إسماعيل عليه السلام في حوالي القرن ١٩ق.م، وأصبح يشجعها على ذلك أمر آخر وهو توفر الأمن والأمان فيها وحولها بعد رفع قواعد البيت. وبالرغم من ذلك فإن هذا الغطاء العشبي الضئيل لا يُخرج مكة من دائرة النطاق الصحراوي العام الذى تنتمي إليه وتقع فيه ، والتى تحاول كرون أن تثبت عكسه. راجع : ابن هشام، السيرة، ج٢، ص١١٢؛ البلاذرى، فتوح البلدان ، تحقيق عبد الله أنيس الصباغ ، بيروت ، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، ص٦٤-٦٨؛ الفاكهي ، أخبار مكة، تحقيق عبد الله بن دهيش، بيروت ، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م، ج٢، ص١١ وما يليها؛ الشريف ، (أحمد إبراهيم)، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ، القاهرة، ١٩٦٥، ص٣٢-٣٣ . =

(١٣٥) من الواضح أن هُبل كان ينتمي لمدينة ما، ولم يكن معبداً في الهواء الطلق، وكان له سدنة من خزاعة وقد أدخلهم رجل منهم هو (عمرو بن لحي أو ربيعة، وهو جد خزاعة، وكان سادنا لهيكل مكة). ويبدو من الناحية الشكلية أنه ينتمي إلى آلهة الشمال أكثر من انتمائه إلى آلهة الجنوب (cf. EI2, s.v) ، وقد أرجع ابن الكلبي إدخاله لخزيمة ، جد كنانة بدلا من عمرو بن لؤي (الأصنام، ص٢٨؛ وردد ابن سعد نفس الشيء، طبقات، ج١، ص٦٩؛ البلاذري، أنساب، ج١، ص٣٧) ومن المفروض أن عمر بن لحي نفسه استورده من الشمال: وأحضره من بلقا Balqa (ابن حبيب،المنمق، ص٣٥٢ وما يليها) أو من هيت Hit في الجزيرة (الأزرقي، مكة، ص٣١، ٥٨، ٧٣، ١٣٣). أما ذاك القرشي الذي ارتبط بهبل فهو عبد المطلب (راجع أعلاه حاشية ١١٧)، ولكنه كان مرتبطًا بالجنوب: كما ذهب في رحلاته إلى اليمن أيضا (راجع أعلاه حاشية رقم ٦٦ الفصل الخامس)، وتفاوض مع أبرهة في قصة الفيل (ابن هشام، السيرة، ج٣٣ وما يليها)، وذهب إلى صنعاء لتهنئة اليمنيين بعد طرد الأحباش (راجع الفصل الخامس ، حاشية رقم ٨١)، ولاحظ أيضًا أن عليا ارتبط بالجنوب : فقد أرسله الرسول في غزوة اليمن في مناسبتين(ابن هشام، السيرة، ص٩٩٩)، ويبدو أن مؤلف "Secrets of Simon b.yohai" يعتقد أنه قحطاني من حضرموت (راجع .Crone and Cook, Hagarism , p.178, n 168) وقد سبق أن لوحظ عدة مرات أنه كان هناك تأييد يمني قوي لعلي في معركة صفين ولدى المختار ,Mukhtar الذي اقتفى آثره (طبقا لما ذكره وات) W.M. Watt, Islam and the integration of society, pp.105 f ؛ إن التطور الكامل للمذهب الشيعي Shiism يمكن أن يحسب بالكامل لتأثير اليمن. وارتبط محمد [ﷺ] دائمًا بسوريا فيما عدا القصة التي تذكر أنه تاجر في حباشة Hubasha (*) .

= عاش أهل مكة قبل قصي خارجها وحولها ، في الشعاب ورءوس الجبال، أي في الحل تقديسا للبيت العتيق، فكانوا يدخلونها نهارا حتى إذا أمسى القوم خرجوا إلى الحل لأنهم استحرموا إصابة الجنابة فيها. وبعد أن جمع قصي قبائل مكة تحت لوائه لم تبرح قريش مكة وأدخلهم بطن الوادي (أبطح مكة) وأنزل خاصة قريش فيه، وخطط الوادي وقسمه رباعا. وكانت قريش على قسمين هما قريش البطاح، وقريش الظواهر، والأولى هم سادة قريش وهم الذين نزلوا الأبطح بين أخشبي مكة والثانية هم الذين نزلوا على المرتفعات وفيما حولها، ولذا أطلق عليهم أيضا اسم قريش الضواحي وهم يمثلون أعراب مكة وباديتها. عن هذا الموضوع راجع سلامة(عواطف) ، المرجع السابق ، ص٤١-٤٤ ، والمصادر المذكورة لديها .

(*) لقد كانت المصادر الإسلامية صريحة في تفسير سبب وضع تمثال هُبل في الكعبة ، وتكاد تجمع على أن عمرو بن لحي هو الذي أحضره من الشمال . ولا يوجد ثمة ارتباط بين علاقة عبد المطلب به وبين ذهابه إلى اليمن . وكان عرب قريش في حركة دائرية بين الشمال والجنوب للتجارة، وحركة عبد المطلب جنوبيا لا تعني أنه كانت له رابطة خاصة مع اليمن، والأمر نفسه مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي تتخذ كرون من إرسال الرسول (ﷺ) له إلى اليمن مرتين ، وجود علاقة خاصة مع اليمن وتحاول أن تربط ذلك بنمو المذهب الشيعي وانتشاره هناك. لقد انتشر المذهب الشيعي في كل من العراق وإيران ، فهل معنى ذلك أن ثمة علاقة تربط علي بن أبي طالب رضي الله عنه بهما؟ إن كرون تصر إصرارا على إثبات فكرة مسبقة في ذهنها وتحاول أن تصل إليها بكل الطرق ، ولاشك في أن القارئ قد أدرك الآن ذلك بوضوح أكثر. راجع : ابن هشام، السيرة ، ج٢، ص٦٤١ . (المترجمة)

الجزء الثالث

الخــاتمة



الفصل التاسع

المصادر The Sources

عرفنا القليل ولم نعرف الكثير عن الموضوع الذى يتضمنه هذا الكتاب. ويرجع السبب في تلك المعرفة القليلة إلى خلو المصادر من المعلومات التى تجيب على مجموعة من الأفكار، هذا على الرغم من أن كثيرا منها تَكوَّن من خلال المصادر نفسها. فالمصادر التى عالجت ظهور الإسلام والتى كانت دائمًا فى موضع الاعتبار بالنسبة لكثير من الدارسين مشكوك فى قيمتها التاريخية، وكان الاتجاه العام فى العصر الحديث يقبل كل المعلومات التى وردت فيها على اعتبار أنها بمثابة مصادر تاريخية صادقة. بينما هى (من وجهة نظرنا) لم تكن كذلك كما سبق وأوضحنا. وهذا يعنى أننا إذا وضعنا فى اعتبارنا هذه المصادر نكون بذلك لا نعرف أغلب المعلومات التى يمكن أن يوثق بها عن ظهور الإسلام ، ونتساءل الآن عن نوعية هذه المصادر.

إذا تركنا جانبًا المصادر التى تقع خارج دائرة الرواية الإسلامية، فإننا نستقى معلوماتنا الأساسية عن ظهور الإسلام من القرآن [الكريم]، ومن عدد كبير جداً مما يوضع تحت اسم الحديث [الشريف]، وهو عبارة عن الروايات التى لا تحصى عن أقوال وأفعال الرسول [ﷺ] والصحابة، إضافة الى السمات المبكرة التى حفظت فى أعمال المفسرين وكتب التاريخ والتشريع مثلها فى ذلك مثل مجموعات الحديث الموثوق بها. بالإضافة إلى ذلك هناك مادة عن العرب قبل الإسلام من نوع مختلف بعض الشىء مثل العادات القبلية والأشعار والمعلومات المستمدة من الحوليات الساسانية وهكذا . إن هذه المادة لها أهميتها الفاصلة، لاستخلاص الظروف التى ظهرت فيها الديانة الجديدة، واستخدم بعض منها فى العمل الحالى. وأثارت مشاكل من جانبها،

ولكننا ينبغى أن نقوم بتنحيتها جانبا، وفى الوقت نفسه قمنا بوضع الأسئلة عن الظهور الفعلى للديانة الجديدة وهنا وجدنا أنفسنا نعتمد اعتمادا كليا على القرآن [الكريم] والحديث [الشريف] ولهذين المصدرين خصصت ذلك الفصل.

إن القرآن [الكريم] بصفة عامة، على الرغم من عدم وجود تغيير فيه أو بمعنى آخر كما بشر به محمد [ﷺ] نفسه، يُعد مصدرا معاصرا وسواء كان ذلك صحيحا أو لم يكن كذلك(*)، فإنه لم يقدم الكثير من المعلومات التاريخية، وما قدمه منها بطريقة تلميحية ، يكتنفها الغموض إذا قُرئت بمفردها، ولذا لن يكون فى استطاعة المرء أن يطابقها مع الأحداث التاريخية التى تشير إليها دون الاستعانة بما قدمه المفسرون وعلى سبيل المثال، قول الله [سبحانه وتعالى] : ﴿ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ سورة ٤٨ آية ٢٤ ؛ ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ التوبة آية ٢٥ ؛ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا ﴾ الأحزاب ٣٣–٩:١٣ ؛ ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ آل عمران ١٢٣ .

(*) لا يختلف اثنان فى أن القرآن الكريم هو الكتاب السماوى الوحيد الذى ظل وسيظل محفوظا كما أخبرنا الله سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ حفظا على كامل نصه وحتى هذه الحقيقة المؤكدة، نرى الكاتبة تحاول أن تلقى بظلال الشك فى نفس القارئ حولها على الرغم من اعترافها بها . (المترجمة)

إن الجزء الأخير من العبارة غير مفهوم، لأن معركة بدر معركة مشهورة، ولكن شهرتها لم تأت من القرآن [الكريم] على أى حال. ولما كان القرآن [الكريم] هو المصدر الوحيد عن ظهور الإسلام ، فإننا قد عرفنا منه عن ظهور الديانة الجديدة التي كان لها علاقة بشخص يدعى محمد [ﷺ] ادعى أنه رسول الله، وأن دعوته ظهرت في منطقة ما من شمال غرب العربية يبدو أنها كانت بالقرب من البقايا الأثرية للوط في بلقا Balqa ، ولكننا ليس في مقدورنا أن نقول أى شيء عن الأحداث التاريخية التي أدت إلى قبول رسالته(*)[1].

أما من الناحية العملية، فتتمثل مصادرنا في حديث المفسرين إضافة إلى أحاديث من أنواع اخرى، وبصفة عامة لم يتم الاعتراف بكثير من المعلومات الخاصة بظهور الإسلام، ومن بينها الخاصة بتجارة مكة، والتي استمدت من تفسير القرآن، كما لم يتم قبول هذه المعلومات، بصفة عامة ؛ لأن قيمتها التاريخية غامضة. وأفضِّل أن أقوم بشرح طبيعة هذه المعلومات في ضوء سورة قريش وهي السورة التي سبق ذكرها في مواضع عدة[2].

تتكون سورة قريش من أربع آيات [كريمات] يمكن أن نقسمها على النحو التالي.

١ – عن إيلاف قريش Ilaf .

٢ – بخصوص الإيلاف رحلة الشتاء والصيف.

٣ – عبادة رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع.

٤ – وآمنهم من خوف.

(*) إن النبى الخاتم ﷺ ، لم يدَّع النبوة، ولكنه نبي الله ورسوله الذى بُشر به فى التوراة والإنجيل، ويعرفونه أحبارهم كما يعرفون أبناء هم وإن ادعوا غير ذلك. كما أن قول كرون بظهور دعوته فى منطقة ما من شمال غرب العربية، فى منطقة البقايا الأثرية لقوم لوط فى بلقا، هو ادعاء كاذب مغرض. لسبب واضح أنها وضعت هذا القول كفرضية ثم خرجت منها بنتيجة، ثم نراها هنا تؤكد هذه النتيجة وتتحدث عنها كما لو أنها أمر مسلم به، على الرغم من أن هذا يُعَدُّ مخالفا لأبسط قواعد البحث التاريخى العلمى السليم. راجع ص٢٧٢،٢٨٩ – ٢٩٠، ٢١٩–٢٢٠ من الترجمة والتعليق عليها . (المترجمة)

لقد فضلت عدم القيام بترجمة كلمة الإيلاف وتركتها كما هى لعدم التأكد من ترجمتها فقد قرأ بعض المفسرين (اللام) وهو الحرف الأول على أنه يعنى علامة التعجب بدلاً من أن تكون حرف جر لأجل[٣] for ، ولذلك كتبت الكلمة كما هى تماماً.
والآن ماذا تقول السورة ؟

إنها تذكر رحلة فى الصيف والشتاء. ولا يقدم النص أية إشارة عن الرحلات المذكورة، ولكن المفسرين كانوا مستعدين لتقديم المساعدة حيث قالوا إن هذه الرحلات كانت هى رحلات الحجاج الكبيرة والصغيرة لمكة: الحج فى شهر ذى الحجة، والعمرة فى رجب[٤]. وهناك رأى آخر، يقول إنها تمثل رحيل قريش للطائف فى الصيف، ثم عودتهم إلى مكة فى الشتاء[٥]. ورأى ثالث أنها كانت تمثل رحلات قريش التجارية، واعتقد أغلب المفسرين أنها تمثل الرحلات التجارية، ولكن إلى أين كانوا يذهبون ؟ لقد ذهبوا إلى سوريا كما قيل لنا: فقد كانت قريش تسافر بالطريق البحرى الحار الى أيلة Ayla فى الصيف[٦]. أو أنهم كانوا يذهبون إلى سوريا ومكان آخر مثل سوريا وبلاد الروم كما فهمنا[٧] أو سوريا واليمن. ويتمثل القول الشائع فى أن قريشاً كانت تذهب لسوريا صيفاً، وإلى اليمن شتاء عندما تكون درجة الحرارة فى سوريا باردة[٨]. أو ربما إلى سوريا فى الشتاء واليمن فى الصيف عندما يكون الطريق إلى سوريا دافئاً[٩]. وكانوا يذهبون بالتناوب لسوريا والحبشة: إلى سوريا، واليمن شتاء، أو ربما بطريق آخر دائرى[١٠]. أو أنهم كانوا يذهبون إلى سوريا واليمن والحبشة[١١]. أو إلى سوريا والروم فى إحدى الرحلات، واليمن والحبشة[١٢] والعراق: إلى سوريا صيفا وإلى باقى البلدان فى الشتاء، وذلك طبقًا لما ذكره المتخصصون[١٣]. وقُدمت العديد من هذه الآراء خارج دائرة المفسرين المتخصصين على الرغم من وضوحها فى القرآن [الكريم]. ويتضح أيضا من تفسير القرآن [الكريم] أنهم قد ذكروا لنا أن هاشماً قد وضع أساس رحلتين[١٤] أو واحدة منها[١٥]، أو أربع منها[١٦]. ولكن هذه النقطة تحذف من مؤلفات المفسرين.

ولكن ماذا تقول السورة عن هذه الرحلات ؟ إن الآيــة الثالثة تتبع ذلك بقولها ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴾ ، مما يعنى وجود علاقة منطقية بين العبادة وهذه الرحلات، ووافق جميع المفسرين على ذلك. ولكن بأية طريقة ؟ فطبقا لما ذكره البعض، طُلب من

قريش القيام بعبادة الله لأنه مكنهم من القيام بهذه الرحلات، لتأمين المواد الغذائية لمكة[١٧]، أو لأنه مكنهم من الاستمرار فى التجارة على الرغم من تهديد الحبشة لمكة[١٨]. ووفقًا لرأى آخر، طلب منهم القيام بعبادة الله كثيرًا فى أثناء سفرهم[١٩] أو لعبادته بدلاً من السفر، لأن السفر لم يترك لهم فرصه لتأدية ذلك[٢٠]. وطبقًا لرأى آخر، طلب الله منهم ذلك لأنه وضع نهاية لهذه الرحلات عندما قام الأحباش وآخرين بإمداد مكة باحتياجاتها الغذائية[٢١].

وهكذا فإن الله [سبحانه وتعالى] طلب من قريش عبادته كلما استطاعوا بدلاً من القيام برحلتين ، ولم يذكر لهما ملامح محددة، أو كان لهما وجهة محددة والتى يبدو أنه يمكن للمرء أن يستدل عليها من السورة ذاتها ، كما ذكر أيضا أنه حررهم من الخوف من مجاعة معينة ، فما المقصود بتلك الإشارة ؟

طبقًا لما يراه البعض فإنه يشير إلى حقيقة أنه مَكّن قريشاً من مد مكة بالغذاء[٢٢]، أو بهزيمته للأحباش لأنه سيصبح فى استطاعتهم التحرك فى رحلاتهم[٢٣]، أو لكل معانى هذه الرحلات[٢٤]، أو بالتعاقب بوضع نهاية لهذه الرحلات، وترك آخرين يحضرون إمدادات الطعام إلى مكة[٢٥]. ويرى آخرون أن هذه الجملة تشير إلى مجاعة معينة حدثت فى مكة وربما تكون المجاعة التى حدثت قبل الإسلام، وهى التى كان من نتيجتها قيام هاشم باستيراد الخبز من سوريا . فقد قام بعمل الثريد[٢٦] وأطعم به رجال قبيلته الذين كانوا يتضورون جوعًا، وهو العمل الذى خلد ذكره، أو ربما كانت هى المجاعة الأخيرة التى عانت منها قريش والتى استجاب فيها الله لصلوات محمد [ﷺ] : ثم جاءت نهايتها عندما تحولت قريش للإسلام[٢٧]. ويرى آخرون أن هذا الجزء من السورة يشير إلى الجوع الذى كانت تعانى منه بعض العائلات القرشية قبل الإسلام، والذى دفع ببعض العائلات الفقيرة للانسحاب للصحراء حتى لاقت حتفها، ووضع هاشم نهاية هذه الحالة، عندما قام بوضع أساس الرحلتين وألحقَ كل رجل فقير برجل غنى، هكذا شارك الأغنياء الفقراء فى تحركهم حتى اشترك الجميع فى الغنى[٢٨] . وباختصار فإن فحوى كلام الله [سبحانه وتعالى] عن الجوع غير محدد أيضاً.

وماذا يعنى أن الله [سبحانه وتعالى] حررهم من الخوف كما ذكر فى الآية الرابعة؟ يرى البعض أن ذلك يعنى أنه [سبحانه وتعالى] حررهم من الخوف من الطريق ، وذلك عندما قام هاشم بعقد الإيلافات مع القبائل التى كانت تقيم فى الطريق إلى سوريا والأماكن الأخرى[٢٩]. وبإضفاء الحصانة عليهم أينما ذهبوا[٣٠]، أو عن طريق وضع نهاية لرحلاتهم، لذلك أصبح فى إمكانهم البقاء فى ديارهم[٣١]، أو عن طريق جعل مكة نفسها محرمة[٣٢]. وعلى أى حال، فإن آخرين يرون أن المقصود به هنا هو الخوف من الأحباش، أى أن العبارة هنا تشير إلى هزيمة أصحاب الفيل[٣٣]. وهناك رأى آخر يرى أصحابه أن المقصود بالخوف هنا هو الخوف من مرض الجذام[٣٤]، أو الخوف من أن الخلافة فى المستقبل سوف تخرج من يد قريش[٣٥]، أو الخوف بالمعنى الكامل للخوف[٣٦]. وباختصار فإن الخوف هنا جاء عامًا وليس محدداً، وإذا كان كذلك فطبيعته لم تُحدد.

نتناول بعد ذلك اللغز المتمثل فى كلمة الإيلاف، والتى وردت فى الآيتين الأولى والثانية(*). ولقد اختلف المفسرون حول قراءة هذه الكلمة: هل تقرأ إلاف Ilaf أو إيلاف ilaf أو إلف ilf[٣٧] كما أنهم اختلفوا حول تفسير معناها : فيظن البعض أنها تعنى عادة "habit" "وهى عادة الذهاب فى رحلات"[٣٨]، والبعض يرى أنها تعنى الارتباط بـ "Clinging to" "أى الارتباط بين هذه الرحلات وعبادة الله"[٣٩] ويرى آخرون أنها تعنى "تبادل المحبة" mutual love

(*) قال أبو إسحاق فى لسان العرب: "فى لإلاف قُريش ثلاثة أوجه: لإيلاف، ولإلاف، ووجه ثالث لإلف قريش، وقال: وقد قرئ بالوجهين الأولين" ، (لسان العرب ، مادة ألف). وقد فسَّر ابن هشام الاصطلاح بقوله: "وإيلاف قريش إلفهم الخروج إلى الشام فى تجارتهم ، وكانت لهم خَرجتان: خرجة فى الشتاء وخرجة فى الصيف.. العرب تقول ألفت الشىء إلفًا وألفتُه إيلافا فى معنى .. والإيلاف أيضا : أن تؤلف الشىء إلى الشىء فيألفه ويلزمه؛ ويقال : آلفته إياه إيلافا. والإيلاف أيضًا: أن تصير ما دون الألف ألفا" ابن هشام ، السيره، ج١ ، ص٥٦ ويذكر البلاذرى : إن الإيلاف هو العِصَمُ التى أخذها هاشم بن عبد مناف وإخوته عبد شمس والمطلب ونوفل من ملوك الشام والحبشة واليمن والعراق لتآليف الرحلتين . (البلاذرى، أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، ج١ ، ١٩٥٩ ، ص٥٩). ويسمى الطبرى هذه العهود حبالا، والحبل هو : العهد والذمَّة والأمان، كما جاء فى لسان العرب . (الطبرى ، جامع التفسير، ج٣٠، ص٣١٩). ويقول محمد بن حبيب : "والإيلاف العهود" (المحبر، ص١٦٢) . (المترجمة)

أو الترابط harmony (الذى يحدث بين الأفراد فى هذه الرحلات وأماكن أخرى)[٤٠]، ورأى آخر يرى أنها تعنى المباركة blessing (بالإنعام بهذه الرحلات)[٤١] ويرى آخرون أنها تعنى "معاهدات" "pacts" أو الحماية (وهى مباحثات قريش لتأمين هذه الرحلات، أو لجمع الضرائب التى تخصص للدفاع عن مكة) [٤٢].

وباختصار فإن السورة تشير – فى الواقع – إلى أن قريشا اعتادت القيام بالتجارة فى سوريا، أو فى سوريا واليمن، أو فى سوريا والحبشة، أو فى الثلاثة معا، وربما أيضا العراق، أو لعادتهم فى قضاء الصيف فى الطائف، أو زياراتهم لإقامة الشعائر فى مكة. إنها تحتفل بحقيقة أنهم قد بدأوا التجارة بأى صورة. أو أنها تشير لحاجة المكيين لاستيراد المواد الغذائية، أو إلى المجاعة فى مكة، أو لعادة المكيين فى الموت جوعًا، وربما تشير إلى اتفاقات بين قريش وقبائل أخرى، أو إلى حصانة قريش، أو لحصانة مكة، أو لحاجتها للدفاع عنها، أو بعد هزيمة الأحباش، أو لاستثناء قريش من مرض الجذام، أو لاحتكار قريش للخلافة. إن جميع أصحاب هذه الآراء يستخدمون كلمات تعنى عادة، أو ارتباط، أو تبادل المحبة، أو المباركة المقدسة ، أو معاهدة ، أو حماية.

إن ما يقوله المفسرون فى تفسير سورة قريش يمكن أن نلخصه فى الآتى: لقد طلب الله من قريش أن تقوم بعبادته، مشيرا إلى رحلتين غير محددتين فى طبيعتهما أو فى وجهتهما، مذكرا إياهم أنه استثناهم من الجوع والخوف الذى يمكن أن يترجم بطرق عديدة، واستخدام أى شكل من أشكال الجذع (lf) فى اللغة يمكن أن يلصق به[٤٣]. وإذا أخذنا كل ما قيل فى هذا الموضوع فإن الرواية التاريخية لا تقدم شيئا لا نستطيع أن نستخرجه من السورة نفسها.

وهذا يعنى أن المفسرين لم يفهموا هذه السورة أكثر مما نفهمها اليوم، إن ما قدموه لم يمثل استرجاع الأحداث أو ما كان فى ذهن محمد [ﷺ] عندما قام بتلاوة هذه السورة ، بل على العكس من ذلك، فإن عددا كبيراً من الفروض اعتمد على النص

نفسه ؛ لأن المعنى الأصلى للنص لم يكن معروفًا لهم(*). وحيث أنه لم يكن معروفا لهم أو للرواة الآخرين، فقد كان هناك انحراف تدرجي عنه(٤٤). وعلى أيه حال فقد أسقط فى يد الرواية بنفس الطريقة المعنى الأصلى للألفاظ الغامضة فى القرآن ومنها معنى الكلالة أيضًا(٤٥).

ويترتب على ذلك، أننا لا يمكن أن نستخدم هذه الرواية فى تفسير معنى سورة قريش، ونحن هنا مثل المفسرين لا يوجد شيء لدينا سوى نص القرآن الذى نهتدى به، ولذلك لا نستطيع أن ندعى أن سورة قريش تؤكد الحقائق التى تقدمها تلك الرواية التطوعية، بل يمكن أن نقول إنه من المحتمل أن قريشا كانت تقضى الصيف فى الطائف، وتتاجر مع سوريا، كما كانت لها علاقات تسير على نسق خاص فى إطار القبيلة ، كما عقدوا اتفاقات مع قبائل أخرى يرجع الفضل فيها لهاشم. وحيث إننا لا نعرف طبيعة تلك الرحلات التى ذكرت فى القرآن، أو معنى كلمة إيلاف، التى وردت فى القرآن، فلا يمكن أن نأخذ بأن القرآن يؤكد أيًا من الفرضيات التى وضعت لتفسير تلك السورة، ولذلك يجب أن نترك جانبًا كل هذه الفرضيات. إن الإشارة التلميحية فى أسلوب القرآن ليست محصورة فى سورة قريش عندما يذكر أن القرآن يؤكد ما جاء فى الرواية، ولكن الوضع يتحول لتصبح الرواية هى التى تثبت نفسها.

ولكن هل كانت قريش تقضى الصيف فى الطائف، وهل عقدوا محالفات ترجع لهاشم عرفت باسم الإيلاف ؟ وبمعنى آخر ما المعلومات التى لها قيمة تاريخية والتى يمكن أن تقدم لتفسير نص فى القرآن مثل سورة قريش ؟ وكقاعدة فإن هذه المعلومات يمكن أن تكون صحيحة تمامًا: ولكن ما معنى الإيلاف ؟ لا شك أن المفسرين كانوا يعرفون جذر الكلمة، التى كانوا يحاولون القيام بشرحها ،

(*) إن الرد المنطقى هو : إن المعاصرين للرسول ﷺ كانوا يعرفون تمامًا المعنى المقصود من السورة، لذلك لم يتوقفوا عندها ليناقشوه فيها، والذى يتمثل فى الإشارة إلى رحلات قوافلهم التجارية التى كان يشارك فيها فقيرهم وغنيهم على قدم المساواة. أما هذه التفسيرات المتعددة فقد وردت لدى المفسرين اللاحقين الذين اجتهدوا فى تفسير البناء اللغوى ومعنى الكلمة ، وكذلك لتفسيرها من الناحية التاريخية لأنه لم يكن لديهم معنى محدداً من عصر النبوة . (المترجمة)

ثم ما معنى سورة قريش ؟ لا شك فى أنهم يعرفون أيضًا التاريخ، لكى يقوموا بالشرح في ضوئه، ولكنه يتضح من الناحية العملية أن كل أو بعض المعلومات التى قدموها كانت زائفة.

وعلى ذلك أخبرنا المفسرون عن سورة قريش أن قريشًا كانت تذهب فى رحلات تجارية إلى سوريا، وإذا كان ثمة ثقة في الرواية الاسلامية، بأى صورة، فينبغى أن نقبل صحة هذا القول، ولكن حتى هذه الحقيقة الواضحة قام الشراح بقلبها. وحيث إن القرآن [الكريم] ذكر رحلتين واحدة فى الصيف وأخرى في الشتاء، فقد قام المفسرون بتكييف معلوماتهم عن تجارة قريش لتتوافق مع الإشارة لهذه الرحلات الموسمية وهنا قالوا إن قريشًا ذهبت إلى سوريا بطرق متعددة فى الصيف والشتاء ، أو ربما أكثر احتمالاً إلى سوريا فى الصيف وإلى مكان آخر فى الشتاء (أو فى طريق العودة) ولا يوجد فى الرواية بصفة عامة ما يدل على أن الأمر كان كذلك: ويبدو أن بعض القرشيين تاجروا فى سوريا، ولكن ليس في اليمن أو الحبشة ، بينما تاجر آخرون فى اليمن أو الحبشة فقط ، ولكن ليس فى سوريا، ويبدو أن القرشيين كانوا يزورون متجرهم matjar أكثر من مرة فى السنة[٤٦]. ويقبل أغلب المتخصصين فى الدراسات الإسلامية اليوم الرحلتين من الناحية الحرفية، كما يقبلون زيارة قريش إلى سوريا فى الصيف[٤٧] كما أنهم يقبلون تاريخ الرواية لمعركة بدر، على أساس أن القافلة التى كانت السبب فى المعركة، كان يجب عليها أن تغادر إلى سوريا فى الشتاء، لتعود من هناك فى شهر مارس[٤٨]. وهكذا يتضح أنه لا يوجد سبب لقبول المعلومات التاريخية التى دفعت القرآن لذكر الرحلتين .

أما بخصوص رحيل قريش للطائف فى الصيف، فهو أمر يمكن قبوله من الناحية الظاهرية، وقد قبله كل من لامينز و وات[٤٩]. ولكن حيث إن هذا الأمر ورد خارج دائرة المفسرين، لذلك كانت الفرصة متاحة لتأليفه[٥٠]. ويؤكد ذلك عدم وجود إشارة إلى الانسحاب الموسمى فى تاريخ حياة محمد [ﷺ] ، إضافة إلى أن مكة كانت مزدحمة بالقرشيين خلال الصيف، عندما قام محمد وأصحابه بالهجرة إلى المدينة [٥١].

كذلك يمكننا أن نرفض الرأى القائل بأن قريشًا قامت بعقد اتفاقات عرفت باسم الإيلافات. فإذا كان الإيلاف له معنى خاص، بعقد له أهمية جوهرية عند المكيِّين، وللقبائل التى قاموا بالتعاقد معها فيجب أن تكون لهذه الكلمة شهرتها الكبيرة بينهم، ولكن هذه الكلمة أثارت حيرة كثير من الدارسين وعدد من المكيين. إذ حدث خلاف بينهم، فيما يخص مبنى الكلمة ومعناها. فقد وضعها البعض فى صورة المفرد، آخرون فى صورة الجمع(٥٢) ، وهكذا يتضح لنا بما فيه الكفاية أن هذه الكلمة لم يسبق لهم أن عرفوها من قبل(٥٣). وفى الواقع فإنه يمكن الاعتراض بأن الإيلافات اتفاقيات هاشم يرجع السبب فى وجودها للقرآن [الكريم]، وما ذكره عن تحريرهم من الخوف: إذ إن قريشًا تحررت من الخوف نتيجة للاتفاقيات التى عرفت باسم الإيلاف والتى منحتهم الأمان على الطريق، أو الحصانة التى نبعت من إقامتهم فى الحرم، أو من حصانة الحرم نفسه، أو بالمعاهدات التى عرفت بالمثل بإيلاف والتى ساعدتهم فى الاشتراك فى الدفاع عن ذلك الحرم. وإذا أخذنا كل رأى من هذه الآراء على حدة يكون مقنعا، ولكنها فى الوقت نفسه توضح أن الذين قاموا بوضعها هم رجال على دراية بالعادات والتقاليد فى بلاد العرب، ولكن على العكس من ذلك أنها وضعت دون اعتبار للعادات والتقاليد التاريخية الخاصة بمكة. وعلى هذا الأساس لا يوجد دافع لقبول أى من هذه الآراء على أنه يمثل الحقيقة(٥٤)، وأن قبول المؤرخين فى العصر الحديث لهذه الآراء يعد أمرا غير مقبول . واستخلصت المعلومات هنا واستخرجت من كلمات القرآن [الكريم] بصرف النظر عن المعلومات التاريخية التى كانت متوفرة عن قريش قبل الإسلام(*).

إن الحقيقة التى تهمنا فى هذا المجال أنه قد تم استنباط معلومات كثيرة غير صحيحة من القرآن [الكريم]. إن القصة الخاصة باتفاقات – إيلافات – هاشم، ليس لها مصادر أساسية مستقلة، استخدمت هنا خطأ فى تفسير سورة قريش ، على الرغم من

(*) إن ما ذكر فى القرآن الكريم من إشارات لأحداث تاريخية لم يكن الهدف منه تسجيلها تفصيلا ؛ لأنه ليس كتابا فى التاريخ ، ولكن الهدف منها هو العظة والاعتبار ولذلك لم يذكر فى سورة قريش كيف بدأت وكيف انتهت تجارة مكة كما كانت كرون تنتظر . (المترجمة)

أن قليلاً من المعلومات الواردة فى هذه القصة تأكد من خلال هذه السورة، بل على العكس، استخرجت منها: فلولا هذه السورة، لما كان لهذه القصة وجود. وهى لا تمثل تفسيراً واضحًا عن كيف بدأت تجارة مكة، ثم إنها لا تكشف عن شرح كيف كانت نهايتها. ويبدو أن تجارة مكة لم تبدأ ولم تنته بهذه الطريقة(*).

إن قصص المفسرين هذه لها أمثلة بلا حدود، ويرجع السبب فى ذلك بالتحديد لأن أدب المفسرين يقدم قصة للشرح العملى لكل فقرة موجودة فى القرآن الكريم، لذلك اشتهر أدب المفسرين بتصيد الشراح لهذه القصص. وعلى سبيل المثال عندما قال الله [سبحانه وتعالى] للمؤمنين ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ ٨٦ ، ٨٧ .

فقد قيل لنا فى تفسير خلفية السورة أنه كان هناك سبع قوافل ليهود المدينة وصلت من بصرى وأذرعات فى يوم واحد حاملة بضائع غالية الثمن، كما قال آخرون إن محمداً [ﷺ] ورجاله رأوا هذه القوافل فى أذرعات، وكان رجال محمد يريدون الاستيلاء عليها، ولكن الله كبح جماحهم، قائلاً إنه أعطاهم شيئًا أفضل منها وذكر السبع المثانى والقرآن(**). حقيقة ليست جميع قصص المفسرين ضعيفة ولكن عدداً كبيراً منها كان كذلك(٥٥)، حيث إنهم يعرفون أكبر قدر من الحقائق عن الإسلام، لذلك فمن المحتمل أنهم قاموا بتأليف أشياء من هذا النوع، فهل ما قدمه القرآن عن حقائق

(*) الواضح هنا أن كرون أظهرت شغفًا عارمًا ، وتلذذًا واضحًا لتناقض الروايات فى عدد من المسائل ومنها الإيلاف ورحلة الشتاء والصيف، فقد قامت بنقد المصادر، ولكنها أحجمت متعمدة عن أن تخطو الخطوة التالية. فإذا قلنا إن روايات المصادر متناقضة ، فليس حتمًا أن جميع الروايات خاطئة، ولا يُوثق بها جملة، فكان يجب عليها فى الخطوة التالية أن تحلل مختلف الروايات والنصوص لتنتهى إلى القول إن هذا النص مقبول، وإن ذلك غير مقبول ، وإن هذا بعيد الاحتمال ، وإن هذا مرجح ، وإن هذا مضمون الصحة موثوق به. فإذا وجد تناقض بين روايتين فهل يعد هذا حجة عليهما معا ، فإذا حدث هذا ففى إمكان أى مؤرخ فاسد الرواية أن يلغى أعظم التواريخ ، كما يمكن للبعض أن يخطئ حين يعطى المصادر ثقة دون تدقيق. إن كرون أخطأت متعمدة فى الإحجام عن قبول أى نص، حتى يتسنى لها فيما بعد إصدار أى رأى أو نفى أى قول ، دون كثير عناء. وقد أبدت كرون دأبا على التدقيق ، لكنها حرفته جميعه إلى التشكيك فى المصادر، ولم توفر شيئا منه للخروج بالروايات الصحيحة . ولذا نستطيع القول بأنها بيتت نيّة ، ولم تخطئ فى ذلك خطأ عفويا . راجع سحاب المرجع السابق . ص ٤٣٠ ؛ تعليق المترجمة ص ٣٥٤ وما يليها . (المترجمة)

(**) يرى القارئ أنه لا يوجد ثمة تعارض فى الروايتين، فعددها سبعة فى كل منهما، ولكنها محاولة لتشتيت فكر القارئ وبعثرته وانتهاز أية فرصة للحديث عن اليهود . (المترجمة)

تتعلق بالأيتام، يعكس الحقيقة التاريخية أن محمداً [ﷺ] كان يتيما، أو هل غدا يتيما لتوسع القرآن فى هذا الموضوع(*)؟ وعندما يتحدث القرآن [الكريم] عن القلوب التى "تآلفت معاً" فهل تعد هذه إشارة لمجموعة تاريخية من الأفراد الذين "تآلفت قلوبهم معاً" بعد فتح مكة (المؤلفة قلوبهم) وأن هذه الجماعة ظهرت للوجود لأن إشارات القرآن كان ينبغى تفسيرها وتحديدها ؟ وإذا وقع الاختيار على الاقتراح الثانى فمعنى هذا انهيار المصادر التى تم حشدها عن ظهور الإسلام.

إن كتابات المفسرين كانت ترتكز على ما كانوا يعتقدون بصحته أكثر من اعتمادهم على ما كانوا يتذكرونه. حيث توضح معلوماتهم عن مكة ما كانوا يعتقدون أنه يمكن قبوله، وليس ما كانت عليه أحوال مكة من الناحية التاريخية. لقد قمنا بقبول أقرب ما جاء فى أقوال المفسرين من الحقائق التاريخية ، كما ينبغى التسليم بأن أقرب هذه الآراء التى أمكننا الحصول عليها لم تكن شديدة القرب من الحقيقة التاريخية. وإذا وجد المفسرون أنه يمكن أن يقف على قدم المساواة، إمكانية قيام المكيين بالتجارة، وأنهم توقفوا عن ذلك، وأنهم تاجروا خلال موسم الحج ثم منعوا من القيام بذلك، لأنهم أصبحوا رجالاً مقدسين، ولأنه لا يقبل من الرجال المقدسين أن يقوموا بذلك، إن الاستحسان هنا كان من وجهة نظر المفسرين وليس من قبيل الحقائق التاريخية. إضافة إلى ذلك كان المفسرون على علم ومعرفة واسعة بالعربية ككل، ولكن بعض من معلوماتهم المتضاربة عن مكة لابد من أنها كانت ترتكز على هذه المعلومات العامة أكثر من اعتمادها على معرفة مكة. فهل عندما أرجعوا الفضل لأهل مكة فى تجارة الجلود تذكروا أن مكة فعلاً كانت تتاجر فى الجلود، أو لأن الجلود بوضوح كانت سلعة يمكن قبولها من الناحية النظرية ؟ إلى أى من الرأيين يرجع الفضل لهم ؟ وإذا تم اختيار الرأى الثانى، فإن جميع الادعاءات الإيجابية التى سبق تقديمها فى هذا الكتاب تنهار بالإضافة إلى المصادر الموثوق بها أيضاً(٥٦).

(*) إن الشيء المؤكد والثابت أن الرسول ﷺ ولد يتيما، وحتى هذه الحقيقة المؤكدة راحت الكاتبة تتلاعب بها لفظيا ؛ حتى تقلب الحقائق وتوجهها كما تريد، خصوصا وأن القارئ الغربى غير ملم إلماماً كافياً بحياة الرسول ﷺ . (المترجمة)

والآن كيف يمكن لنا أن نعتمد على الرواية التي لا ترجع إلى رواية المفسرين؟ من الواضح مما ذكر سابقًا أن كثيرًا من الروايات التاريخية ترجع أصولها إلى المفسرين في واقع الأمر. وعلى ذلك فإن قصة هاشم ورحلاته يرجع الفضل لبقائها لسورة قريش، وبسبب ذلك فإن الفضل لبقائها يرجع للناحية التاريخية، أكثر مما يرجع لأعمال المفسرين، وكذلك فإن الأحداث التاريخية الكثيفة التي ذكرها القرآن (مثل الغارة على نخلة، ومعركة بدر، والقسم بالتحالف في حنين، ومعارك محمد [ﷺ] مع المنافقين) فإن الفضل يرجع لبعض خصائصها وبقائها للقرآن [الكريم]. أما بخصوص ما تبقى من مصادر أخرى وبعضها خاص بالتشريع والحديث فقد تم بصفة عامة قبولها الآن على اعتبار أن هذه المادة تعكس تمسك الأجيال التالية بالعقيدة أكثر من القيام بشرحها من الناحية التاريخية(٥٧). ويوجد لدينا كذلك مجموعة جيدة من القصص التاريخية التي يبدو أن جزءًا كبيرًا منها أو أغلبها كان بعيدًا عن المفسرين والعقيدة والوحي، وطبيعة هذه المادة تمثل أهمية قاطعة. فلماذا لم تدخل هذه المادة في كثير أو قليل في تفسير الأحداث التاريخية ؟ إن ذلك يرجع في الواقع إلى أن قيمتها التاريخية ضئيلة، فهي مثل أغلب حديث المفسرين عبارة عن عمل من أعمال رواة القصص(٥٨).

لم يعد سرا الآن أن رواة القصص لعبوا دورًا كبيرًا في رواية الحديث، فالقصص الخاصة ببداية تجارة مكة ونهايتها، هي أمثلة أنموذجية للطريقة التي ساهموا بها في هذا المجال، إن كلا منها عبارة عن صورة كاملة لمرآة الأخرى، وأحيانا يقومون بتطوير الموضوع بطريقة متعارضة، كما يوجد في بعضها أيضًا بعض الاختلافات في تطور بعض الموضوعات الصغيرة وهذه من خصائص الرواية الشفوية، وهي عبارة عن قصص في موضوعات عامة مثل موضوع هاشم والثريد الذي يوضح لنا كيف يمكن أن يصبح الفرد مشهورًا. تلك هي كما سبق وذكرنا الخصائص المميزة للشراح المسلمين التي ندركها منذ الوهلة الأولى للقصة، فنحن نسمع عن الناس، والقوافل، والحروب، والمنازعات حول الأرض، والغنائم والزواج، والطلاق والحب، والعقبات النفسية لأشياء

أخرى ، إنها نفس سيمفونية(*) العلاقات الإنسانية التي لا تتغير والتي أدت إلى تدخل الله [سبحانه] ليقوم بإرسال آياته. إن هذا تفسير شعبي، وليس تفسيراً خاصا بالمثقفين، ولكنه هو التفكير المسيطر على أعمال المفسرين الأوائل مثل الكلبي ومقاتل[٥٩]. أما الشراح الأوائل منهم من أمثال الطبرى، فكان يقوم بحذف القصة، ثم يقوم بتطوير تفسير من النوع الذى يوجد فيه مغالطات، ولكنهم حتى عندما كانوا يقومون بذلك، فإن القصة تقع تحت وطأة التفسير السابق[٦٠]. من الواضح إذن أن إدراك أكثر المسلمين الكلاسيكيين للقرآن [الكريم] يعتمد على ما قدمه رواة القصص المشهورين، الذين كانوا أول من قدم تفسيراً تاريخياً لنصوص معينة[٦١]. ولهذا ينبغى أن يكون من الواضح أن هذا هو السبب الرئيسى الذى جعل رواية المفسرين لا ترشد للمعنى الأصلى للقرآن [الكريم] وبالتالى للتاريخ. وكما نتوقع من رواة القصص، فقد قاموا بصياغة قصصهم بدون عناية أو بجهل أو بكلا الأمرين معاً(**).

(*) تستخدم كرون هنا اصطلاح "سيمفونية"، وعلى الرغم من وقع هذا الاصطلاح فى إعطاء صورة متحركة للعلاقات الإنسانية، فإنه لا يخفى على القارئ أنه اصطلاح حديث وأفضل أن يستخدم بدلاً منه اصطلاح "نسيج" أو طبيعة. (المترجمة)

(**) أغفلت كرون عن عمد المناقشات الطويلة التى دارت حول وحدة سورتي الفيل وقريش، فقد كانتا فى رأى بعض الصحابة سورة واحدة، ويقول الفراء" أن أبيَّ بن كعب جعلها فى مصحفه فى سورة واحدة بلا فصل ، وأن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) قرأهما من غير فصل بينهما بالبسملة (النيسابورى، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، بولاق ، القاهرة ١٣٢٩هـ، ج٣٠، ص١٦٧) ، ولاحظ ابن كثير وهو من المفسرين الذين يؤيدون وحدة السورتين ، أن فصلهما ربما نجم من خطأ في النسخ، أدرج البسملة بين جزئى السورة. أو لعل الناسخ تعمد إدراج البسملة ليفصل الجزءين تعظيماً لقريش ، فتكون لها سورة على حدة . أو تكون للمنافسة السياسية بين المهاجرين والأنصار يدٌ فى هذا الأمر عندما تم جمع صحائف القرآن الكريم فى عهد عثمان بن عفان (ابن كثير، التفسير ،بيروت، ١٩٦٦، ج٧، ص٣٧٧، ٣٧٨) . وبعد أن فصلت السورتان أصبح جمعهما أمراً مستحيلاً .

وفى الواقع فإن سورة قريش تصبح أيسر فهما إذا أدمجت مع سورة الفيل، كما تكتسب سورة الفيل قوة وعظية عند دمج السورتين. فسورة الفيل تصف قوة الله سبحانه وتعالى التدميرية، وهي تقدم بذلك وعظاً وإرشاداً للمسلمين، بينما تستند سورة قريش إلى تقديم الأساس التاريخى وتفسر﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾، فقد دمر الله سبحانه وتعالى الدخيل الحبشى ، وبذلك أمن قريشاً من خوف (النيسابورى، ص١٦٨، الطبرى، التفسير ص١٩٧، ١٩٨؛ ابن كثير، التفسير، ص٣٧٧، ٣٧٨). فإذا قرئت السورتان على أنهما سورة واحدة، أو على الأقل متصلتان فى السياق التاريخى، فلا شك فى أن الفائدة التى يجنيها المؤرخ تكون عظيمة، لأنهما تتناولان أبرهة والأحباش، ومكة والكعبة وزوال السيادة الحبشية فى جنوب الجزيرة العربية، وارتقاء مكة إلى مكانة السيادة من جراء سيطرتها على طرق التجارة فى غرب الجزيرة . =

= إن قراءة السورتين معاً ، يعني أن النفوذ الحبشي في اليمن، كان يحول دون قيام قريش برحلتيها على طول خط تجارة الشرق في غرب الجزيرة، وأن هزيمة الأحباش كانت بشيرا بزوال هذه العقبة. وإذا اتخذت السورتان في إطار تفسيري تاريخي معا فإن حرف "اللام" الأول في قوله تعالى: ﴿ لإيلاف﴾ يصبح لام السببية، أي أن الله سبحانه وتعالى جعل أصحاب الفيل كعصف مأكول لتؤلف قريش رحلة الشتاء والصيف، وهو الأمر الذي يدل على التحول التدريجي في طريق التجارة من شرق شبه الجزيرة إلى غربها .

ولإتمام الفائدة التاريخية من دمج السورتين ينبغي إيضاح شرح السورة التي قال فيها الله سبحانه وتعالى ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل * ألم يجعل كيدهم في تضليل * وأرسل عليهم طيرا أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم كعصف مأكول﴾ . سورة الفيل .

وقال الطبري في تفسير السورة : " ألم تنظر يا محمد (ﷺ) بعين قلبك كيف فعل ربك بأصحاب الفيل الذين قدموا من اليمن يريدون تخريب الكعبة، من الحبشة ورئيسهم أبرهة الحبشي الأشرم، ألم يجعل كيدهم في تضليل، يعني تضليلهم عما أرادوا وحاولوا . قال عن ابن عباس : في قوله طيراً أبابيل، قال يتبع بعضها بعضا ... قال : متفرقة ... قال : الأبابيل الكثيرة ... قال : الأبابيل المختلفة تأتي من ههنا وتأتي من ههنا، أتتهم من كل مكان وذكر أنها كانت طيرا أخرجت من البحر .. وقال آخرون : كانت خضراء لها خراطيم كخراطيم الطير، وأكف كأكف الكلاب.. قال : كانت طيراً خضراً خرجت من البحر لها رءوس كرءوس السباع.. قال : هي طير سود بحرية في مناقرها وأظافرها الحجارة .. قال : طير خضر لها مناقير صفر .. (قال ابن عباس) : حجارة من سجيل قال: طين في حجارة .. عن عكرمة قال : ترميهم بحجارة معها، قال فإذا أصاب أحدهم خرج به الجدري، قال: كان أول يوم رؤي فيه الجدري قال: كانت مع كل طير ثلاثة أحجار ، حجران في رجليه وحجر في منقاره، فجعلت ترميهم بها... لا يصيب الحجر شيئًا إلا هشمه". (الطبري) التفسير، ج٣٠، ص١٩١، ١٩٣، وتفسير الآية حتى ص١٩٧ .

شكك بعض المؤرخين في العناصر العجائبية التي جاءت على غير ما هو مألوف في حادثة هزيمة أبرهة وخلطوا دون تمييز بين ما جاء في القرآن الكريم ، وما جاء في روايات دخلت فيما بعد على تفسير النص وهو الشيء انفسه لذي تقوم به كرون في تفسير سورة قريش، ولابد أن يوضع في الاعتبار أن كثيراً من كتب التفسير قامت بجمع ما أمكن مما شاع بين الناس من تفسيرات جيدها وفاسدها، فيجب أن لا يؤخذ الجيد بجريرة الفاسد، كما لا يساق ذلك دليلا على بطلان الحادثة جملة وتفصيلاً .

إن حادثة الفيل وهزيمة أبرهة الحبشي لا يوجد شك في وقوعها، إن هذه الحادثة التي وقعت حوالي عام ٥٧٠م كانت لا تزال حية في أذهان بعض المكيين الذين يخاطبهم القرآن الكريم ، ولو كانت غير صحيحة لما ترك مشركو قريش الفرصة في مجادلة المسلمين وتكذيبهم . ولقد ذكرت السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت"رأيت قائد الفيل وسائسه أعميين مقعدين يستطعمان .." النيسابوري، غرائب، ج٣٠، ص١٦٣، ١٦٤ ، ابن هشام ، السيرة ، ج١، ص٥٧ .

إضافة لما تقدم فإن رمي الطير جيش أبرهة يستند إلى حقيقة علمية في علوم الطبيعة لتفسير هذا الإعجاز الإلهي الذي ورد فيها : فثمة نوعان من النسور، قد يكون أحدها هو الطير المقصود: الأول يقتل برمي العظام ، ويدعى كاسر العظام؛ والثاني الرخّام الذي يستخدم بيضة النعامة في طعامه، ولما كانت أقوى من أن يكسرها بمنقاره، وأثقل من أن يحملها، لذلك يقوم برمي حجر عليها ليتناولها . وفوق كل ما تقدم فإن المعجزات الإلهية هي خارج نطاق القياس البشري، فقدرة الله سبحانه وتعالى في الخلق مطلقة. =

ونحن نقدم الشكر لرواة القصص ؛ لأن الرواية التاريخية كانت المعلومات الصحيحة فيها قصيرة . ويتمثل دورهم في المعلومات الخاصة بالمصادر الخاصة بظهور الإسلام بوضوح في ثلاث جوانب رئيسية هي :

أولاً : إنهم هنا يشبهون شراح الرواية حيث قدموا لنا معلومات متعارضة. وسبق وقمنا بتقديم بعض النماذج منها في موضوع التجارة، وسوف أضيف نماذج أخرى لها أهميتها الجوهرية.

كان معروفًا أن يثرب (المدينة) قبل الإسلام كانت تمزقها الخلافات، ولكن لم يذكر ابن إسحاق القصة الكاملة لهذه الخلافات، على الرغم من أنه أشار إليها في عدة مناسبات(٦٢) وأنها لعبت دورًا قاطعًا فيما ذكره عن الطريقة التي تم بها استقبال محمد [ﷺ] هناك. إن اليثربيين الذين ألقوا بثقلهم معه، ووضحوا كيف أن أهلهم قد قسمتهم الكراهية والحقد إلى درجة غير عادية حتى أنهم عبروا عن أملهم "في أن الله (سبحانه وتعالى) سوف يوحدهم على يديك"(٦٣) وأخبرنا ابن إسحاق أنه عندما قدم النبي [ﷺ] ليثرب وجد أن أهلها كان لديهم زعيم يدعى ابن أُبيّ وكانوا على وشك أن يقوموا بتتويجه ملكا عليهم، ولم يسبق أن اعترض عليه أي فرد من قومه، كما لم تجمع الأوس والخزرج على رجل قبله أو بعده حتى قدوم الإسلام كما فعلوا معه(٦٤). ويبدو أن السبب في هذه الحالة الاستثنائية في الاتحاد ربما يرجع إلى مؤاخاة تمت بين ابن أُبيّ ذلك الخزرجي وبين رجل من الأوس. وكان أهل يثرب قد صنعوا التاج الذي كان سيتم تتويجه به، ولكن وصول محمد وأصحابه أحبط آماله، ومن أجل ذلك تحول ليصبح منافقًا(٦٥) وهذا يعني أن ابن إسحاق قد ذكر لنا، أولا، أن محمداً [ﷺ] عندما دخل إلى يثرب كان يوجد فيها فراغ سياسي، ثم عاد وقال إن محمداً قد انتزع السلطة

= وأغفلت كرون عن عمد، كل المناقشات التي دارت حول دمج سورتي الفيل وقريش معا أو قراءتهما معا، لأن ذلك لا يدع مجالاً للشك في تفسير رحلتي الصيف والشتاء، وإطعام قريش من جوع، وتأمينهم من الخوف بعد أن من الله تعالى عليهم بالانتصار على أبرهة الحبشي وجيشه الغازي، لذلك طلب الله (سبحانه) منهم شكره على نعمه التي أنعم بها عليهم . عن هذا الموضوع راجع : فيكتور سحاب، إيلاف قريش، ص١٩- ص٣٢ والمصادر المذكورة في الحواشي. (المترجمة)

السياسة من حاكم يثرب المعين. قال إن يثرب لم تكن موحدة إطلاقًا، ثم قال بعد ذلك إنها لم تكن موحدة أبداً مثل الآن. إن التعارض هنا يقف خلف التوافق[٦٦].

إضافة إلي ذلك فإن ابن إسحاق يذكر لنا قصتين عن نفوذ قاسم بن عمر بن قتادة الأنصاري الذي كان يعرف طبقًا لما يذكره ابن حجر، يعرف عن المغازي والسير وهو الذي دُعي إلي الجلوس في جامع دمشق للتحدث عن المغازي وعن أفضال الصحابة[٦٧]، وبمعنى آخر، كان قاسم من رواة القصص، كما أن القصص التي قام ابن إسحاق بنسجها هي بعض من هذه القصص التي كان يقصها قاسم ليسلي بها الدمشقيين. ومن الواضح أن مهمته هنا لم تكن تتمثل في إعطاء محاضرة تاريخية مملة، ولكن كان الهدف منها هو إثارة قدر كبير من العواطف نتيجة للأعمال العظمى التي قام بها الرسول [ﷺ] وأصحابه، حتى يُقبل الناس على الدخول في الإسلام، وهذا هو ما فعله حيث أكد في القضية الأولى على أوضاع أهل يثرب في المدينة (يثرب) والتي كانت تثير الشفقة، قبل أن يرسل الله النبي رحمة منه إليهم، وفي القضية الثانية، يذكر المعارضة الشديدة التي واجهت محمداً وكان عليه أن يقوم بالتغلب عليها هناك[*]، كما أنه انتهز الفرصة لتوضيح إشارة القرآن للمنافقين. وفي الواقع فإن القصتين متعارضتان، ولم يلاحظ أحد من مستمعيه، أو أحد من المؤرخين ذلك، ويرجع السبب في ذلك إلى أنهما ذكرتا في غرضين مختلفين وفي نصين مختلفين، كل واحد من هذه النصوص يثير العواطف الخاصة به[**].

(*) جاءت المعارضة الشديدة التي واجهها الرسول (ﷺ) في المدينة من قبل اليهود فيها لأنهم أدركوا بحسهم وهم الذين كانوا يقبضون على مصادر النشاط الاقتصادي فيها من زراعة وصناعة وتجارة أن وصول الرسول والمهاجرين سوف يهدد مكانتهم فيها . وعن هذا الموضوع راجع الدراسة الجيدة التي قدمها الدكتور رياض مصطفى أمين : النشاط الاقتصادي لليهود في الحجاز قبل الإسلام ، مجلة المؤرخ العربي ، العدد ١١ ، المجلد الأول ، مارس ٢٠٠٣ ، ص ٥٩ – ٩٨ . (المترجمة)

(*) إن أهل يثرب الذين قابلوا الرسول (ﷺ) أثناء دعوته في مكة للإسلام، عكسوا له الأوضاع التي كانت عليها يثرب في ذلك الحين، وينبغي أن يكون واضحًا للأذهان أن مقابلات الرسول كانت مع عدة أفراد منهم، وليس مع جميع أهل يثرب ، ولما كانت قد مرت فترة من الزمن بين هذه المقابلات وبين هجرة الرسول ﷺ إلى يثرب، فيبدو أنه حدث أثناءها الاتفاق والمؤاخاة بين ابن أُبي الخزرجي وبين رجل من الأوس، وصنع له أهل يثرب التاج الذي كان سيتم تتويجه به. وبالرغم من ذلك فيبدو أن الموافقة عليه =

كذلك يوجد تعارض مماثل فيما قدمه ابن إسحاق عن يهود المدينة عشية الإسلام، فمن ناحية ذكر لنا أنهم اعتادوا أن يقفوا بجانب حلفائهم العرب فى النزاعات التى كان يثيرها الآخرون، ثم يذكر أن اليهود كانوا يحاربون ضد بعضهم البعض لعدم تمسكهم بوحدانية الله [سبحانه وتعالى] : ألم تكن التوراة فى أيديهم ليعرفوا منها الممنوع والمسموح فيها[٦٨]؟ إن هذا يعنى الإيحاء بإجابة السؤال التالى: "بأى شيء جاءتنا به اليهودية إذن؟ إنه لمن حسن الطالع أننا لدينا الآن الإسلام". ولكن ذكر لنا من ناحية أخرى أن الوثنيين كانوا يقومون بإزعاج جيرانهم من اليهود، الذين وحدوا صفوفهم على أمل أن يأتى لهم نبى يقوم بقتل أعدائهم من العرب المعتدين[٦٩] فهنا لم يظهر اليهود تقاعسًا فى عدم التضامن كموحدين أو فى التمسك بعقيدة التوحيد، لأنهم هنا قصدوا أن نراهم الممثلين لعقيدة التوحيد، التى هاجمها الوثنيون والتى كان يدعو إليها محمد [ﷺ] (هذا على الرغم من أن الذى حدث بالفعل أنه قتل من اليهود أكثر مما قتل من العرب المعتدين، لأن العرب كانوا أسرع فى التحول عن دينهم)[*]. وهنا نجد مرة أخرى أن القصص قد ذكرت لنا معلومات، بصرف النظر عن الوضع الذى كان سائدًا فى المدينة، بل ربما لم يكن لها وجود فى الواقع التاريخى أساسًا.

والأمر الذى يبدو أكثر احتمالاً فى الواقع التاريخى هو أنه كان يوجد فى المدينة زعماء أكثر من وجود ملوك، وبخصوص هذا الموضوع فنحن لدينا رواية استخدمها

= لم تكن بإجماع أهل المدينة، بل كان يوجد عدد غير قليل لا يؤيد هذا الاتفاق بدليل طريقة استقبال أهل المدينة للرسول ﷺ وصحبه. مما يؤيد ما قاله ابن إسحاق من وجود فراغ سياسى فى المدينة على الرغم من أنها لم تكن موحدة أبدًا مثل الآن، إضافة إلى أن عمل ابن إسحاق هو عمل لمؤرخ يمكن أن يكون ما قدمه من معلومات صحيحة أو يحيط الشك بها، ولهذا لا يجوز مقارنة ما قدمه ابن إسحاق بأعمال علماء التفسير الذين كانوا يراعون قواعد الرواية فى تفسير آيات القرآن الكريم . (المترجمة)

(*) إن السبب فى ذلك لا يرجع إلى أنهم كانوا أكثر من العرب تمسكا بدينهم ، ولكنه يرجع إلى نقضهم للعهود والمواثيق التى عقدوها مع الرسول (ﷺ) والخيانة المتكررة التى ارتكبها يهود بنى النضير وبنى قريظة وبنى قينقاع ويهود خيبر. وهى السياسة نفسها التى سار عليها اليهود، فقد عاشوا فى مدينة الإسكندرية بعد تأسيسها واستفادوا من رخائها وازدهارها الاقتصادى فى العصر البطلمى (٣٠٦ - ٣٠ق.م)، وأصبح لهم حى فيها وهو الحى الرابع "دلتا" من بين أحيائها الخمسة، وبالرغم من ذلك عندما شعروا بقرب نهاية هذه الأسرة بعد هزيمة الملكة كليوباترا السابعة وماركوس أنطونيوس فى معركة أكتيوم عام ٣١ق.م =

رواة القصص ولكنها لكم تكن من إبداعهم. وفي حالة ما إذا كان يوجد في المدينة زعماء، فيكون رواة القصص هنا قد اخترعوا موضوع نفوذ ابن أُبيّ، كما أنهم أيضًا قد اخترعوا بعض الأشياء أو كل الأشياء الخاصة بوضع اليهود(٧٠).

ثانيًا : والطريقة الثانية التي ساهم فيها الرواة، هي الميل في التقارير التي تبدو مستقلة، إلى بعثرة اختلافات حول موضوع عادي. لقد سبق وقمت بمناقشة هذه الظاهرة من قبل، ولكني أفضل أن أقوم بفحص مدلولها بتفصيل أكثر.

عُرف عن المصادر أنها تضم عدداً كبيراً من القصص المختلفة، حول موضوع واحد مثل تنبؤ أفراد يمثلون عقائد غير إسلامية بأن محمداً سوف يكون النبي المنتظر

= ساعدوا القائد الروماني أوكتافيوس (الإمبراطور أوكتافيانوس) أغسطس فيما بعد (٤٤ق.م-١٤م) في زحفه من فلسطين إلى مصر، مما مكنه من الاستيلاء عليها عام ٣٠ق.م. دفعتهم مصالحهم لاستمرار التحالف مع أباطرة روما في فلسطين ، وتمكنوا في تلك الفترة من أن يحققوا لهم فيها نوعًا من الاستقلال الذاتي في الجزء الداخلي منها، وهي الفترة التي تعرض فيها المسيح عليه السلام لكل أنواع الأذى منهم ، ولكنهم انقلبوا بعد ذلك على حلفائهم الرومان عندما اكتشفوا نواياهم، وأن هدفهم هو اقتطاع فلسطين بأكملها من الإمبراطورية الرومانية، لذلك أشعل اليهود ثورة عارمة على الرومان في عام ٦٥م، بذل الرومان جهدا كبيرا استغرق خمس سنوات حتى تمكنوا من القضاء عليها وتدمير هيكلهم في أورشليم في عام ٦٩/٧٠م. وهو ذلك التدمير الذي نتج عنه تسرب أعداد كبيرة منهم إلى المناطق البعيدة التي لا تطولها أيدي الرومان ومنها شبه الجزيرة العربية التي وجدوا فيها لهم ملجأ وملاذا. وعندما انشغلت روما ببعض المشاكل العسكرية على جبهة الدانوب وسحبت بعض قواتها العسكرية من سوريا ومصر، انتهز اليهود في ليبيا (برقة) الفرصة وأشعلوا الثورة ضد الرومان وتحالف معهم يهود مصر وقبرص وما بين النهرين في المرحلة التالية من الثورة في الفترة من عام١١٣ إلى ١١٧م، وانتهى الأمر بإخمادها والقضاء عليها . وعندما فتح العرب مصر وقبل انقضاء فترة الأمان التي منحوها للإسكندرية غادرها كثير من اليهود من المقيمين فيها حاملين معهم في السفن كثيراً من كنوز العلم والمعرفة التي كانت تحتضنها مكتبتها الشهيرة وقاموا بحرق ما تبقى منها وكان محفوظا في معبد السيرابيوم في المدينة حتى لا يستفيد العرب بها. وهكذا نرى أن سياسة اليهود التي درجوا عليها هي التي كانت السبب في قتل أعداد كبيرة منهم . ولو كان يجوز تاريخيا أن أقدم سلسلة أخرى منها في العصر الحديث وتاريخنا المعاصر لفعلت ، ولكن ذلك يتعارض مع منهج البحث التاريخي العلمي السليم. وعلى أي حال فإن جميع أجهزة الإعلام تنطق بما يفعلونه في فلسطين الآن ضد شعبها العربي تطبيقًا لمنهجهم السياسي عبر الزمان. راجع آمال الروبي: مصر في عصر الرومان، ص٨٧-٨٩؛ ص١٠٧-١١؛ المؤلفة نفسها: هرموبوليس ماجنا، رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة ١٩٧٠، ص١٣٠ وما يليها. مصطفى كمال عبد العليم : اليهود في مصر في عصري البطالمة والرومان ، القاهرة ١٩٦٨، ص١٨٧ وما يليها . (المترجمة)

عندما التقوا به[71]. وقد ذكر أحد رواة القصص أن هذا اللقاء تم أول مرة عندما كان محمد [ﷺ] ما يزال طفلاً (في الواقع في جميع الروايات) في رعاية أمه بالرضاعة، حيث رآه أحد الأحباش المسيحيين، وكان يريد أن يقتله، أو عندما رآه أحد الكهنة في عكاظ أو عندما رآه أحد العرافين هناك، أو عندما رآه عراف أو كاهن في ذي المجاز، أو عندما رآه أحد العرافين في مكة وكان يريد أن يأخذه بعيداً[72] ، وذكر آخر في رواية أخرى أن هذا اللقاء تم عندما بلغ محمد التاسعة أو الثانية عشرة من عمره، عندما أخذه أبو طالب (أو عبد المطلب)[73] إلى سوريا حيث رآه أحد يهود تيماء، أو عندما رآه أحد النساك في مكان لم يذكر اسمه، أو عندما رآه بحيرى الراهب المسيحي في بُصرى، أو عندما رآه بُحيرى في مكان لم يذكر اسمه[74] أو عندما رآه بُحيرى رجل الدين اليهودي[75]. في جميع هذه الروايات كان اليهود (أو الإغريق)(*) يتعقبونه، والنتيجة أنه أُخذ بسرعة بعيداً[76] وذكرت رواية أخرى أن هذا اللقاء تم عندما بلغ محمد [ﷺ] من العمر خمسة وعشرين عامًا، وعندما طلب منه أبو طالب أن يذهب إلى سوريا ليحصل على بعض الأموال، لذلك لحق بقافلة خديجة [رضي الله عنها]، ورآه ناسك لم يذكر اسمه في مكان، أو عندما رآه نسطورا أو نسطور الراهب في أحد أسواق بصرى[77]، وأشارت رواية واحدة فقط إلى أن اليهود كانوا يتعقبونه[78]. وعلى أي حال تم الاعتراف به في كل الروايات على أنه هو النبي المنتظر لأنه كان يتيمًا، وكان يوجد احمرار في عينه، بسبب حقيقة جلوسه في ظل شجرة، أو ربما بسبب الاثنين معا[79].

إن جميع هذه المصادر، تمثل نحو خمس عشرة رواية مختلفة، لحدث واحد لم يقم أحد بالاعتراض عليه. فأي من هذه الروايات يمثل الحقيقة؟ من الواضح أنه ولا واحدة منها تمثل الحقيقة. إن هذه القصص من ذلك النوع الذي قال وات عنه "إنه لا يمثل الحقيقة بالمعنى الصحيح للمؤرخ العلماني"[80]. إن هذه المصادر تقدم لنا خمس عشرة رواية وهمية لحدث لم يقدر له الوقوع على الإطلاق.

(*) أفضل استبدال اصطلاح البيزنطيين بالإغريق، راجع الحاشية المذكورة ص ٤٥ من الترجمة .

أما بالنسبة لوات (Watt) فإن هذا الموضوع لم يكن يمثل مشكلة جوهرية؛ لأن الحدث الذى يتعلق بالمعجزات يرفضه، فهو يرى أنه عند تناول روايات المعجزات ينبغي غض النظر عن العناصر الخارقة فيها، وقبول باقي المعلومات ذات العناصر التاريخية فيها، لذلك يقبل من الناحية التاريخية أن محمداً تاجر في سوريا وكيلاً عن خديجة، على الرغم من أن القصة التى ذكر فيها هذا الموضوع تعد قصة خيالية[٨١]. وترجع إليه بالمثل الحقيقة التاريخية التى تقول بقيام عبد المطلب بحفر بئر زمزم، على الرغم من أن هذه المعلومات مستمدة من إحدى قصص المعجزات[٨٢] كما أنه قبل جميع المعلومات التى قدمتها الرواية عن والدة محمد [ﷺ] على أنها معلومات لها قيمتها باستثناء المعلومات التى فيها خرق للطبيعة[٨٣] . إن طريقة وات في نقد مصادره تتضمن اختيار الجوانب العلمانية من القصة Mutatis mutandis ، إن سور مدينة أريحا لم ينهر عندما سمع صوت نفير يسوع، ولكن من ناحية أخرى يصدق تقرير رواية الإنجيل؛ فالمسيح [عليه السلام] لم يقم بإطعام عدة آلاف بسمكتين وعدة أرغفة، ولكن الخطبة التى ألقاها على الجبل نقبلها، كما وضعت بدقة في الإنجيل[*].

إن الرواة لم يميزوا بين ما يمثل الحقيقة وبين ما يعد أحداث خارقة من وجهة النظر الواقعية لمؤرخ علمانى، وما فعلوه بالنسبة لنسج أحداث خارقة للعادة فعلوه مع وقائع صحيحة حول سيرة محمد [ﷺ]. إنهم لم يستخدموا خيالهم فقط فى الحوادث الخارقة للطبيعة فقط، ولكن كان هدفهم هو نشر الإيمان طالما استخدموا الأحداث التاريخية فيها مباشرة. وإذا كان فى إمكانهم وضع خمس عشرة رواية وهمية لحقبة

(*) إن جميع الروايات المتعلقة بمولد الرسول (ﷺ) وحتى نزول الوحي عليه، تدور جميعها حول حقيقة واحدة وإن اختلفت فى تفصيلاتها، وهى: إن بعض أهل العلم الذين رأوه فى صباه تنبأوا بأنه هو النبي المنتظر، لأنه ﷺ قد بشر به فى التوراة والإنجيل. ويلاحظ القارئ أن كرون رفضت أيضاً الخوارق التى تمتع بها السيد المسيح. ولكنها لم تشر من قريب أو بعيد عن خوارق النبى موسى عليه السلام من إلقائه وهو مولود فى سلة فى نهر النيل، أو عصاه ،أو حديث الله سبحانه وتعالى معه. فلماذا رفضت خوارق محمد ﷺ وعيسى عليه السلام، ولم تتحدث عن موسى عليه السلام. ؟! إن هذا فيه إيماء بالكثير، كما أنه يؤكد على النية التى بيتت لها بليل وهى محاولة الانقضاض على الدين الإسلامى تحت ستار التجارة. إن قدرة الله سبحانه وتعالى مطلقة وليس عليها قياس. (المترجمة)

المعجزات، فبإمكانهم أيضًا أن يقوموا بوضع خمس عشرة قصة وهمية عن حادثة تاريخية. فحقيقة وجود عدد كبير من القصص المختلفة لموضوع واحد تنطبق تمامًا على هذه القصة.

وعلى سبيل المثال ذهب عمرو بن العاص [رضى الله عنه] مرتين أو ثلاث مرات إلى الحبشة: فى المرة الأولى كان يتاجر مع عمارة بن الوليد الذى قدم للنجاشى شكوى ضده، وفى المرة الثانية (أو فى المرة الأولى نفسها كما ذكر أحدهم) ذهب عمرو للنجاشى ومعه هدية من الجلود، للمطالبة بتسليم المسلمين الذين لجأوا إليه، ولكن النجاشى رفض طلبه ولم يستجب له. وفى المرة الأخيرة ذهب عمرو إلى النجاشى حاملا معه هدية من الجلود طالبا اللجوء إليه(٨٤) وفى أثناء هذه الفترة قابل شخصًا يدعى عمرو بن أمية الدمرى وقدم للنجاشى شكوى ضده ولكن مساعيه لم تكلل بالنجاح(٨٥). وكان النبى [ﷺ] قد أرسل عمرو بن أمية لأمر يتصل بالمسلمين المقيمين فى الحبشة، أو لكى يتزوج من أم حبيبة، أو لاستكشاف بعض الأمور، أو لأغراض غير محددة، أو ليدعو النجاشى لاعتناق الإسلام(٨٦) وقد تحول النجاشى للإسلام، ولذلك عندما اشتكى عمرو بن أمية له رفض النجاشى تسليمه له، ومن ثم فقد تحول عمرو بن العاص للإسلام بين يديه(٨٧).

إن هذه القصص لا تختلف عن القصص الخاصة بلقاء محمد [ﷺ] باليهود وغيرهم. وعندما لا تتعرض القصص للمعجزات، فإنها لا تتعارض مع قانون الطبيعية فى واقع الحال، وبهذه الطريقة يمكن أن تعد قصصا حقيقية. هذا على الرغم من أنها لم تكن كذلك فى حقيقة الأمر. هذه القصص جميعها تنصب على موضوع عام وهو "عمرو والنجاشى" إن عمرو المذكور هنا إما أن يكون إنسانًا صالحًا أو إنسانًا شريرًا، لأنه ذهب مسلحًا بالجلد، كما أن جميع هذه القصص عبارة عن جمع وإعادة جمع لنفس سمات الفكرة الأصيلة وهى التى تتمثل فى: اللجوء وتسليم المطلوب والشكوى والحديث ، واختار (وات) الجانب التاريخى من تلك القصص والذى يتمثل فى أن عمرو بن أمية أرسل للحبشة فى أمور تتعلق بالمسلمين اللاجئين هناك، أو لموضوع زواج أم حبيبة

بدلا من دعوة النجاشي للإسلام[٨٨]، إن أساس عملية نقد المصادر التي قام بها تتمثل في اختياره للجانب العلماني من القصة: بينما لم يلاحظ طبيعة المادة المتبقية في المصدر.

ونتيجة لكثرة العبارات المختلفة في الرواية، فنحن لا نستطيع أن نقوم باختيار واحدة منها لتكون أقربها للنص الحرفي للحدث، بمعنى ما النص الحرفي الخاص بالحادثة المذكورة ؟ وإذا كانت الرواية تذكر نصين أو خمسة عشر نصًا، فإنه يجب علينا استخدام النصوص جميعًا في بناء الحادثة. وهو الأمر الذي لا نستطيع أن نقوم به على وجه التحديد. فما الحدث الأصلي وراء هذا الموضوع ؟ "عمرو والنجاشي" أم أحد القرشيين والفضة ؟ إننا في الواقع لا نستطيع حتى أن نقول أنه كان هناك حدث أصلي : فلا يوجد حدث أصلي وراء قصة مقابلة محمد [ﷺ] لليهود وغيرهم لأول مرة. وحتى في الموضوعات المختلفة التي أخذت شكل الأحداث الحقيقية فنحن ندين بالشكر لهمة رواة القصص أو للآخرين، ولكنه نتج عن هذه الهمة طمس المعلومات التاريخية فيها. وقد أدى ذلك إلى بقاء كم قليل من المعلومات المشكوك في أمرها لدينا، إن القصص تضم مواضيع رئيسة ومواضيع فرعية تم تركيبها بطرق مختلفة، مما لا يمكن معه أن نقوم بالسير خلفها وتتبعها.

إن ما تقدمه الرواية عبارة عن كم هائل من المعلومات ذات التفاصيل، ولكن لا يمثل أي منها الحقائق بطريقة مباشرة. وبطبيعة الحال يمكن أن يكون بعض من هذه المعلومات صحيحاً على اعتبار أن رواة القصص كانوا يعتمدون على معرفة الحقائق التاريخية والوقائع التفصيلية التي زخرفوا بها كتاباتهم. ولكن هذا الكم الهائل من الأقوال التي تقدمها لنا الرواية والتي يبدو أن رواة القصص كانوا يصدقونها، لا يمكن أن يأخذنا بعيداً. ورأى أحد الرواة أنه يمكن تصديق أن محمداً [ﷺ] ذهب للتجارة في سوريا منوبًا عن خديجة، بينما فضل آخر أن يجعله يقوم بعمل شبيه بما قام به في حباشة Hubasha أي يتجه إلى الجنوب بدلا من شمال مكة[٨٩] ، وذكر راوٍ آخر أن عبد المطلب هو الذي قام بحفر بئر في مكة؛ بينما رأى راوٍ آخر أنه حفر تلك البئر في الطائف،

مع ذكر الأحداث نفسها المرتبطة بالموضوع[٩٠]، ومن الواضح أن قيام عبد المطلب بحفر بئر زمزم، لم يحدث فى الحقيقة، على الرغم من أن هناك مصادر قليلة تشير إلى أنه "كان رجلا يتمتع بالنشاط والهمة"، وكان يحاول من خلالها أن يوطد مركز قبيلته[٩١]. إن الحقائق الوحيدة التى لدينا هى حقائق خاصة بالرواية، وليس بخصوص تاريخ الماضى الذى ترويه لتدل عليه. وكان أمراً له أهميته بالنسبة للرواية أن تقوم بإلحاق أفراد لهم مكانتهم المقدسة مثل أبي طالب والآن محمد [ﷺ] بهذا الموضع. وأحيانًا بموضع آخر ، إن حقائق من هذا النوع وليس رواية الوقائع التاريخية المفترضة هى التى تؤلف منظومة المصادر الأصيلة لظهور الإسلام.

ثالثًا : أما الخاصية الثالثة الواضحة التى يشترك فيها رواة القصص فى الرواية الخاصة بظهور الإسلام، فهى تتمثل فى النمو (أو الزيادة) فى المعلومات بطريقة مطردة، فمن الواضح أنه إذا قام أحد رواة القصص بذكر حدوث غارة، فسوف يأتى الراوى الثانى ويكون على علم بتاريخها، بينما يكون الراوى الثالث على معرفة بكل رغبات المستمعين ويعرف ما يريدون أن يسمعوه منه بخصوصها. وتتضح هذه العملية بشكل واضح من مقارنة حجم الأعمال لدى ابن إسحاق (ت ٧٧٦م) والواقدى (ت ٨٢٣م). إن ما ذكره الواقدى عن حياة محمد [ﷺ] فى المدينة فقط أكبر فى حجمه بكثير مما ذكر لدى ابن إسحاق على الرغم من أن كل حادثة قام بروايتها الاثنان، تتعلق بالموضوع نفسه من الناحية الفعلية[٩٢]. وعلى سبيل المثال ذكر كل منهما الآتى، بخصوص الغارة على خرار(*).

ابن إسحاق: «عندئذ قام رسول الله بإرسال سعد بن أبى وقاص وفى صحبته ثمانية رجال من بين المهاجرين. وتقدم حتى وصل خرار فى الحجاز، ثم رجع ولم يلق كيداً» .

الواقدى : « عندئذ قام رسول الله (ﷺ) باختيار سعد بن أبى وقاص للقيادة ضد خرار وهى جزء من جهفا بالقرب من قمم فى ذى القعدة، ثمانية عشر شهراً بعد هجرة الرسول (ﷺ) وقد قال أبو بكر بن إسماعيل بن محمد عن أبيه عن عمر

(*) راجع تعليق الترجمة ص٢٧٦ .

ابن سعد عن والده (سعد بن أبي وقاص) : أن رسول الله (ﷺ) قال : اذهب يا سعد إلى خرار فسوف تمر عليها قافلة لقريش ، لذلك خرجت فى عشرين أو واحد وعشرين رجلاً، سيرًا على الأقدام، وكنا نختبئ أثناء النهار ونسرى ليلاً حتى وصلنا إليها فى صباح اليوم الخامس. ووجدنا أن القافلة سبقت ومرت فى اليوم السابق على وصولنا وكان الرسول قد أوصانا أن لا نتجاوز خرار، ولو لم يكن قد أمر بذلك لحاولت اللحاق بهم» .

فالواقدى هنا يعرف تاريخ الحملة بالتحديد، على عكس ابن إسحاق، كما يعرف مكان خرار (أكثر من أى فرد آخر)[٩٣]، كذلك فإنه يعرف أن سبب هذه الحملة كان الهجوم على قافلة، لذلك ذهب الرجال سيرًا على الأقدام، ساروا ليلا فقط، واستغرق منهم ذلك خمسة أيام. ويرجع السبب فى عدم وقوع اشتباك أن القافلة كانت قد وصلت ثم غادرت، وكان يعرف عدد المشاركين فى الغارة، وكان العدد الذى ذكره أكبر من العدد الذى ذكره ابن إسحاق، وبطبيعة الحال، عرف الواقدى كل ذلك من أقوال قائد الحملة نفسه المنزه عن الخطأ. إن هذه هى طريقة الواقدى، فهو يذكر دائمًا تواريخ وأماكن وأسماء محددة، على عكس ابن إسحاق الذى لا يقوم بشىء من هذا القبيل. ويقدم معلومات عن حركة الحملة ومعلومات أخرى متفرقة لإضافة الألوان للحدث، وإنه يذكر عادة السبب، كما هو فى هذه الحالة فى عدم وقوع اشتباك. ولذلك لن تصيبنا الدهشة عندما يجد الباحثون لدى الواقدى المعلومات المحددة المثيرة التى يرغبون فى معرفتها ؟ إن جميع تلك المعلومات التى لم تكن معروفة لابن إسحاق هى موضع شك كبير. وإذا تراكمت هذه المعلومات المزيفة بهذا المعدل، خلال جيلين فقط بين ابن إسحاق والواقدى، فإنه يكون من الصعب علينا تفادى القول بأن كثيراً من هذه المعلومات تراكمت خلال ثلاثة أجيال بين الرسول [ﷺ] وبين ابن إسحاق(*).

(*) الحقيقة المهمة التى أغفلتها كرون هى أن رواية الواقدى كان مصدرها الأساسى سعد بن أبى وقاص قائد سرية خرار نفسه، لذلك لا يوجد مجال للدهشة فيما ذهبت إليه الباحثة لأن قائد السرية أعطى معلومات أكثر تفصيلا من رواية ابن إسحاق المجملة عنها، وعلى ذلك يكون الحكم على معلومات الواقدى أنها مزيفة مخالف للحقيقة ودامغا على التحامل . الحاشية المذكورة ص٢٧٦ من الترجمة . (المترجمة)

هكذا يتضح الآن أن بعض المعلومات الخاصة بظهور الإسلام ترجع لرواة القصص، ولذلك يمكن القول بأنهم قاموا بإضافة بعض الأساطير والخرافات للرواية التي كانت موجودة بالفعل، بمعنى أنه مما لا شك فيه أنهم قاموا بتحريف هذه الرواية إلى حد ما، ولكنهم لم يدمروها، لدرجة أننا لا نستطيع بوضوح أن نستبعدها(٩٤)؛ وأدى ذلك إلى تقليل قيمة عملهم، وقام رواة القصص بخلق رواية حول سورة قريش وابن أُبى واليهود فى المدينة، وعمرو والنجاشى، وبئر عبد المطلب، ومحمد [ﷺ] و [السيدة] خديجة: فالحقيقة التاريخية التى من المفترض أن يقوموا بإضافة الخرافات إليها لم يكن لها وجود أصلاً(٩٥). وحيث تتابع الرواة الواحد بعد الآخر، تقلصت حقائق تاريخ الماضى داخل القصص والموضوعات لتصبح هى الفكرة الأساسية التى يمكن مزجها وإعادة مزجها بمعلومات وفيرة تعد كما لو كانت أحداثًا حقيقية(*). و كل مزج وإعادة تركيب للحدث يتولد عنه أجيال من التفاصيل الجديدة، ولذلك تتراكم المعلومات المزيفة، وهكذا تفقد المعلومات الأصلية الصحيحة(٩٦). ونتيجة لغياب الرواية البديلة، أُرغم الباحثون على الاعتماد على ما قاله رواة القصص، مثلما فعل ابن إسحاق والواقدى وغيرهم من المؤرخين ، لأنهم اعتمدوا على الرواة أنفسهم الذين كانوا يتذكرون فى العادة الأقوال المتشابهة ، كما أوضح جونز Jones أن الواقدى لم يسرق عمل ابن إسحاق، ولكن من ناحية أخرى لم يقدم لنا نصوصًا مستقلة عن حياة محمد [ﷺ](**).

(*) التناقض هنا واضح فى القول بأن " الحقيقة التاريخية التى من المفترض أن يقوموا – تقصد رواة القصص – بإضافة الخرافات إليها لم يكن لها وجود أصلاً" وبين القول بأنه "حيث تتابع الرواة الواحد بعد الآخر، تقلصت حقائق تاريخ الماضى" . ففى البداية تم نفى وجود حقيقة تاريخية فيما يرويه رواة القصص، ثم اعترفت كرون بعد ذلك "بتقلص حقائق تاريخ الماضى" لديهم ، إن عملية الضغط النفسى الهائل على القارئ جاءت على غير الهدف المرجو منها ، لأنه سرعان ما يكتشف حقيقة الهدف مما تذكره وهو : التشكيك فى جميع مصادر التاريخ الإسلامى . راجع حاشية المترجمة ص٢٢٥ .

(**) لا أعرف على وجه التحديد ما المقصود بقولها إن الواقدى "لم يقدم نصوصًا مستقلة عن حياة محمد" (ﷺ)، ومن أين كان يمكنه أن يأتى بهذه النصوص فى ظروف العصر الذى كان يكتب فيه (ت٨٢٣م). إن الواقدى عندما قام بإضافة بعض التفصيلات عن سرية سعد بن أبى وقاص فى خرار والتى استقاها من مصدرها الأساسى شككت فيما ذكره. إن كرون تلهث وراء تحقيق ما تريد ، ولكن ما تقوله يأتى بنتيجة عكسية . (المترجمة)

إن ما قام به هو وابن إسحاق والآخرون يتمثل في قيامهم باختيار بعض المختارات من نفس المصدر العام للمعلومات المتوفرة[٩٧]. ولهذا السبب نجدهم يوافقون على حوادث تبدو كما لو كانت أحداثا حقيقية، على الرغم من أنها لم تحدث إطلاقًا، وعلى سبيل المثال، مغامرات عمرو بن العاص في بلاط النجاشي. إن أحدًا لم يكن يتذكر شيئًا عن هذه المغامرات، كما لم يتذكر أحد شيئًا مخالفًا لها. واتفقت المصادر على تسجيل هذه المغامرات لأنه كان يوجد لديهم قصص معروفة معرفة جيدة : وارتكز إجماع الدارسين هنا على فحص مادة من الدرجة الثانية، وليس على استمرار اتصال الرواية التاريخية. وهنا لم يكن يوجد تتابع في انتقال الرواية . وانفصل كل من ابن إسحاق والواقدى والآخرين عن الماضى : مثلهم فى ذلك مثل الدارسين المحدثين الذين ينبغى عليهم أن لا يتعدوا حدود مصادرهم.

إن عدم وجود تتابع فى نقل الرواية يعد نقطة جوهرية وسوف أقوم بإثباتها فيما يخص المصادر الخاصة بمعركة بدر[*]. إن تاريخ هذه المعركة يوضح الدور الذى لعبه القرآن الكريم فى المعلومات التى استخدمتها الرواية عند القيام بجمعها لكتابتها. وربما يكون رواة القصص هم الذين قامو بذلك أو ربما كان غيرهم، فإن السبب فى ذلك يرجع للمغزى الأخلاقى فى كلتا الحالتين: وحيث وجدت معلومات جديدة، فإن هذا يعنى أن هناك معلومات سابقة قد فقدت.

ونتساءل الآن عن تاريخ معركة بدر ؟ إن الرواية تتفق اتفاقًا تاما على أنها وقعت فى شهر رمضان فى السنة الثانية[٩٨]. إن الأمر الذى يعنينا هو تاريخ الشهر وقد تأكد هذا الشهر فى القرآن الكريم من الناحية الظاهرية : وذكر هذا الشهر على أنه شهر الفرقان (٢ : ١٨١)[**]؛ ﴿ وَيَوْمَ الْفُرْقَان يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَان ﴾ (٨ : ٤٢)[***]

(*) راجع تعليق المترجمة ص٣٧٢ وما يليها.
(**) صحتها الآية الكريمة رقم "١٨٥" من سورة البقرة ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ صدق الله العظيم.
(***) صحتها الآية الكريمة رقم (٤١) من سورة الأنفال ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ صدق الله العظيم.

وقام الرواة الموثوق بهم بمطابقته بمعركة بدر. إن إجماع آراء العلماء إضافة إلى التأكيد الواضح فى القرآن [الكريم] يؤكد أن الشهر الذى حدثت فيه وقائع معركة بدر يعد من الحقائق القليلة المؤكدة فى تاريخ الإسلام المبكر. وفى الواقع فإن هذا الموضوع ليس على درجة كبيرة من الأهمية فى حد ذاته. إن صحة التاريخ المحفوظ لهذه الحادثة المبكرة سوف يثبت صدق الرواية التاريخية بصفة عامة. ولكن هناك جانب ضعيف فى النقاش الدائر، يتمثل فى أن القرآن نفسه لم يطابق "يوم الفرقان" بمعركة بدر، لأن الفرقان الذى أنزل فى شهر رمضان لا ينطبق على معركة بدر إلا بصعوبة(*). ويمكن أن يقول المتشككون بأن القرآن هو أبعد ما يكون عن التاريخ الذى ذكرته الرواية لمعركة بدر والذى استنبطته من الناحية العملية. وحتى مدة تقرب من قرنين من الزمان كان يقف أمام معارضتهم إجماع الرواية.

وفى عام ١٩٥٦ قام جرومان Grohmann بنشر وثيقة بردية ترجع للقرن الثامن الميلادى عثر عليها فى خربة المرد Khirbat al Mird فى فلسطين، وهى عبارة عن قطعة ممزقة Fragment . وأخطأ جرومان فى قراءتها فى عدة نقاط وحتى بدون هذه الأخطاء فإن البردية تقدم لنا تاريخًا آخر لمعركة بدر(٩٩).

تبدأ البردية بذكر عدة أسماء منها واقد بن عبد الله، وابن عدى بن كعب ومغيرة والحكم وهؤلاء الذين أمكن الآن قراءة أسمائهم بسهولة فى البردية بعد ترميمها. ثم تذكر فى السطر السادس تاريخ "أربعة عشر شهرا من محرم" ثم تذكر أنهم "خرجوا إلى بدر"، وتذكر لنا فى السطر السابع "أنهم تقابلوا فى بدر" ثم ذكر لنا تاريخ "الشهر الثامن عشر من محرم" ويذكر فى السطر الأخير محمد، ومكة، وقريش، وشخص يسمى مجيد.

(*) إن القرآن الكريم واضح فى مطابقة شهر الفرقان وهو شهر رمضان باليوم الذى التقى فيه الجمعان أى معركة بدر. ولماذا تجد كرون صعوبة هنا في قبول هذا التاريخ ؟ لقد ذكر الله تعالى ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ ولو كان الأمر غير ذلك، فهل كان يمكن للمشركين أن يتركوا هذه الفرصة ولا يقوموا باستغلالها ضد الرسول ﷺ ؟ (المترجمة)

ومن المفترض أن معركة بدر لم تقع في الشهر الرابع عشر أو الثامن عشر من محرم، ولكنها وقعت فى الشهر الواحد والعشرين منه (محرم هو أول شهور السنة الهجرية) وإذا قمنا بحساب ١٨أو ١٤ شهراً من محرم فإننا نصل إلى شهر صفر وجمادى الآخرة أو ربيع الأول ورجب ويعتمد ذلك على قيامنا بضم شهر المحرم من عدمه فى عملية الحساب. وهنا لا نصل إلى شهر رمضان.

ورفضت أبوت Abbott هذه الحقيقة، وشاركها في ذلك جرومان (Grohmann) . وقامت أولاً: بافتراض أن كاتب الوثيقة لم يبدأ الحساب من شهر محرم وكان يبدأه من شهر ربيع الأول، وهو الشهر الذى بدأت منه الهجرة فعلا (كما كان يفعل الواقدى على سبيل المثال)، ثانيًا: إن التاريخ الأول من التاريخين اللذين جاء ذكرهما فى قطعة البردى هو الذى يؤخذ به على أنه يشير لحدث مبكر معروف مثل معركة بدر[١٠٠]. (والمعروف أن هناك ليس أقل من ثلاث معارك وقعت فى بدر، الأولى كانت لفترة قصيرة ولم يحدث فيها اشتباك ، والثانية هى التى حدث فيها القتال أو هى المعركة المعروفة، والثالثة لا تعنينا فى هذا المجال)[*].

سوف نفترض جدلا أن رأى أبوت صحيح، وأن كاتب البردية بدأ الحساب من شهر ربيع الأول وهو شهر الهجرة وإذا قمنا بعد أربعة عشر شهرا من ربيع الأول فلن نصل إلى الشهر الصحيح لأول معركة لبدر، يظل لدينا بدر الثانية[١٠١] وإذا قمنا بحساب ١٨ شهراً من ربيع أول فسوف نصل لشهر رمضان وهو الشهر الصحيح لمعركة بدر الثانية أو معركة بدر المعروفة[**] على شرط أن نقوم بحذف شهر ربيع الأول نفسه من الحساب ولم يقم الواقدى بفعل ذلك، حيث إن التاريخ الذى يذكره هو الشهر

(*) لقد وقعت كرون هنا فى خطأ تاريخى لأنه يوجد ثلاث معارك سميت باسم بدر وهى على النحو التالى :
أولاً: غزوة بدر الأولى أو غارة سَفْوان أو صفوان.
ثانيًا: غزوة نخلة وهى غزوة بدر الثانية .
ثالثًا: غزوة بدر الثالثة وهى الغزوة الكبرى . راجع التعليق المفصل عليها فى ص٣٧٢ وما يليها. (المترجمة)

(**) تم هنا استبدال معركة بدر الكبرى وهى الثالثة فى تاريخ معارك بدر الثلاثة بغزوة بدر الثانية وهى المعروفة بغزوة نخلة . (المترجمة)

التاسع عشر من الهجرة[١٠٢] وعلى أى حال فإن الاعتراض طفيف جداً على ذلك. إلى أى شيء إذن كان يشير التاريخ الأول المذكور في البردية ؟ يبدو أننا هنا سنقوم بالدفاع عن تأريخ الرواية لمعركة بدر.

هناك مشكلة في أن القطعة البردية عبارة عن ثمانية أسطر وفي خلال هذه الأسطر الثمانية يخبرنا كاتبها مرتين أنه يقوم بالحساب من المحرم مما يدفع المرء إلى الاعتقاد بأنه يبدأ العد من المحرم، وإذا كان الأمر كذلك نكون أمام كاتب من منتصف القرن الثامن (الميلادى) كان واقعًا تحت تأثير أن المعركة أو المعارك التى عرفت باسم بدر حدثت فيها الحرب في الشهر الرابع عشر أو الثامن عشر من المحرم، بمعنى آخر ليس فى رمضان.

إذن ماذا كانت الأحداث تصف ؟ يذكر كل من جرومان وأبوت أن هذه الشذرة لا تشير إلى معركة بدر الأولى. إن اسم الشهرة لهذه المعركة هو غارة سفَوان، وهى تمثل فترة من فترتين تضم كُرْز Kurz بن جابر ورعى الجمال فى المدينة[١٠٣]. كما لم يأت هنا ذكر لأى من : واقد ، وعدى بن كعب ، والمغيرة أو الحكم فيما يخص تلك الحقبة فى المصادر الكلاسيكية(*)[١٠٤] وعلى أى حال فمن المعروف أن المعركة الثانية أو المعركة الحقيقية لبدر أعقبتها غارة على نخلة، وفيها تمكن رجال محمد [ﷺ] من الاستيلاء على قافلة مكية كانت فى طريقها للطائف، وكان من ضمن المشاركين فيها واقد بن عبد الله وعامر بن ربيعة وعدى بن كعب من جانب محمد، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة مع الحكم بن كيسان Kaysan من الجانب المكى[١٠٥] لذلك ليس هناك ثمة شك فى أن هذه الغارة تصف الغارة على نخلة التى أعقبت غزوة بدر. وعلى ذلك فإن هذين التاريخين المذكورين يمثلان إما تاريخ غارة نخلة وغزوة بدر على التوالى أو تاريخ معركة بدر وحدها. وإذا كان الأمر الأول صحيحاً فهذا يعنى أنه أصبح لدينا تاريخاً محرفًا لغارة نخلة، والآخر لغزوة بدر[١٠٦]. وإذا كان الأمر الثانى هو الصحيح فمعنى ذلك أنه لدينا تاريخان محرفان لمعركة بدر.

(*) إن القول بعدم وجود ذكر لأى من : واقد، وعدى بن كعب، والمغيرة أو الحكم فيما يخص تلك الحقبة فى المصادر الكلاسيكية هو قول خاطئ. راجع المصادر فى الحاشية المذكورة فى ص٢٧٢ وما يليها . (المترجمة)

اختفى هذان التاريخان من الرواية؛ يبدو أن السبب فى ذلك يرجع لاستخدام النصوص الدينية هنا لشرح الحوادث التى نعنيها. فإذا كانت حادثة نخلة، تشير إلى النص المذكور (٢ : ٢١٤)(*) تكون الغارة قد حدثت فى شهر محرم وليس فى شهر صفر أو ربيع الأول. وإذا كانت معركة بدر تشير إلى الآية (٢ : ١٨١)(**) فقد حدثت المعركة فى رمضان، وليس فى شهر جمادى الآخرة أو رجب وربما كانت التفسيرات القرآنية هى التى أدت إلى استنباط التواريخ الكلاسيكية مما أدى إلى فقدان التاريخ المبكر لإحداها.

وعلى أى حال، فإن هذه التواريخ التى فقدت تركت وراءها أثراً، إن هناك بعض الظلال على غارة سَفَوان(***). فلماذا تُعرَّف هذه القصة على أنها المعركة الأولى لبدر ؟ فلقد ذكروا لنا أن النبى [ﷺ] خرج متعقبًا كرز بن جابر Kurz ولكنه عاد عندما وصل إلى صفوان، هذا هو السبب فى أن الحادثة تعرف بأنها غارة صفوان، وفى خلال قيامه بذلك اقترب من بدر، وهذا هو السبب فى أنها عرفت باسم معركة بدر، ولكن المرء غير مقتنع بهذا التفسير؛ ذلك لأن الحادثة أوحت باليوم الرابع عشر أو الثامن من عشر أو الثامن عشر من المحرم أو أكثر تحديداً بالشهر الخامس عشر والرابع عشر أو بالشهر الثامن عشر/السابع عشر من محرم، وذلك يتوقف على ما إذا كان شهر محرم سوف يضم إلى العد أو لم يضم إليه[١٠٧] وهذا يعنى أن غارة صفوان لم تكن تحمل فقط اسم معركة بدر، ولكنها أيضًا أسبق من التواريخ الكلاسيكية (أو لتلك المعارك الخاصة ببدر ونخلة) وباختصار فإن غارة صفوان تقع خارج دائرة التواريخ القرآنية لبدر (أو لبدر ونخلة).

ولولا العثور على تلك البردية ، ما أمكننا أن نعرف ذلك أبداً. إن الرواية ترفض مجرد الشك الطفيف حول تاريخ معركة بدر، وتجمع إجماعًا واضحًا على أنهم حين كانوا يتذكرون بدراً فإنهم كانوا يتذكرون أن المعركة وقعت فى رمضان. وفى الحقيقة

(*) ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ صدق الله العظيم.

(**) صحة الآية وهى سورة البقرة: آية ١٨٥ .

(***) تكتب أحيانا صَفَوان كما وردت بالشكلين لدى ابن هشام، ج١، ص٦٠١-٦٠٣ .

فهم لم يتذكروها قط على أنها كانت كذلك . لقد قدم القرآن [الكريم] الشهر عند إعادة كتابة الحادثة ، وكانت التواريخ البديلة (سواء أكانت صحيحة أم غير ذلك) ما تزال مألوفة في منتصف القرن الثامن من الميلادى. فالإجماع فى هذه الحالة لا يشهد على استمرار النقل بل على العكس من ذلك، فإنه يؤكد على تراكم المعلومات المفقودة ، إن الوضع هنا يماثل موضوع مغامرات عمرو فى الحبشة، من حيث أن الإجماع يرتكز على مصادر ثانوية مطموسة من الماضي، وليس على مصادر أصلية يمكن إعادة بنائها(*).

(*) تخطئ كرون هنا خطأ تاريخيا جسيماً عندما تقول إن معركة بدر الحقيقية أعقبها غارة على نخلة ، بينما العكس هو الصحيح من الناحية التاريخية ، إن معركة نخلة (بدر الثانية) أعقبها غزوة بدر الكبرى.
ومعارك بدر الثلاثة هى على النحو التالى : قال ابن إسحاق : "ولم يقم رسول الله ﷺ بالمدينة حين قدم من غزوة العُشيْرة ليالى قلائل لا تبلغ العشر، حتى أغار كُرْزُ بن جابر الفهرى على سرح (الإبل والمواشى التى تسرح للرعى) المدينة ، فخرج رسول الله ﷺ فى طلبه .. حتى بلغ واديا يقال له سَفْوان ، من ناحية بدر، وفاته كُرْزُ بن جابر، فلم يدركه ، وهى غزوة بدر الأولى، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ، فأقام بها بقية جمادى الآخرة ورجب وشعبان". ابن هشام ، ج١، ص٦٠١ ؛ وراجع أيضاً الطبرى، التاريخ ، ج٢، ص٤٠٧ ؛ الواقدى ، المغازى ، جـ١ ، ص١٢ ، طبعة بيروت ١٤٠٤ - ١٩٨٤ .
وعن غزوة بدر الثانية (غزوة نخلة) يقول ابن هشام : " وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدى فى رجب، مَقْفَلَهُ من بدر الأولى، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد، وكتب له كتاباً وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه، فيمضى لما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحداً.
وكان أصحاب عبد الله بن جحش من المهاجرين ، ثم من بنى عبد شمس بن عبد مناف أبو حذيفة بن عُتْبة بن ربيعة بن محصَن بن حُرثان، أحد بنى أسد ابن حزيمة، حليف لهم . ومن بنى زُهرة بن كلاب: سعد ابن أبى وقاص . ومن بنى عدى بن كعب، عامر بن ربيعة، حليف لهم من عنز بن وائل، وواقد بن عبد الله ابن عبد مناف بن عرين بن ثعلبة بن يربوع، أحد بنى تميم، حليف لهم ، وخالد بن البُكير، أحد بنى سعد ابن ليث، حليف لهم . ومن بنى الحارث بن فهر: سُهيل بن بيضاء .. ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة فمرت به عير لقريش تحمل زبيبا وأدما، وتجارة من قريش ، فيها عمرو ابن الحضرمى.. وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، وأخوه نوفل بن عبد الله المخزوميان، والحكم بن كَيْسان مولى هشام بن المغيرة فلما رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريبا منهم ، فأشرف لهم عُكاشة بن محصن وكان قد حلق رأسه ، فلما رأوه أمنوا ، وقالوا عُمار، لا بأس عليكم منهم وتشاور القوم فيهم وذلك فى آخر يوم من رجب فقال القوم والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخُلن الحرم، فليمتَنعنّ منكم به ولئن قتلتموهم لتقتلنهم فى الشهر الحرام، فتردد القوم، وهابوا الإقدام عليهم ، ثم شجعوا أنفسهم عليهم وأجمعوا على قتل من قد قَدروا عليه منهم ، وأخذ ما معهم . فرمى واقد بن عبد الله التميمى عمرو بن الحضرمى بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله ، والحكم بن كيسان ؛ وأفلت القوم نوفل بن عبد الله فأعجزهم . وأقبل عبد الله ابن جحش وأصحابه بالعير وبالأسيرين، حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة وفيها نزلت الآية =

. . . .

= الكريمة ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ ... (ابن هشام، ج١، ص٦٠١ – ٦٠٣ ؛ وراجع أيضاً الطبرى ، التاريخ ، ج٢، ص٤١٠ وما يليها ؛ الواقدى ، المغازى ، ص١٣ – ١٩ .

بعد هذه الأحداث جاءت غزوة بدر الكبرى وفيها يقول ابن هشام : " إن رسول الله ﷺ سمع بأبى سفيان بن حرب مقبلاً من الشام فى عير لقريش عظيمة ، فيها أموال لقريش وتجارة من تجاراتهم وفيها ثلاثون رجلا من قريش أو أربعون .. ندب المسلمين إليهم وقال هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله يُنفلكموها .. قال ابن إسحاق : وخرج رسول الله ﷺ فى ليال مضت من شهر رمضان فى أصحابه – قال ابن هشام: خرج يوم الاثنين لثمان ليال خلون من شهر رمضان .. فكانت وقعة بدر يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من شهر رمضان " . راجع ابن هشام ج١ ، ص٦٠٦ – ٦٠٧، ص٦١٢، ٦٣٦؛ وراجع الطبرى ، التاريخ ، ج٢، ص٤١٨ وما يليها ؛ الواقدى ، المغازى ، جـ١ ، ص١٩ – ١٧٢ .

ويتضح مما تقدم ومن القصاصة البردية التى استخدمتها كرون الآتى :

أولاً: قامت كرون باستبدال معركة بدر الثانية (غارة نخلة) ووضعتها تاريخياً مكان غزوة بدر الكبرى التى تحتل الترتيب الثالث فى سلسلة هذه المعارك المعروفة باسم بدر، ثم استخدمت هذه القصاصة البردية دليلاً مادياً على التشكيك فى تاريخ غزوة بدر الكبرى مما يعد دليلاً دامغاً على هدف واضح تسعى إليه وهو: التشكيك فى صحة المصادر الإسلامية مقدمة للقفز منها على التشكيك فى القرآن الكريم .

ثانيا: إن القصاصة البردية التى استخدمتها جاءت لتؤكد صحة ودقة ما كتبه المؤرخون المسلمون من حيث أن الأسماء المذكورة فيها سواء من جانب المسلمين أو من جانب المشركين ومنهم : عدى بن كعب ، وعامر بن ربيعة، وواقد بن عبد الله ، وعثمان بن المغيرة ، والحكم بن كيسان ، قد ذكرهم ابن هشام تفصيلاً مع غيرهم من المشاركين فى السرية على الرغم من ادعاء كرون المغرض أنه "لم يأت هنا ذكر لأى من : واقد وعدى بن كعب ، والمغيرة أو الحكم فيما يخص تلك الحقبة فى المصادر الكلاسيكية " ص٣٧٠ أدناه.

ثالثًا: إن تاريخ الرابع عشر، والثامن عشر من الهجرة ، وهى التواريخ المذكورة فى القصاصة البردية تنطبق على غزوة بدر الأولى التى وقعت أحداثها فى شهر جُمادى الآخرة من السنة الثانية للهجرة ، وينطبق تاريخ الثامن عشر من الهجرة على معركة بدر الثانية أو غزوة نخلة التى وقعت أحداثها فى شهر رجب كما ذكرها المؤرخون المسلمون، مما يؤكد فى الوقت نفسه على دقتهم .

رابعًا: حقيقة أن الشك فى المصادر التاريخية يعد أحد أهم سمات عملية التحليل التاريخى، بهدف الوصول إلى الحقيقة. ، بيد أن كرون فى هذا الموضوع وفى غيره استخدمت الشك فى محاولة هدم أو على الأقل التشكيك فى مصادر التاريخ الإسلامى ، وللوصول إلى تحقيق هذه الغاية خلطت الوقائع التاريخية واستبدلت تاريخ معركة بأخرى، ليس عن غفلة، وهى التى عُرف عنها الدقة، ولكن عن عمد، مستغلة فى ذلك اقتناع القارئ الغربى بما تكتبه، بل إنها فى أحيان كثيرة جعلته يتأرجح بين الشك واليقين فهى مرة تقول " إن وقائع معركة بدر تعد من الحقائق القليلة المؤكدة فى تاريخ الإسلام"، ولم تستنكف أبدا عن القيام بتغيير الحقائق التاريخية ، بل لقد وجدت صعوبة كبيرة فى مطابقة شهر رمضان بشهر الفرقان، وهى الحقيقة المؤكدة والثابتة من خلال القرآن الكريم . =

"سوف يصاب الطالب فى العصر الحديث بالقلق من ميول المؤرخين السابقين ومصادرهم ... لذلك ينبغى عليه أن يقوم إلى حد ما بإسقاط المعلومات المحرفة، وأن يقدم المعلومات التى لا تعصب فيها، لأن قبول المعلومات ذات "الشكل المتعصب" سيترتب عليه قبول صحة المادة بشكل عام"[١٠٨]. ذلك هو منهج وات Watt وهو يمثل بوجه عام رأيه فى مصادر ظهور الإسلام ، الذى يجب أن يقال إن ذلك يعتمد على الحكم الخاطئ على هذه المصادر. إن المشكلة الأساسية تتمثل فى شكل الرواية الأصلى، وليس فى بعض التحريفات الطفيفة التى أدخلت عليها بالتبعية، إن إسقاط مثل هذه التحريفات التى نتجت عن التعصب للإسلام مثل تلك الخاصة بمنطقة معينة أو قبيلة أو للشيعة أو المدارس التى لم تقم بتصويب الانحرافات التى حدثت نتيجة للإسلام نفسه ، لقد انحرفت الرواية بالكامل وأصبح هدفها هو إثارة النعرة العربية Heilsgeschichte وهو الانحراف الذى شكل الحقائق التى لدينا، وليس فقط فى بعض الإضافات التى كان من الممكن أن نقوم بإسقاطها[١٠٩] وإذا لم يأت التصويب من خارج الرواية، مثل تلك البردية التى لدينا، أو من خلال الأدلة الأثرية، والمصادر غير الإسلامية، فليس لدينا إلا أمل طفيف فى إمكانية إعادة بناء الشكل الأصلى لهذه الحقبة المبكرة[١١٠]. إن هناك كما هائلاً من المعلومات التى يمكن للمرء أن يرفضها، كما أن المعلومات التى فقدت منها من الصعوبة إمكانية القيام باستعادتها[*].

= ويتضح مما تقدم أن جميع ما دار حول هذا الموضوع من مناقشات طويلة قد بنى على خطأ تاريخى فادح ، وعلى ذلك ينبغى أن نطبق عليها منهجها نفسه الذى حاولت تطبيقه على المؤرخين المسلمين : "إسقاط المعلومات المحرفة ، والآراء المتعصبة ضد الإسلام التى قدمتها ، الأمر الذى ينزع عنها صفة الحياد التى ينبغى أن تتوافر لدى الباحث التاريخى الجاد . وحاولت من قبل جاهدة أن تنفى وجود تجارة عالمية لمكة قبل الإسلام، وهنا تحاول أن تهدم العقيدة الإسلامية متخفية فى ثوب البحث التاريخى العلمى ولكن الله غالب على أمره . (المترجمة)

(*) راجع التعليق المفصل على هذه الادعاءات المغرضة ص٣٧٢ وما يليها . (المترجمة)

الحواشي

(١) راجع M.Cook, Muhammad, pp.69f. Cf.also J.Wanabrough; Quranic Studies, P.56 إن الصورة التي رسمها القرآن الكريم للرسول العربي كانت صورة خارجية : وهي عبارة عن أدلة على الاتصال الإلهي، ولم تكن تقريراً عن أحواله (وقائعه) أما التفاصيل الدقيقة biographical data عن المعلومات التي جاءت في القرآن فهي تعتمد على المفسرين الرئيسيين والتي استقوها من المعلومات الخارجية للشريعة.

(٢) راجع الفصلين الرابع أعلاه والخامس عن :في أي شيء كان يتاجر القرشيون، وأين؟

(٣) الطبري، جامع ، ج٣٠، ص١٩٨ .

(٤) الرازي، مفاتيح ، ج٨ ، ص٥١٢ .

(٥) ابن عباس المذكور لدى الطبري، جامع، ج٣٠، ص١٧٠ وأعيد إخراجها في مكان آخر.

(٦) السيوطي ، الدُر، ج٦، ص٣٩٨، رواية عكرمة كما ذكر مقاتل أنهم كانوا يسافرون عن طريق الساحل في الشتاء، وبدلا من أن يجعلهم يسافرون بالطريق البري في الصيف، ذكر أنهم كانوا يذهبون لليمن (التفسير، ملف٢٥٣ أ) .

(٧) السيوطي، الدُر ، ج٤، ص٣٩٧، وهو رواية عكرمة مرة أخرى. وأيضاً حسين بن أحمد بن خالويه، المختصر في شواهد القرآن ،ص١٨٠ .

(٨) الطبري، جامع، ج٣٠، ص١٧١، رواية الدهاق ، والكلبي ، وابن زيد وعكرمة (وذكر الأخير بصرى واليمن بالتحديد)، كما رواه السيوطي؛ ابن قتيبة ، مُشكل القرآن، ص١٣٩؛ البيضاوي، أنوار، ج٢، رقم ٦٢٠؛ الكومي، تفسير، ج٢، ص٤٤٤؛ ابن حبيب، المنمق،ص٢٦٢ رواية الكلبي.

(٩) مقاتل، التفسير، ملف ٢٥٣ أ .

(١٠) الواقدي، المغازي، ج١، ص١٩٧، (إلى سوريا في الصيف وإلى الحبشة في الشتاء) ؛ اليعقوبي، تاريخ، ج١، ص٢٨٠، (الطريق العكسي)؛ ابن أبي حداد، شرح، ج٣، ص٤٢٧ (لم يذكر مواسم محددة).

(١١) ابن سعد ، طبقات ، ج١، ص٧٥، رواية الكلبي .

(١٢) الثعالبي ، ثمار ، ص١١٥ ؛ راجع ، الجاحظ ، رسائل، ص٧٠ .

(١٣) راجع أعلاه الفصل الخامس حاشية رقم (١). وأمدنا البلاذري بالفصول، أنساب ، ج١، ص٥٩ .

(١٤) راجع : البلاذري، أنساب، ج١، ص٥٨؛ ابن سعد ، طبقات، ج١، ص٧٥؛ الطبري، التاريخ، مجلد٧ ، ص١٠٨٩ .

(١٥) وتحديدا بالاسم الرحلة إلى سوريا . ويبدو أن اليعقوبى لاحظ أن القصة التى ذكرها عن هاشم وإخوته الثلاثة تتضارب مع ما قيل من أن هاشماً سن الرحلتين.ووفقًا لما ذكره اليعقوبى أسس هاشم رحلتين إلى سوريا والحبشة، بينما وضعهما إخوته موضع التنفيذ حيث قام أحدهما بتجديد المعاهدة مع الحبشة الطبرى، تاريخ ، ج١، ص٢٨٠، ص٢٨٢ .

(١٦) Cf. Kister, "Some Reports", pp. 61f.

(١٧) البيضاوى، أنوار، ج٢ص٦٢٠؛ وذلك هو أيضا ما فهمه المفسرون ضمنا من قصة ابن الكلبى عن هاشم وإخوته .

(١٨) ابن قتيبة ، مشكل القرآن ، ص٣١٩ وما يليها .

(١٩) الطبرى، جامع ، ج٣٠ ، ص١٩٩ .

(٢٠) المرجع السابق ، ص١٩٨، رواية ابن عباس . (نهاهم عن الرحلة.... فى أيام يكون لهم راحة) ؛ وبالمثل ابن عباس فى الرواية التى تصف رحلتين تذهبان للطائف وتعودان منها وعكرمة ، نفس المرجع، ص١٩٩، (وأمرهم أن يقيموا بمكة)؛ ابن خالويه، مختصر، ص١٨٠ . رواية الكلبى لدى ابن حبيب، المنمق، ص٢٦٢) ومقاتل (تفسير، ملف ٢٥٣ أ)، ومن ناحية أخرى التركيز على أن الرحلات كانت مُجهدة .

(٢١) مقاتل، تفسير، رقم ٢٥٣(أ)؛ الكومى ، تفسير، ج٢، ص٤٤٤ .

(٢٢) وهذا ما فهمه ضمنا الشراح من القول بأن هاشماً سن الرحلتين،ونفس قصة هاشم وإخوته الثلاثة التى ذكرها ابن الكلبى .

(٢٣) ابن قتيبة، مشكل القرآن، ص٣١٩ .

(٢٤) البيضاوى، أنوار، ج٢،ص٦٢٠، الطوسى، تبيان، ج١٠، ص٤١٢ وما يليها.

(٢٥) الطبرى، جامع، ص٣٠،ص١٩٨؛ الكومى، تفسير، ج٢ص٤٤٤؛ مقاتل، تفسير، ملف ٢٥٣(أ)؛ راجع أيضًا الكلبى المذكور لدى ابن حبيب، المنمق، ص٢٦٢ وما يليها .

(٢٦) ابن حبيب، المنمق، ص٢٦٣؛ ابن سعد ، طبقات، ج١، ص٧٥ وما يليها؛ البلاذرى، أنساب، ج١، ص٥٨؛ الطبرى، تاريخ، مجلد (١)، ص.١٠٨٩ يتضح من الإسناد الذى ذكره ابن سعد والبلاذرى (الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس) أن هذه القصة لها أصل دينى، فقد ذكرها ابن حبيب عند الحديث عن الإيلاف (ومرة أخرى عن الكلبى).

(٢٧) الرازى، مفاتيح، ج٨، ص٥١٢، رواه الكلبى. وقد أورد الكلبى ثلاثة أسباب فى تفسير المجاعة ، وهو يعد الوحيد الذى قام بتفسيرها بهذه الطريقة . راجع الحاشية السابقة ، حيث كانت المجاعة هى السبب فى تصرف هاشم، وابن حبيب فى المنمق، ص٢٦٣، حيث يفهم منها ضمنا أن المجاعة كانت عامة وقد تخلصت قريش منها عندما تمكن الآخرون من إحضار الطعام إلى مكة ، كما كان النص الذى رواه الرازى ما يزال يذكرها.

(٢٨) الرازى، مفاتيح، ج٨، ص٥١١، رواه عطا عن ابن عباس؛ وبالمثل السيوطى، الدُر، ج٤، ص٣٩٧، رواية الزبير بن بكر، الموفقيات (غير موجودة فى الجزء المنشور من هذا العمل ؛ راجع Kister, "Mecca and Tamim", p. 122f .

(٢٩) وهو ما يفهم ضمنا من رواية ابن الكلبى عن قصة الإيلاف. وقد تأكد الأصل الفقهي لهذه القصة لدى الجاحظ، الرسائل،ص٧١، (وهو ما قيل فيها وفي غيرها من القصص لتفسير (آية) "وآمنهم من خوف" ، ولدى الثعالبي، ثمار، ص١١٥، (حيث ذكر القصة مع التعليق عليها بأن هاشماً كان هو أول من قام بعمل الإيلاف الذي ذكره الله سبحانه وتعالى).

(٣٠) الطبرى، جامع ، ج٣٠، ص٢٠٠، رواه قتادة مرتين؛ وأخرجه السيوطي؛ ابن قتيبة ، مشكل القرآن، ص٣١٩ .

(٣١) الكومي، تفسير، ج٢، ص٤٤٤ .

(٣٢) الطبرى، جامع، ج٣٠، ص١٩٩ وما يليها؛ رواية ابن عباس وآخرون (عن استجابة الله [سبحانه وتعالى] لصلوات [سيدنا] إبراهيم [عليه السلام] ؛ وأيضاً السيوطي، الدُر ،ج٦، ص٣٩٧؛ الطوسي، تبيان، ج١٠، ص٤١٤، ويبدو أنه أيضاً من تفسير مقاتل، التفسير، ملف ٢٥٣ (أ) ..

(٣٣) وعند عماش بن الزبير بن بكر المذكور لدى السيوطي، الدُر، ج٦، ص٣٩٨؛ وأيضا في البيضاوي، أنوار، ج٢، ص٦٢٠ .

(٣٤) يذكر الطبرى عدة روايات ، جامع ، ج٣٠، ص٢٠٠؛ ابن حبيب، المنمق، ص٢٦٣، رواه الكلبي (وطبقا لما ذكره أن أحداً من قريش لم يسبق له الإصابة بهذا المرض) (الخوف من الأعداء أو من الجذام) الطوسي، تبيان،ج١٠، ص٤١٤؛ البيضاوي، أنوار، ج٢، ص٦٢٠ .

(٣٥) الرازي، مفاتيح ، ج٨، ص٥١٢ . مع الإشارة إلى تفسيرات أخرى.

(٣٦) عن الطبرى نفسه ،جامع، ج٣٠، ص٢٠٠ .

(٣٧) انظر على سبيل المثال : ابن خالويه : المختصر، ص١٨٠؛ الطبرى، جامع ، ج٣٠، ص١٩٧ .

(٣٨) ابن الكلبي: المذكور لدى ابن حبيب ، المنمق، ص٢٦٣؛ ابن سعد ، طبقات، ج١، ص٧٥ ، (دأب) .

(٣٩) الطبرى، جامع ، ج٣٠، ص١٩٨ (لزوم)؛ وبالمثل ابن خالويه ، المختصر، ص١٨٠؛ ابن قتيبة، مشكل القرآن، ص٣١٩ وما يليها .

(٤٠) الطبرى، جامع، ج٣٠، ص١٩٨،(ألفه) وبالمثل الزبير بن بكر المذكور لدى السيوطي ، الدُر، ج١٠، ص٣٩٧ (بالإشارة إلى أن هاشماً قام بالمساواة بين الأغنياء والفقراء)؛ الطوسي، تبيان، ج١٠، ص٤١٣؛ راجع أيضاً الرازي، مفاتيح (*) ، ج٨، ص٥١٠ وما يليها .

(٤١) الطبرى، جامع ، ج٣٠، ص١٩٨، (نعمة) .

(٤٢) يفسر ابن حبيب الإيلاف على أنه "عهود"؛ ابن حبيب ، المحبر، ص١٦٢؛ ويفسره المسعودي بأنه "أمن"، المروج، ج٣، ص١٢١، إن فكرة أن هذه الاتفاقات كانت بخصوص ضرائب للدفاع عن مكة قد ذكرت مرادفاً لشرح كلمة الخوف التي وردت لدى الجاحظ في الرسائل، ص٧٠ .

(*) ذكر اسم المصدر Hafatih في الأصل الإنجليزي وصحته مفاتيح Mafatih . (المترجمة)

(٤٣) باستثناء معنى النعمة فإن جميع المعانى التى قدمت لتفسير كلمة الإيلاف (Ilaf) التى وردت فى القرآن [الكريم] مشتقة جميعها من الجذر إلف Il كما أوضحها بروكيت-A.Brockett "Illustrations of Orien talist Misuse of Quranic Variant Readings" .

(٤٤) وأيا كان ما يمكن أن نستخلصه من بحث بروكيت Brockett, "Illusrations فإن نظريته تقول بأن المسلمين لم ينسوا المعنى الأصلى والنطق الصوتى للقرآن [الكريم] ، وإذا أغفلنا ذلك فى البداية فقد قال بروكيت أن الحفاظ على معنى النص لم يكن دقيقًا مثل ما هو موجود فى النص نفسه، أو بمعنى آخر فإنه يمكن نسيان المعنى، وهو يعتقد أن الباحثين كانوا يرون أنه أصبح من واجبهم استخراج عدة تفسيرات محتملة من النص، أو بمعنى آخر يقومون بوضع معان أخرى، إن فقد المعنى الأصلى من جهة ، ووضع معان جديدة من ناحية أخرى يقود بطبيعة الحال إلى البعد التاريخى عن المضمون الأصلى للوحى الإلهى .

(٤٥) Cf. Cook, Muhammad, p.72; and D.S.Powers, "The Islamis, law of Inheritance Reconsidered: a New Reading of Q. 4:12 B", especially pp. 74 ff.

(٤٦) راجع الفصل الخامس أعلاه. ولاحظ أنه فى دلائل النبوة المتأخرة القصة التى تمت الإشارة إليها فى الفصل الخامس الحاشية رقم ٧٦، كيف كان أبو سفيان يتردد بين سوريا واليمن بالتعاقب .

(٤٧) انظر على سبيل المثال EI2, s.v.kuraysh (Watt)

(٤٨) Ibid, S.V. Badr (Watt).

(٤٩) Lammens, Taif, pp. 160 ff.; Watt, Muhammad at Mecca, p. 138.

(٥٠) ربما تحت تأثير ظروف أخرى. فبعد الفتوحات كانت هناك رغبة لقضاء الصيف فى الطائف، والشتاء أو الربيع فى جدة أو مكة التى أصبحت مكانا لذلك (راجع . ياقوت ، البلدان، ج٣، ص٥٠٠، وعن الطائف ، الأغانى ، ج٤، ص٢٠٥). واستخدم شاعر الهجاء هذه الأماكن للإشارة إلى ازدراء قريش قبل الإسلام (الجاحظ ، الرسالة الثالثة، ص٦٢ وما يليها) . كما استخدمت مع معبودات ما قبل الإسلام(الأزرقى، مكة، ص٧٩). لذلك فيبدو أنها هى الأماكن نفسها التى فهمها المفسرون من القرآن .

(٥١) كان من المفروض أن يصل محمد [ﷺ] إلى المدينة فى سبتمبر EI, s.v. hidjra (Watt) وقد ورد نص لدى ابن إسحاق يذكر فيه أنه ترك مكة بعد أن وصل جميع تابعيه سالمين (ابن هشام، السيرة، ص٣٢٣)؛ ولكن هناك نص آخر لدى ابن هشام ، نفس المرجع، ص٣٣٩، يذكر فيه أن محمداً [ﷺ] غادر مكة أولا، ثم تبعه أصحابه فيما بعد (*) .

(*) إن النص الذى تشير إليه هو : " فلما أذن الله تعالى له [ﷺ] فى الحرب، وبايعه أهل هذا الحى من الأنصار على الإسلام على النصرة له ولمن اتبعه، وأوى إليهم من المسلمين، أمر رسول الله [ﷺ] أصحابه من المهاجرين من قومه، ومن معه بمكة من المسلمين، بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها، واللحوق بإخوانهم من الأنصار، وقال : إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها . فخرجوا أرسالا، وأقام رسول الله [ﷺ] بمكة ينتظر أن يأذن له ربه بالخروج من مكة والهجرة إلى المدينة ". (المذكور لدى هشام ، السيرة ص٤٦٨ وراجع تأكيد ابن إسحاق على هذا القول ص٤٨٠ أيضًا) .
=

(٥٢) ومن الطبيعي أن يتم فهمها على أنها في حالة المفرد (على وزن دأب da'b لزوم Luzum، أمن amn)؛ ولكن ابن حبيب فهم كلمة إيلاف على أنها عهود ، أي في حالة الجمع (المحبر، ص١٦٢).

(٥٣) Cf. Cook, Muhammad, p.72; Cf. also Shahid, Two Quranic Suras, p.432. وعن شبيه بذلك ولكن أقل أهمية راجع الخاتمة .

(٥٤) ولأنني مؤرخة فسوف أميل إلى التأثر بتلك التفاصيل الخاصة بقيام قريش بالعمل وسيطًا تجاريًا للقبائل التي تقع على الطريق. وعلى أي حال فإن الموضوع بوضوح جاء نتيجة لتوضيح وشرح عبارة "وكفاهم المؤونة" وقد شارك فيها ابن الكلبي بقصة الإيلاف والقصص الأخرى المماثلة. إن الفكرة القاطعة في قصة ابن الكلبي خلف وساطة قريش التجارية تتمثل في أنها وفرت على شركائها متاعب السفر بأنفسهم للأسواق السورية أو لغيرها من الأماكن: " فكفاهم مؤونة الأسفار" (الجاحظ، الرسائل، ص٧٠)، ليكفيهم مؤونة الأسفار (الثعالبي، ثمار، ص١١٦)، فيكفيهم هم العناء (القلعي، الأعمال ، ص١٩٩؛ ابن حبيب، المنمق، ص٣٣). ولكن الفكرة القاطعة في هذه القصة تتمثل في أن الله (تعالى) كفى قريشًا عناء السفر إلى هذه الأسواق "وكفاهم الله الرحلتين (ابن حبيب، المنمق، ص٢٦٢)، وكفاهم على هذا وجعل مؤونة الشتاء والصيف (مقاتل ، تفسير، ملف ٢٥٣ (أ)). "كفاهم المؤونة " (الطبري، جامع، ص٣٠، ص١٧١). ومن هذه الأقوال السابقة لا يمكن استخراج معلومات محددة خاصة بمكة .

(٥٥) راجع على سبيل المثال المرجع التالي: Shaban, Islamic History, I, p.6f "كان تجار مكة يأخذون مثل هذه البضائع معهم إلى سوريا، وعند عودتهم يقومون بدفع ثمن رأسمالها وجميع أرباحها. ويؤمن رجال القبائل لهم مقابل ذلك مرور القوافل المكية في أراضيهم . ومن المحتمل أن هذا هو الشكل الأصلي للإيلاف أي أنه نوع من الحماية التي كانت مطلوبة على أوسع نطاق. أما رجال القبائل الذين كانوا يرغبون في الاشتراك في هذه التجارة ولم يكن باستطاعتهم تقديم الحماية اللازمة للقوافل المكية في أراضيهم، فكان عليهم أن يقوموا بدفع ضريبة نظير ذلك وهو شكل آخر للإيلاف. ولقد قام هاشم بجمع هذه الضرائب حتى يتمكن من تنظيم الدفاع عن هذه القوافل. وأوضح الجاحظ بجلاء أن هذه الترتيبات ترجع افتراضا إلى القرآن سواء كان هناك نوعًا واحدًا أو أكثر منها. ولكن (شعبان) يهدف إلى أن يجعل لكل منهما جذور "تاريخية ، كما أنه قدم نصين مختلفين لكليهما، وغيّر بطريقة مباشرة الغرض من الضرائب المشار إليها من حماية مكة والدفاع عنها لحماية التجارة لصالح الدفاع عن قوافل المكيين .

= وذكر ابن هشام : " وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له في الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حُبس أو فتن، إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق (ﷺ) " ص٤٨٠؛ ثم أردف ابن إسحاق قائلا في مكان آخر :" وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله (ﷺ) ، فلم يبق منهم بمكة أحد ، إلا مفتون أو محبوس،.، ص٤٩٩ . وهكذا نرى أنه لا وجود لهذا التضارب الذي تشير إليه كرون في المصدر. راجع ابن هشام ، السيرة ، المجلد الأول ، القاهرة ، طبعة السقا وآخرون. وهي غير الطبعة التي اعتمدت عليها كرون ولذلك يجد القارئ اختلافا في أرقام الصفحات . (المترجمة)

(٥٦) القرطبى، جامع ، ج١٠، ص٥٦؛ الواقدى، أنساب، ص٢٠٨، (حيث وصلت القوافل للمدينة)؛ البيضاوى ، أنوار، ج١، ص٦٥٥ : (حيث شوهدت فى أذرعات) وبالمثل فى تفسير الطبرى للسورة ١٥ : ٨٨ "بخصوص التحذير من النظر فيما لدى الآخرين، ولكن بدون العودة إلى قصة القوافل (*) . (جامع ، ج١٤، ص٣٨).

(٥٧) cf. J. Schacht, A Revoluation of Islamic Traditions ; id., On Musa b. Uqbas kitab al-Maghazi.

(٥٨) راجع المعنى العكسى لتطور معنى وكفاهم المؤونة فى الحاشية رقم ٥٤ أعلاه ثم قارن تطور كلمة أكسب akhsaba : فلما وجد المكيون أن مجهود السفر جيئة وذهابا إلى سوريا واليمن كان كبيرا أكسب تبالة وجرش وأهل ساحل البحر (**) وأخذ هؤلاء القوم على عاتقهم حمل المؤن إلى مكة (الكلبى المذكور لدى ابن حبيب، المنمق، ص٢٦٢)، ولما لم يؤمن أهل مكة بمحمد [ﷺ] ، دعا الله [سبحانه وتعالى] أن يصيبهم بسنوات قحط مثل سنوات يوسف [عليه السلام] ، ولذلك أخذوا يعانون من الجدب والضيق، وعندما تحولوا إلى الإسلام كسبت البلاد وكسب أهل مكة (الكلبى المذكور لدى الرازى، مفاتيح، ج٨، ص٥١٢)، وعندما قام هاشم بعقد الإيلاف مع القبائل العربية كسبت قريش (الثعالبى ، ثمار ، ص١١٦ ؛ الجاحظ ، الرسائل ، ص٧١). وعندما استورد هاشم الخبز من سوريا وأطعم به المكيين "فكان ذلك أول خصبهم" (ابن حبيب، المنمق، ص١٠٣). ولاحظ أيضًا الدور الذى قام به هاشم وهو طهو الثريد فى مكة خلال عام المجاعة ولذلك حرر المكيين من الجوع (راجع حاشية رقم ٢٧ أعلاه)، أو عندما قام بطهوه فى سوريا حيث لفت ذلك أنظار الإمبراطور البيزنطى مما كان له نتائج كثيرة (راجع أعلاه الفصل الخامس، ص١٢٢) . واستخدمت النغمة نفسها بطريقة عدائية بين الهاشميين والأمويين. (ابن حبيب ، المنمق ، ص١٠٣ وما يليها؛ ابن سعد، طبقات، ج١، ص٧٥ وما يليها) أو عندما قام بطهوه فى منى، وعرفة ومكة لتصوير استضافة المكيين للحجاج (اليعقوبى،تاريخ، ج١، ص٢٨٠) ، (الطبقات، ج١، ص٧٨) إن اسم هاشم يرتبط دائما بالنشاط .

(٥٩) Cf. Wanabrough, Quranic Studies, pp.122ff. ، ويذكر فانزبرو أن تلك هى طبق الأصل من طريقة مقاتل وليس الكلبى (ibid, p. 144) وعلى ذلك فإن التفسير الذى ينسب إلى الكلبى لا يمكن أن يكون من عمل الكلبى نفسه. فعندما يستند لتفسير الكلبى فى الرواية تكون الرواية فقهية، تاريخية أو قانونية، ولها طريقة ثابته حيث تقدم قصة ، وعلى سبيل المثال فيما يخص نهاية تجارة مكة والتى حُفظت لدى ابن حبيب ، المنمق، ص٢٦٢ وما يليها،القحط الذى عاقب به محمد [ﷺ] مكة والذى رواه الرازى (مفاتيح، ج٨، ص٥١٢) والقحط الذى قام هاشم على إثره بطهو الثريد (راجع حاشية رقم ٢٧ أعلاه) ، والمولى الذى تاجر فى سوريا وكان معه إناء من الفضة ، (راجع الفصل الخامس أعلاه حاشية رقم ٩٨)، أو حادث قتل إسرائيل الذى تصادف حضوره القسمة p.Crone, Jahili and Jewish law: the

(*) والآية الكريمة هى ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾. (المترجمة)

(**) لم تكمل كرون بقية الجملة وهى : " وأهل ساحل البحر من اليمن" حتى تكون أكثر وضوحا. (المترجمة)

Qasama, p.175) ويترتب على ذلك أن المنسوب إليه فى جميع التفاسير المختلفة والتى ما تزال باقية فى عدد من المخطوطات ينبغى رفضها. (ibid, n.111) .

(٦٠) ولذلك حذف الطبرى وعدد من المفسرين الآخرين ذكر هاشم فى تفسير سورة قريش، ولكنهم وصفوا الرحلتين على أنهما رحلات تجارية. كما قام الطبرى بحذف القصة التى ذكرت بخصوص القوافل لتفسير السورة رقم (١٥ : ٨٨).(*)

(٦١) Cf. Wanabrough, Quranic Studies, pp.122 ff.

(٦٢) ابن هشام ، السيرة، ص٢٨٥ وما يليها؛ ص٣٨٥ .

(٦٣) "قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم". ولقد ترجم جيولاوم هذه العبارة فى كتابه Guillaume, life of Muhammad, p.198: على النحو التالى : " لقد تركنا قومنا حيث لم يكن هناك أى قبيلة ممزقة بالكراهية والضغائن مثلهم"، بدلا من أن تترجم على النحو التالى "عندما تركنا قومنا، كانوا فى حالة يرثى لها من الكراهية والضغائن أكثر من أى قوم آخرين" (**).

(٦٤) ابن هشام، السيرة، ص٤١١ .

(٦٥) Ibid.; cf. EI2, s.v. Abd Allah b. ubby (watt).

(٦٦) إن الشيء الذى يصعب تفسيره هنا أنه على الرغم من أن النصر فى معركة بُعاث كان من نصيب الأوس قبل وصول الرسول [ﷺ] إلى المدينة بفترة قصيرة، فإن ابن هشام يذكر أن يثرب كان لها حاكم خزرجى بعد وصول الرسول [ﷺ] إليها (ابن هشام، السيرة، ص٣٨٥ وما يليها؛ راجع ص٢٨٥ وما يليها). (***)

(*) صحة الآية هى : رقم (٨٧) . (المترجمة)

(**) أرى أنه لا يوجد فرق فى المعنى بين الترجمتين . (المترجمة)

(***) انتصرت الأوس على الخزرج يوم بُعاث، ويبدو أن الصراع هدأ بينهما فترة بعد ذلك ، والدليل الذى يرجح هذا القول أن رجالا من الفريقين اجتمعا مع الرسول (ﷺ) فى بيعتى العقبة الأولى والثانية (ابن هشام، المجلد (١)، ص٤٣١، ص٤٣٨) وكان على رأس الخزرج عبد الله بن أُبى بن سلول، وكان يحظى بمكانة بين القبيلتين، لذا اجتمعت عليه ، وكان على رأس الأوس أبو عامر عبد عمرو بن صيفى ابن النعمان. ثم ذكر ابن إسحاق : "فأما عبد الله بن أُبى فكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم ، فجاءهم الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم ، وهم على ذلك " ، والمقصود بقومه هنا الخزرج وليس الأوس، لأنه لو كان يعنى الأخيرة لذكر ذلك توضيحا، ويرجح هذا الرأى أن ابن إسحاق يذكر بعد ذلك مباشرة أن أبا عامر (زعيم الأوس) أبى إلا الكفر والفراق لقومه حين اجتمعوا على الإسلام فخرج فيهم إلى مكة ببضعة عشر رجلا مفارقا للإسلام (ابن هشام ، السيرة، ص٥٨٤،٥٨٥). ثم ما رواه ابن إسحاق عن سعد بن عبادة الخزرجى قوله للرسول (ﷺ) : (ارفق به – أى بابن أُبى – فوالله لقد جاءنا الله بك ، وإنا لننظم له الخرز لنتوجه، فوالله إنه يرى أنك قد سلبته ملْكا) . نفس المصدر ص٥٨٨ . وهنا نرى أن يثرب لم يكن لها حاكم خزرجى عند وصول الرسول (ﷺ) إليها، ولكن كان لها: زعيم للخزرج، اتفق قومه من الخزرج على أن يملكوه عليهم. (المترجمة)

(٦٧) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تطبيب التذبيب، ج٥،ص٥٢ وما يليها.

(٦٨) ابن هشام ، السيرة ، ص٢٧٢ .

(٦٩) المرجع نفسه ص٢٨٦؛ وراجع ص٢٧٢ وما يليها، ص٢٧٨ .

(٧٠) Cf. J. Wellhausen, "Madina vor dem Islam," based largely on the Aghani.

(٧١) لقد اقترح على كوك M.A. Cook هذا المثال .

(٧٢) المسيحيون الأحباش في ابن هشام، السيرة، ص١٠٧؛ اليهود: ابن سعد، الطبقات، ج١، ص١١٣؛ في عكاظ: عبد الرازق، المصنف، ج٥، ص٣١٧؛ ابن سعد، الطبقات، ج١، ص١٥١؛ راجع: أبو نعيم ، دلائل، ص١١٧؛ ذو المجاز: أبو نعيم ، دلائل، ص٩٥، ص١١٦ وما يليها؛ القلعي، اكتفاء، ص٢٣٧ وما يليها، رواية الواقدي؛ عن كاهن في مكة: ابن سعد، طبقات،ج١، ص١٦٦؛ عن أحد العرافين، ابن هشام، السيرة، ص١١٤ وما يليها.

(٧٣) راجع: ابن سعد، طبقات، ج١، ص١٢٠ .

(٧٤) يهودي في تيماء : عبد الرزاق، مصنف، ج٥، ص٣١٨، أحد الرهبان: ابن سعد ، طبقات ، ج١، ص١٢٠، ص١٥٣، بحيري في بُصرى: ابن هشام، السيرة، ص١١٥ وما يليها؛ ابن سعد، طبقات، ج١، ص١٥٣؛ أبو نُعيم ، دلائل، ص١٢٥ وما يليها؛ بُحيري في مكان آخر: ابن سعد ، طبقات، ج١، ص١٢١؛ البلاذري، أنساب، ص١٩٦ وما يليها ، ذكر ابن حبيب رحلته إلى سوريا عندما كان في التاسعة من العمر : المنمق، ص٩؛ ويذكرها اليعقوبي بدون الإشارة إلى أهل الكتاب (التاريخ، ج٢، ص١٣).

(٧٥) ابن كثير، البداية، ج٢، ص٢٨٠، رواية السهيلي من سيرة الزهيري.

(٧٦) قارن ما ذُكر في أبي نعيم، دلائل، ص١١٩ وما يليها ، حيث روى أن أحد يهود يثرب تعرف على الرسول عندما كان في السادسة من العمر وعرف أنه هو النبي المنتظر، وأخبر اليهودي أقارب أمه هناك، وخافت عليه آمنة وأخذته بعيداً .

(٧٧) راهب: ابن هشام،السيرة، ص١١٩ وما يليها؛ راجع البلاذري، أنساب، ج١، ص٩٧ وما يليها بدون أن يذكر مقابلة أهل الكتاب؛ نسطورا: ابن سعد، طبقات ، ج١، ص١٢٩ وما يليها ، ص١٥٦ وما يليها؛ القلعي ، اكتفاء، ص٢٥٨ وما يليها، رواية الواقدي؛ أبو نعيم ، دلائل، ص١٣١ وما يليها الرواى نفسه.

(٧٨) أبو نعيم بالتحديد .

(٧٩) Cf. H. Hirschfeld, New Rescarches into the Composition and Exegesis of the Quran, p.22; cf. also EI2 S.V. Bahira .

(٨٠) Watt, Muhammad at Mecca, p.33.

(٨١) Ibid, p.38 حقيقة لقد روى لنا "وات" قصة محمد [ﷺ] كما جاءت في الرواية التقليدية ولهذا تحاشى التساؤل عن مصداقيتها التاريخية. لكن استمرار محمد [ﷺ] في العمل مندوبا [للسيدة] خديجة [﵂] أو شريكًا لها قُدم كحقيقة ثابتة . وهذا كله بمثابة استدلال من الرواية التقليدية" . أما الرواية التي تقول بأن محمداً [ﷺ] قد شارك صهيب بن أبي الصهيب في الجاهلية فيبدو أنها كانت غافلة عن

مشاركته مع [السيدة] خديجة [ﷺ] أو في عمله نيابة عنها. راجع الأزرقي، مكة، ص٧١؛ الشيباني، الكسب، ص٣٦؛ وكما لاحظ وات Watt أنه لم يسجل بعد ذلك أي شيء عن سفره إلى سوريا مرة أخرى، سواء كان ذلك نيابة عن [السيدة] خديجة [ﷺ] أو عن غيرها .

(٨٢) Watt, Muhammad, at Mecca, p.31; cf. ؛ راجع ابن هشام، السيرة، ص٩١ وما يليها؛ القلعي، اكتفاء، ص٢١٦ وما يليها(وأيضاً لدى ابن إسحاق).

(٨٣) Cf. EI2, S.V. Amina (Watt).

(٨٤) راجع المصادر التي ورد ذكرها من قبل في الفصل الرابع أعلاه حواشي ٤٥–٤٦؛ والفصل الخامس الحواشي رقم ٩٦–٩٧ .

(٨٥) الطبري، تاريخ، المجلد رقم (١)ص١٦٠١ وما يليها، رواية ابن إسحاق؛ ابن هشام، السيرة، ص٧١٦ وما يليها؛ عبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم، فتح مصر، ص٢٥٢ وما يليها. راجع Raven, "Some Is-lamic Traditions" .

(٨٦) Ravan, "Some Islamic Traditions ".

(٨٧) راجع أعلاه الحاشية رقم ٨٥ .

(٨٨) W.M.Watt, Muhammad at Medina, pp. 345, f. ، مع وجود المصدر الذي يشير إلى حقيقة أن "محمداً [ﷺ] كان شخصية متزنة ورجل دولة بعيد النظر" حيث إنه لم يقم بإرسال مبعوثين إلى الحكام الأجانب ليدعوهم إلى اعتناق الإسلام مباشرة ولكن :"لدعوة أمراء تلك الحقبة إلى قبول الإسلام الذي لن يسبب ضرراً لهم بل سيكون في صالحهم".

(٨٩) راجع الفصل السابع أعلاه ، حاشية رقم ٢٣ .

(٩٠) راجع: ابن حبيب، المنمق، ص٩٨ وما يليها، والمصادر التي ورد ذكرها فيه. إن جميع العبادات التي وردت في هذه القصة تذكر مع ma، ولكن الناشر يستبدل بها كلمة مال mal وهو الشيء الذي ينبغي حذفه. وطبقا لما ذكره اليعقوبي، تاريخ، ج١، ص٢٨٤، ص٢٨٨ وما يليها، فقد قام عبد المطلب بحفر كل من بئر زمزم وبئر في الطائف في التاريخ نفسه . ووضع لها النتائج نفسها في كلتا الحالتين .

(٩١) Watt, Muhammed, at Mecca, p. 31.

(٩٢) ابن هشام، السيرة، ص٤٢٢ وما يليها؛ الواقدي، المغازي، ج١، ص١١ .

(٩٣) راجع ياقوت، البلدان، ج٢، ص٤٠٨، حيث يورد أنها مكان في الحجاز (وهو نفس ما ذكره ابن إسحاق)، أو مكان بالقرب من الجوف (لدى الواقدي)، أو هي وادي في المدينة ، أو مكان للماء في المدينة ، أو مكان في خيبر .

(٩٤) Cf. W.M. Watt," The Materials used by Ibn Ishaq," pp. 25f.; Cf. also EI2, S.V. Kass and the literature Cited there . والمصادر التي ذكرت لديه .

(٩٥) إن أقصر طريق نتجه إليه هو قصة الخلافات في المدينة ، والتي تتعارض فيها المعلومات عن ابن أبي Ibn Ubayy : حيث لا يوجد أى معلومات عن ابن أبى نفسه (*) .

(٩٦) وهي القضية التي حاولت القيام بتوضيحها من قبل مع الإشارة إلى نصيب دستور المدينة من الحديث [الشريف] (Cf. Crone, Slaves on Horses, p.7) غير أنني تغاضيت عن دور رواة القصص فيما يخص هذه الخسارة.

(٩٧) Cf. J. M. Jones," Ibn Ishaq and al-Waqidi," pp.46f., 51.

(٩٨) Cf. J.M.B. Jones, "The Chronology of the Maghazi Textual Survey," p.247 .

(٩٩) A. Grohmann, ed. And tr. Arabic Papyri from Hirbet el-Mird, p.71. إن إمكانية قراءة جروهمان خطأ البردى أمر حقيقي: لأن القصاصة رقم (٢٠)، التى ظن أنها ربما تكون خطابا رسميا يشير لضرائب، قد وضح أنها قصاصة من نص قرآني Cf.M.J. Kister, "On an Early Fragment of the Quran" ؛ والصورة الفوتوجرافية للبردية فى ص١٦٦ (فى النص الإنجليزى للكتاب) أوضحت السبب فى إخفاق جروهمان في ملاحظة النص. وعلى أى حال فإن في هذه الحالة بالتحديد فإن قراءته للبردية تتفق بشكل جيد مع المصادرالأخرى (كما سوف نرى) وهناك احتمال باستبعادها.

(١٠٠) Grohmann Citing Abbott in Grohmann, Arabic Papyri, p.105.

(١٠١) وقعت معركة بدر الأولى فى جمادى الآخرة من السنة الثانية للهجرة، طبقا لرواية ابن إسحاق وهو التاريخ نفسه الثابت لدى ابن هشام(السيرة،ص٤٢٢) ولدى خليفة بن خياط، تاريخ، ج١، ص١٦، وهو ذلك التاريخ الذى يساوى به كل من أبوت Abbott وجروهمان التاريخ الأول المذكور فى البردية. ولكن تاريخ جمادى الآخرة من السنة الثانية ، هو الشهر الخامس عشر أو السادس عشر من ربيع الأول، للسنة الأولى (والأمر يعتمد على ما إذا كان سيحسب شهر ربيع الأول أو لا يحسب)، وهو ليس الرابع عشر. وقد وقعت المعركة الثانية لبدر فى الشهر الثامن عشر أو التاسع عشر من ربيع الأول .

(١٠٢) الواقدى، المغازى، ج١، ص٢ .

(١٠٣) راجع: ابن هشام، السيرة ، ص٤٢٣؛ الواقدى،المغازى، ج١،ص١٢(أغار كرز على جمال فى المدينة، وقام الرسول [ﷺ] بتعقبه؛ وذكر الواقدى أن الجمال كانت في منطقة الجَمّاء) وعن المرة الثانية راجع ابن هشام، السيرة، ص٩٩٨ وما يليها : ذهب كرز ليتعقب بعض رجال القبائل الذين قاموا بالإغارة على الجمال التى كانت في منطقة الجَماء ، الواقدى، المغازى، ج٢، ص٥٦٨ وما يليها (وهى مختلفة بعض الشيء).

(١٠٤) المصادر التى قمت بمراجعتها هى: ابن هشام، السيرة، ص٤٢٣؛ خليفة، تاريخ، ج١،ص١٦؛الواقدى، المغازى، ج١، ص١٢؛ ابن سعد، الطبقات، ج٢، ص٩؛ ابن حبيب ، المحبر، ص١١١؛ الطبرى، تاريخ، مجلد١، ص١٢٧١ .

(*) قدم ابن هشام، معلومات جيدة عن ابن أُبى (عبد الله بن أبى بن سلول) على غير ما تدعيه كرون. راجع : السيرة، ص٤٤٦، ص٤٤٩، ٥٢٦، ٥٨٤ إلى ٥٨٨ . (المترجمة)

(١٠٥) ابن هشام،السيرة،ص٤٢٣ وما يليها؛ الطبرى، تاريخ، مجلد(١)ص١٢٧٤؛ الواقدى، المغازى، ج١، ص١٣ وما يليها ، وقد حدده ابن إسحاق على أن عامر بن ربيعة هو أحد أفراد بنى عَدِىّ بن كعب (أما الطبرى فقد حذفه تماما). وقرأ جرومان الحرف الأول من اسم والد حكم على أنه حرف (ص) بدلا من الكاف ، ولكن لا اعتراض على ذلك حيث إننا نعرف حالة البردية .

(١٠٦) تم بالإجماع تأريخ (معركة) نخلة بشهر رجب من السنة الثانية (Cf. Jones, Chronology, p.247) ؛ أى أنها الشهر الثامن عشر أو التاسع عشر من المحرم، وهو التاريخ الذى أعطته البردية لمعركة بدر. وهذا إما يعنى أن الحادثين تم تصويرهما على أنهما حدثا فى الشهر نفسه – ولكن الرواية تذكر وجود شهرين بين وقوع الحدثين كما رأينا – أو أنه تم تصوير نخلة على أنها حدثت فى فترة زمنية قبل تاريخها المعروف. ولكن حيث إن البردية تقدم تاريخ الرابع عشر من المحرم لوقوع حدث ربما يكون هو نخله وهو الأمر الذى نرجحه (*).

(١٠٧) أربعة عشر شهرا طبقا لابن إسحاق، وثمانية عشر شهرا طبقا للواقدى. راجع أعلاه حاشية رقم ١٠١، ١٠٤ .

(١٠٨) Watt, Muhammad at Macca, p. x111.

(١٠٩) Cf. Wansbraugh, Quranic Studies, pp. 57f.

(١١٠) Cf. Crone and Cook, Hagarism, part, I.

(*) راجع التعليق المفصل على هذا الموضوع ، ص٣٧٢ وما يليها، والذى أثبتت فيه المترجمة بما لا يدع مجالا للشك الخطأ التاريخى الفادح الذى وقعت فيه كرون عندما خلطت بين معارك بدر الثلاثة حتى تشكك فى القرآن الكريم وبقية المصادر الإسلامية وكانت نتيجة هذه الدراسة هو تأكيد على ما ورد فى القرآن الكريم ودقة المصادر الإسلامية . كذلك راجع نص الوثيقة البردية الخاصة بالموضوع والمنشور فى نهاية الكتاب . (المترجمة)



الفصل العاشر

ظهور الإسلام

إذا كنا قد اعترضنا على كثير مما كان معروفًا عن تجارة مكة، فهل معنى ذلك أننا لا نستطيع أن نقوم بشرح الأسباب التى أدت إلى ظهور الإسلام ؟ إننا إذا وضعنا فى اعتبارنا أن هذه التجارة كانت تمثل العامل البارز وراء ظهور النبى فى بلاد العرب، وانتشار الدعوة الإسلامية هناك، وفى اجتياح العرب للشرق الأوسط، تكون النتيجة الواضحة هى بالإيجاب. ولكن تجارة مكة لا تقدم إجابة شافية لشرح هذه الأحداث.

يقف وات (Watt) وراء الرأى القائل بأن تجارة مكة هى السبب النهائى لظهور الإسلام. ولعل قارئ هذا الكتاب شعر بوجود معارضة كبيرة لهذا الرأى، وهى المعارضة التى تنضم إليها مصنفة هذا الكتاب. ومن الضرورى الاعتراض على المصادر الموثوق بها: الاعتراض على أصل ومنبع fons et origo هذه المصادر، ويمكن للقارئ من خلال العمل الحالى أن ينظر إلى اسم (وات) على أنه اختصار "للمؤرخين المسلمين الأوائل بصفة عامة"، وأن الجدال معه يعد بمثابة ثناء عليه. فنحن ندين بالشكر للأثر الهائل الذى تمخض عن عمله، فى تقدير النظريات التى سادت التخصص والتى أعادتنا إلى وات نفسه فى الجولة النهائية.

يرى وات أن تحول قريش إلى الاقتصاد التجارى قوض الوضع التقليدى فى مكة، وأدى إلى انهيار الوضع الاجتماعى والأخلاقى الذى كانت دعوة محمد [ﷺ] استجابة له[1]، ولكن الضعف يشوب هذا الافتراض خصوصاً بعد أن اكتشفنا أن مكة كانت تتاجر فى بضائع متواضعة وليس فى بضائع الترف، ولكن هذا السبب الأخير

لا يلغى رأيه بالضرورة. وحتى لو كان الأمر كذلك فلدينا أسباب أخرى لكى نستبعد هذا العامل وهى على النحو التالى :

أولاً : ليس من المعقول أن تلك الفترة القصيرة لوجود الثروة التجارية، كانت كافية لتدمير وانهيار المجتمع فى مكة. ولدينا مثال يرجع للقرن الثامن عشر يتمثل فى مدينة حائل التى تمكنت من إحراز مكانة تجارية ذات أهمية يمكن أن نقارنها بما حققته مكة(*)، ولم يؤد هذا التغير إلى حدوث انهيار فى معاييرها التقليدية[٢] فلماذا ظل الوضع على هذا النحو ؟ إن الأمر يتطلب عدة قرون من الزمان على الأقل من النجاح التجارى لكى يقوض النظام القبلى للسكان، أو يرغم على اختيار نظام مختلف يتواءم مع نشاطه الاقتصادى الجديد. إن تجارة القوافل لا تعد اقتصادا رأسماليا بالمعنى الصحيح للكلمة، إن نظرة وات للمكيين على اعتبار أنهم ممولون لرأس المال تشير إلى حرفة لا ترحم للحصول على المكسب مما جعله يصورهم كما لو أنهم قد انتقلوا للقرن العشرين[٣].

ثانيًا : إن الدليل الذى قدمه وات على حدوث ذلك الانهيار فى مكة غير كاف فهو يذكر أن القرآن [الكريم] يدل على زيادة الوعى بالفوارق بين الأغنياء والفقراء، وتناقص عدد الأغنياء لصالح الفقراء، وحتى الضعفاء من أقاربهم، وخصوصًا الأيتام الذين كان يساء معاملتهم؛ كما أن القرآن يؤكد على عمل الخير مما يدل على انتهاء الأنموذج القديم للكرم إلى درجة أن سلوك الأغنياء كان سينظر إليه شذراً فى الصحراء، وفى الوقت نفسه فإن تأكيدات القرآن على ضرورة الاعتماد على الله يقودنا إلى الافتراض بأن أهل مكة أصبحوا يقدسون مبادئ جديدة "المنابع الثروة الضخمة" The supperminence of wealth[٤] وفى الواقع إن القرآن [الكريم] لا يشير إلى زيادة الوعى بالفروق أو الضغوط

(*) إن عقد مقارنة بين مجتمع مكة فى القرن السابع ، وبين مجتمع مدينة حائل فى القرن الثامن عشر يعد خطأ من الناحية التاريخية، حيث يجب أن تكون المقارنة بين مجتمعين متماثلين وفى الحقبة التاريخية نفسها . (المترجمة)

الاجتماعية(*) : وفي غياب الأدلة الخاصة بالفترة السابقة على نزول القرآن [الكريم] بخصوص هذا الموضوع، فإن هذا الكتاب لا يمكن أن يقدم الدليل على ذلك التغيير. إن الاتهامات التي تكال لتبذير الثروة وإهمال الغير وخصوصا الفقراء والضعفاء هي مجرد عبارات معتادة في أقوال المبشرين بالتوحيد، والشيء نفسه بالنسبة لموضوع ضرورة الاعتماد على الله [سبحانه تعالى]. ونحن نتساءل ، ما مدى الاختلاف الذى كان يمكن أن يحدث لو أن محمداً [ﷺ] قد بدأ دعوته من المدينة مثلا أو أى مكان آخر ؟ وليس من المرجح إطلاقًا وجود علاقة قوية بين العوامل الإيجابية التى أدت لظهور نبى فى بلاد العرب وبين إدراك محمد الداخلي وشعوره برسالته(**). إن الأنبياء هم ورثة التقاليد النبوية، وليسوا ورثة للعادات الاجتماعية المختصة بعلم الاجتماع التى ترى المجتمع من خارجه(٥) (***).

وإذا تركنا القرآن [الكريم] جانبًا، فإلى أى مدى أثبتت الرواية التشخيص الذى قدمه وات ؟ والرأى القائل بأنهم كانوا كفرة وأعداء للإسلام، واتهام المكيين بإهمال ذوى القربى ومن يرتبطون معهم بصلات الحماية، إضافة إلى محاولة الأقوياء التهام الضعفاء(٦). ولكن الرأى القائل بأنهم هم أصل المسلمين قد أثنى على الانسجام بين العلاقات التى كانت قائمة بينهم(٧). إن السلوك التجارى بالتحديد يفترض وجود تعاون متميز بين الأغنياء والفقراء، حقيقة إنه مع مرور الوقت على ظهور الإسلام لم يعد هناك

(*) إن تأكيد القرآن الكريم على عمل الخير لا يتعارض مع الكرم، ثم ما الرابطة بين ضرورة الاعتماد على الله سبحانه ووجود منابع جديدة للثروة ، إن الافتراض بأن أهل مكة أصبحوا يقدسون مبادئ جديدة لمنابع الثروة ، هو قول فيه مبالغة ، حيث اتسم بالتداخل والخلط بين فكر العالم الحديث والمعاصر وبين فكر القرن السابع الميلادى . (المترجمة)

(**) إن تساؤل كرون عن مدى الاختلاف الذى كان يمكن أن يحدث لو أن محمدا (ﷺ) قد بدأ دعوته من المدينة مثلا أو من أى مكان آخر؟ هو تساؤل في غير محله، لأن القاعدة العامة فى البحث التاريخى أن الباحث يقوم بتحليل الأحداث التى وقعت فعلا، ولا مجال للافتراض بتغيير وقائعها وأحداثها ، وهو أمر يعد من بديهات عمل المؤرخ، ولسنا فى حاجة إلى التأكيد بأن مثل هذه الافتراضات الخيالية تقود المؤرخ إلى سلسلة لا تنقطع من التخمينات الخاطئة . كأن يقال مثلا لو لم يولد هتلر ، لما قامت الحرب العالمية الثانية ، ولما أصاب اليهود ما أصابهم ، ولما راح ضحيتها خمسون مليونا من البشر وهكذا . (المترجمة)

(***) الحاشية رقم (٥) المذكورة فى ص ٢٣٢ من كتاب كرون سقطت ولم يوضع رقمها في المكان الخاص بها مع احتفاظها بالمرجع فى حاشية الصفحة . (المترجمة)

وجود لأى فقراء(*)[٨] إن كلا من الرأيين السابقين للرواية عبارة عن تفسير دينى ولا يقدمان وقائع تاريخية. وإذا تتبعنا الصورة العامة التى تقدمها الرواية، فهذا يعنى أن تشخيص وات قد جانبه الصواب. وإذا قمنا بتفسير الوضع من الناحية الاجتماعية فإن الحماية التي استمدها محمد [ﷺ] من قومه أولاً وهو يتيم وثانيًا وهو نبي تدل على أن النظام القبلى كان لا يزال هو النظام السائد كما ذكر وات نفسه، مضيفا إلى ذلك قوله أن حقوق الأجانب المتحالفين في مكة كانت تشير إلى الوضع نفسه[٩]. لقد كان الوضع كما ذكره أبو سفيان في أن محمداً هو الذى مزق صلات القربى بدعوته(**)[١٠]. ومن وجهة النظر الأخلاقية : كان الكرم الذى مارسوه يعد من فضائل التقاليد العربية، كما أن رجلاً ثريا مثل عبد الله بن جدعان كان سيصاب بالذهول عندما يعلم أن كرمه سوف ينظر إليه بازدراء في الصحراء[١١].

(*) توحى الباحثة هنا للقارئ بأن المصادر الإسلامية تقدم صورتين متناقضتين عن أهل مكة، فهم عندما يوصفون بأنهم كفرة وأعداء للإسلام ، يتهمون بإهمال ذوى القربى ... إلخ، وفى المرة الثانية عندما يذكر أنهم هم أصل المسلمين يتم الثناء على الانسجام فى العلاقات التى كانت قائمة بينهم . وقامت بإحالة القارئ إلى المصدر المذكور في الفصل التاسع فى الحاشية رقم (٩) ، وبالرجوع إلى المصدر وهو تفسير ابن كثير نجده يتحدث عن رحلة الشتاء والصيف وتفسير كلمة الإيلاف ، وإحدى معانى الكلمة ألف. ومما لا شك فيه أن العلاقة بين أفراد القافلة التجارية الذين يتعايشون معا لشهور طويلة لابد من أن يسودها نوع من الألفة والانسجام ، ولكن هذا النوع من الانسجام لا ينسحب بالضرورة على جميع أفراد المجتمع. وعلى هذا يكون المصدر المشار إليه في غير موضعه من جهة، ومن جهة أخرى فإن التناقض الذى توحى بوجوده في المصادر الإسلامية لا وجود له أصلا . (المترجمة)

(**) استخدم الكفار فى حربهم الشرسة ضد الرسول ﷺ كل الوسائل فى محاولتهم المستميتة للقضاء على دعوته ، ومنها ما ادعاه أبو سفيان وردّدته عنه كرون من أنه "هو الذى مزق صلات القربى بدعوته" ، ولكنها أغفلت وصف جعفر بن أبى طالب وشرحه للأوضاع فى مكة قبل الإسلام أثناء مقابلته مع النجاشى عندما أرسلت إليه قريش كل من عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص لكى يرد عليهم المسلمين الذين لجئوا إلى بلاده، وقال له جعفر بن أبى طالب فى شرحه لأوضاع العرب في مكة قبل الإسلام: "كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف ، حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وأباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئا ..." ابن هشام ، ج١، ص٣٣٦ . (المترجمة)

ومن ناحية وجهة النظر الدينية ، وُصف أهل مكة بأنهم قوم متعصبون لمعبدهم الوثني الذى خصص لعبادة عدد من الآلهة، التى كانوا يقسمون بها ويطلقون أسماءها على أبنائهم وكانوا يأخذونها معهم فى معركتهم ضد المسلمين. وفسر وات watt انتهاكهم للحرم خلال حرب الفجار بأن ذلك كان "علامة على قرب انهيار عقيدتهم"(١٢) ولكن من الواضح أن الأماكن والشهور المقدسة كان يحدث انتهاك لها من حين لآخر: لقد انتهك محمد [ﷺ] الشهر الحرام دون أن يفقد أحد الإيمان به(١٣) ولو كان المكيون قد نظروا إلى هذا الانتهاك على أنه أمر لا اعتراض عليه، لكانوا أطلقوا على هذه الحرب اسم حرب الفجار(*)(١٤). أما أنهم كانوا يحملون معهم آلهتهم الوثنية فى المعركة فإن هذا لا يعنى "أن بقايا العقيدة الوثنية فى العربية قد وصلت إلى مرحلة الشعوذة"(١٥) : ويمكن أن نقول الشىء نفسه على ما حدث فى معركة صفين عندما قام الجنود بحمل القرآن [الكريم] معهم أو الصليبيون الذين ارتدوا الصليب، إننا يمكن أن نفسر قيامهم بهذا العمل نتيجة لحماستهم. لقد سلم وات بوجود معارضة لمحمد [ﷺ]

(*) لم توضح كرون للقارئ كيف ومتى ولماذا انتهك الشهر الحرام ؟ لكنها ادعت أن محمداً [ﷺ] هو الذى قام بذلك حتى تدفع القارئ إلى الظن بحدوث ذلك مراراً، وتفصيل الواقعة التى انتهك فيها عبد الله ابن جحش قائد سرية صفوان (بدر الثانية) الشهر الحرام وليس الرسول ﷺ هى على النحو التالى : عندما أرسل الرسول (ﷺ) عبد الله بن جحش فى رجب مع ثمانية من المهاجرين وتقابل مع عير قريش بنخلة ، ترددوا فى الاشتباك معهم لأنهم كانوا فى الشهر الحرام ، وتشاور القوم فيما بينهم ، وكان ذلك فى آخر يوم من رجب (فى السنة الثانية من الهجرة) فقال القوم "والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم ، فليمتنعن منكم به ولئن قتلتموهم لتقتلنهم فى الشهر الحرام" ، ثم تشجع القوم وأجمعوا على قتل من قدروا عليه ، وتمكنوا من قتل ابن الحضرمى ، وأسروا اثنين من الكفار، واستولوا على العير. وعندما قدموا على الرسول ﷺ فى المدينة : قال "ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام" . فوقف العير والأسيرين. وأبى أن يأخذ من ذلك شيئًا ، وخاف القوم وظنوا أنهم هلكوا ، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا . وقالت قريش "قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدماء ، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال؛ فقال من يرد عليهم من المسلمين ممن كان بمكة: إنما أصابوا ما أصابوا فى شعبان . وقال يهود- تفاولُ بذلك على رسول الله ﷺ - عمرو بن الحضرمى قتله واقد بن عبد الله ، عمرو، عمرت الحرب؛ والحضرمى، حضرت الحرب، وواقد بن عبد الله، وقدت الحرب. فجعل الله ذلك عليهم لا لهم. ثم نزلت آيات الله تعالى فى قوله فى سورة البقرة الآية ٢١٧ ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ﴾ . فلما نزل القرآن بهذا الأمر وفرَّج الله تعالى عن المسلمين ما كانوا فيه من الشفق قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين . ابن هشام ، السيرة ، ج١، ص٦٠١-٦٠٤ . وراجع أيضاً حاشية الترجمة ص٣٧٢ .

فى مكة ممثلة فى جماعات صغيرة ربما أولئك الذين كانوا يقومون بأداء طقوس دينية معينة وكانوا يؤمنون بها لدرجة كبيرة إلى حد ما(١٦) ولكن ذلك الاعتقاد الكبير إلى حد ما الذى كانت تؤمن به جماعات صغيرة والذى يمكن أن يكون له طقوس معينة متناثرة [هل](*) يمكن أن يقدم شرحًا وافيًا لضخامة تلك المعارضة التى أثارها؟!

فى الحقيقة إن الرواية لا تشير إلى وجود هذا الخلل فى الحياة الدينية أو الاجتماعية أو الأخلاقية بل على العكس من ذلك، فقد وُصِفَ المكيون بأنهم بلغوا ذروة النجاح(**). إن تفسير وات لهذا النجاح من أنه أدى إلى ظهور الزهد وعدم المبالاة جاء نتيجة لأنه كان يرى التاريخ الإسلامى بعين المسلمين. ولا يرجع السبب فى الفساد الأخلاقى الذى ظهر به أهل مكة فى المصادر لحدوث انهيار فى حياتهم التقليدية، لأنها كانت تؤدى وظائفها على أحسن وجه : وفضل أهل مكة حياتهم التقليدية على الإسلام ولهذا السبب عاقبتهم المصادر، واتهموا كل فرد يمارس هذا النوع من الحياة بأنه عديم المبالاة، ولا خلاق له ومنافق ، وكان أبو سفيان لا يستطيع أن يقسم بأحد الآلهة الوثنية بدون أن يشعر القارئ بالنفور التلقائى منه، لأنه يدرك من خلال مصادره أن الشخص الذى يقسم كذبا بإله هو شخص لا يؤمن بأى شيء(***).

(*) يبدو أن أداة الاستفهام "هل" how سقطت من الجملة الأصلية، لذلك قمت بوضعها لتتناسق مع السياق. (المترجمة)

(**) لم تذكر لنا كرون تحديداً ما المقصود من القول أن "أهل مكة بلغوا ذروة النجاح" ؟ هل تقصد بذلك النجاح فى الميدان التجارى نتيجة لما حققوه من ثروات طائلة فيها وهو الأمر الذى سبق ورفضته خلال بحثها من أوله إلى نهايته ! أم تقصد النجاح فى جميع مجالات الحياة الاجتماعية والدينية والاقتصادية وإذا كان الأمر كذلك فلماذا أحجمت عن تقديم مصدرها على ذلك ؟ أما قولها بأن أهل مكة فضلوا حياتهم التقليدية على الإسلام ، فهو قول يجنح إلى المبالغة ، لأنها تغفل الأعداد الغفيرة التى دخلت فى الإسلام تباعًا على الرغم من أن الكفار لم يتركوا وسيلة إلا ولجئوا إليها لمحاولة منع ذلك إلا أنهم أخفقوا إخفاقا شديداً . وعن هذه الأعداد الغفيرة من الذين دخلوا فى الإسلام من كافة مستويات أهل مكة راجع ابن هشام، ج١، ص٢٣٧، ٢٤٥، ٢٤٧ ، ٢٦٢، ٣٣٠، ٣٣٢، ٣٧٤، وما يليها . وذكر ابن إسحاق : ثم دخل الناس في الإسلام أرتالاً من الرجال والنساء، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة، وتُحدثَ به" وذلك فى مرحلة الدعوة سراً للدين الإسلامى . راجع ابن هشام، ج١، ص٢٦٢ (المترجمة)

(***) ومما لا شك فيه أن مجتمع مكة امتلأت أركانه بكثير من أوجه الخلل الاجتماعى والاقتصادى والدينى وقد سبق ولخصها جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه فى حديثه لنجاشى الحبشة . ولا شك فى أن رواج تجارة مكة التى لا تعترف بها كرون ، والتى سبق وأثبتنا وجودها ، كانت من أهم أسباب هذا الخلل ، حيث نتج عنها ثروات شخصية ضخمة ، أدت إلى زيادة الفوارق بين الأغنياء والفقراء، وزادت من جشع الأغنياء، فاستولى الأقوياء من زعماء القبائل وبطونها على ميراث الأرامل والضعفاء . (المترجمة)

ثالثا : لقد فشل بحث وات فى أن يقدم الأسباب التى أدت إلى أن رسالة محمد [ﷺ] كان قبولها فى المدينة أكبر من قبولها فى مكة(١٧)، كان محمد فى مكة مجرد مدعٍ للنبوة، وإذا قدر له أن يظل مقيما فيها، فإنه كان سيظل كذلك(*). مما يجعلنا نفهم السبب فى غياب الأدلة الخاصة بالمشكلة فى مكة بوجه عام: وإذا كان محمد نفسه يدرك أن عبادة الله كانت بمثابة الطبعة الزرقاء(**) للإصلاح الاجتماعى والأخلاقى فى مكة لحاول أن يقوم بتغييرها لشيء آخر. كان هناك سوق لدعوى التوحيد فى خارج مكة،

(*) ترجع الأسباب التى أدت إلى أن رسالة محمد (ﷺ) كان قبولها فى المدينة أكبر من قبولها فى مكة إلى العوامل التالية :

أولاً: كانت الخلافات مستعرة بين الأوس والخزرج ، وكثيراً ما نفخ اليهود في نيرانها لتزداد اشتعالا فيما بينهم ، ولذلك كانت الأوس والخزرج تصبو إلى أن تنتهى هذه الخلافات بصفة دائمة، وليست بصورة مؤقتة كما كان يحدث بين حين وآخر.

ثانياً: كان مجتمع المدينة مهيأ لقبول دعوة الرسول (ﷺ) بسبب وجود اليهود بينهم ، فقد اعتاد اليهود عندما كان يثور النزاع بينهم وبين الأوس والخزرج أن يقولوا لهم "قد قارب زمان نبى يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم" ، راجع السيرة لابن هشام ، ج١، ص. ٢١١ وروى ابن إسحاق عن عبد الله بن سلام وكان حبراً عالماً من أحبار اليهود قال " لما سمعت برسول الله (ﷺ) عرفت صفته واسمه وزمانه الذى كنا نتوكف (نترقب ونتوقع) له ، فكنت مُسراً لذلك، صامتا عليه ، حتى قدم رسول الله (ﷺ) المدينة ، فلما نزل بقباء ، فى بنى عمرو بن عوف، أقبل رجل حتى أخبر بقدومه وأنا على رأس نخلة لى أعمل فيها ، وعمتى خالدة بنت الحارث تحتى جالسة ، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله (ﷺ) كبَّرتُ، فقالت لى عمتى ، حين سمعت تكبيرى: خيبك الله، والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادما ما زدت ، قال : فقلت لها : أى عمة ، هو والله أخو موسى بن عمران ، وعلى دينه، بعث بما بعث به . قال : فقالت : أى ابن أخى؛ أهو النبى الذى كنا نخبر أنه بعث مع نفس الساعة؟ قال : فقلت لها نعم، فقالت : فذاك إذن . قال : ثم خرجت إلى رسول الله (ﷺ) فأسلمت !! ابن هشام ، السيرة ،ج١، ص. ٥١٧ وعن إقرار أعداد كبيرة من اليهود بتعرفهم على الرسول (صلوات الله عليه وسلامه) من صفاته راجع، المرجع السابق، ص٤٢٨، ص٥١٨ .

ثالثاً: كان للرسول ﷺ صلة رحم بالمدينة ، فوالدته آمنة بنت وهب من بنى النجار . أى أنه لم يكن غريباً عن المدينة ، بل كان يربطه بها صلة ونسب. إضافة إلى أن مجتمع المدينة كان أقل ثراءً من مجتمع قريش فى مكة ، والتى حقد فيها كثير من أثريائها على نزول الرسالة على الرسول (ﷺ) وليس على أحد منهم (راجع التعليق ص٣١٢)، إلى جانب أنهم خشوا أن يزعزع الإسلام مكانتهم نظراً لدعوته فى المساواة بين البشر جميعاً بصرف النظر عن اللون أو الجنس أو الثروة ، لأن المقياس الوحيد للتفرقة بين البشر هو فى تقوى الله سبحانه وتعالى، وهالهم دخول عبيدهم فى الإسلام بأعداد كبيرة . من هنا جاءت مقاومتهم للرسول والإسلام ، وكان قبول دعوته فى المدينة أسرع من قبولها فى مكة . (المترجمة)

(**) ربما تقصد كرون بالطبعة الزرقاء blueprint :صورة طبق الأصل . (المترجمة)

فى المدينة أولا، ثم بعد ذلك فى مناطق أخرى من بلاد العرب: وكان لابد من هزيمة مكة قبل أن تتحول للإسلام. وهذا يعنى أن المشاكل التى كانت تواجه كل من أهل المدينة والعرب الآخرين والتى قدمت دعوى محمد [ﷺ] الحلول لها استثنى منها أهل مكة. وباختصار فإن هذه المشاكل لم يكن لها ارتباط بتجارة مكة.

ألم يكن ذلك أمراً مثيراً للدهشة ؟ وفى الختام فإن البحث الذى قدمه وات قد هاج وماج ثم انتهى إلى رأى يتمثل فى أن المدينة التى تقع فى ركن من بلاد العرب وكانت تعانى من بعض المشاكل الاجتماعية قد استجاب لها أحد المبشرين بإيجاد نظام دينى لها. يبدو أن هذا القول مبالغ فيه بعض الشىء. فلماذا أدت الطبعة الزرقاء للإصلاح الاجتماعى فى مكة إلى الانفجار الذى عم جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية ؟ من الواضح أننا يجب أن نركز الأضواء على الأوضاع التى كانت تعم بلاد العرب، وليس فقط تلك التى كانت خاصة بمكة، وكلما نظرنا إلى الأوضاع فى مكة على أنها كانت غير عادية، قادنا ذلك لإيجاد عوامل غير متصلة لتفسير ظهور الإسلام.

لقد كان وات يدرك تماماً حاجته لشرح أسباب نجاح رسالة محمد [ﷺ] خارج مكة، ولكن لأنه قام بربط أصولها بتجارة مكة، فإنه اضطر إلى وضع مجموعة ثانية من العوامل لكى يظهر نجاحه فى المدينة، ثم قام باختيار الأسباب التى نجمت عن التحول للحياة المستقرة فى المدينة ، ثم كان محتاجاً لمجموعة ثالثة من العوامل ليفسر بها أسباب انتشار دعوته فى كل بلاد العرب، وهنا قام باختيار الأسباب الروحية العامة: "حيث نما الوعى بإمكانية وجود الفرد منفصلاً عن القبيلة، حتى لو أدى ذلك إلى وضع حد لحياة الفرد بالموت. فما مصير الإنسان النهائى ؟ هل يعد الموت نهاية كل شىء"[١٨] ؟

وعلى أى حال فإن التغيرات والتحولات المذكورة هى من صنع وات نفسه. فإذا نظرنا إلى الخلافات التى كان على أهل المدينة أن يتواءموا معها، فإنها لم تأت نتيجة للتحول لحياة الاستقرار، ولكنها نبعت بوضوح من الحياة المستقرة بصفة عامة، ومن الخطأ النظر إلى نظام القبيلة على أنه نظام يميز البدو الرحل والمستقرين وإنه

يؤدى بالضرورة لوجود تغير فى شكل التنظيمات والمعايير والمعتقدات[١٩]. إن الشعوب المستقرة لدول قبل البترول في بلاد العرب كان نظامها قبليا مثل البدو، وكانت لديهم نفس المعايير والمعتقدات؛ وإن حياة كل من المستقرين والبدو الرحل كانت أنموذجا لممارسة الحياة في ظروف عدم وجود دولة. كان وات محقا في قوله بأن حياة الاستقرار تستلزم بالضرورة حاجة أكبر لوجود السلطة[٢٠] ولكن الحاجة لوجود الأساس لبناء دولة مستقرة والمحافظة عليها لم يكن أمرًا متاحًا. وترتيبًا على ما سبق، فإن العرب المستقرين كان يجتاحهم الخلافات والمنازعات، وهو الشيء الذى كان يميز المدينة فى القرن السادس، وهو الشيء نفسه الذى كان يميز المجتمعات العربية الأخرى بما فيها المدينة حتى القرن الثامن عشر[٢١] إن هذه الخلافات التى كانت بمثابة ظاهرة دائمة تميز التاريخ العربى والتى لم تكن نتيجه التغير هى التى قدم محمد [ﷺ] حلا لها، وكان الحل جديداً، يعتمد على فكرة الحق الإلهى لنظام الدولة، وكانت هذه الدولة هى دولة محمد، وليست الطبعة الزرقاء لإصلاحه الاجتماعى، هذه الدولة التى كان لها أثر بالغ فى بقية أنحاء بلاد العرب.

أما بخصوص المشكلة الروحية، فلم يظهر ما يفهم منه أية إشارة لوجود هذه المشكلة فى بلاد العرب فى القرن السادس(*). ولم نشعر من خلال ترجمة سيرة محمد [ﷺ]

(*) كانت هناك مشكلة روحية في بلاد العرب فى القرن السادس والدليل على ذلك أن المصادر تذكر عددا من العرب الذين فارقوا دين آبائهم ومنهم عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف وشيبة بن ربيعة بن عبد شمس وكان يتحنف بحراء، وورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وأبو أمية بن المغيرة ، والحارث بن عبيد المخزوميان، وزيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى العدوى، وكان يتحنف بحراء ولا يأكل ما يذبح للأصنام ، وعامر بن حذيم الجمحى ، وعبد الله بن جدعان التميمى، ومقيس بن قيس بن عدى السهمى، وعثمان بن عفان رضى الله عنه بن أبى العاص بن أمية، والوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وولده هاشم. (راجع، ابن حبيب، المنمق، ص٥٣١، ٥٣٢).
ودان أغلب هؤلاء بالحنفية ، وذكر القرآن الكريم صراحة أن الحنفاء لم يكونوا يهودا ولا نصارى، وإنما كانوا موحدين على ملة إبراهيم عليه السلام ، وورد فى الذكر الحكيم فى سورة البقرة (الآية ١٣٥) قول الله عز وجل ﴿ قَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ وقال تعالى في سورة آل عمران ، الآية ٦٧ ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾
=

وجوداً لموضوعات دارت حولها الأسئلة التى وجدت خلالها. وبدلاً من ذلك كان هناك شعور قوى نحو نشأة السلالات البشرية. إن رسالة هذه الشخصية تدل على أن العرب الذين وجدوا فى شبه الجزيرة من تاريخ طويل، منذ عهد إبراهيم [عليه السلام]، قد تم توحيدهم أخيراً فى دولة، وأن محمداً لم يكن مصلحًا اجتماعيًا، كما لم يضع حلولا لمشاكلهم الروحية، بل لقد كان خالقا لشعب.

إن النبض الذى يقف خلف محاولة وات لتفسير وجود تغييرات اجتماعية ومشاكل روحية فى بلاد العرب، ينبع من تصوره أن العقيدة تصنع الحقائق الأساسية حول الكون ومعنى الحياة: ما مصير الإنسان ؟ وهل يعد الموت نهاية كل شىء ؟ وعندما تصور العقيدة على هذا النحو، فإنها تستطيع أن تحدث تغييرات جوهرية فى طريقة حياة الشعب وتبشر بأنهم سوف يهجرون معتقداتهم. ويصاحب هذه العملية نوبات من يقظة الضمير والألم النفسى(*). وإذا ادعينا أن العـــرب قبل الإسلام اشتركوا فى هـــذا التصور للعقيدة، التى نبـــع منهـــــا ذلك الانتشار السريع للإسلام فى

= وكان هؤلاء الحنفاء هم البشير الذى عبر بعمق عن حاجات مجتمعهم الدينية والاجتماعية والسياسية وهى الحاجات التى كتب للإسلام أن يُلبى جميعها . وكان شعر أمية بن أبى الصلت عن الحساب والثواب والعقاب والجنة والنار أبلغ بيان للمعاناة التي عانى منها الحنفاء حتى جاء الإسلام . وكان مسلك عثمان ابن مظعون والمتبتلين ووكيع بن سلمة الإيادى وغيرهم إعلانا لهذا النزوع إلى الدين الجديد الذى بدت الجزيرة العربية كأنها تحس بوشوك ظهوره، دون أن تعرف تمامًا متى وكيف سيظهر" راجع ، سحاب، مرجع سابق ص٢٧٦ وما بعدها ، وعن الحنفاء راجع : ابن هشام ، السيرة ، ج١، ص٢٢٢ وما بعدها؛ وعن الشعر المنسوب إلى أمية بن أبى الصلت، مرجع سابق ص٢٢٧، ٢٢٨؛ ابن حبيب ، المحبر، ص١٣٦ . (المترجمة)

(*) لا شك فى أن العقيدة تضع الحقائق الأساسية حول معنى الكون والحياة، ولذلك تحدث تغيرات جوهرية فى طريقة حياة الشعب وتبشر بأنهم سوف يهجرون معتقداتهم . ويصاحب هذه العملية نوبات من يقظة الضمير والألم النفسى. ولا شك فى أن العرب بعد اعتناقهم للإسلام اشتركوا فى هذا التصور، ومنه نبع ذلك الانتشار السريع للإسلام فى الجزيرة وخارجها، ولكن كرون على الرغم من أنها تعرفه وتراه فإنها تحاول إبعاد هذه الحقيقة عن ناظريها. وإضافة لما تقدم فإن العقيدة الإسلامية تضمنت كثيراً من الحقائق العلمية عن الكون، وهى الحقائق التى استغرقت جهود آلاف من العلماء والمئات من السنين ، حتى أمكن العلماء أن يتعرفوا عليها. (المترجمة)

شبه الجزيرة العربية، فإن ذلك يعني ضرورة وجود تغيير جوهري - وهو الذي اقترن عند أغلبنا بتصور لوجود تغيير اجتماعي واقتصادي مصاحبًا للمشكلة الروحية. إن ما نريد القيام به الآن هو تحديد طبيعة تلك المشكلة، ويرجع السبب في ذلك الإعجاب الكبير الذي نالته دارسة وات عن ظهور الإسلام إلى تلك الفكرة التي جاء بها عن التغيير الاجتماعي والاقتصادي الذي كان ضروريا لها، فهو يرى أن المكيين كانوا يتحولون للاقتصاد الرأسمالي ولكنهم فقدوا إيمانهم بالعملية. كيف أتت هذه الشهرة العريضة، إذن كان المكيون يشبهوننا تماما لكي نطبق تجارب مجتمعنا الحديث وتفسيراته على مثل هذا المجتمع المكي المحدود! لا يمكن أن يكون ذلك تفسيرا سليما. ونحن هنا نتساءل عن نوع تلك التغيرات الاجتماعية والاقتصادية، وما نوع المشكلة الروحية التي دفعت باليهود إلى اختيار إلههم يهوه Yahweh ؟ وإلى أي مدى كان التفكير بمصير الإنسان النهائي واقفًا خلف قيام الأيسلنديين باختيار الديانة المسيحية بعد إجراء التصويت عليها في البرلمان؟ من الواضح عدم وجود أية فكرة وراء كل ما تقدم. وينطبق الشيء نفسه بالنسبة للإسلام. لقد نشأ الإسلام في مجتمع قبلي، وأية محاولة لشرح ظهوره ينبغي أن تضع تلك الحقيقة نصب عينيها[٢٢].

ويدور الآن التساؤل حول : ما طبيعة العقيدة في القبيلة العربية ؟ إن النقطة الجوهرية في هذا الموضوع تأتي من أن آلهة القبيلة جاءت نتيجة لملاحظة الظواهر الطبيعية، وليس من ملاحظة الحقائق المتعلقة بطبيعة الوجود ومعناه. وبتحديد أكثر، كانت هناك مصادر نهائية لجميع الظواهر الطبيعية التي كانت لها أهميتها الكبرى في المجتمع البشري، ولكنها تخرج عن نطاق سيطرة الإنسان المباشرة مثل: الأمطار، والخصوبة، والمرض، وخبرة العرافين، وتركيبة المجموعات الاجتماعية، وهكذا دواليك. لقد عبدوا آلهتهم لما تقدمه لهم من خدمات فعلية أرجعوها لارتباطها بهذه الظواهر الطبيعية. وقد لاحظ فيلهاوزن Wellhausen أنهم اختلفوا عن معظم الشعوب في أنهم أطلقوا أسماء على هذه الآلهة وكرسوا لها طقوسا دينية، فبدون هذا الاسم لا يمكن التضرع للمعبود، والهدف الأسمي من تأدية الطقس الديني هو أن يتمكن الإله من

ممارسة قدرته نيابة عن المتعبد له[٢٣](*) وذكر في أحد نقوش القرن الثالث أن المعبود "إلاها" Ilaha يعتبر قبيلة رباط Rubat قبيلة خيِّرة تُقدم على فعل الخير"[٢٤] هذا هو الوضع الذى كان سائدا، حيث لم تكن آلهة القبيلة فى حاجة للحصول على المشاعر أو الحب أو حتى الوفاء بها من قبل أتباعها. وعرفنا من إحدى القصص المشهورة "أن بنى حنيفة كان لديهم معبود فى الجاهلية صنعوه من البلح والسمن، كانوا يقدسونه لفترة طويلة، وعندما ضربتهم المجاعة أكلوه"[٢٥]. وبنفس هذه الروح الفلسفية البرجماتية (العملية) يقوم البدوى فى العصر الحديث بتقديم نذر بأن يعطى نصف ما يحصل عليه من صيد لله. فإذا قام بصيد الحيوانات يأكل نصفه ويترك النصف الآخر لله ثم يرحل، وإذا كان ما يزال جائعًا، فسرعان ما يقفل راجعا وينجح فى سرقة الجزء المخصص لله ويأكله، ويفاخر بأنه فعل ذلك لأن الله لم يستطع المحافظة على نصيبه، بقوله إننى أكلت نصيب الله كما أكلت نصيبى[٢٦]. فإذا كان الجوع قد دفع الرجل القبلى لأن يأكل نصيب إلهه أو يغشه دون إحساس بالندم فهنا يتضح لنا أن الحاجة العملية يمكن أن تدفعه لرفض معبود أو تغييره لمعبود آخر بدون إحساس بتأنيب الضمير: " قدمنا لسعد حتى يستطيع أن يجمع بيننا، ولكن سعداً خيب أملنا، ولذلك لم نستطع أن نفعل شيئا

(*) توحى كرون إلى القارئ بأن العرب كانوا مختلفين عن غيرهم من الشعوب الوثنية فى هذا المجال، على الرغم من أنهم يتساوون فى ذلك مع الإغريق والرومان، بل وفراعنة مصر. فقد عبدوا جميعهم آلهتهم لما تقدمه لهم من خدمات فعلية أرجعوها لهذه الظواهر. فعبد المصريون الشمس لأهميتها فى بلادهم الزراعية فى صورة الإله رع – آمون – آتون. وخصص الإغريق للبحر الإله بوسيدون Poseidon وقاموا بعبادته لأهمية البحر فى حياتهم وارتباطهم به. وبالمثل كان لدى الرومان والفينيقيين وشعوب العالم القديم آلهة أطلقوا عليها أسماء وعبدوها. ولكن تميز المشركون فى شبه الجزيرة العربية بمعرفة أن الله هو الخالق رغم عبادتهم للأصنام. وقد أكد القرآن الكريم على هذه الحقيقة فى كثير من الآيات الكريمة وعلى سبيل المثال التالى: سورة العنكبوت: ٦١، ٦٣؛ لقمان: ٢٥؛ الزمر: ٣٨؛ الزخرف: ٩، ٨٧ وهذا التوحيد كان من بقايا الرسالات السماوية للرسل والأنبياء: "إبراهيم، ويعقوب، ولقمان، وصالح، وهود، وموسى، وعيسى" عليهم جميعًا وعلى نبينا السلام. وقد أكدت الآثار الثمودية معرفتهم "لله الأبتر"، أى الذى لا ولد له، وأقام التدمريون هياكل فى القرن الثالث الميلادى لمن تبارك اسمه إلى الأبد"، وعرف عرب اليمن عبادة الإله "ذى سموى"، وظهرت عبادة الرحمن فى النقوش الحميرية، إضافة إلى أن اسم الله كثيراً ما تردد فى أشعار العرب. وفى جميع النماذج السابقة لم يقرن الله باسم مما يدل على أنه كان إلها واحداً فوق الجميع. راجع؛ سحاب، المرجع السابق، ص٣٧١ وما بعدها. (المترجمة)

لسعد" هذا ما قاله البدوى، عندما أفزع الوثن الجمال وأبعدها عنه(٢٧). وبالطريقة نفسها هجرت قبيلة بأكملها معبوداتها المحلية واعتنقت المسيحية عندما شُفى زعيمها من المرض على يد أحد الرهبان المسيحيين(٢٨)، وعندما عرفت أعداد غفيرة من العرب إمكانيات المسيح الطبية، اختاروا إلهه إلهًا لهم، ولم يكن من الصعب عليهم أن يتحولوا لعبادة إله آخر(٢٩). فالله هو قبل كل شيء ليس أكثر من قوة موجودة، والهدف من التسليم به هو أن يقوم الإله باستخدام قدرته لتأييد خدامه . إن أحد رجال قبيلة طيئ Tiyaha فى العصر الحديث صاح من عذاب الله قائلاً عندما اجتاحه الفيضان " إننى من طيئ، إننى من طيئ، يا إلهى، إذا لم تكن تصدق ذلك، انظر إلى العلامة التى توجد على الجمال"(٣٠). هكذا يتضح لنا أنه إذا كان المعبود غير قادر على إنقاذ أتباعه من الفيضان، كما أنه لم يكن قادراً على حمايتهم من المجاعة، أو أن يحافظ على نصيبه من الصيد، أو أن يقوم بعمل معجزات طبية، هنا يوجد سبب للأكل، وللغش، وللانتهاك ، أو للتشهير، أو لتركه. "ما هما الكلمتان اليسيرتان اللتان طلبتا من دوتى Daughty أن يقولهما فى المحاولات العديدة التى تمت معه لكى يتحول للإسلام والتى قيل له فيهما؛ أعلنهما معنا إنهما لن تسببا لك أى ضرر" . والفكرة الأساسية هى أن المؤمن ينبغى عليه أن يسلم أمره لمعبود، ليكون هو المهيمن الأعلى على حياته، وهى الهيمنة التى لا تتأتى لأحد من البشر، إن هؤلاء الأفراد الذين حاولوا أن يقوموا بتغيير عقيدة دوتى كانوا كما هو واضح يعتنقون الإسلام، على الرغم من أن الإسلام وهو منهج للحق لم يكن له معنى عميق فى نفوسهم(*) : قالوا لدوتى Doughty قم بتغيير عقيدتك، واستقر معنا وسوف نعطيك أشجار نخيل، أو بمعنى آخر لتصبح واحداً منا . إن الله [سبحانه وتعالى] كان بالنسبة لهم مصدر هوية مجتمعهم، وليس للإجابة على الأسئلة المتعلقة بما هو

(*) يلاحظ فى ص٣٩٧-٣٩٩ مدى تخبط كرون ، والقفز من هنا وهناك لالتقاط نقش يرجع للقرن الثالث، ثم تتحدث عن مكة فى القرن السادس، وتنتقل منها لعقد مقارنة مع أعراب الجزيرة فى لقائهم مع الرحالة البريطانى دوتى فى بداية القرن العشرين، ثم تلتقط بعض النماذج الساذجة لبعض البدو البسطاء لتجعلهم حجة ومقياساً على المسلمين . إنها تلتقط حدثا من هنا ، وحدثا من هناك ، وتقوم بتركيب هذه الأجزاء المتنافرة بعضها على بعض لتبرير رأيها الخاطئ بل المغرض الذى تحاول أن تدفع القارئ إلى الأخذ به . (المترجمة)

بعد نهاية الإنسان[٢١]. إن الأعداد الغفيرة من الأفراد الذين حاولوا أن يقوموا بتغيير ديانته ، أو أن يعاقبوه على مسيحيته فى مناسبات أخرى ، كانوا يشبهون أولئك الأفراد الذين لم يعرفوا أبدًا أى شىء عن الإسلام أو لم يهتموا به منهجًا للحق، ولكن لإهانته لهم برفضه الصريح لله الذى يضفى الشرعية على مجتمعهم[٢٢].

والآن حيث إن الآلهة القبلية لم يتضح فيها الاهتمام بالجانب الروحى، كذلك فإنها لم تتدخل بشكل عميق فى حياة الفرد اليومية[٢٣]. كانت بلاد العرب فى العصر القديم (كما هو الحال قبل العصر الحديث) فقيرة فى الأساطير والاحتفالات والشعائر والأعياد بشكل ملحوظ ، واقتصرت الحياة الدينية لديهم على زيارات موسمية يقومون بها للأماكن المقدسة، وللأحجار والأشجار وتقديم الأضاحى واستشارة العرافين، وقام أغلب البدو بتأدية طقوس أقل من الطقوس السابقة[٢٤]. ولم تكن هذه الطقوس مرتبطة بالاعتقاد بآلهة محددة، ويبدو أن الحج السنوى الذى كانوا يقومون به لم يكن يرتبط بإله واحد معين، أما بقية الطقوس فكان يمكن تحويلها من إله لآخر. استمرت مثل هذه الطقوس قائمة عند كل من القبائل المسلمة والمسيحية فى العصر الحديث، وعند استبدال إله بآخر لم يكن هناك حاجة لتغيير الشكل الخارجى أو حتى تغيير فى السلوك، طالما أن الإله الجديد لم يأت معه ببرنامج أخلاقى يخالف ما كانت تعرفه القبائل الرعوية[*]. ومن حيث المبدأ فقد حمل إله المسيحيين معه مثل هذا البرنامج، وعلى الرغم من نشاط المبشرين فى التبشير فى الجزيرة العربية، فهم لم يكونوا فى وضع يمكنهم من معرفة

(*) يُلاحظ على هذه الفقرة الآتى :

أولاً : أن كرون تتحدث هنا فقط عن المسيحيين والمسلمين ولم تذكر شيئًا عن اليهود .

ثانيًا: أن القول باستمرار الطقوس الوثنية لدى القبائل المسلمة والمسيحية فى العصر الحديث هو قول غير صحيح كما أنها لم توضح ما هذه الطقوس!! هل تقصد الحج ؟ إن الحج للكعبة قبل الإسلام كان من بقايا دعوة إبراهيم عليه السلام وإن دخلت عليه بعض مظاهر الوثنية كما أوضحنا فى المقدمة (راجع ص١٤-٢٤)، ولكنه فى الإسلام يعد أحد أركانه الرئيسة. أما زيارة الحجاج المسيحيين للقدس الشريف ، فهذه الزيارة يشترك فيها ليس فقط مسيحو الشرق ولكن جميع المسيحيين فى مختلف أنحاء العالم والمسلمين أيضًا. ولا تعد زيارة المسيحيين للقدس إحدى شعائر الديانة المسيحية ولكنها تمجيداً لنبى الله عيسى عليه السلام . =

مدى التحول الذى تم للمسيحية؛ لأن هذا التحول لم يكن يحتاج لأكثر من هاتين الكلمتين العاديتين. ولكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لإله المسلمين ، بل على العكس

= ثالثًا: أحجمت كرون عن تفسير السبب فى :"فقر بلاد العرب فى الأساطير والاحتفالات بشكل ملحوظ، وأن الحياة الدينية لديهم اقتصرت على زيارات موسمية يقومون بها للأماكن المقدسة". إن السبب الذى أحجمت عن ذكره يرجع إلى أن شبه الجزيرة العربية كانت مهدا لكثير من رسالات الرسل والأنبياء منذ إبراهيم عليه السلام مرورًا بأنبياء الله هود وصالح ولوط ولقمان ويونس عليهم جميعًا السلام . ومنذ رفع إبراهيم عليه السلام القواعد من البيت والعرب يحجون إلى الكعبة ، ويطوفون حول البيت . ويعرفون أن الله سبحانه وتعالى هو خالق الأرض والسموات العُلى. وبمرور الزمن أدخلوا على الحج الإبراهيمى كثيرًا من الضلالات ، وأقاموا فى الكعبة الأوثان التى جلبها عمرو بن لحىّ من الشام. ويرجع السبب فى ضياع كثير من أصول الرسالات السماوية إلى تناقلها شفاهة ، وبتعاقب أجيال الرواة عليها لعشرات من القرون، ضاعت كثير من ملامحها الأساسية وأُدخل عليها كثير من النحت والخيال. ولما كان العرب يعرفون أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق فلم يكن لديهم أساطير مثل تلك التى نسجها الإغريق حول قصة الخلق . أو التى انتشرت مع اليهود نتيجة لطوافهم الدائم والمتصل من مجتمع إلى آخر، ومن قارة إلى أخرى على طول تاريخهم ؛ مما أكسبهم معتقدات وثقافات تلك الشعوب التى عاشروها منذ خروج القبائل الرعوية العبرية من أور الكلدانيين فى دلتا العراق مع بداية الألف الثانية قبل الميلاد ، ونزولهم بادية الشام، ثم دخولهم إلى مصر، ثم نزولهم أرض كنعان – فلسطين – واتصالهم وتعاملهم مع الكنعانيين والأموريين ، وامتصاصهم الدائم لتراث هذه الشعوب. ومنذ اتصالهم ببابل وآشور وفارس منذ الألف الأولى ق.م. أخذوا عنهم أغلب معتقداتهم من السحر والحيوانات الخرافية التى تظهر بوضوح من رؤى دانيال ومراثى إرميا وحزقيال ، وأخذوا من الفرس معتقداتهم عن الملائكة والجن بمعالمها وأسمائها الفارسية والمجوسية إلى جانب ثنائية الفرس عن الخير والشر التى تميز بها التراث المجوسى ، وسط حضارات العالم القديم عامة والتراث السامى بشكل خاص. وعن الكنعانيين الذين يسبقون العبريين فى استيطان فلسطين وصل إليهم تراث حوض البحر المتوسط من الحضارة الهللينية والمصرية القديمة ، وتثبت نقوش المعابد المصرية القديمة بدورها معرفة الحضارة المصرية القديمة لكثير من أسس الديانات السماوية رغم مزجها بكثير من المظاهر الوثنية مثلها فى ذلك مثل عرب الجزيرة العربية ، حيث كانت مصر بدورها مزارا لكثير من الرسل والأنبياء بدءا بإبراهيم أبى الأنبياء ثم يعقوب ويوسف وموسى وعيسى (عليهم جميعًا السلام). يلاحظ أن كرون هنا تنطق بالحق دون وعى عندما قالت أن الإسلام هو منهج للحق .. (ثم أردفت قائلة) . أولئك الأفراد الذين لم يعرفوا أبدًا أى شىء عن الإسلام أو لم يهتموا به منهجا للحق : ص٤٠٠ أعلاه .

رابعًا: إن الادعاء بأن كلا من المسيحية والإسلام لم يأت معهما برنامج أخلاقى ، ولم يُحدثا تغيرًا فى السلوك هو قول مردود عليه ، فإذا لم يكن لدى المسيحيه والإسلام برنامج أخلاقى ، فما محتوى الديانتين السماويتين؟ ولماذا تم هنا أيضًا استثناء الديانة اليهودية ؟!

خامسًا: ما المقصود بنشاط المبشرين فى العربية ؟ المعروف أن الجزيرة العربية تدين أغلبها بالإسلام ، ما عدا جيوب قليلة لليهودية والمسيحية فى اليمن والعراق . والمعروف أنه لا يوجد ثمة نشاط تبشيرى فيها وحتى إذا تسرب إليها عدة أفراد هنا أو هناك فلا يمكن أن يعد هذا التسرب بمثابة نشاط تبشيرى من جهة، ولعمق الإسلام فى قلوب وعقول المؤمنين به من جهة أخرى . (المترجمة)

أشاد الإسلام بالخصائص الأساسية للقبيلة مثل الجهاد والزهو بالأصول الجنسية(*). وبالرغم من نظرة الإسلام المتشككة للبدو فإن امتداد الإسلام إلى منطقة الهلال الخصيب قد أضاف خصائص أخرى بالمقابلة بين صفات المروءة والدين، وبين الشهامة والورع.

وهكذا يتضح أن التحول الكبير للإسلام الذى حدث فى بلاد العرب لا يدل على أنها كانت تعاني من أزمة روحية، أو حدوث تدهور ديني أو انهيار فى العقائد الوثنية(٣٥) ومن ناحية الوصف السلوكى فإن أفضل أجزاء بلاد العرب ظلت وثنية بالفعل حتى القرن التاسع عشر(**). إن التحول الكبير للإسلام يوضح أن إله محمد [ﷺ] استطاع أن يقدم شيئًا مثيراً جداً هنا وهناك. فعندما أخاف سعد Sad (إله العرب الوثنى قبل الإسلام) بعير مَنْ يقوم بعبادته ودفعها للهروب بعيداً عنه، فقد استدل الأخير على أن "سعد ليس إلا مجرد صخرة"(***) لقد ثبت له أن قدرته التى كان من المفروض أن يقوم باستخدامها كانت كاذبة ، ولكن عندما أسس محمد [ﷺ] دعوته استدلوا على

(*) إن قول كرون بأن الإسلام يشيد ويزهو بالأصول الجنسية هو قول مردود عليه ، لأن أحد أسس المجتمع الإسلامى عدم وجود تفرقة بين جنس وآخر، أو بين لون ولون، ولكن المقياس الوحيد فيه الفخر والفضل هو تقوى الله سبحانه وتعالى . وقد وردت هذه الحقيقة الأساسية فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف بطبيعة الحال . وحتى هذه الحقيقة الأساسية نجد كرون تغافلت عنها وتناستها ، بل قلبتها رأسا على عقب . (المترجمة)

(**) إن القول "بأن أفضل أجزاء بلاد العرب ظلت وثنية بالفعل حتى القرن التاسع عشر" هو قول يجافى الحقيقة المعروفة والثابتة التى لا يختلف عليها اثنان . (المترجمة)

(***) قال ابن إسحاق: وكان لبنى ملكان بن كنانة بن خُزيمة بن مُدركة بن الياس بن مضر صنم، يقال له سعد، صخرة بفلاة (ساحل بجدة) من أرضهم طويلة. فأقبل رجل من بنى ملكان بإبل له مؤبلة ليقفها عليه، التماس بركته، فيما زعم، فلما رأته الأبل، كانت مرعية، لا تُركب، وكان يهراق عليه الدماء، نفرت منه، فذهبت فى كل وجه، وغضب ربها الملكاني، فأخذ حجراً فرماه به، ثم قال : لا بارك الله فيك، نفرت على إبلى، ثم خرج فى طلبها حتى جمعها، فلما اجتمعت به قال :

أتينا سعداً ليجمع شملنا فشتتنا سعد فلا نحن من سعد

وهل سعد إلا صخرة بتنوفة من الأرض لا تدعو لغي ولا رشد

التنوفة : القفر من الأرض الذى لا ينبت شيئًا. راجع ابن هشام ، السيرة ، ج١، ص٨١ . (المترجمة)

"أن الله أكبر " وتحول العرب للإسلام؛ لأن الله كان قوة عظمى، أكبر من كل الآلهة التى اندرجت تحت اسم أية عبادة عرفت فى بلاد العرب، إن المشكلة لم تكن فى السهولة واليسر التى تحولوا بها للإسلام ولكن فى الاقتناع به. فماذا كان لدى الله ليقدمه لهم ؟

إن ما قدمه الله هو برنامج لإنشاء أمة والقيام بالفتح : خلق الأمة umma وإعلان الجهاد jihad ، وكان محمد [ﷺ] رسولاً له مهمة سياسية، وليس كما ادعى أنه رسول قدر له أن ينخرط فى السياسة، إن التوحيد الذى دعا إليه أصبح له برنامج سياسي، الأمر الذى يبدو واضحاً ليس من المصادر غير الإسلامية فقط ولكن مما ذكره ابن إسحاق، حيث أخبرنا أن نقطة التحول الكبرى فى حياة محمد [ﷺ]، جاءت عندما قام بمهاجمة آلهة أسلافه من قريش وشهَّر بهم(٣٦) كانت نقطة تحول لأنه بهذا العمل هاجم أهم أسس وجود القبيلة ، وليس بسبب الزعم بأن دعوته للتوحيد كانت تهدد مكانة كعبة مكة أو تجارتها(*)، ومثل هذا العمل كان يؤدى إلى الطرد من القبيلة، أو القتل إذا لم يقم أحد من أفراد قبيلة بحمايته ببسالة وبصفة مستمرة. إن محمداً[ﷺ]، لم يكن أكثر من خارج على الأوضاع المحلية فى ذلك الوقت، وكان يمكن لقريش إن تتسامح مع خروجه عليها ومع العدد القليل من أتباعه، طالما اقتصرت دعوته على الحقائق المجردة للعالم وما بعده. ولكن قريشاً لم تكن مستعدة لأن تتسامح معه فى هجومه على أسلافها. وكانوا محقين فيما يخص الهجوم على السلف: إن الإنسان الذى يدمر القواعد الأساسية التى يقوم عليها مجتمعه يعد خائناً. وأصبح محمد [ﷺ] خائناً دون أن يكون له مجتمع آخر بديل، وعندما هاجم آلهة أسلافه أوضح أن إلهه يتعارض مع الانقسام القبلى الذى كان قائماً لديهم، فهو فى هذا لا يشبه إله

(*) من الحقائق المعروفة أن جميع الرسالات السماوية واجهت فى بدايتها معارضة كبيرة ضدها، لأن تغيير العقيدة ليس بالأمر الهين على الإنسان، لأنها تعنى إلغاء ميراثه الفكرى واستبدال به آخر جديد وغريب عنه. وتزداد ضراوة المقاومة مع زيادة ما يفقده الإنسان من مزايا مادية أو معنوية نتيجة لمساواة الرسالات بين البشر . لقد واجهت جميع الرسالات السماوية هذه المعارضة الشديدة ، فقد كذَّبَ قومُ نوح وإبراهيم وصالح وهود أنبياءهم ؛ وكذب اليهود عيسى عليه السلام وهو منهم وتآمروا عليه فى محاولة منهم لقتله، فلماذا يستثنى من هذا الأمر قوم محمد ﷺ فى مكة؟ إضافة إلى ذلك فكيف أن الإسلام كان يهدد مكانه بيت مكة، والحج إليه هو الركن الخامس فى الإسلام لمن استطاع إليه سبيلاً. (المترجمة)

المسيحيين، لأنه كان إلهًا واحدًا وفى الوقت نفسه كان إله أسلافهم. لقد كان الله هو إله إبراهيم، جد العرب الواحد والوحيد، والمعروف أن مجموعات القبائل تشكلت من الناحية التقليدية حول آلهة السف، وهذا يعنى أن جميع العرب ينبغى أن يتجمعوا حول الله وحول الله فقط، لأن جميع آلهة السلف التى عُبدت فى الأنحاء المختلفة هى آلهة زائفة. وإذا قبلنا ما ذكرته الرواية التقليدية عن حياة محمد [ﷺ]، فقد عدوه مثيرًا للفتن السياسة فى مكة، لذلك قام بتقديم نفسه للقبائل الأخرى. وسأل أحد الرجال محمدًا قائلاً له : "هل إذا أخلصنا لك ونصرك الله على أعدائك، هل سيكون لنا الأمر من بعدك ؟" إن هذا الرجل كان يدرك تمام الإدراك أن قبول دعوة محمد كان يعنى قبوله حاكمًا لديه خطة طموحة[٢٧]، كان الأمر على هذا النحو فى المدينة، وليس لكونه رجلاً له اهتمام كبير بأمور حياة الآخرة(*).

(*) من الملاحظ أن كرون قبلت ما تذكره الرواية التقليدية – التى سبق واعترفت بفسادها– لأنها هنا تتفق مع ما تريد أن تقوله للقارئ. إضافة إلى محاولتها تصوير الرسول (ﷺ) على أنه كان يهدف لإقامة دولة وليس لنشر عقيدة . ونجدها تغفل عما ذكره الرسول (ﷺ) لعمه أبى طالب عندما حاول أن يثنيه عن دعوته بإيعاز من سادة قريش قائلاً له : "يا عم ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ما تركته" ابن هشام ، ج١، ص٢٦٦ .
وما يذكره ابن إسحاق عندما قام عُتبة بن ربيعة - وكان سيداً فى قومه – بموافقة قريش بلقاء الرسول (ﷺ) ليعرض عليه بعض العروض ليختار واحدة منها نظير ترك أمر الرسالة وقال له:" إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد ملكًا ملكناك علينا؛ وإن كان هذا الذى يأتيك رؤيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع- الجن- على المرء حتى يداوى منه ..." إلى آخر ما ذكره ابن هشام ، السيرة، ج١، ص,٢٨٩ لقد سقط القناع الذى توارت خلفه كرون كثيراً ، وأطلقت العنان للتنفيس عن كراهيتها للإسلام والمسلمين، فهى تحاول بكل الطرق التى وضحت هنا دون مواربة، والتى حاولت طوال بحثها أن تسربها للقارئ الغربى فى أن تصور رسولنا محمداً (ﷺ) كرجل دولة له خطة سياسية طموحة، دون أن يكون له اهتمام بأمور حياة الآخرة ، وتحاول بكل ما أوتيت من ذكاء وعلم أن تطمس ما هو واضح وثابت من أن كتاب الله الكريم أساسه العقيدة والتشريع لبناء مجتمع سليم فى كافة جوانبه الروحية والمادية ، مستغلة فى ذلك جهل القارئ الغربى بالمعلومات الصحيحة عن العقيدة الإسلامية. إن محمد (ﷺ) هو رسول الله سبحانه ونبيه الخاتم الذى بعثه الله سبحانه وتعالى رحمة للعالمين . وعن هذا الموضوع راجع: محمد عبد الله محمد الأمين : الاستشراق فى السيرة النبوية، دراسة تاريخية لآراء (وات- بروكلمان- فيلهاوزن) مقارنة بالرؤية الإسلامية، فرجينيا، ١٤١٧-١٩٩٧ . (المترجمة)

إن الافتراض بأن مجتمع المدينة، كان ممزقًا بالخلافات، وأنه قاوم إتمام توحيده على يد الملوك السابقين، لا يجعل من الصعب علينا أن نفسر لماذا سيختار أهل المدينة القيام بتجربة برنامج محمد السياسي، وحيث إن بلاد العرب لم يسبق توحيدها سياسيا من قبل، وأنها لن تكون كذلك مرة أخرى، فلاشك فى أن نجاحه وخلفاءه فى تحقيق هذه الوحدة يعد معجزة. ولنا أن نتساءل : لماذا جذب شكل الدولة ووحدتها أنظار العرب فى عهد محمد [ﷺ] ؟[٣٨]

جرت العادة على إقحام موضوع تجارة مكة، عند الإجابة على مثل هذا السؤال، وذكروا أن قريشًا كانت قد استطاعت بالفعل أن توحد أغلب بلاد العرب، حيث رأت قبائل عديدة أن من مصلحتها أن تلحق بركاب تجارة مكة، إلى جانب المحافظة على بيتها المقدس، ولما كانت مصالح مكة والعرب قد اتحدت، فإن فتح محمد [ﷺ] لمكة كان يعنى فتحه لأغلب بلاد العرب، ثم استكملت عملية التوحيد بعد هزيمة الردة[٣٩] وعلى الرغم من أن هزيمة الردة أكملت عملية الوحدة، إلا إن هذا التفسير غير صحيح. فإذا كانت مصالح المكيين والعرب قد اتفقت بصفة عامة، فلماذا فشل العرب فى تقديم المساعدة لمكة خلال فترة كفاحها ضد محمد [ﷺ] ؟ إنهم لو قدموا لها تلك المساعدة، لقضى على دولة محمد عندما كانت لا تزال فى مهدها فى المدينة، وإذا كان العكس صحيحًا، وأسعدهم ترك مكة تقف فى مواجهة محمد بمفردها، فلماذا ترددوا فى التحول لاعتناق الإسلام بعد سقوطها(*)؟ إن فكرة توحيد بلاد العرب على يد المكيين

(*) تذكر كرون " أن القول بأن مصالح مكة والعرب قد اتحدت هو قول غير دقيق وقد رددنا على مزاعمها خلال ملاحظاتنا السابقة وأثبتنا أن الوضع كان غير ذلك . حيث توافقت مصالح مكة الاقتصادية مع القبائل التى كانت مشتركة على طريق مواصلات إيلافها وعززت هذه المصالح المشتركة الروابط الاجتماعية فيما بينهم ، والتى تنامت مع زياراتهم المتكررة والتقائهم فى الأسواق العربية التى انتشرت على طول الجزيرة وعرضها ، وكان من أهمها المواسم الثلاث : عكاظ وذى المجاز ومجنّة القريبة من مكة، وتوحدت لهجات القبائل العربية وسادت عليها جميعًا لهجة قريش التى أصبح لها مكانتها . ونما الحس المشترك فيما بينهم ، وظهر ذلك واضحًا حين قاتلت القبائل العربية أبرهة الحبشى دفاعا عن كعبة مكة وبيتها الحرام، وأخذت كوامن هذا الحس المشترك تتفاعل فى نفوس العرب ببطء، حتى جاء ميلاده الشرعى مع ظهور الإسلام الذى جاء "ورَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ" (النمل: آية ٧٧) ، أى ليسد حاجة الإنسان الدينية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية. ويرجع السبب فى عدم دعم العرب لقريش أثناء نزاعها – ولا يقال كفاحها – مع الرسول (ﷺ) ، إلى أنه كان يعد نزاعا داخليًا ، لا يحق لأى قبيلة التدخل فيه وخصوصًا أن قريشًا لم تطلب منهم أى مساعدة . (المترجمة)

ترجع في واقع الأمر لابن الكلبي وروايته عن الإيلاف، وهي الرواية التي نسجها رواة القصص. مما لا شك فيه أنه كان يوجد ثمة شعور بالوحدة في العربية، وهذه النقطة على جانب كبير من الأهمية، ولكن هذه الوحدة كانت وحدة عنصرية وثقافية، ولم تكن وحدة اقتصادية، كما أنها لا تدين بشيء لتجارة مكة[٤٠]. ومما لاشك فيه أن نجاح محمد جاء نتيجة لارتباط دعوته بتكوين دولة وبالغزو(*)، فبدون غزو بلاد العرب أولاً

(*) إن القول بأن " نجاح محمد (ﷺ) جاء نتيجة لارتباط دعوته بتكوين دولة وبالغزو "هو قول غير صحيح لعدة أسباب هي على النحو التالي :

أولاً: إن الرسول ﷺ تمكن من تحقيق قدر كبير من النجاح لدعوته رغم اضطهاد الكفار له في مكة، بل لقد "فشا الإسلام بمكة وقريش" كما يذكر لنا ابن هشام ، ج١، ص٤٢٨- ٤٥٤، وذلك قبل أن يأذن الله سبحانه وتعالى له بالقتال.

ثانيًا: كان رسول الله (ﷺ) منذ نزول الوحي عليه وحتى بيعة العقبة الثانية يدعو إلى الله سبحانه وأُمر بالصبر على أذى الكفار والصفح عن الجاهل ، وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه حتى فتنوا بعضهم، وفر آخرون إلى الحبشة ومنهم من فر إلى يثرب (المدينة) . فلما عتتْ قريش على الله عز وجل ، وعذبوا ونفوا من عبده ووحده وصدق نبيه ، واعتصم بدينه، أذن الله سبحانه للرسول (صلوات الله عليه) بقتال من بغى عليهم وذلك في قوله عز وجل ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ ثم أنزل الله تبارك وتعالى عليه : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ أي حتى لا يفتن مؤمن عن دينه ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ أي حتى يعبد الله ، لا يعبد معه غيره .

ثالثًا: إن جميع المعارك التي دخلها الرسول (ﷺ) لم يحدث أن قام فيها بالغزو في أي موقعة سواء بدر أو أحد أو الخندق، فقد كان فيها مدافعا عن الدعوة الإسلامية والمسلمين، ففي غزوة بدر قام الرسول باعتراض قافلة تجارية لكفار قريش لأنهم أخذوا حقوق المسلمين الذين هاجروا من مكة وبذلك أصبحت هناك أموال مستحقة للمسلمين لدى كفار قريش ، وفي معركة أحد حاول كفار مكة بقيادة أبي سفيان مهاجمة المدينة، فكان الرسول ﷺ فيها مدافعًا عن المدينة وكذلك في غزوة الخندق توجهت قوات الأحزاب مع كفار قريش لمهاجمة المدينة وقتل المسلمين . أي أن الرسول (ﷺ) لم يكن غازيًا ولكنه كان مدافعًا .

رابعًا : بعد أن قدر الله لرسول الله ﷺ فتح مكة ودخولها سلما، تقاطرت عليه وفود القبائل العربية من أغلب أنحاء شبه الجزيرة ودخلوا في الإسلام سلما. حقيقة لقد تم فتح بلاد الهلال الخصيب ومصر وشمال أفريقيا، ولكن لم يفرض عليهم الإسلام قهرا، بل دخلوا فيه مختارين . وأخذ الإسلام ينتشر بعد ذلك سلما في ركاب التجارة ووصل إلى الهند والصين وإندونيسيا، وهو الآن يواصل مسيرته في أنحاء العالم الغربي على وجه الخصوص . (راجع: نبيل لوقا بباوي، انتشار الإسلام بحد السيف بين الحقيقة والافتراء، القاهرة، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٢، ص٤٦)، وعلى الرغم من أن المؤلف يدين بالمسيحية على المذهب القبطي ، إلا إنه في هذه الدراسة الجيدة يُعدُّ من أكثر الذين أنصفوا الإسلام . (المترجمة)

ثم بعد ذلك الهلال الخصيب لما أمكن تحقيق وحدة بلاد العرب[٤١]. وليس هناك ثمة أثر لارتباط المصالح التجارية بهذه السياسة، كما لم تلعب الأرستقراطية الحاكمة دوراً في اختيار سياسة الغزو[٤٢] بل على العكس من ذلك، وأبرزت المصادر أن الفتح جاء بديلاً للتجارة وتمثلت مكافأة الفتح في حياة الدعة التي عاشها الحكام، كما وضعت حداً لمعاناة التجار وكدحهم[٤٣] . وإضافة إلى ما تقدم فإنه لا يوجد أي دليل على أن انهيار تجارة مكة أدى إلى "ركود تجاري" نتيجة لحماسة رجال القبائل وقبولهم لهذه السياسية بصفة عامة. ومن المنطق الظن بأن التجارة يمكن لها أن تلعب دوراً في هذا المجال، ولكن ليس هناك داع لمثل هذا الاعتقاد[٤٤]. إذ الدويلات القبلية كان يجب عليها أن تغزو لتتمكن من الحياة. حيث إن أفراد تلك القبائل ورجالها كانوا يعيشون على السلب والنهب، وكانوا بصفة عامة أكثر ميلاً للحروب بدلاً من الكف عنها[٤٥]، وتباهى أحد شعراء قبل الإسلام قائلاً ": كم من سادة وزعماء داستهم أقدام خيولنا ... كنا نمضي للحرب ونعيد الكرة دائماً طالما كان يوجد ما يهددنا". "ذبحنا منهم عدداً مساوياً لقتلانا أخذاً بثأرهم، وحملنا عدداً كبيراً منهم أسرى مكبلين بالأغلال ... وشادت بنا الأيام، لإقدامنا في الحروب الواحدة بعد الأخرى، ولا يستطيع أحد أن يجد فينا عيباً يمكن أن يقلل به من شأننا". وفخر آخر[٤٦] وصرح أحد الذين تحولوا للإسلام قائلاً : "إن سيفي يكاد أن ينثني مرتين عندما أقوم بالطعن به، إنني أُجهْر سيفي المشرفي الحاد على خصمي، إنني أتشوق للموت كناقة فاضت باللبن"[٤٧](*)، إن تسليم مثل هؤلاء الرجال بسياسة

(*) يشرح لنا ابن هشام قصة هذا الشعر بقوله :
قال ابن إسحاق: وإنما نهى رسول الله ﷺ عن قتل أبي البختري لأنه كان أكفَّ القوم عن رسول الله ﷺ وهو بمكة، وكان لا يؤذيه، ولا يبلغه عنه شيء يكرهه، وكان ممن قام في نقض الصحيفة التي كتبت قريش على بني هاشم وبني عبد المطلب، فلقيه المجذر بن زياد البلوي، حليف الأنصار ثم من بني سالم بن عوف، فقال المجذر لأبي البختري، إن رسول الله (ﷺ) قد نهانا عن قتلك (كان ذلك بعد غزوة بدر) – ومع أبي البختري زميل له خرج معه من مكة، وهو جنادة بن مليحة بنت زهير بن الحارث بن أسد، وجنادة رجل من بني ليث. واسم أبي البختري: العاص – قال: وزميلي ؟ فقال له المجذر: لا والله، ما نحن بتاركي زميلك، ما أمرنا رسول الله ﷺ إلا بك وحدك . فقال : لا والله، إذن لأموتن أنا وهو جميعاً، لا تتحدث عني نساء مكة أني تركت زميلي حرصاً على الحياة. فقال أبو البختري حين نازله المجذر وأبى إلا القتال :

لم يسلم ابن حرة زميله ... حتى يموت أو يرى سبيله =

محمد [ﷺ] وأتباعهم له لا تجعلنا فى حاجة لافتراض وجود أى تدهور فى بيئة العرب المادية لتشرح لنا : لماذا وجدت القبائل سياسة الغزو ملائمة لنمط حياتهم[٤٨]؟ إنهم بدأوا الغزو أولاً ضد قبائل موطنهم، وعندما وصلوا إلى الهلال الخصيب لم يوافقوا هم أو قادتهم على التوقف، على الرغم من أنه كان يمكنهم أن يجدوا فى هذه المناطق الموارد التى كانوا فى حاجة مستمرة إليها والتى سبق أن استفادوا منها مراراً. لقد وافق رب محمد [سبحانه وتعالى] على سياسة الغزو، وأمر أتباعه بمحاربة غير المؤمنين حيثما وجدهم فى أى مكان، وإذا قبلنا شهادة المصادر غير الإسلامية، فقد قال لهم ربهم أن يحاربوا غير المؤمنين فى سوريا بالتحديد لأنها هى الأرض التى يوجد فيها لكل من العرب واليهود حقوق مشتركة لكونهم ينحدرون من نسل إبراهيم[٤٩]، وباختصار كان محمد [ﷺ] يغزو، ووافق أتباعه على القيام بهذا الغزو، لأن ربه أمر به، هل نحن فى حاجة لأكثر من ذلك(*)؟!

= فاقتتلا، فقتله المجذر بن زياد. وقال المجذر بن زياد فى قتله أبا البخترى :

إما جهلتَ أو نسيتَ نسَبى	فأثبت النِّسبة إنى من بَلِى
الطَّاعنين برماح اليزنى	والضَّاربين الكَبشْ حتى يَنْحَنى
بَشِّر بيُتم من أبُوهُ البَخْترى	أو بَشِّرن بمثلها منى بنَى
أنا الذى يُقال أصلى من بَلِى	أطعنُ بالصَّعدة حتى يَنْثَنى
وأعْبِط القِرنْ بعَضْب مَشْرَفِى	أرْزِمُ للموْت كإرزام المَرِى

فلا ترى محذراً يفرى فرى

المرى : الناقة التى يستنزل لبنها على عسر :

برماح منسوبة إلى ذى يزن وهو ملك من ملوك اليمن، والكبش: رئيس القوم،

الصعدة : عصا الرمح، ثم سمى الرمح صعدة .

أعبط : أقتل؛ والقرن: المقاوم فى الحرب؛ والعضب: السيف القاطع؛ والمشرفى منسوب إلى المشارف وهى قرى بالشام؛ وأرزم/ أمن؛ والإرزام: رغاء الناقة بحنان؛

يقال : فرى يفرى فريا، إذا أتى بأمر عجيب ؛

وقيل : المرى، الناقة العزيزة اللبن.

ابن هشام، السيرة، ج١، ص٦٢٩-٦٣٠ . اعتمدت كرون هنا على ما ورد فى الشعر وأخذته على اعتبار أنه من الحقائق المسلم بها على الرغم مما يعرف عن مساحة الخيال الفسيحة التى ينسج منه . إن المؤرخ يستخدم هذه الأداة كمرآة تعكس روح العصر دون الدخول فى التفصيلات التى ورد ذكرها فيه . راجع الحاشية الثالثة المذكورة ص٢٧٨ . (المترجمة)

(*) راجع ، تعليق المترجمة فى الحواشى المذكورة ص٤٠٩ - ٤١٠ .

أما السبب في الادعاء بوجود أسباب أخرى أضيفت إليها فهذا يرجع نتيجة للادعاء بأن الحرب المقدسة إنما هي بمثابة غطاء لأهداف أخرى ملموسة. إن الشعور بأن المصالح الدينية والاقتصادية، ينبغي أن تكون كل منها مختلفة عن الأخرى، فهي فكرة بارزة في الفكر المسيحي، وكثيراً ما دار نقاش لا حد له حول ما إذا كانت الحروب المقدسة يحركها الحماس الديني أكثر من المصالح المادية، أو أن العكس هو الصحيح، حيث إن الحرب المقدسة لا تعد غطاء للمصالح المادية، أما بالنسبة للمسلمين فكانت على العكس من ذلك إذ كانت عبارة عن إعلان صريح لها، لقد قال الله سبحانه ﴿ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾(*). إن هذا هو ميراثك، وهذا هو ما وعدك الله به "هذه العبارة هي التي قيلت للجنود عشية معركة القادسية". وفيما يخص العراق قالوا لهم "إذا قمتم بالاستيلاء عليها .. عندئذ ستكون أملاكهم ونساؤهم وأبناؤهم وبلادهم ملكا لكم"[50]. هل يمكن أن يكون الله [سبحانه وتعالى] أكثر وضوحاً من ذلك. قال الله [سبحانه وتعالى] للعرب إن لهم الحق في سلب نساء وأطفال وأراضي الآخرين، أو إن هذا كان هو الواجب الذي كان عليهم القيام به(**)، إن الحرب المقدسة تعني طاعة الله، لقد رفع إله محمد من شأن الحروب القبلية وضراوتها، وأضفى عليها قوة دينية عليا، إن المصالح المادية هي تلك التي تلتصق بمجتمع القبيلة، ولسنا في حاجة لتعقيد المشكلة بتلك الافتراضات

(*) قال الله سبحانه وتعالى ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾، سورة الأنبياء (٢١)، الآية ١٠٥. (المترجمة)

(**) من السهل تماما أن يؤخذ أي نص تاريخي ويُخرج من سياقه، إن هذا جزء من تاريخ طويل من التحيز المعادي للإسلام. وينبغي على الباحث المحايد قراءة هذه الروايات في سياق فهم الحروب القديمة، وليس كأحكام أو توجيهات عامة تطبق على كل عصر. وهو القياس نفسه الذي يطبق على ما قام به النبي إشعيا في إبادته للكفار، أو عندما ننظر إلى وقائع العنف أثناء فترة محاكم التفتيش في إسبانيا التي قادت اليهود إلى الهلاك، والتي استخدمت فيها بعض آيات من الإنجيل ساعدت على تأجيج العواطف والانفعالات في تبرير ملاحقة اليهود واضطهادهم، هذا على الرغم من أن المسيحيين يتفاخرون بأن المسيح عليه السلام لم يأمر أتباعه أبدا بقتل غير المؤمنين، وأمرهم بأن يتركوا عقابهم لله (سبحانه وتعالى) يوم الحساب وينطبق الشيء نفسه على دولة إسرائيل في تاريخنا المعاصر، فإذا كانت فلسطين هي أرض الميعاد التي وعدهم الله سبحانه وتعالى بها، فهل يعني ذلك أن يقوم اليهود بقمع وإبادة شعب فلسطين العربي من عليها كما يحاولون الآن، بل قمع وإرهاب أي إنسان حر يناهض هذه السياسة الإسرائيلية القمعية. وعن رأي داحض لمزاعم كرون يمكن الرجوع إلى المرجع الذي قدمه الباحث القبطي المصري د. نبيل لوقا بباوي: "انتشار الإسلام بحد السيف". الطبعة الثانية، القاهرة ٢٠٠٢. (المترجمة)

الخاصة بأعمال أخرى، إن السبب فى ذلك يرجع تحديداً إلى أن كلا من مصالح الله المادية قد التقت مع مصالح رجال القبائل المادية، ولذلك أطاع هؤلاء الرجال محمداً [ﷺ] بكل حماس.

ولكى تتلاءم رسالة محمد مع المصالح القبلية، كان لابد من وجود قضية فى برنامجها، لكى يقدر لها النجاح فى أى فترة من فترات التاريخ العربى. فالأساس الجوهرى لإنشاء دولة للعرب وقيامهم بالغزو كان موجوداً منذ فترة طويلة، وطالما كان لدى محمد فكرة استخدام التوحيد، لخدمة النواحى السياسية؛ فلا بد من أن يكون الزمن فى صالحها، حتى ولو لم تكن على مستوى العرب جميعا. فنصرتهم لدين إبراهيم [عليه السلام] سابقًا، يوضح أنه ورطهم سياسيًا فى معتقداتهم، ألا يجب إذن أن يتوحدوا بالمثل من أجل الغزو، وبدون هذه الفكرة لما وجدت لديه القدرة على توحيد العرب للغزو ؟ وإذا لم يكن محمد [ﷺ] قام بفعل ذلك، ألم يكن فى الإمكان ظهور نبى آخر يلعب هذا الدور فيما بعد ؟ ويمكن أن يدور النقاش حول أن الفتوحات دارت حول حقيقة واضحة وهى أن أحد الأشخاص كان لديه تصور معين، وأن هذا التصور على الرغم من اتساعه، كان محض مصادفة أن قام هذا الشخص بوضعه موضع التنفيذ فى القرن السابع بدلاً من القرن الخامس أو العاشر أو لم يقم أحد بتنفيذه على وجه الإطلاق(*).

(*) أخطأت كرون فى تفسيرها الخاص للتاريخ العربى بهذا القول، وهو لاشك قول فى غير صالح العرب والمسلمين ، فضلا عن أنه غير دقيق من الناحية العملية ، فهى تفترض أن القبائل العربية قبل الإسلام لم تكن تغزو وتسبى ، وأنها انتظرت الإسلام ليحثها على ذلك . إن القبائل العربية مثلها مثل القبائل المتحركة فى أوروبا وآسيا فى التاريخ القديم والوسيط، فى حركة دائمة للغزو والاستيلاء والسبى، لأنه كان أسلوب حياتها تستوى فى ذلك القبائل العربية قبل الإسلام وقبائل الهون والأفار والمغول والتتار والبلغار فى آسيا؛ وقبائل القوط والفرنجة والأنجلو سكسون والتيتون والفيكنج والجرمان قبل تدميرهم الإمبراطورية الرومانية واحتلالهم عاصمتها روما عام ٤٧٦م، وتقطيعهم أوصالها واستقرارهم فيها تباعا. إن العقيدة هى العامل الرئيسى الذى ترفض كرون رؤيته وإثباته فى كتابها .أما قولها إن ما فعله الرسول (ﷺ) فى القرن السابع الميلادى، كان يمكن أن يفعله فى أى قرن، على أساس أنه كان يكفيه تحليل الغزو وجعله سنة دينية، فهى فى هذا القول تتجاهل اتصال التاريخ العربى – مثله فى ذلك مثل تاريخ أى منطقة – بما يحيط به من أحداث ، وهو الأمر الذى لا يجوز أن يقوم به أى باحث خال من النوازع والأهداف. (المترجمة)

ولكن حقيقة إجماع العرب فقط فى القرن السابع، وتوحيدهم من أجل القيام بالغزو على مستوى كل العرب، يدفع إلى الاعتقاد بأن هذا النقاش جانبه الصواب. أما إذا اخترنا الاستمرار فى الحوار فيجب أن نبحث عن وجود أسباب أخرى فريدة[٥١] كانت موجودة فى هذا التوقيت على وجه الخصوص وكان لها تأثيرها على جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية، وليس على مدينة واحدة فقط مثل مكة ، أو كانت مثل تلك المنازعات التى كانت موجودة فى المدينة بصفة دائمة. ولكى يتحقق الاتفاق بين رسالة محمد [ﷺ] وبين المصالح القبلية فإن هذه العوامل لابد من أن تكون قادرة على تحريك مصالح مجتمع القبيلة أكثر من أن تقوم بتقويضه كما يقول أصحاب رأى تجارة مكة التقليدية كما سبق ورأينا، وظهر الآن تطور واحد ووحيد يتفق مع العوامل الثلاثة التى سبق تحديدها، ألا وهو التدخل الأجنبى الذى ميز القرن السادس وأوائل السابع فى بلاد العرب.

ذكرنا فيما سبق أن الفرس كانت لديهم مستعمرات فى كل مكان فى الجانب الشرقى لبلاد العرب وفى نجد وفى اليمن، كما كان هناك ظل لامتداد النفوذ الأجنبى من الصحراء السورية وحتى الحجاز. حقيقة أن البيزنطيين لم يكن لديهم مستعمرات جنوب تبوك، ولكن كان هناك شعور بنفوذهم فى غرب بلاد العرب من الصحراء السورية، التى كان يوجد فيها ملوك متحالفون مع بيزنطة وصولاً إلى اليمن، التى كان يحكمها حلفاؤهم من الأحباش، والذين ظلوا فيها حتى قام الفرس بطردهم منها[٥٢] هكذا كانت بلاد محمد [ﷺ] العربية خاضعة للحكم الأجنبى إلى حد لم يكن له نظير حتى فى العصر الحديث : فقد كان يوجد للفرس مستعمراتهم ومعابد النار الخاصة بهم[*]،

(*) إن هذا القول جانبه الصواب إلى حد كبير . إن مكة هى وطن الرسول (ﷺ) ، وهى لم تخضع فى يوم من الأيام لأى حكم أجنبى بل لقد رفض المكيون تمليك رجل من زعماء مكة هو عثمان بن الحويرث بن أسد ابن عبد العزى عليهم لمساندة بيزنطة له ، وصاح فيهم الأسود بن أسد بن عبد العزى بقوله : « ألا إن مكة حى لقاح لا تدين الملك » السهيلى ، أبو القاسم عبد الرحمن بن أبى الحسن الخثعمى ت ٥٨١ هـ ، الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام ، جـ١ ، بيروت ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٩م ، ص٢٥٥ ؛ ابن سعيد (على بن موسى الأندلسى ت ٦٨٥ هـ) ، نشوة الطرب فى تاريخ جاهلية العرب، تحقيق نصرت عبد الرحمن، الأردن ١٩٨٢م ، ص٢٥٠ . وذكرها الجاحظ بقوله « لم تزل مكة أمنا ولقاحا لا تؤدى إتاوة ولا تدين للملوك » . الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر، ت ٢٥٥ هـ) ، رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون جـ٢ ، القاهرة ، ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩ م ، ص ٣١١ . (المترجمة)

مثلما كان للبريطانيين فيلبي Philby في الجزيرة العربية[٥٣] وفي الواقع لا يوجد شيء يمكن أن يقارن به ذلك الانفجار الذى حدث في بلاد محمد [ﷺ] العربية، وأقرب شيء يمكن أن يكون مناظر له هو جماعة الإخوان(*). ويبدو أنه ليس بعيداً عن الاحتمال، عدم وجود تشابه بين هاتين الظاهرتين.

وإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن يحدث ؟ إننا يمكن أن نقوم باستبعاد أحد هذه النماذج فوراً. فمن المعروف جيداً أن الإمبراطوريات كانت تقوم بإنشاء دول للبرابرة من جيرانها كنوع من الاعتراف لهم بما قدموه لها من خدمات، ولكن نتيجة لنقص الموارد الاقتصادية، والاستياء الذى نجم عن سيطرة هذه الإمبراطوريات على الدول التي قاموا بتأسيسها؛ أصبحت هذه الإمبراطوريات هدفا لغزوات هذه الدول البربرية. وعرف هذا الطراز في وسط آسيا وأوروبا، ولكن لم يكن هو الطراز الذى يصلح في بلاد العرب[٥٤] حيث لم يكن هناك وجود لنظام الدولة على حساب الروابط القبلية في بلاد العرب أو حتى في مكة[٥٥]. إن دولة محمد [ﷺ] في المدينة، تكونت على يد نبي وليس على يد رجل علماني حيث استعان بقوة الدين وليس بالقوة المادية، وقد تأثرت الفتوحات بعملية الانصهار القبلي وليس باتحلاله. وإذا كان قدر استمرار وجود القوى الإمبراطورية عند ظهور الإسلام، لقامت بفعل الشيء نفسه ولكن بطريقة مختلفة.

وهناك نظرية أخرى تقول بأن الإسلام نشأ كحركة قومية، أو بمعنى آخر كان رد فعل فطري للسيطرة الأجنبية من النوع نفسه الذى ثار ضد العرب الفاتحين أنفسهم في شمال أفريقيا وإيران نتيجة للسخط عليهم، وهو النوع نفسه من السخط الذى ثار ضد الأوروبيين في العالم الثالث[٥٦]، وإذا قبلنا شهادة المصادر غير الإسلامية عن طبيعة تعاليم محمد [ﷺ]، فإن هذا التفسير ينطبق عليها انطباقاً تاما.

إن الحركات القومية هي حركة فطرية، بمعنى أن هؤلاء الذين اشتركوا فيها هم شعب لم يكن لديه أي نوع من التنظيمات السياسية. فمن حيث إنهم كانوا أفراداً في مجتمعات لم يكن لديها الكثير من التنظيمات فإن هذا القول ينطبق على بلاد محمد [ﷺ]

(*) لعل الكاتبة تقصد الإخوان ... وهم جماعة كانت الساعد الأيمن في قوات الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود في المراحل الأخيرة التي قام بها (يرحمه الله) لتوحيد المملكة العربية السعودية. (المترجمة)

العربية، أما كونهم ينحدرون من مجتمعات كانت تفتقر إلى مثل هذا التنظيم فإن ذلك يصدق على أولئك القرويين الذين كانوا يؤيدون أنبياء السنسكريتية فى إيران والذين غالبًا ما كانوا يتخذون شكلاً دينيًا، وعادة كان قادتهم يدعون النبوة أو أنهم هم اللّه نفسه، وكانوا يصبغون رسالتهم بصبغة دينية، ويستخدمون فيها لغة الدين نفسها عندما كانوا يوجهونها ضد الأجانب، ولكن بطريقة يثبتون فيها شخصيتهم القومية ومبادئهم(٥٧) إن هذا النوع من الحركات كان يحدث دائمًا كل ألفية، ونادرًا فى الألفية المسيحية، وكانت تؤدى لحدوث بعض التنظيمات السياسية والعملية غير المكتملة، وعادة كان العمل العسكرى هو أول ما تقوم به هذه الحركات، وأصبح هدف الحركة هو الانفجار ضد الأجانب الدخلاء المشار إليهم فى بلاد العرب. ويمكن أن يلحق الوصف الذى وصفت به حركة محمد [ﷺ] الإشارة إلى النبى ماورى **Maori** الذى ظهر فى نيوزيلانده عام ١٨٦٠ والذى صاغ إسلامًا خاصًا لنفسه، ورأى أنه بمثابة موسى جديد (كما فعل محمد [ﷺ])، وأعلن أن كل من أهل نيوزيلانده واليهود ينحدرون من الأب نفسه (مثل اليهود وإخوانهم أولاد إسماعيل)، وادعى أن جبريل علمه عقيدة جديدة (كما علم جبريل محمد [ﷺ]) جمع بين الإيمان بإله الأجانب كقوة عليا مع إضافة بعض العناصر القومية عليها (حيث حل الرقص فيها بدلاً من الحج)، وأعلن أو كان فى سبيله أن يعلن يوم أن يؤول الحكم له ويصبح بين يديه، قال أو قال أتباعه، أنه قال "سيتم طرد البريطانيين من نيوزيلنده (كما تم طرد البيزنطيين من سوريا). وسوف يأتى جميع اليهود لنيوزيلانده، ليعيشوا فيها فى سلام وانسجام مع أهل نيوزيلنده (كما توقع أن يفعل كل من العرب واليهود فى سوريا). وعلى أى حال فهذا هو ما نقله عنه محررو الأخبار من معاصريه من الذين لم يكونوا معاديين له(٥٨). وعلى الرغم من أنه كان فى حقيقة الأمر، يكره الحرب إلا إن أتباعه لم يكونوا كذلك. وعلى أى حال، فإنهم كانوا لا يشبهون أتباع محمد [ﷺ] الذين كانوا يحاربون لتحقيق أهداف مستحيلة.

وظّف محمد فكرة التوحيد اليهودية ضد السيطرة المسيحية واستخدمها لتحقيق فكرة شعبه الأيديولوجى والعسكرى، مثله فى ذلك مثل نبى نيوزيلانده. ومن الأمور الغريبة أن ظهور أول رد فعل عسكرى للتدخل الأجنبى، والذى كان أكثرها نجاحًا أتى من منطقة كانت خاضعة للنفوذ البيزنطى وليس للنفوذ الفارسى، ويرجع ذلك لأن فارس

كانت تقع على مسافة أبعد. إن تعايش كل من اليهود والعرب في شمال غرب بلاد العرب يجب أن يحسب لصالح هذه القضية : وطبقًا لما ذكره سيبوس Sebeos فإن تضحية البيزنطيين باليهود لعب دورًا قاطعًا في ميلاد حركة محمد [ﷺ][٥٩] وعلى أى حال فإن محمداً لم يكن هو النبي الوحيد الذى ظهر فى بلاد العرب فى القرن السابع وظهر اثنان من منافسيه وهما مسيلمة [الكذاب] وأسود Aswad [الأسود الدؤلى] فى المناطق التى كانت خاضعة للنفوذ الفارسي، وهما اليمامة واليمن على التوالى أما الثالث فهو سجاح Sajah ، وقامت القبائل التي عرف أنها اشتركت في معركة الفرس الشهيرة ذى قار Dhu Car[٦٠] بتأييده(*). إن هؤلاء الذين قادوا المقاومة ضد الإسلام في بلاد العرب كانوا منافسين لمحمد [ﷺ] أكثر من كونهم ممثلين للوثنية التقليدية، وهذا لا يعنى أن المعتقدات والقيم التقليدية فقدت قوتها فى بلاد العرب[٦١]، بل على العكس من ذلك كان واضحًا أن محمداً [ﷺ] كان يضرب قاعدة صلبة تدافع عن مثل هذه القيم[٦٢] وبطبيعة الحال فإن هذه القاعدة استخدمت ضد محمد [ﷺ] نفسه عندما بدأ فى إخضاع بلاد العرب[٦٣].

ويبرز هنا ثمة اعتراض قوى ضد هذا الرأى ويتمثل فى القول بأنه كان من غير المتوقع أن يؤثر النفوذ الأجنبى بعمق فى غالبية العرب، على عكس الحال مع سكان نيوزيلنده الأصليين، الذين كانوا يفقدون أراضيهم لصالح البريطانيين والذين شعروا أن حياتهم بأكملها كانت مهددة، وعلى عكس الحال مع البربر فى شمال أفريقيا الذين لم يرغموا بالقوة لتغيير نمط حياتهم. إضافة إلى أن مشاعر الكراهية لم تكن شائعة فى المصادر العربية. كما ينبغى أن نسلم بوجود هذه المشاعر من الكراهية فى الشعر الذى تمخض عن معركة ذى قار[٦٤]، والتى وصفها النبى [ﷺ]، بأنها هى المرة الأولى التى تمكن فيها العرب من الانتقام من الفرس ، والتى ارتأى أن فتح بلاد فارس سيكون لاحقًا لها[٦٥]. إن هذه المعركة لا تمثل من الناحية التاريخية أكثر من كونها حقبة من حقب المنازعات بين الفرس والعرب الخاضعين لهم[٦٦]. وكان البعض ما يزال يشعر بأن العرب "كانوا واقعين بين فكى الأسد، من الفرس والبيزنطيين" كما قال قتادة فى

(*) راجع الحاشية المذكورة ص٢٥٠ عن ذى قار . (المترجمة)

أحد النصوص التي كان يقارن فيها بين وضع العرب المزرى فى الجاهلية ومع ما يمكن أن يحققوه مع قدوم الإسلام(٦٧). "لقد داسنا الجميع بأقدامهم بينما لم نطأ أحداً، ثم أرسل الله لنا النبى من بين ظهرانينا... ومن بين وعوده أننا سوف نقهر هذه البلاد"، كما قال المغيرة بن شعبة فى شرحه لأحد القواد الفرس(٦٨)، وبصفة عامة كان من المعروف أن الفتوحات العربية، لم يكن يقدر لها الوجود لولا ظهور القومية العربية .

إلى أى مدى كان يمكن للنموذج القومى، أن يتحقق مع ظهور الإسلام؟ إن هذا ما سوف تظهره الأبحاث التالية، ومما لاشك فيه أنه يوجد طرق أخرى، يمكن أن يصور بها النزاع بين العرب والأجانب، ولكن يجب أن يكون فى مقدمتها جميعًا صورة ذلك الصدام بين البيزنطيين والفرس من ناحية وبين العرب من ناحية أخرى، وليس موضوع تجارة مكة، عند البحث عن أسباب ظهور العقيدة الجديدة ربما قامت تجارة مكة بإلقاء بعض الضوء على آلية انتشار الديانة الجديدة ولكنها لا يمكن أن تشرح لماذا ظهرت ديانة جديدة فى بلاد العرب؟ ولماذا قدر أن يكون لها مثل هذا التأثير السياسى العميق(٦٩) (*)؟!

(*) تفسر كرون هنا نجاح انتشار العقيدة الإسلامية تفسيراً سياسيا، بمعنى أنه لولا الأطماع الأجنبية من قبل دولتى فارس وبيزنطة والحبشة لما قدر الظهور لعقيدة الإسلام . فهى هنا تنفى عن الإسلام أنه رسالة الله سبحانه وتعالى الخاتمة لهداية البشر جميعًا سواء وجدت تلك الأطماع أم لم يكن لها وجود، ثم ما هى المصادر غير الإسلامية التى تدعى أنها تشهد بأن تعاليم محمد (ﷺ) تدل على أن الإسلام نشأ كحركة قومية؟! إنها لا تقدم عنها أى إشارة ، ولكنها كما هو واضح تتلاعب بالألفاظ وتخلط بين العصور التاريخية. إن هناك فارقًا كبيراً بين أدعياء النبوة فى إيران ، وتلك الحركة التى ظهرت فى نيوزيلنده عام ١٨٦٠ وبين الرسالات السماوية ، حيث إن جميع هذه الحركات السابقة واللاحقة سيقدر لها الفشل ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ (الرعد: ١٧) . أما قولها إن الفتوحات العربية لم يكن ليقدر لها الوجود لولا ظهور القومية العربية ، فهو قول يخلط بين أحداث القرنين السادس والعشرين ففى القرن السابع الميلادى لم يكن هناك وجود للقومية العربية لإنهاء فكرة سياسية ولدت حديثًا ، ولكن الوجود الراسخ فى ذلك الوقت كان للإسلام بصرف النظر عن الفوارق العنصرية. إن الإسلام عقيدة وشريعة سماوية وهى التى كان لها أبلغ الأثر فى التأثير على سلوك المسلمين ، ومن هنا جاء انطلاقهم السياسى والحضارى فى مختلف الميادين بعد أن تخطى الإسلام القبلية دون أن يحطمها وبعد أن تمكن الرسول ﷺ من وضع أساس بناء واحد تعيش فى إطاره القبائل دون إحساس بالغبن أو الضغط . وعن الرؤية الاستشراقية تجاه النبى ﷺ ودعوته راجع : عبد الله محمد الأمين النعيم : الاستشراق فى السيرة النبوية ، فيرجينيا ١٩٩٧ . وآخر دعوانا ﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ البقرة :٣٢ . (المترجمة)

الحواشى

(١) قدم وات Watt هذه النظرية فى أبحاثه التالية: Muhammad at Mecca and Muhommad at Medina; also Muhammad Prophet and Stateman, Islam and the integration of Society, The Cambridge History of Islam.

(٢) Cf. Musil , Northern Negd, p.241.

(٣) Cf. Watt, Muhammad at Mecca, pp.19,72ff.

(٤) Ibid., pp. 72f., 75,78 .

(٥) Cf. Wansbrough, Quranic Studies, p.126; on "The Orphans lot".

(٦) ابن هشام، السيرة، ص٢١٩ (عن مقابلة جعفر بن أبى طالب مع النجاشى. راجع: Wansbrough, Quranic Studies , pp. 38 ff) .

(٧) راجع : ترجمة الإيلاف فى سورة قريش على أنه ألفة Ulfa راجع : الفصل التاسع أعلاه ، حاشية رقم ٤٠ .

(٨) راجع : المصادر التى ذكرت فى الفصل التاسع أعلاه، حاشية رقم ٤٠ .

(٩) Watt, Muhammad at Mecca, p.18.

(١٠) قال أبو سفيان ذلك بمناسبة الشكوى التى جاء ذكرها فى الفصل السابع الحاشية رقم (٢٧)، حيث ذكر فيها المصدر. وقارن ذلك بما ذكره كيستر Kistes, "Mecca and Tamim", p.124. (*) . وقد لاحظ وات أن ردود أفعال محمد [ﷺ] لم تكن دائماً تتبع العلاقات القبلية، حيث إنه لم يكن هناك استقرار فى وضع العلاقات القبلية قبل ظهور محمد [ﷺ] . (Muhammad at Mecca,p.19) .

(١١) حظى ابن جدعان بشهرة عظيمة نتيجة لإطعام أهل مكة. الأغانى، ج٨، ص٣٢٢ وما يليها؛ (ابن كثير، البداية، ج٢،ص٢١٨). كما حظى مكيون آخرون بشهرة كبيرة لإطعامهم الفقراء والمحتاجين من عشائرهم. (Kister, Mecca and Tamim, pp. 123 ff ؛ يعد هذا العمل ترياقا جيدا لما قدمه وات) (**) .

(*) خطأ مطبعى فى الأصل وصحته Kister . (المترجمة)

(**) استخدمت كرون هنا الكلمة الإنجليزية Antidote وتعنى ترياق ضد السموم، فهى بهذا تعنى أن مقالة كستر Kister بمثابة ترياق ضد رأى وات Watt الذى يقدم تاريخ الإسلام بنظرة حيادية . وفى الواقع إن ما كتبه كستر فى مقالته المشار إليها وكرون التى أعجبت بما كتبه هما اللذان يحاولان بجهد أن ينفثا سمومهما ضد الإسلام ولكن الله بقدرته غالب عليهما. (المترجمة)

(١٢) Watt, Muhammad at Mecca, pp. 23f.

(١٣) Cf. Watt, Muhammad at Madina, pp.5ff . من المفترض أن غارة نخلة وقعت في شهر رجب، قارن الأغاني الذي يقول : " ذهب كيسبة بن كلثوم السكوني للحج. واعتاد العرب عند ذهابهم للحج في الجاهلية على عدم مضايقة بعضهم البعض . وعندما مر على بنى عمير بن عقيل هجموا عليه ، وأخذوه سجينا، واستولوا على كل أملاكه وجميع ما كان معه " والطبيعي أن يقوم بشرح ذلك ليوضح طبيعة العنف ، وليس من أجل أن يوحي أنه قد لوحظ توقفه .

(١٤) ويرفض لانداو – تاسيرون Tasseron - Landau تفسير وات لحروب "الفجار" .

(١٥) Watt, Muhammad at Mecca, p. 24.

(١٦) Ibid., p. 23.

(١٧) أكد أسود على هذه القضية في : Aswad, Social and Ecological Aspects, pp. 420, 429. واعتبرها سيرجنت أمرا مسلما به Serjeant, Harm and Hawtath .

(١٨) Watt, Muhammad at Mecca, p.19; also pp. 142f.

(١٩) Cf. Ibid., P.16، حيث يعد تماسك القبيلة أمرًا جوهريا للبقاء في الظروف الصحراوية Ibid., pp. 19,74 ff.، كان المكيون يفقدون بداوتهم أكثر من فقدهم لأسلوب حياتهم القبلية: and Ibid, p. 142، حيث تتناقض أسس الحياة البدوية وعاداتها مع حياة الاستقرار.

(٢٠) Watt, Muhammad at Mecca, p. 143.

(٢١) Cf, Daughty, Travels, I, 328f. 527 (Tayma and in general): C. Huber, Voyage dans L'Arabie cenetrale, p.16 (Jawf); W.G.Palgrave, Narrative of a years Journey through central and Eastern Arabia (1862-3), I, 62, 119 (Jawf, the Najd): J.L-Burckhardt, Travels in Arabia, p.373 (Medina); C.Snouck Hurgronje, Mekka in the latter Part of the 19 th Century, pp. 8f. (Mecca); cf. Philby, Heart of Arabia, II, 165 (Sulayyil).

(٢٢) قارن ذلك بما ورد لدى : G.H. Bousquet, "Observations Sociologiques Sur les Origines de L'Islam", pp.73,81.

(٢٣) Wellhausen, Reste, pp. 213 f.

(٢٤) راجع المصادر التي ذكرت في الفصل الثامن أعلاه، حاشية رقم ١١٧ .

(٢٥) ابن قتيبة ، المعارف، ص٢٦٦ .

(٢٦) A.Jaussen, Coutumes des arabes au pays de Moab, pp.288f.

(٢٧) ابن الكلبي، الأصنام، ص٣٧؛ كما ذُكر لدى بن هشام، السيرة، ص٥٣ .

(٢٨) Sozomen, Kirchengeshichte, II, 38:14 ff. Ecclesiastical History, p.310.

(٢٩) يذكر ابن هشام أن رجل الدين الذى قام بتحويل أهل نجران إلي المسيحية كان يقوم بعلاج المرضى(ابن هشام، السيرة، ص٢١). كما كان إفرايم القَوَهْ Ephraim the Stylite يقوم بعلاج النساك العرب (T.Noldeke, Sketches from Eastern History, p.221, cf.p.219) إن مصادر الديانة المسيحية لا ضمير لها بخصوص الدور الذى لعبته المعجزات الطبية فى نشر عقيدتها ، ولكن كان الرهبان المسيحيون ما يزالون يمارسون فى بلاد العرب ومناطق أخرى مهمة علاج العرب حتى بعد الفتوحات العربية، وحيث إنه لم يكن باستطاعتهم الدعوة للتحول للديانة المسيحية فكانوا يقومون (بديلاً لدفع الضرائب وحقوق أخرى) بهذا العمل نظير دفع مقابل مالى لهم فى حالة العلاج الناجح (Cf. Brock," John of Dailam", passim) .

(٣٠) G.W. Murray, Sons of Ismael, p.44.

(٣١) Doughty, Travels, I, 556 ، وفى هذه الحالة المشار إليها، كان اللجوء إلى مبادئ الإسلام هو الحل الأخير للإنقاذ . وكان دوتى رجلاً عنيداً ، لا يعنيه شيء من أمور الدنيا: " ما هما هاتان الكلمتان البسيطتان؟ انطقهما معنا ولن يترتب عليهما إلحاق أى ضرر بك .خليل (=دوتى) لتُؤمن بأن الخلاص هو فى العقيدة، وحيث أنه لا يعنيك شيء من أمور هذه الدنيا، فإن ذلك سيكون متفقا معهما" . (Doughty, Travels, I, 556) . كان المتحدثون هنا من القرويين . ولاحظ دوتى فى مجال آخر أنه كان يمكن فقط بعد بذل قدر كبير من الجهد أن يتمكن رجال البدو من أن يتصوروا الحياة فى المستقبل.

(٣٢) وصف دوتى تعصب البدو الدينى " بأنه نوع من الغيرة القومية أو الوطنية السامية" ووجد أن السبب فى تسلط فكرة الدين عليهم يرجع إلى النفاق الواضح فى حياتهم، فهم لم يكونوا متدينين بالمعنى الحقيقى بالكلمة، كما أنهم لم يكونوا حريصين كثيرا على مراعاة الحق المطلق أو على إقامة الشعائر. وحيث إنه أدرك أن العقيدة كانت لدى البدو بمثابة نوع من الوطنية ، فكان ينبغى عليه أن يدرك أنه وضع نفسه فى موضع الخارج على القانون لرفضه الله الذى يقبله المجتمع. وهدده مرافقه بأنه سوف يقوم بقتله على أساس" أنه مع النصرانى ينبغى المحافظة على القانون"؟ (أليس هو عدوا لله؟) ولكنه تنازل عن رأيه وسلم بالأمر الواقع عندما وصل إلى هذا الحد ورأى أنه سيصبح شهيدا .

(٣٣) ويلاحظ أن هذا الاعتقاد لم يكن مقصورا على البدو فقط . إن الحنفاء الذين أكلوا تمثالهم كانوا قرويين مستقرين (أى حضر) ولم يكونوا بدوا. وذلك الرجل الذى قدم لدوتى أشجار النخيل مقابل أن يعتنق الإسلام ، لم يكن هو الآخر بدويا. وبشكل عام فإن ما ذكره دوتى عن ردود الفعل لدى الحضر أمام مسيحيته فى بلاد العرب تكشف عن أنه لم يكن هناك ثمة خلاف فى وجهة النظر بين الحضر والبدو، فيما عدا أن تعصب الفئة الأخيرة كان أكثر حدة (Cf. Travel, I,95) .

(٣٤) لم يكن لدى البدو القاطنين فى المناطق الداخلية من الصحراء مزارات مقدسة، أو مجسمات مقدسة أو وسطاء بينهم وبين الله (Musil, Northern Neged, p.257) كما أنهم لم يلقوا بالا إلى مقابر الشيوخ عندما كانوا يقتربون من القرى، وكانوا يعتبرون هذه المقابر خاصة بالقرويين ورعاة الماعز والأغنام ، وليست خاصة بالبدو (ibid., Rwala, pp.417f) . أما رأى البدو فيما يتعلق بالخرافات فيمكن أن نشعر به من خلال ما قام مورى Murray بتسجيله فى سيناء : " كان هناك قبر (فى مصر حيث)..

كانت تذهب إليه النساء الراغبات في الإنجاب ويقمن بتحطيم الزجاجات وهن يعتقدن أن ذلك يجلب لهن الخير. كما تذهب النساء الراغبات في الزواج لرجل متقدم في العمر ويقمن بدفع مبلغ من المال نظير قيامه بكتابة أسمائهن في كتاب. وهن يعتقدن أن ذلك يجلب لهن الحظ ". Murray, Sons of Ismael, p.150) . " يكثر الجن في مرتفعاتنا، ولا يخشاهم إلا الفلاح Fellah، أما الآن فإن الذئاب أكثر خطورة". (Ibid, p. 156) (*) .

(٣٥) كما ناقشها فيلهوزن Wellhausen, Reste, pp. 220 f. .

(٣٦) ابن هشام ، السيرة، ص١٦٦ وما يليها.

(٣٧) المرجع السابق، ص٢٨٣ .

(٣٨) ويتضح ذلك من دستور المدينة الذي وضعه محمد [ﷺ] منذ وصوله إلى هناك . وبعد أن تم فحص تاريخ هذه الوثيقة، فلا مفر من الافتراض بأن محمدا [ﷺ] تحول إلى حاكم في المدينة أكثر مما كان عند وصوله إليها.

(٣٩) قدم شعبان هذا التفسير ليكون له تأثير خاص Shaban, Islamic History, I, 6ff .

(٤٠) Cf. Crone, Slaves, pp. 24f.

(٤١) لاحظ كازانوف Khazanov – وهو محق في ملاحظته – أن دولة محمد [ﷺ] سوف تتقسم بعد فترة وجيزة (**) (A.M.khazanov, Nomads and The outside world, p. 275 .

(٤٢) كما ناقشها دونر في : Donner, Conquests, pp. 270 f .

(٤٣) راجع: ابن حبيب، المحبر، ص٤٧٩، حيث قال الحسين لمعاوية أنه لولا الإسلام لكان ما يزال يكدح في رحلتين . مما يعني أن الجزية حلت محل تجارة المكيين . راجع المصادر التي سبق ذكرها أعلاه في الفصل الخامس، حاشية رقم (١٨).

(٤٤) كما ناقشها شعبان Shaban, Islamic History, I, p. 14.

(٤٥) عبيد بن الأبرص، ج٤، ص١٤، المذكور لدى C.J. Lyall, ed. And tr., The Diwans of 'Abid Ibn Abras .

(٤٦) Tufayl b. Awf, I, 62,76f. in F. Frenkow, ed. And tr, the poems of Tufail Ibn Awf al-Ghanawi and at Tirimmab Ibn Hakim at Tayi . إن التفاخر بهذا الشكل كان هو النوع السائد لدى العرب قبل الإسلام.

(*) من الواضح هنا أن كرون تتصيد نماذج لأفراد من السذج والبسطاء في محاولتها المستميتة لإقناع القارئ بادعائها ، والمعروف أن مثل هذه النماذج توجد في أي شعب من الشعوب بصرف النظر عن معتقداتهم الدينية ، وعلى مر العصور وصولاً إلى عالمنا المعاصر . (المترجمة)

(**) هذه الملاحظة في غير محلها ؛ لأنها جاءت بعد وقوع الانقسام وليس قبله. (المترجمة)

(٤٧) ابن هشام، السيرة، ص. ٤٤٧(قام جيلاوم Guillaume بترجمتها).

(٤٨) عندما فسر القائد الفارسي لمعركة القادسية الغزو العربي بالإشارة إلى ظروف الحياة الاقتصادية القاسية لدى العرب ، صحح المغيرة بن شعبة ما قاله موضحًا أن العرب سبق وعانوا من أوضاع مماثلة وربما أسوأ من قبل (الطبري، تاريخ ، مجلد (١)، ص٢٣٥٢) .

(٤٩) Crone and Cook, Hagarism, pp. 7f.

(٥٠) الطبري، التاريخ، المجلد رقم (١) ، ص٢٢٨٩؛ راجع القرآن الكريم السورة رقم (٢١)، الآية رقم ١٠٥، والسورة رقم (٣٦)، الآية رقم (٢٩).

(٥١) وقد قمت بنفسي بمناقشة هذه الفكرة من قبل (Crone, Slaves, p.25) ولكني لا أعتقد بصحتها الآن.

(٥٢) كانت لهم مستعمرات تقع إلى الشمال من تبوك Tabuk راجع J.E. Dayton," A Roman, Byzantine Site in the Hejaz" .

(٥٣) راجع الفصل الثاني أعلاه ، حاشية رقم (١٥٠).

(٥٤) Crone, Slaves, Ch.2.

(٥٥) راجع : "Social Organization of Mecca," . إن تحول المكيين إلى مجتمع تجاري أدى إلى زعزعة الوضع السياسي فيها، وهو الوضع الذي استجاب له محمد [ﷺ] وقام بتحويله إلى دولة. هناك اعتراضات كثيرة على هذا التفسير مثلها في ذلك مثل ما أثير ضد رأي وات الذي وصف فيه مكة بأنها مجتمع ناجح، وأن خلافاتها السياسية كانت نادرة، وسرعان ما كان يتم القضاء عليها، بمعنى أنه لم يكن هناك وجود لمشكلة سياسية، وكان ذلك الوضع نفسه في المدينة التي أحسنت استقبال محمد [ﷺ] ، في حين ظل المكيون يقاومون دعوته حتى فتحها .
وبالمثل لدى (Asward, Social and Ecological Aspects, p.420) (*) .

(٥٦) Cf. A. Bel, La religion muslmane en Berberic, I, 170ff.; G.H. Sadighi, Les mouvements religieux iraniens au II, et ou III, Siecles de L'hegire; V. Lanternari, The Religions of the Oppressed.

(٥٧) وتم تحليل هذا العامل في المرجع التالي : A.F.C. Wallace, "Revitalization Movements, and R. Linton, Nativist Movement," .

(٥٨) Lanterani, Religions, pp. 248ff.; مع الإشارة لمزيد من المصادر الأدبية. وفي الدراسة الحديثة التالية P. Clark, "Haubau," The Pai Marire Search for maori identity, is aplogetic . ركز كلارك على أهداف النبي (**) السلمية (والتي يبدو أنها كانت سببا في الانتشار الواسع لدعوته) ولكنه رفض الاعتقاد بأن أتباعه كانوا يهدفون إلى طرد البريطانيين وقد وافق على أن هوية النبي كانت يهودية ولكنه لم يقم بتطويرها . أما خطبه الخاصة بعودة المسيح بعد ألف عام فقد رفضها جميعها تقريبًا .

(*) صحة الاسم Aswad . (المترجمة)

(**) هو ليس بنبي ولكنه ادعى النبوة . (المترجمة)

وكان رأى كلارك صحيحا فيما يخص وجود عامل ثقافي في هذه العقيدة ، وكان لدى الماؤريين Maoris حماس شديد لمعرفة أسرار العلوم الأوروبية (ولكن التفاوت التكنولوجي بين الأوروبيين والأجانب كان عنصرا مفقودا في الحالة العربية) ولكن رغبتهم في الأخذ بعلوم الأوروبيين لم يكن يعنى أنهم يرغبون في وجود الأوروبيين . وقدم كلارك هذه المعلومات عن الماؤرى Maori كما لو أن هذه الدعوة ما تزال قائمة، ويبدو أنه لم يعلم بالعمل الذى قام به المؤرخ الإيطالي فاجيولي Vaggioli والذى كان موجودا في نيوزيلندا في الوقت نفسه وكان هو المصدر الرئيس لكل المعلومات التي قدمها لانتيرنارى Lanternari .

(٥٩) Crone and Cook, Hagarism, pp. 6 f.

(٦٠) Cf. F.M. Donner, "The Bakr b. Wail Tribes and Politics in Northeastern Arabia on the Eve of Islam", p.30 . ويلاحظ أيضًا محاولة الإصلاح التي أجرتها الأسرة اللخمية خلال فترة حرب الردة في منطقة البحرين (Ibid, p.31) ؛ وقد قام الفرس بإلغاء إصلاحات الأسرة الوطنية التي كان واضحًا أنها لم تكن حركة مؤيدة للفرس .

(٦١) Cf. Wellhausen, Reste, p.221.

(٦٢) قارن ذلك بكثرة عدد الأنبياء في الفترة المبكرة من وجود العباسيين في إيران Abbasid Iran (Behafarid, Sunbadh, Muqanna, Babak وعلى هذا المنوال). كما يوجد العديد منهم لدى الماؤرى في نيوزيلندا .

(٦٣) لقد سبق تفسير حركة مسيلمة على أنها حركة قومية (أو حركة إحياء) ؛ أما إيكمان D.F. Eickelman," Musaylima" فهو يرى أن حركة مسيلمة كانت نتيجة لضغط الإسلام ، وليست نتيجة التدخل الأجنبي أو للتدخل الأجنبي والإسلام .

(٦٤) M.A. Muid Khan, ed . and tr. Acirtical Edition of Diwan of Laqit Ibn Yamur.

(٦٥) راجع على سبيل المثال اليعقوبي، التاريخ ، ج١، ص٢٤٦ .

(٦٦) Donner," The Bakr b. Wail Tribes", pp. 28f.

(٦٧) والمصادر المذكورة هناك : Cf. Kister, "Hira" , p. 143 .

(٦٨) أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم، كتاب الخراج، ص٣٩ الذى ورد ذكره لدى رودنسون Rodinson, Muhammad, p.295 . ولكن عبارات مختلفة من هذه الخطبة تنفي إقامة الدليل على السيطرة الأجنبية، أو حتي الاعتراف بمزايا الحكومة الفارسية (راجع: الطبرى، التاريخ، مجلد(١)، ص٢٢٤٠ وما يليها، ص٢٢٧٦ وما يليها ، ص٢٣٥٢).

(٦٩) R. Bell. The Origin of Islam and its Christian Enviroment, p. 184 .



الملحق الأول

القرفة فى المصادر القديمة

القرفة فى العصر الحديث عبارة عن لحاء شجر عطرى يتم الحصول عليها من نوعين من فصيلة القرفة Cinnamomum وهى: الفصيلة الغارية Lauraccae أو شجر الغار Laurels ، وهى تلك التى تسمى Cinnamomum Zeylanicum Nees والثانى هى قرفة الكاسيا C.Cassia Blume ويصنف النوع الأول على أنه هو النوع الأصلى من القرفة ، وموطنها جنوب الهند وسيلان. واشتهرت قرفة سيلان على أنها تمثل أفضل الأنواع من أى مكان، وهى تزرع الآن فى أنحاء مختلفة من العالمين القديم والحديث . أما النوع الثانى فموطنه جنوب الصين، ويبدو أنه لم يزرع بكثرة خارجها. وهناك أنواع عديدة من القرفة يتم زراعتها فى المنطقة الممتدة من الهند حتى غينيا الجديدة New Guinea ، لها لحاء عطرى ذو أنواع متعددة ، واستخدم بعضها كبديل للقرفة . أما النوع الذى يسمى "القرفة البيضاء" أو لحاء القرفة Canella bark فهو يأتى من أنواع مختلفة تماماً موطنها غرب الأنديس West Indies (Uphof, Dictionary, s.vv. Cinnamomum spp. And Canella alba; G. Watt, the Commercial Products of India, pp. 310 ff.; I.H. Burkhill, A Dictionary of the Econonic Products of the Malay Peninsula, I, 543ff.) وتستخدم القرفة الآن كنوع من أنواع التوابل، وهو الاستخدام الحديث لها (cf. C. Schumann, Kritische Untersuchungen(*) Ueber die Zimtlaender, p. 24) . أما فى العصور القديمة فكانت تستخدم كمادة أساسية فى صناعة المراهم والعطور والأدوية.

(*) يلاحظ القارئ أنه عند نقل أسماء المراجع الألمانية إلى الترجمة العربية تم إضافة حرف e بعد الحروف المتحركة التى توجد عليها نقطتين طبقا لقواعد اللغة الألمانية. (المترجمة).

جاء ذكر القرفة لأول مرة باسم Cinnamon في العهد القديم، حيث ورد ذكر القرفة quinn' mon besem كمادة أساسية في الزيت المقدس في سفر الخروج (Exodus 30:23) كما ظهرت القرفة كعطر (proverbs 7:17; Song of Songs 4:14). كذلك جاءت الإشارة إلى النوع المسمى بالكاسيا Cassia وهو النوع الأقل جودة من القرفة في المصادر القديمة، وربما ورد ذكرها لأول مرة بالاسم، ولكن في حالة الجمع (Psalms 45:8, qs, ot ووجدت في حالة المفرد كاسم لابنة يعقوب Sg. *qsia ; Job 42:1 وعلى أى حال فهناك من يعتقد أنها وجدت أيضاً باسم كيضا Exodus qidda 30:24; Ezekiel 27:19) .

وجاء ذكر القرفة لأول مرة باسم كينامومومم Kinnamomum (وفيما بعد باسم كينامون Kinnamon, kinamon) لدى هيرودوت الذي قال إن الإغريق عرفوا هذه الكلمة وتعلموها من الفينيقيين (Hist. III,111) وذكر هيرودوت أيضاً الكاسيا Kasia (وباللهجة الأيونية III,110 kasie) ويبدو أنهم تعلموها أيضا من الفينيقيين، وثبت وجودها قبل هيرودوت عند الشاعرة سافو Fragment 44 cited by Muller, Weihrauch, col.708 .

وكثيراً ما جاء ذكر القرفة Cinnamon مرتبطاً بمواد أخرى وعلى سبيل المثال المر Myrrh في نصوص التوراة. وورد ذكر الكاسيا مع المر Myrrh واللبان الذكر Frankincense لدى الشاعرة سافو، ومع اللبان الذكر لدى ميلانيبيديس (Fragment I cited by Liddell and Melanipides Scott, Lexicon, S.V. Kasia) إلى جانب قائمة المواد العطرية التي كان الفينيقيون يستخدمونها (Muller, Weihrauch, col. 732) وهذا يرجح الاعتقاد بأن الفينيقيين ، كانوا يحصلون على القرفة والكاسيا من الشعب نفسه الذي كانوا يحصلون منه على المر واللبان الذكر. وأصبح هذا الأمر واضحاً في عصر هيرودوت؛ حيث ذكر أن القرفة والكاسيا كان يتم الحصول عليهما من بلاد العرب ;History II, 86) (III, 107,111 ، واعتقد هيرودوت أنه كان يتم الحصول على هذه المنتجات من بلاد العرب الجنوبية، أو على الأقل كان يتم الحصول على القرفة Cinnamon من أعشاش الطيور الكبيرة فلم يعرف أحد على وجه التحديد أين كانت تنمو القرفة، على الرغم من أنه اقترح أنها كانت تأتي من البلاد التي نما وترعرع فيها الإله ديونيسيوس ,Ibid., III 111; Dionysius (وربما كانت الإشارة هنا لبلاد الحبشة). بعد ذلك مباشرة اعتقد الكتاب

الكلاسيكيون أن القرفة والكاسيا تنموان فى بلاد العرب نفسها، فمثلاً فيما ذكره كل من ثيوفراستوس Theophrastus (Plants, IX,4:2) وأريانوس عن حياة الإسكندر الأكبر (Arrian, Anabasis, VII, 202) وإسترابون في جغرافيته (XV,I :22,25) ، وإيراتوسينيس Eratothenes الذى ورد ذكره لدى إسترابون (Strabo, Ibid XV, 4:4) وكل من أجاثار خيديس (٩٧) Agatharchides وتبعه أرتيميدوروس Artemidoros المذكور لدى إسترابون (Strabo, Geography, XVI,4:14) وديودور الصقلى (Bibliotheca, II, 49:3)، وهو أيضًا رأى ديوسكوريديس Dioscorides, (Materia Medica, I, 13/12) هكذا تواصل الاعتقاد حوالى خمسمائة سنة على أن كلا من القرفة والكاسيا كانتا من بين منتجات بلاد العرب . بل لقد استمر هذا الاعتقاد سائدًا فى بعض الأحيان بين بعض الكتاب المتأخرين (cf. Jacob of Edessa, Hexameron, p.138=115; Schumann, Zimtlaender, p.121) ويبدو أن التفسير الوحيد لذلك يتمثل فى أن العرب قاموا باستيراد القرفة والكاسيا من الهند أو ربما من مناطق تقع أبعد منها شرقًا، ولكنهم أخفوا الموطن الأصلى لها واحتفظوا به سرًا خاصًا بهم حتى يحافظوا على احتكارهم لهذه التجارة (cf. above, ch.2, nn 104f.) ، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن بلاد العرب لم يكن ينمو فيها أى نوع من أنواع القرفة(*)، ولابد أنهم كانوا وسطاء فى هذه التجارة الشرقية منذ تاريخ مبكر جدًا (cf. above, ch.2, n.102) إذن متى اكتشف الإغريق الموطن الحقيقى للقرفة ؟ طبقًا لما ذكره مكرندل Mccrindle فقد عرفوا عن شجرة القرفة الهندية منذ تاريخ مبكر يرجع إلى القرن الرابع ق.م . عندما قام كتيسياس Ctesias بوصفها على أنها هى شجرة الكاربيون (Karpion) J.W. Mccrindle, tr., Ancient India as Described by ktesias the kindian, pp.29f and the note . ولكن هذا القول لا يمكن أن يكن صحيحًا لسبب واحد ، وهو أن كتيسياس الذى قام بجمع هذه المعلومة فى بلاد فارس، لم يكن فى وضع يمكنه من نسخ الكلمة التاميلية (وعلى فرض أن هذه الكلمة مشتقة من كلمة karuppu

(*) ذكر هيرودوت أن :" القرفة تنبت فى بحيرات قليلة العمق تعيش بالقرب منها حيوانات ذات أجنحة كالخفافيش، يفزع العرب من صياحها وأصواتها المرعبة، ولكنهم لا يخشونها ويدفعونها عنهم ويتقدمون لجنى القرفة" Herodotus The Histories, trans . by Aubrey de Seli Court. P.220. (المترجمة) .

أو ما يشبهها ، فإنني لم أتمكن من التأكد من وجود مثل هذه الكلمة)؛ وإذا كانت كلمة karpion هي كلمة منسوخة من الكلمة السنسكريتية karpura فإن هذه الشجرة كانت مصدراً للحصول على الكافور Comphor وليس للحصول على القرفة. هذا إضافة إلى أن كتيسياس Ctesias بقوله أنه إذا كان الاسم الهندى لهذه الشجرة هو الكاربيون karpion فهى تعادل فى اليونانية اسم myroroda وليس القرفة kinamomon . هذا فضلاً عن أنه لا يوجد أى نوع من أنواع القرفة لشجرته أوراق تشبه أوراق النخيل، أو أنها كانت تنتج أى نوع من الراتنج أو الصمغ الذى كانت تنتجه الشجرة التى ذكرها كتيسياس؛ إذ كان يتم الحصول على الزيت الرئيسى الذى يستخرج من القرفة سواء من الأوراق أو اللحاء، أو القرون أو الغصون الصغيرة ، عن طريق التقطير فقط ، وعلى ذلك فإن الشجرة التى يذكرها كتيسياس ليست هى شجرة القرفة أو شجرة الكافور. (ويستخرج الكافور camphor من بعض أنواع من شجر القرفة Cinnamomum أيضاً).

ويبدو أن الإغريق اكتشفوا القرفة الهندى من ذلك النوع الذى كان يسمى .C zeylanicum أثناء حملة الإسكندر "فقد ذكر لنا إسترابون، أن أرستوبولوس Aristobulus اعتقد أن الأراضى التى تقع جنوب الهند كان يوجد فيها القرفة والناردين ومنتجات عطرية أخرى" (Geography, XV. 1:22) ومع القرن الأول الميلادى كان هناك من يعتقد أن جميع أنواع قرفة الكاسيا التى كانت تستخدم فى العالم اليونانى الرومانى كانت من أصل هندى (Ibid XVI, 4:25) كما كان هناك من يعتقد أن أفضل أنواع اللبان الذكر كان مصدرها بلاد فارس، ويبدو أن معلوماتهم فى هذا المجال لم تكن جيدة. وفى القرن الثانى الميلادى تحدث أبوليوس Apuleis عن القرفة الهندى، وفعل فيلوستراتوس Philostratus الشيء نفسه في القرن الثالث (وكلاهما ورد ذكرهما فى Casson, Cinnamon Cassia in the Ancient World, p.223). وأدين بالفضل في هذا المجال للأستاذ بورسوك G- Bowersock ، ولكن هذه الأقوال تعد استثناء. إن ما كان يتم الحصول عليه من الهند هو "الورق الهندى" malabatbrum والذى اتفق (ربما خطأ) على أنه يتم الحصول عليه من الشجرة المعروفة باسم C.tamala Nees التى تصنف

على أنها شجرة هندية ، ولكن هذه الشجرة لا يتم الحصول منها على لحاء من النوع الجيد الذى له قيمة تجارية كبيرة ;.cf. Watt, Commercial Products of India, pp.312f Miller, Spice Trade, pp.5ff., 23ff. 201;. ورفض لاوفر B.Laufer هذا التصنيف التقليدى على أساس أنه تم تجاهل النوع أكثر من مخالفته. وعلى الرغم من أن كلا من الإغريق والرومان كانوا يقومون بزيارة الهند بأنفسهم ، فإنهم عندما كانوا يعودون لم يكن لديهم إحساس بأن الهند هى ذلك البلد التى تنتج ذلك النوع المعروف بالقرفة Cinnamon واكتشفوا الموطن الأصلى للقرفة فى القرن الأول الميلادى، حيث قالوا: إنها تأتى من شرق أفريقيا، وليس من بلاد العرب ، وقد سبق لأرستوبوليس Aristobolus أن لاحظ أنه يوجد فى جنوب الهند نوع من القرفة Cinnamon يشبه القرفة العربية والحبشية (Strabo, Geography, XV, 1:22) كذلك كان أرتيميدوروس Artimidoros يعرف أن كلا من القرفة ونوع من الكاسيا Pseudo Cassia كانا يأتيان من أفريقيا، وربما اعتمد فى ذلك على أجاثارخيديس (Ibid, XV1, 4:14) ولكن بلينى هو الذى فجر أسطورة القرفة العربية حيث قال : إنها تنمو فى شرق أفريقيا على عكس ما يقال ، ثم يتم نقلها بعد ذلك إلى بلاد العرب بالطوافات (N.H.XII, 85ff) . وذُكر فى كتاب الطواف Periplus ، الدليل لإرشاد التاجر لأفريقيا وبلاد العرب والموانئ الهندية ثم أرشد عن موانئ شرق أفريقيا التى كان يتم فيها تصدير الكاسيا (10,12f) منها؛ والكلمة التى استخدمها خلال حديثه كانت الكاسيا kasia على الرغم من أن شوف Schoff قام بترجمتها على أنها (cinnamon) ؛ كما عرف ديوسكوريديس Dioscorodes كل من القرفة والكاسيا، وذكر أنه يتم الحصول عليها من شرق أفريقيا وبالتحديد من موسيلوم Mosyllum ، وهو ميناء ذكره صاحب كتاب الطواف (Materia Medica, 1,13f./ 12f; cf. periplus 11) . كذلك ذكر بطلميوس الجغرافى أنها تعد من المحاصيل الأفريقية (Geo. IV, 7:34) ورأى فيلوستورجيوس Philostorgius الرأى نفسه Kirchengeschicte, III,6 . أما إزيدور الإشبيلى Isidore of Seville الذى يعد مصدراً أقدم منهما فكان يرى أن هذا المحصول يتم الحصول عليه من الهند والحبشة (Schumann, Zimtlaender, pp.22, cf. p. 25) أما التاجر كوزماس Cosmas الذى زار الهند فى القرن السادس الميلادى فقد استثنى

الهند كمصدر لهـا، وذكـر أن الكـاسيا تستـورد من شـرق أفريقيا، ويتم إعدادها في داخل البلاد ثم يقومون بحملها إلى الشاطئ للقيام بتصديرها من ميناء أدوليس Adulis (Topographie, II, 49,) . وقد ساد الاعتقـاد بـأن كـلا من القـرفـة والكـاسيا – أو الكاسيا من منتجات شرق أفريقيا طوال خمسة قرون، ولم يهتز هذا الرأى حتى القرن السابق للفتوحات الإسلامية .

وعلى الرغم مما تقدم فإن التفسير التقليدى لموطن القرفة يبدو أقل إقناعًا عما يبدو من الوهلة الأولى. وإذا كانت كل من القرفة والكاسيا يتم الحصول عليهما بالفعل من الهند أو الشرق الأقصى، فقد استطاعت نقابة التجار الغامضة التى كانت تعمل فى هذه التجارة فى كل من بلاد العرب وشرق أفريقيا أن تحتفظ بمصدر بضاعتها سرًا لأكثر من ألف عام دون أن تذكر موطنها الأصلى حيث تم التفاهم بين التجار العرب والهنود لفترة طويلة على أن يحصل التجار الرومـان على القرفة من جواردفوى Guardafui فقط ولهذا السبب تم إبعادهم عن أسـواق الهند (Schoff, Periplus, p.6) ولكن هل من الممكن الاحتفاظ بهذا السر الآن؟ كان التجار الإغريق والرومان فى القرن السادس الميلادى يعرفون جيدًا كلا من الهند وسيلان، ولم يلاحظوا أن القرفة كانت تأتى منهما بالفعل، ربما يرى المخالفون أن ذلك يرجع إلى المعلومات غير الصحيحة التى قدمت عن هذا الشعب فى القرن الأول. إضافة إلى أن التجار الإغريق كثيرًا ما كانوا يوجدون فى كل من موانئ بلاد العرب وشرق أفريقيا ، كما توغلت البعثات فى الداخل ، ولم يلاحظ أحد منهم أن أشجار القرفة المشهورة وأشجار الكاسيا لم يكن لهما وجود هناك. وتوقف بعض الكتاب عن الحديث عن القرفة ولكنهم تحدثوا عن الكاسيا فقط لأسباب غير واضحة (سبق وميز الكتاب السابقون بدقة بين القرفة والكاسيا، وشرح بلينى أنهما تنموان فى شرق أفريقيا) ، ولما كان صاحب كتاب الطواف قد ميز بين أنواع متعددة من الكاسيا ففى رأيى الشخصى فإن التغيير الذى تم إنما هو اصطلاحى صرف؛ ويخالف سيجسموند هذا الرأى ، (Sigismund, Aromata, pp.27 ff) ولكن أيا كانت العلامة التجارية التى كانوا يعرفون المنتج عن طريقها، فقد خُدعوا لفترة طويلة بسبب التفاهم الذى كان بين العرب والهنود .. فهل هذا أمر مقبول ؟

لم يكن الأمر على هذا النحو، بل إن المناقشة سوف تتقلص لتصل إلى لا شيء إذا علمنا أن المصريين القدماء عرفوا كلا من القرفة والكاسيا. حيث ذكر الكتاب الكلاسيكيون أن قدماء المصريين استخدموا كلا من القرفة والكاسيا في عملية التحنيط وصناعة العطور A. Lucas, Ancient Egyptian Materials and Industries, pp. 86f., 299 وإنني لأدين بالشكر في معلوماتي في هذا الموضوع وكل المعلومات الخاصة بالمصريات للأستاذ باينز J. Baines وعرف المصريون القدماء مادة تسمى tjsps وتم تصنيفها على أنها قرفة Cinnamon بصفة عامة، ولكننا نضع عليها فقط علامة استفهام (على سبيل المثـال لـدى H. Von Deines and H. Grapow, Woerterbuch der aegyptischen Drogennamen, pp. 549f . أما تصنيف المادة المسماة b jt/h'sjt أو h sjt على أنها كاسيا فهو تصنيف غير صحيح بالتأكيد ..cf. Ibid, pp. 319ff., 417f., A. Erman and H. Grapow, Woerterbuch der Aegyptischen Sprache, s.vv.; J.H. Breasted, Ancient Record of Egypt. Ii,109,265.). وقام ميلر بتصنيف المادة المسماة qdj/qdt على أنها الكاسيا على أساس ما قام به برستيد، ولكن من المحتمل أن هذه المادة هي زبيب العنب ، (راجع cf. Erman & Grapow, Woerterbuch s.v) . إن جميع هذه التصنيفات غير مؤكدة لأنه من غير المقبول أن هذه المواد التي كان موطنها الهند والشرق الأقصى كان يمكن أن تصل لمصر حوالي عام ٢٠٠٠ق.م . كما أنه من الصعب أن نفترض أن العرب قاموا بنقلها من هناك في ذلك التاريخ المبكر (cf. v. Loret, la lore pharaonique, p.151) بينما تذكر المصادر المصرية أنه كان يتم الحصول عليها من بلاد بونت Punt ، أو بمعنى آخر من شرق أفريقيا، ويمكن أن تكون بلاد العرب أيضًا.

فإذا كانت المصادر المصرية والتوراتية والأدلة المستوحاة من الكتاب الكلاسيكيين تقطع بتأكيد بأنه كان يتم الحصول على كل من القرفة cinnamon والكاسيا من بلاد العرب وشرق أفريقيا، فمن العبث أن نصر على القول إنها لم تكن كذلك . ولكن ما البدائل ؟ وعلى عكس مما كان يذكر غالبًا ، فإنه لا يمكن أن يكون قد تم الحصول عليها من الهند أو الصين أو جنوب شرق آسيا .

إن هذه المحاصيل لا يمكن أن تكون قد تم الحصول عليها من الهند. وذلك لأن النبات الذى كان يتم الحصول عليه منها كان عبارة عن شجيرات أو أشجار صغيرة "ويبلغ أقصى ارتفاع لها ثلاثة أقدام" كما ورد لدى بلينى Pliny, (N.H., XII, 89; cf. Theophrastus, Plants, IX,5:1ff; Galen in casson, "cinnamon and cassia," p.232) وشجرة القرفة التى تسمى زيلانيكوم C.Zeylanicum هى عبارة عن شجرة ضخمة تنمو فى الغابات، وما زالت هذه الشجرة موجودة حيث يتم زراعتها كشجيرات صغيرة، وقد قدم ميللر Miller هذه الحقيقة دليلا على الأصل الشرقى لهذه المحاصيل Spice Trade, p.44;، (على الرغم من أنه يعدها من محاصيل ذلك النوع من القرفة الذى يسمى C. Zeylanicum أو أن الهند هى موطنها). وقد شرح بلينى Pliny قائلا إن الشجرة التى يعرفها هى شجيرة برية "فهى تنمو بين الشجيرات الكثيفة والأشجار الشائكة، لذلك من الصعب بمكان القيام بجمعها"؛ وقد لاحظ كاسون Casson, "Cinnamon and Cassia," p.238 ، أن النوع المسمى C. Zeylonicum لم يتم زراعته على نطاق تجارى فى سيلان حتى وصول المستعمرين البرتغاليين والهولنديين ، ولم يكن قد تمت زراعته فى جنوب الهند عندما كان وات يقوم بكتابة كتابه عن المنتجات التجارية فى الهند (Commercial Products of India, pp.313f.) .

كذلك فإن هذا المحصول لم يتم الحصول عليه من الهند. أما الرأى القائل بأن لحاء القرفة كان يستخدم كنوع من التوابل ، كما استخدم فى المواد العطرية والطبية فى الصين منذ فترة مبكرة ترجع للألف الثالثة ق.م. فهو رأى اعتباطى كما هو واضح (Pace A. Dietrich, Dar Sini) . ووفقًا لـ "لاوفر" Laufer (sino- Irarica, p.543) فإن هذه الشجرة ومنتجاتها قد دخلت فى المراجع عندما قام الصينيون باستعمار جنوب الصين خلال عصر أسرة هان Han حوالى عام ٢٠٠ق.م وورد ذكر القرفة كدواء لأول مرة فى فترة تؤرخ بالقرن الخامس أو السادس الميلادى . ومنذ ذلك التاريخ بدأ تصديرها للغرب، وأصبحت تعرف منذ ذلك الوقت باسم الخشب الصينى kar-icenik فى اللغة البهلوية كتعريف لها، وعاشت الكلمة التى تمت استعارتها فى كل من اللغة الأمريكية والعربية وأيضا فى الفارسية الحديثة cf. Ibid., p.541n ووجدت الكلمة نفسها فى التلمود

Low, Flora der Juden, II, 112 وعـرف مـوسـى القـوريـنى Moses of Khoren القــرفــة Cinnamon على اعـتـبـار أنـهـا مـحـصـول صـيـنى cf. Schumann, Zimtlaender p.4 وسيطرت القرفة الصينية وليست القرفة الهندية على السوق بعد الفتوحات العربية للشــرق الأوسـط راجــع : Schumann, Zimtlaender, p.42, citing Ibn Khurdadhbih; Dietrich, "Dar sini;" Jahiz, Tijara, p.33=14 ، وبدون أن نضطر لإرجاع الفضل لعرب الجنوب، وأنهم قد أبحروا فى قواربهم الجلدية على طول الطريق لجنوب الصين فى التاريخ البعيد فلا يمكن أن يكون الخشب الصينى هو الذى ذاع صيته فى العصور القديمة أو فى الشرق الأدنى، كذلك لا يوجد ما يدفع إلى الاعتقاد بأن الكاسيا اليونانية كانت تستخرج من "فروع القرفة Cinnamon الصينية" Kwei- sbi أو أنها تساوى الكلمة العبرية qsra أو الاسم الفينيقى المساوى لها، وهى كلمة سامية تعنى "شيئًا مقطوعًا من" (Pace Schumann, Zimtlaender p.7; Miller, Spice Trade, pp. 42f.; cf. Laufer, Sino Iranic, p.542 n.) أما التفسير الذى قدمه سيجسموند Sigismund لكلمة "kinnamomon" على أنها هى القرفة الصينى Chinese amomum أى الخشب الصينى (Aromata, p.30) فهو تفسير بعيد عن الاحتمال لعدة أسباب: فالصين كانت نادرًا ما تعرف بهذا الاسم قبل عصر أسرة شين Chin ، ولا يمكن أن يكون قد تم استبدال الحرف q أو حرف k راجع (Sino- Iranica p.56q) فالكلمة التى تم اقتراحها كلمة خطأ، على اعتبار ما ذكر من أنه قد تمت استعارتها من الفينيقيين . إضافة إلى ذلك فإن شجرة الكاسيا ليست شجيرة، ولكنها شجرة تنمو ليصل ارتفاعها إلى أربعين قدما Hill, Economic Botany, p.468 وتتميز عن الأنواع الأخرى ببراعمها العطرية ، والتى لم يذكر شىء عنها فى الأدب الكلاسيكى (cf. ibid.; Burkhill, Economic prod- ucts, p.549). ولقد كانت ملاحظة بيركل Burkill صحيحة عندما ذكر أنها لا يمكن أن تكون هى شجرة الكاسيا المعروفة فى العصر القديم .

إن ما سبق يقودنا للجنوب الشرقى لآسيا حيث يذكر ميللر Miller إن إندونيسيا هى وطن القرفة فى العالم القديم، أما الصين فكانت تنتج الكاسيا فقط. ويذكر أن القرفة كانت تنقل بواسطة زوارق التجديف من إندونيسيا إلى مدغشقر Madagascar ،

ومن الأخيرة لموانئ شرق أفريقيا ليتم من هناك بيعها لكل من التجار الإغريق والرومان (Spice Trade, pp.153ff) . إن ما تصوره ميلر لا يعد حلاً مقبولاً، كذلك فهو يعتقد أن تاريخ احتلال الملاويين Malag لشرق أفريقيا يمكن أن يعود للقرن الأول الميلادى؛ ولكننا بحاجة إلى أن نرجع للوراء إلى تاريخ أبعد من ذلك ، حتى يتفق مع حصول قدماء المصريين على القرفة من بلاد بونت، ومن الواضح أن ما ذكره ميللر لا يتفق مع ذلك . (لقد حاول ميلر أن يستنبط الوجود القديم لموانئ شرق أفريقيا كعامل مساعد لإثبات وجودها فى عصر بلينى كتجارة شرقية بعيدة عن طريق شرق أفريقيا (Spice Trade, p.154) إضافة إلى ذلك فإن حقيقة استطاعة الملاويين القيام بقطع هذه المسافة الطويلة عن طريق زوارق التجديف؛ لا يعنى أنه كان فى إمكانهم الإبقاء على تجارة منتظمة بين جنوب شرق آسيا وشرق أفريقيا عن طريق هذه الوسيلة فى النقل البحرى للقرفة لآلاف السنين، وهو أمر مثير للدهشة. (ومثل ذلك عند Groom, Frankincense, p.185). وقد تمكن ميللر Miller من أن يجد لدى بلينى إشارة تدل على هذه التجارة (Natural History, XII, 86ff) ولكن بلينى يقول هنا إن القرفة تنمو فى شرق أفريقيا، ولم تكن تصدر إليها وكان الصوماليون Trogodytes هم الذين يقومون بنقلها إلى ميناء أوكليس Occolis ولم يكن الملاويين ؛ وكانت وسيلة نقلهم هى زاورق بدون دفة أو مجاديف أو أشرعة ، أى أنها كانت طوافات، وليست زوارق بمجاديف (ومثل ذلك عند جراى E.W.Gray, review of Miller, p.22) كما يبدو أن مدة السنوات الخمس التى تستغرقها الرحلة لكى يصلوا فيها للمحيط تبدو مدة طويلة. وقد صدم ميلر طول مدة الرحلة، ولكن يبدو أن المعلومة التى حصل عليها بلينى لم تكن صحيحة . وبطبيعة الحال أورد ميللر الرأى القائل بأن القرفة Cinnamon هى كلمة من أصل مالاوى (Spice, Trade, p.45) وأيد البعض هذا الرأى الذى قدمه لاسين منذ مدة طويلة (C.Lassen, Indische Altertumskunde, I,33 on) .

وبناء على ما تقدم فلا يمكن أن يكون مصدر القرفة والكاسيا هو الهند والصين أو جنوب شرق آسيا، وحتى إذا كان مصدرها تلك المناطق البعيدة كان فى استطاعة المصادر أن تقوم بوصف النبات الذى كان يتم الحصول منه على القرفة. وعرف قدماء

المصـــريين جــذور شــجــرة القــرفــة (Von Deines and Grapow, Woerterbuch, tjsps p.551) ؛ كما قدم كل من ثيوفراستوس Theophrastus وبلينى وصـفًا لكل من أشجـار القرفة والكاسيا (وقد لاحظ جروم ذلك Groom, Frankincense, p.84) ، وقدما معلومات عن طرق جنى المحصــول وطقـوسـه (Plants, IX, 5; N.H. XII, 89 ff) ؛ ولذلك ينبـغى أن نقبل أن كلا من القرفـة والكاسـيـا كان يتم الحـصـول عليـهـمـا من المناطق التى ذكرت المصادر أنها كانت تأتى منها، أى من بلاد العرب أو من شرق أفريقيا وهو الرأى الذى انتهى إليه كثير من الباحثين من قبل (والذين يؤيدون أن مصدرها هو شـرق أفريقيـا هم على النحـو التــالى : Schumann, Zimtlaender, pp. 25 ff.; Similarly Sigismund, Aromata, pp.26 ff.; laufer, Sino Iranica, p. 543; R. Henning, Kinnamomon und kinnamophoros khora in der antiken Literature; Raschke, New studies, pp. 652 ff. (Where the case is exceedingly well made); Groom, Frankincense pp. 84f.)

أمـا الذين يؤيدون الرأى القـائل بأن مـوطن القـرفة هو بلاد العرب وأفـريقيـا فـهـم يعـارضـون الرأى القـائل بوجـود مشكلـة تتمـثل فى عدم وجـود أنوا ع مـتـعددة من القرفـة Cinnamomum كانت مـوطنهـا هذه البـلاد. (A.C. Africanum Lukmanoff Was reported in index kewensis, Supplementum Sextum, Oxford 1926, With reference to a Publication of 1889; but this species is unknown to the literature on East Africa, cf. F. Chiovenda, Flora Somalia; P.E. Glover, A Provisional check-list of British and Italian Somaliland, Trees, Shrubs and Herbs; F. Milne- Redhead and others, Flora of Tropical East Africa; G Cudofontis, Enumeratio Plantarum Aethiopiae). وفى الواقع فإن جميع الأشجار التى تنتمى إلى العائلة النباتيـة المعروفة باسم Lauraceae تعد ضـعيفة النمو فى أفريقيـا، ويبـدو أنها لم تكن تنمو مطلقًا فى بلاد العرب (A. Engler, Die Pflanzenwelt Afrikas, III, 1:219; Blatter, Flora Arabica and Flor of Aden) وقد ارتكز هذا الجانب على معلومات شـومان الدقيقة عنها ، وهو يرى أن شرق أفريقيا لا تتوفر فـيـهـا الظروف المناسـبة لنمو القرفـة على وجـه الإطلاق، مما يلـغى الافـتـراض بإدخـال زراعـتـهـا هنـاك فـى إحـدى الفـتـرات Zimlaender, pp. 28ff . وعقب كاسـون على ذلك بأن الزمن لم يثبت صـحـة رأى شـومـان (Casson "Cinamon and Cassia" p. 235)

لأن النوع المعروف باسم C. zeylanicum قد تمت تجربة زراعته فى شرق أفريقيا (على الرغم من أنه أكثر انتشارًا فى غرب أفريقيا) فى بداية القرن العشرين (Engler, Pflanzenwelt, p.220) كما أدخلت زراعتها فى الحبشة حوالى عام ١٩٥٠ ، وفى كل من زنجبار Zanzibar وتنجانيقا Tanganyika وأماكن أخرى Cudofontis, Enumeratio, p.118 ؛ ولم يتم فقط إدخال النوع المعروف باسم C. zeylanicum ، وتم أقلمت كل من النوع المعروف C. Cassia C. Camphora فى تانجانيقا (Watt and Breyer- brandwijk, Medicinal and poisonous plants, pp. 530 f) وسوف تكون المناقشة غير مجدية إذ كان يتم الحصول على كل من القرفة والكاسيا من شرق أفريقيا فى العالم القديم من نوع أو أنواع متعددة من Cinnamomum . ولم يعثر على أثر لهذه المادة Cinnamomum فى الآثار المصرية القديمة (Lucas, Ancient Egyptian Materi- als, pp. 301,308 f.) . ويمكن التنبؤ بأنه لن يعثر على شيء منها مستقبلاً.

إن الرأى الذى قدمه لاوفر (Laufer (sino- Iranica p.543 وجروم (Groom (Frank- incense, p.85) وبعضهم متخصص فى علم النباتات F.N. Hepper, "On the Trasfer- ence of Ancient Names," p. 130 ، وهو الرأى القائل بأن القرفة Cinnamon والكاسيا التى كانت معروفة فى العالم القديم ليست هى الأنواع التى نعرفها اليوم . ويمكن أن نثبت هذا القول على الرغم من كل الشكوك التى تثار حوله وذلك على أساس الأوصاف التى أورد ذكرها ثيوفراستوس Theophrastus, Plants IX, 5 وبلينى Pliny, N.H.XII, 89ff حيث قالا إنه كان يتم الحصول على القرفة من الشجيرات التى تنمو فى الأودية بين الجبال (ثيوفراستوس) Theophrastus, بين الشجيرات الكثيفة وبين الشجر الشائك، ولذلك كان من الصعب جمعها (Pliny) . وكانت هذه الشجيرات صغيرة فى حجمها (ثيوفراستوس)، ويتراوح ارتفاعها من شبر إلى ثلاثة أقدام (Pliny) . وعند الحصاد يتم قطع النبات بأكمله (ثيوفراستوس، ويخالفه بلينى)، وشكلها جاف وورقها يشبه الزعتر البرى. ويفضل هذا النبات التربة الجافة، وتقل خصوبته فى المناخ الرطب ، وهو ينمو بجوار الكاسيا، على الرغم من أن النبات الأخير هو نبات جبلى (بلينى) . كذلك فإن الكاسيا عبارة عن شجيرات ولكن من نوع سميك ، وألوان لحائها أسود وأبيض

(ثيوفراستوس) فاتحة وداكنة ، منقطة ، وبيضاء ناصعة في القرفة Cinnamon ، وبيضاء وتميل إلى الاحمرار وسوداء في الكاسيا cassia (Pliny, cf also Dioscorides, Materia Medica, 1, 12f./ 13f.; cf. also Casson, "Cinnamon & Cassia," PP.228ff., 232) .

ويدون أن يجنح بنا الخيال، هل يمكن أن تكون هذه المعلومات تشير إلى ذلك النوع من القرفة الذي يعرف باسم سينامومومم Cinnomomum ؟ وهي تلك الفصيلة التي تنمو في الجو الرطب ، والتي تمثل أشجار ضخمة ذات أوراق سميكة . إن الأفراد الذين يستخدمون القرفة في العصر الحديث سوف تصيبهم الدهشة عند الإشارة لألوانها السوداء والبيضاء والمنقطة لهذه الأنواع، بالرغم من أن هذا الموضوع لم يكن حاسما عند كاسون (cf. Casson, op. cit, pp.229f) . إن ما قام بوصفه كل من ثيوفراستوس وبليني هو عبارة عن شجيرات بعلية من ذلك النوع الذي يتكاثر في الغابات الشوكية في الأقاليم التي تقع بمحاذاة البحر الأحمر (cf. Polunin Plant Geography, pp.442f) ولا مجال للشك لدينا في أن النبات موضوع حديثنا كان ينمو في الأماكن التي ذكر الكتاب الكلاسيكيون أنها كانت تنمو فيها (ولا يوجد في الوصف ما يدل على أنها كانت تنمو خارج بلاد العرب) ، ولكن هذا لا يعني أن تلك الأنواع التي كانت تنتجها هذه النباتات يمكن أن نقارنها بمثيلاتها في العصر الحديث .

وإذا كانت كل من القرفة Cinnamon والكاسيا القديمة تختلفان عن "الخشب الصيني" فكنا نتوقع من المصادر أن تتحدث باستفاضة أكثر عن "الخشب الصيني" عندما بدأ تصديره . وقامت بعض المصادر بذلك بالفعل عندما تحدثت عنها بالتحديد . وفي تعليق جايونك Gaionic على إحدى فقرات التلمود الخاصة بالدارسيني darsini شرح بأنه (أي الدايستيني) هو نبات صيني يشبه القرفة qinnamon أو ربما هو يطابقها، كما يرى لوى Low Flora der Juden, II,112 ؛ ولكن القرفة cinnamon التلمودية التي كانت تنمو في فلسطين ، والتي كانت الماعز تتغذى عليها كانت نباتا آخر مختلفًا، (cf. Ibid, pp. 108f; id, Pflanzennamen, p.346) وشرح أحد الكتاب السوريين في تاريخ غير معروف أن القرفة qinnamon ليست هي المادة التي كانوا يسمونها كيناما qinnama أو الدارسيني darsini ، ولكنها نوع من الخشب له رائحة زكية

Budge, Syriac Medicine, p. 609=724 ؛ وهنا نجد أن النبات المعروف باسم كينامون qinnamon هو اسم لمحصول مختلف تمامًا. وذكر عدد كبير من الكتاب العرب أن القرفة qirfa مادة عطرية تختلف عن مادة الدارسيني darsini التي تشبهها أو تضاهيها . وقد صنف الدينوري القرفة على أنها مثل أي لحاء، وهي تشمل قرفة الطيب qirfat al-tib ، ويبدو أنه كان لا يزال يجهل ارتباطها بالخشب الصيني (Dictionnaire, no,865) ثم قال بعد ذلك مباشرة في مكان آخر إن القرفة qirfa هي نوع من أنواع الدارسيني darsini، كما قال إنها نوع مختلف عن الأنواع التي تشابه معها khwarizimi, Mafatih, p. 172 . والواقع أن الدارسيني Darsini لم يكن هو القرفة qirfa ، وأقر ذلك لأن المصريين يسمونها قرفة الدارسيني qirfa darsini (Maimonides in M. Levey, Early Arabic Pharmacology p.150) أما القرطبي In Schmucker, Materia Medica, p. 342 فقد رفض أن يقوم بتصنيف الاثنين ، واستخدم هذا الرفض خطأ على أنه يعكس وجهة نظره الأولية . إن قرفة الدارسيني هي نوع أقل عطرية من الدارسيني ؛ ويقال أيضًا إنها نوع مختلف عن الدارسيني .. فبعضها أسود اللون والآخر أبيض اللون.. (Arrajani in Biruni, Pharmacy and Materia Medica, p.303=265) ، والقرفة عبارة عن لحاء يختلف لونه من الأحمر إلى الأسود .. وهي تشبه الدارسيني (Razi cited Ibid, p.303 =266) إن القرفة أكثر ندرة من الدارسيني، ويقول البعض إنها جنس Jins يختلف عن الدارسيني ونسب ذلك إلى ديوسكوريديس Dioscorides in Biruni Pharmacy and Materia Medica, p. 304=266 وبمعنى آخر فإن القرفة هي نوع من اللحاء يشبه إلى حد كبير الدارسيني، مما كان ينتج عنه الخلط بينهما، ولونه يميل إلى الاحمرار (وذكر عدد من الكتاب هذه الألوان ، كما ذكرها البيروني، ولا يبدو أنه استقاها من ديوسكوريديس (Dioscorides) ، وهي محصول عربي) ويدل على ذلك ما ذكره الدينوري حيث كان يتحدث عن محصول عربي وإلا كان قد قام بتحديده، وأصبح أكثر ندرة من نظيره الصيني. وعلى الرغم من كل ما تقدم فما يزال هناك بعض الشك حول ما إذا كانت القرفة qirfa تعني كل من cinnamon والكاسيا في العصور القديمة.

ووجدت القرفة qirfa أيضا في شرق أفريقيا، حيث أن محصول باباسبي babasbi دارسيني هو نفسه (القرفة qirfa) ينسب ذلك إلي بول الأيجيني Paul of Aegina in Bi- runi, Pharmacy and Materia Medica, p. 190=156 كما وجد في شرق أفريقيا نوع يسمى زانجي دارسيني Zanji darsini ، له رائحة كريهة، وهو ذلك النوع الذى كان يلقح بنبات ذى راحة غير نافذة، كما توجد أنواع من النباتات ذات الرائحة نفسها تشبه الدارسيني Ibid, pp.190=156 ومن الواضح عدم ارتباط هذه الأنواع بالأنواع المذكورة فى الرواية القديمة.

وإذا كان يمكن وصف النبات موضوع حديثنا فذلك من اختصاص علماء النبات، ولم يقدر لهم النجاح في ذلك حتى الآن (F.N. Hepper, Personal Communication) وأدى صمتهم عن الحديث في هذا الموضوع إلى استمرار النقاش حول هذه القضية، وكذلك كان من الصعب على تجار القرفة cinnamon والكاسيا في موانئ الصومال أن يحافظوا على سر محصولهم عن مؤلف كتاب الطواف، كما أنه من الصعب أيضا، الاعتقاد أن كلا من الصومال والحبشة كان يمكنهما أن يفتخرا بوجود شجرة لديهما يعطى لحاؤها رائحة زكية ، وكانت هذه الشجرة تكفى لتغطية احتياجات جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية، ثم قدر لهذه الشجرة الاختفاء بعد ذلك ، دون أن تترك أثرا في سجل نباتاتها" ذلك هو ما لاحظه كاسون، وكانت ملاحظته صحيحة "cinnamon and cassia" p.236 ، لذلك اختار الصين موطناً لهذه الشجرة ، وبتحديد أكثر جنوب شرق آسيا وعلى أى حال فإنه من السابق لأوانه القول بأن هذه الشجرة الحبشية الصومالية اختفت تماما من سجل النباتات ، لأنه يحق لنا أن نتساءل ما عدد المتخصصين في النبات، الذين يعملون في المناطق المذكورة ، وفي ذهنهم بحث مشكلة القرفة؟ وكم فرد من بين هؤلاء يقوم بالبحث عن شجيرة بدلاً من شجرة ضخمة؟!

وأيا كانت النتائج التي سوف تقدمها أبحاث هذا العلم فمما لاشك فيه أن القرفة cinnamon هي كلمة ذات أصل سامي، تتساوى مع القرفة qirfa وكسيا qsia (وتترجم الأخيرة في اللغة العربية بكلمة ساليكها salikha راجع : -Low, Pflanzenna

men; Lane, Lexicon, s.v) ولا يمكن أن تكون الكلمة مشتقة من الجذر qnm وهو الرأى الذى رفضه لوى وكان محقا فيه (Low, Flora der Juden, II, 107) ويبدو أن الجزء الأول من الكلمة يعنى بوص (غاب) (وفى العربية كَناب qanab والجمع كيناكينامون ، كينامومون qina qinnamon, kin(n)amomon وقد تم مضاهاة الأخيرة خطأ بأمومان amoman ، وهذا يعنى البوصى (أو بوص شيء ما) وهى الكلمة التى لم تعد ترتبط فى بنائها بالبوص الآن .

الملحق الثانى

قصب الطيب Calamus

هو نوع من البوص وصف بأنه من الطيب qaneb bosem, qaneb lob ، وقد ورد وصفه فى التوراة، ويذكر دائمًا مع نوع واحد على الأقل من المنتجات العربية، والتى ذكر أن الفينيقيين من أهل صور Tyre كانوا يتاجرون فيه Exodus, 30:23f; Jeremiah, 6:20; Ezekiel, 27:14; song of songs, 4:14) ، مما يدفع للاعتقاد بأنه يمثل أحد البضائع العربية، ولقد ذكر كل من ثيوفراستوس، وبلينى أن البوص العطرى Kalamos euodes; calamus odoratus يوجد فى بلاد العرب وعرفا أنه كان ينمو فى سوريا أيضًا، وعلى وجه التحديد ينمو فى المنطقة الجافة من مخرج البحيرة الواقعة فى وادى لبنان حيث يوجد السمار الحلو Theophrastus, plants, IX,7: Pliny, N.H., (Arabic Jdhkbir) XII, 104ff ويذكر أجاثارخيديس Agatharchides أنه ينمو فى بلاد العرب؛ وقد قام المعينيون ببيع المر، والطيب فى مصر كما يدل على ذلك أحد النقوش Rhodokanakis, "Sarkophaginschrift von Gizeh," p.113 وثبت وجود الكَلم Qlm بين سلة طيوب جنوب العربية Ryckmans, "Inscriptions sud-arabes," p.176 .

ويذكر بلينى أيضًا أن قصب الطيب ينمو فى الهند N.H. XII, 104ff ووصفه ديوسكوريديس Dioscorides بأنه "رفيق كل مجلس" (Materia medica, I, 18/17) وجاء ذكر قصب الطيب الهندى فى أماكن أخرى (Raschke, "New Studies," pp.651.f) ، ويبدو أنه كان ينمو أيضًا فى شرق أفريقيا، حيث ذكر إسترابون وجوده هناك Geg. (XVI, 4.9) وكان يتم استيراده منها فى القرن السادس (Cosmas, Topographie, II,49) وأطلقت عليه المصادر الإسلامية اسم قصب الطيب (cf. Low, Pflanzennamen, p.342 qasab al- dharira, Lane Lexicon, S.V. dharira) . وذكر أنه فارسى الأصل، ويذكر

الجاحظ أنه كان يتم استيراده من خوارزم (Tijara, p.36) . وقد ترجم بيلات Pellat قصب الطيب خطأ في ص١٥ على أنه قصب السكر. أما القزويني فذكر أنه كان غالي الثمن في نهاوند Cited in Mullmann, Die Natur und Geheim Wissenschaften Im Islam, p.93 ويذكر البيروني أن البوص الفارسي سمي باسم كلاموس Calamus في اللغة اليونانية. وكان يعرف من خلال المصادر الكلاسيكية والإسلامية أنه ينمو أيضا في الهند، (الأدوية والمواد الطبية ، ص٣٠٩=٢٦٩).

وهناك رأي آخر يرى أن هذا النبات يصنف بصفة عامة على أنه عشب ينمو طوال العام ، وينتشر وجوده من سيلان إلى شمال أوروبا وما يليها ويسمى في اللغة الإنجليزية باسم عِرْق أيكر Sweet flag ، واستخدم بكثرة لإضافة نكهة للطعام والشراب، ومصدراً لمسحوق الأسنان، ومبيداً للحشرات ودواءً مضاداً للإسهال الشديد ولعلاج علل أخرى (Uphaf, Dictionary, s.v) ، وهو لا ينمو في سوريا أو بلاد العرب أو شرق أفريقيا (cf. G.E. Post, flora of Syria, Palestine and Sinai; Blatter, flora of Aden and flora Arabica; Glover, Provinional check- list; chiovenda, check-fist, . Watt and Breyer -Brandwij, Medicinal and Poisonous plants, and so forth) وإذا قبل هذا التصنيف للنبات، فسنكون هنا أمام مشكلة تشبه مشكلة القرفة Cinnamon ، ويكون التفسير المعَدُّ مقدمًا لذلك وهو على النحو التالي : إن العرب قاموا باستيراد قصب الطيب من الهند أو من مناطق شرقية أبعد منها واحتفظوا بمصدر بضاعتهم سرا؛ حتى يحافظوا على احتكارهم لهذه التجارة ، وأنهم بدأوا هذه التجارة منذ العصر الفرعوني (cf Moldenke & Moldenke, Plants, p.41; Miller, Tpice trade; p.43) ، وكانوا يعملون فيها في كل من بلاد العرب وشرق أفريقيا. ومن هنا برزت فكرة المكان الذي ينمو فيه هذا النبات ، ولكن ما السبب في الذهاب بعيداً للدفاع عن تصنيف بعيد عن الاحتمال؟

وإذا كانت المصادر قد وصفت نباتا بأنه ينمو في سوريا وبلاد العرب وشرق أفريقيا وفارس وبلاد الهند ، فلماذا نريد أن نصنفه على أنه نبات ثبت وجوده في

فارس والهند وليس فى شرق أفريقيا وبلاد العرب(*) وسوريا؟ وإذا تحدثت المصادر عن بوص، فمن نكــون نحن حتى نقــول إن هذه المصــادر كانت تـعنــي عشب rhizomes ؟ إن كل من ثيـوفـراسـتـوس theophrastus وبليني يذكـران أن كـلا من قـصب الطيب Skboinos, Kalamos والسمار الحلو ينموان فى لبنان libanus ، بين السلاسل الجبلية، فى سلسلة صـغيرة فى التـجاويف بينها حيث توجد بركة كبيرة ينمو بجـوارها فى المستنقعات الجافة ويغطيان منطقة تبلغ مساحـتـها أكثر من ٣٠ فيرلونج (فيرلونج مقياس طولي=٨,٠ ميل أو ٢٢٠ياردة) وعندما يكون النبات طازجاً لا يكون له رائحة ، ولكن تبدأ رائحته فى الظهور عندما يصبح جافا، وهـو يختلف فـى الشكل عن البـوص أو السـمار العـادى (Theophrastus, plants, IX, 7:1; cf. Pliny, NH., XII, 104 ff) . وفهم هورتبولي Hortduly مما تقـدم أن هـذا الوصـف يمـثل عـرق أيكر sweetflag (أو عـشب الجنزبيل). وكيف يمكن لهذا المسـحوق rhizomes المستورد من الهند أن يرقى لمثل هذا الوصـف التـفـصـيلي الواقـعي الذى ورد به عند كل من بليني وثيـوفراسـتوس؟ كـمـا أن السمار الحلو skoinos لم يكن هو عشب الجنزبيل كما رأينا، ولو كـان الأمر كذلك فإننا يمكن أن نقـول أن الكلامــوس Kalamus ليس هـو عِـرْق أيكر sweet flag ، إن مــادة أكورين Acorin التى تستـخـرج من عرق أيكر Acorus Calamus مذاقـهـا مُر ، وحيث إنها مضادة للحشرات والإسهال وتسوس الأسنان؛ فيبدو أنها لم تكن تستخدم فى العطور British Pharmacential Codex, p.241; Watt, Commercial Products of India, p.24 (ويرجع السبب فيما ذكره هوف Uphof من معلومات عن استخدامها فى العطور إلى المصــادر الكلاسـيكيـة). واسـتـخـدم البـوص العطرى فى صناعـة الروائح العطرية والكريمات فى منطقة تمتد من الهند إلى شرق أفريقيا، ويمكن أن نقبل ظاهريا تصنيفه على أنه ينتمى إلى العائلة النباتية التى تسمى باسم Cymbopogon (سابقًا Andropogon) وهو نوع من الأعـشـاب العطرية التى ينتـمى إليـهـا البـوص الحلو Skbinos وسـبق أن

(*) ورد ذكر لهذا النبات فى النقش العربى المعينى الذى عثر عليه فى الجزيرة . راجع: Abdul Monem (A.H.Sayed) Reconsideration of Minean Inscription of Zayd il bin Zyed, P5AS. 11984, Vol. 14, pp. 93ff.

اقـــتـــرح ذلك فـي (cf. Moldenke and Moldenke, plants of the Bible, p.40; Miller, Spice Trade, p.43; Schmucker, Material Medica p.348) أو بالفـعل من أنواع كثـيرة من الغـاب العطرى الذى ينضـوى تحت الاســـم الـتـجـارى لقصب الطيب Calamus : وعلى ذلك فربما كـانت المصـادر تشير إلى عـدة أنواع من العـائلة النباتية المسمـاة : Cymbogon ، أو عـدة أنواع بالفـعل من البـوص تحت الاســم التـجـارى Calamus ؛ لذلك فمن المحتمل وجود أنواع عديدة منها : مثل ذلك النبات الذى يحمل اليوم اسم الكلامـوس العطرى Acorus Calamu ، والذى عـرفـه الكتـاب المسلمـون باسمـه الـهندى . Schmucker, Material Medica, pp. 528f

وعلى ذلك يمكننا أن نلخص تجارة قصب الطيب على النحو التالى: انتشر قصب الطيب فى فلسطين فى عصر التوراة، وربما انتشر كذلك فى مصر القديمة على يد الفينيقيين مع بضائع عربية أخرى ، مثل المر واللبان الذكر والقرفة . وكان مصدرها جنوب بلاد العرب وسوريا، حيث ثبت وجود قصب الطيب العربى والسورى فى فترة مبكرة ترجع للقرن الثالث ق.م . ومن الغريب أن عرب الجنوب اختاروا الاسم الإغريقى للبوص العطرى (qlm) فى سلة الطيوب السبئية ، ووردت كلمة qlmyt فى أحد النقوش المعـينيـة؛ (E.Boisaque, Dictionaire etymologique de la langue greque, p.397 ؛ وفى الوقت نفسه اختار الإغريق الكلمة السامية للبوص الخاص بهم (Kanna, cf. Ibid p. 406) . وأيا كان المعنى الذى يمكن أن يخرج به من هذا التبادل للأسمـاء ، فيبدو أن قصب الطيب العربى والسورى قد سيطر على السوق حتى القرن الأول ق.م. عندما بدأت تعرف الأصناف الهندية : ولم يتم فرض ضرائب على قصب الطيب لغياب وجوده من التعريفة الجمركية ، وكان سعره منخفضاً ، راجع موللر (Miller, Spice Trade, p.24) الذى يعتبر أن هذا يمثل مشكلة. كما تم تداول الأنواع الأفريقية منه، ومع القرن السادس الميلادى أصبح النوع الأفريقى هو المصدر الرئيسى للعالم اليونانى الرومانى، وليس هـناك ما يشير إلى أن قريشاً كانت لها علاقة به سواء بالنسبة للتصدير أو للاستهلاك المحلى .

الملحق الثالث

مصطلح الصبار Aloe وأصوله اللغوية

يذكر ميللر Miller أن الصبار الإغريقي Aloe عبارة عن خشب عطرى (عود الطيب – أو خشب النسر) ، وهو مشتق من الكلمة السنسكريتية agaru عن طريق لغة وسيطة وهى لغة التاميل Tamil akil والعبرية ballot (أو قريبتها اللغة الفينيقية). أما الصبار بمعنى دواء مر (aloes) فقد اقترح أنه اشتق من الكلمة الفارسية alwa ، راجع : (Spice trade, pp.35f.) وهذا الرأى لا يمكن أن يكون صحيحاً .

ويرجع ذلك لأن اشتقاق كلمة abal العبرية من الكلمة السنسكريتية agoru غير مؤكد، على الرغم من قبول كثير من الباحثين لها (cf. Low Planzennamen, p. 295) ، حقيقة أن كلمة balot لها وقع أجنبى Proverbs, 7:17, psalms, 45:8, and song of songs, 4:14 حيث تم تعدادها مع المر، والقرفة وأنواع أخرى من الطيوب . ولكن فى المزمور رقم ٢٤:٦ جاء ذكرها فى حالة الجمع balim على أنها أشجار كانت معروفة للذين حضروا للاستماع للنبى بلعام Balaam ، من أجل ذلك يبدو أن كلمة balim تشير إلى شىء يختلف عن balot ؛ وإذا كان الأمر كذلك فمن المحتمل أنها عبارة عن أشجار تنتج نوعًا من الطيب مثل balot ، أكثر من كونها هى الأشجار التى تحمل اسم الطيب الذى يستورد من الهند .

وحتى فى حالة ما إذا قبلنا أن كلمة a bal تعنى خشب النسر فلا يمكن أن تكون مشتقة من كلمة Aloe الإغريقية. إن هذه الكلمة الأخيرة Aloe يجب أن يكون أصلها ساميا كما لاحظ لوى Low, Flora der Juden, II, 149، وأنها أدخلت على اللغة اليونانية باعتبارها دواء مراً. وقد كتب اسم هذا النبات الذى كان ينتج هذا الدواء بإضافة حروف ayn من اللغة الآرامية والسورية (cf. Low, Planzennamen, p. 295; id., Flora der Juden. II, 149) ؛

وثبت وجود كلمة alway لدى بدج (Budge, book of Medicines, passim) ؛ والتى تعد نموذجًا أصيلاً كاملاً للحروف اليونانية لكلمة Aloe . بمعنى أن الاسم اليونانى هو نسخ مباشر من الاسم السامي . ثم عادت الكلمة اليونانية النبات لتنسخ مرة ثانية فى اللغة السريانية والآرامية (cf. Low, Planzennamen, p.295; In Jacob of Edessa, Hexaemeron, p.139) ، وكان اسم الدواء المر هو alwa وصبر Sabra ، فالأول يونانى والثانى هو دين لكلمة عربية، ثم انتقلت الكلمة من السريانية والآرامية إلى العربية والفارسية .cf. Low, loc (Cit; Dinawari, plants, p.39, no. 40 Caluwwa, uluwwa) إن الصبار alwa الفارسى وأنواع أخرى عديدة تم نقلها إلى الحروف اليونانية دون الإشارة إلى ذكر مصدرها (cf. Sino-Iranic, p.481) .

إذن فإن المعنى الأصلى للصبار الإغريقى Aloe هو الدواء المر Aloes أما المعنى الأصلى لكلمة خشب النسر فهو agallokbon ، وهى كلمة التقطها الإغريق الذين كانوا فى الهند وورد ذكرها للمرة الأولى لدى ديوسكوريديس Dioscorides Materia Medica, I, 22:21 ، ولم يخلط ديوسكوريديس أو الكتاب الآخرون فى القرنين الأول والثانى الميلاديين بين النوعين . وعندما ذكر صاحب كتاب الطواف (Periplus 28) الصبار aloe بين المواد التى تصدر من حضرموت، فمن الواضح أنه يشير هنا إلى الدواء المر السوقطرى (Space Huntingdon, Periplus, p. 132; cf. also Maccrindle, periplus, p. 15) وعندما قدم نيقوديموس Nicodemus المر والصبار لتحنيط المسيح(*) كما ذكر فى إنجيل يوحنا (John, 19:39) ، فإنه قدم المادتين المرتين أى المر والصبار aloes (كما هو مذكور فى النسخة المعترف بها). وعندما أوصى سيلسوس Celsus بالصبار aloe كمادة مطهرة للمعدة، فقد كان فى ذهنه الدواء المر (والتى قام سبنسر Spenser بتصحيح ترجمتها De Medicina, I, 3:26) ثم ذكر سيلسوس Celsus الصبار aloe فى نصوص أخرى ، والتى اعتبر سبنسر Spenser أنه يشير فيها إلى خشب النسر. وقد تابع ميللر المسألة فى (Spice trade, p. 35; cf. above, ch. 3 n 34) ولكن إذا كان سيلوس فهم فجأة

(*) من شبه بالسيد المسيح وليس المسيح نفسه . (المترجمة)

الفارق الكامل بين المادتين ، فكان المرء يتوقع منه أن يشير إلي ذلك كثيراً : فكيف كان يمكن لقارئه أن يعرف أن الدواء هو الذى جاء وصفه هنا ؟ إنه لم يكن يشبه ذلك الذى ذكر على أنه دواء وظهر في الفقرة التالية ٢٦ : ١ ، ٣ ، وكان سيلسوس يفكر فى الدواء المر alocs خلال كتاباته، وهى الحقيقة التى يدل عليها ذكر كلمة aloe دائمًا مرتبطة مع المر فى وصفاته.

وهنا نتساءل عن التاريخ الذى أصبح فيه اصطلاح aloe يعنى خشب النسر إضافة إلى الدواء المر؟ يبدو أننا يجب أن نرجع الفضل فى ذلك إلى الترجمة السبعينية للتوراة Septuaginr . فقد واجه الذين ترجموا التوراة إلى اللغة اليونانية مشكلة فى ترجمة كل من كلمتى balim و ballot فهم لم يعرفوا نوع الشجرة التى جاءت الإشارة إليها فى الفقرة ٦:٢٤، والتى شبهت فيها خيام إسرائيل بأشجار السدر Cedar (أشجار الأرز) والباليم balim التى زرعها الله ؛ ولذا قرأوا كلمة الباليم balim . على أنها خيام Tents التى من الواضح أنها قراءة غير صحيحة. ومن الواضح أنهم لم يكونوا على دراية بطبيعة النوع الذى أشاروا إليه فى مكان آخر بأنه يسمى balot ، ولذلك ترجموه بكلمة aloe ، على الرغم من أن هذه الكلمة كانت تعنى فقط الدواء المر فى عصرهم، ويبدو أن السبب فى ذلك يرجع فى اختيارهم لهذه الكلمة على أساس جرس الكلمة فقط كما فعل ميللر ، فى حين أن نصوص التوراة توحى بأن الـ balot هى شىء له رائحة طيبة تشبه خشب النسر agalokbon على سبيل المثال. وإذا ادعى الإغريق عند قراءتهم للإنجيل أن النوع المذكور فيه هو خشب النسر، فهم بذلك يشيرون إلى الترجمة السبعينية(*) التى ذكرت خشب النسر على أنه aloe ، وهو الأمر الذى سيترتب عليه الخلط بين النوعين اللذين انتشرا مع المسيحيين . وكلمة Aloe كانت تعنى خشب النسر فى التعريفة الجمركية الخاصة بالإسكندرية، التى استشهد بها جستنيان (Justinian reproduced in Miller, Spice Trade, p.279) ، كما كانت تعنى الشىء نفسه عند التاجر كوزماس (Cosmas فى كتابه Topographie, XI, 15) . ثم انتقلت الكلمة

(*) عن الترجمة السبعينية للتوراة . راجع تعليق المترجمة عليها المذكور فى ص٩٧ من الترجمة .

بمعناها المزدوج أى الدواء المر، وخشب النسر مرة أخرى إلى اللغتين السريانية والعربية. وقد صنف النوع المسمى ballot بكلمة aloe بمعنى خشب النسر، وصنفت كلمة balim التي عرفها أصحاب النبي بلعام بهذا الاسم أيضا، وعلى ذلك تكون ترجمة الفقرة على النحو التالي : "إن خيام إسرائيل كانت مثل شجرة عود الطيب التي زرعها الله" كما هو مذكور في الترجمة الموثوق بها.

"نص الوثيقة البردية"

Grohmann (A), Arabic Papyri Hirbet EL-Mird,

Louvain 1963 71, pp. 82-83

(١) ... [ ] . [ ] -[ ] .[ ] س و عـ[

(٢) [و] اقد بن عـ[ـبد ا]لـ[ـله و]رسو [له

(٣) من [ا]الطاكـ[ـ]ـا و[ ] - شجر [

(٤) من بنى عدى بن كـ[ـعب] - من بنى [

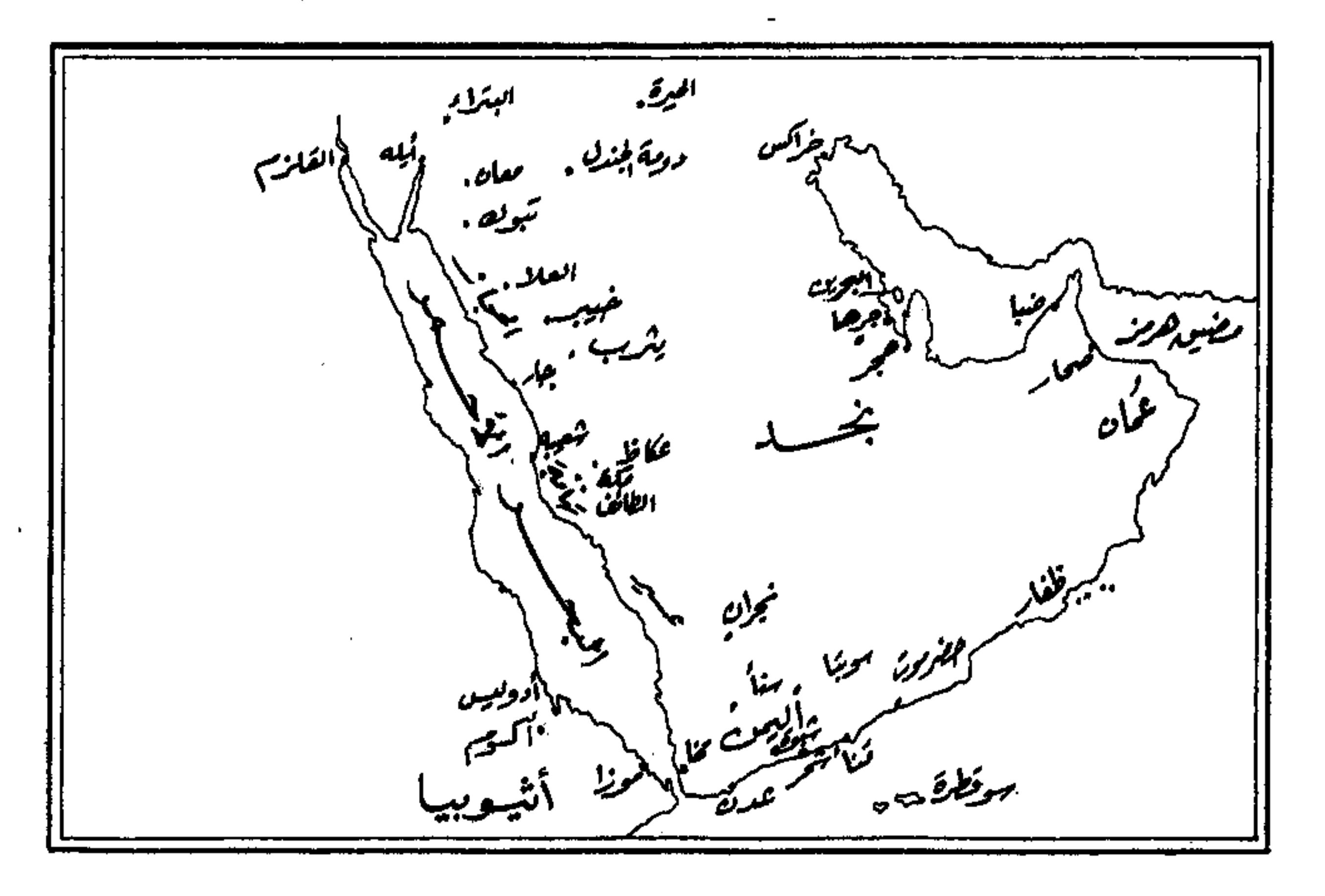
(٥) لمغيرة وحكم بن صـ[ ] . [لا]...[ ] ود . [ا] [ ] د[ ] د[ ]

(٦) أربعة عشر شهرا من [شهر] محـ[ـرم الـ[ـكريم خرجـ[ـوا] ن إلى بدر وحـ[

(٧) محمد إلى بدر فالتقوا ببدر دازداب علـ[ـى] ثمانـ[ـيـ]ـة [عشـ]ـر شهرا من محرم [الكريم

(٨) محمد من مكة وقريش نومـ[ ] [و] من مكة ألف رجل قنبا ومجيد بن





خريطة شبه الجزيرة العربية وأهم مراكزها التجارية في العصور القديمة



BIBLIOGRAPHY

'Abbas b. Mirdas. Diwan. Edited by Y. al-Juburi. Baghdad, 1968.

'Abd al-Latif al-Bagdhadi. Kitab al-ifada wa'l- i'tibar. Edited and translared by K. H. Zand and J. A. and I. E. Videan under the title The Eastern Key. London, 1965.

'Abd al-Razzaq b. Hammam al-San 'ani. Al-Musannaf. Edited by H. -R. al-A'zami, 11 vols. Beirut, 1970-1972.

'Abid b. al-Abras, see Lyall.

Abu'l-Baqa' Hibatallah. Al-Manaqib al-mazyadiyya. British Library, MS add. 23,296.

Abu Ezzah, A. "The Political Situation in Eastern Arabia at the Advent of Islam." Proceedings of the Twelfth Seminar for Arabian Studies, London, 1979, pp. 53-64.

Abu Hayyan al-Tawhidi, Kitab al-imta' wa'l-mu'anasa. 3 vols. Edited by 1st. Amin and A. al-Zayn. Cairo, 1939-1944.

Abu Nu'aym Ahmad b. 'Abdallah al-Ishbahani. Dala'il al-nubuwwa. Hyderabad, 1950.

Abu Yusuf Ya'qub b. Ibrahim. Kitab al-kharaj. Cairo, 1346.

Afghani, S. al-Aswaq al-'arab fi'l-jahiliyya wa'l-Islam. 2nd ed. Damascus, 1960.

Aga-Oglu, M. "About a Type of Islamic Incense Burner." Art Bulletin 27 (1945), 28-45.

Agatharchides: in Photius, Bibliotheque. Vol. 7. Edited and translated by R. Henry. Paris, 1974; in C. Muller, ed. and tr., Geographi Graeci Minores. Vol.1. Paris, 1855; in D. Woelk, tr., Agatharcides von Knidos ueber das Rote Meer, Uebersetzung und Kommentar. Bamberg, 1966.Partial translation by J. S. Hutchinson in Groom, Frankincense, pp.68 ff(&&86-03); by Pirenne,Qataban, pp. 82 ff(&&97-103)by Huntingford. Periplus, pp 177-197.

Aghani, see Isbahani.

Ahsan, M.M. Social Life under the Abbasids. London, 1979.

Albright, W. F. "The Chaldaean Inscription in Proto-Arabic Script." Bulletin of the American Schools of Oriental Research. No. 128. December 1952, pp. 39-41.

-------. "The Chronology of Ancient South Arabia in the Light of the First Campaign of Excavation in Qataban." Bulletin of the American Schools of Ori- Ental Research. No. 119. October 1950, pp 5-15.

Ammianus Marcellinus. Rerum Gestarum Libri. Edited and translated by J. C. Rolfe. 3 vols. London, 1935-1939.

"Amr b. Qami'a. Poems. Edited and translated by C. Lyall. Cambridge, 1919.

Arrian. Anabasis Alexandri. Edited and translated by P. A. Brunt. 2 vols. Cam-Bridge, Massachussets and London, 1976-1983.

The Assyrian Dictionary of the Oriental Institute. Chicago and Gluckstadt, 21 vols. 1956-1982.

Aswad, B. "Social and Ecological Aspects in the Origin of the Islamic State." Papers of the Michigan Academy of Science, Arts and Letters 48 (1963), 419-442.

Atchley, E.G.C.F.A History of the Use of Incense in Divine Worship. London, 1909.

Azraqi, Muhammad b. 'Abdallah al-.Kitab akhbar Makka. Edited by F. Wustenfeld. Leipzig, 1858.

Bailey, H. W. Zoroastrian Problems in Ninth-Century Books. 2nd ed. Oxford, 1971.

Bakri, Abu 'Ubayd' Abdallah b. 'Abd al-'Aziz al-. Mu'jam ma ista'jam. Edited by F. Wustenfeld. 2 vols. Goettingen, 1876-1877.

Balahudri, Ahmad b. Yahya al- Ansab al-ashraf. Suleymaniye (Reisulkuttap) ms 598. Vol 1, edited by M. Hamidallah, Cairo, 1959; vol.2, edited by M. B. al-Mahmudi, Beirut, 1974; vol.4b, edited by M. Schloessinger, Jerusalem, 1938; vol II (= Anonyme arabische Chronik), edited by A. Ahlwardt, Greifs- wald, 1883.

--------. Kitab futuh al-buldan. Edited by M.J. de Goeje. Leiden, 1866.

Baldry, J. Textiles in Yemen. British Museum, Occassional paper no. 27. London, 1982.

Balfour, I. B. Botany of Socotra. Edinburg, 1888.

Barthold, W. W. "Der Koran und das Meer." Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gessellschaft 83 (1929), 37-43.

Basham, A. L. "Notes on Seafaring in Ancient India." Arts and Letters, the Journal of the Royal India and Pakistan Society 23 (1949), 60-70.

-------. The Wonder That Was India. 3rd ed. London, 1971.

Baydawi, 'Abdallah b. 'Umar al-. Anwar al-tanzil wa-asrar al-ta'wil. 2 vols. Istanbul, n.d.

Bayhaqi, Ahmad b. al-Husayn al-. al-Sunan al-kubra. 10 vols. Hyderabad. 1344-1356.

Beek, G. W. van. "Ancient Frankincense-Producing Areas." In R. Le Baron Bowen, Jr., F. P. Albright, and others, Archaeological Discoveries in South Arabia. Baltimore, 1958, pp 139-142.

-------. "Frankincense and Myrrh" The Biblical Archaeologist 23 (1960), 70-95.

-------. "Frankincense and Myrrh in Ancient South Arabia" Journal of the American Oriental Society 78 (1958), 141-151.

-------. "the Land of Sheba." In J. B. Pritchard, ed., Solomon and Sheba. London, 1974, pp. 40-63.

-------. "Pre-Islamic South Arabian Shipping in the Indian Ocean

--- a Surre- joinder."Journal of the American Oriental Society 80 (1960), 136-1

Beek, G. W. van, and A. Jamme. "The Authenticity of the Bethel Stamp Seal." Bulletin of the American Schools of Oriental Research. No. 199. October 1970, pp. 59-65.

-------. "An Inscribed South Arabian Clay Stamp from Bethel." Bulletin of the American Schools of Oriental Research. No. 151. October 1958, pp. 9-16.

Beeston, A. F. L. "Abraha." Encyclopaedia of Islam. 2nd ed.

-------. "Hadramawt." Encyclopaedia of Islam. 2nd ed.

-------. "Kataban." Encyclopaedia of Islam. 2nd ed.

-------. "Pliny's Gebbanitae." Proceedings of the Fifth Seminar for Arabian Studies. London, 1972, pp. 4-8.

-------. "Some Observations on Greek and Latin Data Relating to South Arabia." Bulletin of the School of Oriental and African Studies 62 (1979), 7-12.

-------. "Two south-Arabian Inscriptions: Some Suggestions." Journal of the Royal Asiatic Society 1937, pp.59-78.

-------. "Review of G. W. B. Huntingford (ed. And tr.), The Periplus of the Erythraean Sea by an Unknown Author. In Bulletin of the School of Oriental and African Studies 44 (1981), 353-358.

Bel, A. La religion musulmane en Berberie. Vol. I. Paris, 1938.

Bell, R.. The Origin of Islam In Its Christian Environment. London, 1926.

Berg, B. "The Letter of Palladius on India." Byzantion, 44(1974), 5-22.

Bevan, A.A. The Naka'id of Jarir and al-Farazdak. 3 vols. Leiden, 1905-1912.

Birkeland, H. The Lord Guideth: Studies on Primitive Islam. Oslo, 1956.

Biruni, Muhammad b. Ahmad al-. Al-Biruni's Book on Pharmacy and Materia Medica. Edited and translated by H. M. Said. Karachi, 1973.

Blatter, E. Flora of Aden. Records of the Botanical Survey of India. Vol. 7. Calcutta, 1916.

------. Flora Arabica. Records of the Botanical Survey of India. Vol. 8. Calcutta and New Delhi, 1921-1936.

Blunt, A. Bedouin Tribes of the Euphrates. London, 1879.

Boisacq, A. Dictionnaire etymologique de la langue grecque. 4th ed. Heidelberg, 1950.

Boneschi, P. "L'antique inscription sud-arabe d'un suppose cachet provenant de Beytin (Bethel)." Rivista degli Studi Orientali 36 (1961), 149-165.

-------. "Les monogrammes sud-arabes de la grande jarre de Tell El-Heleyfeh (Ezion-Geber)." Rivista degli Studi Orientali 36 (1961), 213-223.

Bor, N. L. Gramineae (= K. H. Rechinger, ed., Flora Iranica, no. 70). Graz, 1970.

-------. Gramineae (= C. C. Townsend, E. Guest, and A. al-Rawi, eds., Flora of Iraq, vol. 9). Baghdad, 1968.

-------. The Grasses of Burma, Ceylon, India and Pakistan. Oxford, 1960.

Bousquet, G. -H. "Observations sociologiques sur les origines del'Islam." Studia Islamica 2 (1954), 61-87.

Bowersock, G. W. Roman Arabia. Cambridge, Mass. Amd London, 1983

Branden, A. van den. Historie de Thamoud. Beirut, 1960.

Brandis, D. The Forest Flora of North-West and Central India. London, 1874.

Braun, O., tr. Ausgewahlte Akten persischer Martyrer. Kempten, 1915.

Breasted, J.H. Ancient Records of Egypt. 5 vols. Chicago, 1906-1907.

Brice, W. B., ed. An Historical Atlas of Islam. Leiden, 1981.

The British Pharmaceutical Codex. London, 1934.

Brock, S. " Jacob of Edessa's Discourse on the Myron." Oriens Christianus 63 (1979), 20-36.

-------. "A Syriac Life of John of Dailam." Parole de l'Orient 10 (1981-1982), 123, 189.

Brockett, A. "Illustrations of Orientalist Misuse of Qur'anic Variant Readings." Paper presented at the colloquium on the study of Hadith. Oxford, 1982.

Budge, E. A. W., ed. and tr. Syrian Anatomy, Pathology and Therapeutics, or "The Book of Medicine." London, 1913.

Buhl, F. Das Leben Muhammeds. Leipzig, 1930.

Bukhari, Muhammad b. Isma'il al-. Le recueil des traditions mahometanes. Edited by L. Krehl and T. W. Juynboll. 4 bvols. Leiden, 1862-1908.

Bulliet, R. W., The Camel and the Wheel. Cambridge, Massachussets, 1975.

Burckhardt, J. L. Travels in Arabia. London, 1829.

Burkill, I. H. A Dictionary of the Economic Products of the Malay Peninsula. London, 1935.

Caskel, W. Gambarat an-nasah, das genealogische Werk des Hisam Ibn Muhammad al- Kalhi. 2 vols. Leiden, 1966.

Casson, L. "Cinnamon and Cassia in the Ancient World." In Casson, Ancient Trade and Society. Detroit, 1984, pp.225-246.

Celsus. De Medicina. Edited and translated by W. G. Spencer. 3 vols. London, 1935-1938.

Chabot, J.-B. Choix d'inscriptions de Palmyre. Paris, 1922.

Charkesworth, M. P. Trade-Routes and Commerce of the Roman Empire. Cambridge, 1924.

Chiovenda, P. Flora Somalia. Vol.1. Rome, 1929.

Chittick, N. "East African Trade with the Orient." In D. S. Richards, ed., Islam and the Trade of Asia. Oxford, 1970, pp. 97-104.

Christensen, A. L'Iran sous les Sassanides. 2nd ed. Copenhagen, 1944.

Clark, P. "Hauhau", the Pai Marire Search for Maori Identity. Oxford and Auckland,1975.

Cleveland, R.L. "More on the South Arabian Clay Stamp Found at Beitin." Bulletin of the American Schools of Oriental Research. No. 209, February 1973, pp. 33-36.

Colless, B. E. "Persian Merchants and Misionaries in Medieval Malaya." Journal Of the Malaysian Branch of the Royal Asiatic Society 42:2 (1969) 10-47.

Cook, M. A. "Economic Developments." In J. Schacht and C. E. Bosworth, eds., The Legacy of Islam. 2nd ed. Oxford, 1974, pp.201-243.

-------., Muhammad. Oxford, 1983

Cosmas Indicopleustes. Topographie chretienne. Edited and translated by W. Wolska- Conus. 3 vols. Paris, 1968-1973.

Cowell, E. B., and others, trs. The Jataka, 7 vols. Cambridge, 1805-1913.

Cowley, A., ed and tr. Aramaic Papyri of the Fifth Century B. C. Oxford, 1923.

Crone, P. Jahili and Jewish Law: the Qasama." Jerusalem Studies in Arabic and Islam. 4 (1984), 153-201.

-------. Slaves on Horses. Cambridge, 1980.

Crone, P., and M. Cook. Hagarism. Cambridge, 1980.

Cudofontis, G. Enumeratio Plantarum Aethiopiae (Bulletin du Jardin Botanique de l'Etate, supplement). Brussels, 1954.

Dareste, R. B. Haussoullier, and T. Reinach. Recueil des inscriptions juridiques Grecques. Paris, 1891-1898.

Dayton, J. E., "A Roman/Byzantine Site in the Hejaz." Proceedings of the Sixth Seminar for Arabian Studies. London, 1973, pp. 21-25.

Deines, H.von, and H. Grapow. Worterbuch der aegyptischen Drogennamen. Berlin, 1959.

Desanges, J. "D'Axouma a l"Assam, aux portes de La Chine: le voyage du "scholas- ticus de Thebes' (entre 360 et 500 apres J.-C.)." Historia 18 (1969), 627-639.

Dietrich, A., "Dar Sini." Encyclopaedia of Islam, 2nd ed., Supplement.

Dinawari, Abu Hanifa al-. The Book of Plants (aliph to za'). Edited by B. Lewin. Uppsala and Wiesbaden, 1953.

--------. The Book of Plants, Part of the Monograph Section. Edited by B. Lewin. Wiesbaden, 1974.

-------. Le dictionnaire botanique (de sin a ya'). Edited by M. Hamidallah. Cairo, 1973.

Dio Cassius. Roman History. Edited and translated by E. Cary. 9 vols. London And Cambridge, Mass., 1914-1927.

Diodorus Siculus. Bibiliotheca Historica. Edited and translated by C. H. Old-Father and others. 12 vols. London and Cambridge, Mass., 1933-1967.

Dioscorides. De Materia Medica. Edited by M. Wellman. 3 vols. Berlin, 1966-

1914. translated by J. Goodyer as The Greek Herbal of Dioscorides, edited by R. T. Gunther. Oxford, 1934. Reference given in the form 1, 15/14 stand For book I, paragraph 15 of the text, paragraph 14 of the translation.

Doe, B., Southern Arabia. London, 1971.

-------. " The WD'B Formula and the Incense Trade. "Proceedings of the Twelfth Seminar for Arabian Studies. London, 1979, pp.40-43.

Donner, F. M. "The Bakr b. Wa'il Tribes and Politics in Notheastern Arabia on the eve of Islam." Studia Islamica 51 (1980), 5-37.

-------. The Early Islamic Conquests. Princeton, 1981.

-------. "Mecca's Food Supplies and Muhammad's Boycott." Journal of the Economic and Social History of the Orient 20 (1977), 249-266.

Doughty, C. M. Travels in Arabia Deserta. London, 1936.

Dunlop, D. M. " Sources of Gold and Silver according to al-Hamdani. "Studia Islamica 8 (1957), 29-49.

Ebeling, E. "Mittelassyrische Rezepte zur Bereitung von wohlreichenden Sal-Ben." Orientalia 17 (1948), 129-145, 229-313.

Eickelman, D. F. "Musaylima." Journal of the Economic and Social History of the Orient 10 (1967), 17-52.

The Encyclopaedia of Islam. 2nd ed. Leiden and London, 1960--.

Engler, A. Die Pflanzenwelt Afrikas. Vol. III, part 1. Leipzig, 1915.

Erman A., and H. Grapow. Worterbuch der aegyptischen Sprache. Leipzig, 1925-1931

Fahd, T. La divination arabe. Leiden, 1966.

--------. "Hubal". Encyclopaedia of Islam. 2nd ed.

Fasi, Muhammad b. Ahmad al-. Shifa' al-gharam bi-akhbar al-balad al-haram. Ed- Ited by F. Wuestenfeld. Leipzig, 1859.

Fraenkel, S., die aramaischen Fremdworter im Arabischen. Leiden, 1886.

Frye, R. N. "Bahrain under the Sassanians." In D. T. Potts, ed., Dilmun, New Studies in the Archaeology and History of Bahrain. Berlin, 1983, pp.167-70.

Gaudefroy-Demombynes, [M]. Le pelerinage a la Mekke. Paris, 1923.

Gibb, H. A. R. Islam (=2nd ed. Of Mohammedanism). Oxford, 1975.

Glaser, E. Skizze der Geschiche und Geographie Arabiens von den altesten Zeiten bis Zum Propheten Muhammad. Vol. 2. Berlin, 1890.

Glover, P. E. A Provisional check-list of British and Italian Somaliland Trees, Shrubs and Herbs. London, 1947.

Glueck, N. "The First Campaign at Tell el-Kheleifeh." Bulletin of the American Schools of Oriental Research. No. 71, October 1938, pp 3-17.

-------. The Other Side of the Jordan. Cambridge, Mass., 1970.

-------. "Tell el-Kheleifeh Inscriptions." In N. Goedicke, ed., Near Eastern Studies in Honor of William Foxwell Albright: Baltimore and London, 1971, pp. 225-242.

Goiten, S. D. A Mediterranean Society. Vol. I Berkeley and Los Angeles, 1967.

Goldziher, I., ed. "Der Diwan des Garwal b. Aus al Hutej'a" Zeitschrift der Deutschen, Morgenlandischen Gesellschaft 46 (1892), 1053, 173-225, 471-527.

Gray, E. W. Review of J. I. Miller, The Spice Trade of the Roman Empire. In Journal of Roman Studies 60 (1970), 222-224.

Great Britain. Admiralty. A Handbook of Arabia. Vol I. London, 1916.

Great Britain. Foreign Office. Arabia. London, 1920.

Grohmann, A., ed and tr. Arabic Papyri from Hirbet el- Mird. Louvain, 1963.

--------. "Makoraba." In Pauly-Wissova, Realencyclopadie.

-------. Sudarabien als Wirtschaftsgehiet. Vol . I. Vienna, 1930.

Groom, N. Frankincense and Myrrh, a Study of the Arabian Incense Trade. London,1981.

Guidi, I., and others, eds. and trs. Chronica Minora CSCO, Scriptores Syri, Third series. Vol. 4. Louvain, 1903-1907.

Guillaume, A., tr. The Life of Muhammad. Oxford, 1955.

Halabi, 'ali b. Burhan al-din al-. al-Sira al-halabiyya. 2 vols. Cairo, 1349.

Hamdani, Hasan b. Ahmad al-. Sifat Jazirat al-arab. Edited by D. H. Muller. 2 vols. Leiden, 1884-1891.

-------. Kitab al-jawharatayn. Edited and translated by C. Tolll. Upsla, 1968. See also Dunlop.

Hamidallah, M. Al-ilaf, ou les rapports economico-diplomatiques de la Mecque pre-islamique." Melanges Louis Massignon. Vol. 2. Damascus, 1957, pp. 293-311.

-------, ed. Sirat Ibn Ishaq, Rabat. 1976.

Haran, M. "the Uses of Incense in the Ancient Israelite Ritual." Vetus Testamentum 10 (1960), 113-129.

Harding, G. I., Archaeology in the Aden Protectorates. London, 1964.

Hassan H. A History of Persian Navigation. London, 1928.

Hassan b. Thabit. Diwan. Edited by W. N. 'Arafat, London, 1971; edited by H. Hirschfeld, Leiden and London, 1910. References are to 'Arafat's edition unless otherwise stated. Hawting, G. R. "The Origin of Jedda and the Problem of al-Shu'ayba." Arabica 31 (1984), 318-326.

Hell, J., ed and tr. Neue Hudailiten-Diwane, 2 vols. Hannover and Leipzig, 1926-1933.

Hennig, R., "Die Einfuehrung der Seidenraupenzucht ins Byzantinerreich." Byzantinische Zeitschrift 33 (1933), 295-312.

-------. "Kinnamomon und Kinnamophoros Khora in der antiken Literatur," Klio 32 (1939), 325-330.

Hepper, F. N. "Arabian and African Frankincense Trees." Journal of Egyptian Archaeology 55 (1969), 66-72.

Hepper, F. N. "On the Transference of ancient Plant Names." Palestine Exploration Quarterly 109 (1977), 129-130.

Herodutus. History. Edited and translated by A. D. Godley, 4 vols. London and Cambridge, Mass., 1920-1925.

Hill A. F. Economic Botany. New York and London, 1937

Hirschfeld, H. New Researches into the Composition and Exegesis of the Qoran. London, 1902.

Hirth, F. China and the Roman Orient. Leipzig, 1885.

Hitti, P. K., Capital Cities of Arab Islam. Minneapolis, 1973.

Hjelt, A. "Pflanzennamen aus dem Hexaemeron von Jacob's von Edessa." In Orientalsche Studien Theodor Noldeke. Edited by c. Bezold. Giessen, 1906.

Hornblower, J. Hieronymus of Cardia. Oxford, 1981.

Hourani, G. F., "Ancient South Arabian Voyages to India---Rejoinder to G. W. Van Beek," Journal of the American Oriental Society 80 (1960), 135-136.

-------. Arab Seafaring in the Indian Ocean in Ancient and Early Medieval Times. Princeton, 1951.

-------. "Did Roman Commercial Competition Ruin South Arabia?" Journal of Near Eastern Studies 11 (1952), 291-295.

Howes, F. N. Vegetable Gums and Resins. Waltham, Mass., 1949.

Huber, C., Voyage dans l'Arabie centrale. Paris, 1885.

Huntingford, G. W. B., tr. The Periplus of the Erythraean Sea. London, 1980.

Ibn 'Abd al-Hakam,' Abd al-Rahman b. 'Abdallah. Futuh Misr. Edited by C. C. Torrey. New Haven, 1922.

Ibn Abi'l-Hadid, 'Abd al-Hamid b. Abi'l-Husayn. Sharh nahj al-balagha. 4 vols. Cairo, 1329.

Ibn 'Asakir, 'ali b. al-Husayn. Tahdhih ta'rikh Dimasq al-kabir. Edited by 'A. -Q. Badarn and A. 'Ubayd. 7 vols. Damascus, 1911-1932.

-------. Ta'rikh madinat Dimashq. Edited by S.-D. al-Munajjid and M.A. Dahman. Damascus, 1951-.

Ibn al-Athir, 'Ali b. Muhammad. Usd al-ghaba. 5 vols. Cairo, 1280.

Ibn Baytar, 'Abdallah b. Ahmad. al-Jami ' al-kabir. Translated by J. Sontheimer. 2 vols. Stuttgart, 1840-1842.

Ibn Durayd, Muhammad b. al-Hasan. Kitab al-ishtiqaq. Edited by 'A.-S. M. Harun. Baghdad, 1979.

Ibn Habib, Muhammad. Kitab al-muhabbar. Edited by Lichtenstadter. Hyderabad, 1942.

-------. Kitab al-munammaq. Edited by Kh. A. Fariq. Hyderabad, 1964.

Ibn Hajar al-'Asqalani, Ahmad b. 'Ali. Kitab al-isaba fi tamyiz al-sahaba. 8 vols. Cairo, 1323-1325.

-------. Tahdhib al-tahdhib. 12 vols. Hyderabad, 1325-1327.

Ibn Hanbal, Ahmad. al- 'Hal. Vol. I. Edited by T. Kocyigit and I. Cerrahoglu. Ankara, 1963.

-------. al-Musnad. 6 vols. Cairo, 1895.

Ibn Hazm, 'Ali b. Ahmad. Jambarat ansah al-'arab. Edited by 'A. -S. M. Harun. Cairo, 1962.

Ibn Hisham, ' Abd al-Malik. Das Leben Muhammed's nach Muhammed Ibn Ishak. Edited by F. Wuestenfeld. 2 vols. Goettingen, 1858-1860. See also Gillaume.

-------. al-Sira al-nabawiyya. Edited by M. al-Saqqa and others. 2 vols. Cairo, 1955. All references are to Wustenfeld's edition unlkess otherwise stated.

Ibn Ishaq, see Hamidallah; Ibn Hisham.

Ibn al-Kalbi, Hisham b. Muhammad. Kitab al-asnam. Edited by Ahmed Zeki. Pacha. Cairo, 1914.

Ibn Kathir, Isma'il b. Umar. al-Bidaya wa'l-nihaya. 14 vols. Cairo, 1932.

-------. Tafsir al-qur'an al-'azim. 4 vols. Cairo, n.d.

Ibn Khalawayh, Husayn b. Ahmad. Mukhtasar fi shawadhdh al- qur'an. Edited by G. Bergstrasser. Leipzig, 1934.

Ibn Khurdadhbih, 'Ubaydallah b. 'Abdallah. Kitab al-masalik wa'l-mamalik. Edited and translated by M. J. de Goeje. Leiden, 1889.

Ibn Manzur, Muhammad b. Mukarrim. Lisan al-'arab. 20 vols. Bulaq, 1300-1307.

Ibn al-Mujawir, Yusuf b. Ya'qub. Descrptio Arabiae Meridionalis. Edited by O. Lofgren. 2 vols. Leiden, 1951-1954.

Ibn Qays al-Ruqayyat, Ubaydallah. Diwan. Edited and translated by N. Rhodo-Kanakis. Vienna, 1902.

Ibn al-Qaysarani, Muhammad b. Tahir. Kitab al-ansab al-muttafiqa. Edited by P. de Jong. Leiden, 1865.

Ibn Qutayba, 'Abdallah b. Muslim. al-Ma 'arif. Edited by M. I. 'A. al-Sawi. Beirut, 1970.

-------. Ta'wil mushkil al-qur'an. Edited by A. Saqr. Cairo, 1954.

Ibn Rusta, Ahmad b. "Umar. Kitab al-a'laq al-nafisa. Edited by M. J. de Goeje. Leiden, 1892.

Ibn Sa'd, Muhammad. Al-Tabaqat al-kubra. 8 vols. Beirut, 1957-1960.

Irvine, A. K. 'The Arabs and the Ethiopians." In D. J. Wiseman, ed., Peoples of The Old Testament Times. Oxford, 1973, pp. 287-311.

Isbahani, Abu'l-Faraj 'Ali b. Husayn al-. Kitab al-Aghani. 24 vols. Cairo, 1927-1974

Al-Iskafi, Muhammad b. 'Abdallah al-Khatib al-. Lutf al tadbir. Edited by

A. 'A. al-Baqi. Cairo, 1964.

Ivanow, W. Ismaili Traditions Concerning the Rise of the Fatimids. Oxford, 1942.

Jacob, G. Altarabisches Beduinenleben. 2nd ed. Berlin, 1897.

Jacob of Edessa. Hexaemeron. Edited and translated by I. B. Chabot and A. Vaschalde. CSCO, Scriptores syri, vols. 44, 48. Louvain, 1928, 1932.

Jahiz, 'Amr b. Bahr al-. Rasa'il. Edited by H. al-Sandubi. Cairo, 1933.

-------. Tria Opuscula. Edited by G. van Vloten. Ledien, 1903.

-------(attrib.). Kitab al-tahassur bi'l-tijara. Edited by H. H. 'Abd al-Wahhab. Cairo, 1966. Translated by C. Pellat as "Gahiziana, I. Le Kitab al-tahassur Bi'l-tijara attribue a Gahiz." Arabica 7 (1954), 153-165.

Jamme, A., ed and tr. The Al-'Uqlah Texts (Documentations Sud-Arabe, III). Washington D. C., 1963.

Jamme, A., and G. W. van Beek. "The South Arabian Clay Stamp from Bethel Again." Bulletin of the American Schools of Oriental Research. No. 163, October 1961, pp. 15-18.

Jastrow, M. A dictionary of the Targumim, the Talmud Babli and Yerushalmi, and the Midrashic Literature. 2 vols. New York, 1963.

Jaussen, A. Coutumes des Arabes au pays de Moab. Paris, 1948.

Jones, A. H. M. "Asian Trade in Antiquity." In D. S. Richards, ed., Islam and the Trade of Asia. Oxford, 1970, pp. 1-10.

-------. " the Economic Life of the Towns of the Roman Empire." Recueils de la Societe Jean Bodin 1955 (= La ville, part 2), pp. 161-192.

Jones, J. M. B. "The Chronology of the Maghazi- a Textual Survey." Bulletin of the School of Oriental and African Studies 19 (1957), 245-280.

-------."Ibn Ishaq and al-Waqidi." Bulletin of the School of Oriental and African Studies 22 (1959), 41-51.

-------. "Al-Sira al nabawiyya as a Source for the Economic History of Western Arabia at the Time of the Rise of Islam." Studies in the History of Arabia. Pro- Ceedings of the First International Symposium on Studies in the History of Arabia. April, 1977. Vol. 1, part 1. Riyadh, 1979, pp. 15-23.

Josephus. Jewish antiquities. Edited and translated by H. St. J. Thackeray and others. 6 vols.London, New York, and /Cambridge, Mass., 1930-1965.

-------. The Jewish War. Edited and translated by H. St. J. Thackeray. 2 vols. London and New York, 1927-1928.

Kala'i, Sulayman b. Salim al-. Kitab al-iktifa'. Part 1. Edited by H. Masse. Algiers and Paris, 1931.

Kawar, see Shahid.

Kelso, J. L. "A Reply to Yadin's Article on the Finding of the Bethel Seal." Bulletin of the American Schools of Oriental Research. No. 199, October 1970, p. 65.

Kennedy, J. "the Early Commerce of Babylon with India." Journal of the Royal Asiatic Society 1898, pp. 241-273.

Kennett, F. History of Perfume. London, 1975.

Khalifa b. Khayyat. Ta'rikh. Edited by S. Zakkar. 2 vols. Damascus, 1967-1968.

B I B I L IO G R A P H Y

Khan, A. "The Tanning Cottage Industry in Pre-Islamic Arabia." Journal of the Pakistan Historical Society 19 (1971), 85-100.

Khan, M. A. Mu'id, ed. and tr. A Critical Edition of Diwan of Laqit Ibn Ya'mur. Beirut, 1971.

Khazanov, A. M. Nomads and the Outside World. Cambridge, 1984.

Khwarizmi, Muhammad b. Ahmad al-. Kitab mafatih al-'ulum. Edited by G. van Vloten. Leiden, 1895.

King, D. A. "The Practical Interpretation of Qur'an 2.144: Some Remarks on the Sacred Direction in Islam." Forthcoming in Proceedings of the Second International Qur'an Conference, New Delhi 1982.

Kindi, Muhammad b. Yusuf al-. The Governors and Judges of Egypt. Edited by R. Guest. Leiden and London, 1912.

Kister, M.J. "the Campaign of Huluban." Le Museon 78 (1965), 425-436.

-------. "al-Hira." Arabica 15 (1968), 143-169.

-------. "Labbayka, Allahumma, Labbayka.....On a Monotheist Aspect of a Jahiliyya Jahiliyya Practice." Jerusalem Studies in Arabic and Islam 2 (1980), 33-57.

-------. "Mecca and Tamim (Aspects of Their Relations)." Journal of the Economic and Social History of the Orient 8 (1965), 117-163.

-------. "On an Early Fragment of the Qur'an." Studies in Judaica, Karaitica and Islamica Presented to Leon Nemoy. Ramat-Gan, 1982, pp. 163-166.

-------. "Some Reports concerning Mecca from Jahiliyya to Islam." Journal of the Economic and social History of the Orient 15 (1972), 61-91.

Kortenbeutel, H.. Der agyptische Sud- und Osthandel in der Politik der Ptolemaer und Romischen Kaiser. Berlin Charlottenburg, 1931.

Kosegarten, J. G. L., ed.. Carmina Hudsailitarum, London, 1854.

Kraemer, C., J., ed. and tr. Excavations at Nessana. Vol. 3 (Non-Literary Papyri). Princeton, 1958.

Krauss, S. "Talmudische Nachrichten uber Arabien." Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesseschaft 70 (1916), 321-353.

Krenkow, F., ed. and tr. The Poems of Tufail Ibn "Auf al Ghanawi and at-Tirimmah Ibn Hakim at-Ta'yi. London, 1927.

Kuthayir " Azza. Diwan. Edited by H. Peres. Algiers and Paris, 2 vols. 1928-1930.

Labib, S. Y. Handelsgeschichte Aegyptens im Spatmittelalter. Wiesbaden, 1965.

Lammens, H. L'Arabie occidentale avant l'hegire. Beirut, 1928.

-------. Le berceau de l'Islam. Rome, 1914.

-------. La cite arabe de Taif a la veille de l'hegire (reprinted from Melanges de l' Universite Saint-Joseph, vol. 8). Beirut, 1922. References are to the original pagination.

-------. Fatima et les filles de Mahomet. Rome, 1912.

Lammens, H. La Mecque a la veille de l'hegire (reprinted from Melanges de l'Universite Saint Joseph, vol. 9). Beirut, 1924. References are to the original pagination.

-------. "La republique marchande de la Mecque vers l'an 600 de notre ere." Bulletin de l'Institut Egyptien 5th series, 4 (1910), 23-54.

Lampe, G. W. H., ED. Patristic Greek Lexicon. Oxford, 1961.

Landau-Tasseron, E. "The 'Sinful Wars', religious, Social and Historical Aspects of Hurub al-Fijar," Forthcoming in Jerusalem Studies in Arabic and Islam.

Lane, E. W. An Arabic-English Lexicon.

Lanternari, V. The Religions of the Oppressed. London, 1963.

Lapidus, I. M. "The Arab Conquests and the Formation of Islamic Society." In G. H. A. Juynboll, ed., Studies on the First Century of Islamic Society. Carbondale and Edwardsville, 1982, pp. 49-72.

Lassen, C. Indische Altertumskunde. 2nd ed. Vol. 1. London, 1867.

Laufer, B. "Malabathron." Journal Asiatique ser. 11, vol. 12 (1918), 5-49.

-------. Sino-Iranica. Chicago, 1919.

Le Baron Bowen, R. "Ancient Trade Routes in South Arabia." In R. Le Baron Bowen, Jr., F. P. Albright, and others, Archaeological Discoveries in South Arabia. Baltimore, 1958, pp. 35-42.

-------. "Irrigation in Ancient Qataban (Beihan)." In R. Le Baron Bowen, Jr., F. P. Albright, and others, Archaeological Discoveries in South Arabia. Baltimore, 1958, pp. 43-132.

Legge, J., tr. An Account by the Chinese Monk Fa-Hien of His Travels in India and Ceylon (A.D. 399-414). Oxford, 1886.

Levey, M. Early Arabic Pharmacology. Leiden, 1973

Lewicki, T. "Les premiers commercants arabes en Chine." Rocznik Orientalisyczny 77 (1935), 173-186.

Lewis, B. The Arabs in History. 4th ed. London, 1966.

Liddel, H. G., and R. Scott. A Greek-English Lexicon. 9th ed. Oxford, 1968.

Linton, R. "Nativist Movements." American Anthropologist 45 (1943), 230-240.

Lisan, see Ibn Manzur.

Loret, V. La flore pharaonique. 2nd ed. Paris, 1892.

Low, I. Aramaische Pflanzennamen. Leipzig, 1881.

-------. Die Flora der Juden. 4 vols. Vienna and Leipzig, 1924-1928.

Lucas, A. Ancient Egyptian Materials and Industries. 2nd ed. Edited by J. R. Harris. London, 1962.

Luling, G. Die Wiederentdeckung des Propheten Muhammad. Erlangen, 1981.

Lyall, C. J., ed. and tr. The Diwans of 'Abid Ibn al-Abras, of Asad, and 'Amir Ibn At-Tufail, of 'Amir Ibn Sa'sa'a. London, 1913.

-------, ed. And tr. The Mufaddaliyat. 3 vols. Oxford, 1918-1924.

McCrindle, J. W., tr. Ancient India as Described by Ktesias the Knidian. Calcutta, etc., 1882.

-------, tr. The Commerce and Navigation of the Erythraean Sea, being a Translation of the Periplus Maris Erythraei. Calcutta, etc., 1879.

Malalas, Chronographia. Edited by L. Dindorf. Bonn, 1831.

Margoliouth, D. S. Mohammed and the Rise of Islam. London, 1906.

-----, ed. and tr. The Table-Talk of a Mesopotamian Judge. 2 vols. London, 1921-1922.

Maricq, A., ed. And tr. " 'Res Gestae divi Saporis,'" Syria 35 (1958), 295-360.

Martius, C. Versuch einer Monographie der Senneshblatter. Erlangen, 1857.

Marzuqi, Ahmad b. Muhammad al-. Kitab al-azmina wa'l-amkina. 2 vols. Hyderabad , 1332.

Mas'udi, Ali b. al-Husayn al-. Kitab muruj al-dhahab. Edited and translated by A. C. Barbier de Meynard and A. J. -B. Pavet de Courtielle. 7 vols. Paris, 1861-1877.

Mawardi, 'Ali b. Muhammad al- A'lam al-nubuwwa. Beirut, 1973.

Meeker, M. E. Literature and Violence in North Arabia.

Meisner, B. "B'dolah," Zeitchrift fur Assyriologie 17 (1903), 270-271.

Milani, C. ed. And tr. Itenerarium Antonini Placentini, un viaggio in Terra Santa del 560-570 d. C. Milan, 1977.

Milik, J. T. "Inscriptions grecques et nabateenes de Rawwafah." Appended to P. J. Parr, G. L. Harding, and J. E. Dayton, "Preliminary Survey in N. W. Arabia, 1968." Bulletin of the Institute of Archaeology 10 (1971), 54-58.

Miller, J. I. The Spice Trade of the Roman Empire. Oxford, 1969.

Milne-Redhead, E., and others. Flora of Tropical East Africa. London, 1952---.

Mingana, A. "The Early Spread of Christianity in India." Bulletin of the John Rylands Library 9 (1925), 297-371.

Minorsky, V., tr. Hudud al-'alam. London, 1937.

Mitchell, T. C. "A South Arabian Tripod Offering Saucer Said To Be from Ur." Iraq 31 (1969), 112-114.

Moberg, A. The Book of the Himyarites. Lund, 1924.

Moldenke, H. N., and A. L. Moldenke. Plants of the Bible. Waltham, Mass., 1952.

Monnot, G. "L'Historie des religions en Islam, Ibn al-Kalbi et Razi." Revue de L'Histoire des Religions 188 (1975) 23-34.

Mookerji, R.K. Indian Shipping. A History of the Sea-borne Trade and Maritime Activity Of the Indians from the Earliest Times. 2nd ed. Bombay, etc., 1957.

Mordtman, J. H. "Dusares bei Epiphanius." Zeitschrift der deutschen Morgenland- ischen Gesselschaft 29 (1875), 99-106.

Mordtmann, J. H., and D. H. Muller. Sabaische Denkmaler. Vienna, 1883.

Mubarrad, Muhammad b. Yazid al-. al-Kamil. Edited by W. Wright. Leipzig. 2 vols. 1864-1892.

Muller, W. W. "Das Ende des antiken Konigsreichs Hadramaut. Die Sabaische

Inschrift Schreyer-Geukens = Iryani 32." In al-Hudhud, Festschrift Maria Hofner. Graz., 1981, pp.225-256.

-------. "Notes on the Use of Frankincense in South Arabia." Proceedings of the Ninth Seminar for Arabian Studies. London, 1976, pp. 124-136.

-------. Weibrauch. Ein arabisches Produkt und seine Bedeutung in der Antike. Offprint from Pauly-wissowa, Realycylopadie, Supplementband 15. Munich, 1978.

Muqaddasi, Muhammad b. Ahmad al-. Descriptio imperii moslemici. 2nd ed. Edited By M. J. de Goeje. Leiden, 1906.

Muqatil b. Sulayman. Tafsir. MS Saray, Ahmet III, 74/II.

Murray, G. W. Sons of Ishmael. London, 1935.

Mus'ab b. Abdallah al-Zubayri. Kitab nasab Quraysh. Edited by E. Levi-Provencal. Cairo, 1953.

Musil, A. The Manners and Customs of the Rwala Bedouins. New York, 1928.

-------. Northern Negd. New york, 1928.

Muslim b. Hajjaj. Al-Sahih. Cairo, 18 vols. 1929-1930.

Nabigha al-Dhubyani. Diwan. Edited and translated by H. Derenbourg. Paris, 1869

Nallino, C. A. "L'Egypte avait elle des relations directes avee l'Arabie meridionale Avant l'age des Ptolemees?" In his Raccolta di scritte editi e inediti. Vol. 3. Rome, 1941, pp. 157-68.

Nicole, J., tr. Le livre du prefet. Geneva, 1894. Reprinted in the Book of the Eparch. London, 1970.

Noldeke, T., tr.Geschichte der Perser und Araber zur Zeit der Sasaniden. Leiden, 1879

-------. "Der Gott Mr' byt' und die Ka 'ba." Zeitschrift fur Assyriologie 23 (1909), 184-186.

-------. Neue Beitrage zur semitischen Sprachwissenschaft. Strassburg, 1910.

-------. Sketches from Eastern History. London and Edinburgh, 1892.

Nonnosus in Photius, Bibliotheque. Edited and translated by R. Henry. Paris, 1959. Vol. 1.

Ogino, H. "Frankincense and Myrrh of Ancient South Arabia." Orient (Tokyo) 3 (1967), 21-39.

Oppenheim, A. L. " The Seafaring Merchants of Ur." Journal of the American Oriental Society 74 (1954) 6-17.

Ozenda, P. Flore du Sahara. 2nd ed. Paris, 1977.

Palgrave, W. G. Narrative of a Year's Journey Through Central and Eastern Arabia (1862-3). 2 vols. London, 1865.

Palmer, A. "Sources for the Early History of Qartmin Abbey with Special Reference To the Period A.D. 400-800." D. Phil., Oxford, 1982.

Paret, R. "Les villes de Syrie du sud et les routes commeciales d'Arabie a la fin

B I B L I O G R A P H Y

Du vi sieele." Akten des XI. Internationalen Byzantinistenkongresses, Munischen 1958, Munich, 1960, pp. 438-444.

Parsa, A. Flore de l'Iran. Vol. 2. Tehran, 1948.

Pauly-Wissowa = Pauly's Realencyclopadie der classischen Altertumswissenschaft. 2nd ed. Edited by G. Wissowa. Stuttgart, 1893-.

Payne Smith, R. Thesaurus Syriacus. 2 vols. Oxford, 1879-1901.

Periplus Maris Erythraei. Edited by H. Frisk. Goteborg, 1927. Translated by W. H. Schoff as the Periplus of the Erythraean Sea. New York, 1912. See also Huntingford; MacCrindle. Philby, H. St. J. B. The Heart of Arabia. London, 1922.

-------. the Queen of Sheba. London, 1855.

Philostorgius. Kirchengeschichte. Edited by J. Bidez. Re-edited by F. Winkelmann. Berlin, 1972. Translated by E. Walford as The Ecclesiastical History of Philostorgius. London, 1855.

Pigulewskaja, N. Byzans auf den Wegen nach Indien. Berlin and Amsterdam, 1969.

Pirenne, J. "The Incense Port of Moscha (Khor Rori) in Dhofar." Journal of Oman Studies I (1975), 81-96.

-------. Le royaume sud-arabe de Qataban et sa datation. Louvain, 1961.

Pliny. Natural History. Edited and translated by A. H. Rackam and others. 10 vols. London and Cambridge, Mass., 1938-1962.

Polunin, N. Introduction to Plant Geography. London, 1960.

Polybius. The Histories. Edited and translated by W. R. Paton. 6 vols. Cambridge, Mass., 1922-1927.

Posener, G. La premiere domination perse en Egypte. Cairo, 1936.

Post G. E. Flora of Syria, Palestine and Sinai. 2nd ed. Edited by J. Dinsmore. 2 vols. Beirut, 1932-1933.

Powers, D. S. "The Islamic Law of Inheritance Reconsidered: a New Reading Of Q. 4:12B." Studia Islamica 55 (1982), 61-94.

Procopius. History of the Wars. Edited and translated by H. B. Dewing. 5 vols. London, 1914-1928.

Ptolemy. Geographia. Edited by C. F. A. Nobbe. 3 vols. Leipzig, 1888-1913.

Qali, Isma'il b. al-Qasim al-. Kitab dalyl al-amali wa'l-nawadir. Cairo, 1926.

Qalqashandi, Abu'l- 'Abbas Ahamd al-. Subh al-a'sha. Cairo, 14 vols. 1913-1920.

Qays b. al-Khatim. Diwan. Edited and translated by T. Kowalski. Leipzig, 1914.

Quezel, P., and S. Santa. Nouvelle flore de l'Algerie. 2 vols. Paris, 1962-1963.

Qummi, Abu'l-Hasan 'Ali b. Ibrahim al-. Tafsir. Edited by T. al-Musawi al-Jaza'iri, Najaf, 1386-1387.

Qurtubi, Muhammad b. Ahmad al-. al-Jami 'li-ahkam al-qur'an. 20 vols. Cairo, 1933- 1950.

Rahmani, L.Y. "Palestinian Incense Burners of the Sixth to Eight Centuries C. E." Israel Exploration Journal 30 (1980), 116-122.

Raschke, M. G. 'New Studies in Roman Commerce with the East." In H. Temporini and w. Haase, eds., Aufstieg und Niedergang der romischen Welt. Part II (Principat), vol 9:2. Berlin and New York, 1978, pp. 604-1378.

Rathjens, C. "Die alten Welthandelstrassen und die Offenbarungsreligionen." Oriens 15 (1962), 115-129.

Raven, W. Some Islamic Traditions on the Negus of Ethiopia." Paper presented at the colloquium on the study of hadith, Oxford, 1982, forthcoming in Journal of Semitic Studies.

Rawi, A. al-. Wild Plants of Iraq with Their Distributions. Baghdad, 1964.

Rawi, A. al-. And H. L. Chakravarty. Medicinal Plants of Iraq. Baghdad, 1964.

Rawlinson, H.G. Intercourse between India and the Western World from the Earliest Time to the Fall of Rome. Cambridge, 1916.

Razi, Fakhr al-din al-. Mafatih al-ghayb. 8 vols. Cairo, 1307-1309.

Rechinger, K. H. Burceraceae (= K. H. Rechinger, ed., Flora Iranica, no. 107). Graz., 1974.

-------Flora of Lowland Iraq. New York, 1964.

Repertoire d'Epigraphie Semitique. Vol. 7. Edited by G. Ryekmans. Paris, 1950.

Rhodokanakis, N. "Die Sarkophaginschrift von Gizeh." Zeitschrift fur Semistik 2 (1924), 113-133.

Ridley, H.N. Spices. London, 1912.

Riedel, W., and W. E. Crum, eds. and trs. The Canons of Athanasius of Alexandria. Oxford, 1904.

Rodinson, M. Islam et capitalisme. Paris, 1966.

--------. Mohammed. London, 1971.

Rosmarin, T. W. "Aribi und Arabien in den babylonisch-assyrischen Quellen." Journal of the Society of Oriental Research 16 (1932), 1-37.

Ross, A. S. C. Ginger, A Loan Word Study. Oxford, 1952.

Rothstein, G. Die Dynastie der Lahmiden in al-hira. Berlin, 1899.

Rubin, U. "Places of Worship in Mecca." forthcoming in Jerusalem Studies in Arabic and Islam.

-------. "Hanifiyya and Ka 'ba. An Inquiry into the Arabian Pre-Islamic Background of Din Ibrahim. ." forthcoming in Jerusalem Studies in Arabic and Islam.

Rufinus of Aquilea. Historia Ecclesiastica. In J. P. Migne, Patrologia Graeco-Latina. Vol. 21. Paris, 1849.

Rykmans, G. "Un fragment de jarre avee caracteres mineens de Tell El-Kheleyfeh." Revue Biblique 48 (1939) 247-249.

-------. Inscriptions sud-arabes (troisieme serie)." Le Museon 48 (1935), 163-187.

-------. "Ophir." Dictionnaire de la Bible. Supplement, vol. 6. Paris, 1960.

Ryckmans, J. L'institution monarchique en Arabie meridionale avant l'Islam, Louvain, 1951.

Sadighi, G. H. Les mouvements religieux iraniens a IIe et au IIIe siecles de l'hegire. Paris, 1938.

Schacht, j. "On Musa b. 'Uqba's Kitab al_Maghazi." Acta Orientalia (Copenhagen) 21 (1953), 288-300.

-------. "A Revaluation of Islamic Traditions." Journal of the Royal Asiatic Society, 1949, pp. 143-154.

Scher, A., and others eds. And trs. "Histoire Nestorienne." In Patrologia Orientalis. Edited by R. Graffin and F. Nau. Vol. 4 (1908), 215-313; vol.5 (1910), 219-344; Vol. 7 (1911), 97-203; vol. 13(1919), 433-639.

Schmucker, W. Die pflanzliche und mineralische Materia Medica im Firdaus al-Hikma Des Tabari. Bonn, 1969.

Schoff, see Periplus.

Schroter, R., ed and tr. "Trostschreiben Jacob's von Sarug an die himjaritischen Christen." Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellscaft 31 (1877), 360-405.

Schulthess, F., ed and tr. Der Diwan des arabischen Dichters Hatim Tej. Leipzig, 1897.

Schumann, C. Kritische Untersuchungen uber die Zimtlander. Gotha, 1883.

Schwarzlose, F. W. Die Waffen der alten Araber. Leipzig, 1886.

Sebcos (attrib.) Histoire d'Heraclius. Translated by F. Macler. Paris, 1904.

Segal, J. B. "Arabs in Syriac Literature before the Rise of Islam." Jerusalem Studies In Arabic and Islam. 4 (1984), 89-124.

Serjeant, R. B. "Haram and Hawtah, the Sacred Enclave in Arabia." Melanges Taja Husain. Edited by 'A.-R. Badawi. Cairo, 19621, pp. 41-58.

-------. "Hud and Other Pre-Islamic Prophets of Hadramawt." Le Museon 67 (1954), pp. 121-179.

-------. The Saiyids of Hadramawt. London, 1957.

SezginF. Geschichte des arabischen Schrifttums. Vol.1 Leiden, 1967.

Shaban, M. A. Islamic History, A New Interpretation. Vol. 1. Cambridge, 1971.

Shahid, I. (= I. Kawar). "The Arabs in the Peace Treaty of A. D. 561." Arabica 3 (1956), 181-213.

-------. The Martyrs of Najran. Brussels, 1971.

-------. "Two Qur'anic Suras: al-Fil and Qurays." In Studia Arabica et Islamica. Festschrift for IhsanAbbas. Edited by W. al-Qadi. Beirut, 1981, pp.429-436.

Shaybani, Muhammad b. al-Hasan al-Kash. Edited by S. Zakkar. Damascus, 1980.

Sigismund, r. Die Aromata in ihrer Bedeutung fur Religion, Sitten, Gebrauche, Handel. und Geographie des Altherthums bis zu den ersten Jahrhunderten unserer Zeitrechnung. Leipzig, 1884.

Simon, R. "Hums et ilaf, ou commerce sans guerre." Acta Otientalia (Budapest) 23:2 (1970), 205-232.

Smith, S. "Events in Arabia in the Sixth Century A.D." Bulletin of the School of Oriental and African Studies 16 91954), 425-468.

Snouck Hurgronje, C. Mekka in the Latter Part of the 19th Century. Leiden and London, 1931.

Sozomen. Kirchengeschickte. Edited by J. Bidez and G. C. Hansen. Berlin, 1960. Translated by E. Walford as The Ecclesiastical History of Sozomen. London, 1855.

Sprenger, A. Das Leben und die Lehre des Mohammad. 2nd ed. Vol.3 Berlin, 1869.

Spuler, B. Review of W. W. Muller, Weihruch. In Der Islam 57 (1980), 339.

Steensgaard, N. Carracks, Caravans and Companies. Copenhagen, 1973.

Steiner, R. C. The Case for Fricative-Laterals in Proto-Semitic. New Haven, 1977.

Strabo. Geography. Edited and translateed by H. I. Jones. 8 vols. London and Cambridge, Mass., 1917-1932.

Strothmann, W. ed and tr. Moses Bar Kepha, Myron-Weibe. Wiesbaden, 1973.

Suhayli, 'Abd al-Rahman b. 'Abdallah al-. Kitab al-rawd al-unuf. 2 vols. Cairo, 1914.

Suyuti, Jalal al-din al-, Kitab al-durr al-manthur fi;l-tafsir bi'l-ma'thur. 8 vols. Beirut, n.d..

Tabarani, Sulayman b. Ahmad al-. Al-Mu'jam al-saghir. Edited by 'A. -R. M. 'Uthman. 2 vols. Medina, 1968.

Tabari, Muhammad b. Jarir al-. Jami' al-bayan fi tafsir al-qur'an. 30 vols. Bulaq, 1905-1912.

-------. Ta'rikh al-rusul wa'l-muluk. Edited by M. J. de Goeje and others. 3 series. Leiden, 1879-1901.

Talbot, W. A. The Trees, Shrubs and Woody Climbers of the Bombay Presidency. 2nd ed. Bombay, 1902.

Tarn, W. W. The Greeks in Bactria and India, 2nd ed. Cambridge, 1951.

Tarn, W. W., and G. T. Griffiths. Hellenistic Civilisation. London, 1966.

Taylor, J. E. "Notes of the Ruins of Muqeyer." Journal of the Royal Asiatic Society 15 (1855), 260-276.

Tha'alibi, 'Abd al-Malik b. Muhammad al-. The Lata'if al-ma'arif. Translated

A. E. Bosworth. Edinburgh, 1968.

--------. Thimar al-qulub. Edited by M. A. -F. Ibrahim. Cairo, 1965.

Theodoretus. "In Divini Jeremiae Prophetiam Interpretatio." In J. P. Migne, Patrologia Graeco-Latina. Vol 81, Paris, 1859.

Theophanes. Chronographia. Edited by C. de Boor. 2 vols. Leipzig, 1883-1885.

Theophrastus. Enquiry into Plants. Edited and translated by A. f. Hort. 2 vols. London and Cambridge, Mass., 1916-26.

Tirimmah, see Krenkow.

Trimingham, J. Spencer. Christianity among the Arabs in Pre-Islamic Times. London, 1979.

Tufayl, see Krenkow.

Tusi, Muhammad b. al-Hasan al-. al-Tibyan fi tafsir al-Qur'an. Edited by A. H. Qasir al-Amili and A. Sh. Amin. 10 vols. Najaf, 1957-1965.

Ullmann, M. Die Natur-und Geeheimwissenschaften im Islam. Leiden. 1972.

Uphof, J. C. T. Dictionary of Economic Plants. 2nd ed. New York, 1968.

Vasiliev, A. A. "Notes on Some Episodes Concerning the Relations between the Arabs and the Byzantine Empire from the Fourth to the Sixth Century." Dumberton Oaks Papers Vols. 9-10 (1955-1956), pp. 306-316.

Vesey-Fitzgerald. D. F. "The Vegetation of Central and Eastern Arabia." Journal Of Ecology 45 (1957), 779-798.

-------. "The Vegetation of the Red Sea Coast North of Jedda, Saudi Arabia." Journal of Ecology 45 (1957), 547-562.

--------. "The Vegetation of the Red Sea Coast South of Jedda, Saudi Arabia." Journal of Ecology 43 (1955), 477-489.

Voobus, A. Syrische Kanonessammlungen. Vol. 1a (CSCO, Subsidia, vol. 35). Louvain, 1970.

Wahidi, 'Ali b. Ahmad al-. Ashah al-nuzul. Beirut, 1316.

Walker, W. All the Plants of the Bible. London, 1958.

Wallace, A. F. C. "Revitalization Movements." American Anthropologist 58 (1956), pp. 264-281.

Wansbrough, J. Quranic Studies. Oxford, 1977.

Waqidi, Muhammad b. 'Umar al-. Kitab al-maghazi. Edited by M. Jones. 3 vols. Oxford, 1966.

Warmington, E. H. The Commerce between the Roman Empire and India. 2nd ed. London and New York, 1974.

Watt, G. The Commercial Producst of India. London, 1908.

Watt, J. M., and M. G. Breyer-Brandwijk. The Medicinal and Poisonous Plants of Southern and Eastern Africa. 2nd ed. Edinburgh and London,1962.

Watt, W. M. "The 'High God' in Pre-Islamic Mecca." V' Congres' International d' Arabisants et d'Islamisants, Bruxelles 1970, Actes. Brussels, n.d., pp.499-505

-------. Islam and the Integration of Society. London, 1961.

-------. "Kuraysh." Encyclopaedia of Islam. 2nd ed.

Watt, W. M. "The Materials Used by Ibn Shaq." In B. Lewis and P.M. Holt, Eds., Historians of the Middle East. London, 1962. pp.23-34.

-------. "Muhammad" In P.M. Holt, A.K.S. Lambton, and B. Lewis, eds., The Cambridge History of Islam. Vol. 1. Cambridge, 1970, pp. 30-56.

-------. Muhammad at Mecca. Oxford, 1953.

-------. Muhammad at Medina. Oxford, 1956

-------. Muhammad, Prophet and Statesman. Oxford, 1964.

-------. "The Qur'an and Belief in a 'High God.'" Proceedings of the Ninth Congress of the Union Europeene des Arabisants et Islamisants. Leiden, 1981, pp. 327-333.

Wellhausen, J., ed. And tr. "Letzter Teil der Lieder der Hudhailiten." In his Skizzen und Vorarbeiten. Vol. 1. Berlin, 1884, pp. 103-175, 3-129.

-------. "Medina vor dem Islam." In his Skizzen und Vorarbeiten. Vol. 4. Berlin, 1889, pp. 3-64.

-------. Reste arabischen Heidentums. Berlin, 1887.

Wensick, A. J., The Ideas of the Western Semites Concerning the Navel of the Earth. Amsterdam, 1916.

Wensick, A. J., and others. Concordances et indices de la tradition musulmane. 7 vols. Leiden, 1933-1969.

Wheeler, R. E. M. "Roman Contact with India, Pakistan and Afghanistan." In F. Grimes, ed., Aspects of Archaeology in Britain and Beyond, Essays Presented to O. G. S. Crawford. London, 1951, pp. 345-381.

Whitehouse, D., and A. Williamson. "Sassanian Maritime Trade." Iran 11 (1973), 29-49.

Wissmann, H. von "Madiama." In Pauly-Wissowa, Realencyclopaedie. Supplement- band 12.

-------. "Makoraba". In Pauly-Wissowa, Realencyclopaedie. Supplementband 12.

-------. Die Mauer der Sabaerhaupstadt Maryab. Istanbul, 1976.

-------. "Ophir und Hawila." In Pauly-Wissowa, Realencyclopaedie. Supplementband 12.

Woelk, see Agatharchides.

Woenig, F. Die Pflanzen im alten Agypten. Leipzig, 1886.

Wohaibi, A. al- The Northern Hijaz in the Writings of the Arab Geographers, 800- 1150. Beirut, 1973.

Wolf, E. R., "The Social Organization of Mecca and the Origins of Islam." Southwestern Journal of Anthropology 7 (1951), 329-356.

Worterbuch der klassischen arabischen Sprache. Wiesbaden, 1970-.

Yadin, Y. "An Inscribed South-Arabian Clay Stamp from Bethel? Bulletin of The American Schools of Oriental Research. No. 196, December 1969, pp.37-45.

Ya'qubi, Ahmad b. Abi ya'qub al-. Kitab al-buldan. Edited by M. J. de Goeje. Leiden, 1892. Translated by G. Wiet as Les pays. Cairo, 1937.

-------. Ta'rikh. Edited by M. T. Houtsma. 2 vols. Leiden, 1883.

Yaqut b. 'Abdallah. Kitab mu'jam al-buldan. Edited by F. Wustenfeld. 6 vols. Leipzig, 1886-1873.

Zacharias Rhetor. Historia Ecclesiastica. Edited and translated by E. W. Brooks (CSCO, Scriptores syri, series tertia, vols. 5, 6). Louvain, 1924.

Zubayr b. Bakkar. al-Akhbar al-muwaffaqiyyat. Edited by S. M. al-'Ani. Baghdad, 1972.

المراجع فى سطور

محمد إبراهيم بكر

عميد ومؤسس المعهد العالى لحضارات الشرق الأدنى القديم ١٩٨٧ - ١٩٩٤ أول معهد من نوعه فى مصر ، ويضم قسماً خاصا بالجزيرة العربية (تاريخ وآثار ولغات) .

عميد كلية الآداب جامعة الزقازيق ١٩٨٠ - ١٩٨٦ .

رئيس مجلس إدارة هيئة الآثار المصرية ١٩٩١ - ١٩٩٣ .

عضو المجمع العلمى المصرى .

عضو المجالس القومية المتخصصة .

مؤسس متحف آثار جامعة الزقازيق أول متحف نوعى للموقع .

قام بتدريس مواد التاريخ القديم والآثار فى جامعات : مصر والسودان وليبيا وعمان وقطر والسعودية .

قام بإلقاء محاضرات فى ألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية والنرويج وفرنسا واليابان .

قام بإجراء حفائر أثرية فى منطقتى آثار تل بسطة وكفور نجم بالشرقية .

أشرف على إنشاء وتجديد عدد من المتاحف الأثرية والقصور والمبانى التاريخية فى القاهرة والإسكندرية وباقى أنحاء مصر ، وأنشأ متحف الوادى الجديد وامتداد متحف الأقصر .

حاصل على بعض الأوسمة وشهادات التقدير من هيئات مصرية وعالمية .

وله عدة مؤلفات وأبحاث منها :

* تاريخ السودان القديم - ١٩٧١ .
* قراءات فى تاريخ الإغريق القديم - ٢٠٠٠ .
* صفحات مشرقة فى تاريخ مصر القديمة - ١٩٩٠ .

المترجمة فى سطور

آمال محمد الروبى

حصلت على درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة ١٩٧٦ فى التاريخ القديم : اليونانى الرومانى ، وعلى منحة المجلس الثقافى البريطانى للدراسة فى مرحلة الدكتوراه عام ١٩٧٣ حيث درست فى هذه الفترة فى جامعة كمبردج البريطانية .

حصلت على ماچستير التاريخ اليونانى الرومانى جامعة القاهرة ١٩٧١ ، وعلى الليسانس من الجامعة نفسها عام ١٩٦٣ .

كانت أول معيدة تعين فى قسم التاريخ منذ إنشائه ، وأول سيدة فى مجال تخصص التاريخ اليونانى الرومانى .

قامت بالتدريس فى جامعة القاهرة منذ تخرجها حتى حصولها على درجة أستاذ مساعد ١٩٨٦ .

تم انتدابها للعمل فى جامعة الملك عبد العزيز ، كلية الآداب فى جدة ، ورأست قسم التاريخ ، قسم الطالبات ، فى الفترة من ١٩٨٧ إلى ١٩٨٣ ، ومازالت تعمل هناك حتى إعداد هذه الترجمة للنشر .

لها أربعة كتب منشورة فى مجال التخصص .

لها عدة أبحاث منشورة فى المؤتمرات العالمية والعربية التى شاركت فيها ، منها :

- مؤتمر البردى العالمى الثالث عشر ، أكسفورد ١٩٧٥ .
- مؤتمر سالونيك للدراسات اليونانية والعربية ١٩٨٠ .
- مؤتمر جمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون الخليجى : مسقط عمان ٢٠٠١ ، والشارقة - الإمارات ٢٠٠٢ ، والدوحة - قطر ٢٠٠٤

المؤلفة فى سطور

باتريشيا كرون

- ولدت فى الدانمارك ، وحصلت فيها على تعليمها الأساسى . أكملت دراستها الجامعية والعليا فى جامعة لندن ، وحصلت منها على درجة الدكتوراه من كلية الدراسات الشرقية والأفريقية عام ١٩٧٤ م .
- عملت فى كلية الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن من عام ١٩٧٤ إلى ١٩٧٧ .
- عملت فى جامعة كمبردج البريطانية من عام ١٩٧٧ إلى ١٩٩٧ .
- تعمل منذ عام ١٩٩٧ فى معهد الدراسات العليا المتقدمة فى جامعة برستون الأمريكية .
- لها تسعة كتب منشورة فى التاريخ والحضارة الإسلامية ، أحدها بالاشتراك مع الأستاذ بوك (م) .
- اشتركت فى إصدار سلسلة دراسات عن : القانون الإسلامى والدراسات الاجتماعية .
- تجيد اللغة العربية إجادة تامة إلى جانب العبرية، واللاتينية، واليونانية، والفرنسية ، والألمانية .
- يعد كتاب " تجارة مكة " الذى بين يدى القارئ الكتاب الرئيسى لدراسة تاريخ العرب قبل الإسلام فى الجامعات الأوروبية والأمريكية .